تفسير القرآن الكريم
بوضوح وبيان

د. مجيد الخليفة

الجزء السادس

تفسير القرآن الكريم
بوضوح وبيان

منشورات

الالكترونية

١٤٤٦هـ/٢٠٢٥

تفسير القرآن الكريم بوضوح وبيان

د. مجيد الخليفة

الجزء السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

سُمِّيَتْ هَذِهِ السُّورَةُ «سُورَةَ الْأَحْقَافِ» فِي جَمِيعِ الْمَصَاحِفِ وَكُتُبِ السُّنَّةِ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ ، وَوَرَدَتْ تَسْمِيَتُهَا بِهَذَا الِاسْمِ فِي كَلَامِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «أَقْرَأَنِي رَسُولُ اللهِ سُورَةً مِنْ آلِ حم وَهِيَ الْأَحْقَافُ» ، وَوَجْهُ تَسْمِيَتِهَا «الْأَحْقَافَ» وُرُودُ لِفْظِ (الْأَحْقَافِ) فِيهَا وَلَمْ يَرِدْ فِي غَيْرِهَا مِنْ سُوَرِ الْقُرْآنِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حم﴾ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ الَّتِي ابْتُدِئَتْ بِمِثْلِ هَذِهِ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ، وَأَنَّهَا تَحْمِلُ مَعْنَىٰ التَّحَدِّي وَالْإِعْجَازِ لِهَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُوَ مِنْ جِنْسِ هَذِهِ الْأَحْرُفِ .

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ ﴾ هَذَا تَنْزِيلُ الْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴿الْعَزِيزِ﴾ فِي انْتِقَامِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ ﴿الْحَكِيمِ﴾ فِي تَدْبِيرِهِ أَمْرَ خَلْقِهِ .

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ مَا أَحْدَثْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فَأَوْجَدْنَاهُمَا خَلْقًا مَصْنُوعًا، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ أَصْنَافِ الْعَالَمِ إِلَّا بِالْحَقِّ، يَعْنِي: إِلَّا لِإِقَامَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ فِي الْخَلْقِ ، ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّىٰ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ الْأَجَلُ الذي تنتهي إليه السماوات وَالْأَرْضُ، وَهُوَ إِشَارَةٌ

إِلَىٰ فَنَائِهِمَا، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا﴾ خُوِّفُوا بِهِ فِي الْقُرْآنِ مِنَ البعث الحساب، ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لَا يَتَّعِظُونَ بِهِ، وَلَا يَتَفَكَّرُونَ فَيَعْتَبِرُونَ .

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ مِنْ قَوْمِكَ: أَرَأَيْتُمْ أَيُّهَا الْقَوْمُ الْآلِهَةَ وَالْأَوْثَانَ الَّتِي تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أَيْ بِكِتَابٍ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ قَبْلَ الْقُرْآنِ فِيهِ بَيَانُ مَا تَقُولُونَ، ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ: أَيْ بَقِيَّةٍ مِنْ علم يؤثر علىٰ الْأَوَّلِينَ، أَيْ يُسْنَدُ إِلَيْهِمْ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَمُقَاتِلٌ: رِوَايَةٌ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: خَاصَّةٌ مِنْ عِلْمٍ، وَأَصْلُ الْكَلِمَةِ مِنَ الْأَثَرِ وَهُوَ الرِّوَايَةُ، يُقَالُ: أَثَرْتُ الْحَدِيثَ أَثْرًا وَأَثَارَةً، وَمِنْهُ قِيلَ لِلْخَبَرِ: أثر، قَالَ الطبري : والمَعْنَىٰ: أَوْ خَاصَّةٍ مِنْ عِلْمٍ أُوتِيتُمُوهُ، وَأُوثِرْتُمْ بِهِ عَلَىٰ غَيْرِكُمْ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِي دَعْوَاكُمْ لَهَا مَا تَدْعُونَ، فَإِنَّ الدَّعْوَىٰ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَهَا حُجَّةٌ لَمْ تُغْنِ عَنِ الْمُدَّعِي شَيْئًا.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ﴾ وَأَيُّ عَبْدٍ أَضَلُّ مِنْ عَبْدٍ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَا تَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ يَعْنِي الْأَصْنَامَ ، يَقُولُ: لَا تُجِيبُ دُعَاءَهُ أَبَدًا، لِأَنَّهَا حَجَرٌ أَوْ خَشَبٌ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ، وَلَا تُجِيبُ عَابِدِيهَا إِلَىٰ شَيْءٍ يَسْأَلُونَهَا، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعني أَبَدًا مَا دَامَتِ الدُّنْيَا؟ ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ لِأَنَّهَا جَمَادٌ ، وَهَذَا تَوْبِيخٌ مِنَ اللهِ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ لِسُوءِ رَأْيِهِمْ، وَقُبْحِ اخْتِيَارِهِمْ فِي عِبَادَتِهِمْ مَنْ لَا يَعْقِلُ شَيْئًا وَلَا يَفْهَمُ

وَتَرْكِهِمْ عِبَادَةِ مَنْ جَمِيعُ مَا بِهِمْ مِنْ نِعْمَتِهِ، وَمَنْ بِهِ اسْتِغَاثَتِهِمْ عِنْدَمَا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنَ الْحَوَائِجِ وَالْمَصَائِبِ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ يُرِيدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ أَيْ هَؤُلَاءِ الْمَعْبُودُونَ أَعْدَاءُ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَالْمَلَائِكَةُ أَعْدَاءُ الْكُفَّارِ، وَالْجِنُّ وَالشَّيَاطِينُ يَتَبَرَّءُونَ غَدًا مِنْ عَبَدَتْهُمْ، وَيَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْأَصْنَامُ لِلْكُفَّارِ الَّذِينَ عَبَدُوهَا أَعْدَاءً، عَلَىٰ تَقْدِيرِ خَلْقِ الْحَيَاةِ لَهَا، دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:﴿تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص : ٦٣] ، وَقِيلَ: عَادَوْا مَعْبُودَاتِهِمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا سَبَبُ هَلَاكِهِمْ، وَجَحَدَ الْمَعْبُودُونَ عِبَادَتَهُمْ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ﴾.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ وَإِذَا يُقْرَأُ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ مِنْ قَوْمِكَ آيَاتِنَا، يَعْنِي حُجَجَنَا الَّتِي احْتَجَجْنَاهَا عَلَيْهِمْ، فِيمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنْ كِتَابِنَا عَلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ يَعْنِي وَاضِحَاتٍ نَيِّرَاتٍ ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يُسَمُّونَ الْقُرْآنَ سِحْرًا، أي : يَبِينُ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ مِمَّنْ سَمِعَهُ أَنَّهُ سِحْرٌ مُبِينٌ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ مُحَمَّدٌ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، فَاخْتَلَقَهُ وَتَخَرَّصَهُ كَذِبًا ، فَقَالَ الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ لَا تَقْدِرُونَ أَنْ تَرُدُّوا عَنِّي عَذَابَهُ إِنْ عَذَّبَنِي عَلَىٰ افْتِرَائِي، فكيفا أَفْتَرِي عَلَىٰ اللهِ مِنْ أَجْلِكُمْ، ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ الله أعلم، يَقُولُ: رَبِّي أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ

شَيْءٍ سِوَاهُ بِمَا تَقُولُونَ بَيْنَكُمْ فِي هَذَا الْقُرْآنِ ﴿بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تَخُوضُونَ فِيهِ مِنَ التَّكْذِيبِ بِالْقُرْآنِ وَالْقَوْلِ فِيهِ إِنَّهُ سِحْرٌ، ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أَنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ مِنْ عِنْدِهِ، ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فِي تَأْخِيرِ الْعَذَابِ عَنْكُمْ، قَالَ الزَّجَّاجُ: هَذَا دُعَاءٌ لَهُمْ إِلَىٰ التَّوْبَةِ، مَعْنَاهُ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ غَفُورٌ لِمَنْ تَابَ مِنْكُمْ رَحِيمٌ بِهِ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي لَسْتُ بِأَوَّلِ مُرْسَلٍ، قَدْ بُعِثَ قَبْلِي كَثِيرٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَكَيْفَ تُنْكِرُونَ نُبُوَّتِي ، ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَعْنَىٰ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ مَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فَرِحَ الْمُشْرِكُونَ، فَقَالُوا: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ مَا أَمْرُنَا وَأَمْرُ مُحَمَّدٍ عِنْدَ اللهِ إِلَّا وَاحِدٌ، وَمَا لَهُ عَلَيْنَا مِنْ مَزِيَّةٍ وَفَضْلٍ، وَلَوْلَا أَنَّهُ ابْتَدَعَ مَا يَقُولُهُ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ لَأَخْبَرَهُ الَّذِي بَعَثَهُ بِمَا يُفعل بِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ. ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الْفَتْح: ٢] فَقَالَتِ الصَّحَابَةُ: هَنِيئًا لَكَ يَا نَبِيَّ اللهِ قَدْ عَلِمْنَا مَا يُفْعَلُ بِكَ، فَمَاذَا يُفْعَلُ بِنَا؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ [الفتح: ٥] الآية، وَأَنْزَلَ: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٤٧] فَبَيَّنَ اللهُ تَعَالَىٰ مَا يُفْعَلُ به ربهم وقالت جَمَاعَةٌ. قَوْلُهُ ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا، أَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ فِي الْجَنَّةِ، وَأَنَّ مَنْ كَذَّبَهُ فَهُوَ فِي النَّارِ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِيهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: «لَمَّا اشْتَدَّ الْبَلَاءُ بِأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرَىٰ النَّائِمُ وَهُوَ بِمَكَّةَ أَرْضًا ذَاتَ سِبَاخٍ وَنَخْلٍ رُفِعَتْ لَهُ يُهَاجِرُ إِلَيْهَا، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: مَتَىٰ تُهَاجِرُ إِلَىٰ الْأَرْضِ الَّتِي أُرِيتَ فَسَكَتَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ » ، أَأَتْرَكُ فِي مَكَانِي أَمْ أَخْرُجُ أنا وأنتم إِلَىٰ الْأَرْضِ الَّتِي رُفِعَتْ لِي، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِلَىٰ ماذا يصير عاقبة أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ فِي الدُّنْيَا، بِأَنْ أُقِيمَ مَعَكُمْ فِي مَكَانِكُمْ أَمْ أخرج كما خرجت الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلِي، أَمْ أُقْتَلَ كَمَا قُتِلَ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلِي، وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُصَدِّقُونَ لَا أَدْرِي تُخْرَجُونَ مَعِي أَمْ تُتْرَكُونَ، أَمْ ماذا يفعل بكم أَيُّهَا الْمُكَذِّبُونَ، أَتُرْمَوْنَ بِالْحِجَارَةِ مِنَ السماء أم يخسف بكم، أي شيء يفعل بكم، كما فُعِلَ بِالْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ؟ ثُمَّ أَخْبَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ يُظْهِرُ دِينَهُ عَلَىٰ الْأَدْيَانِ، فَقَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣] وَقَالَ فِي أُمَّتِهِ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الْأَنْفَالِ: ٣٣] فَأَخْبَرَ اللهُ مَا يُصْنَعُ به وأمته ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾أَيْ مَا أَتَّبِعُ إِلَّا الْقُرْآنَ وَلَا أَبْتَدِعُ مِنْ عِنْدِي شَيْئًا، ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ مَعْنَاهُ أَخْبِرُونِي مَاذَا تَقُولُونَ ﴿إِنْ كَانَ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ﴿مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ الْمِثْلُ: صِلَةٌ يَعْنِي عَلَيْهِ، أَيْ عَلَىٰ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ، ﴿فَآمَنَ﴾ يعني الشاهد، ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان به وَاخْتَلَفُوا فِي هَذَا، الشَّاهِدِ قَالَ

قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ: هُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ، شَهِدَ عَلَىٰ نُبُوَّةِ الْمُصْطَفَىٰ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآمَنَ بِهِ، وَاسْتَكْبَرَ الْيَهُودُ فَلَمْ يؤمنوا، وَقَالَ الْآخَرُونَ: الشَّاهِدُ هُوَ مُوسَىٰ ابْنُ عِمْرَانَ، وَقَالَ الشَّعْبِيُّ قَالَ مَسْرُوقٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: وَاللهِ مَا نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللهِ ابن سلام، لأن حم نَزَلَتْ بِمَكَّةَ وَإِنَّمَا أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ بِالْمَدِينَةِ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي مُحَاجَّةٍ كَانَتْ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقَوْمِهِ، وَمِثْلُ الْقُرْآنِ التَّوْرَاةُ فَشَهِدَ مُوسَىٰ عَلَىٰ التَّوْرَاةِ وَمُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ القرآن، وَكُلُّ وَاحِدٍ يُصَدِّقُ الْآخَرَ، وَقِيلَ: هُوَ نَبِيٌّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فآمن واستكبرتم فلم تؤمنوا.

[١١] قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنَ الْيَهُودِ، ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ﴾ دِينُ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ يَعْنِي عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلَامٍ وَأَصْحَابَهُ، وَقَالَ قَتَادَةُ نَزَلَتْ فِي مُشْرِكِي مَكَّةَ، قَالُوا: لَوْ كَانَ مَا يَدْعُونَا إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ خَيْرًا مَا سَبَقَنَا إِلَيْهِ فَلَانٌ وَفُلَانٌ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: الَّذِينَ كَفَرُوا أَسَدٌ وَغَطَفَانُ، قَالُوا لِلَّذِينِ آمَنُوا يَعْنِي جُهَيْنَةَ وَمُزَيْنَةَ: لَوْ كَانَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ خَيْرًا مَا سَبَقَنَا إِلَيْهِ رِعَاءُ الْبُهُمِ: قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ يَعْنِي بِالْقُرْآنِ كَمَا اهْتَدَىٰ بِهِ أَهْلُ الْإِيمَانِ، ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ كَمَا قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ أَيْ وَمِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ ﴿كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ يعني التوراة، ﴿إِمَامًا﴾ يقتدىٰ به ﴿وَرَحْمَةً﴾ مِنَ اللهِ لِمَنْ آمَنَ بِهِ ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾ أَيِ الْقُرْآنُ مُصَدِّقٌ لِلْكُتُبِ الَّتِي قبله ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ نُصِبَ عَلَىٰ الْحَالِ،

وَقِيلَ: بِلِسَانٍ عربي، ﴿لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يَعْنِي مُشْرِكِي مَكَّةَ، قَرَأَ أَهْلُ الْحِجَازِ وَالشَّامِ وَيَعْقُوبُ: لِتُنْذِرَ بِالتَّاءِ عَلَىٰ خِطَابِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَرَأَ الْآخَرُونَ بِالْيَاءِ يعني الكتاب، ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أَيْ هَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ وَبُشْرَىٰ، أَيْ مُشْتَمِلٌ عَلَىٰ النِّذَارَةِ لِلْكَافِرِينَ وَالْبِشَارَةِ للمؤمنين.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ﴾ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ عَلَىٰ تَصْدِيقِهِمْ بِذَلِكَ فَلَمْ يَخْلِطُوهُ بِشِرْكٍ، وَلَمْ يُخَالِفُوا اللهَ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مِنْ فَزَعِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهِ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عَلَىٰ مَا خَلَّفُوا وَرَاءَهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالُوا هَذَا الْقَوْلَ، وَاسْتَقَامُوا أَهْلُ الْجَنَّةِ وَسُكَّانُهَا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مَاكِثِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ثَوَابًا مِنَّا لَهُمْ آتَيْنَاهُمْ ذَلِكَ عَلَىٰ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ الَّتِي كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَعْمَلُونَهَا .

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ يُرِيدُ شِدَّةَ الطَّلْقِ ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ﴾ فطامه ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ يُرِيدُ أَقَلَّ مُدَّةَ الْحَمْلِ وَهِيَ سِتَّةُ أَشْهُرٍ وَأَكْثَرَ مُدَّةِ الرِّضَاعِ أربعة وعشرون شَهْرًا، ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ نِهَايَةَ قُوَّتِهِ، وَغَايَةَ شَبَابِهِ وَاسْتِوَائِهِ، وَهُوَ مَا بَيْنَ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً إِلَىٰ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَذَلِكَ قوله: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ وَقَالَ السُّدِّيُّ وَالضَّحَّاكُ: نَزَلَتْ فِي سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وَقَدْ مَضَتِ الْقِصَّةُ ، وَقَالَ الْآخَرُونَ:

نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَأَبِيهِ قُحَافَةَ عُثْمَانَ بْنِ عَمْرٍو، وَأُمِّهِ أُمِّ الْخَيْرِ بِنْتِ صَخْرِ بْنِ عَمْرٍو ، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ أَسْلَمَ أَبَوَاهُ جَمِيعًا وَلَمْ يَجْتَمِعْ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أسلم أَبَوَاهُ غَيْرُهُ، أَوْصَاهُ اللهُ بِهِمَا، وَلَزِمَ ذَلِكَ مِنْ بَعْدِهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ صَحِبَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً وَالنَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابْنُ عِشْرِينَ سنة في تجارة الشَّامِ، فَلَمَّا بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ونُبِّئ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آمَنَ بِهِ وَدَعَا رَبَّهُ فـ ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أَلْهِمْنِي، أَيْ أَلْهِمْنِي وَاجْمَعْ لِي كُلِّيَّتِي وَجَوارِحِي عَلَىٰ شُكْرِكَ، فَكَأَنَّ الْعَبْدَ يَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَمْنَعَهُ (يُوزِعَهُ) مِنَ التَّشَتُّتِ فِي غَيْرِ الشُّكْرِ، وَيَحْبِسَ نَفْسَهُ عَلَيْهِ ، ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ بِالْهِدَايَةِ وَالْإِيمَانِ، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَأَجَابَهُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- فَأَعْتَقَ تِسْعَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يُعَذَّبُونَ فِي اللهِ، وَلَمْ يُرِدْ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا أَعَانَهُ اللهُ عَلَيْهِ، وَدَعَا أَيْضًا فَقَالَ: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ فَأَجَابَهُ اللهُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ إِلَّا آمَنُوا جَمِيعًا، فَاجْتَمَعَ لَهُ إِسْلَامُ أَبَوَيْهِ وَأَوْلَادِهِ جَمِيعًا فَأَدْرَكَ أَبُو قُحَافَةَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَابْنُهُ أَبُو بَكْرٍ وَابْنُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَابْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَبُو عَتِيقٍ كُلُّهُمْ أَدْرَكُوا النَّبِيَّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِأَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ، قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ تُبْتُ مِنْ ذُنُوبِي الَّتِي سَلَفَتْ مِنِّي فِي سَالِفِ أَيَامَىٰ إِلَيْكَ ، وَإِنِّي مِنَ الْخَاضِعِينَ لَكَ بِالطَّاعَةِ، الْمُسْتَسْلِمِينَ لِأَمْرِكَ وَنَهْيِكَ، الْمُنْقَادِينَ لِحُكْمِكَ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ يَعْنِي أَعْمَالَهُمُ الصَّالِحَةَ الَّتِي عَمِلُوهَا فِي الدنيا، وكلها حسن، والأحسن بِمَعْنَىٰ الْحَسَنِ، فَيُثِيبُهُمْ عَلَيْهَا، ﴿وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ فلا نعاقبهم عليها ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ مَعَ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ، ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ وَهُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التَّوْبَة: ٧٢].

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ﴾ إِذْ دَعَوَاهُ إِلَىٰ الْإِيمَانِ بِاللهِ والإقرار بالبعث، ﴿أُفٍّ لَكُمَا﴾ وَهِيَ كَلِمَةُ كَرَاهِيَةٍ، ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ مِنْ قَبْرِي حَيًّا، ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ فَلَمْ يُبْعَثْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ﴾ يَسْتَصْرِخَانِ وَيَسْتَغِيثَانِ اللهَ عَلَيْهِ وَيَقُولَانِ لَهُ، ﴿وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا﴾ مَا هَذَا الَّذِي تَدْعُوَانِي إِلَيْهِ، ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالسُّدِّيُّ وَمُجَاهِدٌ: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللهِ، وَقِيلَ فِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ قَبْلَ إِسْلَامِهِ، كَانَ أَبَوَاهُ يَدْعُوَانِهِ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ وَهُوَ يَأْبَىٰ، وَيَقُولُ: أَحْيُوا لِي عَبْدَ اللهِ ابْنَ جُدْعَانَ وَعَامِرَ بْنَ كَعْبٍ وَمَشَايِخَ قُرَيْشٍ حَتَّىٰ أَسْأَلَهُمْ عَمَّا تَقُولُونَ، وَأَنْكَرَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي كَافِرٍ عَاقٍّ لِوَالِدَيْهِ، قَالَهُ الْحَسَنُ وقَتَادَةُ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: قَوْلُ مَنْ قَالَ إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ قَبْلَ إِسْلَامِهِ، يُبْطِلُهُ قَوْلُهُ:

[١٨] : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ ، أَعْلَمَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ مُؤْمِنٌ مِنْ أَفَاضِلِ الْمُسْلِمِينَ فَلَا يَكُونُ مِمَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ، وَمَعْنَىٰ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ وَجَبَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ ﴾ مَعَ أُمَمٍ، ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَجَبَ عَلَيْهِمْ عَذَابُ اللهِ، وَحَلَّتْ بِهِمْ عُقُوبَتُهُ وَسَخَطُهُ، فِيمَنْ حَلَّ بِهِ عَذَابُ اللهِ عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي حَلَّ بِهَؤُلَاءِ مِنَ الْأُمَمِ الَّذِينَ مَضَوْا قَبْلَهُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَ اللهِ، وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ .

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: يُرِيدُ مَنْ سَبَقَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ، فَهُوَ أَفْضَلُ مِمَّنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ ولو بساعة، قَالَ مُقَاتِلٌ: وَلِكُلٍّ فَضَائِلُ بِأَعْمَالِهِمْ فَيُوَفِّيهِمُ اللهُ جَزَاءَ أَعْمَالِهِمْ ، وَقِيلَ: وَلِكُلٍّ يَعْنِي وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ المؤمنين والكافرين درجات، يعني مَنَازِلُ، وَمَرَاتِبُ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَعْمَالِهِمْ، فَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهَا، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ درج أهل النار تذهب سفالا، وَدَرَجُ أَهْلُ الْجَنَّةِ تَذْهَبُ عُلُوًا ، ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ وَلِيُعْطَىٰ جَمِيعُهُمْ أُجُورَ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا فِي الدُّنْيَا، الْمُحْسِنُ مِنْهُمْ بِإِحْسَانِهِ مَا وَعَدَ اللهُ مِنَ الْكَرَامَةِ، وَالْمُسِيءُ مِنْهُمْ بِإِسَاءَتِهِ مَا أَعَدَّهُ مِنَ الْجَزَاءِ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ جَمِيعُهُمْ لَا يُظْلَمُونَ: لَا يُجَازَىٰ الْمُسِيءُ مِنْهُمْ إِلَّا

عُقُوبَةً عَلَىٰ ذَنْبِهِ، لَا عَلَىٰ مَا لَمْ يَعْمَلْ، وَلَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ ذَنْبُ غَيْرِهِ، وَلَا يُبْخَسُ الْمُحْسِنُ مِنْهُمْ ثَوَابَ إِحْسَانِهِ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ فَيُقَالُ لَهُمْ ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَابْنُ عَامِرٍ وَأَبُو جَعْفَرٍ وَيَعْقُوبُ: ﴿ءَأَذْهَبْتُمْ﴾ ، بِالِاسْتِفْهَامِ، وَيَهْمِزُ ابْنُ عَامِرٍ هَمْزَتَيْنِ، وَالْآخَرُونَ بِلَا اسْتِفْهَامٍ عَلَىٰ الْخَبَرِ ، وَكِلَاهُمَا فَصِيحَانِ ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ تَسْتَفْهِمُ بِالتَّوْبِيخِ، وتترك الِاسْتِفْهَامِ فَتَقُولُ: أَذَهَبْتَ فَفَعَلْتَ كَذَا؟ ﴿وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ يقول: أذهبت طَيِّبَاتِكُمْ يَعْنِي اللَّذَّاتِ وَتَمَتَّعْتُمْ بِهَا ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أَيِ الْعَذَابَ الَّذِي فِيهِ ذُلٌّ وخزي، ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ تتكبَّرونَ، ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ فَلَمَّا وَبَّخَ اللهُ الْكَافِرِينَ بِالتَّمَتُّعِ بِالطَّيِّبَاتِ فِي الدُّنْيَا آثَرَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ الصالحون اجْتِنَابَ اللَّذَّاتِ فِي الدُّنْيَا رَجَاءَ ثواب الآخرة.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ يَعْنِي نَبِيَّ اللهِ هُودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ﴿إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْأَحْقَافُ: وَادٍ بَيْنَ عُمَانَ وَمَهْرَةَ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: كَانَتْ مَنَازِلُ عَادٍ بِالْيَمَنِ فِي حَضْرَمَوْتَ بِمَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ: مَهْرَةُ وَإِلَيْهَا تُنْسَبُ الْإِبِلُ الْمَهْرِيَّةُ، وَكَانُوا أَهْلَ عُمُدٍ سَيَّارَةٍ فِي الرَّبِيعِ ، فَإِذَا هَاجَ الْعُودُ رَجَعُوا إِلَىٰ مَنَازِلِهِمْ، وَكَانُوا مِنْ قَبِيلَةِ إِرَمَ ، قَالَ قَتَادَةُ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ عَادًا كَانُوا أَحْيَاءً بِالْيَمَنِ وَكَانُوا أَهْلَ رَمْلٍ مُشْرِفِينَ عَلَىٰ الْبَحْرِ بأرض يقال لها الشِّحْر ، وَالْأَحْقَافُ: جَمْعُ

حِقْفٍ وَهُوَ مِنَ الرَّمَلِ مَا اسْتَطَالَ، وَلَمْ يَبْلُغْ أَنْ يَكُونَ جَبَلًا، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هِيَ مَا اسْتَطَالَ مِنَ الرَّمْلِ، كَهَيْئَةِ الْجَبَلِ وَلَمْ يَبْلُغْ أَنْ يَكُونَ جَبَلًا، قَالَ الْكِسَائِيُّ: هِيَ ما استدار من الرمال، ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ﴾ مَضَتِ الرُّسُلُ، ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أَيْ مِنْ قَبْلِ هُودٍ، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾أَنْ لَا تُشْرِكُوا مَعَ اللهِ شَيْئًا فِي عِبَادَتِكُمْ إِيَّاهُ، بَلْ أَخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ، وَأَفْرِدُوا لَهُ الْأُلُوهَةَ، وَقَدْ كَانُوا أَهْلَ أَوْثَانٍ يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ، فَقَالَ لَهُمْ نَاصِحًا ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ لتصرفنا، أَيْ: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْقَصْدِ وَلَا مَعَكَ مِنَ الْحَقِّ إِلَّا أَنَّكَ حَسَدْتَنَا عَلَىٰ آلِهَتِنَا فَأَرَدْتَ أَنْ تَصْرِفَنَا عَنْهَا، ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أَيْ عَنْ عِبَادَتِهَا، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ مِنَ الْعَذَابِ، ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أَنَّ الْعَذَابَ نَازِلٌ بِنَا.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ هُودٌ، ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ﴾ وَهُوَ يَعْلَمُ مَتَىٰ يَأْتِيكُمُ الْعَذَابُ ، فَهُوَ الَّذِي بِيَدِهِ أَزِمَّةُ الْأُمُورِ وَمَقَالِيدُهَا، وَهُوَ الَّذِي يَأْتِيكُمْ بِالْعَذَابِ إِنْ شَاءَ،﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾مِنَ الْوَحْيِ ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ مَوَاضِعَ حُظُوظِ أَنْفُسِكُمْ، فَلَا تَعْرِفُونَ مَا عَلَيْهَا مِنَ الْمَضَرَّةِ بِعِبَادَتِكُمْ غَيْرَ اللهِ، وَفِي اسْتِعْجَالِ عَذَابِهِ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ يَعْنِي مَا يُوعَدُونَ بِهِ مِنَ العذاب، ﴿عَارِضًا﴾ سَحَابًا يَعْرِضُ أَيْ يَبْدُو فِي نَاحِيَةٍ مِنَ السَّمَاءِ ثُمَّ يُطَبِّقُ السماء،

﴿مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ فَخَرَجَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ سَوْدَاءُ مِنْ وَادٍ لَهُمْ يُقَالُ لَهُ: الْمُغِيثُ، وَكَانُوا قَدْ حُبِسَ عَنْهُمُ الْمَطَرُ، فَلَمَّا رَأَوْهَا اسْتَبْشَرُوا، ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَحْمِلُ الْفُسْطَاطَ وَتَحْمِلُ الظَّعِينَةَ حَتَّىٰ تُرَىٰ كَأَنَّهَا جَرَادَةٌ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مَرَّتْ بِهِ مِنْ رِجَالِ عَادٍ وأموالها، ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ فَأَوَّلُ مَا عَرَفُوا أَنَّهَا عَذَابٌ رَأَوْا مَا كَانَ خَارِجًا مِنْ دِيَارِهِمْ مِنَ الرِّجَالِ وَالْمَوَاشِي تَطِيرُ بِهِمُ الرِّيحُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَدَخَلُوا بُيُوتَهُمْ وَأَغْلَقُوا أَبْوَابَهُمْ فَجَاءَتِ الرِّيحُ فَقَلَعَتْ أَبْوَابَهُمْ وَصَرَعَتْهُمْ، وَأَمَرَ اللهُ الرِّيحَ فَأَمَالَتْ عَلَيْهِمُ الرِّمَالَ، وكانوا تَحْتَ الرَّمْلِ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ، لَهُمْ أَنِينٌ، ثُمَّ أَمَرَ اللهُ الرِّيحَ فَكَشَفَتْ عَنْهُمُ الرِّمَالَ فَاحْتَمَلَتْهُمْ فَرَمَتْ بِهِمْ فِي الْبَحْرِ ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ قَرَأَ عَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَيَعْقُوبُ (يُرَىٰ) بِضَمِّ الْيَاءِ (مَسَاكِنُهُمْ) بِرَفْعِ النُّونِ يَعْنِي لَا يُرَىٰ شَيْءٌ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ بِالتَّاءِ وَفَتْحِهَا، (مَسَاكِنَهُمْ) نَصْبٌ يَعْنِي لَا تَرَىٰ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ لِأَنَّ السُّكَّانَ وَالْأَنْعَامَ بَادَتْ بِالرِّيحِ، فليم يَبْقَ إِلَّا هُودٌ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ يَعْنِي فِيمَا لَمْ نُمَكِّنْكُمْ فِيهِ مِنْ قُوَّةِ الْأَبْدَانِ وَطُولِ الْعُمْرِ وَكَثْرَةِ الْمَالِ ، قَالَ الْمُبَرِّدُ: (مَا) فِي قَوْلِهِ (فِيمَا) بِمَنْزِلَةِ الَّذِي، (إِنَّ) بِمَنْزِلَةِ مَا، وَتَقْدِيرُهُ: وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الَّذِي مَا

مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا﴾ يَسْمَعُونَ بِهِ مَوَاعِظَ رَبِّهِمْ، وَأَبْصَارًا يُبْصِرُونَ بِهَا حُجَجَ اللهِ، وَأَفْئِدَةً يَعْقِلُونَ بِهَا مَا يَضُرُّهُمْ وَيَنْفَعُهُمْ ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يَقُولُ: فَلَمْ يَنْفَعْهُمْ مَا أَعْطَاهُمْ مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْفُؤَادِ إِذْ لَمْ يَسْتَعْمِلُوهَا فِيمَا أُعْطُوهَا لَهُ، وَلَمْ يُعْمِلُوهَا فِيمَا يُنْجِيهِمْ مِنْ عِقَابِ اللهِ، وَلَكِنَّهُمُ اسْتَعْمَلُوهَا فِيمَا يُقَرِّبُهُمْ مِنْ سَخَطِهِ ﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ يَقُولُ: إِذْ كَانُوا يُكَذِّبُونَ بِحُجَجِ اللهِ وَهُمْ رُسُلُهُ، وَيُنْكِرُونَ نُبُوَّتَهُمْ ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وَنَزَلَ بِهِمْ مَا سَخِرُوا بِهِ، فَاسْتَعْجَلُوا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ، وَهَذَا وَعِيدٌ مِنَ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لِقُرَيْشٍ، يَقُولُ لَهُمْ: فَاحْذَرُوا أَنْ يَحِلَّ بِكُمْ مِنَ الْعَذَابِ عَلَىٰ كُفْرِكُمْ بِاللهِ وَتَكْذِيبِكُمْ رُسُلَهُ، مَا حَلَّ بِعَادٍ، وَبَادِرُوا بِالتَّوْبَةِ قَبْلَ النِّقْمَةِ

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ، ﴿مِنَ الْقُرَىٰ﴾ كَحِجْرِ ثَمُودٍ وَأَرْضِ سَدُومَ وَنَحْوِهِمَا، فَأَنْذَرْنَا أَهْلَهَا بِالْمَثُلَاتِ، وَخَرَّبْنَا دِيَارَهَا، فَجَعَلْنَاهَا خَاوِيَةً عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ الحجج والبينات، وَذَكَّرْنَاهُمْ بِضُرُوبٍ مِنَ الذِّكْرِ وَالْحُجَجِ، وَبَيَّنَّا لَهُمْ ذَلِكَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عَنْ كُفْرِهِمْ فَلَمْ يَرْجِعُوا، فَأَهْلَكْنَاهُمْ، لِيَرْجِعُوا عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مُقِيمِينَ مِنَ الْكُفْرِ بِاللهِ وَآيَاتِهِ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَوْلَا﴾ فَهَلَّا ﴿نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ يعني الأوثان التي اتَّخَذُوهَا آلِهَةً يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ،

وَالْقُرْبَانُ كُلُّ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَجَمْعُهُ قَرَابِينُ، كَالرُّهْبَانِ والرهابين، ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ بَلْ ضَلَّتِ الْآلِهَةُ عَنْهُمْ فَلَمْ تَنْفَعْهُمْ عِنْدَ نُزُولِ العذاب، ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ أَيْ كَذِبُهُمُ الَّذِي كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّهَا تُقَرِّبُهُمْ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَشْفَعُ لَهُمْ، ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يكذبون أنها آلهة.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ اخْتَلَفُوا فِي عَدَدِ ذَلِكَ النَّفَرِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانُوا سَبْعَةً مِنْ جِنِّ نَصِيبِينَ، فَجَعَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ. وَقَالَ آخَرُونَ: كَانُوا تِسْعَةً. وَرَوَىٰ عَاصِمٌ عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ: كَانَ زَوْبَعَةُ مِنَ التِّسْعَةِ الَّذِينَ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ. ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ قالوا: صه، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَنْصِتُوا وَاسْكُتُوا لِنَسْتَمِعَ إِلَىٰ قِرَاءَتِهِ، فَلَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الِاسْتِمَاعِ شَيْءٌ، فَأَنْصَتُوا وَاسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ، حَتَّىٰ كَادَ يَقَعُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْ شِدَّةِ حرصهم، ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ فَرَغَ مِنْ تِلَاوَتِهِ، ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ انصرفوا إليهم، ﴿مُنْذِرِينَ﴾ مُخَوِّفِينَ دَاعِينَ بِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قَالَ عَطَاءٌ: كَانَ دِينُهُمُ الْيَهُودِيَّةُ، لِذَلِكَ قَالُوا: إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أَنْزِلُ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ (مِنْ) صِلَةٌ أَيْ ذُنُوبِكُمْ، ﴿وَيُجِرْكُمْ

مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مَبْعُوثًا إِلَىٰ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ جَمِيعًا، قَالَ مُقَاتِلٌ: لَمْ يُبْعَثْ قَبْلَهُ نَبِيٌّ إِلَىٰ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ جَمِيعًا، وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي حُكْمِ مُؤْمِنِي الْجِنِّ، فقال: لَيْسَ لَهُمْ ثَوَابٌ إِلَّا نَجَاتُهُمْ من النار، وَحَكَىٰ سُفْيَانُ عَنْ لَيْثٍ قَالَ: الْجِنُّ ثَوَابُهُمْ أَنْ يُجَارُوا مِنَ النَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ كُونُوا ترابـًا، وهذا مثل البهائم ، وَقَالَ الْآخَرُونَ: يَكُونُ لَهُمُ الثَّوَابُ فِي الْإِحْسَانِ كَمَا يَكُونُ عَلَيْهِمُ العقاب في الإساءة كالإنس ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: الْجِنُّ يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: إِنَّ مُؤْمِنِي الْجِنِّ حَوْلَ الْجَنَّةِ فِي رَبَضٍ وَرِحَابٍ وَلَيْسُوا فِيهَا.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ لَا يُعْجِزُ اللهَ فَيَفُوتُهُ، ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءُ﴾ أَنْصَارٌ يَمْنَعُونَهُ مِنَ اللهِ ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ .

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ لَمْ يَعْجِزْ عَنْ إِبْدَاعِهِنَّ، ﴿بِقَادِرٍ﴾ هَكَذَا قِرَاءَةُ الْعَامَّةِ، وَاخْتَلَفُوا فِي وَجْهِ دُخُولِ الْبَاءِ فِيهِ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَالْأَخْفَشُ: الْبَاءُ زَائِدَةٌ للتأكيد، كقوله: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] وَقَالَ الْكِسَائِيُّ وَالْفَرَّاءُ: الْعَرَبُ تُدْخِلُ الْبَاءَ فِي الِاسْتِفْهَامِ مَعَ الْجَحْدِ فتقول: ما أظنك بقائم ﴿عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ فَيُقَالُ لَهُمْ، ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ﴾ أَيْ فَيُقَالُ لَهُمْ، ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ .

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ذَوُو الْحَزْمِ ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ذَوُو الْجِدِّ وَالصَّبْرِ، وَاخْتَلَفُوا فِيهِمْ، فَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: كُلُّ الرُّسُلِ كَانُوا أُولِي عَزْمٍ لَمْ يَبْعَثِ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا كَانَ ذَا عَزْمٍ وَحَزْمٍ، وَرَأْيٍ وَكَمَالِ عَقْلٍ، وَإِنَّمَا أُدْخِلَتْ مِنْ لِلتَّجْنِيسِ لَا لِلتَّبْعِيضِ ، كَمَا يُقَالُ: اشْتَرَيْتُ أَكْسِيَةً مِنَ الْخَزِّ وَأَرْدِيَةً مِنَ الْبَزِّ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْأَنْبِيَاءُ كُلُّهُمْ أُولُو عَزْمٍ إِلَّا يُونُسَ بْنَ مَتَّىٰ لِعَجَلَةٍ كَانَتْ مِنْهُ، أَلَا تَرَىٰ أَنَّهُ قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] وَقَالَ قَوْمٌ: هُمْ نُجَبَاءُ الرُّسُلِ المذكورين فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، وَهُمْ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ بَعْدَ ذِكْرِهِمْ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ [الْأَنْعَامِ: ٩٠] وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: هُمُ الَّذِينَ أُمِرُوا بِالْجِهَادِ وَأَظْهَرُوا الْمُكَاشَفَةَ مَعَ أَعْدَاءِ الدِّينِ، وَقِيلَ: هُمْ سِتَّةٌ: نُوحٌ وَهُودٌ وَصَالِحٌ وَلُوطٌ وَشُعَيْبٌ وَمُوسَىٰ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَهُمُ الْمَذْكُورُونَ عَلَىٰ النَّسَقِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَالشُّعَرَاءِ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: هُمْ سِتَّةٌ: نُوحٌ صَبَرَ عَلَىٰ أَذَىٰ قَوْمِهِ، وَإِبْرَاهِيمُ صَبَرَ عَلَىٰ النَّارِ، وَإِسْحَاقُ صَبَرَ عَلَىٰ الذَّبْحِ، وَيَعْقُوبُ صَبَرَ عَلَىٰ فَقْدِ وَلَدِهِ وَذَهَابِ بَصَرِهِ، وَيُوسُفُ صَبَرَ عَلَىٰ الْبِئْرِ وَالسِّجْنِ، وَأَيُّوبُ صَبَرَ عَلَىٰ الضُّرِّ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وقَتَادَةُ: هُمْ نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَصْحَابُ

الشَّرَائِعِ، فَهُمْ مَعَ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمْسَةٌ، قُلْتُ: ذَكَرَهُمُ اللهُ عَلَىٰ التَّخْصِيصِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الْأَحْزَابِ: ٧] وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾ [الشورىٰ: ١٣] الآية.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ أَيْ وَلَا تَسْتَعْجِلِ الْعَذَابَ لَهُمْ، فَإِنَّهُ نَازِلٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ، كَأَنَّهُ ضَجِرَ بَعْضَ الضَّجَرِ فَأَحَبَّ أَنْ يَنْزِلَ الْعَذَابُ بِمَنْ أَبَىٰ مِنْهُمْ، فَأُمِرَ بِالصَّبْرِ وَتَرْكِ الِاسْتِعْجَالِ، ثُمَّ أُخْبِرَ عَنْ قُرْبِ الْعَذَابِ فَقَالَ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ مِنَ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ، ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ فِي الدُّنْيَا، ﴿إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ أَيْ إِذَا عَايَنُوا الْعَذَابَ صَارَ طُولُ لُبْثِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْبَرْزَخِ كَأَنَّهُ سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، لِأَنَّ مَا مَضَىٰ وَإِنْ كَانَ طَوِيلًا كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ، ثُمَّ قَالَ: ﴿بَلَاغٌ﴾ أَيْ هَذَا الْقُرْآنُ وَمَا فِيهِ مِنَ الْبَيَانِ بَلَاغٌ مِنَ اللهِ إِلَيْكُمْ، وَالْبَلَاغُ بِمَعْنَىٰ التَّبْلِيغِ، ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ بِالْعَذَابِ إِذَا نَزَلَ ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الْخَارِجُونَ مِنْ أَمْرِ اللهِ، قَالَ الزَّجَّاجُ: تَأْوِيلُهُ لَا يَهْلَكُ مَعَ رَحْمَةِ اللهِ وَفَضْلِهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ، وَلِهَذَا قَالَ قَوْمٌ: مَا فِي الرَّجَاءِ لِرَحْمَةِ اللهِ آيَةٌ أَقْوَىٰ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَحْقَافِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

سُمِّيَتْ هَذِهِ السُّورَةُ فِي كُتُبِ السُّنَّةِ سُورَةَ مُحَمَّدٍ ، وَتُسَمَّىٰ سُورَةَ الْقِتَالِ، وَسَبَبُ تَسْمِيَتِهَا بِالِاسْمِ الْأَوَّلِ لِأَنَّهَا ذُكِرَ فِيهَا اسْمُ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَفِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ مِنْهَا فعُرِفَتْ بِهِ قَبْلَ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ الَّتِي فِيهَا : ﴿وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ، وَأَمَّا تَسْمِيَتُهَا سُورَة الْقِتَال ؛ فَلِأَنَّهَا ذُكِرَتْ فِيهَا مَشْرُوعِيَّةُ الْقِتَالِ، وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمْ أَهْلُ مَكَّةَ كَفَرُوا بِتَوْحِيدِ اللهِ، وَصَدُّوا أَنْفُسَهُمْ وَالْمُؤْمِنِينَ عَنْ دِينِ اللهِ وَهُوَ الْإِسْلَامُ بِنَهْيِهِمْ عَنِ الدُّخُولِ فِيهِ، ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أَبْطَلَهَا فَلَمْ يَقْبَلْهَا، والصدّ عَن سَبِيل: هُوَ صَرْفُ النَّاسِ عَنْ مُتَابَعَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَأَرَادَ بِالْأَعْمَالِ مَا فَعَلُوا مِنْ إِطْعَامِ الطَّعَامِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، قَالَ الضَّحَّاكُ: أَبْطَلَ كَيْدَهُمْ وَمَكْرَهُمْ بِالنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَعَلَ الدَّائِرَةَ عَلَيْهِمْ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ عَطْفُ خَاصٍّ عَلَىٰ عَامٍّ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُ شَرْطٌ فِي صحة الإيمان بعد بعثته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: يَعْنِي لَمْ يُخَالِفُوهُ فِي شَيْءٍ،

﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عنهما-: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا﴾ مُشْرِكُو مَكَّةَ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ : الْأَنْصَارُ، ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ حَالَهُمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمَا: عَصَمَهُمْ أَيَّامَ حَيَاتِهِمْ، يَعْنِي أَنَّ هَذَا الْإِصْلَاحَ يَعُودُ إِلَىٰ إِصْلَاحِ أَعْمَالِهِمْ حَتَّىٰ لَا يَعْصُوا ، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ : وَالْبَالُ: يُطْلَقُ عَلَىٰ الْقَلْبِ، أَيِ الْعَقْلُ وَمَا يَخْطُرُ لِلْمَرْءِ مِنَ التَّفْكِيرِ وَهُوَ أَكْثَرُ إِطْلَاقِهِ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: مَا بَالُكَ؟ أَيْ مَاذَا ظَنَنْتَ حِينَ فَعَلْتَ كَذَا، وفي حَدِيثِ تَشْمِيتِ الْعَاطِسِ «يَهْدِيكُمُ اللهُ وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ»، صْلَاحُ الْبَالِ يَجْمَعُ إِصْلَاحَ الْأُمُورِ كُلِّهَا لِأَنَّ تَصَرُّفَاتِ الْإِنْسَانِ تَأْتِي عَلَىٰ حَسَبِ رَأْيِهِ، فَالتَّوْحِيدُ أَصْلُ صَلَاحِ بَالِ الْمُؤْمِنِ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ الشَّيْطَانَ، وقيل : الشِّرْكُ ، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ، وقيل : التَّوْحِيدُ وَالْإِيمَانُ ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أَيْ كَهَذَا الْبَيَانِ الَّذِي بُيِّنَ يُبَيِّنُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْرَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، قَالَ الزَّجَّاجُ: كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ أَمْثَالَ حَسَنَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِضْلَالِ أَعْمَالِ الْكَافِرِينَ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أَيْ: فَاضْرِبُوا رِقَابَهُمْ يَعْنِي: أَعْنَاقَهُمْ ، قَالَ الزَّجَّاجُ أَيْ فَاضْرِبُوا الرِّقَابَ ضَرْبًا، وَخَصَّ الرِّقَابَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّ الْقَتْلَ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ بِهَا ، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ﴾ بَالَغْتُمْ فِي الْقَتْلِ وَقَهَرْتُمُوهُمْ، وَالْإِثْخَانُ: الْغَلَبَةُ لِأَنَّهَا تَتْرُكُ الْمَغْلُوبَ كَالشَّيْءِ الْمُثْخَنِ وَهُوَ

الثَّقِيلُ الصُّلْبُ الَّذِي لَا يَخِفُّ لِلْحَرَكَةِ ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ يَعْنِي فِي الْأَسْرِ حَتَّىٰ لَا يُفْلِتُوا مِنْكُمْ، وَالْأَسْرُ يَكُونُ بَعْدَ الْمُبَالَغَةِ فِي الْقَتْلِ، قوله ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ يَعْنِي بَعْدَ أَنْ تَأْسِرُوهُمْ فَإِمَّا أَنْ تَمُنُّوا عَلَيْهِمْ مَنًّا بِإِطْلَاقِهِمْ مِنْ غَيْرِ عِوَضٍ، وَإِمَّا أَنْ تُفَادُوهُمْ فِدَاءً، وَالْمَنُّ: الْإِنْعَامُ: وَالْمُرَادُ بِهِ: إِطْلَاقُ الْأَسِيرِ وَاسْتِرْقَاقُهُ فَإِنَّ الِاسْتِرْقَاقَ منّ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يُقْتَلْ، وَالْفِدَاءُ: بِكَسْرِ الْفَاءِ مَمْدُودًا تَخْلِيصُ الْأَسِيرِ مِنَ الْأَسْرِ بِعِوَضٍ مِنْ مَالٍ أَوْ مُبَادَلَةٍ بِأَسْرَىٰ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي يَدَيِ الْعَدُوِّ. وَقَدَّمَ الْمَنَّ عَلَىٰ الْفِدَاءِ تَرْجِيحًا لَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أَيْ أَثْقَالَهَا وَأَحْمَالَهَا، يَعْنِي حَتَّىٰ تَضَعَ أَهْلُ الْحَرْبِ السِّلَاحَ، فَيُمْسِكُوا عَنِ الْحَرْبِ، وَأَصْلُ الْوِزْرِ مَا يَحْتَمِلُ الْإِنْسَانُ، فَسَمَّىٰ الْأَسْلِحَةَ أَوْزَارًا لِأَنَّهَا تُحْمَلُ، وَقِيلَ: الْحَرْبُ هُمُ الْمُحَارِبُونَ كَالشُّرْبِ وَالرَّكْبِ، وَقِيلَ: الْأَوْزَارُ الْآثَامُ، وَمَعْنَاهُ: حَتَّىٰ يَضَعَ الْمُحَارِبُونَ آثَامَهَا، بِأَنْ يَتُوبُوا مِنْ كُفْرِهِمْ فَيُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَقِيلَ: حَتَّىٰ تَضَعَ حَرْبُكُمْ وَقِتَالُكُمْ أَوْزَارَ الْمُشْرِكِينَ وَقَبَائِحَ أَعْمَالِهِمْ بِأَنْ يُسْلِمُوا، قَالَ البغوي: وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: أَثْخِنُوا الْمُشْرِكِينَ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ حَتَّىٰ يَدْخُلَ أَهْلُ الْمِلَلِ كُلِّهَا فِي الْإِسْلَامِ، وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَلَا يَكُونُ بَعْدَهُ جِهَادٌ ولا قتال، وذلك عند قدوم عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: حَتَّىٰ يُسْلِمُوا أَوْ يُسَالِمُوا، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: حَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ إِلَّا مُسْلِمٌ أَوْ مُسَالِمٌ، ﴿ذَلِكَ﴾ الَّذِي ذَكَرْتُ وَبَيَّنْتُ مِنْ حُكْمِ الْكُفَّارِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: حَتَّىٰ ينزل عيسىٰ بن مريم عليه الصلاة والسلام، وَكَأَنَّهُ

أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّىٰ يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ** »[1] ، ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ فَأَهْلَكَهُمْ وَكَفَاكُمْ أَمْرَهُمْ بِغَيْرِ قِتَالٍ، ﴿وَلَكِنْ﴾ أَمَرَكُمْ بِالْقِتَالِ، ﴿لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أَيْ وَلَكِنْ شَرَعَ لَكُمُ الْجِهَادَ وَقِتَالَ الْأَعْدَاءِ، فَيَصِيرُ مَنْ قُتِلَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ الثَّوَابِ وَمَنْ قَتَلَ مِنَ الكفار إِلَىٰ الْعَذَابِ، ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ وهم الشهداء : أَيْ لَنْ يُذْهِبَهَا بَلْ يُكَثِّرُهَا وَيُنَمِّيهَا وَيُضَاعِفُهَا، وَمِنْهُمْ من يجري عليه عمله طول برزخه ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقَدْ فَشَتْ فِي الْمُسْلِمِينَ الْجِرَاحَاتُ والقتل. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الدَّيْنَ** »[2] ، وفي الصحيح: «**يُشَفَّعُ الشَّهِيدُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ**»[3] .

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أَيَّامَ حَيَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا إِلَىٰ أَرْشَدِ الْأُمُورِ، وَفِي الْآخِرَةِ إِلَىٰ الدرجات، ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ يُرْضِي خصماءَهم وَيَقْبَلُ أَعْمَالَهُمْ.

---

(١) أحمد (١٩٨٥١) وأبو داود (٢٤٨٤) .

(٢) مسلم (١٨٨٦) .

(٣) أحمد (١٧١٨٢) والترمذي (١٦٦٣) .

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أَيْ بَيَّنَ لَهُمْ مَنَازِلَهُمْ فِي الْجَنَّةِ حَتَّىٰ يَهْتَدُوا إِلَىٰ مَسَاكِنِهِمْ لا يخطئونها وَلَا يَسْتَدِلُّونَ عَلَيْهَا أَحدًا، كَأَنَّهُمْ سُكَّانُهَا مُنْذُ خُلِقُوا فَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ أَهْدَىٰ إِلَىٰ دَرَجَتِهِ، وَزَوْجَتِهِ وَخَدَمِهِ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ وَأَهْلِهِ فِي الدُّنْيَا، قَالَ الْحَسَنُ البصري : وَصَفَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُمُ الْجَنَّةَ فِي الدُّنْيَا، فَلَمَّا دَخَلُوهَا عَرَفُوهَا بِصِفَتِهَا ، هَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أَيْ طَيَّبَهَا لَهُمْ مِنَ الْعَرْفِ، وَهُوَ الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ وَطَعَامٌ معرَّف أَيْ مطيَّب.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ﴾ أي دينه ورسوله، ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾ علىٰ عدوكم، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ عِنْدَ الْقِتَالِ. وَقِيلَ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ. وَقِيلَ عَلَىٰ الصِّرَاطِ ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ تَثْبِيتُ الْقُلُوبِ بِالْأَمْنِ، فَيَكُونُ تَثْبِيتُ الْأَقْدَامِ عِبَارَةً عَنِ النَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ فِي مَوْطِنِ الْحَرْبِ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بُعْدًا لَهُمْ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: سُقُوطًا لَهُمْ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: شَقَاءً لَهُمْ ، وَقِيلَ: فِي الدُّنْيَا الْعَثْرَةُ، وَفِي الْآخِرَةِ التَّرَدِّي فِي النَّارِ ، قَالَ ابْنُ السِّكِّيتِ: التَّعْسُ أَنْ يَخِرَّ عَلَىٰ وَجْهِهِ، وَالنَّكْسُ أَنْ يَخِرَّ عَلَىٰ رَأْسِهِ، وَمِنْهُ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ ، إِنْ أُعْطِيَ**

رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ»[1] ، ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ لِأَنَّهَا كَانَتْ فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ﴾ التَّعْسُ وَالْإِضْلَالُ، ﴿بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ قَالَ الْقَاسِمِيُّ: كَعِبَادَتِهِمْ لِأَوْثَانِهِمْ، حَيْثُ لَمْ تَنْفَعْهُمْ، بَلْ أَوْبَقَهُمْ بِهَا فَأَصْلَاهُمْ سَعِيرًا ، ثُمَّ خَوَّفَ الْكُفَّارَ فَقَالَ:

[١٠] : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ﴾ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ الْمُكَذِّبِينَ لِرَسُولِهِ ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي عاقبتهم بِتَكْذِيبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ أَيْ ونَّجىٰ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَيْنِ أظهرهم، ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ أي لَمْ يُؤْمِنُوا، يَتَوَعَّدُ مُشْرِكِي مَكَّةَ ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: الْهَاءُ تَعُودُ عَلَىٰ الْعَاقِبَةِ، أَيْ وَلِلْكَافِرِينَ مِنْ قُرَيْشٍ أَمْثَالُ عَاقِبَةِ تَكْذِيبِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ﴾ الَّذِي ذَكَرْتُ، ﴿بِأَنَّ اللهَ مَوْلَىٰ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وَلِيُّهُمْ وَنَاصِرُهُمْ، ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ لَا نَاصِرَ لَهُمْ، قَالَ قَتَادَةُ: نَزَلَتْ يَوْمَ أُحُدٍ وَالنَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الشِّعْبِ، إِذْ صَاحَ الْمُشْرِكُونَ: يَوْمٌ بِيَوْمٍ، لَنَا الْعُزَّىٰ ولا عزىٰ لكم، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **قُولُوا اللهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَىٰ لَكُمْ** ».

---

(١) البخاري (٢٨٨٧) .

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا، وَالتَّمَتُّعُ: الِانْتِفَاعُ الْقَلِيلُ بِالْمَتَاعِ، ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ لَيْسَ لَهُمْ هِمَّةٌ إِلَّا بُطُونُهُمْ وَفُرُوجُهُمْ، وَهُمْ لَاهُونَ سَاهُونَ عَمَّا فِي غَدٍ، قِيلَ: الْمُؤْمِنُ فِي الدُّنْيَا يَتَزَوَّدُ، وَالْمُنَافِقُ يَتَزَيَّنُ وَالْكَافِرُ يتمتع، وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «**الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًىٰ وَاحِدٍ، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ**»(١)، ﴿وَالنَّارُ مَثْوًىٰ لَهُمْ﴾ أَيْ يَوْمَ جَزَائِهِمْ، وَالْمَثْوَىٰ: مَكَانُ الثَّوَاءِ، وَالثَّوَاءُ: الِاسْتِقْرَارُ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ﴾ أَيْ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ: أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، ﴿الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ أَيْ أَخْرَجَكَ أَهْلُهَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَمْ رِجَالٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ؟ يَدُلُّ عَلَيْهِ، قَوْلُهُ: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ، أَهْلَكْنَاهَا، ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ أَيْ: فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَنْ يَنْصُرُهُمْ وَيَدْفَعُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِأَهْلِ مَكَّةَ، فِي تَكْذِيبِهِمْ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ سَيِّدُ الرسل وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِذَا كَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ قد أهلك الذين كذبوا الرسل قبله، فما ظَنَّ هَؤُلَاءِ أَنْ يَفْعَلَ اللهُ بِهِمْ فِي الدنيا والأُخرىٰ؟.

(١) البخاري (٥٣٩٣) ومسلم (٢٠٦٠).

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ يَقِينٍ مِنْ دِينِهِ، قال أَبُو الْعَالِيَةِ: وَهُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْبَيِّنَةُ: الْوَحْيُ ، ﴿كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ يَعْنِي عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ، وَهُمْ أَبُو جَهْلٍ وَالْمُشْرِكُونَ، ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أَيْ مَا اشْتَهَوْا، وَهَذَا التَّزْيِينُ مِنْ جِهَةِ اللهِ خَلْقًا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الشَّيْطَانِ دُعَاءٌ وَوَسْوَسَةٌ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْكَافِرِ، أَيْ زَيَّنَ لِنَفْسِهِ سُوءَ عَمَلِهِ وَأَصَرَّ عَلَىٰ الْكُفْرِ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أَيْ صِفَتُهَا، ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ آسن مُتَغَيِّرٍ مُنْتِنٍ ، وَالْآسِنُ: وَصْفٌ مَنْ أَسَنَ الْمَاءُ مِنْ بَابِ ضَرَبَ وَنَصَرَ وَفَرِحَ، إِذَا تَغَيَّرَ لَوْنُهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : غَيْرُ مُتَغَيِّرٍ وقال ابن مسعود رضي الله عنه: أَنْهَارُ الْجَنَّةِ تُفَجَّرُ مِنْ جَبَلٍ مِنْ مِسْكٍ ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ أَيْ لَمْ يَحْمُضْ بِطُولِ الْمَقَامِ كَمَا تَتَغَيَّرُ أَلْبَانُ الدُّنْيَا إِلَىٰ الْحُمُوضَةِ. ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ لذيذة، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : أَيْ لَمْ تُدَنِّسْهَا الْأَرْجُلُ وَلَمْ تكدرها الْأَيْدِي كَخَمْرِ الدُّنْيَا، فَهِيَ لَذِيذَةُ الطَّعْمِ طَيِّبَةُ الشُّرْبِ لَا يَتَكَرَّهُهَا الشَّارِبُونَ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: نَفَىٰ اللهُ عَنْ خَمْرِ الْجَنَّةِ جَمِيعَ آفَاتِ خَمْرِ الدُّنْيَا مِنَ الصُّدَاعِ وَالْغَوْلِ وَاللَّغْوِ وَالْإِنْزَافِ وَعَدَمِ اللَّذَّةِ ، ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّىٰ﴾ الْعَسَلُ مَا يَسِيلُ مِنْ لُعَابِ النَّحْلِ ﴿مُصَفًّىٰ﴾ أَيْ مِنَ الشَّمْعِ وَالْقَذَىٰ، خَلَقَهُ اللهُ كَذَلِكَ لَمْ يُطْبَخْ عَلَىٰ نَارٍ وَلَا دَنَّسَهُ النَّحْلُ، عَنْ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَحْرُ الْمَاءِ وَبَحْرُ الْعَسَلِ وَبَحْرُ**

اللَّبَنِ وَبَحْرُ الْخَمْرِ ثُمَّ تُشَقَّقُ الْأَنْهَارُ بَعْدُ»[1]، وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، (مِنْ) زَائِدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ، وَالْمَعْنَىٰ: وَجَمِيعُ أَنْوَاعِ وَأَصْنَافِ وَأَلْوَانِ الثِّمَارِ وَالْفَاكِهَةِ مُتَوَفِّرَةٌ لِضِيَافَتِهِمْ وَهِيَ رَهْنُ إِشَارَتِهِمْ، ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ، ومَغْفِرَةٌ عَطْفٌ عَلَىٰ أَنْهارٌ وَمَا بَعْدَهُ، أَيْ وَفِيهَا مَغْفِرَةٌ لَهُمْ، أَيْ تَجَاوُزٌ عَنْهُمْ، كَمَغْفِرَتِهِ لِأَهْلِ بَدْرٍ إِذْ بُيِّنَتْ بِأَنْ يعملوا مَا شاؤوا ،فِي الْحَدِيثِ «**لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَىٰ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[2]، وقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ أَيْ مَنْ كَانَ فِي هَذَا النَّعِيمِ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النار، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ شديد الحر تسعر عليه جَهَنَّمُ مُنْذُ خُلِقَتْ، إِذَا أُدْنِيَ منهم يشوي وُجُوهَهُمْ وَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رُءُوسِهِمْ فَإِذَا شربوه، ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ فَخَرَجَتْ مِنْ أَدْبَارِهِمْ، وَالْأَمْعَاءُ جَمِيعُ مَا فِي الْبَطْنِ مِنَ الْحَوَايَا واحدها معي.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ يَعْنِي مِنْ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ، ﴿مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ يَسْتَمِعُونَ قَوْلَكَ فَلَا يَعُونَهُ وَلَا يَفْهَمُونَهُ تَهَاوُنًا بِهِ وَتَغَافُلًا، ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ يَعْنِي فَإِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ، ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ مِنَ الصَّحَابَةِ، ﴿مَاذَا قَالَ﴾ محمد، ﴿آنِفًا﴾ يعنىٰ الآن، وهو مِنَ الِائْتِنَافِ

---

(١) أحمد (٢٠٠٤٣).

(٢) البخاري (٣٠٠٧).

وَيُقَالُ: ائْتَنَفْتُ الْأَمْرَ أَيِ ابْتَدَأْتُهُ وَأُنُفُ الشَّيْءِ أَوَّلُهُ، قَالَ مُقَاتِلٌ: وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَخْطُبُ وَيَعِيبُ الْمُنَافِقِينَ، فَإِذَا خَرَجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ سَأَلُوا عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ اسْتِهْزَاءً مَاذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَقَدْ سُئِلَتْ فِيمَنْ سُئِلَ، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلم يؤمنوا، أَيْ فَلَا فَهْمٌ صَحِيحٌ وَلَا قَصْدٌ صَحِيحٌ، ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ فِي الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًىٰ﴾ أَيْ وَالَّذِينَ قَصَدُوا الهداية، وفقهم الله تعالىٰ لَهَا، فَهَدَاهُمْ إِلَيْهَا وَثَبَّتَهُمْ عَلَيْهَا وَزَادَهُمْ مِنْهَا، ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ وَفَّقَهُمْ لِلْعَمَلِ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ، وَهُوَ التَّقْوَىٰ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: وَآتَاهُمْ ثَوَابَ تَقْوَاهُمْ، قَالَ الرَّبِيعُ: آتَاهُمُ الْخَشْيَةَ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: ثَوَابُ تَقْوَاهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أَيْ فَجْأَةً، وَهَذَا وَعِيدٌ لِلْكُفَّارِ، وَالْبَغْتَةُ فَعْلَةٌ مِنَ الْبَغْتِ، وَهُوَ مَصْدَرٌ بَغَتَهُ الْأَمْرُ إِذَا نَزَلَ بِهِ فَجْأَةً مِنْ غَيْرِ تَرَقُّبٍ وَلَا إِعْلَامٍ وَلَا ظُهُورِ شَبَحٍ أَوْ نَحْوِهِ ، فَفِي الْبَغْتِ مَعْنَىٰ الْمَجِيءِ عَنْ غَيْرِ إِشْعَارٍ ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أَمَارَاتُهَا وَعَلَامَاتُهَا وَاحِدُهَا شَرْطٌ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أشراط الساعة ، وَالْأَشْرَاطُ: جَمْعُ شَرَطٍ بِفَتْحَتَيْنِ، وَهُوَ: الْعَلَامَةُ وَالْأَمَارَةُ عَلَىٰ وُجُودِ شَيْءٍ أَوْ عَلَىٰ وَصْفِهِ، وَعَلَامَاتُ السَّاعَةِ هِيَ عَلَامَاتُ كَوْنِهَا قَرِيبَةً ، وهي الْحَوَادِثُ الَّتِي أخبر النبيُّ

صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا تَقَعُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ، ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ فَمِنْ أَيْنَ لَهُمُ التَّذَكُّرُ وَالِاتِّعَاظُ وَالتَّوْبَةُ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ، مثل قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [الْفَجْرِ: ٢٣].

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ قِيلَ: الْخِطَابُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ بِهِ غَيْرُهُ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ فاثبتْ عَلَيْهِ، وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: فَازْدَدْ عِلْمًا عَلَىٰ عِلْمِكَ ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَابْنُ عُيَيْنَةَ: هُوَ مُتَّصِلٌ بِمَا قَبْلَهُ مَعْنَاهُ: إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا مَلْجَأَ وَلَا مَفْزَعَ عِنْدَ قِيَامِهَا إِلَّا إِلَىٰ اللهِ، وَقِيلَ: فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِنَّ الْمَمَالِكَ تَبْطُلُ عِنْدَ قِيَامِهَا فَلَا مُلْكَ وَلَا حُكْمَ لِأَحَدٍ إِلَّا الله، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»(١)، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ أُمر بِالِاسْتِغْفَارِ مَعَ أَنَّهُ مَغْفُورٌ له لتستن به أمته وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ عليه الصلاة والسلام قَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ فَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**»(٢) ، ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ هَذَا إِكْرَامٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ حَيْثُ أَمَرَ نَبِيَّهُمْ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ يَسْتَغْفِرَ لِذُنُوبِهِمْ وَهُوَ الشَّفِيعُ الْمُجَابُ فِيهِمْ، ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ قَالَ ابْنُ

---

(١) مسلم (٢٦) .

(٢) مسلم (٦٣٠٧) .

عَبَّاسٍ: مُتَقَلَّبَكُمْ مُتَصَرَّفُكُمْ وَمُنْتَشَرُكُمْ فِي أَعْمَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا، ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ مَصِيرُكُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَىٰ الْجَنَّةِ أَوْ إِلَىٰ النَّارِ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ وَالطبري: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ مُنْصَرَفُكُمْ لِأَشْغَالِكُمْ بِالنَّهَارِ ، ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ مَأْوَاكُمْ إِلَىٰ مَضَاجِعِكُمْ بِاللَّيْلِ ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ مِنْ أَصْلَابِ الْآبَاءِ إِلَىٰ أَرْحَامِ الْأُمَّهَاتِ ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ مَقَامُكُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ فَلَا يَخْفَىٰ عليه شيء منها.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيِ الْمُؤْمِنُونَ المخلصون، حِرْصًا مِنْهُمْ عَلَىٰ الْجِهَادِ، ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ تَأْمُرُنَا بِالْجِهَادِ، اشْتِيَاقًا لِلْوَحْيِ وَحِرْصًا عَلَىٰ الْجِهَادِ وثوابه. ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ لَا نَسْخَ فِيهَا، قَالَ قَتَادَةُ: كُلُّ سُورَةٍ ذُكِرَ فِيهَا الْجِهَادُ فَهِيَ مُحْكَمَةٌ، وَهِيَ أَشَدُّ الْقُرْآنِ عَلَىٰ الْمُنَافِقِينَ، ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أَيْ فُرِضَ فِيهَا الْجِهَادُ. ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ شَكٌّ فِي دِينِ اللهِ وَضَعْفٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ يَعْنِي الْمُنَافِقِينَ، ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ شَزَرًا بِتَحْدِيقٍ شَدِيدٍ، كَرَاهِيَةً مِنْهُمْ لِلْجِهَادِ وَجُبْنًا عَنْ لِقَاءِ الْعَدُوِّ، ﴿نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ نظر الشَّاخِصُ بَصَرُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَذَلِكَ لِجُبْنِهِمْ عَنِ الْقِتَالِ جَزَعًا وَهَلَعًا، وَلِمَيْلِهِمْ فِي السِّرِّ إِلَىٰ الْكُفَّارِ، ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ وَعِيدٌ وَتَهْدِيدٌ، وَمَعْنَىٰ قَوْلِهِمْ فِي التَّهْدِيدِ أَوْلَىٰ لَكَ أَيْ وَلِيَكَ وَقَارَبَكَ مَا تَكْرَهُ. قَالَ قَتَادَةُ: كَأَنَّهُ قَالَ الْعِقَابَ أَوْلَىٰ لَهُمْ، وقال

الجوهري: وقولهم: أولىٰ لك، تهدد وَوَعِيدٌ، وقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: مَعْنَاهُ قَارَبَهُ مَا يُهْلِكُهُ، أَيْ نَزَلَ بِهِ، وَقِيلَ: هُوَ كَقَوْلِ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: يَا مَحْرُومُ، أَيُّ شَيْءٍ فَاتَكَ، ثُمَّ قَالَ:

[٢١] : ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أَيْ لَوْ أَطَاعُوا وَقَالُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا كَانَ أَحْسَنُ ، وَقِيلَ: مَجَازُهُ يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ قَبْلَ نُزُولِ السُّورَةِ الْمُحْكَمَةِ: طَاعَةٌ، رَفَعَ عَلَىٰ الْحِكَايَةِ أَيْ أَمْرُنَا طَاعَةٌ أَوْ مِنَّا طَاعَةٌ، وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ حَسَنٌ، قَالَ قَتَادَةُ: أَمَرَ اللهُ بِذَلِكَ ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أَيْ جَدَّ الْأَمْرُ وَلَزِمَ فَرْضُ الْقِتَالِ وَصَارَ الْأَمْرُ مَعْزُومًا، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ﴾ فِي إِظْهَارِ الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ، يعني المنافقين ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ من المعصية والمخالفة.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ فلعلكم، ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أَعْرَضْتُمْ عَنِ الْقُرْآنِ وَفَارَقْتُمْ أَحْكَامَهُ، وقيل : عَنِ الْجِهَادِ وَنَكَلْتُمْ عَنْهُ ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ تَعُودُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَتُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بِالْمَعْصِيَةِ وَالْبَغْيِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ، وَتَرْجِعُوا إلىٰ الفرقة بعدما جَمَعَكُمُ اللهُ بِالْإِسْلَامِ ، ﴿وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أَيْ تَعُودُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ الْجَهْلَاءِ، تَسْفِكُونَ الدِّمَاءَ وَتُقَطِّعُونَ الْأَرْحَامَ، قَالَ قَتَادَةُ: كَيْفَ رَأَيْتُمُ الْقَوْمَ حِينَ تَوَلَّوْا عَنْ كِتَابِ اللهِ، أَلَمْ يَسْفِكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ، وَقَطَّعُوا الْأَرْحَامَ، وَعَصَوُا الرَّحْمَنَ؟ وَهَذَا نَهْيٌ عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ عُمُومًا، وعن قطع الأرحام خصوصاً، بل أَمَرَ اللهُ تَعَالَىٰ بِالْإِصْلَاحِ فِي الْأَرْضِ وَصِلَةِ الأرحام، وَقَدْ وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ بِذَلِكَ عَنْ

رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، روىٰ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ الْخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَأَخَذَتْ بِحَقْوَيِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ: مَهْ، فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَىٰ، قَالَ: فَذَاكَ لَكِ**» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: اقرأوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[1]، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: فَهُمَا أَمْرَانِ، إِمَّا الْتِزَامٌ لِطَاعَةِ اللهِ، وَامْتِثَالٌ لِأَوَامِرِهِ، فَثَمَّ الْخَيْرُ وَالرُّشْدُ وَالْفَلَاحُ، وَإِمَّا إِعْرَاضٌ عَنْ ذَلِكَ، وَتَوَلٍّ عَنْ طَاعَةِ اللهِ، فَمَا ثَمَّ إِلَّا الْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ بِالْعَمَلِ بِالْمَعَاصِي وَقَطِيعَةِ الْأَرْحَامِ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ﴾ أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ، وَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ ﴿لَعَنَهُمُ اللهُ﴾ بِأَنْ أَبْعَدَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ، وَقَرُبُوا مِنْ سَخَطِ اللهِ، ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ أَيْ: جَعَلَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ مَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يُبْصِرُونَهُ، فَلَهُمْ آذَانٌ، وَلَكِنْ لَا تَسْمَعُ سَمَاعَ إِذْعَانٍ وَقَبُولِ الْحَقِّ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ قَالَ الْآلُوسِيُّ: وَأَصْلُ التَّدَبُّرِ: التَّأَمُّلُ فِي أَدْبَارِ الْأُمُورِ وَعَوَاقِبِهَا، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ فِي كُلِّ تَأَمُّلٍ، سَوَاءٌ كَانَ نَظَرًا فِي حَقِيقَةِ الشَّيْءِ وَأَجْزَائِهِ، أَوْ سَوَابِقِهِ وَأَسْبَابِهِ، أَوْ لَوَاحِقِهِ وَأَعْقَابِهِ، قَالَ السُّنَيْدِيُّ:

---

(١) البخاري (٤٨٣٠).

تَدَبُّرُ القُرْآنِ هُوَ تَفَهُّمُ مَعَانِي أَلْفَاظِهِ وَالتَّفَكُّرُ فِيمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ آيَاتُهُ مُطَابَقَةً، وَمَا دَخَلَ فِي ضِمْنِهَا، وَمَا لَا تَتِمُّ تِلْكَ المَعَانِي إِلَّا بِهِ، مِمَّا لَمْ يَعْرُجِ اللَّفْظُ عَلَىٰ ذِكْرِهِ مِنَ الإِشَارَاتِ وَالتَّنْبِيهَاتِ وَانْتِفَاعُ القَلْبِ بِذَلِكَ بِخُشُوعِهِ عِنْدَ مَوَاعِظِهِ، وَخُضُوعِهِ لِأَوَامِرِه، وَأَخْذُ العِبْرَةِ مِنْهُ ، ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ أَيْ بَلْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالٌ أَقْفَلَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ، فَلَا تَفْهَمُ مَوَاعِظَ الْقُرْآنِ وَأَحْكَامَهُ، وَ(أَمْ) بِمَعْنَىٰ (بَلْ) ، قَالَ النَّسَفِيُّ: وَنُكِّرَتِ الْقُلُوبُ لِأَنَّ الْمُرَادَ عَلَىٰ قُلُوبٍ قَاسِيَةٍ مُبْهَمٍ أَمْرُهَا فِي ذَلِكَ، وَالْمُرَادُ بَعْضُ الْقُلُوبِ وَهِيَ قُلُوبُ الْمُنَافِقِينَ، وَأُضِيفَتِ الْأَقْفَالُ إِلَىٰ الْقُلُوبِ لِأَنَّ الْمُرَادَ الْأَقْفَالُ الْمُخْتَصَّةُ بِهَا، وَهِيَ أَقْفَالُ الْكُفْرِ الَّتِي اسْتُغْلِقَتْ فَلَا تَنْفَتِحُ، نَحْوَ الرَّيْنِ وَالْخَتْمِ وَالطَّبْعِ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾ رَجَعُوا كُفَّارًا، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: هُمْ كُفَّارُ أَهْلِ الْكِتَابِ كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ مَا عَرَفُوهُ وَوَجَدُوا نَعْتَهُ فِي كِتَابِهِمْ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ: هُمُ المنافقون، ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أَيْ زَيَّنَ لَهُمْ خَطَايَاهُمْ، وَالتَّسْوِيلُ: تَسْهِيلُ الْأَمْرِ الَّذِي يُسْتَشْعَرُ مِنْهُ صُعُوبَةٌ أَوْ ضُرٌّ وَتَزْيِينُ مَا لَيْسَ بِحَسَنٍ، ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أَيْ وَأَمْلَىٰ الشَّيْطَانُ لَهُمْ مَدَّ لَهُمْ فِي الْأَمَلِ، وَالْإِمْلَاءُ: الْمَدُّ وَالتَّمْدِيدُ فِي الزَّمَانِ، وَيُطْلَقُ عَلَىٰ الْإِبْقَاءِ عَلَىٰ الشَّيْءِ كَثِيرًا، أَيْ: غَرَّهُمْ وَخَدَعَهُمْ بِمَا اقْتَرَحَ عَلَيْهِمْ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ يَعْنِي الْمُنَافِقِينَ أَوِ الْيَهُودَ، ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ﴾ وَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أَيْ فِي بَعْضِ أُمُورِكُمْ، أَوْ مَا تَأْمُرُونَ بِهِ أَوْ فِي عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْقُعُودِ عَنِ الْجِهَادِ، وَكَانُوا يَقُولُونَهُ سِرًّا فَأَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أَيْ مَا يُخْفُونَ وَيُبَيِّتُونَ، وَمَا يُدَاهِنُونَ بِهِ أَهْلَ الْكُفْرِ وَيَمْكُرُونَ؛ فَلِذَلِكَ فَضَحَهُمْ، وَبَيَّنَهَا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، لِئَلَّا يَغْتَرُّوا بِهَا.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَيْفَ﴾ تَرَىٰ حَالَهُمُ الشَّنِيعَةَ، وَرُؤْيَتَهُمُ الْفَظِيعَةَ ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الْمُوَكَّلُونَ بِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ، ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ بِالْمَقَامِعِ الشَّدِيدَةِ؟! قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَمَعْنَىٰ الْكَلَامِ التَّخْوِيفُ وَالتَّهْدِيدُ، أَيْ إِنْ تَأَخَّرَ عَنْهُمُ الْعَذَابُ فَإِلَىٰ انْقِضَاءِ العمر، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا يُتَوَفَّىٰ أَحَدٌ عَلَىٰ مَعْصِيَةٍ إِلَّا بِضَرْبٍ شَدِيدٍ لِوَجْهِهِ وَقَفَاهُ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ﴾ أي الضَّرْبُ، ﴿بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِمَا كَتَمُوا مِنَ التَّوْرَاةِ وَكَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عليه وسلم وَإِنْ حُمِلَتْ عَلَىٰ الْمُنَافِقِينَ فَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَىٰ مَا أَضْمَرُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ كَرِهُوا مَا فِيهِ رِضْوَانُ اللهِ، وَهُوَ الطَّاعَةُ وَالْإِيمَانُ، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أَيْ مَا عَمِلُوهُ مِنْ صَدَقَةٍ وَصِلَةِ رَحِمٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ نِفَاقٌ وَشَكٌّ يَعْنِي الْمُنَافِقِينَ، ﴿أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ الْأَضْغَانُ مَا يُضْمَرُ مِنَ الْمَكْرُوهِ، وَكَانَ

الْعَرَبُ يَجْعَلُونَ الْقُلُوبَ مَقَرَّ الْأَضْغَانِ ، قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الضِّغْنُ وَالضَّغِينَةُ: الْحِقْدُ ، وَفَرَسٌ ضَاغِنٌ لَا يُعْطِي مَا عِنْدَهُ مِنَ الْجَرْيِ إِلَّا بِالضَّرْبِ. وَاخْتُلِفَ فِي مَعْنَاهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: حَسَدُهُمْ ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَالْمَعْنَىٰ: أَمْ حَسِبُوا أَنْ لَنْ يُظْهِرَ اللهُ عَدَاوَتَهُمْ وَحِقْدَهُمْ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ أَيْ لَأَعْلَمْنَاكَهُمْ وَعَرَّفْنَاكَهُمْ، تَقُولُ الْعَرَبُ: سَأُرِيكَ مَا أَصْنَعُ، أَيْ سَأُعْلِمُكَ، ومنه قوله تعالىٰ:﴿بِما أَراكَ اللهُ﴾ [النساء: ١٠٥] أَيْ بِمَا أَعْلَمَكَ ، ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ بِعَلَامَتِهِمْ، قَالَ الزَّجَّاجُ: الْمَعْنَىٰ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا عَلَىٰ الْمُنَافِقِينَ عَلَامَةً تَعْرِفُهُمْ بِهَا، قَالَ أَنَسٌ: مَا خَفِيَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ شَيْءٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ كَانَ يَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ. وَالسِّيمَا الْعَلَّامَةُ، مُشْتَقَّةٌ مِنْ سَامَ الَّذِي هُوَ مَقْلُوبُ وَسَمَ،﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أَيْ فِي فَحْوَاهُ وَمَعْنَاهُ، وَاللَّحْنُ: وَجْهَانِ صَوَابٌ وَخَطَأٌ، فَالْفِعْلُ مِنَ الصَّوَابِ لَحِنَ يَلْحَنُ لَحْنًا فَهُوَ لَحِنٌ إِذَا فَطِنَ لِلشَّيْءِ، وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ** »[١] ، أَيْ أَذْهَبُ بِهَا فِي الْجَوَابِ لِقُوَّتِهِ عَلَىٰ لَحَنْتُ لَهُ (بِالْفَتْحِ) أَلْحَنُ لَحْنًا إِذَا قُلْتَ لَهُ قَوْلًا يَفْهَمُهُ عَنْكَ وَيَخْفَىٰ عَلَىٰ غَيْرِهِ ، وَالْفِعْلُ مِنَ الْخَطَأِ لَحَنَ يَلْحَنُ لَحْنًا فَهُوَ لَاحِنٌ، وَالْأَصْلُ فِيهِ إِزَالَةُ الْكَلَامِ

(١) البخاري (٢٤٥٨) ومسلم (١٧١٣) .

عَنْ جِهَتِهِ، وَالْمَعْنَىٰ إِنَّكَ تَعْرِفُهُمْ فيما يعرضون له مِنْ تَهْجِينِ أَمْرِكَ وَأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِمْ، فَكَانَ بَعْدَ هَذَا لَا يَتَكَلَّمُ مُنَافِقٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَا عَرَفَهُ بِقَوْلِهِ، وَيَسْتَدِلُّ بِفَحْوَىٰ كَلَامِهِ علىٰ فساد خلقه وعقيدته، كَمَا قَالَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مَا أَسَرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَبْدَاهَا اللهُ عَلَىٰ صَفَحَاتِ وَجْهِهِ، وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ، ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ فيجازيكم عليها.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ وَلِنُعَامِلَنَّكُمْ مُعَامَلَةَ الْمُخْتَبِرِ بِأَنْ نَأْمُرَكُمْ بِالْجِهَادِ وَالْقِتَالِ، ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ أَيْ حتىٰ نميّز ، يُرِيدُ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ الْمُجَاهِدُ وَالصَّابِرُ عَلَىٰ دِينِهِ من غيره، ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ أَيْ نُظْهِرُهَا وَنَكْشِفُهَا بِإِبَاءِ مَنْ يَأْبَىٰ الْقِتَالَ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَىٰ الْجِهَادِ، قَالَ النَّسَفِيُّ: وَالْمَقْصُودُ: نَخْتَبِرُهَا وَنُظْهِرُهَا، قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْأَشْعَثِ: كَانَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ إِذَا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ بَكَىٰ وَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَبْلُنَا فَإِنَّكَ إِنْ بَلَوْتَنَا فَضَحْتَنَا وَهَتَكْتَ أَسْتَارَنَا وَعَذَّبْتَنَا.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا﴾ إِنَّمَا يَضُرُّونَ أَنْفُسَهُمْ، ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ فَلَا يَرَوْنَ لَهَا ثَوَابًا فِي الْآخِرَةِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما: هُمُ الْمُطْعِمُونَ يَوْمَ بَدْرٍ ، ونظيرها قَوْلُهُ

عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [الأنفال: ٣٦].

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ قَالَ عَطَاءٌ: بِالشَّكِّ وَالنِّفَاقِ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: بِالرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ ، وَقَالَ الْحَسَنُ: بِالْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَمَّنْ كَفَرَ وَصَدَّ عَن سَبِيلِ اللهِ، وَخَالَفَ الرَّسُولَ وَشَاقَّهُ، وَارْتَدَّ عَنِ الْإِيمَانِ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ، أَنَّهُ لَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا، وَإِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ وَيَخْسَرُهَا يَوْمَ مَعَادِهَا، وَسَيُحْبِطُ اللهُ عَمَلَهُ، فَلَا يُثِيبُهُ عَلَىٰ سَالِفِ مَا تقدم من عمله مِثْقَالَ بَعُوضَةٍ مِنْ خَيْرٍ، بَلْ يُحْبِطُهُ وَيَمْحَقُهُ بِالْكُلِّيَّةِ، كَمَا إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ، قَالَ قَتَادَةُ :مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ لَا يُبْطِلَ عَمَلًا صَالِحًا عَمِلَهُ بِعَمَلٍ سَيِّءٍ فَلْيَفْعَلْ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَإِنَّ الْخَيْرَ يَنْسَخُ الشَّرَّ، وَإِنَّ الشَّرَّ يَنْسَخُ الْخَيْرَ، وَإِنَّ مِلَاكَ الْأَعْمَالِ خَوَاتِيمُهَا، وعن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا مَعْشَرَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَرَىٰ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْحَسَنَاتِ إِلَّا مَقْبُولٌ، حَتَّىٰ نَزَلَتْ: ﴿أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فَقُلْنَا: مَا هَذَا الَّذِي يُبْطِلُ أَعْمَالَنَا؟ فَقُلْنَا: الْكَبَائِرُ الموجبات الفواحش، حتىٰ نزل قوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، فَلَمَّا نَزَلَتْ كَفَفْنَا عَنِ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ، فَكُنَّا نَخَافُ عَلَىٰ مَنْ أَصَابَ الْكَبَائِرَ وَالْفَوَاحِشَ، ونرجو لمن لم يصبها، ثم أمر تبارك وتعالىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، الَّتِي هِيَ سَعَادَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،

وَنَهَاهُمْ عَنِ الِارْتِدَادِ الَّذِي هُوَ مُبْطِلٌ لِلْأَعْمَالِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أَيْ بِالرِّدَّةِ.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿وَصَدُّوا﴾ الْخَلْقَ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ بِتَزْهِيدِهِمْ إِيَّاهُمْ بِالْحَقِّ، وَدَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ الْبَاطِلِ، وَتَزْيِينِهِ، ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ لَمْ يَتُوبُوا مِنْهُ، ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ لَا بِشَفَاعَةٍ وَلَا بِغَيْرِهَا، لِأَنَّهُ قَدْ تَحَتَّمَ عَلَيْهِمُ الْعِقَابُ، وَفَاتَهُمُ الثَّوَابُ، وَوَجَبَ عَلَيْهِمُ الْخُلُودُ فِي النَّارِ، وَسُدَّتْ عَلَيْهِمْ رَحْمَةُ الرَّحِيمِ الْغَفَّارِ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: إِنَّ الَّذِينَ أَنْكَرُوا تَوْحِيدَ اللهِ وَصَدُّوا مَنْ أَرَادَ الْإِيمَانَ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ عَنْ ذَلِكَ، فَفَتَنُوهُمْ عَنْهُ وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا أَرَادُوا مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْ كُفْرِهِمْ، فَلَنْ يَعْفُوَ اللهُ عَمَّا صَنَعَ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ يُعَاقِبُهُ عَلَيْهِ وَيَفْضَحُهُ بِهِ عَلَىٰ رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ لَا تَضْعُفُوا عَنِ الْقِتَالِ، وَالْوَهَنُ: الضَّعْفُ وَالْعَجْزُ، ﴿وَتَدْعُوا إِلَىٰ السَّلْمِ﴾ أَيْ لَا تَدْعُوا إِلَىٰ الصُّلْحِ، ابْتِدَاءً مَنَعَ اللهُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَدْعُوا الْكُفَّارَ إِلَىٰ الصُّلْحِ، وَأَمَرَهُمْ بِحَرْبِهِمْ حَتَّىٰ يُسْلِمُوا، وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ وَأَنْتُمُ الْغَالِبُونَ لِأَنَّكُمْ مُؤْمِنُونَ وَإِنْ غَلَبُوكُمْ فِي الظَّاهِرِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: لَا تَكُونُوا أَوَّلَ الطَّائِفَتَيْنِ ضَرَعَتْ إِلَىٰ صَاحِبَتِهَا، ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ الغالبون، قال الكلبي: آخر الأمر لَكُمْ وَإِنْ غَلَبُوكُمْ فِي بَعْضِ الأوقات، ﴿وَاللهُ مَعَكُمْ﴾ بِالْعَوْنِ وَالنُّصْرَةِ ﴿وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ لن ينقصكم

شيئا من ثوب أَعْمَالِكُمْ، يُقَالُ: وَتِرَهُ يَتِرُهُ وَتَرًا إِذَا نَقَصَ حَقَّهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: « **مَنْ فَاتَتْهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ ، فَكَأَنَّمَا وَتَرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ** »[1] أَيْ ذَهَبَ بِهِمَا، وَكَذَلِكَ وَتَرَهُ حَقَّهُ أَيْ نَقَصَهُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وقَتَادَةُ: لَنْ يَظْلِمَكُمْ أَعْمَالَكُمُ الصَّالِحَةَ بَلْ يُؤْتِيكُمْ أُجُورَهَا، ثُمَّ حَضَّ عَلَىٰ طَلَبِ الْآخِرَةِ فَقَالَ:

[٣٦] : ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ بَاطِلٌ وَغُرُورٌ، ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ الفواحش، ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ جَزَاءَ أَعْمَالِكُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ﴾ ربكم ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾ لِإِيتَاءِ الْأَجْرِ بَلْ يَأْمُرُكُمْ بِالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ لِيُثِيبَكُمْ عَلَيْهَا الْجَنَّةَ، مثل قَوْلُهُ: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ [الذَّارِيَاتِ: ٥٧] وَقِيلَ مَعْنَىٰ الْآيَةِ: لَا يَسْأَلُكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْوَالَكُمْ كُلَّهَا فِي الصَّدَقَاتِ، إِنَّمَا يَسْأَلَانِكُمْ غَيْضًا مِنْ فَيْضٍ، فهو غني عَنْكُمْ لَا يَطْلُبُ مِنْكُمْ شَيْئًا، وَإِنَّمَا فَرَضَ عَلَيْكُمُ الصَّدَقَاتِ مِنَ الْأَمْوَالِ، مُوَاسَاةً لِإِخْوَانِكُمْ الْفُقَرَاءِ، لِيَعُودَ نَفْعُ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ، وَيَرْجِعَ ثَوَابُهُ إِلَيْكُمْ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ أَيْ يُجْهِدُكُمْ وَيُلْحِفُ عَلَيْكُمْ بِمَسْأَلَةِ جَمِيعِهَا، وَالْإِحْفَاءُ: الْإِكْثَارُ وَبُلُوغُ النِّهَايَةِ فِي الْفِعْلِ، يُقَالُ: أَحْفَاهُ فِي الْمَسْأَلَةِ إِذَا لَمْ يَتْرُكْ شَيْئًا مِنَ الْإِلْحَاحِ ، يُقَالُ: أَحْفَىٰ فُلَانٌ فُلَانًا إِذَا جَهِدَهُ، وَأَلْحَفَ عَلَيْهِ بِالْمَسْأَلَةِ، ﴿تَبْخَلُوا﴾ بِهَا فَلَا تُعْطُوهَا، وَالْبُخْلُ: مَنْعُ بَذْلِ الْمَالِ،

---

(١) البخاري (٥٥٢) ومسلم (٦٢٦) .

﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ بُغْضَكُمْ وَعَدَاوَتِكُمْ، قَالَ قَتَادَةُ: عَلِمَ اللهُ أَنَّ فِي مَسْأَلَةِ الْأَمْوَالِ خروج الأضغان، وَصَدَقَ قَتَادَةُ، فَإِنَّ الْمَالَ مَحْبُوبٌ وَلَا يُصْرَفُ إِلَّا فِيمَا هُوَ أَحَبُّ إِليَّ الشَّخْصِ مِنْهُ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ يَعْنِي إِخْرَاجَ مَا فَرَضَ اللهُ عليكم، ﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ﴾ بِمَا فُرِضَ عَلَيْهِ مِنَ الزَّكَاةِ، ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ﴾ عَنْ صَدَقَاتِكُمْ وَطَاعَتِكُمْ، ﴿وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ إِلَيْهِ وَإِلَىٰ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَيْرِ، ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ بَلْ يَكُونُوا أَمْثَلَ مِنْكُمْ وَأَطْوَعَ لِلَّهِ مِنْكُمْ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ إِنْ تَوَلَّيْنَا اسْتَبْدَلَ بِنَا ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَنَا؟ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَىٰ كَتِفِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا وَقَوْمُهُ، وَلَوْ كَانَ الدِّينُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارِسَ**»(١)، قَالَ الْحَسَنُ: هُمُ الْعَجَمُ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: فَارِسٌ وَالرُّومِ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ مُحَمَّدٍ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

---

(١) البخاري (٤٨٩٧) ومسلم (٢٥٤٦).

سُورَةُ الْفَتْحِ

وهي مدنية ، وَنُزُولُهَا سَنَةَ سِتٍّ هجرية منصرف النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ وَقَبْلَ غَزْوَةِ خَيْبَرَ ، وَفِي «الْمُوَطَّأِ» عَنْ أمير المؤمنين عُمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه : «أَنَّ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَسِيرُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ أَيْ مُنْصَرَفِهِ مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ لَيْلًا وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَسِيرُ مَعَهُ فَسَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَنْ شَيْءٍ فَلَمْ يُجِبْهُ ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ فَقَالَ: عُمَرُ ثَكِلَتْ أُمُّ عُمَرَ نَزَرْتَ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ كُلُّ ذَلِكَ لَا يُجِيبُكَ. قَالَ عُمَرُ: فَحَرَّكْتُ بَعِيرِي وَتَقَدَّمْتُ أَمَامَ النَّاسِ وَخَشِيتُ أَنْ يَنْزِلَ فِيَّ الْقُرْآنُ فَمَا نَشِبْتُ أَنْ سَمِعْتُ صَارِخًا يَصْرُخُ بِي، فَقُلْتُ: لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ نَزَلَ فِيَّ قُرْآنٌ، فَجِئْتُ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ثُمَّ قَرَأَ : ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾[1] .

(١) الموطأ (٤٤٥) ، وهو عند البخاري (٤٨٣٣) .

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ أَيْ قَضَيْنَا لَكَ قَضَاءً بَيِّنًا، قَالَ الضَّحَّاكُ: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا بِغَيْرِ قِتَالٍ، وَكَانَ الصلح من الفتح المبين، واختلفوا في هذا الفتح، قال أَنَسٍ: أَنَّهُ فَتْحُ مَكَّةَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: فَتْحُ خَيْبَرَ، وَالْأَكْثَرُونَ عَلَىٰ أَنَّهُ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ، وَمَعْنَىٰ الْفَتْحِ فَتْحُ الْمُنْغَلِقِ، وَالصُّلْحُ مَعَ الْمُشْرِكِينَ بِالْحُدَيْبِيَةِ كَانَ مُتَعَذِّرًا حَتَّىٰ فتحه الله عزّ وجلّ، وَقَالَ البراء : تَعُدُّونَ أَنْتُمُ الْفَتْحَ فَتْحَ مَكَّةَ وَقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًا وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ، كُنَّا نُعَدُّ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةٍ ، يعني الف و ٤٠٠، وَالْحُدَيْبِيَةُ بِئْرٌ ، وَالْفَتْحُ: إِزَالَةُ غَلْقِ الْبَابِ أَوِ الْخِزَانَةِ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ﴾ [الْأَعْرَاف: ٤٠] ، وَيُطْلَقُ عَلَىٰ النَّصْرِ وَعَلَىٰ دُخُولِ الْغَازِي بِلَادَ عَدُوِّهِ لِأَنَّ أَرْضَ كُلِّ قَوْمٍ وَبِلَادَهُمْ مُوَاقِعٌ عَنْهَا ، فَاقْتِحَامُ الْغَازِي إِيَّاهَا بَعْدَ الْحَرْبِ يُشْبِهُ إِزَالَةَ الْغَلْقِ عَنِ الْبَيْتِ أَوِ الْخِزَانَةِ، وَلِذَلِكَ كَثُرَ إِطْلَاقُ الْفَتْحِ عَلَىٰ النَّصْرِ الْمُقْتَرِنِ بِدُخُولِ أَرْضِ الْمَغْلُوبِ أَوْ بَلَدِهِ ، وَلَمْ يُطْلَقْ عَلَىٰ انْتِصَارٍ كَانَتْ نِهَايَتَهُ غَنِيمَةٌ وَأَسْرٌ دُونَ اقْتِحَامِ أَرْضٍ فَيُقَالُ: فَتْحُ خَيْبَرَ وَفَتْحُ مَكَّةَ وَلَا يُقَالُ: فَتْحُ بَدْرٍ وَفَتْحُ أُحُدٍ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ الرِّسَالَةِ، ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ إِلَىٰ وَقْتِ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ، وَقِيلَ: مَا تَأَخَّرَ مِمَّا يَكُونُ، وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: مَا تَقَدَّمَ مِمَّا عَمِلْتَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَمَا تَأَخَّرَ كُلُّ شَيْءٍ لَمْ تَعْمَلْهُ، وَيُذْكَرُ مِثْلُ ذَلِكَ عَلَىٰ طَرِيقِ التأكيد، وَقَالَ عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ: مَا تَقَدَّمَ مِنْ

ذَنْبِكَ: يَعْنِي ذَنْبَ أَبَوَيْكَ آدَمَ وَحَوَّاءَ بِبَرَكَتِكَ، وَمَا تَأَخَّرَ ذُنُوبُ أُمَّتِكَ بِدَعْوَتِكَ، وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : هذا من خصائصه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي لا يشاركه فيها غيره، وليس في حديث صحيح فِي ثَوَابِ الْأَعْمَالِ لِغَيْرِهِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَهَذَا فِيهِ تَشْرِيفٌ عَظِيمٌ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم، وهو صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ عَلَىٰ الطَّاعَةِ وَالْبِرِّ وَالِاسْتِقَامَةِ الَّتِي لَمْ يَنَلْهَا بَشَرٌ سِوَاهُ، لَا مِنَ الأولين ولا من الآخرين، وهو صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْمَلُ الْبَشَرِ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ، وَسَيِّدُهُمْ فِي الدُّنْيَا والآخرة، ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بِالنُّبُوَّةِ وَالْحِكْمَةِ وَقِيلَ: بِفَتْحِ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ وَخَيْبَرَ. وَقِيلَ: بِخُضُوعِ مَنِ اسْتَكْبَرَ وَطَاعَةِ مَنْ تَجَبَّرَ، ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أَيْ يُثَبِّتُكَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ إِلَىٰ أَنْ يَقْبِضَكَ إِلَيْهِ، وَالْمَعْنَىٰ لِيَجْتَمِعَ لَكَ مَعَ الْفَتْحِ تَمَامُ النِّعْمَةِ والمغفرة وَالْهِدَايَةِ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَهُوَ الْإِسْلَامُ ، وَقِيلَ: وَيَهْدِيَكَ أَيْ يَهْدِي بِكَ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ غَالِبًا، وَقِيلَ: مُعِزًّا، أَيْ بِسَبَبِ خُضُوعِكَ لِأَمْرِ الله عزَّ وجلَّ يَرْفَعُكَ اللهُ وَيَنْصُرُكَ عَلَىٰ أَعْدَائِكَ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: « **وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ تَعَالَىٰ** »(١) ، وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قال: ما عاقبتَ أَحَدًا عَصَىٰ اللهَ تَعَالَىٰ فِيكَ بِمِثْلِ أَنْ تطيع الله تبارك وتعالىٰ وفيه.

---

(١) مسلم (٢٥٨٨) .

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ الطُّمَأْنِينَةَ وَالْوَقَارَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُلُّ سَكِينَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ طُمَأْنِينَةٌ إِلَّا الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لِئَلَّا تَنْزَعِجَ نُفُوسُهُمْ لِمَا يَرِدُ عَلَيْهِمْ، ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَعَثَ اللهُ رسوله لشهادة أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَلَمَّا صَدَّقُوهُ زَادَهُمُ الصَّلَاةَ ثُمَّ الزَّكَاةَ ثُمَّ الصِّيَامَ ثُمَّ الْحَجَّ ثُمَّ الْجِهَادَ، حَتَّىٰ أَكْمَلَ لَهُمْ دِينَهُمْ، فَكُلَّمَا أُمِرُوا بِشَيْءٍ فَصَدَّقُوهُ ازْدَادُوا تَصْدِيقًا إِلَىٰ تَصْدِيقِهِمْ وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: خَشْيَةً مَعَ خَشْيَتِهِمْ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: يَقِينًا مَعَ يَقِينِهِمْ، قَالَ الْكَلْبِيُّ: هَذَا فِي أَمْرِ الْحُدَيْبِيَةِ حِينَ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ، وَقَدِ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ عَلَىٰ أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَرَوَىٰ فِي الْبَابِ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَىٰ عَدِيِّ بْنِ عَدِيٍّ: إِنَّ لِلْإِيمَانِ فَرَائِضَ وَشَرَائِعَ وَحُدُودًا وَسُنَنًا، فَمَنِ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ، وَمَنِ لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا لَمْ يَسْتَكْمِلِ الْإِيمَانَ، فَإِنْ أَعِشْ فَسَأُبَيِّنُهَا لَكُمْ حَتَّىٰ تَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنْ أَمُتْ فَمَا أَنَا عَلَىٰ صُحْبَتِكُمْ بِحَرِيصٍ، قَالَ النَّسَفِيُّ: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فَيَدْفَعُ كَيْدَ مَنْ عَادَىٰ نَبِيَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِمَا شَاءَ مِنْهَا ﴿وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا﴾ غَالِبًا فَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ ﴿حَكِيمًا﴾ فِيمَا دَبَّرَ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيْ مَاكِثِينَ فِيهَا أَبَدًا، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ : واللَّامُ لِلتَّعْلِيلِ مُتَعَلِّقَةٌ بِفِعْلِ لِيَزْدادُوا إِيمانـًا مَعَ إِيمانِهِمْ ، ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أَيْ

خَطَايَاهُمْ وَذُنُوبَهُمْ، فَلَا يُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهَا، بَلْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ وَيَغْفِرُ وَيَسْتُرُ، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ الصَّحَابَةَ قَالُوا لَمَّا نَزَلَ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ﴾ هَنِيئًا مَرِيئًا فَمَا يَفْعَلُ بِنَا فَنَزَلَ: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ الْآيَةَ ، خُلُودٌ فِي الْجِنَانِ بَعْدَ تَكْفِيرِ الذُّنُوبِ وَالسَّيِّئَاتِ، هُوَ بِحَقٍّ أَعْظَمُ الْخَيْرَاتِ وَالْمَسَرَّاتِ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ يريد أَهْلَ النِّفَاقِ بِالْمَدِينَةِ وَأَهْلَ الشِّرْكِ بِمَكَّةَ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : بِإِيصَالِ الْهُمُومِ إِلَيْهِمْ بِسَبَبِ عُلُوِّ كَلِمَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَبِأَنْ يُسَلِّطَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَتْلًا وَأَسْرًا وَاسْتِرْقَاقًا ، ﴿الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أَنْ لَنْ يَنْصُرَ مُحَمَّدًا وَالْمُؤْمِنِينَ، وأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَرْجِعُ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، وَلَا أَحَدَ مِنْ أَصْحَابِهِ حِينَ خَرَجَ إِلَىٰ الْحُدَيْبِيَةِ، وَأَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَسْتَأْصِلُونَهُمْ، ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَالْأَسْرِ، وَفِي الْآخِرَةِ جَهَنَّمُ، ﴿وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ بِمَا اقْتَرَفُوهُ مِنَ الْمُحَادَّةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ أَيْ: أَبْعَدَهُمْ وَأَقْصَاهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ .

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ الْمَلَائِكَةَ وَالْجِنَّ وَالشَّيَاطِينَ وَالْإِنْسَ ، قَالَ السَّعْدِيُّ: كَرَّرَ الْإِخْبَارَ بِأَنَّ لَهُ مُلْكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْجُنُودِ، لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ أَنَّهُ تَعَالَىٰ هُوَ الْمُعِزُّ الْمُذِلُّ، وَأَنَّهُ سَيَنْصُرُ جُنُودَهُ الْمَنْسُوبَةَ إِلَيْهِ، ﴿وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أَيْ: قَوِيًّا

غَالِبًا، قَاهِرًا لِكُلِّ شَيْءٍ، وَمَعَ عِزَّتِهِ وَقُوَّتِهِ فَهُوَ حَكِيمٌ فِي خَلْقِهِ وَتَدْبِيرِهِ، يَجْرِي عَلَىٰ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ وَإِتْقَانُهُ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ أَيْ عَلَىٰ الْخَلْقِ، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أَيْ لِلْمُؤْمِنِينَ، ﴿وَنَذِيرًا﴾ أَيْ لِلْكَافِرِينَ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أَيْ تُعِينُوهُ وَتَنْصُرُوهُ، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ تُعَظِّمُوهُ وَتُفَخِّمُوهُ هَذِهِ الْكِنَايَاتُ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهَاهُنَا وَقْفٌ، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أَيْ تُسَبِّحُوا اللهَ يُرِيدُ تُصَلُّوا له، ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: وَالتَّعْزِيزُ: النَّصْرُ وَالتَّأْيِيدُ، وَتَعْزِيزُهُمُ اللهَ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ﴾ [محمد : ٧] ، وَالتَّوْقِيرُ: التَّعْظِيمُ، وَالتَّسْبِيحُ: الْكَلَامُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ تَنْزِيهِ اللهِ تَعَالَىٰ عَنْ كُلِّ النَّقَائِصِ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَىٰ أَلَّا يَفِرُّوا، ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ لِأَنَّهُمْ بَاعُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ اللهِ بِالْجَنَّةِ، وَهَذِهِ الْمُبَايَعَةُ هِيَ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ، وَكَانَتْ تَحْتَ شَجَرَةِ سَمُرَةٍ بِالْحُدَيْبِيَةِ، وَكَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ الَّذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَئِذٍ أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ، رَوَىٰ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: « كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ، وَوَضَعَ يَدَهُ فِي ذَلِكَ الْمَاءِ، فَجَعَلَ الْمَاءُ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، حَتَّىٰ

رَوَوْا كُلُّهُمْ»(١) ، وَفِي رِوَايَةٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّهُمْ كَانُوا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً، ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: يَدُ اللهِ بِالْوَفَاءِ لِمَا وَعَدَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانُوا يَأْخُذُونَ بِيَدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُبَايِعُونَهُ، وَيَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فِي الْمُبَايَعَةِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: كَأَنَّهُمْ بَايَعُوا اللهَ وَصَافَحُوهُ بِتِلْكَ الْمُبَايَعَةِ، وَكُلُّ هَذَا لِزِيَادَةِ التَّأْكِيدِ وَالتَّقْوِيَةِ، وَحَمْلِهِمْ عَلَىٰ الْوَفَاءِ بِهَا،﴿فَمَنْ نَكَثَ﴾ نَقَضَ الْبَيْعَةَ، ﴿فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ عَلَيْهِ وَبَالُهُ، لِأَنَّهُ حَرَمَ نَفْسَهُ الثَّوَابَ وَأَلْزَمَهَا الْعِقَابَ، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ﴾ ثبت علىٰ البيعة، ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وَهُوَ الْجَنَّةُ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ المخلفون : هُمُ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا، وَأُطْلِقَ عَلَيْهِمُ الْمُخَلَّفُونَ أَيْ غَيْرُهُمْ خَلَّفَهُمْ وَرَاءَهُ، أَيْ تَرَكَهُمْ خَلْفَهُ، يُقَالُ: خَلَّفْنَا فَلَانًا، إِذَا مَرُّوا بِهِ وَتَرَكُوهُ لِأَنَّهُمُ اعْتَذَرُوا مِنْ قَبْلِ خُرُوجِ النبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَذَرَهُمْ بِخِلَافِ الْأَعْرَابِ ، فَإِنَّهُمْ تَخَلَّفَ أَكْثَرُهُمْ بَعْدَ أَنِ اسْتُنْفِرُوا وَلَمْ يَعْتَذِرُوا حِينَئِذٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: يَعْنِي أعراب بني غِفَارٍ وَمُزَيْنَةَ وَجُهَيْنَةَ، وَأَشْجَعَ وَأَسْلَمَ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَىٰ مَكَّةَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ مُعْتَمِرًا ، اسْتَنْفَرَ مَنْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْأَعْرَابِ وَأَهْلِ الْبَوَادِي ، لِيَخْرُجُوا مَعَهُ حَذَرًا مِنْ قُرَيْشٍ أَنْ يَعْرِضُوا لَهُ بِحَرْبٍ،

---

(١) البخاري (٣٥٧٦) ومسلم (٢٠١٣) .

أَوْ يَصُدُّوهُ عَنِ الْبَيْتِ، فَأَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ وَسَاقَ مَعَهُ الْهَدْيَ لِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ حَرْبًا، فَتَثَاقَلَ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَعْرَابِ وَتَخَلَّفُوا وَاعْتَلُّوا بِالشُّغْلِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِمْ: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ خَلَّفَهُمُ اللهُ عَزَّ وجلّ عَنْ صُحْبَتِكَ، فَإِذَا انْصَرَفْتَ مِنْ سَفَرِكَ إِلَيْهِمْ فَعَاتِبْهُمْ عَلَىٰ التَّخَلُّفِ عَنْكَ،﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ يَعْنِي النِّسَاءَ وَالذَّرَارِي أَيْ لَمْ يَكُنْ لَنَا مَنْ يَخْلُفُنَا فِيهِمْ، وَأَهْلُونَ: جَمْعُ أَهْلٍ ، وتَخَلَّفَ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَهُ مُعْظَم الأعراب من القبائل التي ذكرناها قبل قليل ، وَكَانُوا يَوْمَئِذٍ لَمْ يَتَمَكَّنِ الْإِيمَانُ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُنَافِقِينَ، وَأَعَدُّوا لِلْمَعْذِرَةِ بَعْدَ رُجُوع النبيء صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ شَغَلَتْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَأَهْلُوهُمْ، فَأَخْبَرَ الله رَسُوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا بَيَّتُوهُ فِي قُلُوبِهِمْ وَفَضَحَ أَمْرَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَعْتَذِرُوا. وَهَذِهِ مِنْ مُعْجِزَاتِ الْقُرْآنِ بِالْأَخْبَارِ الَّتِي قَبْلَ وُقُوعِهِ، فجاءوا إلىٰ النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ جَاءُوا يَطْلُبُونَ الِاسْتِغْفَارَ وَاعْتِقَادُهُمْ بِخِلَافِ ظَاهِرِهِمْ، فَفَضَحَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ : ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مِنْ أَمْرِ الِاسْتِغْفَارِ، فَإِنَّهُمْ لَا يُبَالُونَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ لَا، وَهَذَا هُوَ النِّفَاقُ الْمَحْضُ، قَالَ السَّعْدِيُّ: فَإِنَّ طَلَبَهُمُ الِاسْتِغْفَارَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدُلُّ عَلَىٰ نَدَمِهِمْ وَإِقْرَارِهِمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالذَّنْبِ، وَأَنَّهُمْ تَخَلَّفُوا تَخَلُّفًا يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَوْبَةٍ وَاسْتِغْفَارٍ، فَلَوْ كَانَ هَذَا الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ، لَكَانَ اسْتِغْفَارُ الرَّسُولِ نَافِعًا لَهُمْ، لِأَنَّهُمْ قَدْ تَابُوا وَأَنَابُوا، وَلَكِنَّ الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ، أَنَّهُمْ إِنَّمَا

تَخَلَّفُوا لِأَنَّهُمْ ظَنُّوا بِاللهِ ظَنَّ السُّوءِ. ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ سُوءًا، ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ النَّفْعُ الذي هو ضِدُّ الضَّرِّ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ تَخَلُّفَهُمْ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْفَعُ عَنْهُمُ الضَّرَّ، وَيُعَجِّلُ لَهُمُ النَّفْعَ بِالسَّلَامَةِ فِي أَنْفُسِهِمْ وأموالهم، فأخبرهم الله تعالىٰ: إِنْ أَرَادَ بِهِمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ عَلَىٰ دَفْعِهِ ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: يَقُولُ: قُلْ لِهَؤُلَاءِ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ يَسْأَلُونَكَ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ لِتَخَلُّفِهِمْ عَنْكَ: إِنْ أَنَا اسْتَغْفَرْتُ لَكُمْ أَيُّهَا الْقَوْمُ، ثُمَّ أَرَادَ اللهُ هَلَاكَكُمْ أَوْ هَلَاكَ أَمْوَالِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ، أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بِتَثْمِيرِهِ أَمْوَالَكُمْ وَإِصْلَاحِهِ لَكُمْ أَهْلِيكُمْ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَقْدِرُ عَلَىٰ دَفْعِ مَا أَرَادَ بِكُمْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ وَاللهُ لَا يُعَازُّهُ أَحَدٌ، وَلَا يُغَالِبُهُ أَحَدٌ ﴿بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ، أَيْ: فَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أَيْ اعْتَقَدْتُمْ أَنَّهُمْ يُقْتَلُونَ وَتُسْتَأْصَلُ شَأْفَتُهُمْ، وَتُسْتَبَادُ خَضْرَاؤُهُمْ وَلَا يَرْجِعُ مِنْهُمْ مُخْبِرٌ، ﴿وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ زَيَّنَ الشَّيْطَانُ ذَلِكَ الظَّنَّ فِي قلوبكم، ﴿وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ أَكَلَةُ رَأْسٍ، فَلَا يَرْجِعُونَ، فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ مَعَهُ انْتَظِرُوا مَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِهِمْ، ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ هَلْكَىٰ لَا تَصْلُحُونَ لِخَيْرٍ ، قَالَ قَتَادَةُ: فَاسِدِينَ لَا يَصْلُحُونَ لِشَيْءٍ مِنَ الْخَيْرِ. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الْبُورُ: الرَّجُلُ الْفَاسِدُ الْهَالِكُ الَّذِي لَا خَيْرَ فِيهِ ، وَأَبَارَهُ اللهُ أَيْ أَهْلَكَهُ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ أَيْ مَنْ لَمْ يُخْلِصِ الْعَمَلَ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ لِلَّهِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ سَيُعَذِّبُهُ فِي السَّعِيرِ، ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ الْحَاكِمُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: ﴿فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ وَالسَّعِيرُ: النَّارُ الْمُسَعَّرَةُ، وَهُوَ مِنْ أَسماء جَهَنَّم.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيْ هُوَ غَنِيٌّ عَنْ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا ابْتَلَاهُمْ بِالتَّكْلِيفِ لِيُثِيبَ مَنْ آمَنَ وَيُعَاقِبَ مَنْ كَفَرَ وعصىٰ، وَقُدِّمَتِ الْمَغْفِرَةُ هُنَا لِيَتَقَرَّرَ مَعْنَىٰ الْإِطْمَاعِ فِي نُفُوسِهِمْ فَيَبْتَدِرُوا إِلَىٰ اسْتِدْرَاكِ مَا فَاتَهُمْ بالتوبة والانابة ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ يَعْنِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الحديبية، لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَ أَهْلَ الْحُدَيْبِيَةِ فَتْحَ خَيْبَرَ، وَأَنَّهَا لَهُمْ خَاصَّةً مَنْ غَابَ مِنْهُمْ وَمَنْ حَضَرَ. ﴿إِذَا انْطَلَقْتُمْ﴾ سِرْتُمْ وَذَهَبْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، ﴿إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يَعْنِي غَنَائِمَ خَيْبَرَ، ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أَيْ دَعُونَا. تَقُولُ: ذَرْهُ، أَيْ دَعْهُ. وَهُوَ يَذَرُهُ، أَيْ يَدَعُهُ، وَأَصْلُهُ وَذِرَهُ يَذَرُهُ مِثَالُ وَسِعَهُ يَسَعُهُ. قَالَ مُجَاهِدٌ: تَخَلَّفُوا عَنِ الْخُرُوجِ إِلَىٰ مَكَّةَ، فَلَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلىٰ خيبر، قالوا : نشهد مَعَكُمْ قِتَالَ أَهْلِهَا، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا انْصَرَفُوا مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ وَعَدَهُمُ اللهُ فَتْحَ خَيْبَرَ وَجَعَلَ غَنَائِمَهَا لِمَنْ شَهِدَ الْحُدَيْبِيَةَ خَاصَّةً عِوَضًا عَنْ غَنَائِمِ أَهْلِ مَكَّةَ إِذِ انْصَرَفُوا عَنْهُمْ عَلَىٰ صُلْحٍ وَلَمْ يُصِيبُوا مِنْهُمْ شَيْئًا، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُرِيدُونَ

أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُغَيِّرُوا مَوَاعِيدَ اللهِ تَعَالَىٰ لِأَهْلِ الْحُدَيْبِيَةِ بِغَنِيمَةِ خَيْبَرَ خَاصَّةً، وقَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي أَمْرَ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم ألا يسير منهم أحد، وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ يُرِيدُونَ أَنْ يُغَيِّرُوا وَعْدَ اللهِ الَّذِي وَعَدَ لِأَهْلِ الْحُدَيْبِيَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ جَعَلَ لَهُمْ غَنَائِمَ خَيْبَرَ عِوَضًا عَنْ فَتْحِ مَكَّةَ إِذْ رَجَعُوا مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ عَلَىٰ صُلْحٍ، ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾ إِلَىٰ خَيْبَرَ، ﴿كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ مِنْ قَبْلِ مَرْجِعِنَا إِلَيْكُمْ أَنَّ غَنِيمَةَ خَيْبَرَ لِمَنْ شَهِدَ الْحُدَيْبِيَةَ لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ فِيهَا نَصِيبٌ، ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي يمنعكم الحسد أَنْ نُصِيبَ مَعَكُمُ الْغَنَائِمَ، ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ لَا يَعْلَمُونَ عَنِ اللهِ مَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ مِنَ الدِّينِ، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ مِنْهُمْ وَهُوَ مِنْ صِدْقِ اللهِ والرسول. وَقِيلَ: لَا يَفْقَهُونَ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ إِلَّا قَلِيلًا، وَهُوَ ترك القتال.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ أَيْ قُلْ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الْحُدَيْبِيَةِ، وَالْأَعْرَابُ هُمْ سُكَّانُ الْبَادِيَةِ، قَالَ النَّوَوِيُّ: أَهْلُ الْبَادِيَةِ هُمُ الْأَعْرَابُ، وَيَغْلِبُ فِيهِمُ الْجَهْلُ وَالْجَفَاءُ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: « **مَنْ بَدَا جَفَا** »(١)، وَالْبَادِيَةُ وَالْبَدْوُ - بِمَعْنًىٰ وَاحِدٍ -: وَهُوَ مَا عَدَا الْحَاضِرَةَ وَالْعِمْرَانَ، وَالنِّسْبَةُ إِلَيْهَا بَدَوِيٌّ، قَوْلُهُ ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ: هُمْ أَهْلُ فَارِسَ، وَقَالَ كَعْبٌ: هُمُ الرُّومُ. وَقَالَ الْحَسَنُ: فَارِسُ

---

(١) الترمذي (٢٢٥٦) وأبو داود (٢٨٥٩).

وَالرُّومُ ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هَوَازِنُ وَثَقِيفٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: هَوَازِنُ وَغَطَفَانُ يَوْمَ حُنَيْنٍ، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ وَمُقَاتِلٌ وَجَمَاعَةٌ: هُمْ بَنُو حَنِيفَةَ أَهْلُ الْيَمَامَةِ أَصْحَابُ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ، قَالَ زافر بْنُ خَدِيجٍ: كُنَّا نَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَلَا نَعْلَمُ مَنْ هُمْ حَتَّىٰ دَعَا أَبُو بَكْرٍ إِلَىٰ قِتَالِ بَنِي حَنِيفَةَ، فَعَلِمْنَا أَنَّهُمْ هم، وقال ابن جريش دَعَاهُمْ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَىٰ قِتَالِ فَارِسَ ، وَقَالَ أَبُو هريرة: لم يأت تأويل هَذِهِ الْآيَةُ بَعْدُ ، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ : وَالْقَوْمُ أُولُو الْبَأْسِ الشَّدِيدِ يَتَعَيَّنُ أَنَّهُمْ قَوْمٌ مِنَ الْعَرَبِ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ يُشْعِرُ بِأَنَّ الْقِتَالَ لَا يُرْفَعُ عَنْهُمْ إِلَّا إِذَا أَسْلَمُوا، وَإِنَّمَا يَكُونُ هَذَا حُكْمًا فِي قِتَالِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ إِذْ لَا تُقْبَلُ مِنْهُمُ الْجِزْيَةَ. فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ هَوَازِنَ وَثَقِيفَ ، ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ يعني شرع لَكُمْ جِهَادَهُمْ وَقِتَالَهُمْ، فَلَا يَزَالُ ذَلِكَ مُسْتَمِرًّا عَلَيْهِمْ وَلَكُمُ النُّصْرَةُ عَلَيْهِمْ، ﴿أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ فَيَدْخُلُونَ فِي دِينِكُمْ بِلَا قِتَالٍ بَلْ بِاخْتِيَارٍ، ثُمَّ قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا﴾ أَيْ تَسْتَجِيبُوا وَتَنْفِرُوا فِي الْجِهَادِ وَتُؤَدُّوا الَّذِي عَلَيْكُمْ فِيهِ ﴿يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ تُعْرِضُوا ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ، ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وَهُوَ النَّارُ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ أَهْلُ الزَّمَانَةِ (يَعْنِي: الْمُعَاقِينَ أَوْ ذَوِي الِاحْتِيَاجَاتِ الْخَاصَّةِ كَمَا نُسَمِّيهِمْ فِي زَمَانِنَا) كَيْفَ بنا يَا رَسُولَ اللهِ؟ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ:

[١٧] : ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ يَعْنِي فِي التَّخَلُّفِ عَنِ الْجِهَادِ، أَيْ لَا إِثْمَ عَلَيْهِمْ فِي التَّخَلُّفِ عَنِ الْجِهَادِ لِعَمَاهُمْ

وَزَمَانَتِهِمْ وَضَعْفِهِمْ ، وَرَوَىٰ أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **لَقَدْ تَرَكْتُمْ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ وَلَا قَطَعْتُمْ مِنْ وَادٍ ، إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ فِيهِ**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ يَكُونُونَ مَعَنَا وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: **حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**» ، فَبَيَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مَعَ مَا ذَكَرْنَا مِنْ نَظَائِرِهَا أَنَّهُ لَا حَرَجَ عَلَىٰ الْمَعْذُورِينَ، **وَهُمْ قَوْمٌ عُرِفَ عُذْرُهُمْ كَأَرْبَابِ الزَّمَانَةِ وَالْهَرَمِ وَالْعَمَىٰ وَالْعَرَجِ، ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ فِي امْتِثَالِ أَمْرِهِمَا، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِمَا ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ، وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أَيْ يَنْكُلُ عَنِ الْجِهَادِ وَيُقْبِلُ عَلَىٰ الْمَعَاشِ ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فِي الدُّنْيَا بِالْمَذَلَّةِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالنَّارِ.**

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ هَذِهِ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ، وَكَانَتْ بِالْحُدَيْبِيَةِ ، قَالَ جَابِرٌ: بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ أَنْ لَا نَفِرَّ، وَلَمْ نُبَايِعْهُ عَلَىٰ الْمَوْتِ ﴿تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ وَكَانَتْ سَمُرَةً، ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مِنَ الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ، وَقَتَادَةُ: مِنَ الرِّضَا بِأَمْرِ الْبَيْعَةِ عَلَىٰ أَلَّا يَفِرُّوا. وَمُلَخَّصُ الْقِصَّةِ كَمَا قَالَ السَّعْدِيُّ: يُخْبِرُ تَعَالَىٰ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، بِرِضَاهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَ الرَّسُولَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِلْكَ الْمُبَايَعَةَ الَّتِي بَيَّضَتْ وُجُوهَهُمْ، وَاكْتَسَبُوا بِهَا سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكَانَ سَبَبُ هَذِهِ الْبَيْعَةِ -الَّتِي يُقَالُ لَهَا (بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ) لِرِضَا اللهِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا، وَيُقَالُ لَهَا (بَيْعَةُ أَهْلِ الشَّجَرَةِ) : أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا دَارَ الْكَلَامُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ

الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ فِي شَأْنِ مَجِيئِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا هَذَا الْبَيْتَ، مُعَظِّمًا لَهُ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ لِمَكَّةَ فِي ذَلِكَ، فَجَاءَ خَبَرٌ غَيْرُ صَادِقٍ، أَنَّ عُثْمَانَ قَتَلَهُ الْمُشْرِكُونَ، فَجَمَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَانُوا نَحْوًا مِنْ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةٍ، فَبَايَعُوهُ تَحْتَ شَجَرَةٍ عَلَىٰ قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ، وَأَنْ لَا يَفِرُّوا حَتَّىٰ يَمُوتُوا، فَأَخْبَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ رَضِيَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ فِي تِلْكَ الْحَالِ، الَّتِي هِيَ مِنْ أَكْبَرِ الطَّاعَاتِ وَأَجَلِّ الْقُرُبَاتِ قَوْلُهُ ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ الطُّمَأْنِينَةَ وَالرِّضَا، وَالسَّكِينَةُ: الطُّمَأْنِينَةُ وَسُكُونُ النَّفْسِ إِلَىٰ صِدْقِ الْوَعْدِ. وَقِيلَ الصَّبْرُ ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ يَعْنِي فَتْحَ خَيْبَرَ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ مِنْ أَمْوَالِ يَهُودِ خَيْبَرَ، وَكَانَتْ خَيْبَرُ ذَاتَ عَقَارٍ وَأَمْوَالٍ، فَاقْتَسَمَهَا رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُمْ، ﴿وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أَيْ: لَهُ الْعِزَّةُ وَالْقُدْرَةُ، الَّتِي قَهَرَ بِهَا الْأَشْيَاءَ، فَلَوْ شَاءَ لَانْتَصَرَ مِنَ الْكُفَّارِ فِي كُلِّ وَقْعَةٍ تَكُونُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنَّهُ حَكِيمٌ، يَبْتَلِي بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ، وَيَمْتَحِنُ الْمُؤْمِنَ بِالْكَافِرِ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وَهِيَ الْفُتُوحُ الَّتِي تُفْتَحُ لَهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يَعْنِي خَيْبَرَ، ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قَصَدَ خَيْبَرَ وَحَاصَرَ أَهْلَهَا هَمَّتْ قَبَائِلُ مِنْ بَنِي أَسَدٍ وَغَطَفَانَ أَنْ يُغِيرُوا عَلَىٰ عِيَالِ الْمُسْلِمِينَ وَذَرَارِيِّهِمْ

بِالْمَدِينَةِ، فَكَفَّ اللهُ أَيْدِيَهُمْ بِإِلْقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَقِيلَ: كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ يَعْنِي أَهْلَ مَكَّةَ بالصلح، ﴿وَلِتَكُونَ﴾ كفهم وسلامتكم، ﴿آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ عَلَىٰ صِدْقِك وَيَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ الْمُتَوَلِّي حِيَاطَتَهُمْ وَحِرَاسَتَهُمْ فِي مَشْهَدِهِمْ وَمَغِيبِهِمْ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : فإن الله تعالىٰ حَافِظُهُمْ وَنَاصِرُهُمْ عَلَىٰ سَائِرِ الْأَعْدَاءِ مَعَ قِلَّةِ عَدَدِهِمْ، وَلِيَعْلَمُوا بِصَنِيعِ اللهِ هَذَا بِهِمْ أَنَّهُ العالم بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ، وَأَنَّ الْخِيَرَةَ فِيمَا يَخْتَارُهُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ كَرِهُوهُ فِي الظَّاهِرِ، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ يُثَبِّتُكُمْ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ وَيَزِيدُكُمْ بَصِيرَةً وَيَقِينًا بِصُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ، وَفَتْحِ خَيْبَرَ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ وَعَدَكُمُ اللهُ فَتْحَ بَلْدَةٍ أُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا، ﴿قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا﴾ حَتَّىٰ يَفْتَحَهَا لَكُمْ كَأَنَّهُ حَفِظَهَا وَمَنَعَهَا مِنْ غَيْرِكُمْ حَتَّىٰ تَأْخُذُوهَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَلَّمَ اللهُ أَنَّهُ يَفْتَحُهَا لَكُمْ، وَاخْتَلَفُوا فِيهَا، فقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُقَاتِلٌ: هِيَ فَارِسُ وَالرُّومُ، وَمَا كَانَتِ الْعَرَبُ تَقْدِرُ عَلَىٰ قِتَالِ فَارِسَ وَالرُّومِ، بَلْ كَانُوا خُوَّلًا لَهُمْ حَتَّىٰ قَدَرُوا عَلَيْهَا بِالْإِسْلَامِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَابْنُ زَيْدٍ: هِيَ خَيْبَرُ وَعَدَهَا اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يُصِيبَهَا، وَلَمْ يَكُونُوا يَرْجُونَهَا، وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ مَكَّةُ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: حُنَيْنٌ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَا فَتَحُوا حَتَّىٰ الْيَوْمَ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَمَعْنَىٰ ﴿قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا﴾ أَيْ أَعَدَّهَا لَكُمْ، فَهِيَ كَالشَّيْءِ الَّذِي قَدْ أُحِيطَ بِهِ مِنْ جَوَانِبِهِ، فَهُوَ مَحْصُورٌ لَا يَفُوتُ، فَأَنْتُمْ وَإِنْ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا فِي الْحَالِ فَهِيَ مَحْبُوسَةٌ عَلَيْكُمْ لَا تَفُوتُكُمْ ، ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ أَنْ أَوْرَثَ الْمُؤْمِنِينَ ذَلِكَ، وَعَلَىٰ نَصْرِهِ إِيَّاهُمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ قُدْرَةً، لَا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ شَيْءٌ أَرَادَهُ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فِعْلَ شَيْءٍ حَاوَلَ فِعْلَهُ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني قبيلة أسد وَغَطَفَانَ وَأَهْلَ خَيْبَرَ، قَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي كُفَّارَ قُرَيْشٍ فِي الْحُدَيْبِيَةِ ، ﴿لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ﴾ لَانْهَزَمُوا، وَالتَّوْلِيَةُ: جَعْلُ الشَّيْءِ وَالِيًا، أَيْ لَجَعَلُوا ظُهُورَهُمْ تَلِيكُمْ، أَيِ ارْتَدُّوا إِلَىٰ وَرَائِهِمْ فَصِرْتُمْ وَرَاءَهُمْ ، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ لِأَنَّهُمْ مُحَارِبُونَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِحِزْبِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي سنة اللهِ فِي نَصْرِ أَوْلِيَائِهِ وَقَهْرِ أَعْدَائِهِ، وَالسُّنَّةُ: الطَّرِيقَةُ وَالْعَادَةُ ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَيْ هَذِهِ سُنَّةُ اللهِ وَعَادَتُهُ فِي خَلْقِهِ، مَا تَقَابَلَ الكفر والإيمان في موطن فيصل، إلا نَصْرِ اللهِ الْإِيمَانُ عَلَىٰ الْكُفْرِ، فَرَفَعَ الْحَقَّ وَوَضَعَ الْبَاطِلَ، كَمَا فَعَلَ تَعَالَىٰ يَوْمَ بَدْرٍ بِأَوْلِيَائِهِ الْمُؤْمِنِينَ، نَصَرَهُمْ عَلَىٰ أَعْدَائِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مع قلة عدد المسلمين وكثرة المشركين ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا﴾ أَيْ وَسُنَّةُ اللهِ فِي ذَلِكَ لَا تُبَدَّلُ وَلَا تُغَيَّرُ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ والمعنىٰ: كَفَّ أَيْدِيَهِمْ عَنْكُمْ بِأَنْ نَبَّهَكُمْ إِلَيْهِمْ قَبْلَ أَنْ يُفَاجِئُوكُمْ وَكَفَّ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ حِينَ أَمر رَسُوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَيُطْلِقَهُمْ ، ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ قَالَ الرَّاغِبُ: وَيُقَالُ لِلْجِهَةِ السُّفْلَىٰ بَطْنٌ، وَلِلْعُلْيَا ظَهْرٌ ، وَيُقَالُ: بَطْنُ

الْوَادِي لِوَسَطِهِ. وَالْمَعْرُوفُ مِنْ إِطْلَاقِ لَفْظِ الْبَطْنِ إِذَا أُضِيفَ إِلَىٰ الْمَكَانِ أَنْ يُرَادَ بِهِ وَسَطُ الْمَكَانِ، أَيْ فِي وَسَطِ الْبَلَدِ الْحَرَامِ ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بهم يقال: ظَفِرْتُ بفلان، وظَفِرْتُ عليه، ﴿وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ، وَيُدَبِّرُكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِتَدْبِيرِهِ الْحَسَنِ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يَعْنِي كُفَّارَ مَكَّةَ، ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أن تطوفوا به عام الحديبية، ﴿وَالْهَدْيَ﴾ أَيْ وَصَدُّوا الْهَدْيَ وَهِيَ الْبُدْنُ الَّتِي سَاقَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَتْ سَبْعِينَ بدنة، ﴿مَعْكُوفًا﴾ مَحْبُوسًا، يُقَالُ: عَكَفْتُهُ عَكْفًا إِذَا حَبَسْتُهُ وَعُكُوفًا لَازِمٌ، وَمِنْهُ الِاعْتِكَافُ فِي الْمَسْجِدِ وَهُوَ الِاحْتِبَاسُ، ﴿أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ حيث يذبح، وَحَيْثُ يَحُلُّ نَحْرُهُ يَعْنِي الْحَرَمَ، قَالَ الشَّافِعِيُّ: الْحَرَمُ، ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ﴾ يَعْنِي الْمُسْتَضْعَفِينَ بِمَكَّةَ، ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ لم تعرفوهم، ﴿أَنْ تَطَئُوهُمْ﴾ بالقتال وَتُوقِعُوا بِهِمْ، ﴿فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: مَعَرَّةٌ إِثْمٌ، وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: غُرْمُ الدِّيَةِ. وقيل: الكفارة لأن الله أَوْجَبَ عَلَىٰ قَاتِلِ الْمُؤْمِنِ فِي دَارِ الْحَرْبِ - إِذَا لَمْ يُعْلَمْ إِيمَانُهُ - الْكَفَّارَةَ دُونَ الدِّيَةِ، فَقَالَ: ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النِّسَاءِ: ٩٢] وَقِيلَ: هُوَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَعِيبُونَكُمْ وَيَقُولُونَ قَتَلُوا أَهْلَ دِينِهِمْ، وَالْمَعَرَّةُ الْمَشَقَّةُ، يَقُولُ: لَوْلَا أَنْ تَطَئُوا رِجَالًا مُؤْمِنِينَ وَنِسَاءً مُؤْمِنَاتٍ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ فَيَلْزَمُكُمْ بِهِمْ كَفَّارَةٌ أَوْ يَلْحَقُكُمْ سُبَّةٌ، وَجَوَابُ لَوْلَا مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: لَأَذِنَ لَكُمْ فِي دُخُولِهَا

وَلَكِنَّهُ حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ذَلِكَ. ﴿لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يَعْنِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ذَلِكَ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ بَعْدَ الصُّلْحِ قَبْلَ أَنْ تدخلوها، ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أَيْ لَوْ تَمَيَّزَ الْكُفَّارُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بِالسَّبْيِ وَالْقَتْلِ بِأَيْدِيكُمْ، وَقَالَ قَتَادَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ اللهَ يَدْفَعُ بِالْمُؤْمِنِ عَنِ الْكُفَّارِ كَمَا دَفَعَ بِالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ، عَنْ جُنَيْدِ بْنِ سُبَيْعٍ قَالَ: «قَاتَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلَ النَّهَارِ كَافِرًا، وَقَاتَلْتُ مَعَهُ آخِرَ النَّهَارِ مُسْلِمًا، وَفِينَا نَزَلَتْ: ﴿وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ ومؤمنات﴾، قَالَ: كُنَّا تِسْعَةَ نَفَرٍ سَبْعَةَ رِجَالٍ وَامْرَأَتَيْنِ»(١).

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾ حِينَ صَدُّوا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابَهُ عَنِ البيت عام الحديبية، وَلَمْ يُقِرُّوا بِبَسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَأَنْكَرُوا مُحَمَّدًا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْحَمِيَّةُ: الْأَنَفَةُ، يُقَالُ: فُلَانٌ ذُو حَمِيَّةٍ إِذَا كَانَ ذَا غَضَبٍ وَأَنَفَةٍ، قَالَ مُقَاتِلٌ: قَالَ أَهْلُ مَكَّةَ: قَدْ قَتَلُوا أَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا ثُمَّ يَدْخُلُونَ عَلَيْنَا، فَتَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّهُمْ دَخَلُوا عَلَيْنَا عَلَىٰ رَغْمِ أَنْفِنَا، وَاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ لَا يَدْخُلُونَهَا عَلَيْنَا، فهذه ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ الَّتِي دَخَلَتْ قُلُوبَهُمْ، قَالَ ابْنُ بَحْرٍ: حَمِيَّتُهُمْ عَصَبِيَّتُهُمْ لِآلِهَتِهِمُ الَّتِي

---

(١) الطبراني (الكبير، رقم ٢٢٥٩).

كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَالْأَنَفَةُ مِنْ أَنْ يَعْبُدُوا غَيْرَهَا ، ﴿فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حَتَّىٰ لَمْ يَدْخُلْهُمْ مَا دَخَلَهُمْ مِنَ الْحَمِيَّةِ فَيَعْصُوا اللهَ فِي قتالهم، ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: كَلِمَةُ التَّقْوَىٰ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَرُوِيَ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ مَرْفُوعًا، وَقَالَ عَلِيٌّ وَابْنُ عُمَرَ: كَلِمَةُ التَّقْوَىٰ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَاللهُ أَكْبَرُ ، وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ: هِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَقَالَ عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ: هِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: هِيَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ كَانَ الْمُسْلِمُونَ أَحَقَّ بِهَا وَكَانُوا أَهْلَهَا فِي عِلْمِ اللهِ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ اخْتَارَ لِدِينِهِ وَصُحْبَةِ نَبِيِّهِ أَهْلَ الْخَيْرِ ، قَالَ قَتَادَةُ: أَيِ التَّوْحِيدُ وَشَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﴿وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أَيْ هُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْخَيْرَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الشَّرَّ.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ أي: لا بد من وقوعها وصدقها، ولا يقدح في ذلك تأخر تأويلها، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَرُوِيَ أَنَّ الرُّؤْيَا كَانَتْ بِالْحُدَيْبِيَةِ، وَأَنَّ رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ حَقٌّ ، وَالرُّؤْيَا أَحَدُ وُجُوهِ الْوَحْيِ إِلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ. ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرِيَ فِي الْمَنَامِ بِالْمَدِينَةِ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَىٰ الْحُدَيْبِيَةِ أَنَّهُ يَدْخُلُ هُوَ وَأَصْحَابُهُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ آمِنِينَ وَيُحَلِّقُونَ رُءُوسَهُمْ وَيُقَصِّرُونَ، فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ

أَصْحَابَهُ، فَفَرِحُوا وحبوا أَنَّهُمْ دَاخِلُو مكةَ عَامَهُمْ ذَلِكَ فَلَمَّا انْصَرَفُوا وَلَمْ يَدْخُلُوا شَقَّ عليهم ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد رأىٰ فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ دَخَلَ مَكَّةَ وَطَافَ بِالْبَيْتِ، فَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ، فَلَمَّا سَارُوا عَامَ الحُدَيبية لَمْ يَشُكَّ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ أَنَّ هَذِهِ الرُّؤْيَا تَتَفَسَّرُ هَذَا الْعَامَ، فَلَمَّا وَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ قَضِيَّةِ الصُّلْحِ وَرَجَعُوا عَامَهُمْ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنْ يَعُودُوا مِنْ قَابَلَ، وَقَعَ فِي نفس بعض الصحابة رَّضِيَ الله عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، حَتَّىٰ سَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ فِيمَا قَالَ: أَفَلَمْ تَكُنْ تُخْبِرُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «**بَلَىٰ، أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ عَامَكَ هَذَا؟**» قَالَ: لَا، قَالَ النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «**فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ**»، وَبِهَذَا أَجَابَ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه أيضـًا(١)، ولهذا قال تبارك وتعالىٰ: ﴿لقد صدق الله الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ أَن شَآءَ الله﴾ هَذَا لِتَحْقِيقِ الْخَبَرِ وَتَوْكِيدِهِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الاستثناء فِي شَيْءٍ، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿آمِنِينَ﴾ أَيْ فِي حَالِ دُخُولِكُمْ، قَالَ سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ: لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ خَيْبَرَ، بَعَثَ السَّرَايَا، وَأَقَامَ بِالْمَدِينَةِ حَتَّىٰ اسْتَهَلَّ ذُو الْقَعْدَةِ، ثُمَّ نَادَىٰ فِي النَّاسِ بِالْخُرُوجِ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ﴾ كلها، ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ بِأَخْذِ بَعْضِ شُعُورِهَا، وَالتَّحْلِيقُ وَالتَّقْصِيرُ جَمِيعًا لِلرِّجَالِ، وَلِذَلِكَ غَلَّبَ الْمُذَكَّرَ عَلَىٰ

---

(١) البخاري (٢٧٣١).

الْمُؤَنَّثِ ، وَالْحَلْقُ أَفْضَلُ، وَلَيْسَ لِلنِّسَاءِ إِلَّا التَّقْصِيرُ، ﴿لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أَنَّ الصَّلَاحَ كَانَ فِي الصُّلْحِ وَتَأْخِيرِ الدُّخُولِ، أي فعلم الله عزَّ وجلَّ مِنَ الْخِيَرَةِ وَالْمَصْلَحَةِ فِي صَرْفِكُمْ عَنْ مَكَّةَ وَدُخُولِكُمْ إِلَيْهَا عَامَكُمْ ذَلِكَ مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أَيْ قَبْلَ دُخُولِكُمُ الَّذِي وُعِدْتُمْ بِهِ فِي رُؤْيَا النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتْحًا قَرِيبًا، وَهُوَ الصُّلْحُ الَّذِي كَانَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِكُمْ مِنَ المشركين. ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وَهُوَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ عِنْدَ الْأَكْثَرِينَ، وَقِيلَ: فَتْحُ خَيْبَرَ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أَيْ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ تَشْتَمِلُ علىٰ شيئين: علم، وعمل ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أَيْ عَلَىٰ أَهْلِ جَمِيعِ الْأَدْيَانِ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ، مَنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ، وَمِلِّيِّينَ وَمُشْرِكِينَ وَقِيلَ: أَيْ لِيُظْهِرَ رَسُولَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ، أَيْ عَلَىٰ الدِّينِ الَّذِي هُوَ شَرَعَهُ بِالْحُجَّةِ ثُمَّ بِالْيَدِ وَالسَّيْفِ، ﴿وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً﴾ أي أنه رسوله وهو ناصره، والله سبحانه ، وَقِيلَ:﴿شَهِيداً﴾ عَلَىٰ مَا أُرْسِلَ بِهِ، لِأَنَّ الكفار أبوا أن يَكْتُبُوا: هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، شَهِدَ لَهُ بِالرِّسَالَةِ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ بَيَانُ رَسُولِ اللهِ مَنْ هُوَ بَعْدَ أَنْ أَجْرَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْأَخْبَارِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ﴾ فَيُعْتَبَرُ السَّامِعُ كَالْمُشْتَاقِ إِلَىٰ بَيَانٍ: مَنْ هَذَا الْمُتَحَدَّثُ عَنْهُ بِهَذِهِ الْأَخْبَارِ؟ فَيُقَالُ

لَهُ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، أَيْ هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ. وَهَذَا مِنَ الْعِنَايَةِ وَالِاهْتِمَامِ بِذكر مناقبه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ قالوا: وفيه واو الاستئناف أَيْ وَالَّذِينَ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، ﴿أَشِدَّاءُ عَلَىٰ الْكُفَّارِ﴾ غِلَاظٌ عَلَيْهِمْ كَالْأَسَدِ عَلَىٰ فَرِيسَتِهِ لَا تَأْخُذُهُمْ فِيهِمْ رَأْفَةٌ، ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ مُتَعَاطِفُونَ مُتَوَادُّونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، كَالْوَلَدِ مَعَ الْوَالِدِ، كَمَا قَالَ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أَخْبَرَ عَنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهِمْ وَمُدَاوَمَتِهِمْ عَلَيْهَا، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ﴾ أن يدخلهم الجنة، ﴿وَرِضْوَانًا﴾ أن يرضىٰ عنهم، ﴿سِيمَاهُمْ﴾ أَيْ عَلَامَتُهُمْ، ﴿فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ اختلفوا في هذا السِّيمَا، فقَالَ قَوْمٌ: هُوَ نُورٌ وَبَيَاضٌ فِي وُجُوهِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعْرَفُونَ بِهِ أَنَّهُمْ سَجَدُوا فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ رِوَايَةُ عَطِيَّةَ الْعَوْفِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: اسْتَنَارَتْ وُجُوهُهُمْ مِنْ كَثْرَةِ مَا صَلُّوا ، وَقَالَ شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ: تَكُونُ ، مَوَاضِعُ السُّجُودِ مِنْ وُجُوهِهِمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ السَّمْتُ الْحَسَنُ وَالْخُشُوعُ وَالتَّوَاضُعُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَيْسَ بِالَّذِي تَرَوْنَ لَكِنَّهُ سِيمَاءُ الْإِسْلَامِ وَسَجِيَّتُهُ وَسَمْتُهُ وَخُشُوعُهُ. وَقَالَ الْحَسَنُ: إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ مَرْضَىٰ وَمَا هُمْ بِمَرْضَىٰ ، قَالَ عِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُوَ أَثَرُ التُّرَابِ عَلَىٰ الجباه. قال أبو العالية لأنهم يَسْجُدُونَ عَلَىٰ التُّرَابِ لَا عَلَىٰ الْأَثْوَابِ ، وَقَالَ عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ: دَخَلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ كُلُّ مَنْ حَافَظَ عَلَىٰ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : فَالصَّحَابَةُ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ خَلُصَتْ نِيَّاتُهُمْ وَحَسُنَتْ أَعْمَالُهُمْ،

فَكُلُّ مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِمْ أَعْجَبُوهُ فِي سمتهم وهديهم، وقال مالك رضي الله عنه: بَلَغَنِي أَنَّ النَّصَارَىٰ كَانُوا إِذَا رَأَوُا الصَّحَابَةَ رَّضِيَ الله عَنْهُمْ الَّذِينَ فَتَحُوا الشَّامَ يَقُولُونَ: وَاللهِ لَهَؤُلَاءِ خَيْرٌ من الحوارين فِيمَا بَلَغَنَا، وَصَدَقُوا فِي ذَلِك، فَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ مُعَظَّمَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَأَعْظَمُهَا وَأَفْضَلُهَا أصحاب رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وقد نوّه الله تبارك وتعالىٰ بِذِكْرِهِمْ، فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُتَدَاوَلَةِ، وَلِهَذَا قال سُبْحَانَهُ وتعالىٰ ههنا ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكرت، ﴿مَثَلُهُمْ﴾ صفتهم ﴿فِي التَّوْرَاةِ﴾ هَاهُنَا تَمَّ الْكَلَامُ ثُمَّ ذَكَرَ نَعْتَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ، فَقَالَ: ﴿وَمَثَلُهُمْ﴾ صِفَتُهُمْ، ﴿فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أراد سنبله حين يتسلع نباته عن حباته ، يُقَالُ أَشْطَأَ الزَّرْعُ فَهُوَ مُشْطِئٌ إِذَا أَفْرَخَ، قَالَ مُقَاتِلٌ: هُوَ نَبْتٌ وَاحِدٌ فَإِذَا خَرَجَ مَا بَعْدَهُ فَهُوَ شَطْؤُهُ. قَالَ قَتَادَةُ: أَخْرَجَ نَبَاتَهُ. قَالَ: هَذَا مَثَلُ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْإِنْجِيلِ، قِيلَ لَهُمْ: إِنَّهُ سَيَخْرُجُ قَوْمٌ يَنْبُتُونَ نَبَاتَ الزَّرْعِ، مِنْهُمْ قَوْمٌ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، قَوْلُهُ:﴿فَآزَرَهُ﴾ أَيْ قَوَّاهُ وَأَعَانَهُ وشد أزره، ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ ذلك الزرع، ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ أَيْ تَمَّ وَتَلَاحَقَ نَبَاتُهُ وَقَامَ، ﴿عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ ، أُصُولُهُ، (وَالسُّوقُ: جَمْعُ سَاقٍ) فَصَارَ هَذَا الزَّرْعُ الَّذِي اسْتَغْلَظَ وَصَلُبَ وَحَسُنَ نَبَاتُهُ يُعْجِبُ الَّذِينَ زَرَعُوهُ وَبَذَلُوا الْجُهْدَ فِي بِذَارِهِ وَتَثْبِيتِ جُذُورِهِ، ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ أَعْجَبَ ذَلِكَ زُرَّاعَهُ، هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْإِنْجِيلِ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ قَلِيلًا، ثُمَّ يَزْدَادُونَ وَيَكْثُرُونَ ، قَالَ قَتَادَةُ: مَثَلُ

أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْإِنْجِيلِ مَكْتُوبٌ أَنَّهُ سَيَخْرُجُ قَوْمٌ يَنْبُتُونَ نَبَاتَ الزَّرْعِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَقِيلَ: الزَّرْعُ مُحَمَّدٌ والشطء أصحابه والمؤمنون، ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ أَيْ إِنَّمَا كَثَّرَهُمْ وَقَوَّاهُمْ لِيَكُونُوا غَيْظًا لِلْكَافِرِينَ. قَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ: مَنْ أَصْبَحَ وَفِي قَلْبِهِ غَيْظٌ عَلَىٰ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ أصابته هَذِهِ الْآيَةَ، ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ﴾ ﴿مِنْ﴾ فِي قَوْلِهِ ﴿مِنْهُمْ﴾ لِبَيَانِ الْجِنْسِ، وَالْمَعْنَىٰ: وَعَدَ اللهُ هَؤُلَاءِ الْأَخْيَارَ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مَغْفِرَةً لِذُنُوبِهِمْ وَثَوَابًا عَظِيمًا وَرِزْقًا كَرِيمًا يَنْعَمُونَ بِهِ فِي الْآخِرَةِ، وَعْدُ صِدْقٍ لَا يُبَدَّلُ وَلَا يُغَيَّرُ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا، ﴿مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ يَعْنِي الْجَنَّةَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَتْحِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الْحُجُرَاتِ

نَزَلَتْ فِي قِصَّةِ نِدَاءِ بَنِي تَمِيمٍ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ وَرَاءِ حُجُرَاتِهِ، فَعُرِفَتْ بِهَذِهِ الْإِضَافَةِ. وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ أَيْ: لَا تُقَدِّمُوا الْقَوْلَ بِالْفِعْلِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: تَقُولُ الْعَرَبُ: لَا تَقَدَّمْ بَيْنَ يَدَيِ الْإِمَامِ وَبَيْنَ يَدَيِ الْأَبِ، أَيْ لَا تَعْجَلْ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ دُونَهُ ، ومعنىٰ: بَيْنَ الْيَدَيْنِ الْأَمَامُ وَالْقُدَّامُ: أَيْ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ أَمْرِهِمَا وَنَهْيِهِمَا. قَالَ قَتَادَةُ: نَزَلَتِ الْآيَةُ فِي نَاسٍ كَانُوا يَقُولُونَ لَوْ أُنْزِلَ في كذا، وصُنع فِي كَذَا وَكَذَا، فَكَرِهَ اللهُ ذَلِكَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا تَقُولُوا خِلَافَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَقَالَ: نُهُوا أَنْ يَتَكَلَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ كَلَامِهِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَا تَفْتَئُوا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَيْءٍ حَتَّىٰ يَقْضِيَهُ اللهُ عَلَىٰ لِسَانِهِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: يَعْنِي فِي الْقِتَالِ وَشَرَائِعِ الدِّينِ لَا تَقْضُوا أَمْرًا دُونَ اللهِ ورسوله ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : هذه آيات آدّب الله تعالىٰ بِهَا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، فِيمَا يُعَامِلُونَ بِهِ الرَّسُولَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ

التَّوْقِيرِ وَالِاحْتِرَامِ، والتبجيل والإعظام، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ فِي تَضْيِيعِ حَقِّهِ وَمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ، ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بِأَفْعَالِكُمْ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: هَذَا أَدَبٌ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي خِطَابِهِ، أَيْ: لَا يَرْفَعِ الْمُخَاطِبُ لَهُ، صَوْتَهُ مَعَهُ، فَوْقَ صَوْتِهِ، وَلَا يَجْهَرْ لَهُ بِالْقَوْلِ، بَلْ يَغُضُّ الصَّوْتَ، وَيُخَاطِبُهُ بِأَدَبٍ وَلِينٍ، وَتَعْظِيمٍ وَتَكْرِيمٍ، وَإِجْلَالٍ وَإِعْظَامٍ، ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أَمَرَهُمْ أَنْ يُبَجِّلُوهُ وَيُفَخِّمُوهُ وَلَا يَرْفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ وَلَا يُنَادُونَهُ كَمَا يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: نَهَاهُمُ اللهُ أَنْ يُنَادُوهُ كَمَا يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُشَرِّفُوهُ وَيُعَظِّمُوهُ وَيَدْعُوهُ إِذَا دَعَوْهُ بِاسْمِ النُّبُوَّةِ. ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ لِئَلَّا تَحْبَطَ حَسَنَاتُكُمْ. وَقِيلَ: مَخَافَةَ أَنْ تَحْبَطَ حَسَنَاتُكُمْ: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أَيْ: إِنَّمَا نَهَيْنَاكُمْ عَنْ رَفْعِ الصَّوْتِ عِنْدَهُ خَشْيَةَ أَنْ يَغْضَبَ مِنْ ذَلِكَ، فَيَغْضَبَ اللهُ تَعَالَىٰ لِغَضَبِهِ، فَيُحْبِطَ اللهُ عَمَلَ مَنْ أَغْضَبَهُ وَهُوَ لَا يَدْرِي ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ افْتَقَدَ (ثابت بن قيس) رضي الله عنه، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا أَعْلَمُ لَكَ عِلْمَهُ، فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ فِي بَيْتِهِ مُنَكِّسًا رَأْسَهُ، فَقَالَ لَهُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: شَرٌّ، كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَتَىٰ الرَّجُلُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ: كَذَا وَكَذَا، قَالَ مُوسَىٰ: فَرَجَعَ إِلَيْهِ الْمَرَّةَ الْآخِرَةَ

بِبِشَارَةٍ عَظِيمَةٍ، فَقَالَ: «**اذْهَبْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أهل الجنة**»[1] .

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ﴾ يَخْفِضُونَ ﴿أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ﴾ إِجْلَالًا لَهُ، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ اخْتَبَرَهَا وَأَخْلَصَهَا كَمَا يُمْتَحَنُ الذَّهَبُ بِالنَّارِ فَيَخْرُجُ خَالِصُهُ، قَالَ الْفَرَّاءُ: أَيْ أَخْلَصَهَا لِلتَّقْوَىٰ. وَقَالَ الْأَخْفَشُ: أَيِ اخْتَصَّهَا لِلتَّقْوَىٰ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوىٰ﴾ طَهَّرَهُمْ مِنْ كُلِّ قَبِيحٍ، وَجَعَلَ فِي قلوبهم الخوف من الله وَالتَّقْوَىٰ ، وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَذْهَبَ عَنْ قُلُوبِهِمُ الشَّهَوَاتِ ، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ .

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً إِلَىٰ بَنِي الْعَنْبَرِ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ الْفَزَارِيَّ، فَلَمَّا عَلِمُوا أَنَّهُ تَوَجَّهَ نَحْوَهُمْ هَرَبُوا وَتَرَكُوا عِيَالَهُمْ، فَسَبَاهُمْ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ وَقَدِمَ بِهِمْ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَجَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ رِجَالُهُمْ يَفْدُونَ الذراري، فَجَعَلُوا يُنَادُونَ: يَا مُحَمَّدُ اخْرُجْ إلينا، ويصيحون، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وَصَفَهُمْ بِالْجَهْلِ وَقِلَّةِ الْعَقْلِ.

---

(١) البخاري (٣٦١٣) .

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أَيْ لَكَانَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْخِيَرَةُ، وَالْمَصْلَحَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قَالَ مُقَاتِلٌ: لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ لِأَنَّكَ كُنْتَ تَعْتِقُهُمْ جَمِيعًا وَتُطْلِقُهُمْ بِلَا فِدَاءٍ، وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْأَقْرَعِ بن حابس التميمي نَادَىٰ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ ، وَفِي رِوَايَةٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَلَمْ يُجِبْهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ حَمْدِي لَزَيْنٌ، وَإِنَّ ذَمِّي لشين، فقال: «**ذاك الله عزَّ وجلَّ**»(١) ، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَيْ: غَفُورٌ لِمَا صَدَرَ عَنْ عِبَادِهِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَالْإِخْلَالِ بِالْآدَابِ، رَحِيمٌ بِهِمْ، حَيْثُ لَمْ يُعَاجِلْهُمْ بِذُنُوبِهِمْ بِالْعُقُوبَاتِ وَالْمَثُلَاتِ، عَنْ يَعْلَىٰ بْنِ أُمَيَّةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ، يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسِّتْرَ**»(٢).

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ الْفَاسِقُ: الْمُتَّصِفُ بِالْفُسُوقِ، نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، بَعَثَهُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ بَنِي الْمُصْطَلِقِ بَعْدَ الْوَقْعَةِ مُصَدِّقًا ، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عَدَاوَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا سَمِعَ بِهِ الْقَوْمُ تَلَقَّوْهُ تَعْظِيمًا لِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَحَدَّثَهُ الشَّيْطَانُ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ قَتْلَهُ ، فَهَابَهُمْ فَرَجَعَ مِنَ الطَّرِيقِ إِلَىٰ

---

(١) أحمد (١٥٥٣١) .

(٢) أحمد (١٧٩٢٦) وأبو داود (٤٠١٢) .

رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عليه وسلم ، وقال: إِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ قَدْ مَنَعُوا صَدَقَاتِهِمْ وَأَرَادُوا قَتْلِي، فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهمّ أن يغزوهم، وَبَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَيْهِمْ خُفْيَةً فِي عَسْكَرٍ وَأَمَرَهُ أَنْ يُخْفِيَ عَلَيْهِمْ قُدُومَهُ، وَقَالَ لَهُ: انْظُرْ فَإِنْ رَأَيْتَ مِنْهُمْ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ إِيمَانِهِمْ فَخُذْ مِنْهُمْ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، وَإِنْ لَمْ تَرَ ذَلِكَ فَاسْتَعْمِلْ فِيهِمْ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْكُفَّارِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ خَالِدٌ وَوَافَاهُمْ فَسَمِعَ مِنْهُمْ أَذَانَ صَلَاتَيِ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، فَأَخَذَ مِنْهُمْ صَدَقَاتِهِمْ وَلَمْ يَرَ مِنْهُمْ إِلَّا الطَّاعَةَ وَالْخَيْرَ، فَانْصَرَفَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ﴾ يَعْنِي الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ، وَسُمِّيَ الْوَلِيدُ فَاسِقًا أي كاذبـًا ، وَقال سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: الْفَاسِقُ الْكَذَّابُ ، وَقَالَ ابْنُ طَاهِرٍ: الَّذِي لَا يَسْتَحِي مِنَ اللهِ ، ﴿بِنَبَإٍ﴾ بخبر، وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ: ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ مِنَ التَّثَبُّتِ، ﴿أَنْ تُصِيبُوا﴾ كَيْ لَا تُصِيبُوا بِالْقَتْلِ وَالْقِتَالِ، ﴿قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ مِنْ إِصَابَتِكُمْ بِالْخَطَأِ ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: فَتَبَيَّنُوا لِئَلَّا تُصِيبُوا قَوْمًا بُرَآءَ مِمَّا قُذِفُوا بِهِ بِجِنَايَةٍ بِجَهَالَةٍ مِنْكُمْ فَتَنْدَمُوا عَلَىٰ إِصَابَتِكُمْ إِيَّاهُمْ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ﴾ فَاتَّقُوا اللهَ أَنْ تَقُولُوا بَاطِلًا أَوْ تُكَذِّبُوهُ، فَإِنَّ اللهَ يُخْبِرُهُ وَيُعَرِّفُهُ أَحْوَالَكُمْ فَتَفْتَضِحُوا، ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ أَيِ الرَّسُولُ، ﴿فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ مِمَّا تُخْبِرُونَهُ بِهِ فَيَحْكُمُ بِرَأْيِكُمْ، ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ لَأَثِمْتُمْ وَهَلَكْتُمْ، وَالْعَنَتُ: الْإِثْمُ وَالْهَلَاكُ ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَمَعْنَىٰ طَاعَةِ الرَّسُولِ

لَهُمْ: الِائْتِمَارُ بِمَا يَأْمُرُ بِهِ فِيمَا يُبَلِّغُونَهُ عَنِ النَّاسِ وَالسَّمَاعِ مِنْهُمْ ، وَالْعَنَتُ الْإِثْمُ، يُقَالُ: عَنِتَ الرَّجُلُ ، ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ هَذَا خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ الَّذِينَ لَا يُكَذِّبُونَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا يُخْبِرُونَ بِالْبَاطِلِ، أَيْ جَعَلَ أَحَبَّ الْأَدْيَانِ إِلَيْكُمْ، ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي حسنه حتىٰ اخترتموه وتطيعوا رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ الْكَذِبَ، وَقِيلَ: كُلُّ مَا خَرَّجَ عَنِ الطَّاعَةِ، مُشْتَقٌّ مِنْ فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ خَرَجَتْ مِنْ قِشْرِهَا، وَالْفَأْرَةُ مِنْ جُحْرِهَا ، ﴿وَالْعِصْيَانَ﴾ جَمِيعَ مَعَاصِي اللهِ، وهو ترك الانقياد بما أمر به الشارع ثُمَّ عَادَ مِنَ الْخِطَابِ إِلَىٰ الْخَبَرِ، وَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ﴾ يَعْنِي هُمُ الَّذِينَ وَفَّقَهُمُ اللهُ فَحَبَّبَ إِلَيْهِمُ الْإِيمَانَ وَكَرَّهَ إِلَيْهِمُ الْكُفْرَ أَيْ قَبَّحَهُ عِنْدَهُمْ ﴿هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ المهتدون ، وَالرُّشْدُ الِاسْتِقَامَةُ عَلَىٰ طَرِيقِ الْحَقِّ مَعَ تَصَلُّبٍ فِيهِ، مِنَ الرشاد وهي الصخرة.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَنِعْمَةً﴾ أَيْ هَذَا الْعَطَاءُ الَّذِي مَنَحَكُمُوهُ، هُوَ فَضْلٌ مِنْهُ عَلَيْكُمْ، وَنِعْمَةٌ مِنْ لَدُنْهُ ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أَيْ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ، مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْغَوَايَةَ، حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ بِالدُّعَاءِ إِلَىٰ حُكْمِ كِتَابِ اللهِ وَالرِّضَا بِمَا فِيهِ لَهُمَا وَعَلَيْهِمَا، عن أَنَس رضي الله عنه قَالَ، قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبي، فَانْطَلَقَ إليه النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَكِبَ حِمَارًا، وَانْطَلَقَ الْمُسْلِمُونَ يَمْشُونَ وَهِيَ

أَرْضٌ سَبْخَةٌ، فَلَمَّا انْطَلَقَ النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه قَالَ: إِلَيْكَ عَنِّي فَوَاللهِ لَقَدْ آذَانِي رِيحُ حِمَارِكَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: وَاللهِ لَحِمَارُ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَطْيَبُ رِيحًا مِنْكَ، قَالَ: فَغَضِبَ لِعَبْدِ اللهِ رِجَالٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَغَضِبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابُهُ، قَالَ: فَكَانَ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ وَالْأَيْدِي وَالنِّعَالِ، فَبَلَغَنَا أَنَّهُ أُنْزِلَتْ فِيهِمْ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾[1]، وَالطَّائِفَةُ مِنَ الشَّيْءِ الْقِطْعَةُ مِنْهُ ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : فسمَّاهُمْ مُؤْمِنِينَ مَعَ الِاقْتِتَالِ، وَبِهَذَا اسْتَدَلَّ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ، عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يخرج عن الْإِيمَانِ بِالْمَعْصِيَةِ وَإِنْ عَظُمَتْ ، وهكذا ثَبَتَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ يَوْمًا وَمَعَهُ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ الْحَسَنُ بن علي رضي الله عنهما، فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ مَرَّةً، وَإِلَىٰ النَّاسِ أُخرىٰ وَيَقُولُ: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللهَ تعالىٰ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ المسلمين**»[2] ، ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ تعدت إحداهما، ﴿عَلَىٰ الْأُخْرَىٰ﴾ وَأَبَتِ الْإِجَابَةَ إِلَىٰ حُكْمِ كِتَابِ اللهِ، ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ﴾ ترجع ﴿إِلَىٰ أَمْرِ اللهِ﴾ في كتابه وحكمه، ﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ رَجَعَتْ إِلَىٰ الْحَقِّ، ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ بِحَمْلِهِمَا عَلَىٰ الْإِنْصَافِ وَالرِّضَا بِحُكْمِ الله، ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ اعْدِلُوا ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أَيْ: الْعَادِلِينَ فِي حُكْمِهِمْ بَيْنَ

---

(١) البخاري (٢٦٩١) ومسلم (١٧٩٩) .

(٢) البخاري (٢٧٠٤) .

النَّاسِ ، وَقد سُئِلَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ عَنِ الْقِتَالِ بَيْنَ الصَّحَابَةِ؟ فَقَالَ: شَهِدَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ وَغِبْنَا ، وَعَلِمُوا وَجَهِلْنَا ، وَقَالَ الْمُحَاسِبِيُّ: تَعْلَمُ أَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا أَعْلَمَ بِمَا دَخَلُوا فِيهِ مِنَّا.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ فِي الدِّينِ وَالْوِلَايَةِ، ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ إذا اختلفا واقتتلا، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فَلَا تَعْصُوهُ وَلَا تُخَالِفُوا أَمْرَهُ، لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ أي رجال من رجال، والقوم اسْمٌ يَجْمَعُ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ، وَقَدْ يَخْتَصُّ بِجَمْعِ الرِّجَالِ، ﴿عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أَيْ لَا يَعِبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَلَا يَطْعَنْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ التَّنَابُزُ : مِنَ النَّبْزِ وَهُوَ اللَّقَبُ، وَهُوَ أَنْ يُدْعَىٰ الْإِنْسَانُ بِغَيْرِ مَا سُمِّي بِهِ ، قَالَ عكرمة: وهو قَوْلُ الرَّجُلِ لِلرَّجُلِ: يَا فَاسِقُ يَا مُنَافِقُ يَا كَافِرُ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : كَانَ الْيَهُودِيُّ وَالنَّصْرَانِيُّ يُسْلِمُ، فَيُقَالُ لَهُ بَعْدَ إِسْلَامِهِ يَا يهودي يا نصراني، فنهوا عنه ذَلِكَ. قَالَ عَطَاءٌ: هُوَ أَنْ تَقُولَ لِأَخِيكَ: يَا كَلْبُ يَا حِمَارُ يَا خِنْزِيرُ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ: التَّنَابُزُ بِالْأَلْقَابِ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ عَمِلَ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابَ عَنْهَا فنُهِي أَنْ يعير بما سلف عن عَمَلِهِ، ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أَيْ بِئْسَ الِاسْمُ أَنْ يَقُولَ: يَا يَهُودِيُّ أَوْ يَا فَاسِقُ بَعْدَ مَا آمَنَ وَتَابَ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ: إِنَّ مَنْ فَعَلَ مَا نُهِي عَنْهُ مِنَ السُّخْرِيَةِ وَاللَّمْزِ

وَالنَّبْزِ فَهُوَ فَاسِقٌ، وَبِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ، فَلَا تَفْعَلُوا ذَلِكَ فَتَسْتَحِقُّوا اسْمَ الْفُسُوقِ، ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ﴾ مِنْ ذَلِكَ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ﴾ وَأَرَادَ أَنْ يَظُنَّ بِأَهْلِ الْخَيْرِ شراً ، وَالظَّنُّ - كَمَا يَقُولُ ابْنُ كَثِيرٍ - هُوَ التُّهْمَةُ وَالتَّخَوُّنُ لِلْأَهْلِ وَالنَّاسِ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، لِأَنَّ بَعْضَ ذَلِكَ يَكُونُ إِثْمًا مَحْضًا، قَالَ عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لَا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَخِيكَ الْمُؤْمِنِ إِلَّا خَيْرًا وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ محملاً، ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: الظَّنُّ ظَنَّانِ أَحَدُهُمَا إِثْمٌ، وَهُوَ أَنْ تَظُنَّ وَتَتَكَلَّمَ بِهِ، وَالْآخَرُ لَيْسَ بِإِثْمٍ وَهُوَ أَنْ تَظُنَّ وَلَا تَتَكَلَّمَ ، وَعَنِ الْحَسَنَ البصري قَالَ : كُنَّا فِي زَمَنِ الظَّنُّ بِالنَّاسِ فِيهِ حَرَامٌ، وَأَنْتَ الْيَوْمَ فِي زَمَنِ اعْمَلْ وَاسْكُتْ وَظُنَّ فِي النَّاسِ مَا شِئْتَ،﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ التَّجَسُّسُ : هُوَ الْبَحْثُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ، نَهَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَنِ البحث عن المستور من عيوب النَّاسِ وَتَتَبُّعِ عَوْرَاتِهِمْ حَتَّىٰ لَا يَظْهَرَ عَلَىٰ مَا سَتَرَهُ اللهُ منها، وفي صحيح البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَنَافَسُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**»(١) ، أَمَّا الْفَرْقُ بَيْنَ التَّجَسُّسِ وَالتَّحَسُّسِ فَقَدْ قَالَ بَعْضُ

---

(١) مسلم (٢٥٦٣) .

الْعُلَمَاءِ: التَّحَسُّسُ بِالْحَاءِ: الِاسْتِمَاعُ لِحَدِيثِ الْقَوْمِ. وَبِالْجِيمِ: الْبَحْثُ عَنِ الْعَوْرَاتِ ، وَقِيلَ: بِالْجِيمِ: التَّفْتِيشُ عَنْ بَوَاطِنِ الْأُمُورِ، وَأَكْثَرُ مَا يُقَالُ فِي الشَّرِّ، وَالْجَاسُوسُ صَاحِبُ سِرِّ الشَّرِّ، وَالنَّامُوسُ صَاحِبُ سِرِّ الْخَيْرِ، وَقِيلَ: بِالْجِيمِ: أَنْ تَطْلُبَهُ لِغَيْرِكَ، وَبِالْحَاءِ: أَنْ تَطْلُبَهُ لِنَفْسِكَ؛ قَالَهُ ثَعْلَبٌ. وَقِيلَ: هُمَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ؛ وَهُوَ طَلَبُ مَعْرِفَةِ الْأَخْبَارِ الْغَائِبَةِ وَالْأَحْوَالِ قَوْلُهُ ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ يَقُولُ: لَا يَتَنَاوَلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِظَهْرِ الْغَيْبِ بِمَا يَسُوءُهُ مِمَّا هو فِيهِ، وَقَدْ فَسّرها النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « قِيلَ: يَا رَسُولَ الله ما الغيبة؟ قال صلىٰ الله عليه وسلم: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**» قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كان في أخي ما أقول؟ قال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بهتّه**»[1]، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: لَمَّا قِيلَ لَهُمْ ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ قالوا: لا، قيل: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أَيْ فَكَمَا كَرِهْتُمْ هَذَا فَاجْتَنِبُوا ذكره بالسوء غائبًا ، وقال الزَّجَّاجُ: تَأْوِيلُهُ: إِنَّ ذِكْرَكَ مَنْ لَمْ يَحْضُرْكَ بِسُوءٍ بِمَنْزِلَةِ أَكْلِ لَحْمِ أَخِيكَ، وَهُوَ مَيِّتٌ لَا يحس بذلك، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ قَالَ الْجُمْهُورُ مِنَ الْعُلَمَاءِ: طَرِيقُ الْمُغْتَابِ لِلنَّاسِ فِي تَوْبَتِهِ أَنْ يقلع عن ذلك، ويعزم علىٰ أن لا يَعُودَ، وَهَلْ يُشْتَرَطُ النَّدَمُ عَلَىٰ مَا فَاتَ؟ فِيهِ نِزَاعٌ، وَأَنْ يَتَحَلَّلَ مِنَ الَّذِي اغْتَابَهُ.

---

(١) مسلم (٢٥٨٩) .

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ﴾ يَعْنِي آدَمَ وَحَوَّاءَ أَيْ إِنَّكُمْ مُتَسَاوُونَ فِي النَّسَبِ ، ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا﴾ جَمْعُ ، وَهِيَ رُءُوسُ الْقَبَائِلِ مِثْلُ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ وَالْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، سُمُّوا شُعُوبًا لِتَشَعُّبِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ، كَشُعَبِ أَغْصَانِ الشَّجَرِ، وَالشَّعْبُ مِنَ الْأَضْدَادِ يُقَالُ: شَعَبَ أَيْ جَمَعَ وَشَعَبَ أَيْ فَرَّقَ، ﴿وَقَبَائِلَ﴾ هي دُونُ الشُّعُوبِ، وَاحِدَتُهَا قَبِيلَةٌ وَهِيَ كَبَكْرٍ مِنْ رَبِيعَةَ وَتَمِيمٍ مِنْ مُضَرَ، وَدُونَ الْقَبَائِلِ الْعَمَائِرُ، وَاحِدَتُهَا عمارة، بفتح العين وهي كَشَيْبَانَ مِنْ بِكْرٍ وَدَارِمٍ مِنْ تَمِيمٍ، وَدُونَ الْعَمَائِرِ الْبُطُونُ، وَاحِدَتُهَا بطن، وهي كَبَنِي غَالِبٍ وَلُؤَيٍّ مِنْ قُرَيْشٍ، وَدُونَ الْبُطُونِ الْأَفْخَاذُ وَاحِدَتُهَا فَخِذٌ وَهُمْ كَبَنِي هَاشِمٍ وَأُمَيَّةَ مِنْ بَنِي لُؤَيٍّ، ثُمَّ الْفَصَائِلُ وَالْعَشَائِرُ وَاحِدَتُهَا فَصِيلَةٌ وَعَشِيرَةٌ، وَلَيْسَ بَعْدَ الْعَشِيرَةِ حَيٌّ يُوصَفُ بِهِ وَقِيلَ: الشُّعُوبُ مِنَ الْعَجَمِ، وَالْقَبَائِلُ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْأَسْبَاطُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وقال أبو روق: الشعوب من الَّذِينَ لَا ينتسبون إِلَىٰ أَحَدٍ، بَلْ يَنْتَسِبُونَ إِلَىٰ الْمَدَائِنِ وَالْقُرَىٰ، وَالْقَبَائِلُ الْعَرَبُ الَّذِينَ يَنْتَسِبُونَ إِلَىٰ آبائهم. ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ لِيَعْرِفَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فِي قُرْبِ النَّسَبِ وَبُعْدِهِ، لَا لِيَتَفَاخَرُوا. ثُمَّ أَخبَرَ أَنَّ أَرْفَعَهُمْ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللهِ أَتْقَاهُمْ فَقَالَ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : التَّقْوَىٰ معناها مُرَاعَاةُ حُدُودِ اللهِ تَعَالَىٰ أَمْرًا وَنَهْيًا، وَالِاتِّصَافُ بِمَا أَمَرَكَ أَنْ تَتَّصِفَ بِهِ، وَالتَّنَزُّهُ عَمَّا نَهَاكَ عَنْهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَقُولُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ: أَنَا أَكْرَمُ مِنْكَ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَكْرَمَ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا

بِالتَّقْوَىٰ ، ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ قَالَ قَتَادَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ أَكْرَمَ الْكَرَمِ التَّقْوَىٰ، وَأَلْأَمُ اللؤم الفجور.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: نَزَلَتْ فِي الْأَعْرَابِ الْمَذْكُورِينَ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا﴾ [الفتح : ١١] ، وَالْأَعْرَابُ: سُكَّانُ الْبَادِيَةِ مِنَ الْعَرَبِ ، قَالَ السَّعْدِيُّ: يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ مَقَالَةِ الْأَعْرَابِ، الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دُخُولًا مِنْ غَيْرِ بَصِيرَةٍ، وَلَا قِيَامٍ بِمَا يَجِبُ وَيَقْتَضِيهِ الْإِيمَانُ، أَنَّهُمْ ادَّعَوْا مَعَ هَذَا وَقَالُوا: آمَنَّا أَيْ: إِيمَانًا كَامِلًا مُسْتَوْفِيًا لِجَمِيعِ أُمُورِهِ هَذَا مُوجِبُ هَذَا الْكَلَامِ، فَأَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ، أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ، ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أَيِ اسْتَسْلَمْنَا خَوْفَ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ، وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُنَافِقِينَ؟ لِأَنَّهُمْ أَسْلَمُوا فِي ظاهر إيمانهم ولم نؤمن قُلُوبُهُمْ، وَحَقِيقَةُ الْإِيمَانِ التَّصْدِيقُ بِالْقَلْبِ ، ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ التَّصْدِيقُ بِالْقَلْبِ، وَأَنَّ الْإِقْرَارَ بِاللِّسَانِ وَإِظْهَارِ شَرَائِعِهِ بِالْأَبْدَانِ لَا يَكُونُ إِيمَانًا دون التصديق بالقلب والإخلاص، ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا سِرًّا وَعَلَانِيَةً، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : تُخْلِصُوا الْإِيمَانَ، ﴿لَا يَلِتْكُمْ﴾ لَا يَنْقُصُكُمْ يُقَالُ: لَاتَهُ مِثْلُ بَاعَهُ ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور : ٢١] ، وَالْمَقْصُودُ: إِنْ تُخْلِصُوا الطَّاعَةَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ لَا يَنْقُصْكُمْ رَبُّكُمْ

مِنْ أُجُورِ طَاعَتِكُمْ شَيْئًا، ﴿مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أَيْ لَا يَنْقُصُ مِنْ ثَوَابِ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا، ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ثُمَّ بَيَّنَ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ، فقال :

[١٥] : ﴿إِنَّمَآ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الكُمَّل ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ أَيْ لَمْ يَشُكُّوا وَلَا تَزَلْزَلُوا، بَلْ ثَبَتُوا عَلَىٰ حَالٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ التَّصْدِيقُ الْمَحْضُ، ﴿وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ أَيْ وَبَذَلُوا مُهَجَهُمْ وَنَفَائِسَ أَمْوَالِهِمْ فِي طَاعَةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أَيْ فِي قَوْلِهِمْ إِذَا قَالُوا إِنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ، لَا كَبَعْضِ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ مِّن الإيمان إلا الكلمة الظاهرة، قَالَ البغوي : فَلَمَّا نَزَلَتْ هَاتَانِ الْآيَتَانِ أَتَتِ الْأَعْرَابُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ صَادِقُونَ، وَعَرَفَ اللهُ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-:

[١٦] : ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ﴾ أَيْ بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ وَالِامْتِثَالِ لِمَعَالِمِ الدِّينِ ، وَالتَّعْلِيمُ هَاهُنَا بِمَعْنَىٰ الْإِعْلَامِ، وَلِذَلِكَ قَالَ بِدِينِكُمْ وَأَدْخَلَ الْبَاءَ فِيهِ، يَقُولُ أَتُخْبِرُونَ اللهَ بِدِينِكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ، ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم﴾ أي لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ إِخْبَارِكُمْ ، أَيْ: وَاللهُ الَّذِي تَعْلَمُونَهُ أَنَّكُمْ مُؤْمِنُونَ هُوَ عَلَّامُ جَمِيعِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ، وَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾ أَيْ بِإِسْلَامِكُمْ، الْمَنُّ: ذِكْرُ الْأَيَادِي تَعْرِيضًا لِلشُّكْرِ، وَالْمَعْنَىٰ: أَيَمُنُّ عَلَيْكَ -يَا

مُحَمَّدُ- هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابُ بِإِسْلَامِهِمْ وَمُتَابَعَتِهِمْ وَنُصْرَتِهِمْ ؟! ، ﴿بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إِنَّكُمْ مُؤْمِنُونَ. كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْأَنْصَارِ يَوْمَ حُنَيْنٍ: «**يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي؟ وكنتم عالة فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي؟**» كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا ، قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ »[1].

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أَيْ: الْأُمُورُ الْخَفِيَّةُ فِيهِمَا، الَّتِي تَخْفَىٰ عَلَىٰ الْخَلْقِ، كَالَّذِي فِي لُجَجِ الْبِحَارِ، وَمَهَامِهِ الْقِفَارِ، وَمَا جَنَّهُ اللَّيْلُ أَوْ وَارَاهُ النَّهَارُ، يَعْلَمُ قَطَرَاتِ الْأَمْطَارِ، وَحَبَّاتِ الرِّمَالِ، وَمَكْنُونَاتِ الصُّدُورِ، وَخَبَايَا الْأُمُورِ. ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يُحْصِي عَلَيْكُمْ أَعْمَالَكُمْ، وَيُوفِيكُمْ إِيَّاهَا، وَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا بِمَا تَقْتَضِيهِ رَحْمَتُهُ الْوَاسِعَةُ، وَحِكْمَتُهُ الْبَالِغَةُ .

تَمَّ **تَفْسِيرُ** سُورَةِ الْحُجُرَاتِ بِعَوْنِ اللهِ وَمَنِّهِ وَجُودِهِ وَكَرَمِهِ.

---

(١) البخاري (٤٣٣٠) ومسلم (١٠٦١) .

سُورَةُ ق

وهي مكية ، وَرَوَىٰ مُسْلِمٌ عَنْ أُمِّ هِشَامٍ بِنْتِ حَارِثَةَ بْنِ النُّعْمَانِ «مَا أَخَذْتُ ﴿ق . وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ ، إِلَّا عَنْ لِسَانِ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَقْرَؤُهَا كُلَّ يَوْمٍ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ إِذْ خَطَبَ النَّاسَ»(١) .

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ق﴾ هُوَ كَأَشْبَاهِهِ مِنَ الْحُرُوفِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ، ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ الشَّرِيفِ الْكَرِيمِ عَلَىٰ اللهِ الْكَثِيرِ الخير، وَقِيلَ: الْكَثِيرُ، مَأْخُوذٌ مِنْ كَثْرَةِ الْقَدْرِ وَالْمَنْزِلَةِ لَا مِنْ كَثْرَةِ الْعَدَدِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: كَثِيرُ فُلَانٍ فِي النُّفُوسِ، واختلفوا في جواب هذا الْقَسَمِ، فَقَالَ أَهْلُ الْكُوفَةِ: جَوَابُهُ بَلْ عَجِبُوا وَقِيلَ: جَوَابُهُ مَحْذُوفٌ، مَجَازُهُ: وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ لَتُبْعَثُنَّ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾ أي: المكذبون للرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ﴾ رَسُولٌ يُخَوِّفُهُمْ مِنَ النَّارِ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُنْذِرُ بِالْعِقَابِ وَالْحِسَابِ فِي الْآخِرَةِ ، أَيْ مَا تَأْكُلُ مِنْ أَجْسَادِهِمْ فَلَا يَضِلُّ عنا شي حَتَّىٰ تَتَعَذَّرَ عَلَيْنَا الْإِعَادَةُ ، ﴿مِنْهُمْ﴾ يَعْرِفُونَ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ، ﴿فَقَالَ

---

(١) مسلم (٨٧٣) .

الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ غَرِيبٌ ، أَيْ تَعَجَّبُوا مِنْ إِرْسَالِ رَسُولٍ إِلَيْهِمْ مِنَ البشر.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ أَيْ يَقُولُونَ أئذا مِتْنَا وَبَلِينَا وَتَقَطَّعَتِ الْأَوْصَالُ مِنَّا وَصِرْنَا تُرَابًا، كَيْفَ يُمْكِنُ الرُّجُوعُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ هَذِهِ الْبِنْيَةِ وَالتَّرْكِيبِ؟ ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أَيْ بَعِيدُ الوقوع، وَغَيْرُ كَائِنٍ أَيْ يَبْعُدُ أَنْ نُبْعَثَ بَعْدَ الْمَوْتِ ، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ : وَالرَّجْعُ: مَصْدَرُ رَجَعَ، أَيِ الرُّجُوعُ إِلَىٰ الْحَيَاةِ، وَمَعْنَىٰ بَعِيدٌ أَنَّهُ بَعِيدٌ عَنْ تَصَوُّرِ الْعَقْلِ، أَيْ هُوَ أَمر مُسْتَحِيل.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي ما تَأْكُلُ مِنْ لُحُومِهِمْ وَدِمَائِهِمْ وَعِظَامِهِمْ لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ، قَالَ السُّدِّيُّ: هُوَ الْمَوْتُ، يَقُولُ: قَدْ عَلِمْنَا مَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ وَمَنْ يَبْقَىٰ، ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ مَحْفُوظٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَمِنْ أَنْ يدس ويتغير، وَقِيلَ: حَفِيظٌ أَيْ حَافِظٌ لِعِدَّتِهِمْ وأسمائهم.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ بِالْقُرْآنِ، وَقِيلَ: الْإِسْلَامُ. وَقِيلَ: مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ مُخْتَلِطٍ، وَأَصْلُ الْمَرَجِ الِاضْطِرَابُ وَالْقَلَقُ، يُقَالُ: مَرِجَ أَمْرُ النَّاسِ وَمَرِجَ أَمْرُ الدِّينِ وَمَرِجَ الْخَاتَمُ فِي إِصْبَعِي إِذَا قَلِقَ مِنَ الْهُزَالِ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ: مُلْتَبِسٌ ، قَالَ قَتَادَةُ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَنْ تَرَكَ الْحَقَّ مُرِجَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَالْتَبَسَ عَلَيْهِ دِينُهُ، وَقَالَ الْحَسَنُ: مَا تَرَكَ قَوْمٌ الْحَقَّ إِلَّا مُرِجَ أَمْرُهُمْ ، وقال الزَّجَّاجُ مَعْنَىٰ اخْتِلَاطِ أَمْرِهِمْ : هُوَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّةً شَاعِرٌ، وَمَرَّةً سَاحِرٌ، وَمَرَّةً مُعَلَّمٌ،

وَيَقُولُونَ لِلْقُرْآنِ مَرَّةً سِحْرٌ، وَمَرَّةً رَجَزٌ، وَمَرَّةً مُفْتَرًىٰ، فَكَانَ أمرهم مختلطا ملتبسا عليهم، ثُمَّ دَلَّهُمْ عَلَىٰ قُدْرَتِهِ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ السَّماءِ فَوْقَهُمْ﴾ نَظَرَ اعْتِبَارٍ وَتَفَكُّرٍ، وَأَنَّ الْقَادِرَ عَلَىٰ إِيجَادِهَا قَادِرٌ عَلَىٰ الْإِعَادَةِ ، ﴿كَيْفَ بَنَيْناها﴾ فَرَفَعْنَاهَا بِلَا عَمَدٍ ﴿وَزَيَّنَّاها﴾ بِالنُّجُوم ﴿وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ﴾ جَمْعُ فَرْجٍ وَهُوَ الشَّقُّ، وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: لَيْسَ فِيهَا تَفَاوُتٌ وَلَا اخْتِلَافٌ وَلَا فُتُوقٌ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ بَسَطْنَاهَا عَلَىٰ وَجْهِ الْمَاءِ ، أَيْ بَسَطَ الْأَرْضَ طُولًا وَعَرْضًا،﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جِبَالًا ثَوَابِتَ، ، وَاحِدُهَا رَاسِيَةٌ، لِأَنَّ الْأَرْضَ تَرْسُو بِهَا، أَيْ تَثْبُتُ، وَالْإِرْسَاءُ الثُّبُوتُ، ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ حَسَنٍ كَرِيمٍ يُبْهَجُ بِهِ، أَيْ يسر.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَبْصِرَةً﴾ أَيْ جَعَلْنَا ذَلِكَ تَبْصِرَةً لِنَدُلَّ بِهِ عَلَىٰ كَمَالِ قُدْرَتِنَا. وَالتَّبْصِيرُ: جَعْلُ الْمَرْءِ مُبْصِرًا ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ وَالذِّكْرَىٰ اسْمُ مَصْدَرِ ذَكَرَ، إِذَا جَعَلَهُ يَذْكُرُ مَا نَسِيَهُ، وَأُطْلِقَتْ هُنَا عَلَىٰ مُرَاجَعَةِ النَّفْسِ مَا عَلِمَتْهُ ثُمَّ غَفَلَتْ عَنْهُ، ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ رَاجِعٌ إِلَىٰ الله تعالىٰ متفكر في قدرته. وَالْمُنِيبُ: الرَّاجِعُ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ كَثِيرَ الْخَيْرِ ، وَفِيهِ حَيَاةُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْمَطَرُ، ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ يَعْنِي الْبُرَّ وَالشَّعِيرَ

وَسَائِرَ الْحُبُوبِ الَّتِي تَحْصُدُ فَأَضَافَ الْحَبَّ إِلَىٰ الْحَصِيدِ، قَالَ الضَّحَّاكُ: حَبُّ الْحَصِيدِ الْبُرُّ وَالشَّعِيرُ. وَقِيلَ: كُلُّ حَبٍّ يُحْصَدُ وَيُدَّخَرُ وَيُقْتَاتُ .

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ الْبَاسِقَاتُ: الطِّوَالُ ، يُقَالُ: بَسَقَتِ النَّخْلَةُ بُسُوقًا إِذَا طَالَتْ ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: مستويات ، ﴿لَهَا طَلْعٌ﴾ ثَمَرٌ وَحَمْلٌ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَطَّلِعُ، وَالطَّلْعُ أَوَّلُ مَا يَظْهَرُ قبل أن ينشق، ﴿نَضِيدٌ﴾ مُتَرَاكِبٌ مُتَرَاكِمٌ مَنْضُودٌ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي أَكْمَامِهِ، فَإِذَا خَرَجَ مِنْ أَكْمَامِهِ فَلَيْسَ بِنَضِيدٍ .

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ أَيْ جَعَلْنَاهَا رِزْقًا لِلْعِبَادِ، قَالَ الطَّبَرِيُّ : يَقُولُ: أَنْبَتْنَا بِهَذَا الْمَاءِ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ هَذِهِ الْجَنَّاتِ، وَالْحَبَّ وَالنَّخْلَ قُوتًا لِلْعِبَادِ، بَعْضُهَا غِذَاءٌ، وَبَعْضُهَا فَاكِهَةٌ وَمَتَاعًا ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ بِالْمَطَرِ ، ﴿بَلْدَةً مَيْتًا﴾ هِيَ الْأَرْضُ الَّتِي كَانَتْ هَامِدَةً، فَلَمَّا نَزَلَ عَلَيْهَا الْمَاءُ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، مِنْ أَزَاهِيرَ وَغَيْرِ ذَلِكَ مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعدما كَانَتْ لَا نَبَاتَ بِهَا فَأَصْبَحَتْ تَهْتَزُّ خضراء، فَهَذَا مِثَالٌ لِلْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْهَلَاكِ، كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَىٰ، وَهَذَا الْمُشَاهَدُ مِنْ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ بِالْحِسِّ، أَعْظَمُ مِمَّا أَنْكَرَهُ الْجَاحِدُونَ لِلْبَعْثِ، ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ مِنَ الْقُبُورِ ، أَيْ: كَذَلِكَ كَمَا أَحْيَا اللهُ هَذِهِ الْأَرْضَ الْمَيْتَةَ فَإِنَّهُ يُخْرِجُكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ أَحْيَاءً بَعْدَ مَوْتِكُمْ وَفَنَائِكُمْ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : يَقُولُ تَعَالَىٰ مُتَهَدِّدًا لِكَفَّارِ قُرَيْشٍ، بما أحله بأشباههم ونظرائهم مِنَ الْمُكَذِّبِينَ قَبْلَهُمْ مِنَ النَّقَمَاتِ وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ كقوم نوح، وما عذبهم الله تعالىٰ بِهِ مِنَ الْغَرَقِ الْعَامِّ لِجَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَثَمُودُ﴾ وَهُمْ قَوْمُ صَالِحٍ، الَّذِينَ عَقَرُوا النَّاقَةَ وَاسْتَكْبَرُوا فَأُهْلِكُوا بِالصَّيْحَةِ، وَأَمَّا أَصْحابَ الرَّسِّ فَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَعْيِينِهِمْ وَاتَّفَقُوا عَلَىٰ أَنَّ الرَّسَّ بِئْرٌ عَظِيمَةٌ أَوْ حَفِيرٌ كَبِيرٌ، وَسَمَّوْا بِالرَّسِّ مَا عَرَفُوهُ مِنْ بِلَادِ فَارِسَ، وَإِضَافَةُ أَصْحابَ إِلَىٰ الرَّسِّ إِمَّا لِأَنَّهُمْ أَصَابَهُمُ الْخَسْفُ فِي رَسٍّ، وَإِمَّا لِأَنَّهُمْ نَازِلُونَ عَلَىٰ رَسٍّ، وَإِمَّا لِأَنَّهُمُ احْتَفَرُوا رَسًّا، كَمَا سُمِّيَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ الَّذِينَ خَدُّوهُ وَأَضْرَمُوهُ، وَالْأَكْثَرُ عَلَىٰ أَنَّهُ مِنْ بِلَادِ الْيَمَامَةِ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ وَالسُّدِّيُّ: الرَّسُّ بِئْرٌ بِأَنْطَاكِيَةَ، وَأَصْحَابُ الرَّسِّ أَهْلُ أَنْطَاكِيَةَ بُعِثَ إِلَيْهِمْ حَبِيبٌ النَّجَّارُ فَقَتَلُوهُ وَرَسُّوهُ فِي بِئْرٍ وَهُوَ الْمَذْكُورُ فِي سُورَةِ يس : ﴿وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعىٰ قالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:٢٠] .

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴾ قَوْلُهُ: ﴿وَعَادٌ﴾ وَهُمْ قَوْمُ هُودٍ، أُهْلِكُوا -لَمَّا كَذَّبُوا- بِالرِّيحِ الصَّرْصَرِ الْعَاتِيَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَهُمْ أُمَّتُهُ الَّذِينَ بُعِثَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ سَدُومَ وَمُعَامَلَتِهَا فِي الْغَوْرِ، وَكَيْفَ خَسَفَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِمُ الْأَرْضَ، وَأَحَالَ أَرْضَهُمْ بُحَيْرَةً مُنْتِنَةً خَبِيثَةً، بِكُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمُ الْحَقَّ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ وَهُمْ قَوْمُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَالَ قَتَادَةُ: وَالْأَيْكَةُ: الشَّجَرُ الْمُلْتَفُّ، ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وَهُوَ تُبَّعٌ الْحِمْيَرِيُّ، وَاسْمُهُ أَسْعَدُ أَبُو كَرِبٍ، قَالَ قَتَادَةُ: ذَمَّ اللهُ قومه وَلَمْ يَذُمَّهُ، ذَكَرْنَا قِصَّتَهُ فِي سُورَةِ الدُّخَانِ ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أَيْ كُلٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ كذب الرسل، ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ وجب لهما عَذَابِي، وَفِيهِ تَسْلِيَةٌ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَهْدِيدٌ لَهُمْ ثُمَّ أَنْزَلَ جَوَابًا لِقَوْلِهِمْ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ.

[١٥] : ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ يَعْنِي أَعَجَزْنَا حِينَ خَلَقْنَاهُمْ أَوَّلًا فَنَعْيَا بِالْإِعَادَةِ ، وَهَذَا تَقْرِيرٌ لَهُمْ لِأَنَّهُمُ اعْتَرَفُوا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ وَأَنْكَرُوا الْبَعْثَ، قَالَ مُجَاهِدٌ: أَفَعَيِيَ عَلَيْنَا حِينَ أَنْشَأْنَاكُمْ خَلْقًا جَدِيدًا فَتَمْتَرُوا بِالْبَعْثِ ، يُقَالُ: عَيِيتَ بِالْأَمْرِ إِذَا لَمْ تَعْرِفْ وَجْهَهُ ، ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ﴾ أَيْ فِي شَكٍّ، ﴿مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو البعث.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ يحدث به قلبه فلا يَخْفَىٰ عَلَيْنَا سَرَائِرُهُ وَضَمَائِرُهُ، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أَعْلَمُ بِهِ، ﴿مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ لِأَنَّ أَبْعَاضَهُ وَأَجْزَاءَهُ يَحْجُبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَلَا يَحْجُبُ عِلْمَ اللهِ شيء، وحبل الْوَرِيدِ عِرْقُ الْعُنُقِ، وَالْوَرِيدُ: حَبْلُ الْعَاتِقِ الْمُمْتَدُّ مِنْ نَاحِيَةِ الْحَلْقِ إِلَىٰ الْعَاتِقِ، وَهُمَا وَرِيدَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ، وَيَتَفَرَّقُ فِي سائر الْبَدَنِ، وَالْحَبْلُ هُوَ الْوَرِيدُ، فَأُضِيفَ إِلَىٰ نَفْسِهِ لِاخْتِلَافِ اللَّفْظَيْنِ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ إذ يَتَلَقَّىٰ وَيَأْخُذُ الْمَلَكَانِ الْمُوَكَّلَانِ بِالْإِنْسَانِ عَمَلَهُ وَمَنْطِقَهُ يَحْفَظَانِهِ وَيَكْتُبَانِهِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: مَلَكَانِ يَتَلَقَّيَانِ عَمَلَكَ: أَحَدُهُمَا عَنْ يَمِينِك يَكْتُبُ حَسَنَاتِك، وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِك يَكْتُبُ سَيِّئَاتِكَ ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ﴾ أَيْ أَحَدُهُمَا عَنْ يَمِينِهِ وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَالَّذِي عَنِ الْيَمِينِ يَكْتُبُ الْحَسَنَاتِ، وَالَّذِي عَنِ الشِّمَالِ يكتب السيئات. وَ(قَعِيدٌ) بِمَعْنَىٰ قَاعِدٍ كَالسَّمِيعِ وَالْعَلِيمِ وَالْقَدِيرِ وَالشَّهِيدِ ، قيل: أَرَادَ بِالْقَعِيدِ الْمُلَازِمَ الَّذِي لَا يَبْرَحُ، لَا الْقَاعِدَ الَّذِي هُوَ ضد القائم ، قال مُجَاهِدٌ: الْقَعِيدُ الرَّصِيدُ ، وَقَالَ سُفْيَانُ: بَلَغَنِي أَنَّ كَاتِبَ الْحَسَنَاتِ أَمِينٌ عَلَىٰ كَاتِبِ السَّيِّئَاتِ فَإِذَا أَذْنَبَ العبد، قال لَا تَعْجَلْ لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ اللهَ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ مَا يَتَكَلَّمُ مِنْ كَلَامٍ فَيَلْفِظُهُ أَيْ يَرْمِيهِ مِنْ فِيهِ، ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ حافظ، ﴿عَتِيدٌ﴾ حَاضِرٌ أَيْنَمَا كَانَ ، قَالَ الْحَسَنُ البصري : إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَجْتَنِبُونَ الْإِنْسَانَ عَلَىٰ حَالَيْنِ عِنْدُ غَائِطِهِ وَعِنْدَ جِمَاعِهِ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ غَمْرَتُهُ وَشِدَّتُهُ الَّتِي تَغْشَىٰ الْإِنْسَانَ وتغلب علىٰ عقله، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ لَمَّا تَغَشَّاهُ الْمَوْتُ جَعَلَ يَمْسَحُ الْعَرَقَ عَنْ وجهه ويقول: « **سُبْحَانَ اللهِ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ** »(١) ، ﴿بِالْحَقِّ﴾ أَيْ بِحَقِيقَةِ الْمَوْتِ، وَقِيلَ: بِالْحَقِّ مِنْ

(١) البخاري (٤٤٤٩) .

أَمْرِ الْآخِرَةِ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَهُ الْإِنْسَانُ وَيَرَاهُ بِالْعِيَانِ، وَقِيلَ: بِمَا يَئُولُ إِلَيْهِ أَمْرُ الْإِنْسَانِ مِنَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ ، وَيُقَالُ: لِمَنْ جَاءَتْهُ سَكْرَةُ الْمَوْتِ، ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ تَمِيلُ، قَالَ الْحَسَنُ: تَهْرُبُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَكْرَهُ، وَأَصْلُ الحَيْد الْمَيْل، يُقَالُ: حدتُ عَنِ الشَّيْءِ أَحِيدُ حَيْدًا ومَحِيدًا إِذَا مِلْتُ عنه.

[٢٠] قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ يَعْنِي نَفْخَةَ الْبَعْثِ، ليقوم الناس من قبورهم لرب العالمين، فِي الْحَدِيثِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وحَنَىٰ جَبْهَتَهُ وَانْتَظَرَ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ»، ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ أَيْ ذَلِكَ الْيَوْمُ يَوْمُ الْوَعِيدِ الَّذِي وَعَدَهُ اللهُ لِلْكُفَّارِ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ فِيهِ ، قَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي بِالْوَعِيدِ الْعَذَابَ أَيْ يَوْمَ وُقُوعِ الوعيد.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَاءَتْ﴾ ذَلِكَ الْيَوْمَ، ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ﴾ يسوقها إلىٰ المحشر، ﴿وَشَهِيدٌ﴾ أَيْ مَلَكٌ يَسُوقُهُ إِلَىٰ المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله، هذه هُوَ الظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَهُوَ اخْتِيَارُ الطبري ، وقال أبو هُرَيْرَةَ: السَّائِقُ الْمَلَكُ، وَالشَّهِيدُ الْعَمَلُ، وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: السَّائِقُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالشَّهِيدُ الْإِنْسَانُ نَفْسُهُ يَشْهَدُ عَلَىٰ نَفْسِهِ. وَالسَّائِقُ الَّذِي يَجْعَلُ غَيْرَهُ أَمَامَهُ يُزْجِيهِ فِي السَّيْرِ لِيَكُونَ بِمَرْأًىٰ مِنْهُ كَيْلَا يَنْفَلِتَ ، فيقول الله لها:

[٢٢] : ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ الْيَوْمِ فِي الدُّنْيَا، قيل: إن المراد بذلك الكافر، وقيل: أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ، لِأَنَّ الْآخِرَةَ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الدُّنْيَا كَالْيَقِظَةِ، وَالدُّنْيَا كَالْمَنَامِ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : والظاهر من السياق أن الْخِطَابُ

مَعَ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ، وَالْمُرَادُ بقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ يَعْنِي مِنْ هَذَا الْيَوْمِ، ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ قَلْبِكَ وَسَمْعِكَ وَبَصَرِكَ، ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ نَافِذٌ تُبْصِرُ مَا كُنْتَ تُنْكِرُ فِي الدُّنْيَا. لأن كل أحد يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ مُسْتَبْصِرًا، حَتَّىٰ الْكُفَّارُ فِي الدُّنْيَا يَكُونُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ الِاسْتِقَامَةِ، لَكِنْ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ ، وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: يَعْنِي نَظَرَكَ إِلَىٰ لِسَانِ مِيزَانِكَ حِينَ تُوزَنُ حَسَنَاتُكَ وَسَيِّئَاتُكَ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ الْمَلِكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ، يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ الملك الموكل بعمل آدَمَ، أَنَّهُ يَشْهَدُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا فَعَلَ وَيَقُولُ ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أَيْ هَذَا مَا عِنْدِي مِنْ كِتَابَةِ عَمَلِهِ مُعَدٌّ مَحْفُوظٌ ، وَقِيلَ: (مَا) بِمَعْنَىٰ (من) ، وقال مُجَاهِدٌ: يَقُولُ هَذَا الَّذِي وَكَّلْتَنِي بِهِ مِنَ ابْنِ آدَمَ حَاضِرٌ عندك قَدْ أَحْضَرْتُهُ وَأَحْضَرْتُ دِيوَانَ أَعْمَالِهِ ، فَيَقُولُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- لِقَرِينِهِ:

[٢٤] : ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ هَذَا خِطَابٌ لِلْوَاحِدِ بِلَفْظِ التَّثْنِيَةِ علىٰ عادة العرب، يقولون: وَيْلَكَ ارْحَلَاهَا وَازْجُرَاهَا وَخُذَاهَا وَأَطْلِقَاهَا، لِلْوَاحِدِ، قَالَ الْفَرَّاءُ: وَأَصْلُ ذَلِكَ أَنَّ أَدْنَىٰ أَعْوَانِ الرَّجُلِ فِي إِبِلِهِ وَغَنَمِهِ وَسِفْرِهِ اثْنَانِ، فَجَرَىٰ كَلَامُ الْوَاحِدِ عَلَىٰ صَاحِبَيْهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ فِي الشِّعْرِ لِلْوَاحِدِ : خليليَّ ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: هَذَا أَمْرٌ لِلسَّائِقِ وَالشَّهِيدِ، وَقِيلَ: للمتلقيين، ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ مُعْرِضٍ عَنِ الْحَقِّ. قَالَ عِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ: مُجَانِبٌ لِلْحَقِّ مُعَانِدٌ لِلَّهِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ:

الْعَنِيدُ الْمُعْرِضُ عَنِ الْحَقِّ، يُقَالُ عَنَدَ يَعْنِدُ بِالْكَسْرِ عُنُودًا أَيْ خَالَفَ وَرَدَّ الْحَقَّ وَهُوَ يَعْرِفُهُ فَهُوَ عَنِيدٌ وَعَانِدٌ، وَجَمْعُ الْعَنِيدِ عُنُدٌ مِثْلُ رَغِيفٍ وَرُغُفٌ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ أَيْ لِلزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ وَكُلِّ حَقٍّ وجب في ماله، وَالْمَنَّاعُ: الْكَثِيرُ الْمَنْعِ، أَيْ صَدِّ النَّاسِ عَنِ الْخَيْرِ، وَالْخَيْرُ هُوَ الْإِيمَانُ، كَانُوا يَمْنَعُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَذَوِيهِمْ مِنِ اتِّبَاعِ الْإِيمَانِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ كَانَ يَقُولُ لِبَنِي أَخِيهِ «مَنْ دَخَلَ مِنْكُمْ فِي الْإِسْلَامِ لَا أَنْفَعُهُ بِشَيْءٍ مَا عِشْتُ» ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظَالِمٍ لَا يُقِرُّ بِتَوْحِيدِ اللهِ ﴿مُرِيبٍ﴾ شَاكٍّ فِي التَّوْحِيدِ، وَمَعْنَاهُ: دَاخِلٌ فِي الرَّيْبِ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي: عبد معه غيره، ممن لا يملك لنفسه نفعًا، ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة، ولا نشورًا، ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ أيها الملكان القرينان ﴿فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ وهو النار ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: « **يَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَتَكَلَّمُ يَقُولُ: وُكِّلْتُ الْيَوْمَ بِثَلَاثَةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَمَنْ جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ، فَتَنْطَوِي عَلَيْهِمْ فَتَقْذِفُهُمْ فِي غَمَرَاتِ جَهَنَّمَ**»(١) .

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ يَعْنِي الشَّيْطَانَ الَّذِي قُيِّضَ لِهَذَا الكافر، ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ مَا أَضْلَلْتُهُ وَمَا أَغْوَيْتُهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: قَالَ

---

(١) أحمد (٨٤١١) والترمذي (٢٥٧٤) .

قَرِينُهُ يَعْنِي الْمَلِكَ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَقُولُ الْكَافِرُ يَا رَبِّ إِنَّ الْمَلِكَ زَادَ عَلَيَّ فِي الْكِتَابَةِ، فَيَقُولُ الْمَلِكُ: رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ، يَعْنِي مَا زِدْتُ عَلَيْهِ وَمَا كتبتُ إِلَّا مَا قَالَ وَعَمِلَ، وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ طَوِيلٍ لَا يَرْجِعُ عَنْهُ إِلىٰ الحق ، ﴿وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق فيتبرأ منه شَيْطَانُهُ .

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ يَعْنِي يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ:﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ يَعْنِي الْكَافِرِينَ وَقُرَنَاءَهُمْ مِنَ الشَّيَاطِينِ ، قَالَ الْقُشَيْرِيُّ: وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْقَرِينَ الشَّيْطَانُ. ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ فِي الْقُرْآنِ وَأَنْذَرْتُكُمْ وَحَذَّرْتُكُمْ عَلَىٰ لِسَانِ الرَّسُولِ، وَقَضَيْتُ عَلَيْكُمْ مَا أَنَا قَاضٍ.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ لَا تَبْدِيلَ لِقَوْلِي وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] وَقَالَ قَوْمٌ : مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ أَيْ: لَا يكذب القول عِنْدِي، وَلَا يُغَيَّرُ الْقَوْلُ عَنْ وَجْهِهِ لِأَنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَهَذَا قَوْلُ الْكَلْبِيِّ وَاخْتِيَارُ الْفَرَّاءِ، لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ ولم يقل ما يبدل لي ، ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فَأُعَاقِبُهُمْ بِغَيْرِ جُرْمٍ.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ﴾ وَذَلِكَ لِمَا سَبَقَ لَهَا مِنْ وَعْدِهِ إِيَّاهَا أَنَّهُ يَمْلَؤُهَا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ، وَهَذَا السُّؤَالُ مِنَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- لِتَصْدِيقِ خَبَرِهِ وتحقيق وعده، ﴿وَتَقُولُ﴾ جهنم، ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أَيْ مَا بَقِيَ

فِيَّ مَوْضِعٌ لِلزِّيَادَةِ، كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: « **هَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رَبْعٍ أَوْ مَنْزِلٍ**»[1] أَيْ مَا تَرَكَ، فَمَعْنَىٰ الْكَلَامِ الْجَحْدُ .

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ أي قربت مِنْهُمْ ، وَقِيلَ: هَذَا قَبْلَ الدُّخُولِ فِي الدُّنْيَا، أَيْ قُرِّبَتْ مِنْ قُلُوبِهِمْ حِينَ قِيلَ لَهُمُ اجتنبوا المعاصي، ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الشرك، ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلُوهَا.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ يُقَالُ لَهُمْ: هَذَا الَّذِي تَرَوْنَهُ مَا تُوعَدُونَ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رَجَّاعٍ إِلَىٰ الطَّاعَةِ عَنِ الْمَعَاصِي، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ هُوَ الَّذِي يُذْنِبُ ثُمَّ يَتُوبُ ثُمَّ يُذْنِبُ ثُمَّ يَتُوبُ. وَقَالَ الشَّعْبِيُّ وَمُجَاهِدٌ: الَّذِي يَذْكُرُ ذُنُوبَهُ فِي الْخَلَاءِ فَيَسْتَغْفِرُ مِنْهَا. قَالَ عبيد بن عمير : كُنَّا نُحَدَّثُ أَنَّ الْأَوَّابَ الْحَفِيظَ الَّذِي إِذَا قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ مِمَّا أَصَبْتُ فِي مَجْلِسِي هَذَا ، وَفِي الْحَدِيثِ: «**مَنْ قَالَ - إِذَا قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ - : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا كَانَ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ** »[2] ، ﴿حَفِيظٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ الَّذِي يَحْفَظُ ذُنُوبَهُ حَتَّىٰ يَرْجِعَ عَنْهَا وَيَسْتَغْفِرَ مِنْهَا، قَالَ قَتَادَةُ: حَفِيظٌ لِمَا اسْتَوْدَعَهُ اللهُ مِنْ حَقِّهِ ، وَقَالَ الضحاك: المحافظ عَلَىٰ نَفْسِهِ الْمُتَعَهِّدُ

---

(١) البخاري (١٥٨٨) ومسلم (١٣٥١) .

(٢) أحمد (١٠٤٢٠) والترمذي (٣٤٣٣) .

لَهَا، قَالَ الشَّعْبِيُّ: الْمُرَاقِبُ ، وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عبد الله: هو الْمُحَافِظُ عَلَىٰ الطَّاعَاتِ وَالْأَوَامِرِ.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: مَنْ خَافَ الرَّحْمَنَ وَأَطَاعَهُ بِالْغَيْبِ وَلَمْ يَرَهُ ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ: يَعْنِي فِي الْخَلْوَةِ حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ ، قَالَ الْحَسَنُ البصري : إِذَا أَرْخَىٰ السِّتْرَ وَأَغْلَقَ الباب ، ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ مُخْلِصٍ مُقْبِلٍ إِلَىٰ طَاعَةَ اللهِ ،

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ادْخُلُوهَا﴾ أَيْ يُقَالُ لِأَهْلِ هَذِهِ الصِّفَةِ: ادْخُلُوهَا، أَيِ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ، ﴿بِسَلَامٍ﴾ بِسَلَامَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَالْهُمُومِ، وَقِيلَ: بِسَلَامٍ مِنَ اللهِ وَمَلَائِكَتِهِ عَلَيْهِمْ ، وَقِيلَ: بِسَلَامَةٍ مِنْ زَوَالِ النِّعَمِ، ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ .

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ اللهَ تَعَالَىٰ حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ مَسْأَلَتُهُمْ فَيُعْطَوْنَ مَا شَاءُوا، ثُمَّ يَزِيدُهُمُ اللهُ مِنْ عِنْدِهِ مَا لَمْ يَسْأَلُوهُ، وَهُوَ قوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ يَعْنِي الزِّيَادَةَ لَهُمْ فِي النَّعِيمِ مما لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِمْ. وَقَالَ جَابِرٌ وَأَنَسٌ: هُوَ النَّظَرُ إِلَىٰ وَجْهِ الله الكريم.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ قبل هؤلاء المكذبين ﴿مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أَيْ كانوا أكثر منهم وأشد قوة، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَنَقَّبُواْ فِي البلاد ﴾ ضَرَبُوا وَسَارُوا وَتَقَلَّبُوا وَطَافُوا، وَأَصْلُهُ مِنَ النَّقْبِ وَهُوَ الطَّرِيقُ كَأَنَّهُمْ سَلَكُوا كُلَّ طَرِيقٍ، قَالَ قَتَادَةُ: فَسَارُوا فِي الْبِلَادِ أَيْ سَارُوا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب ، وَيُقَالُ لِمَنْ طَوَّفَ فِي الْبِلَادِ، نَقَّبَ فِيهَا، ﴿هَلْ

مِنْ مَحِيصٍ﴾ أَيْ هَلْ مِنْ مَفَرٍّ لَهُمْ مِنْ قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ؟ وَقِيلَ: هَلْ مِنْ مَحِيصٍ: مَفَرٍّ مِنَ الْمَوْتِ؟ فَلَمْ يَجِدُوا منه مفرًّا، وإنذار لِأَهْلِ مَكَّةَ وَأَنَّهُمْ عَلَىٰ مِثْلِ سَبِيلِهِمْ لَا يَجِدُونَ مَفَرًّا عَنِ الْمَوْتِ، يَمُوتُونَ فَيَصِيرُونَ إِلَىٰ عَذَابِ الله ، وَالْمَحِيصُ: مِنْ حَاصَ إِذَا عَدَلَ وَجَادَ، أَيْ لَمْ يَجِدُوا مَحِيصًا مِنَ الْإِهْلَاكِ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فِيمَا ذَكَرْتُ مِنَ الْعِبَرِ وَالْعَذَابِ وَإِهْلَاكِ الْقُرَىٰ، ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ تَذْكِرَةً وَعِظَةً، ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ عَقْلٌ. قَالَ الْفَرَّاءُ: هَذَا جَائِزٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ، تَقُولُ: مَا لَكَ قَلْبٌ وَمَا قَلْبُكَ مَعَكَ، أَيْ مَا عَقْلُكَ مَعَكَ. وَقِيلَ: لَهُ قَلْبٌ حَاضِرٌ مَعَ اللهِ ، ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ اسْتَمَعَ الْقُرْآنَ، وَاسْتَمَعَ مَا يُقَالُ لَهُ لَا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِغَيْرِهِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: أَلْقِ إِلَيَّ سمعك، يعني استمع، ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ويعني حَاضِرُ الْقَلْبِ لَيْسَ بِغَافِلٍ وَلَا ساه.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : فِيهِ تقرير للمعاد، لِأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَىٰ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ، قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بِطَرِيقِ الْأَوْلَىٰ وَالْأَحْرَىٰ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: قَالَتِ الْيَهُودُ - عَلَيْهِمْ لِعَائِنُ اللهِ - خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ وَهُوَ يَوْمُ السَّبْتِ، وَهُمْ يُسَمُّونَهُ يوم الراحة فأنزل الله تعالىٰ تَكْذِيبَهُمْ فِيمَا قَالُوهُ وَتَأَوَّلُوهُ: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أَيْ مِنْ إِعْيَاءٍ وَلَا تَعَبٍ وَلَا نَصَبٍ ، وَاللُّغُوبُ فِي اللغة : الْإِعْيَاءُ مِنَ الْجَرْيِ وَالْعَمَلِ الشَّدِيدِ.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَمَرَهُ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ مَا يَقُولُهُ الْمُشْرِكُونَ، أَيْ هَوِّنْ أَمْرَهُمْ عَلَيْكَ ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : نَزَلَتْ قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ فَهِيَ مَنْسُوخَةٌ ، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أَيْ صلِّ حَمْدًا لِلَّهِ، ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يَعْنِي صَلَاةَ الصُّبْحِ، ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ يَعْنِي صَلَاةَ الْعَصْرِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَبْلَ الْغُرُوبِ الظُّهْرُ وَالْعَصْرُ، قَالَ أَبُو صَالِحٍ: قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ صَلَاةُ الصُّبْحِ، وَقَبْلَ الْغُرُوبِ صَلَاةُ الْعَصْرِ، وَرَوَاهُ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ مَرْفُوعًا، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ نَظَرَ إِلَىٰ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَقَالَ: «**أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا**- يَعْنِي الْعَصْرَ وَالْفَجْرَ » ، ثُمَّ قَرَأَ جَرِيرٌ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ .

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ يَعْنِي صَلَاةَ الْمَغْرِبِ وَالْعَشَاءِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: وَمِنَ اللَّيْلِ أَيْ صَلَاةِ اللَّيْلِ أَيَّ وَقْتٍ صَلَّىٰ، ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخِطَابِ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: أَدْبَارَ السُّجُودِ الرَّكْعَتَانِ بَعْدَ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ، وَأَدْبَارُ النُّجُومِ الرَّكْعَتَانِ قَبْلَ صَلَاةَ الْفَجْرِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: قَوْلُهُ: ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ هُوَ التَّسْبِيحُ بِاللِّسَانِ فِي أدبار الصلوات المكتوبات ، وَعن

علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي عَلَىٰ أَثَرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ رَكْعَتَيْنِ إِلَّا الْفَجْرَ وَالْعَصْرَ(١) .

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أَيْ وَاسْتَمِعْ يَا مُحَمَّدُ صَيْحَةَ الْقِيَامَةِ، وَالنُّشُورِ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي، قَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي إِسْرَافِيلَ يُنَادِي بِالْحَشْرِ يَا أَيَّتُهَا الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ وَالْأَوْصَالُ الْمُتَقَطِّعَةُ وَاللُّحُومُ الْمُتَمَزِّقَةُ وَالشُّعُورُ الْمُتَفَرِّقَةُ، إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُنَّ أَنْ تَجْتَمِعْنَ لفصل القضاء.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ وَهِيَ الصَّيْحَةُ الْأَخِيرَةُ، ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ أَيْ يَوْمُ الْخُرُوجِ مِنَ الْقُبُورِ.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ نُمِيتُ الْأَحْيَاءَ وَنُحْيِي الْمَوْتَىٰ، أَثْبَتَ هُنَا الْحَقِيقَةَ ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ أَيْ هُوَ الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وَإِلَيْهِ مَصِيرُ الْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ، فَيُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ أي: عن الأموات ، جَمْعُ سَرِيعٍ أَيْ يَخْرُجُونَ سِرَاعًا، وفي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَنَس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ**»(٢)، ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا﴾ أَيْ تِلْكَ إِعَادَةٌ سهلة علينا ﴿يَسِيرٌ﴾ أَيْ هَيِّنٌ سَهْلٌ ، قَالَ

---

(١) أحمد (٧٣٤) .

(٢) مسلم (٢٢٧٨) .

الْقَاسِمِيُّ: أَيْ ذَلِكَ الْإِخْرَاجُ لَهُمْ جَمْعٌ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ، عَلَيْنَا سَهْلٌ بِلَا كُلْفَةٍ.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ يَعْنِي كَفَّارَ مَكَّةَ فِي تَكْذِيبِكَ، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ بِمُسَلَّطٍ تُجْبِرُهُمْ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ إِنَّمَا بُعِثْتَ مُذَكِّرًا، ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أَيْ مَا أَوْعَدْتُ بِهِ مَنْ عَصَانِي مِنَ الْعَذَابِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ خَوَّفْتَنَا، فَنَزَلَتْ: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ كَانَ قَتَادَةُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ يَخَافُ وَعِيدَكَ، وَيَرْجُو مَوْعُودَكَ، يَا بَارُّ يا رحيم.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ ق بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ ، وَهِيَ سِتُّونَ آيَةً .

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ يَعْنِي الرِّيَاحَ الَّتِي تَذْرُو التُّرَابَ ذَرْوًا، قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الرِّيحُ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ يَعْنِي السَّحَابَ الَّتِي تَحْمِلُ ثُقْلًا مِنَ الْمَاءِ، وَالْوِقْرُ بِكَسْرِ الْوَاوِ: الشَّيْءُ الثَّقِيلُ ، وَأَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ الْوِقْرُ فِي حَمْلِ الْبَغْلِ وَالْحِمَارِ، وَالْوَسْقُ فِي حِمْلِ الْبَعِيرِ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ هِيَ السُّفُنُ تَجْرِي فِي الْمَاءِ جريا سهلًا.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ هِيَ الْمَلَائِكَةُ يُقَسِّمُونَ الْأُمُورَ بَيْنَ الْخَلْقِ عَلَىٰ مَا أُمِرُوا بِهِ، أَقْسَمَ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ لِمَا فِيهَا مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَىٰ صُنْعِهِ وَقُدْرَتِهِ ، ثُمَّ ذَكَرَ الْمُقْسَمَ عَلَيْهِ فَقَالَ:

[٥] : ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، ﴿لَصَادِقٌ﴾ أَيْ لَخَبَرُ صِدْقٍ، أَيْ إِنَّ أَمْرَ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ لَخَبَرُ صِدْقٍ .

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾ الْحِسَابُ وَالْجَزَاءُ، ﴿لَوَاقِعٌ﴾ لَكَائِنٌ، قَالَ قَتَادَةُ: يَوْمُ يُدَانُ النَّاسُ فِيهِ بِأَعْمَالِهِمْ ، ثُمَّ ابْتَدَأَ قَسَمًا آخَرَ فقال:

[٧] : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وقَتَادَةُ وَعِكْرِمَةُ: ذَاتِ الْخَلْقِ الْحَسَنِ الْمُسْتَوِي، يُقَالُ لِلنَّسَّاجِ إِذَا نَسَجَ الثَّوْبَ فَأَجَادَ: مَا أَحْسَنَ حَبْكَه قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ذَاتُ الزِّينَةِ، قَالَ الْحَسَنُ البصري : حُبِكَتْ بِالنُّجُومِ ، قَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ الْمُتْقَنَةُ الْبُنْيَانِ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ وَالْكَلْبِيُّ وَالضَّحَّاكُ: ذَاتُ الطَّرَائِقِ كَحُبُكِ الْمَاءِ إِذَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ، وَحُبُكِ الرَّمْلِ وَالشَّعْرِ الْجَعْدِ، وَلَكِنَّهَا لَا تُرَىٰ لِبُعْدِهَا مِنَ النَّاسِ، وَهِيَ جَمْعُ حِبَاكٍ وَحَبِيكَةٍ، وَجَوَابُ الْقَسَمِ قوله في الآية التالية:

[٨] : ﴿إِنَّكُمْ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ، ﴿لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ فِي الْقُرْآنِ وَفِي مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَقُولُونَ فِي الْقُرْآنِ سِحْرٌ وَكِهَانَةٌ وَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، وَفِي مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاحِرٌ وَشَاعِرٌ وَمَجْنُونٌ ، وَقِيلَ: لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ أَيْ مُصَدِّقٍ وَمُكَذِّبٍ ، وَقِيلَ: اخْتِلَافُهُمْ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ نَفَىٰ الْحَشْرَ وَمِنْهُمْ مَنْ شَكَّ فِيهِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ عَبَدَةُ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُهُمْ وَيَعْبُدُونَ غَيْرَهُ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ يُصْرَفُ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ مِنْ صُرِفَ حَتَّىٰ يُكَذِّبَهُ، يَعْنِي مَنْ حَرَمَهُ اللهُ الْإِيمَانَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِالْقُرْآنِ،

وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ يُصْرَفُ عَنْ ذَلِكَ الِاخْتِلَافِ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ. أَفَكَهُ يَأْفِكُهُ أَفْكًا أَيْ قَلَبَهُ وَصَرَفَهُ عَنِ الشَّيْءِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَجِئْتَنا لِتَأْفِكنا﴾ [الأحقاف: ٢٢].

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ لُعِنَ الْكَذَّابُونَ، فَيَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ كَذَّابٌ سَاحِرٌ شَاعِرٌ، وَهَذَا دُعَاءٌ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمَقْتُولِ الْهَالِكِ، يُقَالُ: تَخَرَّصَ عَلَىٰ فُلَانٍ الْبَاطِلَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ قُتِلَ الْمُرْتَابُونَ، يَعْنِي الْكَهَنَةَ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَسْنَا نُبْعَثُ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ غفلة وعمىٰ وجهالة، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي الْكُفْرِ وَالشَّكِّ غَافِلُونَ لَاهُونَ والْغَمْرَةُ مَا سَتَرَ الشَّيْءَ وَغَطَّاهُ. وَمِنْهُ نَهَرٌ غَمْرٌ أَيْ يَغْمُرُ مَنْ دَخَلَهُ، وَمِنْهُ غَمَرَاتُ الْمَوْتِ، ﴿سَاهُونَ﴾ لَاهُونَ غَافِلُونَ عَنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ، وَالسَّهْوُ: الْغَفْلَةُ عَنِ الشَّيْءِ، وَهُوَ ذَهَابُ الْقَلْبِ عَنْهُ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ يَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ مَتَىٰ يَوْمُ الْجَزَاءِ، يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَكْذِيبًا وَاسْتِهْزَاءً، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

[١٣]: ﴿يَوْمَ هُمْ﴾ أَيْ يَكُونُ هَذَا الْجَزَاءُ فِي يَوْمَ هُمْ ﴿عَلَىٰ النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أَيْ: يُعَذَّبُونَ وَيُحْرَقُونَ بِهَا كَمَا يُفْتَنُ الذَّهَبُ بِالنَّارِ، وَقِيلَ: عَلَىٰ بِمَعْنَىٰ الْبَاءِ أَيْ بِالنَّارِ، وَتَقُولُ لَهُمْ خَزَنَةُ النَّارِ:

[١٤]: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أَيْ يُقَالُ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَكُمْ، ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا تَكْذِيبًا بِهِ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أَيْ: الَّذِينَ كَانَتِ التَّقْوَىٰ شِعَارَهُمْ، وَطَاعَةُ اللهِ دِثَارَهُمْ، ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ مُشْتَمِلَاتٍ عَلَىٰ جَمِيعِ أَصْنَافِ الْأَشْجَارِ، وَالْفَوَاكِهِ، الَّتِي يُوجَدُ لَهَا نَظِيرٌ فِي الدُّنْيَا، وَالَّتِي لَا يُوجَدُ لَهَا نَظِيرٌ، مِمَّا لَمْ تَنْظُرِ الْعُيُونُ إِلَىٰ مِثْلِهِ، وَلَمْ تَسْمَعِ الْآذَانُ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَىٰ قُلُوبِ الْعِبَادِ ﴿وَعُيُونٍ﴾ نَقِيَّةٍ، تَشْرَبُ مِنْهَا تِلْكَ الْبَسَاتِينُ، وَيَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ، يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا .

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ﴾ أعطاهم، ﴿رَبُّهُمْ﴾ مِنَ الْخَيْرِ وَالْكَرَامَةِ، أَيْ مِنَ النَّعِيمِ وَالسُّرُورِ والغبطة ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ قبل دخولهم الجنة، فِي الدَّارِ الدنيا، ﴿مُحْسِنِينَ﴾ فِي الدُّنْيَا ، الْمَعْنَىٰ كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُفْرَضَ عَلَيْهِمُ الْفَرَائِضُ مُحْسِنِينَ فِي أَعْمَالِهِمْ .

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ وَالْهُجُوعُ النَّوْمُ بِاللَّيْلِ دُونَ النَّهَارِ، وَالْمَعْنَىٰ: كَانُوا يَهْجَعُونَ قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ أَيْ يُصَلُّونَ أَكْثَرَ اللَّيْلِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ كَانَ اللَّيْلُ الَّذِي يَنَامُونَ فِيهِ كُلُّهُ قليلا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَانُوا قَلَّ لَيْلَةٌ تَمُرُّ بِهِمْ إِلَّا صَلَّوْا فِيهَا شَيْئًا إِمَّا مِنْ أولها أو من أوسطها.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ البصري : لَا يَنَامُونَ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا أَقَلَّهُ، وَرُبَّمَا نَشِطُوا فَمَدُّوا إِلَىٰ السَّحَرِ، ثُمَّ أَخَذُوا فِي الأسحار بالاستغفار. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ وَمُجَاهِدٌ وَمُقَاتِلٌ: وَبِالْأَسْحَارِ يُصَلُّونَ، وَذَلِكَ أَنَّ صَلَاتَهُمْ بِالْأَسْحَارِ طلب المغفرة.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ السَّائِلُ الَّذِي يَسْأَلُ النَّاسَ، وَالْمَحْرُومُ الذي ليس له في الغنيمة سَهْمٌ، وَلَا يُجْرَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْفَيْءِ شَيْءٌ، هَذَا قَوْلُ ابْنِ عباس وسعيد بن المسيب، قال: الْمَحْرُومُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ فِي الْإِسْلَامِ سَهْمٌ، وَمَعْنَاهُ فِي اللُّغَةِ: الَّذِي مُنِعَ الْخَيْرَ وَالْعَطَاءَ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَالزُّهْرِيُّ: الْمَحْرُومُ الْمُتَعَفِّفُ الَّذِي لَا يَسْأَلُ، وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: هُوَ الْمُصَابُ ثَمَرُهُ أَوْ زَرْعُهُ أَوْ نَسْلُ مَاشِيَتِهِ بآفة.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ﴾ عبر، ﴿لِلْمُوقِنِينَ﴾ إِذَا سَارُوا فِيهَا، مِنَ الْجِبَالِ وَالْبِحَارِ وَالْأَشْجَارِ وَالثِّمَارِ وَأَنْوَاعِ النَّبَاتِ،.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ آيات إذا كَانَتْ نُطْفَةً ثُمَّ عَلَقَةً ثُمَّ مُضْغَةً ثُمَّ عَظْمًا إِلَىٰ أَنْ نُفِخَ فِيهَا الرُّوحُ، وَقَالَ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ اخْتِلَافَ الألسنة والصور والألوان والطبائع، قَالَ قَتَادَةُ: الْمَعْنَىٰ مَنْ سَارَ فِي الْأَرْضِ رَأَىٰ آيَاتٍ وَعِبَرًا، وَمَنْ تَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ عَلِمَ أَنَّهُ خُلِقَ لِيَعْبُدَ اللهَ، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يَعْنِي بَصَرَ الْقَلْبِ لِيَعْرِفُوا كَمَالَ قُدْرَتِهِ، قَالَ مُقَاتِلٌ: أَفَلَا تُبْصِرُونَ كَيْفَ خَلَقَكُمْ فَتَعْرِفُوا قُدْرَتَهُ عَلَىٰ الْبَعْثِ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الْمَطَرَ الَّذِي هُوَ سَبَبُ الأرزاق، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قَالَ عَطَاءٌ: مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: وَمَا تُوعَدُونَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ أَقْسَمَ بِنَفْسِهِ، فَقَالَ:

[٢٣] : ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ أَيْ: مَا ذَكَرْتُ مِنْ أَمْرِ الرزق لَحَقٌّ، ﴿مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ فَتَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، قَالَ السَّعْدِيُّ: فَكَمَا لَا تَشُكُّونَ فِي نُطْقِكُمْ، فَكَذَلِكَ لَا يَنْبَغِي الشَّكُّ فِي الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: كُنْتُ بِالْبَادِيَةِ أُعَلِّمُ الْقُرْآنَ، فَإِذَا أَنَا بِأَعْرَابِيٍّ بِيَدِهِ سَيْفٌ يَقْطَعُ الطَّرِيقَ، فَلَمَّا دَنَا مِنِّي لِيَأْخُذَ ثِيَابِي قَالَ لِي: يَا حَضَرِيُّ، مَا أَدْخَلَكَ الْبَدْوَ؟ قُلْتُ: أُعَلِّمُ الْقُرْآنَ. قَالَ: وَمَا الْقُرْآنُ؟ قُلْتُ: كَلَامُ اللهِ ، قَالَ: وَلِلَّهِ كَلَامٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ ، قَالَ: فَأَنْشِدْنِي مِنْهُ بَيْتًا فَقُلْتُ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قَالَ: فَرَمَىٰ بِالسَّيْفِ مِنْ يَدِهِ، وَقَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ، رِزْقِي فِي السَّمَاءِ وَأَنَا أَطْلُبُهُ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ لَقِيتُهُ بَعْدَ سَنَةٍ فِي الطَّوَافِ، فَقَالَ: أَلَسْتَ صَاحِبَكَ بِالْأَمْسِ؟ قُلْتُ: بَلَىٰ. قَالَ: فَأَنْشِدْنِي بَيْتًا آخَرَ فَقُلْتُ: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ قَالَ: فَوَقَفَ وَبَكَىٰ وَجَعَلَ يَقُولُ: وَمَنْ أَلْجَأَهُ إِلَىٰ الْيَمِينِ؟ فَلَمْ يَزَلْ يُرَدِّدُهَا حَتَّىٰ سَقَطَ مَيِّتًا.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهم الملائكة الذين جاءوه بالبشرىٰ كما في سورة هود آية ، ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ قِيلَ: سَمَّاهُمْ مُكْرَمِينَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مَلَائِكَةً كِرَامًا عِنْدَ اللهِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي وَصْفِهِمْ ، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاءِ: ٢٦] وَقِيلَ: لِأَنَّهُمْ كَانُوا ضَيْفَ إِبْرَاهِيمَ وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ أَكْرَمَ الْخَلِيقَةِ، وَضَيْفُ الْكِرَامِ مُكْرَمُونَ، وَقِيلَ: لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَكْرَمَهُمْ بِتَعْجِيلِ قِرَاهُمْ، وَالْقِيَامِ بِنَفْسِهِ عَلَيْهِمْ بِطَلَاقَةِ الْوَجْهِ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ﴾ إبراهيم، ﴿سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أَيْ: غُرَبَاءُ لَا نَعْرِفُكُمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ فِي نَفْسِهِ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا نَعْرِفُهُمْ. وَقِيلَ: إِنَّمَا أَنْكَرَ أَمْرَهُمْ لِأَنَّهُمْ دَخَلُوا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَرَاغَ﴾ فَعَدَلَ وَمَالَ، وَفِعْلُ «رَاغَ» مَعْنَاهُ: حَادَ عَنِ الشَّيْءِ، وَمَصْدَرُهُ الرَّوْغُ وَالرَّوَغَانُ، ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ أَيْ جَاءَ ضَيْفَهُ بِعِجْلٍ قَدْ شَوَاهُ لَهُمْ .

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ لِيَأْكُلُوا فَلَمْ يَأْكُلُوا، ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

[٢٨] : ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ حِينَ رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ، ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ وَأَخْبَرُوهُ بِمَا جَاؤُوا لَهُ ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ وَهُوَ: إِسْحَاقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ أَيْ فِي صَيْحَةٍ وَضَجَّةٍ، وَمِنْهُ أُخِذَ صَرِيرُ الْبَابِ وَهُوَ صَوْتُهُ. أَيْ أَخَذَتْ تُوَلْوِلُ كَمَا قال الله تعالىٰ في سورة هود: ﴿قَالَتْ يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَطَمَتْ وَجْهَهَا، وَقَالَ الْآخَرُونَ: جَمَعَتْ أَصَابِعَهَا فَضَرَبَتْ جَبِينَهَا تَعَجُّبًا، كَعَادَةِ النِّسَاءِ إِذَا أَنْكَرْنَ شَيْئًا، وَأَصْلُ الصَّكِّ: ضَرْبُ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ الْعَرِيضِ. ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ مَجَازُهُ: أَتَلِدُ عَجُوزٌ عَقِيمٌ، وَكَانَتْ سَارَةُ لَمْ تَلِدْ قَبْلَ ذَلِكَ.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ﴾ أَيْ: كَمَا قُلْنَا لَكَ قَالَ رَبُّكِ: إِنَّكَ سَتَلِدِينَ غُلَامًا، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ حَكِيمٌ فِيمَا يَفْعَلُهُ عَلِيمٌ بِمَصَالِحِ خلقه.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أَيْ مَا شَأْنُكُمْ وَقِصَّتُكُمْ.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ يَعْنِي قَوْمَ لُوطٍ.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ﴾ أَيْ لِنَرْجُمَهُمْ بِهَا.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: مُسَوَّمَةً أَيْ مُعَلَّمَةً، قِيلَ: كَانَتْ مُخَطَّطَةً بِسَوَادٍ وَبَيَاضٍ، وَقِيلَ: بِسَوَادٍ وَحُمْرَةٍ، وَقِيلَ: ﴿مُسَوَّمَةً﴾ أَيْ مَعْرُوفَةٌ بِأَنَّهَا حِجَارَةُ الْعَذَابِ، ﴿عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِلْمُشْرِكِينَ، وَالشِّرْكُ أَسْرَفُ الذُّنُوبِ وَأَعْظَمُهَا.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا﴾ أَيْ: فِي قُرَىٰ قَوْمِ لُوطٍ، ﴿مَنْ كَانَ﴾ وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ٨١]، أَيْ لَمَّا أَرَدْنَا إِهْلَاكَ قَوْمِ لُوطٍ أَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِي قَوْمِهِ ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لِئَلَّا يَهْلِكَ الْمُؤْمِنُونَ.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يَعْنِي لُوطًا وَبِنْتَيْهِ وَفِيهِ إِضْمَارٌ، أَيْ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ أَهْلِ بَيْتٍ. وَقَدْ يُقَالُ بَيْتٌ شَرِيفٌ

يُرَادُ بِهِ الْأَهْلُ، وَصْفَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ جَمِيعًا ؛ لِأَنَّهُ مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَهُوَ مسلم.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا﴾ أَيْ فِي مَدِينَةِ قَوْمِ لُوطٍ، ﴿آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أَيْ عَلَامَةً لِلْخَائِفِينَ تَدُلُّهُمْ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَهْلَكَهُمْ فَيَخَافُونَ مثل عذابهم ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ: جَعَلْنَاهَا عِبْرَةً لِمَا أَنْزَلْنَا بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَحِجَارَةِ السِّجِّيلِ، وَجَعَلْنَا مَحَلَّتَهُمْ بُحَيْرَةً مُنْتِنَةً خَبِيثَةً، فَفِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾ أَيْ وَتَرَكْنَا فِي إِرْسَالِ مُوسَىٰ آيَةً وَعِبْرَةً. وَقِيلَ: هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ وَأَعْقَبَ قِصَّةَ قَوْمِ لُوطٍ بِقِصَّةِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ لِشُهْرَةِ أَمْرِ مُوسَىٰ وَشَرِيعَتِهِ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّ قِصَّةَ مُوسَىٰ آيَةٌ دَائِمَةٌ ،قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ : وَعُقِّبَتْ قِصَّةُ قَوْمِ لُوطٍ بِقِصَّةِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنْ تَنَاسُبٍ فِي أَنَّ الْعَذَابَ الَّذِي عُذِّبَ بِهِ الْأُمَّتَانِ عَذَابٌ أَرْضِيٌّ إِذْ عُذِّبَ قَوْمُ لُوطٍ بِالْحِجَارَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ طِينٍ، وَعُذِّبَ قَوْمُ فِرْعَوْنَ بِالْغَرَقِ فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ ذُكِرَ عَادٌ وَثَمُودُ وَكَانَ عَذَابُهُمَا سَمَاوِيًّا إِذْ عُذِّبَتْ عَادٌ بِالرِّيحِ وَثَمُودُ بِالصَّاعِقَةِ ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ بحجة ظاهرة، وَهِيَ الْعَصَا ، وَقِيلَ: أَيْ بِالْمُعْجِزَاتِ مِنَ الْعَصَا وَغَيْرِهَا.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ أي فَأَعْرَضَ وَأَدْبَرَ عَنِ الْإِيمَانِ، ، قال مُجَاهِدٌ: تَعَزَّزَ بِأَصْحَابِهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: غَلَبَ عَدُوُّ اللهِ عَلَىٰ قَوْمِهِ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: ﴿فَتَوَلَّىٰ

بِرُكْنِهِ﴾ أَيْ بِجُمُوعِهِ الَّتِي مَعَهُ ﴿بِرُكْنِهِ﴾ أي بجمعه وجنوده الذين كان يَتَقَوَّىٰ بِهِمْ، كَالرُّكْنِ الَّذِي يُقَوَّىٰ به البنيان، مثل قوله قوله : ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هُودٍ: ٨٠] يَعْنِي الْمَنَعَةَ وَالْعَشِيرَةَ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ: بِقُوَّتِهِ ، قال الْقُشَيْرِيُّ: وَالرُّكْنُ جَانِبُ الْبَدَنِ، وَهَذَا عِبَارَةٌ عَنِ الْمُبَالَغَةِ فِي الاعراض عن الشيء، ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: أَوْ بِمَعْنَىٰ الْوَاوِ ، أي لا يخلوا أَمْرُكَ فِيمَا جِئْتَنِي بِهِ، مِنْ أَنْ تَكُونَ سَاحِرًا أَوْ مَجْنُونًا.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أغرقناهم فيه ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أَيْ آتٍ بِمَا يُلَامُ عَلَيْهِ من دعوىٰ الربوبية وتكذيب الرسل ، وَالْمُلِيمُ: الَّذِي يَجْعَلُ غَيْرَهُ لَائِمًا عَلَيْهِ، أَيْ وَهُوَ مُذْنِبٌ ذَنْبًا يَلُومُهُ اللهُ عَلَيْهِ، أَيُؤَاخِذُهُ بِهِ. وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُ مُسْتَوْجِبٌ الْعِقَابَ كَمَا قَالَ: فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ [إِبْرَاهِيمَ: ٢٢] .

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ أَيْ وَفِي إِهْلَاكِ عَادٍ أَيْضًا آيَةٌ، ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ وَهِيَ الَّتِي لَا خَيْرَ فِيهَا وَلَا بَرَكَةَ وَلَا تُلَقِّحُ شَجَرًا وَلَا تَحْمِلُ مَطَرًا. وَمِنْهُ امْرَأَةٌ عَقِيمٌ لَا تَحْمِلُ وَلَا تَلِدُ.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَنْعَامِهِمْ وَمَوَاشِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ كَالشَّيْءِ الْهَالِكِ الْبَالِي، وَهُوَ نَبَاتُ الْأَرْضِ إذا يبس ، يُقَالُ لِلنَّبْتِ إِذَا يَبِسَ وَتَفَتَّتَ: رَمِيمٌ وَهَشِيمٌ. وَأَصْلُ الْكَلِمَةِ

مِنْ رَمَّ الْعَظْمُ إِذَا صار باليـًا، قَالَ مُجَاهِدٌ: كَالتِّبْنِ الْيَابِسِ ، قَالَ قَتَادَةُ: كَرَمِيمِ الشَّجَرِ، قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: كَالتُّرَابِ الْمَدْقُوقِ.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ أَيْ وَفِيهِمْ أَيْضًا عِبْرَةٌ وَآيَةٌ حِينَ قِيلَ لَهُمْ عِيشُوا مُتَمَتِّعِينَ بِالدُّنْيَا ﴿تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ يَعْنِي وَقْتَ فَنَاءِ آجَالِهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا عَقَرُوا النَّاقَةَ قِيلَ لَهُمْ: تَمَتَّعُوا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، وَقِيلَ: مَعْنَىٰ ﴿تَمَتَّعُوا﴾ أَيْ أَسْلِمُوا وَتَمَتَّعُوا إِلَىٰ وَقْتِ فَرَاغِ آجَالِكُمْ.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ فَأَعْرَضُوا عَمَّا أَمَرَهُمُ اللهُ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وخَالَفُوا أَمْرَ اللهِ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ، وَالْعُتُوُّ: الْكِبْرُ وَالشِّدَّةُ. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ يَعْنِي بَعْدَ مُضِيِّ الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ، وَهِيَ الْمَوْتُ فِي قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي الْعَذَابَ والصاعقة ، كُلُّ عَذَابٍ مُهْلِكٌ، قَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ وَاقِدٍ: كُلُّ صَاعِقَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ الْعَذَابُ ، ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ يَرَوْنَ ذَلِكَ عِيَانًا .

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ فَمَا قَامُوا بَعْدَ نُزُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ وَلَا قَدَرُوا عَلَىٰ نُهُوضٍ، قَالَ قَتَادَةُ: لَمْ يَنْهَضُوا مِنْ تِلْكَ الصَّرْعَةِ، وَقِيلَ: مَا أَطَاقُوا أَنْ يَسْتَقِلُّوا بِعَذَابِ اللهِ وَأَنْ يَتَحَمَّلُوهُ وَيَقُومُوا بِهِ وَيَدْفَعُوهُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، تَقُولُ: لَا أَقُومُ لِهَذَا الْأَمْرِ أَيْ لَا أُطِيقُهُ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ ذَهَبَتْ أَجْسَامُهُمْ وَبَقِيَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي الْعَذَابِ ، ﴿وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ أَيْ مُمْتَنِعِينَ مِنَ الْعَذَابِ

حِينَ أهلكوا، أي ما كان لهم ناصر، قَالَ قَتَادَةُ: مَا كَانَتْ عِنْدَهُمْ قُوَّةٌ يَمْتَنِعُونَ بِهَا مِنَ اللهِ.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ وَكَذَلِكَ مَا فَعَلَ اللهُ بِقَوْمِ نُوحٍ، حِينَ كَذَّبُوا نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفَسَقُوا عَنْ أَمْرِ اللهِ، فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ بِالْمَاءِ الْمُنْهَمِرِ، فَأَغْرَقَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْ آخِرِهِمْ، وَلَمْ يُبْقِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا، وَهَذِهِ عَادَةُ اللهِ وَسُنَّتُهُ، فِيمَنْ عَصَاهُ ، وَقَوْلُهُ:﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ، وَهُمْ عَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ فِرْعَوْنَ : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ .

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أَيْ جَعَلْنَاهَا سَقْفًا مَحْفُوظًا رَفِيعًا، ﴿بِأَيْدٍ﴾ أَيْ بِقُوَّةٍ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ ومجاهد، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أَيْ قَدْ وَسَّعْنَا أَرْجَاءَهَا، وَرَفَعْنَاهَا بِغَيْرِ عَمِدٍ حَتَّىٰ اسْتَقَلَّتْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تعالىٰ عنهما: لقادرون. وَعَنْهُ أَيْضًا لَمُوسِعُونَ الرِّزْقَ عَلَىٰ خلقنا ، قَالَ الرَّاغِبُ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [المائدة :١١٠] فَعَلْتُ مِنَ الْأَيْدِ، أَيِ: الْقُوَّةِ الشَّدِيدَةِ، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران:١٣] أَيْ: يُكْثِرُ تَأْيِيدَهُ، وَيُقَالُ: إِدْتُهُ أَئِيدُهُ أَيْدًا نَحْوَ: بَعْتُهُ أَبِيعُهُ بَيْعًا، وَأَيَّدْتُهُ عَلَىٰ التَّكْثِيرِ، قَالَ الشَّنْقِيطِيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾، لَيْسَ مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ الْمَعْرُوفَةِ بِهَذَا الِاسْمِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿بِأَيْدٍ﴾ لَيْسَ جَمْعَ يَدٍ: وَإِنَّمَا الْأَيْدُ : الْقُوَّةُ، وَالْأَيْدُ، وَالْآدُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ بِمَعْنَىٰ الْقُوَّةِ، وَرَجُلٌ أَيِدٌ قَوِيٌّ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ

تَعَالَىٰ: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أَيْ قَوَّيْنَاهُ بِهِ، فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهَا جَمْعُ يَدٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فقَدْ غَلِطَ فَاحِشًا، وَالْمَعْنَىٰ: وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِقُوَّةٍ.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ بَسَطْنَاهَا وَمَهَّدْنَاهَا لَكُمْ، ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ الْبَاسِطُونَ نَحْنُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نِعْمَ مَا وَطَّأْتُ لِعِبَادِي.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ صِنْفَيْنِ وَنَوْعَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ كَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَالسَّهْلِ وَالْجَبَلِ وَالشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَىٰ، وَالنُّورِ وَالظُّلْمَةِ، وَالْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، وَالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، والجنة والنار، وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْحُلْوِ وَالْمُرِّ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فَتَعْلَمُونَ أَنَّ خَالِقَ الْأَزْوَاجِ واحد أحد .

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَفِرُّوا إِلَىٰ اللهِ﴾ فَاهْرُبُوا مِنْ عَذَابِ اللهِ إِلَىٰ ثَوَابِهِ بِالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِرُّوا مِنْهُ إِلَيْهِ وَاعْمَلُوا بِطَاعَتِهِ. وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: فِرُّوا مِمَّا سِوَىٰ اللهِ إِلَىٰ اللهِ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْوَرَّاقُ: فِرُّوا مِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَىٰ طَاعَةِ الرَّحْمَنِ ، وَقَالَ الْجُنَيْدُ: الشَّيْطَانُ دَاعٍ إِلَىٰ الْبَاطِلِ فَفِرُّوا إِلَىٰ اللهِ يَمْنَعُكُمْ مِنْهُ ، ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أَيْ: مُنْذِرٌ لَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَمُخَوِّفٌ بَيِّنُ النِّذَارَةِ.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: هَذَا مِنَ الْفِرَارِ إِلَىٰ اللهِ، بَلْ هَذَا أَصْلُ الْفِرَارِ إِلَيْهِ أَنْ يَفِرَّ الْعَبْدُ مِن

اتِّخَاذِ آلِهَةٍ غَيْرِ اللهِ، مِنَ الْأَوْثَانِ، وَالْأَنْدَادِ وَالْقُبُورِ، وَغَيْرِهَا، مِمَّا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ، وَيُخْلِصَ الْعَبْدُ لِرَبِّهِ الْعِبَادَةَ وَالْخَوْفَ، وَالرَّجَاءَ وَالدُّعَاءَ، وَالْإِنَابَةَ.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَيْ كَمَا كَذَّبَكَ قَوْمُكَ يَا مُحَمَّدُ ، وَقَالُوا: سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ، كَذَلِكَ ﴿مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مِنْ قَبْلِ كُفَّارِ مَكَّةَ، ﴿مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ ، قال الشوكاني : فِي هَذَا تَسْلِيَةٌ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبَيَانِ أَنَّ هَذَا شَأْنُ الْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَأَنَّ مَا وَقَعَ مِنَ الْعَرَبِ مِنَ التَّكْذِيبِ لرسول الله، وَوَصْفِهِ بِالسِّحْرِ وَالْجُنُونِ، قَدْ كَانَ مِمَّنْ قَبْلَهُمْ لرسلهم .

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ أَيْ أَوْصَىٰ أَوَّلُهُمْ آخِرَهُمْ وَبَعْضُهُمْ بعضًا بالتكذيب وتواطؤوا عَلَيْهِ؟ وَالْأَلْفُ فِيهِ لِلتَّوْبِيخِ، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: حَمَلَهُمُ الطُّغْيَانُ فِيمَا أَعْطَيْتُهُمْ وَوَسَّعْتُ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ تكذيبك.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ، ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ لَا لَوْمَ عَلَيْكَ فَقَدْ أَدَّيْتَ الرِّسَالَةَ وَمَا قَصَّرْتَ فِيمَا أُمِرْتَ بِهِ، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ حَزِنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَصْحَابِهِ، وَظَنُّوا أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ، وَأَنَّ الْعَذَابَ قَدْ حَضَرَ إِذْ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ يَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ :

[٥٥] : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فَطَابَتْ أَنْفُسُهُمْ. قَالَ مُقَاتِلٌ: مَعْنَاهُ عِظْ بِالْقُرْآنِ كُفَّارَ مَكَّةَ، فَإِنَّ الذكرىٰ تنفع من فِي عِلْمِ اللهِ أَنْ يُؤْمِنَ منهما.

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أَيْ إِنَّمَا خَلَقْتُهُمْ لِآمُرَهُمْ بِعِبَادَتِي، لَا لِاحْتِيَاجِي إِلَيْهِمْ، وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أَيْ إِلَّا لِيُقِرُّوا بِعِبَادَتِي طَوْعًا أَوْ كَرْهًا، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ الله عنه: إِلَّا لِيَعْبُدُونِ أَيْ إِلَّا لِآمُرَهُمْ أن يعبدوني وأدعوهم لعبادتي، يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ إِلَّا لِيَخْضَعُوا إِلَيَّ وَيَتَذَلَّلُوا. وَمَعْنَىٰ الْعِبَادَةِ فِي اللُّغَةِ، التَّذَلُّلُ وَالِانْقِيَادُ، فَكُلُّ مَخْلُوقٍ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ خَاضِعٌ لِقَضَاءِ اللهِ ومتذلل لِمَشِيئَتِهِ لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ لِنَفْسِهِ خُرُوجًا عَمَّا خُلِقَ عَلَيْهِ، قَدْرَ ذَرَّةٍ مِنْ نَفْعٍ أَوْ ضَرَرٍ، وَفِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ.: «**يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًىٰ وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِلَّا تَفْعَلْ مَلَأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ**»(١).

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ أَيْ أَنْ يَرْزُقُوا أَحَدًا مِنْ خَلْقِي وَلَا أَنْ يَرْزُقُوا أَنْفُسَهُمْ، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ أَيْ أَنْ يُطْعِمُوا أَحَدًا مِنْ خلقي، وإنما أسند الطعام إِلَىٰ نَفْسِهِ، لِأَنَّ الْخَلْقَ عِيَالُ اللهِ وَمَنْ أَطْعَمَ عِيَالَ أَحَدٍ فقد أطعمه ، ثم بين أن الرزاق هُوَ لَا غَيْرُهُ فَقَالَ:

[٥٨] : ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ يَعْنِي لِجَمِيعِ خَلْقِهِ، ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْمُقْتَدِرُ الْمُبَالِغُ فِي الْقُوَّةِ وَالْقُدْرَةِ.

---

(١) أحمد (٨٦٨١) والترمذي (٢٤٦٦) .

[٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، ﴿ذَنُوبًا﴾ مِنَ الْعَذَابِ، ﴿مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ مثل نصيب أصحابهم الذين أهلكوا مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ. وَأَصْلُ الذَّنُوبِ فِي اللُّغَةِ: الدَّلْوُ الْعَظِيمَةُ الْمَمْلُوءَةُ مَاءً، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ فِي الْحَظِّ وَالنَّصِيبِ ، وَفِي قِصَّةِ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي بَالَ بِالْمَسْجِدِ ، أن النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**صُبُّوا عَلَيْهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ**»[١] ، ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ بِالْعَذَابِ، يَعْنِي أَنَّهُمْ أُخِّرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:

[٦٠] : ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ يَعْنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الَّذِي قَدْ وُعِدُوا فِيهِ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالسَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ، فَلَا مُغِيثَ لَهُمْ، وَلَا مُنْقِذَ مِنْ عَذَابِ اللهِ تَعَالَىٰ ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْهُ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الذَّارِيَاتِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

---

(١) البخاري (٢١٩) ومسلم (٢٨٤) .

سُورَةُ الطُّورِ

وَهِيَ سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالطُّورِ﴾ أَرَادَ بِهِ الْجَبَلَ الَّذِي كَلَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، أَقْسَمَ اللهُ تعالىٰ به ، أَقْسَمَ اللهُ بِهِ تَشْرِيفًا لَهُ وَتَكْرِيمًا وَتَذْكِيرًا لِمَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ مكتوب، يَعْنِي القرآن يقرؤه المؤمنون من المصاحف، ويقرءوه الْمَلَائِكَةُ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴾ الرَق: مَا يُكْتَبُ فِيهِ، وَهُوَ أَدِيمُ المصحف، والمنشور الْمَبْسُوطُ، وَاخْتَلَفُوا فِي هَذَا الْكِتَابِ، وَقِيلَ: هو اللوح المحفوظ ، وقيل: هو دَوَاوِينُ الْحَفَظَةِ تَخْرُجُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْشُورَةً، فَآخِذٌ بِيَمِينِهِ وَآخِذٌ بِشِمَالِهِ، دَلِيلُهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ [الاسراء : ١٣] ، قَالَ الْمُبَرِّدُ: الرَّقُّ مَا رُقِّقَ مِنَ الْجِلْدِ لِيُكْتَبَ فِيهِ، وَالْمَنْشُورُ الْمَبْسُوطُ، يعني الكتاب المفتوح .

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ وَهُوَ الْبَيْتُ الَّذِي فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، الْمَعْمُورُ مَدَىٰ الْأَوْقَاتِ بِالْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ، حُرْمَتُهُ فِي السَّمَاءِ كَحُرْمَةِ الْكَعْبَةِ فِي الْأَرْضِ وقد ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في حديث الإسراء: «**ثُمَّ رُفِعَ بِي إِلَىٰ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخر ما عليهم**»[1] .

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ يَعْنِي السَّمَاءَ، مثل قوله تعالىٰ: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] .

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ أَيْ: الْمَمْلُوءُ مَاءً، قَدْ سَجَرَهُ اللهُ، وَمَنَعَهُ مِنْ أَنْ يَفِيضَ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، مَعَ أَنَّ مُقْتَضَىٰ الطَّبِيعَةِ، أَنْ يَغْمُرَ وَجْهَ الْأَرْضِ، وَلَكِنَّ حِكْمَتَهُ اقْتَضَتْ أَنْ يَمْنَعَهُ عَنِ الْجَرَيَانِ وَالْفَيْضَانِ، لِيَعِيشَ مَنْ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، مِنْ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ ، وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْمَسْجُورِ، الْمُوقَدُ الَّذِي يُوقَدُ نَارًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَصِيرُ نَارًا تَلَظَّىٰ، مُمْتَلِئًا عَلَىٰ عَظَمَتِهِ وَسَعَتِهِ مِنْ أَصْنَافِ الْعَذَابِ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ هَذَا جَوَابُ الْقَسَمِ، أَيْ وَاقِعٌ بِالْمُشْرِكِينَ.

---

(١) البخاري (٣٢٠٧) .

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ أَيْ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ يَدْفَعُهُ عَنْهُمْ، إِذَا أَرَادَ اللهُ بِهِمْ ذَلِكَ، قَالَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ: قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ لِأَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أُسَارَىٰ بَدْرٍ، فَوَافَيْتُهُ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْمَغْرِبِ ﴿وَالطُّورِ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ. مَا لَهُ مِنْ دافِعٍ﴾ فَكَأَنَّمَا صَدَعَ قَلْبِي، فَأَسْلَمْتُ خَوْفًا مِنْ نُزُولِ الْعَذَابِ[١]، وَمَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ أَقُومَ مِنْ مَقَامِي حَتَّىٰ يَقَعَ بِيَ الْعَذَابُ ، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُ مَتَىٰ يَقَعُ فَقَالَ:

[٩] : ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ أَيْ تَدُورُ كَدَوَرَانِ الرَّحَىٰ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَمُورُ السَّمَاءُ يَوْمَئِذٍ بِمَا فِيهَا وَتَضْطَرِبُ ، قَالَ قَتَادَةُ: تَتَحَرَّكُ ، قَالَ عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ: تَخْتَلِفُ أَجْزَاؤُهَا بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ ، وَقِيلَ: تضطرب، قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: مَارَ الشَّيْءُ يَمُورُ مَوْرًا، أَيْ تَحَرَّكَ وَجَاءَ وَذَهَبَ والمور يَجْمَعُ هَذِهِ الْمَعَانِي فَهُوَ فِي اللُّغَةِ: الذَّهَابُ وَالْمَجِيءُ وَالتَّرَدُّدُ وَالدَّوَرَانُ والاضطراب.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ فَتَزُولُ عَنْ أَمَاكِنِهَا وَتَصِيرُ هَبَاءً منثورا. ال مُقَاتِلٌ: تَسِيرُ عَنْ أَمَاكِنِهَا حَتَّىٰ تَسْتَوِيَ بِالْأَرْضِ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَيْلٌ﴾ كَلِمَةٌ تُقَالُ لِلْهَالِكِ، ﴿يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أَيْ وَيْلٌ لَهُمْ ذَلِكَ اليوم من عذاب الله ونكاله.

---

(١) البخاري (٧٦٥) .

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾أَيْ فِي تَرَدُّدٍ فِي الْبَاطِلِ، وَهُوَ خَوْضُهُمْ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ بِالتَّكْذِيبِ ، وَقِيلَ: فِي خَوْضٍ فِي أَسْبَابِ الدُّنْيَا يَلْعَبُونَ لَا يَذْكُرُونَ حِسَابًا وَلَا جَزَاءً ، وَالْخَوْضُ: الِانْدِفَاعُ فِي الْكَلَامِ الْبَاطِلِ وَالْكَذِبِ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ يُدْفَعُونَ، وَالدَّعُّ: الدَّفْعُ الْعَنِيفُ، ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ دَفْعًا بِعُنْفٍ وَجَفْوَةٍ، وَذَلِكَ إِهَانَةٌ لَهُمْ وَغِلْظَةٌ عَلَيْهِمْ، أَيْ يَوْمَ يُسَاقُونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ سَوْقًا بِدَفْعٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُدْفَعُ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّىٰ يَرِدُوا النَّارَ، فَإِذَا دَنَوْا مِنْهَا قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا:

[١٤] : ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا﴾ الَّذِي تَرَوْنَ الْآنَ بِأَعْيُنِكُمْ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَنْسُبُونَ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ السِّحْرِ، وَإِلَىٰ أَنَّهُ يُغَطِّي عَلَىٰ الْأَبْصَارِ بِالسِّحْرِ، فَوُبِّخُوا بِهِ، وَقِيلَ لهم: ﴿أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ قِيلَ: (أَمْ) بِمَعْنَىٰ بَلْ، أَيْ بَلْ كُنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ فِي الدُّنْيَا وَلَا تَعْقِلُونَ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اصْلَوْهَا﴾ أَيْ: ادْخُلُوهَا لِتَغْمُرَكُمْ فَذُوقُوا حَرَّهَا وَأَلَمَهَا عَلَىٰ أَجْسَادِكُمْ، واصْلَوْهَا أَمْرٌ مِنْ صَلِيَ يَصْلَىٰ، إِذَا اسْتَدْفَأَ بِحَرِّ النَّارِ، ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمُ الجزع والصبر فلا ينفعكم شي، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا﴾ [إبراهيم : ٢١]،

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَيْ وَلَا يَظْلِمُ اللهُ أَحَدًا بَلْ يُجَازِي كُلًّا بعمله.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ لِرَبِّهِمْ، الَّذِينَ اتَّقَوْا سَخَطَهُ وَعَذَابَهُ، بِفِعْلِ أَسْبَابِهِ مِنِ امْتِثَالِ الْأَوَامِرِ وَاجْتِنَابِ النَّوَاهِي، ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ أَيْ: بَسَاتِينَ، قَدِ اكْتَسَتْ رِيَاضُهَا مِنَ الْأَشْجَارِ الْمُلْتَفَّةِ، وَالْأَنْهَارِ الْمُتَدَفِّقَةِ، وَالْقُصُورِ الْمُحْدِقَةِ، وَالْمَنَازِلِ الْمُزَخْرَفَةِ، ﴿وَنَعِيمٍ﴾ وَهَذَا شَامِلٌ لِنَعِيمِ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَالْبَدَنِ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ مُعْجَبِينَ بِذَلِكَ نَاعِمَيْنِ، وَالْفَاكِهُ: وَصْفٌ مِنْ فَكِهَ كَفَرِحَ، إِذَا طَابَتْ نَفْسُهُ وَسُرَّ ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَيْ يَتَفَكَّهُونَ بِمَآ آتَاهُمُ اللهُ مِنَ النَّعِيمِ، مِنْ أَصْنَافِ الْمَلَاذِّ مِنْ مَآكِلَ وَمَشَارِبَ، وَمَلَابِسَ وَمَسَاكِنَ وَمَرَاكِبَ وَغَيْرِ ذَلِكَ، ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أَيْ وَقَدْ نَجَّاهُمْ مِنْ عَذَابِ النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها، مَعَ مَا أُضِيفَ إِلَيْهَا مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ الَّتِي فِيهَا مِنَ السُّرُورِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خطر علىٰ قلب بشر، وَيُقَالُ لَهُمْ:

[١٩] : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ الهني مَا لَا تَنْغِيصَ فِيهِ وَلَا نَكَدَ وَلَا كَدَرَ، قَالَ الزَّجَّاجُ: أَيْ لِيَهْنِئْكُمْ مَا صِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴿هَنِيئًا﴾ ، وَقِيلَ: أَيْ مُتِّعْتُمْ بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ إِمْتَاعًا هَنِيئًا، ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ الِاتِّكَاءُ: هُوَ الْجُلُوسُ عَلَىٰ وَجْهِ التَّمَكُّنِ وَالرَّاحَةِ وَالِاسْتِقْرَارِ، وَالسُّرُرُ: هِيَ الْأَرَائِكُ الْمُزَيَّنَةُ بِأَنْوَاعِ الزِّينَةِ مِنَ اللِّبَاسِ

الْفَاخِرِ وَالْفُرُشِ الزَّاهِيَةِ، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ : أَيْ يُقَالُ لَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا حَالَ كَوْنِهِمْ مُتَّكِئِينَ، أَيْ وَهُمْ فِي حَالِ إِكْلَةِ أَهْلِ التَّرَفِ الْمَعْهُودِ فِي الدُّنْيَا، فَقَدْ كَانَ أَهْلُ الرَّفَاهِيَةِ يَأْكُلُونَ مُتَّكِئِينَ ، وَكَانَ الْأَكَاسِرَةُ وَمَرَازِبَةُ الْفُرْسِ يَأْكُلُونَ مُتَّكِئِينَ وَكَذَلِكَ كَانَ أَبَاطِرَةُ الرُّومَانِ، وفي صحيح البخاري أنه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا آكُلُ مُتَّكِئًا**»[1] ، ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ﴾ مَوْضُوعَةٍ بَعْضُهَا إِلَىٰ جَنْبِ بَعْضٍ، قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: أَيْ مَوْصُولَةٌ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ حَتَّىٰ تَصِيرَ صَفًّا. ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أَيْ قَرَنَّاهُمْ بِهِنَّ ، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَهُنَّ النِّسَاءُ اللَّوَاتِي قَدْ جَمَعْنَ مِنْ جَمَالِ الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ وَبَهَائِهَا، وَمِنَ الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ، مَا يُوجِبُ أَنْ يَحَارَ بِحُسْنِهِنَّ النَّاظِرُونَ، وَيَسْلِبْنَ عُقُولَ الْعَالَمِينَ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَامْتِنَانِهِ، وَلُطْفِهِ بِخَلْقِهِ وَإِحْسَانِهِ، أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّاتُهُمْ فِي الْإِيمَانِ، يُلْحِقُهُمْ بِآبَائِهِمْ فِي الْمَنْزِلَةِ، وَإِنْ لَمْ يَبْلُغُوا عَمَلَهُمْ لِتَقَرَّ أعين الآباء بالأبناء، فَيَجْمَعُ بَيْنَهُمْ عَلَىٰ أَحْسَنِ الْوُجُوهِ بِأَنْ يَرْفَعَ النَّاقِصَ الْعَمَلِ بِكَامِلِ الْعَمَلِ، وَلَا يَنْقُصَ ذَلِكَ مِنْ عَمَلِهِ وَمَنْزِلَتِهِ لِلتَّسَاوِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَاكَ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيْ مَا نَقَصْنَاهُمْ يَعْنِي الْآبَاءَ، يُقَالُ: آلَتَهُ حَقَّهُ، إِذَا نَقَصَهُ إِيَّاهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ اللهَ لَيَرْفَعُ ذُرِّيَّةَ الْمُؤْمِنِ فِي دَرَجَتِهِ

---

(١) البخاري (٥٣٩٨) .

وَإِنْ كَانُوا دُونَهُ فِي الْعَمَلِ لتقرَّ بِهِمْ عَيْنُهُ، ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أَيْ: مُرْتَهَنٌ بِعَمَلِهِ، فَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ، وَلَا يُحْمَلُ عَلَىٰ أَحَدٍ ذَنْبُ أَحَدٍ ، قَالَ مُقَاتِلٌ: كُلُّ امْرِئٍ كَافِرٍ بِمَا عَمِلَ مِنَ الشِّرْكِ مُرْتَهَنٌ فِي النَّارِ وَالْمُؤْمِنُ لَا يَكُونُ مُرْتَهَنًا، ثُمَّ ذَكَرَ مَا يَزِيدُهُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَالنِّعْمَةِ، فَقَالَ:

[٢٢] : ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ﴾ زِيَادَةً عَلَىٰ مَا كَانَ لَهُمْ، ﴿وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ مِنْ كُلِّ مَا طَلَبُوهُ وَاشْتَهَتْهُ أَنْفُسُهُمْ، مِنْ لَحْمِ الطَّيْرِ وَغَيْرِهَا.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَتَنَازَعُونَ﴾ يَتَعَاطَوْنَ وَيَتَنَاوَلُونَ، ﴿فِيهَا كَأْسًا ﴾ الْكَأْسُ: إِنَاءُ الْخَمْرِ وَكُلُّ إِنَاءٍ مَمْلُوءٍ مِنْ شَرَابٍ وَغَيْرِهِ، فَإِذَا فَرَغَ لَمْ يُسَمَّ كَأْسًا.وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: لَا فُضُولَ فِيهَا، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ: لَا رَفَثَ فِيهَا، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: لَا سِبَابَ وَلَا تَخَاصُمَ فِيهَا ، وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: لَا تَذْهَبُ عُقُولُهُمْ فَيَلْغُوا وَيَرْفُثُوا ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا﴾ أَيْ فِي الْكَأْسِ أَيْ لَا يَجْرِي بَيْنَهُمْ لغو ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أَيْ لَا يَكُونُ مِنْهُمْ مَا يُؤَثِّمُهُمْ، وقيل المعنىٰ : تِلْكَ الْكَأْسُ لَا تَجْعَلُهُمْ آثِمِينَ لِأَنَّهُ مُبَاحٌ لَهُمْ ، قَالَ الزَّجَّاجُ: لَا يَجْرِي بَيْنَهُمْ مَا يُلْغِي وَلَا مَا فِيهِ إِثْمٌ كَمَا يَجْرِي فِي الدنيا بشربة الْخَمْرِ، وَقِيلَ: لَا يَأْثَمُونَ فِي شربها.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ بِالْفَوَاكِهِ وَالتُّحَفِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ﴿غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ﴾ فِي الْحُسْنِ وَالْبَيَاضِ وَالصَّفَاءِ، قِيلَ: هُمْ غِلْمَانٌ خُلِقُوا فِي الْجَنَّةِ ، ﴿لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ مَخْزُونٌ مَصُونٌ لَمْ تَمَسَّهُ الْأَيْدِي ، قَالَ سَعِيدُ

ابْنُ جُبَيْرٍ: مَكْنُونٌ يَعْنِي فِي الصَّدَفِ،قَالَ الْكِسَائِيُّ: كَنَنْتُ الشَّيْءَ سَتَرْتُهُ وَصُنْتُهُ مِنَ الشَّمْسِ، وَأَكْنَنْتُهُ فِي نَفْسِي أَسْرَرْتُهُ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي الْجَنَّةِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِذَا بُعِثُوا مِنْ قُبُورِهِمْ سَأَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا﴾ في الدنيا، ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خَائِفِينَ مِنَ الْعَذَابِ .

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا﴾ بِالْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ. وَقِيلَ: بِالتَّوْفِيقِ وَالْهِدَايَةِ. ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ: عَذَابَ النَّارِ ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: السَّمُومُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ جَهَنَّمَ ، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ : وَالسَّمُوم بِفَتْحِ السِّينِ، أَصْلُهُ اسْمُ الرِّيحِ الَّتِي تَهُبُّ مِنْ جِهَةٍ حَارَّةٍ جِدًّا فَتَكُونُ جَافَّةً شَدِيدَةَ الْحَرَارَةِ ، وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ تُهْلِكُ مِنْ يَتَنَشَّقهَا، وهذه معروفة عدنا بالعراق.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ نخلص له العبادة، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ فَمِنْ بِرِّهِ بِنَا وَرَحْمَتِهِ إِيَّانَا، أَنَالَنَا رِضَاهُ وَالْجَنَّةَ، وَوَقَانَا سَخَطَهُ وَالنَّارَ. وعن مَسْرُوقٍ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَرَأَتْ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فمنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ مُنَّ عَلَيْنَا، وَقِنَا عَذَابَ السَّمُومِ، إِنَّكَ أَنْتَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ: قِيلَ لِلْأَعْمَشِ: في الصلاة؟ قال: نعم .

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَذَكِّرْ﴾ يَا مُحَمَّدُ بِالْقُرْآنِ أَهْلَ مَكَّةَ ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ برحمته وعصمته، ﴿بِكَاهِنٍ﴾ تبتدع القرآن وَتُخْبِرُ بِمَا فِي غَدٍ مِنْ غير وحي، ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ اقْتَسَمُوا عِقَابَ مَكَّةَ يَرْمُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْكِهَانَةِ وَالسِّحْرِ والجنون والشعر .

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بَلْ يَقُولُونَ يَعْنِي هَؤُلَاءِ الْمُقْتَسِمِينَ الخراصين ، ﴿شَاعِرٌ﴾ أَيْ هُوَ شَاعِرٌ، ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ حَوَادِثَ الدَّهْرِ وَصُرُوفَهُ، فَيَمُوتُ وَيَهْلَكُ كَمَا هَلَكَ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الشُّعَرَاءِ، وَيَتَفَرَّقُ أَصْحَابُهُ وأَنَّ أَبَاهُ مَاتَ شَابًّا وَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ يَكُونَ مَوْتُهُ كَمَوْتِ أبيه، والمنون يَكُونُ بِمَعْنَىٰ الدَّهْرِ وَيَكُونُ بِمَعْنَىٰ الْمَوْتِ، سُمِّيَا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمَا يَقْطَعَانِ الأجل. قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: المنون : الليل وَالنَّهَارُ، وَسُمِّيَا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمَا يُنْقِصَانِ الْأَعْمَارَ وَيَقْطَعَانِ الْآجَالَ.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا﴾ انْتَظِرُوا بِيَ الْمَوْتَ، وَالتَّرَبُّصُ مُبَالَغَةٌ فِي: الرَّبْصِ، وَهُوَ الِانْتِظَارُ ، ﴿فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ الله فيكم فتعذبوا يوم بدر بالسيف.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ﴾ عقولهم، وَالْحِلْمُ: الْعَقْلُ، قَالَ الرَّاغِبُ: الْمَانِعُ مِنْ هَيَجَانِ الْغَضَبِ ، ﴿بِهَذَا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ عُظَمَاءَ قُرَيْشٍ كَانُوا يُوصَفُونَ بِالْأَحْلَامِ وَالْعُقُولِ، فَأَزْرَىٰ اللهُ بعقولهم حين لم تتم لَهُمْ مَعْرِفَةُ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ، ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أَيْ أَمْ طَغَوْا بِغَيْرِ عُقُولٍ، وَقِيلَ: (أَمْ) بِمَعْنَىٰ

بَلْ، أَيْ بَلْ كَفَرُوا طُغْيَانًا ، وَإِنْ ظَهَرَ لَهُمُ الْحَقُّ، وَقِيلَ لِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: مَا بَالُ قَوْمِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللهُ بِالْعَقْلِ؟ فَقَالَ: تِلْكَ عُقُولٌ كَادَهَا اللهُ، أَيْ لَمْ يَصْحَبْهَا بِالتَّوْفِيقِ.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ أي تخلق الْقُرْآنَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ، وَالتَّقَوُّلُتكَلُّفُ الْقَوْلِ، وَلَا يُسْتَعْمَلُ ذَلِكَ إِلَّا فِي الْكَذِبِ وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا، ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جَحْدًا وَاسْتِكْبَارًا، بِالْقُرْآنِ ، ثُمَّ أَلْزَمَهُمُ الْحُجَّةَ فقال:

[٣٤] : ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ أَيْ: مِثْلِ الْقُرْآنِ فِي نَظْمِهِ وَحُسْنِ بَيَانِهِ،﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أن محمدا تقوله من تلقاء نَفْسِهِ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِنْ غَيْرِ رَبٍّ خَلَقَهُمْ وَقَدَّرَهُمْ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَيْ أَوُجِدُوا مِنْ غَيْرِ مُوجِدٍ؟ أَمْ هُمْ أَوْجَدُوا أَنْفُسَهُمْ؟ أَيْ لَا هَذَا وَلَا هَذَا، بَلِ اللهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَأَنْشَأَهُمْ، بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُونُوا شيئًا مذكوراً، ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ لأنفسهم ذلك فِي الْبُطْلَانِ أَشَدُّ، لِأَنَّ مَا لَا وُجُودَ لَهُ كَيْفَ يَخْلُقُ ، فَإِذَا بَطَلَ الْوَجْهَانِ قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِأَنْ لَهُمْ خَالِقًا فَلْيُؤْمِنُوا بِهِ، ذَكَرَ هَذَا الْمَعْنَىٰ أَبُو سليمان الخطابي. قال الزَّجَّاجُ: مَعْنَاهُ أَخُلِقُوا بَاطِلًا لَا يُحَاسَبُونَ وَلَا يُؤْمَرُونَ؟ ، وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: أَخُلِقُوا عَبَثًا وَتُرِكُوا سُدًىٰ لَا يُؤْمَرُونَ وَلَا يُنْهَوْنَ، فَهُوَ كَقَوْلِ الْقَائِلِ فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ، أَيْ لِغَيْرِ شَيْءٍ، أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ لِأَنْفُسِهِمْ فَلَا يَجِبْ عَلَيْهِمْ لِلَّهِ أَمْرٌ؟ .

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ فَيَكُونُوا هُمُ الْخَالِقِينَ، لَيْسَ الْأَمْرُ كذلك، ﴿بَل لَا يُوقِنُونَ﴾ أَيْ: لَيْسَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ تَامٌّ، وَيَقِينٌ يُوجِبُ لَهُمُ الِانْتِفَاعَ بِالْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ ذَلِكَ فَيَسْتَغْنُوا عَنِ اللهِ وَيُعْرِضُوا عَنْ أَمْرِهِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: خَزَائِنُ رَبِّكَ الْمَطَرُ وَالرِّزْقُ. وَقِيلَ: مَفَاتِيحُ الرَّحْمَةِ، ﴿أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ الْمُسَلَّطُونَ الْجَبَّارُونَ، قَالَ عَطَاءٌ: أَرْبَابٌ قَاهِرُونَ فَلَا يَكُونُوا تَحْتَ أَمْرٍ ونهي، ويفعلون ما شاءوا، قَالَ ابْنُ بَحْرٍ: ﴿أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ أَيْ هُمُ الْحَفَظَةُ، مَأْخُوذٌ مِنْ تَسْطِيرِ الْكِتَابِ الَّذِي يَحْفَظُ مَا كُتِبَ فِيهِ، فَصَارَ الْمُسَيْطِرُ هَاهُنَا حَافِظًا مَا كَتَبَهُ اللهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ درج وَمِصْعَدٌ إِلَىٰ السَّمَاءِ، ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أَيْ يَسْتَمِعُونَ عَلَيْهِ الْوَحْيَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي عليها، أي أَلَهُمْ سُلَّمٌ يَرْتَقُونَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَيَسْتَمِعُونَ الْوَحْيَ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ حَقٌّ بِالْوَحْيِ، فهم متمسكون به كذلك؟ ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ﴾ الذي يدعي ذَلِكَ، ﴿بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ بحجة بَيِّنَةٍ.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ هَذَا إِنْكَارٌ عَلَيْهِم حِينَ جَعَلُوا لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ جُعْلًا عَلَىٰ مَا جِئْتَهُمْ بِهِ وَدَعَوْتَهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الدِّينِ، ﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ أثقلهم ذلك الغرم الذي تسألهم، فمنعهم ذَلِكَ عَنِ الْإِسْلَامِ.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أَيْ عِلْمُ مَا غَابَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ عَلِمُوا أَنَّ مَا يُخْبِرُهُمُ الرَّسُولُ مِنْ أَمْرِ الْقِيَامَةِ وَالْبَعْثِ بَاطِلٌ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: هَذَا جَوَابٌ لِقَوْلِهِمْ: ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ يَقُولُ: أَعِنْدَهُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ حَتَّىٰ عَلِمُوا أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمُوتُ قَبْلَهُمْ؟ ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ قال القتيبي: فَهُمْ يَكْتُبُونَ أَيْ يَحْكُمُونَ، وَالْكِتَابُ الْحُكْمُ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ تَخَاصَمَا إِلَيْهِ: «**أَقْضِي بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللهِ**»[1] ، أَيْ بِحُكْمِ اللهِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَعْنَاهُ أَمْ عِنْدَهُمُ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ مَا فِيهِ وَيُخْبِرُونَ النَّاسَ بِهِ؟ .

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ مَكْرًا بِكَ لِيُهْلِكُوكَ، ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ أَيْ هُمُ الْمَجْزِيُّونَ بِكَيْدِهِمْ يُرِيدُ أَنَّ ضَرَرَ ذَلِكَ يَعُودُ عَلَيْهِمْ، وَيَحِيقُ مَكْرُهُمْ بِهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ مَكَرُوا بِهِ فِي دَارِ النَّدْوَةِ فَقُتِلُوا بِبَدْرٍ .

---

(١) البخاري (٢٦٩٥) ومسلم (١٦٩٧) .

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ﴾ يَرْزُقُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ، ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ نَزَّهَ نَفْسَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ ، قَالَ الْخَلِيلُ: مَا فِي هَذِهِ السورة من ذكر أم كلمة اسْتِفْهَامٌ وَلَيْسَ بِعَطْفٍ.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا﴾ قطعة، ﴿مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ هَذَا جَوَابٌ لِقَوْلِهِمْ: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الشعراء: ١٨٧] يَقُولُ: لَوْ عَذَّبْنَاهُمْ بِسُقُوطِ بَعْضٍ مِنَ السَّمَاءِ عَلَيْهِمْ لَمْ يَنْتَهُوا عن كفرهم، وَالْكِسَفُ جَمْعُ كِسْفَةٍ وَهِيَ الْقِطْعَةُ مِنَ الشَّيْءِ، يُقَالُ: أَعْطِنِي كِسْفَةً مِنْ ثَوْبِكَ، وَيُقَالُ فِي جَمْعِهَا أَيْضًا: كِسْفٌ ، ﴿يَقُولُوا﴾ لمعاندتهم هذا ﴿سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ يَسْقِينَا ، وَالْمَرْكُومُ: الْمَجْمُوعُ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ يُقَالُ: رَكَمَهُ رَكْمًا، وَهُوَ السَّحَابُ الْمُمْطِرُ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ [النُّور: ٤٣] ، فَلَا يُبَالُونَ بِمَا رَأَوْا مِنَ الْآيَاتِ وَلَا يَعْتَبِرُونَ بِهَا، وَهَؤُلَاءِ لَا دَوَاءَ لَهُمْ إِلَّا الْعَذَابُ وَالنَّكَالُ، وَلِهَذَا قَالَ:

[٤٥] : ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا﴾ يُعَايِنُوا، ﴿يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ يَمُوتُونَ، أَيْ حَتَّىٰ يُعَايِنُوا الْمَوْتَ.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أَيْ لَا يَنْفَعُهُمْ كَيْدُهُمْ يَوْمَ الْمَوْتِ وَلَا مَكْرُهُمُ الَّذِي اسْتَعْمَلُوهُ فِي الدُّنْيَا، لَا يُجْزِي عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَيْئًا، ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ وَلَا هُمْ يَنْصُرُهُمْ نَاصِرٌ فَيَسْتَقِيدَ لَهُمْ مِمَّنْ عَذَّبَهُمْ وَعَاقَبَهُمْ.

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا، ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أَيْ عَذَابًا فِي الدُّنْيَا قَبْلَ عَذَابِ الْآخِرَةِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الْقَتْلَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقَالَ مجاهد: هُوَ الْجُوعُ وَالْقَحْطُ سَبْعَ سِنِينَ، وَقَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ: هُوَ عَذَابُ الْقَبْرِ، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ الْعَذَابَ نَازِلٌ بِهِمْ.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ إِلَىٰ أَنْ يَقَعَ بِهِمُ الْعَذَابُ الَّذِي حَكَمْنَا عَلَيْهِمْ، قِيلَ: لِقَضَاءِ رَبِّكَ فِيمَا حَمَّلَكَ مِنْ رِسَالَتِهِ ، وَقِيلَ: لِبَلَائِهِ فِيمَا ابْتَلَاكَ بِهِ مِنْ قَوْمِكَ، ثُمَّ نُسِخَ بِآيَةِ السَّيْفِ، ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أَيْ بِمَرْأًىٰ مِنَّا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَرَىٰ مَا يُعْمَلُ بِكَ، وَقَالَ الزجاج: معناه إِنَّكَ بِحَيْثُ نَرَاكَ وَنَحْفَظُكَ فَلَا يَصِلُونَ إِلَىٰ مَكْرُوهِكَ ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: بِمَرْأًىٰ مِنَّا وَحِفْظٍ، وَاعْتِنَاءٍ بِأَمْرِكَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَسْتَعِينَ عَلَىٰ الصَّبْرِ بِالذِّكْرِ وَالْعِبَادَةِ، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَطَاءٌ : أَيْ قُلْ حِينَ تَقُومُ مِنْ مَجْلِسِكَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، فَإِنْ كان المجلس خيرا ازددت إِحْسَانًا، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ كان كفارة له. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمَا: مَعْنَاهُ صَلِّ لِلَّهِ حِينَ تَقُومُ مِنْ مَقَامِكَ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَالرَّبِيعُ، إِذَا قُمْتُ إِلَىٰ الصَّلَاةِ فَقُلْ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَىٰ جَدُّكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: هُوَ ذِكْرُ اللهِ بِاللِّسَانِ حِينَ تَقُومُ من الفراش إلىٰ أن يدخل في صلاته ، أَيْ مِنْ نَوْمِكَ مِنْ فِرَاشِكَ، وَاخْتَارَهُ الطبري ، ويشهد لهذا حديث عن عُبَادَةَ بْنُ الصَّامِتِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**

وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي - أَوْ قَالَ ثُمَّ دَعَا - اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِنْ عَزَمَ فَتَوَضَّأَ ثم صلىٰ قبلت صلاته»[1].

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أَيِ اذْكُرْهُ وَاعْبُدْهُ بِالتِّلَاوَةِ والصلاة في الليل، قَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي صَلَاةَ الْمَغْرِبِ وَالْعَشَاءِ، ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ يعني ركعتين قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَذَلِكَ حِينَ تُدْبِرُ النُّجُومُ أَيْ تَغِيبُ بِضَوْءِ الصُّبْحِ، هَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنَ النَّوَافِلِ أَشَدَّ مِنْهُ تَعَاهُدًا عَلَىٰ رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ»[2].

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الطُّورِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

---

(١) البخاري (١١٥٤).

(٢) البخاري (١١٦٣) ومسلم (٧٢٤).

سُورَةُ النَّجْمِ

وَهي مَكِّيَّةٌ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: هِيَ أَوَّلُ سُورَةٍ أَعْلَنَهَا رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ ، وَفِي (الْبُخَارِيِّ) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَجَدَ بِالنَّجْمِ، وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ(١).

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ نُجُومُ السَّمَاءِ كُلُّهَا حِينَ تَغْرُبُ، لَفْظُهُ وَاحِدٌ وَمَعْنَاهُ الْجَمْعُ؛ سُمِّيَ الْكَوْكَبُ نَجْمًا لِطُلُوعِهِ، وَكُلُّ طَالِعٍ نَجْمٌ ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: مَا تُرْمَىٰ بِهَا الشَّيَاطِينُ عِنْدَ اسْتِرَاقِهِمُ السَّمْعَ ، وَالْهُوِيُّ النُّزُولُ وَالسُّقُوطُ، قال الشعبي: الْخَالِقُ يُقْسِمُ بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، وَالْمَخْلُوقُ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ، وَجَوَابُ الْقَسَمِ قَوْلُهُ:

[٢] : ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا ضَلَّ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَىٰ، ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ الْغَيُّ ضِدُّ الرُّشْدِ أَيْ مَا صَارَ غَاوِيًّا، وَقِيلَ: أَيْ مَا تَكَلَّمَ بِالْبَاطِلِ. وَقِيلَ: أَيْ مَا خَابَ مِمَّا طَلَبَ وَالْغَيُّ الْخَيْبَةُ .

---

(١) البخاري (١٠٧١) .

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ قَالَ قتادة: وما ينطق بالقرآن عن هواه، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ الْقُرْآنَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ. ﴿إِنْ هُوَ﴾ مَا نُطْقُهُ فِي الدِّينِ، وَقِيلَ: القرآن.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أَيْ إِنَّمَا يَقُولُ مَا أُمِرَ به، يُبَلِّغُهُ إِلَىٰ النَّاسِ كَامِلًا مَوْفُورًا، مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ، قَالَ قَتَادَةُ: يُوحِي اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِلَىٰ جَبْرَائِيلَ، وَيُوحِي جِبْرِيلُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرِيدُ حِفْظَهُ فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ، فَقَالُوا: إِنَّكَ تَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ، فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: « **اكْتُبْ؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَرَجَ مِنِّي إِلَّا الْحَقُّ** »(١).

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ يَعْنِي جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِ سَائِرِ الْمُفَسِّرِينَ، وَالْقُوَىٰ جَمْعُ الْقُوَّةِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: شَدِيدُ الْقُوَّةِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، قَوِيٌّ عَلَىٰ تَنْفِيذِ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِتَنْفِيذِهِ، قَوِيٌّ عَلَىٰ إِيصَالِ الْوَحْيِ إِلَىٰ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَنْعِهِ مِنِ اخْتِلَاسِ الشَّيَاطِينِ لَهُ، أَوْ إِدْخَالِهِمْ فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، وَهَذَا مِنْ حِفْظِ اللهِ لِوَحْيِهِ، أَنْ أَرْسَلَهُ مَعَ هَذَا الرَّسُولِ الْقَوِيِّ الْأَمِينِ.

---

(١) أحمد (٦٥١٠) وأبو داود (٣٦٤٦).

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ قُوَّةٍ وَشِدَّةٍ فِي خَلْقِهِ، يَعْنِي جِبْرِيلَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ذُو مِرَّةٍ يَعْنِي ذُو مَنْظَرٍ حَسَنٍ، وقال قتادة: ذُو خَلْقٍ طَوِيلٍ حَسَنٍ، ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ يعني جبريل.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم، وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: اسْتَوَىٰ جِبْرِيلُ وَمُحَمَّدٌ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ ، ﴿بِالأُفُقِ الأعْلَىٰ﴾ أَيْ: أُفُقُ السَّمَاءِ الَّذِي هُوَ أَعْلَىٰ مِنَ الْأَرْضِ، فَهُوَ مِنَ الْأَرْوَاحِ الْعُلْوِيَّةِ، الَّتِي لَا تَنَالُهَا الشَّيَاطِينُ وَلَا يَتَمَكَّنُونَ مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهَا.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ جِبْرِيلُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِإِيصَالِ الْوَحْيِ إِلَيْهِ ، ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ عَلَيْهِ مِنَ الْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ .

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَانَ﴾ فِي قُرْبِهِ مِنْهُ ، ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أَيْ: قَدْرَ قَوْسَيْنِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: (حَيْثُ الْوَتَرُ مِنَ الْقَوْسِ) أَيْ: فَكَانَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَرِيبًا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ قَدْرِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ يَعْنِي: أَوْ أَقْرَبَ مِنْهُ، ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أَيْ: أَقْرَبُ مِنَ الْقَوْسَيْنِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ كَمَالِ الْمُبَاشَرَةِ لِلرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالرِّسَالَةِ، وَأَنَّهُ لَا وَاسِطَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: ثُمَّ دَنَا جِبْرِيلُ بَعْدَ اسْتِوَائِهِ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ مِنَ الْأَرْضِ، فَتَدَلَّىٰ فَنَزَلَ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَانَ مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ، بل أدنىٰ، وقال آخرون: ثم دنا الله عَزَّ وَجَلَّ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فَتَدَلَّىٰ، فَقَرُبَ مِنْهُ حَتَّىٰ كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أو أدنىٰ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: دَنَا جِبْرِيلُ مِنْ رَبِّهِ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ الْمَعْنَىٰ فَأَوْحَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَوْحَىٰ، ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: أَوْحَىٰ إِلَيْهِ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضُّحَىٰ: ٦] إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشَّرْحِ: ٤]، وَقِيلَ: أَوْحَىٰ إِلَيْهِ إِنَّ الْجَنَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ حَتَّىٰ تَدْخُلَهَا أَنْتَ، وَعَلَىٰ الْأُمَمِ حَتَّىٰ تَدْخُلَهَا أُمَّتُكَ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ أَيْ مَا كَذَبَ فُؤَادُ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي رَأَىٰ، بَلْ صَدَقَهُ، يُقَالُ: كَذَبَهُ إِذَا قَالَ لَهُ الكذب، وصدقه إذا قال له الصدق، مَجَازُهُ: مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ فِيمَا رَأَىٰ، وَاخْتَلَفُوا فِي الَّذِي رَآهُ، فقال قوم: رأىٰ جبريل، وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ. ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَىٰ الرُّؤْيَةِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: جَعَلَ بَصَرَهُ فِي فؤاده فرأىٰ بِفُؤَادِهِ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ إِلَىٰ أَنَّهُ رَآهُ بعينه.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ أي أَفَتُجَادِلُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ جَادَلُوهُ حِينَ أُسْرِيَ بِهِ، فَقَالُوا: صف لنا بيت المقدس.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ يَعْنِي رَأَىٰ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ التي خلق عليه نَازِلًا مِنَ السَّمَاءِ نَزْلَةً أُخْرَىٰ، وَذَلِكَ أَنَّهُ رَآهُ فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً فِي الْأَرْضِ وَمَرَّةً فِي السَّمَاءِ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ وَهِيَ شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ جِدًّا، فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، سُمِّيَتْ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَىٰ، لِأَنَّهُ يَنْتَهِي إِلَيْهَا مَا يَعْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ، وَالسِّدْرَةُ شَجْرَةُ النَّبْقِ، وَيَنْزِلُ إِلَيْهَا مَا يَنْزِلُ مِنَ اللهِ، مِنَ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ، أَوْ لِانْتِهَاءِ عِلْمِ الْخَلْقِ، ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ هُوَ أَنَّهُ كَانَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرَجَاتٌ فِي تلك الليلة لمسألته التَّخْفِيفِ مِنْ أَعْدَادِ الصَّلَوَاتِ، فَيَكُونُ لِكُلِّ عَرْجَةٍ نَزْلَةٌ، فَرَأَىٰ رَبَّهُ في بعضها.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ قَالَ عَبَّاسٍ: جنة المأوىٰ جَنَّةٌ يَأْوِي إِلَيْهَا جِبْرِيلُ وَالْمَلَائِكَةُ، وقال مقاتل والكلبي: تأوي إِلَيْهَا أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ يَغْشَىٰ السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ أَيْ: يَغْشَاهَا مِنْ أَمْرِ اللهِ، شَيْءٌ عَظِيمٌ لَا يَعْلَمُ وَصْفَهُ إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ أَيْ مَا مَالَ بَصَرُ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا وَمَا طَغَىٰ، أَيْ مَا جَاوَزَ مَا رَأَىٰ، وَقِيلَ: مَا جَاوَزَ مَا أُمِرَ بِهِ وَهَذَا وَصْفُ أَدَبِهِ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ إِذْ لَمْ يَلْتَفِتْ جَانِبًا.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ يَعْنِي الْآيَاتِ الْعِظَامِ، وَقِيلَ: أَرَادَ مَا رَأَىٰ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي مسيره وعوده.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ هَذِهِ أَسْمَاءُ أَصْنَامٍ اتَّخَذُوهَا آلِهَةً يعبدونها.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنَاةَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: هِيَ لِخُزَاعَةَ كَانَتْ بقديد، قَالَ الضَّحَّاكُ: مَنَاةُ صَنَمٌ لِهُذَيْلٍ وَخُزَاعَةَ يَعْبُدُهَا أَهْلُ مَكَّةَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: اللَّاتُ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةُ أَصْنَامٌ مِنْ حِجَارَةٍ كَانَتْ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ يَعْبُدُونَهَا، وأما قوله: ﴿الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ فَالثَّالِثَةُ نَعْتٌ لِمَنَاةَ ، أَيِ الثَّالِثَةَ للصنمين في الذكر، ومعنىٰ الآية: أفرأيتم أخبرونا أَيُّهَا الزَّاعِمُونَ أَنَّ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ومناة بنات الله، تعالىٰ عما يقول الظالمون علوا كبيرا. فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ:

[٢١] : ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ﴾ أَيْ أَتَجْعَلُونَ لَهُ ولداً وتجعلون ولده أنثىٰ، وتختارون لأنفسكم الذكر، فَلَوِ اقْتَسَمْتُمْ أَنْتُمْ وَمَخْلُوقٌ مِثْلُكُمْ هَذِهِ الْقِسْمَةَ لَكَانَتْ .

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ أَيْ جَائِرَةٌ عَنِ الْعَدْلِ، خَارِجَةٌ عَنِ الصَّوَابِ، مَائِلَةٌ عَنِ الْحَقِّ، يُقَالُ: ضَازَ فِي الْحُكْمِ أَيْ جَارَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وقَتَادَةُ: أَيْ قِسْمَةٌ جَائِرَةٌ حَيْثُ جَعَلْتُمْ لِرَبِّكُمْ مَا تَكْرَهُونَ لِأَنْفُسِكُمْ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَمُقَاتِلٌ: قِسْمَةٌ عَوْجَاءُ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ هِيَ﴾ مَا هَذِهِ الْأَصْنَامُ، ﴿إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ حجة وبرهان بِمَا تَقُولُونَ إِنَّهَا آلِهَةٌ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ الْخَبَرِ بَعْدَ الْمُخَاطَبَةِ فَقَالَ: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ فِي قَوْلِهِمْ إِنَّهَا آلِهَةً، ﴿وَمَا تَهْوَىٰ الْأَنْفُسُ﴾ وَهُوَ مَا زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ

الْهُدَىٰ﴾ الْبَيَانُ بِالْكِتَابِ وَالرَّسُولِ أَنَّهَا لَيْسَتْ بآلهة، وأن الْعِبَادَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أَيُظَنُّ الْكَافِرُ أَنَّ لَهُ مَا يَتَمَنَّىٰ وَيَشْتَهِي مِنْ شَفَاعَةِ الْأَصْنَام.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾ لَيْس كَمَا ظَنَّ الْكَافِرُ وَتَمَنَّىٰ، بَلْ لِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأَوْلَىٰ لَا يَمْلِكَ أَحَدٌ فِيهِمَا شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِهِ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ ممن يَعْبُدُهُمْ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ وَيَرْجُونَ شَفَاعَتَهُمْ عِنْدَ اللهِ، ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ﴾ فِي الشَّفَاعَةِ، ﴿لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ أَيْ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ لَا تَشْفَعُ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا لِمَنْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي حَقِّ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، فَكَيْفَ تَرْجُونَ - أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ - شَفَاعَةَ هَذِهِ الْأَصْنَامِ والأنداد عِنْدِ الله، وَهُوَ تَعَالَىٰ لَمْ يَشْرَعْ عِبَادَتَهَا وَلَا أَذِنَ فِيهَا ؟.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ هُمُ الْكُفَّارُ الَّذِينَ قَالُوا الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ وَالْأَصْنَامُ بَنَاتُ اللهِ ، ﴿لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَىٰ﴾ لِأَنَّهُمْ إِذَا قَالُوا لِلْمَلَائِكَةِ بَنَاتُ اللهِ فَقَدْ سَمَّوْا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِنْتًا وَهِيَ تَسْمِيَةُ الْأُنْثَىٰ .

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أَيْ إِنَّهُمْ لَمْ يُشَاهِدُوا خَلْقَهُ الْمَلَائِكَةَ، وَلَمْ يَسْمَعُوا مَا قَالُوهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَرَوْهُ

فِي كِتَابٍ، قَالَ مُقَاتِلٌ: مَعْنَاهُ مَا يَسْتَيْقِنُونَ أنهم إناث، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ أَيْ مَا يَتَّبِعُونَ ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ فِي أَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِنَاثٌ، ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ الْحَقُّ بِمَعْنَىٰ الْعِلْمِ أَيْ لَا يَقُومُ الظَّنُّ مَقَامَ الْعِلْمِ ، وَقِيلَ: الْحَقُّ بِمَعْنَىٰ الْعَذَابِ، أَيْ أَظُنُّهُمْ لا ينقذهم من العذاب.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ وَالْإِيمَانَ، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ : وَحَقِيقَةُ الْإِعْرَاضِ: لَفْتُ الْوَجْهِ عَنِ الشَّيْءِ لِأَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْعَارِضِ وَهُوَ صَفْحَةُ الْخَدِّ لِأَنَّ الْكَارِهَ لِشَيْءٍ يَصْرِفُ عَنْهُ وَجْهَهُ، وَحَقِيقَةُ التَّوَلِّي: الْإِدْبَارُ وَالِانْصِرَافُ، وَإِعْرَاضُ النَّبِيءِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْهُمُ الْمَأْمُورُ بِهِ مُرَادٌ بِهِ عَدَمُ الِاهْتِمَامِ بِنَجَاتِهِمْ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَقْبَلُوا الْإِرْشَادَ ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أَيْ وَإِنَّمَا أَكْثَرُ هَمِّهِ ومبلغ علمه الدنيا، فذاك عو غاية ما لا خير فيه، وقد روي عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لَا دَارَ لَهُ، وَمَالُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لا عقل له**»(١) ، وَفِي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا**»(٢) ثُمَّ صَغَّرَ رَأْيَهُمْ، فَقَالَ:

---

(١) أحمد (٢٤٤٠١) ، وفي إسناده مقال .

(٢) الترمذي (٣٥٠٢) .

[٣٠] : ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِنَ الْعِلْمِ﴾ أَيْ ذَلِكَ نِهَايَةُ عِلْمِهِمْ وَقَدْرُ عُقُولِهِمْ أَنْ آثَرُوا الدُّنْيَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ، وَقِيلَ: لَمْ يَبْلُغُوا مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا ظَنَّهُمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ، وَأَنَّهَا تَشْفَعُ لَهُمْ ، فَاعْتَمَدُوا عَلَىٰ ذَلِكَ وَأَعْرَضُوا عَنِ الْقُرْآنِ ، قَالَ الْفَرَّاءُ: صَغَّرَهُمْ وَازْدَرَىٰ بِهِمْ، أَيْ ذَلِكَ قَدْرُ عُقُولِهِمْ وَنِهَايَةُ عِلْمِهِمْ أَنْ آثَرُوا الدُّنْيَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ ، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أَيْ حَادَ عَنْ دِينِهِ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ فَيَضَعُ فَضْلَهُ حَيْثُ يَعْلَمُ الْمَحَلَّ اللَّائِقَ بِهِ.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ مَالِكُ الْمُلْكِ، الْمُتَفَرِّدُ بِمُلْكِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَنَّ جَمِيعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِلْكٌ لِلَّهِ، يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ تَصَرُّفَ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ، فِي عَبِيدِهِ وَمَمَالِيكِهِ، يُنْفِذُ فِيهِمْ قَدَرَهُ، وَيُجْرِي عَلَيْهِمْ شَرْعَهُ ، ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾ أَيْ وَعَاقِبَةُ أَمْرِ الْخَلْقِ أن يكون فيهم مسي وَمُحْسِنٌ، فَلِلْمُسِيءِ السُّوأَىٰ وَهِيَ جَهَنَّمُ، وَلِلْمُحْسِنِ الْحُسْنَىٰ وَهِيَ الْجَنَّةُ ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ فَقَالَ:

[٣٢] : ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ هَذَا نَعْتٌ لِلْمُحْسِنِينَ، أَيْ هُمْ لَا يَرْتَكِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَهُوَ الشِّرْكُ، لِأَنَّهُ أَكْبَرُ الْآثَامِ ، ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَىٰ اللمم، فَقَالَ قَوْمٌ: هَذَا اسْتِثْنَاءٌ صَحِيحٌ، وَاللَّمَمُ: مِنَ الْكَبَائِرِ وَالْفَوَاحِشِ، وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: إِلَّا أَنْ يُلِمَّ بِالْفَاحِشَةِ مَرَّةً ثُمَّ يَتُوبُ، وَيَقَعُ الْوَقْعَةَ ثُمَّ ينتهي، وَأَصْلُ اللَّمَمِ وَالْإِلْمَامِ مَا يَعْمَلُهُ الْإِنْسَانُ الْحِينَ بَعْدَ الْحِينِ، وَلَا يكون له إعادة ولا إقامة عليه ، وَقَالَ آخَرُونَ: هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ مَجَازُهُ لَكِنِ اللَّمَمَ،

وَلَمْ يَجْعَلُوا اللَّمَمَ مِنَ الْكَبَائِرِ وَالْفَوَاحِشِ، ورجحه ابن كثير، ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مَا سَلَفَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فلا يؤاخذهم الله به، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ صِغَارُ الذُّنُوبِ كَالنَّظْرَةِ وَالْغَمْزَةِ وَالْقُبْلَةِ وَمَا كَانَ دون الزنا، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: اللَّمَمُ عَلَىٰ وَجْهَيْنِ كُلُّ ذَنْبٍ لَمْ يَذْكُرِ اللهُ عَلَيْهِ حَدًّا فِي الدُّنْيَا وَلَا عذابا في الآخرة فلذلك الَّذِي تُكَفِّرُهُ الصَّلَوَاتُ مَا لَمْ يَبْلُغِ الْكَبَائِرَ وَالْفَوَاحِشَ، وَالْوَجْهُ الْآخَرُ هُوَ: الذَّنْبُ الْعَظِيمُ يُلِمُّ بِهِ الْمُسْلِمُ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ فَيَتُوبُ مِنْهُ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ: هُوَ مَا لَمَّ عَلَىٰ الْقَلْبِ أَيْ خطَرَ، وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: اللَّمَمُ النَّظْرَةُ مِنْ غَيْرِ تَعَمُّدٍ فَهُوَ مغفور، فإن أعاد النظر فَلَيْسَ بِلَمَمٍ وَهُوَ ذَنْبٌ. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَىٰ ، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ ، فَزِنَىٰ الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ وَزِنَىٰ اللِّسَانِ النُّطْقُ وَالنَّفْسُ تَتَمَنَّىٰ وَتَشْتَهِي ، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ**»(١) ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّ الْفَاحِشَةَ الْعَظِيمَةَ وَالزِّنَىٰ التَّامَّ الْمُوجِبَ لِلْحَدِّ فِي الدُّنْيَا وَالْعُقُوبَةِ فِي الْآخِرَةِ هُوَ فِي الْفَرْجِ وَغَيْرُهُ لَهُ حَظٌّ مِنَ الْإِثْمِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِمَنْ تَابَ مِنْ ذَنْبِهِ وَاسْتَغْفَرَ،انتهىٰ الكلام ههنا، ثُمَّ قَالَ: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾

---

(١) البخاري (٦٢٤٣) ومسلم (٢٦٥٧) .

أَيْ: خَلَقَ أَبَاكُمْ آدَمَ مِنَ التراب، ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ جَمْعُ جَنِينٍ، سُمِّيَ جَنِينًا لِاجْتِنَانِهِ فِي الْبَطْنِ، ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا تَمْدَحُوهَا، قَالَ الْحَسَنُ البصري: عَلِمَ اللهُ مِنْ كُلِّ نَفْسٍ مَا هِيَ صَانِعَةٌ وَإِلَىٰ مَا هِيَ صَائِرَةٌ، فَلَا تزكوا أنفسكم، فلا تبرؤها عَنِ الْآثَامِ وَلَا تَمْدَحُوهَا بِحُسْنِ أعمالها، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ أَيْ بَرَّ وَأَطَاعَ وَأَخْلَصَ الْعَمَلَ لله تعالىٰ.

[٣٣] قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ﴾ نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، كَانَ قَدِ اتَّبَعَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ دِينِهِ فعيره بعض المشركين، وقال: أَتَرَكْتَ دِينَ الْأَشْيَاخِ وَضَلَّلْتَهُمْ؟ قَالَ: إِنِّي خَشِيتُ عَذَابَ اللهِ فَضَمِنَ الذي عاتبه إن هو أَعْطَاهُ كَذَا مِنْ مَالِهِ وَرَجَعَ إِلَىٰ شِرْكِهِ أَنْ يَتَحَمَّلَ عَنْهُ عَذَابَ اللهِ، فَرَجَعَ الْوَلِيدُ إِلَىٰ الشِّرْكِ وَأَعْطَىٰ الَّذِي عَيَّرَهُ بَعْضَ ذَلِكَ الْمَالِ الَّذِي ضَمِنَ وَمَنَعَهُ تَمَامَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ﴾أَدْبَرَ عَنِ الإيمان.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَعْطَىٰ﴾ صاحبه، ﴿قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ﴾ بخل بالباقي، وَمَعْنَىٰ أَكْدَىٰ: يَعْنِي قَطَعَ، وَأَصْلُ ﴿أَكْدىٰ﴾ مِنَ الْكُدْيَةِ، يُقَالُ لِمَنْ حَفَرَ بِئْرًا ثُمَّ بَلَغَ إِلَىٰ حَجَرٍ لَا يستطيع أن يحفر من خلاله: قَدْ أَكْدَىٰ، ثُمَّ اسْتَعْمَلَتْهُ الْعَرَبُ لِمَنْ أَعْطَىٰ وَلَمْ يُتَمِّمْ، وَلِمَنْ طَلَبَ شَيْئًا وَلَمْ يَبْلُغْ آخِرَهُ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾ مَا غَابَ عَنْهُ وَيَعْلَمُ أَنَّ صَاحِبَهُ يَتَحَمَّلُ عَنْهُ عَذَابَهُ.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾ لَمْ يُخْبَرْ، ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ يعني: أسفار التوراة.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ وفي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿الَّذِي وَفَّىٰ﴾ تَمَّمَ وَأَكْمَلَ مَا أُمِرَ بِهِ. قَالَ الْحَسَنُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وقَتَادَةُ: عَمِلَ بِمَا أُمِرَ بِهِ وَبَلَّغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ إِلَىٰ خَلْقِهِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: وَفَّىٰ بِمَا فُرِضَ عَلَيْهِ. قَالَ الرَّبِيعُ: وَفَّىٰ رُؤْيَاهُ وَقَامَ بِذَبْحِ ابْنِهِ. وَقَالَ عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ: اسْتَكْمَلَ الطَّاعَةَ. ثُمَّ بَيَّنَ مَا فِي صُحُفِهِمَا فَقَالَ:

[٣٨]: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أَيْ كَمَا لَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ وِزْرُ غَيْرِهِ، كَذَلِكَ لَا يُحَصِّلُ مِنَ الْأَجْرِ إِلَّا مَا كَسَبَ هُوَ لِنَفْسِهِ، وَمِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ اسْتَنْبَطَ الشافعي رَّحْمَةِ الله، إِنَّ الْقِرَاءَةَ لَا يَصِلُ إِهْدَاءُ ثَوَابِهَا إِلَى الْمَوْتَىٰ، لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَمَلِهِمْ وَلَا كَسْبِهِمْ، وَلِهَذَا لَمْ يَنْدُبْ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ وَلَا حَثَّهُمْ عَلَيْهِ، وَلَمْ يُنْقَلْ ذَلِكَ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وَلَوْ كَانَ خَيْرًا لَسَبَقُونَا إليه، فَأَمَّا الدُّعَاءُ وَالصَّدَقَةُ فَذَاكَ مُجْمَعٌ عَلَىٰ وُصُولِهِمَا وَمَنْصُوصٌ مِنَ الشَّارِعِ عَلَيْهِمَا، وَأَمَّا الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: مِنْ ولدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ مِنْ**

بَعْدِهِ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ»[1] ، فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ فِي الْحَقِيقَةِ هِيَ مِنْ سَعْيِهِ وَكَدِّهِ وَعَمَلِهِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «**إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ**»[2]، وَالصَّدَقَةُ الْجَارِيَةُ كَالْوَقْفِ وَنَحْوِهِ هِيَ مِنْ آثَارِ عَمَلِهِ وَوَقْفِهِ.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أَيْ عَمِلَ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [اللَّيْلِ: ٤] وَهَذَا أَيْضًا فِي صحف إبراهيم وموسىٰ.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ القيامة، مأخوذة من: مِنْ أَرَيْتُهُ الشَّيْءَ.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ الْأَكْمَلَ وَالْأَتَمَّ أَيْ يُجْزَىٰ الْإِنْسَانُ بِسَعْيِهِ، يُقَالُ: جَزَيْتُ فُلَانًا سَعْيَهُ وبسعيه.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ أَيْ مُنْتَهَىٰ الْخَلْقِ وَمَصِيرُهُمْ إِلَيْهِ، وَهُوَ مُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ ، وَقِيلَ: مِنْهُ ابْتِدَاءُ الْمِنَّةِ وَإِلَيْهِ انْتِهَاءُ الْآمَالِ.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ فَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ مَا يَعْمَلُهُ الْإِنْسَانُ فَبِقَضَائِهِ وَخَلْقِهِ حَتَّىٰ الضَّحِكُ وَالْبُكَاءُ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَالْكَلْبِيُّ: أَضْحَكَ أَهْلَ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبْكَىٰ أَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ:

---

(١) مسلم (١٦٣١) .

(٢) الترمذي (١٣٥٨) وأبو داود (٣٥٢٨) .

أَضْحَكَ الْأَرْضَ بِالنَّبَاتِ، وَأَبْكَىٰ السَّمَاءَ بِالْمَطَرِ، قَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي مُسْلِمٍ: يَعْنِي فرح وَأَحْزَنُ، لِأَنَّ الْفَرَحَ يَجْلِبُ الضَّحِكَ، والحزن يجلب البكاء.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أَيْ أَمَاتَ فِي الدُّنْيَا وَأَحْيَا لِلْبَعْثِ. وَقِيلَ أَمَاتَ الْآبَاءَ وَأَحْيَا الْأَبْنَاءَ ، وَقِيلَ: أَمَاتَ الْكَافِرَ بِالنَّكِرَةِ وأحيا المؤمن بالمعرفة.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾ أي: ابتدع إنشاء الزوجين وجعل كلًا منهما زوجًا للآخر.، وقيل : ذكرٌ وانثىٰ مِنْ كُلِّ حَيَوَانٍ.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ أَيْ تُصَبُّ فِي الرَّحِمِ، قال عطاء: مَنىٰ الرجل وأمْنىٰ من المَنِيّ، وسميت مِنًىٰ بهذا الإسم لما يُمنىٰ فيها من الدماء أي يُراق،

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ أَيِ الْخَلْقَ الثَّانِي لِلْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: أَغْنَىٰ مَنْ شَاءَ وَأَفْقَرَ مَنْ شَاءَ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ [العنكبوت : ٦٢] ، قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: قَنِيَ الرَّجُلُ يَقْنَىٰ قِنًىٰ، مِثْلُ غَنِيَ يَغْنَىٰ غِنًىٰ، وَأَقْنَاهُ اللهُ أَيْ أَعْطَاهُ اللهُ مَا يُقْتَنَىٰ وَأَقْنَاهُ اللهُ أَيْضًا أَيْ رَضَّاهُ ، وَالْقِنَىٰ الرِّضَا ، قَالَ سُفْيَانُ: أَغْنَىٰ بِالْقَنَاعَةِ وَأَقْنَىٰ بِالرِّضَا ، وقَالَ الضَّحَّاكُ: أَغْنَىٰ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ

وَصُنُوفِ الْأَمْوَالِ وَأَقْنَىٰ بِالْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ. قَالَ مُجَاهِدٌ وَمُقَاتِلٌ: أَقْنَىٰ أَرْضَىٰ بِمَا أَعْطَىٰ وَقَنَعَ.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ هَذَا النَّجْمُ الْوَقَّادُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ الْجَوْزَاءِ، كَانَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْعَرَبِ يَعْبُدُونَهُ.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ وَهُمْ قَوْمُ هُودٍ أُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ فَكَانَ لَهُمْ عَقِبٌ فَكَانُوا عادا الأخرىٰ ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: قِيلَ لَهَا عَادٌ الْأُولَىٰ لِأَنَّهَا أَوَّلُ أُمَّةٍ أُهْلِكَتْ بَعْدَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: هُمَا عَادَانِ فَالْأُولَىٰ أُهْلِكَتْ بِالرِّيحِ الصَّرْصَرِ، ثُمَّ كَانَتِ الْأُخْرَىٰ فَأُهْلِكَتْ بِالصَّيْحَةِ ، وَقِيلَ: عَادٌ الْأُولَىٰ هُوَ عَادُ بْنُ إِرَمَ بْنِ عَوْصِ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ، وَعَادٌ الثَّانِيَةُ مِنْ وَلَدِ عَادٍ الاولىٰ، والمعنىٰ متقارب.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَثَمُودَ﴾ وهم قَوْمُ صَالِحٍ أَهْلَكَهُمُ اللهُ بِالصَّيْحَةِ، ﴿فَمَا أَبْقَىٰ﴾ مِنْهُمْ أَحَدًا.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ أَهْلَكَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٢] لِطُولِ دَعْوَةِ نُوحٍ إِيَّاهُمْ وَعُتُوِّهِمْ عَلَىٰ اللهِ بِالْمَعْصِيَةِ وَالتَّكْذِيبِ.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ يعني: قرىٰ قوم لوط، يَعْنِي مَدَائِنَ قَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ائْتَفَكَتْ بِهِمْ، أَيِ انْقَلَبَتْ وَصَارَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا. يُقَالُ: أَفَكْتُهُ أَيْ قَلَبْتُهُ وَصَرَفْتُهُ ، ﴿أَهْوَىٰ﴾ أَيْ خُسِفَ بِهِمْ بَعْدَ رَفْعِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ، رَفَعَهَا

جِبْرِيلُ ثُمَّ أَهْوَىٰ بِهَا إِلَىٰ الْأَرْضِ ، وَقَالَ الْمُبَرِّدُ: جَعَلَهَا تَهْوِي ، وَيُقَالُ: هَوَىٰ بالفتح يهوي هويـًا أي سقط .

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَغَشَّاهَا﴾ ألبسها الله، ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ يَعْنِي الْحِجَارَةَ الْمَنْضُودَةَ الْمُسَوَّمَةَ ، أَيْ أَلْبَسَهَا مَا أَلْبَسَهَا مِنَ الْحِجَارَةِ.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ﴾ فبأي نِعَمِ رَبِّكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، وَقِيلَ: أَرَادَ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةَ، ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ تشك وتجادل، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَكْذِبُ، وَالْمُخَاطَبَةُ لِلْإِنْسَانِ الْمُكَذِّبِ ، وَالْآلَاءُ : النِّعَمُ .

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾ يعني محمدا عليه الصلاة والسلام ﴿مِنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: يُرِيدُ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَذِيرٌ بِالْحَقِّ الَّذِي أَنْذَرَ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ قَبْلَهُ، فَإِنْ أَطَعْتُمُوهُ أَفْلَحْتُمْ، وَإِلَّا حَلَّ بِكُمْ مَا حَلَّ بِمُكَذِّبِي الرُّسُلِ السَّالِفَةِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: يُرِيدُ الْقُرْآنَ، وَأَنَّهُ نَذِيرٌ بِمَا أَنْذَرَتْ بِهِ الْكُتُبُ الْأُولَىٰ.

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ دَنَتِ الْقِيَامَةُ وَاقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ. وَسَمَّاهَا آزِفَةٌ لِقُرْبِ قِيَامِهَا عِنْدَهُ، وَقِيلَ: سَمَّاهَا آزِفَةٌ لِدُنُوِّهَا مِنَ النَّاسِ وَقُرْبِهَا مِنْهُمْ لِيَسْتَعِدُّوا لَهَا، لِأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ ، وَفِي الصِّحَاحِ: أَزِفَ التَّرَحُّلُ يَأْزَفُ أَزَفًا أَيْ دَنَا.

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ﴾ أَيْ مُظْهِرَةٌ مُقِيمَةٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الْأَعْرَافِ: ١٨٧] وَالْمَعْنَىٰ: لَيْسَ لَهَا مِنْ

دُونِ اللهِ كَاشِفٌ، أَيْ لَا يَكْشِفُ عَنْهَا وَلَا يُظْهِرُهَا غَيْرُهُ ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لَيْسَ لَهَا رَادٌّ يَعْنِي إِذَا غَشِيَتِ الْخَلْقَ أَهْوَالُهَا وَشَدَائِدُهَا لَمْ يَكْشِفْهَا وَلَمْ يَرُدَّهَا عنهم أحد. وَقِيلَ: إِنَّ ﴿كاشِفَةٌ﴾ بِمَعْنَىٰ كَاشِفٍ وَالْهَاءُ لِلْمُبَالَغَةِ مِثْلُ رَاوِيَةٍ وَدَاهِيَةٍ.

[٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ، وَهَذَا اسْتِفْهَامُ تَوْبِيخٍ ﴿تَعْجَبُونَ﴾ تَكْذِيبًا بِهِ .

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ اسْتِهْزَاءً ﴿وَلا تَبْكُونَ﴾ انْزِجَارًا وَخَوْفًا مِنَ الْوَعِيدِ.

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ لَاهُونَ غَافِلُونَ ، وَالسُّمُودُ الْغَفْلَةُ عَنِ الشَّيْءِ وَاللَّهْوُ، يُقَالُ: دع عنا سُمُودَكَ أَيْ لَهْوَكَ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ عَنْهُ: هُوَ الْغِنَاءُ بِلُغَةِ أَهْلِ الْيَمَنِ وَكَانُوا إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ تَغَنَّوْا وَلَعِبُوا، وَالسُّمُودُ اللَّهْوُ، وَالسَّامِدُ اللَّاهِي، يُقَالُ لِلْقَيْنَةِ: أَسْمِدِينَا، أَيْ أَلْهِينَا بِالْغِنَاءِ ، وَتَسْمِيدُ الْأَرْضِ أَنْ يَجْعَلَ فِيهَا السماد وهو سراجين وَرَمَادٌ.

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ أَيْ وَاعْبُدُوهُ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْأَخْبَارِ الصَّحِيحَةِ : أَنَّ النَّبِيءَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ النَّجْمَ فَسَجَدَ فِيهَا- أَيْ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ - وَسَجَدَ مَنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

وَالْمُشْرِكِينَ إِلَّا شَيْخًا مُشْرِكًا هُوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ أَوْ حَصًىٰ فرفعه إِلَىٰ جِهَته وَقَالَ: يَكْفِينِي هَذَا[1].

(١) البخاري (١٠٦٧) ومسلم (٥٧٦).

سُورَةُ الْقَمَرِ

وَتُسَمَّىٰ «سُورَةَ الْقَمَرِ» وَبِذَلِكَ تَرْجَمَهَا التِّرْمِذِيُّ. وَتُسَمَّىٰ «سُورَةَ اقْتَرَبَتْ» حِكَايَةً لِأَوَّلِ كَلِمَةٍ فِيهَا ، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: «سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيءَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آيَةً فَانْشَقَّ الْقَمَرُ بِمَكَّةَ فَنَزَلَتِ : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾[(١)] .

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ دَنَتِ الْقِيَامَةُ، ﴿وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ أَيْ: وَانْفَلَقَ الْقَمَرُ، وَذَلِكَ أَيَّامَ كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ، فَإِنَّهُ أَمَامَ إِلْحَاحِ الْمُشْرِكِينَ فِي رُؤْيَةِ مُعْجِزَةٍ حِسِّيَّةٍ لِتَصْدِيقِ النُّبُوَّةِ، اسْتَجَابَ اللهُ تَعَالَىٰ لِذَلِكَ فَأَرَاهُمْ آيَةَ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ نِصْفَيْنِ حَتَّىٰ رَأَوْا جَبَلَ حِرَاءٍ بَيْنَهُمَا، قَالَ السَّعْدِيُّ :فَشَاهَدُوا أَمْرًا مَا رَأَوْا مِثْلَهُ، بَلْ وَلَمْ يَسْمَعُوا أَنَّهُ جَرَىٰ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُرْسَلِينَ قَبْلَهُ نَظِيرُهُ، فَانْبَهَرُوا لِذَلِكَ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَلَمْ يُرِدِ اللهُ بِهِمْ خَيْرًا، فَفَزِعُوا إِلَىٰ بَهْتِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ، وَقَالُوا: سَحَرَنَا مُحَمَّدٌ، أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ

---

(١) البخاري (٣٨٦٨) ومسلم (٢٨٠٢) .

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمُ الْقَمَرَ شِقَّتَيْنِ حَتَّىٰ رَأَوْا حِرَاءً بَيْنَهُمَا، وَعَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّهُ خَطَبَ بِالْمَدَائِنِ ثُمَّ قَالَ: أَلَا إِنَّ السَّاعَةَ قَدِ اقْتَرَبَتْ، وَأَنَّ الْقَمَرَ قَدِ انْشَقَّ عَلَىٰ عَهْدِ نَبِيِّكُمْ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقِيلَ أَنَّ أَوَّلَ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ هِيَ بِعْثَتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فَعَنْ جَابِرٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ وَعَلَا صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّىٰ كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ ، وَيَقُولُ: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ** ، وَيَقْرِنُ بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ، السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَىٰ»[1] .

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ فَشَاهَدُوا أَمْرًا مَا رَأَوْا مِثْلَهُ، بَلْ وَلَمْ يَسْمَعُوا أَنَّهُ جَرَىٰ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُرْسَلِينَ قَبْلَهُ نَظِيرُهُ، فَانْبَهَرُوا لِذَلِكَ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَلَمْ يُرِدِ اللهُ بِهِمْ خَيْرًا، فَفَزِعُوا إِلَىٰ بَهْتِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ، وَقَالُوا: سَحَرَنَا مُحَمَّدٌ ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ أَيْ ذَاهِبٌ وَسَوْفَ يَذْهَبُ وَيَبْطُلُ مِنْ قَوْلِهِمْ مَرَّ الشَّيْءُ وَاسْتَمَرَّ إِذَا ذَهَبَ، مِثْلُ قَوْلِهِمْ: قَرَّ واستقر، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالضَّحَّاكُ: مُسْتَمِرٌّ أَيْ قَوِيٌّ شَدِيدٌ يَعْلُو كُلَّ سِحْرٍ، مِنْ قَوْلِهِمْ: مَرَّ الْحَبْلُ إِذَا صلب واشتد، وأمررته أنا إِذَا أَحْكَمْتُ فَتْلَهُ وَاسْتَمَرَّ الشَّيْءُ إِذَا قَوِيَ وَاسْتَحْكَمَ.

(١) مسلم (٨٦٧) .

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أَيْ كَذَّبُوا النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا عَايَنُوا مِنْ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَاتَّبَعُوا مَا زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مِنْ الباطل، ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ: لِكُلِّ أَمْرٍ حَقِيقَةٌ، مَا كَانَ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا فَسَيَظْهَرُ وَمَا كَانَ مِنْهُ فِي الْآخِرَةِ فَسَيُعْرَفُ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ فَالْخَيْرُ مُسْتَقِرٌّ بِأَهْلِ الْخَيْرِ، وَالشَّرُّ مُسْتَقِرٌّ بِأَهْلِ الشَّرِّ ، وَقِيلَ كُلُّ أَمْرٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ مُسْتَقِرٌّ قَرَارُهُ، فَالْخَيْرُ مُسْتَقِرٌّ بِأَهْلِهِ فِي الْجَنَّةِ، وَالشَّرُّ مُسْتَقِرٌّ بِأَهْلِهِ فِي النَّارِ، وَقِيلَ: يَسْتَقِرُّ قَوْلُ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُكَذِّبِينَ حَتَّىٰ يَعْرِفُوا حَقِيقَتَهُ بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: لِكُلِّ حَدِيثٍ مُنْتَهَىٰ، وَقِيلَ: كُلُّ مَا قُدِّرَ كَائِنٌ وَوَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ يَعْنِي أَهْلَ مَكَّةَ، ﴿مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ من أَخْبَارِ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : أَيْ مِنْ بَعْضِ الْأَنْبَاءِ، فَذَكَرَ سُبْحَانَهُ مِنْ ذَلِكَ مَا عَلِمَ أَنَّهُمْ يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَأَنَّ لَهُمْ فِيهِ شِفَاءٌ ، وَقَدْ كَانَ هُنَاكَ أُمُورٌ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا اقْتَصَّ عَلَيْنَا مَا عَلِمَ أَنَّ بِنَا إِلَيْهِ حَاجَةً وَسَكَتَ عَمَّا سِوَىٰ ذَلِكَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ أَيْ جَاءَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ مِنْ أَنْبَاءِ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أَيْ: زَاجِرٌ يَزْجُرُهُمْ عَنْ غَيِّهِمْ وَضَلَالِهِمْ ، وهو مَصْدَرٌ بِمَعْنَىٰ الِازْدِجَارِ، أَيْ نَهْيٌ وَعِظَةٌ، يُقَالُ زَجَرْتُهُ وَازْدَجَرْتُهُ إِذَا نَهَيْتُهُ عَنِ السُّوءِ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنُ حِكْمَةٌ تَامَّةٌ قَدْ بلغت الغاية في الزجر، فِي هِدَايَتِهِ تَعَالَىٰ لِمَنْ هداه وإضلاله لمن أضله ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ يجوز أَنْ تَكُونَ (مَا) نَفْيًا عَلَىٰ مَعْنَىٰ فَلَيْسَتْ تُغْنِي النُّذُرُ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: فَلَيْسَتْ تُغْنِي عَنْهُمُ النُّذُرُ وَلَا يَنْتَفِعُونَ بِهَا، لِإِعْرَاضِهِمْ عَنْهَا وَتَكْذِيبِهِمْ بِهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اسْتِفْهَامًا، وَالْمَعْنَىٰ: فَأَيَّ شَيْءٍ تُغْنِي النُّذُرُ إِذَا خَالَفُوهُمْ وَكَذَّبُوهُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وَالنُّذُرُ جَمْعُ نَذِيرٍ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي أَعرِض عَنْهُمْ، نَسَخَتْهَا آيَةُ الْقِتَالِ، وَقِيلَ: تَوَلَّ عَنْهُمْ يَا مُحَمَّدُ فَقَدْ أَقَمْتَ الْحُجَّةَ وَأَبْصِرْهُمْ يَوْمَ يَدْعُو الدَّاعِي، وَقِيلَ: أَيْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا تَسْأَلْ عَنْهُمْ وَعَنْ أَحْوَالِهِمْ، فَإِنَّهُمْ يُدْعَوْنَ، ﴿يَوْمَ يَدْعُو الدَّاعِ﴾ أَيْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالدَّاعِي هُوَ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ مُنْكَرٍ فَظِيعٍ لَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ فينكروه استعظاما، وَهُوَ مَوْقِفُ الْحِسَابِ، وَمَا فِيهِ مِنَ البلاء وَالْأَهْوَالِ، وَهُوَ كَمَا تَقُولُ: لَا تَسْأَلْ عَمَّا جَرَىٰ عَلَىٰ فُلَانٍ إِذَا أَخْبَرْتَهُ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ أَيْ: ذَلِيلَةً خَاضِعَةً عِنْدَ رُؤْيَةِ العذاب. الْخُشُوعُ فِي الْبَصَرِ الْخُضُوعُ وَالذِّلَّةُ، وَأَضَافَ الْخُشُوعَ إِلَىٰ الْأَبْصَارِ لِأَنَّ أَثَرَ الْعِزِّ وَالذُّلِّ يَتَبَيَّنُ فِي نَاظِرِ الْإِنْسَانِ، وَيُقَالُ: خَشَعَ وَاخْتَشَعَ إِذَا ذَلَّ. وَخَشَعَ بِبَصَرِهِ أَيْ غَضَّهُ، ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ مِنَ الْقُبُورِ، وَاحِدُهَا جدث،

وَالْجَدَثُ هُوَ الْقَبْرُ وَهُوَ مُفْرَدُ أَجْدَاثٍ، وَالْجَدَثُ هُوَ قَرِيبٌ مِنْ لَفْظِ (الْجَدَثَةِ) وَهُوَ صَوْتُ الْحَافِرِ وَالْخُفِّ، وَغَيْرِهِ عَلَىٰ الْأَرْضِ وَصَوْتُ مَضْغِ اللَّحْمِ أَيْضًا، رَبُّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَمْ يَسْتَعْمِلِ الْأَجْدَاثَ إِلَّا عِنْدَمَا يَخْرُجُونَ مِنَ الْقَبْرِ سِرَاعًا ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ مُنْبَثٌّ حَيَارَىٰ، وَذَكَرَ الْمُنْتَشِرَ عَلَىٰ لَفْظِ الْجَرَادِ، نَظِيرُهَا: ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٧] وَأَرَادَ أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ فَزِعِينَ لَا جِهَةَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ يَقْصِدُهَا كَالْجَرَادِ لَا جِهَةَ لَهَا تَكُونُ مُخْتَلِطَةً بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ فَهُمَا صِفَتَانِ فِي وَقْتَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: عِنْدَ الْخُرُوجِ مِنَ الْقُبُورِ، يَخْرُجُونَ فَزِعِينَ لَا يَهْتَدُونَ أَيْنَ يَتَوَجَّهُونَ، فَيَدْخُلُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، فَهُمْ حِينَئِذٍ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ لَا جِهَةَ لَهُ يَقْصِدُهَا.

الثَّانِي: فَإِذَا سَمِعُوا الْمُنَادِيَ قَصَدُوهُ فَصَارُوا كَالْجَرَادِ الْمُنْتَشِرِ، لِأَنَّ الْجَرَادَ لَهُ جِهَةٌ يَقْصِدُهَا.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ مسرعين مقبلين، يُقَالُ: هَطَعَ الرَّجُلُ يَهْطَعُ هُطُوعًا إِذَا أَقْبَلَ عَلَىٰ الشَّيْءِ بِبَصَرِهِ لَا يُقْلِعُ عَنْهُ ﴿إِلَىٰ الدَّاعِي﴾ إِلَىٰ صَوْتِ إِسْرَافِيلَ، ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ صَعْبٌ شَدِيدٌ، يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَا يَنَالُهُمْ فِيهِ مِنَ الشدة.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أَيْ قَبْلَ أَهْلِ مَكَّةَ، ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ نوحا عليه السلام ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ أَيْ زَجَرُوهُ عَنْ دَعْوَتِهِ وَمَقَالَتِهِ بِالشَّتْمِ وَالْوَعِيدِ، وَقَالُوا: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشُّعَرَاءِ: ١١٦].

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَدَعَا﴾ نوح، ﴿رَبَّهُ﴾ وقال، ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ مقهور، أَيْ غَلَبُونِي بِتَمَرُّدِهِمْ ﴿فَانْتَصِرْ﴾ فَانْتَقِمْ لِي مِنْهُمْ. قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ إِنِّي ضَعِيفٌ عَنْ هَؤُلَاءِ وَعَنْ مُقَاوَمَتِهِمْ فَانْتَصِرْ أَنْتَ لِدِينِك، قِيلَ: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ كَانُوا لَا يَدْعُونَ عَلَىٰ قَوْمِهِمْ بِالْهَلَاكِ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ فِيهِ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ مُنْصَبٍّ انْصِبَابًا شَدِيدًا لَمْ يَنْقَطِعْ أربعين يوماً.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أَيْ نَبَعَتْ جَمِيعُ أَرْجَاءِ الْأَرْضِ حَتَّىٰ التَّنَانِيرُ الَّتِي هِيَ مَحَالُّ النِّيرَانِ نَبَعَتْ عُيُونًا، ﴿فَالْتَقَىٰ الْمَاءُ﴾ يَعْنِي مَاءَ السَّمَاءِ وَمَاءَ الْأَرْضِ، وإنَّما قال: التقىٰ الْمَاءُ وَالِالْتِقَاءُ لَا يَكُونُ مِنْ وَاحِدٍ إِنَّمَا يَكُونُ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَصَاعِدًا؛ لِأَنَّ الْمَاءَ يَكُونُ جَمْعًا وواحداً، ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أَيْ قُضِيَ عَلَيْهِمْ فِي أُمِّ الْكِتَابِ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: قَدَّرَ اللهُ أَنْ يَكُونَ الْمَاءَانِ سَوَاءً فَكَانَا علىٰ قدر.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾ يَعْنِي نُوحًا، ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ أَيْ سَفِينَةٍ ذَاتِ أَلْوَاحٍ، ذَكَرَ النَّعْتَ وَتَرَكَ الِاسْمَ، أَرَادَ بِالْأَلْوَاحِ خَشَبَ السَّفِينَةِ

الْعَرِيضَةِ، ﴿وَدُسُرٍ﴾ أَي الْمَسَامِيرُ الَّتِي تُشَدُّ بِهَا الْأَلْوَاحُ، وَاحِدُهَا دِسَارٌ وَدَسِيرٌ، يُقَالُ: دَسَرْتُ السَّفِينَةَ إِذَا شَدَدْتُهَا بِالْمَسَامِيرِ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: ﴿الدُّسُرُ﴾ صَدْرُ السَّفِينَةِ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَدْسُرُ الْمَاءَ بِجُؤْجُئِهَا، أَيْ تَدْفَعُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ عَوَارِضُ السَّفِينَةِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: الْأَلْوَاحُ جَانِبَاهَا، وَالدُّسُرُ أَصْلُهَا وطرفاها.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أَيْ بِمَرْأًىٰ مِنَّا، وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: بِحِفْظِنَا، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ لِلْمُوَدَّعِ: عَيْنُ اللهِ عَلَيْكَ، وَقَالَ سُفْيَانُ: بِأَمْرِنَا، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: تَجْرِي بِنُوحٍ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ، وَمَنْ حَمَلَهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَخْلُوقَاتِ بِرِعَايَةٍ مِنَ اللهِ، وَحِفْظٍ مِنْهُ لَهَا عَنِ الْغَرَقِ وَنَظَرٍ، وَكِلَاءَةٍ مِنْهُ تَعَالَىٰ، وَهُوَ نِعْمَ الْحَافِظُ الْوَكِيلُ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ يَعْنِي فِعْلَنَا بِهِ وَبِهِمْ مِنْ إِنْجَاءِ نُوحٍ وَإِغْرَاقِ قَوْمِهِ ثَوَابًا لِمَنْ كَانَ كُفِرَ بِهِ وَجُحِدَ أَمْرُهُ، وَهُوَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقِيلَ: (مَنْ) بِمَعْنَىٰ (مَا) أَيْ جَزَاءً لِمَا كَانَ كُفِرَ مِنْ أَيَادِي اللهِ وَنِعَمِهِ عِنْدَ الَّذِينَ أَغْرَقَهُمْ، أَوْ جَزَاءً لِمَا صُنْعَ بِنُوحٍ وَأَصْحَابِهِ، وَقَرَأَ مُجَاهِدٌ ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كَفَرَ﴾ بِفَتْحِ الْكَافِ وَالْفَاءِ، يَعْنِي كَانَ الْغَرَقُ جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كَفَرَ بِاللهِ وَكَذَّبَ رسوله.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا﴾ يَعْنِي الْفِعْلَةَ الَّتِي فَعَلْنَا، ﴿آيَةً﴾ يُعْتَبَرُ بِهَا، وَقِيلَ: أَرَادَ السَّفِينَةَ، وَقِيلَ: أَرَادَ السَّفِينَةَ تَرَكَهَا آيَةً لِمَنْ بَعْدَ قَوْمِ نُوحٍ

يَعْتَبِرُونَ بِهَا فَلَا يُكَذِّبُونَ الرُّسُلَ ،﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ أَيْ مُتَذَكِّرٍ مُتَّعِظٍ مُعْتَبِرٍ خَائِفٍ مثل عقوبتهم.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أَيْ إِنْذَارِي، قَالَ الْفَرَّاءُ: الْإِنْذَارُ وَالنُّذُرُ مَصْدَرَانِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: أَنْذَرْتُ إِنْذَارًا وَنُذُرًا، كَقَوْلِهِمْ أَنْفَقْتُ إِنْفَاقًا وَنَفَقَةً، وَأَيْقَنْتُ إِيقَانًا وَيَقِينًا، أُقِيمَ الِاسْمُ مَقَامَ الْمَصْدَرِ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا﴾ سهلنا، ﴿الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ لِيُتَذَكَّرَ وَيُعْتَبَرَ بِهِ، وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَوْلَا أَنَّ اللهَ يَسَّرَهُ عَلَىٰ لِسَانِ الْآدَمِيِّينَ مَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ أن يتكلم بكلام الله عزَّ وجلَّ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَسَّرْنَاهُ لِلْحِفْظِ وَالْقِرَاءَةِ، وَلَيْسَ مِنْ كُتُبِ اللهِ كِتَابٌ يُقْرَأُ كُلُّهُ ظَاهِرًا إِلَّا الْقُرْآنَ، أَيْ سَهَّلْنَاهُ لِلْحِفْظِ وَأَعَنَّا عَلَيْهِ مَنْ أَرَادَ حِفْظَهُ، فَهَلْ مِنْ طَالِبٍ لِحِفْظِهِ فَيُعَانُ عَلَيْهِ؟ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَىٰ: وَلَقَدْ هَيَّأْنَاهُ لِلذِّكْرِ مَأْخُوذٌ مِنْ يَسَّرَ نَاقَتَهُ لِلسَّفَرِ: إِذَا رَحَلَهَا، وَيَسَّرَ فَرَسَهُ لِلْغَزْوِ إِذَا أَسْرَجَهُ وَأَلْجَمَهُ، ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ مُتَّعِظٍ بِمَوَاعِظِهِ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ عَادٍ قَوْمِ (هُودٍ) إِنَّهُمْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ، كَمَا صَنَعَ قَوْمُ (نُوحٍ) .

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ وَهِيَ الْبَارِدَةُ الشَّدِيدَةُ الْبَرْدِ، ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ شَدِيدٍ دَائِمِ الشُّؤْمِ، اسْتَمَرَّ عَلَيْهِمْ بِنَحْوِ سَنَةٍ فَلَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ أحد إِلَّا أَهْلَكَهُ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ﴾ تَقْلَعُهُمْ ثُمَّ تَرْمِي بِهِمْ عَلَىٰ رؤوسهم فَتَدُقُّ رِقَابَهُمْ. وَرُوِيَ أَنَّهَا كَانَتْ تَنْزِعُ النَّاسَ مِنْ قُبُورِهِمْ، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أُصُولُهَا، ﴿مُنْقَعِرٍ﴾ منقلع مِنْ مَكَانِهِ سَاقِطٍ عَلَىٰ الْأَرْضِ وَوَاحِدُ الْأَعْجَازِ عَجُزٍ، وَالْمُنْقَعِرُ: الْمُنْقَلِعُ مِنْ أَصْلِهِ، قَعَرْتُ الشَّجَرَةَ قَعْرًا قَلَعْتُهَا مِنْ أَصْلِهَا فَانْقَعَرَتْ، قال البغوي : وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ وَهِيَ أُصُولُهَا الَّتِي قُطِّعَتْ فُرُوعُهَا لأن الريح كانت تبين رؤوسهم مِنْ أَجْسَادِهِمْ، فَتُبْقِي أَجْسَادُهُمْ بِلَا رؤوس.

[٢١-٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ .

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ هُمْ قَوْمُ صَالِحٍ كَذَّبُوا الرُّسُلَ وَنَبِيَّهُمْ، أَوْ كَذَّبُوا بِالْآيَاتِ الَّتِي هِيَ النُّذُرُ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ﴾ وَنَحْنُ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ ، وَهُوَ وَاحِدٌ، ﴿إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ﴾ [القمر: ٢٤] خَطَأٍ وَذَهَابٍ عَنِ الصَّوَابِ، ﴿وَسُعُرٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَذَابٌ، وَقَالَ الْحَسَنُ: شِدَّةُ عَذَابٍ، وَقَالَ قَتَادَةُ: عَنَاءٌ، يَقُولُونَ: إِنَّا إِذًا لَفِي عَنَاءٍ وَعَذَابٍ مِمَّا يَلْزَمُنَا مِنْ طَاعَتِهِ ، قَالَ سُفْيَانُ ابْنُ عُيَيْنَةَ: هُوَ جَمْعُ سَعِيرٍ ، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: جُنُونٌ، يُقَالُ نَاقَةٌ مَسْعُورَةٌ إِذَا كَانَتْ خَفِيفَةَ الرَّأْسِ هَائِمَةً عَلَىٰ وَجْهِهَا، وَقَالَ وَهْبٌ: وَسُعُرٍ: أَبْعَدُ عَنِ الْحَقِّ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ﴾ أأنزل الذكر: الوحي، ﴿عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ بَطِرٌ مُتكَبِّرٌ يُرِيدُ أَنْ يَتعَظَّمَ عَلَيْنَا بِادِّعَائِهِ النُّبُوَّةِ، وَالْأَشَرُ الْمَرَحُ والتجبر.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ حِينَ يَنْزِلُ بِهِمُ الْعَذَابُ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَذِكْرُ الْغَدِ لِلتَّقْرِيبِ عَلَىٰ عَادَةِ النَّاسِ، يَقُولُونَ: إِنَّ مَعَ الْيَوْمِ غَدًا، ﴿مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ أي: كثير الكذب والشر، وَالْأَشَرُ الْمَرَحُ وَالتَّجَبُّرُ وَالنَّشَاطُ، يُقَالُ: فَرَسٌ أَشِرٌ إِذَا كَانَ مَرِحًا نَشِيطًا، وَهَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ شَدِيدٌ ووعيد أكيد.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ﴾ أَيْ بَاعِثُوهَا وَمُخْرِجُوهَا مِنَ الْهَضْبَةِ التي سألوا أن يخرجها منها، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ تَعَنَّتُوا عَلَىٰ صَالِحٍ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يُخْرِجَ لَهُمْ مِنْ صَخْرَةٍ نَاقَةً حَمْرَاءَ عَشْرَاءَ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِتْنَةً لَهُمْ﴾ محنة واختباراً لهم، ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ فَانْتَظَرَ مَا هُمْ صَانِعُونَ، ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ عَلَىٰ ارْتِقَابِهِمْ، وَقِيلَ: عَلَىٰ مَا يصيبك من الأذىٰ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ وَبَيْنَ النَّاقَةِ، يَوْمٌ لَهَا وَيَوْمٌ لَهُمْ، وَإِنَّمَا قَالَ: "بَيْنَهُمْ" لِأَنَّ الْعَرَبَ إِذَا أَخْبَرَتْ عَنْ بَنِي آدَمَ وَعَنِ الْبَهَائِمِ غَلَّبَتْ بَنِي آدَمَ عَلَىٰ الْبَهَائِمِ، ﴿كُلُّ شِرْبٍ﴾ نصيب من الماء، ﴿مُحْتَضَرٌ﴾ يَحْضُرُهُ مَنْ كَانَتْ نَوْبَتُهُ، فَإِذَا كان يوم الناقة حَضَرَتْ شِرْبَهَا، وَإِذَا كَانَ يَوْمُهُمْ حضروا شربهم، الشِّرْبُ- بِالْكَسْرِ- الْحَظُّ مِنَ الْمَاءِ، وَفِي الْمَثَلِ: (آخِرُهَا أَقَلُّهَا

شِرْبًا) وَأَصْلُهُ فِي سَقْيِ الْإِبِلِ، لِأَنَّ آخِرَهَا يَرِدُ وَقَدْ نَزِفَ الْحَوْضُ، وأحضر وحضر بِمَعْنًىٰ وَاحِدٍ، قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي يَحْضُرُونَ الْمَاءَ إِذَا غَابَتِ النَّاقَةُ، فَإِذَا جَاءَتِ النَّاقَةُ حَضَرُوا اللَّبَنَ ، وقال مُجَاهِدٌ: إِنَّ ثَمُودَ يَحْضُرُونَ الْمَاءَ يَوْمَ غِبِّهَا فَيَشْرَبُونَ، وَيَحْضُرُونَ اللَّبَنَ يَوْمَ وِرْدِهَا فَيَحْتَلِبُونَ.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ يَعْنِي بِالْحَضِّ عَلَىٰ عَقْرِهَا ، وَهُوَ قِدَارُ بْنُ سَالِفٍ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: فَكَمِنَ لَهَا فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ عَلَىٰ طَرِيقِهَا فَرَمَاهَا بِسَهْمٍ فَانْتَظَمَ بِهِ عَضَلَةَ سَاقِهَا، ثُمَّ شَدَّ عَلَيْهَا بِالسَّيْفِ فَكَشَفَ عُرْقُوبَهَا، فَخَرَّتْ وَرَغَتْ رُغَاءَةً وَاحِدَةً تَحَدَّرَ سَقْبُهَا مِنْ بَطْنِهَا ثُمَّ نَحَرَهَا، وَانْطَلَقَ سَقْبُهَا حَتَّىٰ أَتَىٰ صَخْرَةً فِي رَأْسِ جَبَلٍ فَرَغَا ثُمَّ لَاذَ بِهَا، فَأَتَاهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا رَأَىٰ النَّاقَةَ قَدْ عُقِرَتْ بَكَىٰ وَقَالَ: قَدِ انْتَهَكْتُمْ حُرْمَةَ اللهِ فَأَبْشِرُوا بِعَذَابِ اللهِ. ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ فتناول الناقة بسيفه وَمَعْنَىٰ تَعَاطَىٰ تَنَاوَلَ الْفِعْلَ، مِنْ قَوْلِهِمْ: عَطَوْتُ أَيْ تَنَاوَلْتُ، ﴿فَعَقَرَ﴾ أَيْ فَعَقَرَهَا ، والعقر: أَصْلُهُ ضَرْبُ الْبَعِيرِ بِالسَّيْفِ عَلَىٰ عَرَاقِيبِهِ لِيَسْقُطَ إِلَىٰ الْأَرْضِ جَاثِيًا فَيَتَمَكَّنَّ النَّاحِرُ مِنْ نَحْرِهِ ، وعُرْقوبُ الدابة في رِجلها مثل الرُكبة عند الانسان.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ ثُمَّ بَيَّنَ عَذَابَهُمْ ، فَقَالَ:

[٣١] : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ قَالَ عَطَاءٌ: يُرِيدُ صَيْحَةَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ كَيَبَسِ الشَّجَرِ إِذَا تَحَطَّمَ وَالْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ شَيْءٍ كَانَ رَطْبًا فَيَبِسَ هَشِيمًا ، وَقَالَ قَتَادَةُ: كَالْعِظَامِ النَّخِرَةِ الْمُحْتَرِقَةِ

، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُوَ التُّرَابُ الَّذِي يَتَنَاثَرُ مِنَ الْحَائِطِ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: كَانَتِ الْعَرَبُ يَجْعَلُونَ حظاراً علىٰ الإبل والمواشي من يبس الشَّوْكِ، فَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾، وقَالَ السُّدِّيُّ: هُوَ الْمَرْعَىٰ بالصحراء حين ييبس ويحترق وتسفيه الرِّيحُ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَيْ فَبَادُوا عَنْ آخِرِهِمْ لَمْ تَبْقَ مِنْهُمْ بَاقِيَةٌ، وَخَمَدُوا وَهَمَدُوا كَمَا يَهْمُدُ يَبِيسُ الزَّرْعِ وَالنَّبَاتِ.

[٣٢] قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ أَيْ: وَلَقَدْ سَهَّلْنَا الْقُرْآنَ لِلتِّلَاوَةِ وَالِادِّكَارِ وَالِاتِّعَاظِ بِمَا فِيهِ مِنْ قَصَصٍ وَمَوَاعِظَ وَعِبَرٍ، فَهَلْ مِنْ مُتَّعِظٍ أَوْ مُعْتَبِرٍ؟!.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ أَخْبَرَ عَنْ قَوْمِ لُوطٍ أَيْضًا لَمَّا كَذَّبُوا لُوطًا.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ رِيحًا تَرْمِيهِمْ بِالْحَصْبَاءِ، وَهِيَ الْحَصَا، قَالَ الضَّحَّاكُ: يَعْنِي صِغَارَ الْحَصَىٰ ، وَقِيلَ: الْحَصْبَاءُ هِيَ الْحَجَرُ الَّذِي دُونَ مِلْءِ الْكَفِّ، وَقَدْ يَكُونُ الْحَاصِبُ الرَّامِي، فَيَكُونُ الْمَعْنَىٰ عَلَىٰ هَذَا: أرسلنا عليهم عذابا يحصبهم، يعني يَرْمِيهِمْ بِالْحِجَارَةِ، ثُمَّ اسْتَثْنَىٰ فَقَالَ: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ يعني لوطا وابنتيه، ﴿نَجَّيْنَاهُمْ﴾ من العذاب، ﴿بِسَحَرٍ﴾، قَالَ الزجاج: (بِسَحَرٍ) إِذَا كَانَ نَكِرَةً يُرَادُ بِهِ سَحَرٌ مِنَ الْأَسْحَارِ يُصْرَفُ، تَقُولُ أَتَيْتُهُ سَحَرًا، فَإِذَا أَرَدْتَ سحر يومك ، لَمْ تَصْرِفْهُ، تَقُولُ: أَتَيْتُهُ سَحَرَ يَا هَذَا، وَأَتَيْتُهُ بِسَحَرَ. وَالسَّحَرُ: هُوَ مَا بَيْنَ آخِرِ اللَّيْلِ وَطُلُوعِ الْفَجْرِ، وَهُوَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ اخْتِلَاطُ

سَوَادِ اللَّيْلِ بِبَيَاضِ أَوَّلِ النَّهَارِ، لِأَنَّ فِي هَذَا الْوَقْتِ يَكُونُ مَخَايِيلُ اللَّيْلِ وَمَخَايِيلُ النَّهَارِ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ يعني جَعَلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا عَلَيْهِمْ حَيْثُ أنجيناهم، ﴿كَذَلِكَ﴾ يعني كَمَا أَنْعَمْنَا عَلَىٰ آلِ لُوطٍ، ﴿نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ أي: كذلك يُثيب الله ويُجازي من أطاع وشكر، قَالَ مُقَاتِلٌ: مَنْ وَحَّدَ اللهَ لَمْ يُعَذِّبْهُ مَعَ الْمُشْرِكِينَ.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ﴾ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ دَعَاهُمْ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الشِّرْكِ وَالْفَاحِشَةِ الَّتِي مَا سَبَقَهُمْ بِهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، ﴿بَطْشَتَنَا﴾ عُقُوبَتَنَا وَأَخْذَنَا إِيَّاهُمْ بِالْعَذَابِ ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ شَكُّوا بِالْإِنْذَارِ، وَكَذَّبُوا وَلَمْ يُصَدِّقُوا.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾ طَلَبُوا أَنْ يُسَلِّمَ إِلَيْهِمْ أَضْيَافَهُ ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا قَصَدُوا دَارَ لُوطٍ وَعَالَجُوا الْبَابَ لِيَدْخُلُوا، قَالَتِ الرُّسُلُ لِلُوطٍ: خَلِّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الدُّخُولِ فَإِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ، فَدَخَلُوا الدَّارَ فَصَفَقَهُمْ جِبْرِيلُ بِجَنَاحِهِ بِإِذْنِ اللهِ فَتَرَكَهُمْ عُمْيًا يَتَرَدَّدُونَ مُتَحَيِّرِينَ لَا يَهْتَدُونَ إِلَىٰ الْبَابِ، فَأَخْرَجَهُمْ لُوطٌ عُمْيًا لَا يُبْصِرُونَ، قَوْلُهُ: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ يعني صَيَّرْنَاهَا كَسَائِرِ الْوَجْهِ لَا يُرَىٰ لَهَا شَقٌّ، كَمَا تَطْمِسُ الرِّيحُ الْآثار بِمَا تُسْفِي عَلَيْهَا مِنَ التُّرَابِ، هَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: طَمَسَ

اللهُ أَبْصَارَهُمْ فَلَمْ يَرَوُا الرُّسُلَ، فَقَالُوا: قَدْ رَأَيْنَاهُمْ حِينَ دَخَلُوا الْبَيْتَ فَأَيْنَ ذَهَبُوا، فَلَمْ يَرَوْهُمْ فَرَجَعُوا، ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أَيْ مَا أَنْذَرَكُمْ بِهِ لُوطٌ مِنَ الْعَذَابِ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً﴾ جَاءَهُمْ وَقْتَ الصُّبْحِ، ﴿عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ دَائِمٌ اسْتَقَرَّ فِيهِمْ حَتَّىٰ أَفْضَىٰ بِهِمْ إِلَىٰ عَذَابِ الْآخِرَةِ، وَذَلِكَ الْعَذَابُ قَلْبُ قَرْيَتِهِمْ عَلَيْهِمْ وَجَعْلُ أَعْلَاهَا أَسْفَلَهَا.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أَيْ: فَذُوقُوا مَعْشَرَ قَوْمِ لُوطٍ عَذَابَ اللهِ وَبَأْسَهُ الَّذِي أَنْذَرَكُمُوهُ رَسُولُكُمْ لُوطٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ أَيْ: وَلَقَدْ سَهَّلَ اللهُ هَذَا الْقُرْآنَ سَوَاءً لِلتِّلَاوَةِ أَوْ لِلِاتِّعَاظِ، فَهَلْ مِنْ مُتَّعِظٍ بِمَا فِيهِ مِنَ الْعِبَرِ وَأَخْبَارِ الْأُمَمِ، وَالْخِطَابُ لِقُرَيْشٍ ثُمَّ هُوَ يَعُمُّ كُلَّ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ، وَمَضَىٰ عَلَىٰ مِنْهَاجِهِمْ.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ يَعْنِي مُوسَىٰ وَهَارُونُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَقِيلَ: هِيَ الْآيَاتُ الَّتِي أَنْذَرَهُمْ بِهَا مُوسَىٰ.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ وَهِيَ الْآيَاتُ التِّسْعُ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ بِأَدِلَّتِنَا الَّتِي جَاءَتْهُمْ مِنْ عِنْدِنَا، وَحُجَجِنَا الَّتِي أَتَتْهُمْ بِأَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ كُلِّهَا ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ بالعذاب، ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ غالب في انتقامه، ﴿مُقْتَدِرٍ﴾ قَادِرٍ عَلَىٰ إِهْلَاكِهِمْ لَا يُعْجِزُهُ ما أراد بهم، ثُمَّ خَوَّفَ أَهْلَ مَكَّةَ فَقَالَ:

[٤٣] : ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾ أَشَدُّ وَأَقْوَىٰ مِنَ الَّذِينَ أَحْلَلْتُ بِهِمْ نِقْمَتِي مَنْ قَوْمِ نُوحٍ وعاد وثمود وقالا لُوطٍ وَآلِ فِرْعَوْنَ؟ خَاطَبَ الْعَرَبَ ، وَقِيلَ: أَرَادَ كُفَّارَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقِيلَ: اسْتِفْهَامٌ، وَهُوَ اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ وَمَعْنَاهُ النَّفْيُ، أَيْ لَيْسَ كُفَّارُكُمْ خَيْرًا مِنْ كُفَّارِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأُمَمِ الَّذِينَ أُهْلِكُوا بِكُفْرِهِمْ. ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ﴾ من العذاب، ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ أَيْ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ بِالسَّلَامَةِ مِنَ الْعُقُوبَةِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمْ لَكُمْ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ بَرَاءَةٌ مِنَ الْعَذَابِ.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ يَعْنِي كُفَّارُ مَكَّةَ، ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ أَيْ جَمَاعَةٌ لَا تُطَاقُ لِكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ قَالَ الْكَلْبِيُّ: نَحْنُ جَمِيعُ أَمْرِنَا منتصر من أعدائنا، والمعنىٰ: نَحْنُ يَدٌ وَاحِدَةٌ عَلَىٰ مَنْ خَالَفْنَا، مُنْتَصِرٌ مِمَّنْ عَادَانَا، وَلَمْ يقل منتصرون لموافقة رؤوس الآيِ.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ يَعْنِي كُفَّارَ مَكَّةَ، ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ يَعْنِي الْأَدْبَارَ، فَوَحَّدَ لِأَجْلِ رُؤُوسِ الْآيِ، كَمَا يُقَالُ: ضَرَبْنَا مِنْهُمُ الرُّؤُوسَ وَضَرَبْنَا مِنْهُمُ الرَّأْسَ إِذَا كَانَ الْوَاحِدُ يُؤَدِّي مَعْنَىٰ الْجَمْعِ.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ أَيْ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ مِمَّا لَحِقَهُمْ يوم بدر. قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ: «سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ كُنْتُ لَا أَدْرِي أَيَّ جَمْعٍ سيهزم، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَثِبُ فِي

دِرْعِهِ وَيَقُولُ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ . بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ أي أعظم داهية وبلية وَأَشَدُّ مَرَارَةً مِنَ الْأَسْرِ وَالْقَتْلِ يوم بدر[١].

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ المشركين، ﴿فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ قِيلَ: فِي ضَلَالٍ بُعْدٍ عَنِ الْحَقِّ ، قَالَ الضَّحَّاكُ: وَسُعُرٍ أَيْ نار تسعر عليهم، وقيل: في ضَلَالٌ: ذَهَابٌ عَنْ طَرِيقِ الْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ، وَسُعُرٍ: نَارٌ مُسَعَّرَةٌ، قال الحسين بن فضل: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ فِي الدُّنْيَا وَنَارٍ فِي الْآخِرَةِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: فِي عَنَاءٍ وَعَذَابٍ ، ثُمَّ بَيَّنَ عَذَابَهُمْ فَقَالَ:

[٤٨] : ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ يُجَرُّونَ، ﴿فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ وَيُقَالُ لَهُمْ ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَ (سَقَرَ) اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ جَهَنَّمَ لَا يَنْصَرِفُ، لِأَنَّهُ اسْمٌ مُؤَنَّثٌ مَعْرِفَةٌ، وَكَذَا لَظَىٰ وَجَهَنَّمُ. قَالَ قُطْرُبٌ: (سَقَرَ) مِنْ سَقَرَتْهُ الشَّمْسُ وَصَقَرَتْهُ لَوَّحَتْهُ.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ أَيْ مَا خَلَقْنَاهُ فَمَقْدُورٌ وَمَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: قَدَّرَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ قَدَرَهُ الَّذِي يَنْبَغِي لَهُ.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ أَيْ إِنَّمَا نَأْمُرُ بِالشَّيْءِ مَرَّةً وَاحِدَةً، لَا نَحْتَاجُ إِلَىٰ تَأْكِيدٍ بِثَانِيَةٍ، أَيْ: وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا مَرَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَمَا أَمْرُنَا

---

(١) البخاري (٢٩٣٣) .

لِلشَّيْءِ إِذَا أَرَدْنَا تَكْوِينَهُ إِلَّا كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ: كُنْ فَيَكُونُ، لَا مُرَاجَعَةَ فِيهَا كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ، ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ أَيْ قَضَائِي فِي خَلْقِي أَسْرَعُ مِنْ لَمْحِ الْبَصَرِ. وَاللَّمْحُ النَّظَرُ بِالْعَجَلَةِ، يُقَالُ: لَمَحَ الْبَرْقَ بِبَصَرِهِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ أَنَّ قَضَائِي فِي خَلْقِي أَسْرَعُ مِنْ لَمْحِ الْبَصَرِ.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ أَيْ أَشْبَاهَكُمْ فِي الْكُفْرِ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ ، وَقِيلَ: أَتْبَاعُكُمْ وَأَعْوَانُكُمْ ، وَالْأَشْيَاعُ: جَمْعُ شِيعَةٍ ، وَالشِّيعَةُ: الْجَمَاعَةُ الَّذِينَ يُؤَيِّدُونَ مَنْ يُضَافُونَ إِلَيْهِ ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ مُتَّعِظٍ يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ حَقٌّ فَيَخَافُ وَيَعْتَبِرُ ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : أَيْ جَمِيعُ مَا فَعَلَتْهُ الْأُمَمُ قَبْلَهُمْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ كَانَ مَكْتُوبًا عَلَيْهِمْ.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ يَعْنِي فَعَلَهُ الْأَشْيَاعُ مِنْ خَيْرٍ وشر، ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ أَيْ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَقِيلَ: فِي كُتُبِ الْحَفَظَةِ ، والزُّبُرِ: جَمْعُ زَبُورٍ وَهُوَ الْكِتَابُ مُشْتَقٌّ مِنَ الزَّبْرِ، وَهُوَ الْكِتَابَةُ.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ أَيْ كُلُّ ذَنْبٍ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَأَعْمَالِهِمْ وَآجَالِهِمْ، ﴿مُسْتَطَرٌ﴾ مَكْتُوبٌ، يُقَالُ: سَطَّرْتُ وَاسْتَطَرْتُ وَكَتَبْتُ وَاكْتَتَبْتُ.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ﴾ بساتين، ﴿وَنَهَرٍ﴾ أَيْ أَنْهَارٌ، وَوَحَّدَهُ لِأَجْلِ رُؤُوسِ الْآيِ، وَأَرَادَ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ مِنَ الْمَاءِ وَالْخَمْرِ وَاللَّبَنِ وَالْعَسَلِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: يَعْنِي فِي ضِيَاءٍ وَسَعَةٍ، وَمِنْهُ النَّهَارُ.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ فِي مَجْلِسِ حَقٍّ لَا لَغْوَ فِيهِ وَلَا تَأْثِيمَ، ﴿عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ أَيْ: عِنْدَ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ، ذِي الْقُدْرَةِ وَالْجَبَرُوتِ وَالْقُوَّةِ الْمَتِينِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قَالَ الْإِمَامُ جَعْفَرٌ الصَّادِقُ: مَدَحَ اللهُ الْمَكَانَ الصِّدْقَ فَلَا يَقْعُدُ فِيهِ إِلَّا أَهْلُ الصِّدْقِ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَمَرِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

سبب تَسْمِيَةِ هَذِهِ السُّورَةِ بِسُورَةِ الرَّحْمَنِ أَنَّهَا ابْتُدِئَتْ بِاسْمِهِ تَعَالَىٰ: الرَّحْمنُ ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ فِي قَوْلِ جُمْهُورِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينِ ، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ قَالَت: «سَمِعت رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ يُصَلِّي نَحْوَ الرُّكْنِ- قَبْلَ أَنْ يُصَدَعَ بِمَا يُؤْمَرُ ، وَالْمُشْرِكُونَ يَسْمَعُونَ يَقْرَأُ: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾»(١).

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُتَّصِفُ بِالرَّحْمَةِ الْعَامَّةِ الشَّامِلَةِ، حَيْثُ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِبَادُهُ، يَرْزُقُهُمْ، وَيَهْدِيهِمْ سُبُلَهُمْ، وَيُمْهِلُهُمْ فِيمَا اسْتَخْلَفَهُمْ وَخَوَّلَهُمْ، وَيَسْتَرْعِيهِمْ فِي أَرْضِهِ، وَيَسْتَأْمِنُهُمْ فِي مُلْكِهِ، لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَإِنَّ رَحْمَةَ اللهِ فِي الدُّنْيَا وَسِعَتْهُمْ جَمِيعًا، اللهُ يَرْحَمُ الْمُؤْمِنَ وَغَيْرَ الْمُؤْمِنِ، أَيْ يُطْعِمُهُمْ، وَيَسْقِيهِمْ، وَيَحْفَظُهُمْ، وَالرَّحْمَةُ تَشْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ.

---

(١) أحمد (٢٦٩٥٥) .

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ أَيْ عَلَّمَهُ نَبِيَّهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّىٰ أَدَّاهُ إِلَىٰ جَمِيعِ النَّاسِ، وَأُنْزِلَتْ حِينَ قَالُوا: وَمَا الرَّحْمَنُ؟ وَقِيلَ: نَزَلَتْ جَوَابًا : إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ وَهُوَ رَحمَنُ الْيَمَامَةِ ، يَعْنُونَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿الرَّحْمنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ : عَلَّمَ الْقُرْآنَ مُحَمَّدًا ، وَقِيلَ: يَسَّرَهُ لِلذِّكْرِ،

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ يَعْنِي آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أَيْ: التَّبْيِينَ عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ، وَهَذَا شَامِلٌ لِلتَّعْلِيمِ النُّطْقِيِّ وَالتَّعْلِيمِ الْخَطِّيِّ، فَالْبَيَانُ الَّذِي مَيَّزَ اللهُ بِهِ الْآدَمِيَّ عَلَىٰ غَيْرِهِ مِنْ أَجَلِّ نِعَمِهِ، وَأَكْبَرِهَا عَلَيْهِ، وَقِيلَ: عَلَّمَهُ اللُّغَاتِ كُلَّهَا، وَكَانَ آدَمُ يَتَكَلَّمُ بسبعمائة لُغَةٍ أَفْضَلُهَا الْعَرَبِيَّةُ، وَقَالَ الْآخَرُونَ: الْإِنْسَانُ اسْمُ جِنْسٍ، وَأَرَادَ بِهِ جَمِيعَ النَّاسِ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ: النُّطْقَ وَالْكِتَابَةَ وَالْفَهْمَ وَالْإِفْهَامَ حَتَّىٰ عَرَفَ مَا يَقُولُ وَمَا يُقَالُ لَهُ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: عَلَّمَ كُلَّ قَوْمٍ لِسَانَهُمُ الَّذِي يَتَكَلَّمُونَ بِهِ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أَيْ يَجْرِيَانِ مُتَعَاقِبَيْنَ بِحِسَابٍ مُقَنَّنٍ، لَا يَخْتَلِفُ وَلَا يَضْطَرِبُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَعْنَاهُ أَيْ يَجْرِيَانِ بِحِسَابٍ وَمَنَازِلَ لَا يعدونها، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: يَعْنِي بِهِمَا تُحْسَبُ الْأَوْقَاتُ وَالْآجَالُ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: يَجْرِيَانِ بِقَدَرٍ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ النَّجْمُ مَا لَيْسَ لَهُ سَاقٌ مِنَ النَّبَاتِ، وَالشَّجَرُ مَا لَهُ سَاقٌ يَبْقَىٰ فِي الشِّتَاءِ، وَسُجُودُهُمَا سجود ظلهما كما قال: ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ﴾ [النحل : ٤٨] ، وقال

مُجَاهِدٌ: النَّجْمُ هُوَ الْكَوْكَبُ وَسُجُودُهُ طلوعه، سُجُودُهُ فِي قَوْلِ مُجَاهِدٍ دَوَرَانُ ظِلِّهِ، وَهُوَ اخْتِيَارُ الطَّبَرِيِّ، وقيلَ: سُجُودُ النَّجْمِ أُفُولُهُ، وَسُجُودُ الشَّجَرِ إِمْكَانُ الاِجْتِنَاءِ لِثَمَرِهَا.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ فوق الأرض، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: وَتَقْدِيمُ السَّمَاءِ عَلَىٰ الْفِعْلِ النَّاصِبِ لَهُ زِيَادَةٌ فِي الْاِهْتِمَام بِالْاِعْتِبَارِ بِخَلْقِهَا، ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَرَادَ بِالْمِيزَانِ الْعَدْلَ، الْمَعْنَىٰ أَنَّهُ أَمَرَ بِالْعَدْلِ، يَدُلُّ عَلَيْهِ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أَيْ لَا تُجَاوِزُوا الْعَدْلَ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: أَرَادَ بِهِ الَّذِي يُوزَنُ بِهِ لِيُوصَلَ بِهِ الْإِنْصَافِ وَالِانْتِصَافِ، وَأَصْلُ الْوَزْنِ التَّقْدِيرُ، ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾: يَعْنِي لِئَلَّا تَمِيلُوا وَتَظْلِمُوا وَتُجَاوِزُوا الْحَقَّ فِي الْمِيزَانِ، وَالطُّغْيَانُ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ، فَمَنْ قَالَ: الْمِيزَانُ الْعَدْلُ قَالَ طُغْيَانُهُ الْجَوْرُ، وَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ الْمِيزَانُ الَّذِي يُوزَنُ بِهِ قَالَ طُغْيَانُهُ: الْبَخْسُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ لَا تَخُونُوا مَنْ وُزِنْتُمْ لَهُ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ بِالْعَدْلِ، وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: مَعْنَاهُ أَقِيمُوا لِسَانَ الْمِيزَانِ بِالْعَدْلِ، قَالَ سفيان بْنُ عُيَيْنَةَ: الْإِقَامَةُ بِالْيَدِ والقسط بالقلب، ﴿وَلَا تُخْسِرُوا﴾ ولا تنقصوا ﴿الْمِيزَانَ﴾ وَلَا تُطَفِّفُوا فِي الْكَيْلِ وَالْوَزْنِ، وَقَالَ قَتَادَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: اعْدِلْ يَا بن آدَمَ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُعْدَلَ لَكَ، وَأَوْفِ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُوفَىٰ لَكَ، فَإِنَّ الْعَدْلَ صَلَاحُ النَّاسِ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ الْأَنَامُ النَّاسُ الَّذِينَ بَثَّهُمْ فِيهَا، وقال الْحَسَنُ البصري: الْجِنُّ وَالْإِنْسُ ، قَالَ الضَّحَّاكُ: كُلُّ مَا دَبَّ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ يَعْنِي أَنْوَاعَ الْفَوَاكِهِ، قَالَ ابْنُ كيسان: مَا يَتَفَكَّهُونَ بِهِ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا تُحْصَىٰ، ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ الأوعية التي يكون فيها التمر، لأن تمر النَّخْلِ يَكُونُ فِي غِلَافٍ مَا لَمْ يَنْشَقَّ، وَاحِدُهَا كِمٌّ، وَكُلُّ مَا سَتَرَ شَيْئًا فَهُوَ كِمٌّ، وَكِمَّةٌ، وَمِنْهُ كُمُّ الْقَمِيصِ، وَيُقَالُ لِلْقَلَنْسُوَةِ كُمَّةٌ، قَالَ الضَّحَّاكُ: ذَاتُ الْأَكْمَامِ أَيْ ذَاتُ الْغُلُفِ ، وَقَالَ الْحَسَنُ: أَكْمَامُهَا لِيفُهَا ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هُوَ الطَّلْعُ قبل أن ينفتق.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ أَرَادَ بِالْحَبِّ جَمِيعَ الْحُبُوبِ الَّتِي يقتات بها. قَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ وَرَقُ الزَّرْعِ ، والعصف وَرَقُ كُلِّ شَيْءٍ يَخْرُجُ مِنْهُ الحب، وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هو التبن، وعنه: هُوَ وَرَقُ الزَّرْعِ الْأَخْضَرِ إِذَا قطع رؤوسه وَيَبِسَ، ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ هُوَ الرِّزْقُ فِي قَوْلِ الْأَكْثَرِينَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُلُّ رَيْحَانٍ فِي القرآن فهو رزق، قال الْحَسَنُ وَابْنُ زَيْدٍ: هُوَ رَيْحَانُكُمُ الَّذِي يُشَمُّ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أَيِ النِّعَمُ ظَاهِرَةٌ عَلَيْكُمْ ، وَأَنْتُمْ مَغْمُورُونَ بِهَا، لَا تَسْتَطِيعُونَ إِنْكَارَهَا وَلَا جُحُودَهَا، وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: لَا بِأَيِّهَا يَا رَبِّ، أَيْ لَا نُكَذِّبُ بِشَيْءٍ منها.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ الصَّلْصَالُ الطِّينُ الْيَابِسُ الَّذِي يُسْمَعُ لَهُ صَلْصَلَةٌ، شَبَّهَهُ بِالْفَخَّارِ الَّذِي طُبِخَ ، وَقِيلَ: هُوَ طِينٌ خُلِطَ بِرَمْلٍ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾ إبليس وَهُوَ أَبُو الْجِنِّ ﴿مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ وَهُوَ الصَّافِي مِنْ لَهَبِ النَّارِ الَّذِي لَا دُخَانَ فِيهِ، قَالَ اللَّيْثُ: الْمَارِجُ الشُّعْلَةُ السَّاطِعَةُ ذَاتُ اللَّهَبِ الشَّدِيدِ ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّهُ اللَّهَبُ الَّذِي يَعْلُو النَّارَ فَيَخْتَلِطُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ أَحْمَرُ وَأَصْفَرُ وَأَخْضَرُ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ مَشْرِقِ الصَّيْفِ وَمَشْرِقِ الشِّتَاءِ. ﴿وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ مَغْرِبِ الصَّيْفِ وَمَغْرِبِ الشِّتَاءِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: هُوَ تَعَالَىٰ رَبُّ كُلِّ مَا أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَالْكَوَاكِبُ النَّيِّرَةُ، وَكُلِّ مَا غَرَبَتْ عَلَيْهِ، وَكُلِّ مَا كَانَا فِيهِ فَهِيَ تَحْتَ تَدْبِيرِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ، وَثَنَّاهُمَا هُنَا لِإِرَادَةِ الْعُمُومِ مَشْرِقَيِ الشَّمْسِ شِتَاءً وَصَيْفًا، وَمَغْرِبِهَا كَذَلِكَ، وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: وَتَثْنِيَةُ الْمَشْرِقَيْنِ وَالْمَغْرِبَيْنِ لأن الشَّمْسَ تَطْلُعُ فِي فَصْلَيِ الشِّتَاءِ وَالرَّبِيعِ مِنْ سَمْتٍ وَفِي فَصْلَيِ الصَّيْفِ وَالْخَرِيفِ مِنْ سَمْتٍ آخَرَ وَبِمُرَاعَاةِ وَقْتِ الطُّولِ وَوَقْتِ الْقِصَرِ وَكَذَلِكَ غُرُوبُهَا وَهِيَ فِيمَا بَيْنَ هَذَيْنِ الْمَشْرِقَيْنِ وَالْمَغْرِبَيْنِ يَنْتَقِلُ طُلُوعُهَا وَغُرُوبُهَا فِي دَرَجَاتٍ مُتَقَارِبَةٍ فَقَدْ يُعْتَبَرُ ذَلِكَ فَيُقَالُ: الْمَشَارِقُ وَالْمَغَارِبُ كَمَا

فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠].

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ الْعَذْبَ وَالْمَالِحَ أَرْسَلَهُمَا وَخَلَّاهُمَا، ﴿مَرَجَ﴾ أَيْ خَلَّىٰ وَأَرْسَلَ وَأَهْمَلَ، يُقَالُ: مَرَجَ السُّلْطَانُ النَّاسَ إِذَا أَهْمَلَهُمْ، وَأَصْلُ الْمَرْجِ الْإِهْمَالُ كَمَا تُمْرَجُ الدَّابَّةُ فِي الْمَرْعَىٰ، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: إِنَّهُ الْبَحْرُ الْمَالِحُ وَالْأَنْهَارُ الْعَذْبَةُ، وَيَلْتَقِيَانِ: يَتَّصِلَانِ بِحَيْثُ يَصُبُّ أَحَدُهُمَا فِي الْآخَرِ. وَالْمَعْنَىٰ: أَرْسَلَ الْبَحْرِينِ لَا يَحْبِسُ مَاءَهُمَا عَنِ الْجَرْيِ حَاجِزٌ، وَهَذَا تَهْيِئَةٌ لِقَوْلِهِ بَعْدَ يَلْتَقِيانِ بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيانِ، وَالْمُرَادُ: أَنَّهُ خَلَقَهُمَا وَمَرَجَهُمَا، لِأَنَّهُ مَا مَرَجَهُمَا إِلَّا عَقِبَ أَنْ خَلَقَهُمَا.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ حَاجِزٌ مِنْ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ لَا يَخْتَلِطَانِ وَلَا يَتَغَيَّرَانِ وَلَا يَبْغِي أَحَدُهُمَا عَلَىٰ صَاحِبِهِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: لَا يَطْغَيَانِ عَلَىٰ النَّاسِ بالغرق، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ، لَوْلَا الْبَرْزَخُ الَّذِي بَيْنَهُمَا لَا يَبْغِيَانِ أَنْ يَلْتَقِيَا.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ وَإِنَّمَا يَخْرُجُ مِنَ الْمَالِحِ دُونَ الْعَذْبِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَخْرُجُ مِنْ مَاءِ السَّمَاءِ وَمَاءِ الْبَحْرِ، وَاللُّؤْلُؤُ مَعْرُوفٌ، وَأَمَّا الْمَرْجَانُ فَقِيلَ: هُوَ صِغَارُ اللُّؤْلُؤِ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ﴾ السفن الكبار، ﴿الْمُنْشَآتُ﴾ أَيْ الْمَرْفُوعَاتُ وَهِيَ الَّتِي رُفِعَ خَشَبُهَا بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ. وَقِيلَ: هِيَ مَا رُفِعَ قَلْعُهُ مِنَ السُّفُنِ، وَأَمَّا مَا لَمْ يُرْفَعْ قَلْعُهُ فليس من المنشآت. وَقِيلَ: الْمَخْلُوقَاتُ الْمُسَخَّرَاتُ، ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ كَالْجِبَالِ جَمْعُ عَلَمٍ وَهُوَ الْجَبَلُ الطَّوِيلُ شَبَّهَ السُّفُنَ فِي الْبَحْرِ بِالْجِبَالِ فِي الْبَرِّ، عن عمرة بن سويد قَالَ: كُنْتُ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَىٰ شَاطِئِ الْفُرَاتِ إِذْ أَقْبَلَتْ سَفِينَةٌ مَرْفُوعٌ شِرَاعُهَا فَبَسَطَ عليٌّ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَقُولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَهُ الجوار الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ وَالَّذِي أَنْشَأَهَا تَجْرِي فِي بِحَوَرِهِ مَا قَتَلْتُ عُثْمَانَ وَلَا مَالَأْتُ عَلَىٰ قتله.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ أَيْ عَلَىٰ الْأَرْضِ مِنْ حَيَوَانٍ فإنه، ﴿فَانٍ﴾ هالك ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّ جَمِيعَ أَهْلِ الْأَرْضِ سَيَذْهَبُونَ وَيَمُوتُونَ أَجْمَعُونَ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ إِلاَّ مَن شَآءَ اللهُ، وَلَا يَبْقَىٰ أَحَدٌ سِوَىٰ وَجْهِهِ الكريم، فإن الرب تعالىٰ وتقدس هُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ أَبَدًا،

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: ذُو الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْمَجْدِ، الَّذِي يُعَظَّمُ وَيُبَجَّلُ وَيُجَلُّ لِأَجْلِهِ، وَالْإِكْرَامِ الَّذِي هُوَ سَعَةُ الْفَضْلِ وَالْجُودِ، وَالدَّاعِي لِأَنْ يُكْرِمَ أَوْلِيَاءَهُ وَخَوَاصَّ خَلْقِهِ

بِأَنْوَاعِ الْإِكْرَامِ، الَّذِي يُكْرِمُهُ أَوْلِيَاؤُهُ وَيُجِلُّونَهُ، وَيُعَظِّمُونَهُ وَيُحِبُّونَهُ، وَيُنِيبُونَ إِلَيْهِ وَيَعْبُدُونَهُ، وَفِي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، يَا بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، بِرَحْمَتِكَ نَسْتَغِيثُ، أصلح لنا شئننا كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنَا إِلَىٰ أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَلَا إِلَىٰ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مِنْ مَلَكٍ وَإِنْسٍ وَجِنٍّ ، قَالَ قتادة: معناه لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَأَهْلُ السَّمَاوَاتِ يَسْأَلُونَهُ الْمَغْفِرَةَ وَأَهْلُ الْأَرْضِ يسألونه الرزق وَالتَّوْبَةَ وَالْمَغْفِرَةَ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: يُسْأَلُهُ أَهْلُ الْأَرْضِ الرِّزْقَ وَالْمَغْفِرَةَ، وَتَسْأَلُهُ الْمَلَائِكَةُ أَيْضًا لَهُمُ الرِّزْقَ وَالْمَغْفِرَةَ، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنْ غِنَاهُ عما سواه، وافتقار الخلائق إليه وَأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُ بِلِسَانِ حَالِهِمْ وَقَالِهِمْ، وَأَنَّهُ كُلَّ يوم هو في شأن ، قَالَ مُقَاتِلٌ: نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ حِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ لَا يَقْضِي يَوْمَ السَّبْتَ شَيْئًا. قال الأعمش: مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُجِيبَ دَاعِيًا أَوْ يُعْطِيَ سَائِلًا، أَوْ يَفُكَّ عَانِيًا أَوْ يَشْفِيَ سَقِيمًا، وَقَالَ الْمُفَسِّرُونَ: مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُحْصِيَ وَيُمِيتَ وَيَرْزُقَ، وَيُعِزَّ قَوْمًا وَيُذِلَّ قَوْمًا وَيَشْفِي مَرِيضًا وَيَفُكَّ عَانِيًا وَيُفَرِّجَ مَكْرُوبًا وَيُجِيبَ دَاعِيًا وَيُعْطِيَ سَائِلًا وَيَغْفِرَ ذَنْبًا إِلَىٰ مَا لَا يُحْصَىٰ مِنْ أَفْعَالِهِ وَأَحْدَاثِهِ فِي خلقه ما يشاء.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ أَيْ: سَنَفْرُغُ لِحِسَابِكُمْ وَمُجَازَاتِكُمْ بِأَعْمَالِكُمُ الَّتِي عَمِلْتُمُوهَا فِي دَارِ الدُّنْيَا، وَعِيدٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ لِلْخَلْقِ بِالْمُحَاسَبَةِ، كَقَوْلِ الْقَائِلِ لَأَتَفَرَّغَنَّ لَكَ، وَمَا بِهِ شُغْلٌ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ، وَإِنَّمَا حَسُنَ هَذَا الْفَرَاغُ لِسَبْقِ ذِكْرِ الشَّأْنِ ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَاللهُ تَعَالَىٰ لَيْسَ لَهُ شُغْلٌ يَفْرُغُ مِنْهُ، إِنَّمَا الْمَعْنَىٰ سَنَقْصِدُ لِمُجَازَاتِكُمْ أَوْ مُحَاسَبَتِكُمْ، وَهَذَا وَعِيدٌ وَتَهْدِيدٌ لَهُمْ كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ لِمَنْ يُرِيدُ تَهْدِيدَهُ: إِذًا أَتَفَرَّغُ لَكَ أَيْ أَقْصِدُكَ، وَفَرَغَ بِمَعْنَىٰ قَصَدَ، وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَاهُ سَنَقْصِدُكُمْ بَعْدَ التَّرْكِ وَالْإِمْهَالِ وَنَأْخُذُ فِي أَمْرِكُمْ، كَقَوْلِ الْقَائِلِ الَّذِي لَا شُغْلَ لَهُ: قَدْ تَفَرَّغْتُ لَكَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ اللهَ وَعَدَ أَهْلَ التَّقْوَىٰ وَأَوْعَدَ أَهْلَ الْفُجُورِ، ثُمَّ قَالَ: سَنَفْرُغُ لَكُمْ مِمَّا وَعَدْنَاكُمْ، وَأَخْبَرَنَاكُمْ فَنُحَاسِبُكُمْ وَنُجَازِيكُمْ وَنُنْجِزُ لكم ما وَعَدْنَاكُمْ، وَأَخْبَرَنَاكُمْ فَنُحَاسِبُكُمْ وَنُجَازِيكُمْ وَنُنْجِزُ لكم ما وعدناكم، فنتم ذلك ونفرغ مِنْهُ، وَإِلَىٰ هَذَا ذَهَبَ الْحَسَنُ ومقاتل. ﴿أَيُّهَ الثَّقَلانِ﴾ أَيِ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ، سُمِّيَا ثَقَلَيْنِ لأنهما ثقلا علىٰ الأرض أحياءً وأمواتًا.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا﴾ أَيْ تَجُوزُوا وَتَخْرُجُوا، ﴿مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ مِنْ جَوَانِبِهِمَا وَأَطْرَافِهِمَا، ﴿فَانْفُذُوا﴾ مَعْنَاهُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَهْرُبُوا مِنَ الْمَوْتِ بِالْخُرُوجِ مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاهْرُبُوا وَاخْرُجُوا مِنْهَا ، وَالْمَعْنَىٰ حَيْثُمَا كُنْتُمْ

أَدْرَكَكُمُ الْمَوْتُ، كَمَا قَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ﴾ [النِّسَاءِ: ٧٨] وَقِيلَ: يقال لهما هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَجُوزُوا أَطْرَافَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَتُعْجِزُوا رَبَّكُمْ حَتَّىٰ لَا يَقْدِرَ عَلَيْكُمْ فَجُوزُوا، ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أَيْ: بِمُلْكٍ، وَقِيلَ: بِحُجَّةٍ، وَالسُّلْطَانُ: الْقُوَّةُ الَّتِي يَتَسَلَّطُ بِهَا عَلَىٰ الْأَمْرِ، فَالْمُلْكُ وَالْقُدْرَةُ وَالْحُجَّةُ كُلُّهَا سُلْطَانٌ، يُرِيدُ حَيْثُمَا تَوَجَّهْتُمْ كُنْتُمْ فِي مُلْكِي وَسُلْطَانِي ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَعْنَاهُ: إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَعْلَمُوا مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاعْلَمُوا وَلَنْ تَعْلَمُوهُ إِلَّا بِسُلْطَانٍ أَيْ بِبَيِّنَةٍ مِنَ الله عز وجل،

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ﴾ وَهُوَ اللَّهِيبُ الَّذِي لَا دُخَانَ فِيهِ، هَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ اللَّهَبُ الْأَخْضَرُ المنقطع من النار، ﴿وَنُحَاسٌ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: النُّحَاسُ الدُّخَانُ، وَهُوَ رِوَايَةُ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: النُّحَاسُ هُوَ الصُّفْرُ الْمُذَابُ يصب علىٰ رؤوسهم ، ﴿فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ أي فلا تمتنعان مِنْ عَذَابِ اللهِ ، وَلَا يَكُونُ لَكُمْ نَاصِرٌ مِنْهُ.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ﴾ انفرجت، ﴿السَّمَاءُ﴾ فَصَارَتْ أَبْوَابًا لِنُزُولِ الْمَلَائِكَةِ ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ أَيْ كَلَوْنِ الْفَرَسِ الْوَرِدِ، وَهُوَ الْأَبْيَضُ الَّذِي يَضْرِبُ إِلَىٰ الْحُمْرَةِ والصفرة، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَيْ تَذُوبُ كَمَا يَذُوبُ الدُّرْدِي

(الدردي: ما يركد في أسفل كل مائع كالشراب والأدهان) وَالْفِضَّةُ فِي السَّبْكِ، وَتَتَلَوَّنُ كَمَا تَتَلَوَّنُ الْأَصْبَاغُ الَّتِي يُدْهَنُ بِهَا، فَتَارَةً حَمْرَاءَ وَصَفْرَاءَ وَزَرْقَاءَ وَخَضْرَاءَ، وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ الْأَمْرِ وَهَوْلِ يَوْمِ القيامة العظيم ﴿والدِّهَانِ﴾ جَمْعُ دُهْنٍ، وَالدِّهَانُ، بِكَسْرِ الدَّالِ: دُرْدِيُّ الزَّيْتِ، وَهَذَا تَشْبِيهٌ ثَانٍ لِلسَّمَاءِ فِي التَّمَوُّجِ وَالْاِضْطِرَابِ، وقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَالْمَعْنَىٰ أَنَّهَا صَارَتْ فِي صَفَاءِ الدُّهْنِ، وَالدِّهَانُ عَلَىٰ هَذَا جَمْعُ دُهْنٍ، وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ: كَالدِّهَانِ كَعَصِيرِ الزَّيْتِ يَتَلَوَّنُ فِي السَّاعَةِ أَلْوَانًا، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: كَدُهْنِ الْوَرْدِ الصَّافِي، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ تَصِيرُ السَّمَاءُ كَالدُّهْنِ الذَّائِبِ وَذَلِكَ حِينَ يُصِيبُهَا حَرُّ جَهَنَّمَ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: (كَالدِّهانِ) أَيْ كَصَبِّ الدُّهْنِ فَإِنَّكَ إِذَا صببته ترىٰ فيه ألوانا.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ قَالَ الْحَسَنُ البصري: لَا يُسْأَلُونَ عَنْ ذُنُوبِهِمْ لِتُعْلَمَ مِنْ جِهَتِهِمْ، لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلِمَهَا مِنْهُمْ، وَكَتَبَتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِمْ، وَعَنْهُ أَيْضًا: لَا تَسْأَلُ الْمَلَائِكَةُ الْمُجْرِمِينَ لِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ، دَلِيلُهُ مَا بَعْدَهُ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ سُؤَالُ اسْتِعْلَامٍ بِمَا وَقَعَ، لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَالْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ، وَيُرِيدُ أَنْ يُجَازِيَ الْعِبَادَ بِمَا عَلِمَهُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ، وَقَدْ جَعَلَ لِأَهْلِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَامَاتٍ يُعْرَفُونَ بِهَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا يَسْأَلُهُمْ هَلْ عَمِلْتُمْ كَذَا وَكَذَا لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ يَسْأَلُهُمْ لِمَ عَمِلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ وَعَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّهَا مَوَاطِنُ

يَسْأَلُ فِي بَعْضِهَا وَلَا يَسْأَلُ فِي بَعْضِهَا ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا لَا يُسْأَلُونَ سُؤَالَ شَفَقَةٍ وَرَحْمَةٍ وَإِنَّمَا يُسْأَلُونَ سُؤَالَ تَقْرِيعٍ وَتَوْبِيخٍ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: لَا يُسْأَلُ غَيْرُ الْمُجْرِمِ عَنْ ذنب المجرم.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ السِّيمَا: الْعَلَامَةُ، مُشْتَقَّةٌ مِنْ سَامَ الَّذِي هُوَ مَقْلُوبُ وَسَمَ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: سَوَادُ الْوَجْهِ وَزُرْقَةُ الْأَعْيُنِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه : ١٠٢]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران : ١٠٦] ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ تُجْعَلُ الْأَقْدَامُ مَضْمُومَةً إِلَىٰ النَّوَاصِي مِنْ خَلْفٍ وَيُلْقَوْنَ فِي النَّارِ، وَالنَّوَاصِي: جَمْعُ نَاصِيَةٍ وَهِيَ الشَّعْرُ الَّذِي فِي مُقَدَّمِ الرَّأْسِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُؤْخَذُ بِنَاصِيَتِهِ وَقَدَمَيْهِ ، فَيُكْسَرُ كَمَا يُكْسَرُ الْحَطَبُ فِي التَّنُّورِ.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ :

[٤٣] : ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أَيْ يُقَالُ لَهُمْ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي أُخْبِرْتُمْ بِهَا فَكَذَّبْتُمْ.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ قَدِ انْتَهَىٰ حَرُّهُ ، قَالَ الزَّجَّاجُ: أَنَىٰ يَأْنَىٰ فَهُوَ آنٌ إِذَا انْتَهَىٰ فِي النُّضْجِ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُمْ يَسْعَوْنَ بَيْنَ الْجَحِيمِ وَالْحَمِيمِ ، فَإِذَا اسْتَغَاثُوا مِنْ حَرِّ النَّارِ جُعِلَ عَذَابُهُمُ الْحَمِيمَ الْآنِيَ الَّذِي صَارَ كَالْمُهْلِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَدِ انْتَهَىٰ غَلْيُهُ وَاشْتَدَّ حَرُّهُ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: يَطُوفُونَ

مَرَّةً بَيْنَ الْحَمِيمِ وَمَرَّةً بَيْنَ الْجَحِيمِ، وَالْجَحِيمُ النَّارُ، وَالْحَمِيمُ الشَّرَابُ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وَكُلُّ مَا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ إلىٰ ههنا مَوَاعِظُ وَزَوَاجِرُ وَتَخْوِيفٌ، وَكُلُّ ذَلِكَ نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ لِأَنَّهَا تَزْجُرُ عَنِ الْمَعَاصِي، وَلِذَلِكَ خَتَمَ كل آية بقول :

[٤٥] : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ مَا أَعَدَّهُ لِمَنِ اتَّقَاهُ وَخَافَهُ، فَقَالَ:

[٤٦] : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أَيْ خَافَ مَقَامَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ لِلْحِسَابِ فَتَرَكَ الْمَعْصِيَةَ. وَقِيلَ: قِيَامُ رَبِّهِ عَلَيْهِ بَيَانُهُ قَوْلُهُ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد : ٣٣] ، وَقَالَ إبراهيم النخعي: هُوَ الَّذِي يَهُمُّ بِالْمَعْصِيَةِ فَيَذْكُرُ اللهَ فَيَدَعُهَا مِنْ مَخَافَةِ الله ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿جَنَّتَانِ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: جَنَّةُ عَدْنٍ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ التِّرْمِذِيُّ: جَنَّةٌ لِخَوْفِهِ رَبَّهُ وَجَنَّةٌ لِتَرْكِهِ شَهْوَتَهُ، قَالَ الضَّحَّاكُ: هَذَا لِمَنْ رَاقَبَ اللهَ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ بِعِلْمِهِ مَا عَرَضَ لَهُ مِنْ مُحَرَّمٍ تَرَكَهُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا عَمِلَ مِنْ خَيْرٍ أَفْضَىٰ بِهِ إِلَىٰ اللهِ لَا يُحِبُّ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ خَافُوا ذَلِكَ الْمَقَامَ فَعَمِلُوا لِلَّهِ وَدَأَبُوا بالليل والنهار.

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ثُمَّ وَصَفَ الْجَنَّتَيْنِ ، فَقَالَ:

[٤٨] : ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أَغْصَانٍ وَاحِدُهَا فَنَنٌ، وَهُوَ الْغُصْنُ الْمُسْتَقِيمُ طُولًا، وَهَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَالْكَلْبِيِّ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ظِلُّ الْأَغْصَانِ عَلَىٰ

الْحِيطَانِ ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: ذَوَاتَا ظِلَالٍ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ألوان، وَقَالَ قَتَادَةُ: ذَوَاتَا فَضْلٍ وَسَعَةٍ عَلَىٰ مَا سِوَاهُمَا.

[٤٩] قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أَيْ تَسْرَحَانِ لِسَقْيِ تِلْكَ الْأَشْجَارُ وَالْأَغْصَانُ، فَتُثْمِرُ مِنْ جَمِيعِ الْأَلْوَانِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِالْكَرَامَةِ وَالزِّيَادَةِ عَلَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وقَالَ الْحَسَنُ البصري : تَجْرِيَانِ بِالْمَاءِ الزُّلَالِ إِحْدَاهُمَا التَّسْنِيمُ ، والأخرىٰ السلسبيل ، وقال عطاء: إِحْدَاهُمَا مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَالْأُخْرَىٰ مَنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، وقال أبو بكر الوراق: فيهما عينان تَجْرِيَانِ لِمَنْ كَانَتْ عَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا تَجْرِيَانِ من مخافة الله عز وجل.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ صِنْفَانِ وَنَوْعَانِ، قِيلَ: مَعْنَاهُ إِنَّ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ مَا يُتَفَكَّهُ بِهِ ضَرْبَيْنِ رَطْبًا وَيَابِسًا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا فِي الدُّنْيَا ثَمَرَةٌ حُلْوَةٌ وَلَا مُرَّةٌ إِلَّا وَهِيَ فِي الْجَنَّةِ حَتَّىٰ الْحَنْظَلُ إِلَّا أَنَّهُ حُلْوٌ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَقِيلَ: أَرَادَ تَفْضِيلَ هَاتَيْنِ الجنتين علىٰ الجنتين اللتين دونهما، فإنه ذكر هاهنا عَيْنَيْنِ جَارِيَتَيْنِ، وَذَكَرَ ثَمَّ عَيْنَيْنِ تَنْضَخَانِ بِالْمَاءِ والنضخ دُونَ الْجَرْيِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: فِي تَيْنِكَ الْجَنَّتَيْنِ مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ نَوْعٌ، وَفِي هَذِهِ الْجَنَّةِ مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ نَوْعَانِ.

[٥٣] : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ﴾ جمع فراش، ﴿بَطَائِنُهَا﴾ جَمْعُ بِطَانَةٍ وَهِيَ الَّتِي تَحْتَ الظِّهَارَةِ ، أَيْ إِذَا كَانَتِ الْبِطَانَةُ الَّتِي تَلِي الْأَرْضَ هَكَذَا فَمَا ظَنُّكَ بِالظِّهَارَةِ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: وَهِيَ مِمَّا يلي الأرض ﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وَهُوَ مَا غَلُظَ مِنَ الدِّيبَاجِ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَأَبُو هُرَيْرَةَ: هَذِهِ الْبَطَائِنُ فَمَا ظَنُّكُمْ بِالظَّوَاهِرِ؟ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّمَا وَصَفَ لَكُمْ بَطَائِنَهَا لِتَهْتَدِيَ إِلَيْهِ قُلُوبُكُمْ، فَأَمَّا الظَّوَاهِرُ فَلَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ ، ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الْجَنَىٰ مَا يُجْتَنَىٰ مِنَ الثِّمَارِ، يريد ثمرهما دَانٍ قَرِيبٌ يَنَالُهُ الْقَائِمُ وَالْقَاعِدُ وَالنَّائِمُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَدْنُو الشَّجَرَةُ حَتَّىٰ يَجْتَنِيَهَا وَلِيُّ اللهِ إِنْ شَاءَ قَائِمًا وَإِنْ شَاءَ قَاعِدًا ، قَالَ قَتَادَةُ: لَا يَرُدُّ أَيْدِيَهُمْ عَنْهَا بُعْدٌ وَلَا شَوْكٌ.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ غَاضَّاتُ الْأَعْيُنِ، قَصَرْنَ طَرْفَهُنَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِنَّ لَا يَنْظُرْنَ إِلَىٰ غَيْرِهِمْ ولا يردن غيرهم، ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ أَيْ لَمْ يُصِبْهُنَّ بِالْجِمَاعِ قَبْلَ أَزْوَاجِهِنَّ هَؤُلَاءِ أَحَدٌ ، قَالَ الْفَرَّاءُ: وَالطَّمْثُ الِافْتِضَاضُ وَهُوَ النِّكَاحُ بِالتَّدْمِيَةِ، وأصله من الدَّمُ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلْحَائِضِ طَامِثٌ، كأنه قال لم يدمهن بِالْجِمَاعِ، ﴿إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ قال مقاتل: لأنهن خلقهن فِي الْجَنَّةِ، فَعَلَىٰ قَوْلِهِ هَؤُلَاءِ مِنْ حُورِ الْجَنَّةِ ، وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: هُنَّ مِنْ نِسَاءِ الدُّنْيَا لَمْ يمسسن منذ أنشئن، وهو قول الكلبي: يعني لما يُجَامِعْهُنَّ فِي هَذَا الْخَلْقِ الَّذِي أُنْشِئْنَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ.

[٥٧] قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿فبأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

[٥٨] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: صَفَاءُ الْيَاقُوتِ فِي بَيَاضِ الْمَرْجَانِ، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: وَوَجْهُ الشَّبَهِ بِالْيَاقُوتِ وَالْمَرْجَانِ فِي لَوْنِ الْحُمْرَةِ الْمَحْمُودَةِ، أَيْ حُمْرَةِ الْخُدُودِ كَمَا يُشَبَّهُ الْخَدُّ بِالْوُرُدِ، وَيُطْلَقُ الْأَحْمَرُ عَلَىٰ الْأَبْيَضِ فَمِنْهُ حَدِيثُ «**بُعِثْتُ إِلَىٰ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ**»(١).

[٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ أَيْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَحْسَنَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَلْ جَزَاءُ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَعَمِلَ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا الْجَنَّةُ، قَالَ عِكْرِمَةُ: أَيْ هَلْ جَزَاءُ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِلَّا الْجَنَّةُ. قَالَ السَّعْدِيُّ: هَلْ جَزَاءُ مَنْ أَحْسَنَ فِي عِبَادَةِ الْخَالِقِ وَنَفَعَ عَبِيدَهُ، إِلَّا أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْهِ بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ، وَالْفَوْزِ الْكَبِيرِ، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، وَالْعَيْشِ السَّلِيمِ، فَهَاتَانِ الْجَنَّتَانِ الْعَالِيَتَانِ لِلْمُقَرَّبِينَ.

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أَيْ مِنْ دُونِ الْجَنَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ جَنَّتَانِ أُخْرَيَانِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِنْ دُونِهِمَا فِي الدَّرَجِ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: مِنْ

---

(١) مسلم (٣٢١) .

دُونِهِمَا فِي الْفَضْلِ، وَقَالَ أَبُو مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيُّ: جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ لِلسَّابِقِينَ وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ لِلتَّابِعِينَ ، وَقَالَ ابْنُ جريج: هن أربع جنان لِلْمُقَرَّبِينَ السَّابِقِينَ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ، وَجَنَّتَانِ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ وَالتَّابِعِينَ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ، وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا﴾ أَيْ أَمَامَهُمَا وَقَبْلَهُمَا، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ الضَّحَّاكِ: الْجَنَّتَانِ الْأُولَيَانِ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ وَالْأُخْرَيَانِ مِنْ يَاقُوتٍ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»**[1].

[٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

[٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ نَاعِمَتَانِ سَوْدَاوَانِ مِنْ رَيِّهِمَا وَشِدَّةِ خُضْرَتِهِمَا، لِأَنَّ الْخُضْرَةَ إِذَا اشْتَدَّتْ ضَرَبَتْ إِلَىٰ السَّوَادِ، يُقَالُ: ادهامَّ الزرعُ إِذَا عَلَاهُ السَّوَادُ رَيًّا فَهُوَ مُدْهَامٌّ.

[٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ فَوَّارَتَانِ بِالْمَاءِ لَا تَنْقَطِعَانِ، وَالنَّضْخُ فَوَرَانُ الْمَاءِ مِنَ الْعَيْنِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ فَيَّاضَتَانِ ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ:

---

(١) البخاري (٤٨٧٨) ومسلم (٧٤٤٤) .

أَيْ: مُمْتَلِئَتَانِ لَا تَنْقَطِعَانِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْجَرْيَ أَقْوَىٰ مِنَ النَّضْخِ، وَهُوَ الْمَوْصُوفُ فِي أُولَىٰ الْجَنَّتَيْنِ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ فَهَاتَانِ دُونَهُمَا.

[٦٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ أَيْ: وَفِي هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ، وَقَالَ فِي الْجَنَّتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأُولَىٰ أَعَمُّ وَأَكْثَرُ فِي الْأَفْرَادِ وَالتَّنْوِيعِ عَلَىٰ فَاكِهَةٍ، وَهِيَ نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ لَا تَعُمُّ.

[٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

[٧٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِيهِنَّ﴾ يَعْنِي فِي الْجَنَّاتِ الْأَرْبَعِ، ﴿خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ وقِيلَ: الْمُرَادُ خَيْرَاتٌ كَثِيرَةٌ حَسَنَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَقِيلَ: ﴿خَيْرَاتٌ﴾ جَمْعُ خَيِّرَةٍ ، وَهِيَ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ الْحَسَنَةُ الْخُلُقِ الْحَسَنَةُ الْوَجْهِ قَالَهُ الْجُمْهُورُ ، و ﴿حِسَانٌ﴾ أَيْ حِسَانُ الْخَلْقِ، وَإِذَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿حِسَانٌ﴾ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يَصِفَ حُسْنَهُنَّ! قَالَ التِّرْمِذِيُّ: فَالْخَيْرَاتُ مَا اخْتَارَهُنَّ اللهُ فَأَبْدَعَ خَلْقَهُنَّ بِاخْتِيَارِهِ، فَاخْتِيَارُ اللهِ لَا يُشْبِهُ اخْتِيَارَ الْآدَمِيِّينَ ، ثُمَّ قَالَ: ﴿حِسَانٌ﴾ فَوَصَفَهُنَّ بِالْحُسْنِ فَإِذَا وَصَفَ خَالِقُ الْحُسْنِ شَيْئًا بِالْحُسْنِ فَانْظُرْ مَا هُنَاكَ ، وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلىٰ اللهُ عليه وسلم: « **إِنَّ أَزْوَاجَ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيُغَنِّينَ**

أَزْوَاجَهُنَّ بِأَحْسَنِ أَصْوَاتٍ سَمِعَهَا أَحَدٌ قَطُّ، إِنَّ مِمَّا يُغَنِّينَ بِهِ : نَحْنُ الْخَيْرَاتُ الْحِسَانُ، أَزْوَاجُ قَوْمٍ كِرَامٍ، يَنْظُرُونَ بِقُرَّةِ أَعْيَانٍ »[1].

[٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

[٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ﴾ مَحْبُوسَاتٌ مَسْتُورَاتٌ فِي الخيام لا يخرجن منها، يُقَالُ: امْرَأَةٌ مَقْصُورَةٌ وَقَصِيرَةٌ إِذَا كَانَتْ مُخَدَّرَةً مَسْتُورَةً لَا تَخْرُجُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي قَصَرْنَ طَرْفَهُنَّ وَأَنْفُسَهُنَّ علىٰ أزواجهن فلا يبغين بهم بدلا، ﴿فِي الْخِيَامِ﴾ جمع خيمة.

[٧٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾أَيْ: فَبِأَيِّ أَلْوَانِ النَّعِيمِ وَالْمَلَاذِ الْمَوْصُوفَةِ لَكُمْ - مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ - مِمَّا أَعَدَّهُ اللهُ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ فِي الْجَنَّةِ تُكَذِّبَانِ ؟!.

[٧٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ: لَمْ يَمَسَّهُنَّ بِنِكَاحٍ فَيُدْمِيهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ.

[٧٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

[٧٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الرَّفْرَفُ رِيَاضُ الْجَنَّةِ خُضْرٍ مُخَضَّبَةٍ. وَاحِدَتُهَا رَفْرَفَةٌ، وَقَالَ: الرَّفَارِفُ جَمْعُ الْجَمْعِ، وَقِيلَ: الرَّفْرَفُ الْبُسُطُ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَمُقَاتِلٍ وَالْقُرَظِيِّ، قَالَ ابْنُ

---

(١) الترمذي (٢٥٦٤) .

عَبَّاسٍ: الرفيف فُضُولُ الْمَجَالِسِ وَالْبُسُطِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ: هِيَ مَجَالِسُ خُضْرٌ فَوْقَ الْفُرُشِ ، وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: هِيَ الْمَرَافِقُ، وَقَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: الزَّرَابِيُّ. وَقَالَ غَيْرُهُ: كُلُّ ثَوْبٍ عَرِيضٍ عِنْدَ الْعَرَبِ فَهُوَ رَفْرَفٌ ، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ : وَالرَّفْرَفُ: نوعٌ مِنَ الْبُسُطِ، وَهُوَ اسْمٌ جَمْعُ رفرفة، وَهِي مَا يُبْسَطُ عَلَىٰ الْفِرَاشِ لِيُنَامَ عَلَيْهِ، وَهِيَ تُنْسَجُ عَلَىٰ شِبْهِ الرِّيَاضِ وَيَغْلُبُ عَلَيْهَا اللَّوْنُ الْأَخْضَرُ ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ هِيَ الزَّرَابِيُّ وَالطَّنَافِسُ الثِّخَانُ، وَهِيَ جَمْعٌ وَاحِدَتُهَا عَبْقَرِيَّةٌ، وَقَالَ قَتَادَةُ: الْعَبْقَرِيُّ عِتَاقُ الزَّرَابِيِّ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: هِيَ الطَّنَافِسُ الْمُخَمَّلَةُ إِلَىٰ الرِّقَّةِ. وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: كُلُّ ثَوْبٍ مُوَشًّىٰ عِنْدَ الْعَرَبِ عَبْقَرِيٌّ ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَىٰ أَرْضٍ يُعْمَلُ بِهَا الْوَشْيُ ، قَالَ الْخَلِيلُ: كُلُّ جَلِيلٍ نَفِيسٍ فَاخِرٍ مِنَ الرِّجَالِ وَغَيْرِهِمْ عِنْدَ الْعَرَبِ عَبْقَرِيٌّ، وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرْيَهُ**»(١) ، وقيل عَبْقَرِيٌّ: وَصْفٌ لِمَا كَانَ فَائِقًا فِي صِنْفِهِ عَزِيزَ الْوُجُودِ ، وَهُوَ نِسْبَةٌ إِلَىٰ عَبْقَرٍ : اسْمَ بِلَادِ الْجِنِّ فِي مُعْتَقَدِ الْعَرَبِ ، فَنَسَبُوا إِلَيْهِ كُلَّ مَا تَجَاوَزَ الْعَادَةَ فِي الْإِتْقَانِ وَالْحُسْنِ.

[٧٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

[٧٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أَيْ: تَعَاظَمَ وَكَثُرَ خَيْرُهُ، الَّذِي لَهُ الْجَلَالُ الْبَاهِرُ، وَالْمَجْدُ الْكَامِلُ، وَالْإِكْرَامُ لِأَوْلِيَائِهِ.

---

(١) البخاري (٣٦٨٢) .

سُورَةُ الْوَاقِعَةُ

سُمِّيَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْوَاقِعَةُ بِتَسْمِيَةِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد رَوَىٰ التِّرْمِذِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: «يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ شِبْتُ؟ قَالَ: **شَيَّبَتْنِي هُودٌ، وَالْوَاقِعَةُ، وَالْمُرْسَلَاتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**» ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ، وَهَذِهِ السُّورَةُ جَامِعَةٌ لِلتَّذْكِيرِ قَالَ مَسْرُوقٌ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَ نَبَأَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَنَبَأَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَنَبَأَ أَهْلِ النَّارِ وَنَبَأَ أَهْلِ الدُّنْيَا وَنَبَأَ أَهْلِ الْآخِرَةِ فَلْيَقْرَأْ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ» .

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أَيْ قَامَتِ الْقِيَامَةُ، وَالْمُرَادُ النَّفْخَةُ الْأَخِيرَةُ. وَسُمِّيَتْ وَاقِعَةٌ لِأَنَّهَا تَقَعُ عَنْ قُرْبٍ ، وَقِيلَ: لِكَثْرَةِ مَا يَقَعُ فِيهَا مِنَ الشَّدَائِدِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْوَاقِعَةُ وَالطَّامَّةُ وَالصَّاخَّةُ، وَنَحْوُ هَذَا مِنْ أَسْمَاءِ الْقِيَامَةِ، عَظَّمَهُ اللهُ، وَحَذَّرَهُ عِبَادَهُ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا﴾ لمجيئها ﴿كَاذِبَةٌ﴾ كَذِبٌ، أَيْ: لَا شَكَّ فِيهَا، لِأَنَّهَا قَدْ تَظَاهَرَتْ عَلَيْهَا الْأَدِلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ وَالسَّمْعِيَّةُ، وَدَلَّتْ عَلَيْهَا حِكْمَتُهُ تَعَالَىٰ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ تَخْفِضُ أَقْوَامًا إِلَىٰ النَّارِ، وَتَرْفَعُ آخَرِينَ إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَخْفِضُ أَقْوَامًا كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُرْتَفِعِينَ، وَتَرْفَعُ أَقْوَامًا كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُسْتَضْعَفِينَ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ أَيْ: إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زَلْزَلَةً فَحُرِّكت تحريكًا، قَالَ الْكَلْبِيُّ: إِنَّ اللهَ إِذَا أَوْحَىٰ إِلَيْهَا اضْطَرَبَتْ فَرَقًا ، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: تُرَجُّ كَمَا يُرَجُّ الصَّبِيُّ فِي الْمَهْدِ حَتَّىٰ يَنْهَدِمَ كُلُّ بِنَاءٍ عَلَيْهَا ، وَيَنْكَسِرَ كُلُّ مَا عَلَيْهَا مِنَ الْجِبَالِ وَغَيْرِهَا، وَأَصْلُ الرَّجِّ فِي اللُّغَةِ التَّحْرِيكُ، يُقَالُ: رَجَجْتُهُ فَارْتَجَّ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾: فُتِّتَتْ فَتًّا فَصَارَتْ كَالدَّقِيقِ الْمَبْسُوسِ وَهُوَ الْمَبْلُولُ ، وَالْبَسِيسَةُ عِنْدَ الْعَرَبِ: الدَّقِيقُ وَالسَّوِيقُ، وَالْمَقْصُودُ: صَارَتِ الْجِبَالُ كَالدَّقِيقِ الطَّحِينِ الْمَبْسُوسِ، وَهُوَ الْمَبْلُولُ قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: كُسِرَتْ كَسْرًا، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: سُيِّرَتْ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ تَسْيِيرًا ، قَالَ الْحَسَنُ البصري : قُلِعَتْ مِنْ أَصْلِهَا فَذَهَبَتْ، نَظِيرُهَا: ﴿فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ قَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: جُعِلَتْ كَثِيبًا مَهِيلًا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ شَامِخَةً طَوِيلَةً.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ غُبَارًا مُتَفَرِّقًا كَالَّذِي يُرَىٰ فِي شُعَاعِ الشَّمْسِ إِذَا دَخَلَ الْكُوَّةَ وهو الهباء ، قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ الله عنه: الهباء يعني الغبار الَّذِي يَسْطَعُ مِنْ حَوَافِرِ الدَّوَابِّ ثُمَّ يَذْهَبُ، فَجَعَلَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ كَذَلِكَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْهَبَاءُ هُوَ الشُّعَاعُ الَّذِي يَكُونُ فِي الْكُوَّةِ كَهَيْئَةِ الْغُبَارِ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا﴾ أصنافا، ﴿ثَلَاثَةً﴾ ثُمَّ فَسَّرَهَا فَقَالَ:

[٨] : ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ هُمُ الَّذِينَ يُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَىٰ يَمِينِ آدَمَ حِينَ أُخْرِجَتِ الذُّرِّيَّةُ من صلبه، وَقَالَ اللهُ لَهُمْ: هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: هم الذين يُعْطَوْنَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ ، وَقَالَ الْحَسَنُ وَالرَّبِيعُ: هُمُ الَّذِينَ كَانُوا مَيَامِينَ مُبَارَكِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، وَكَانَتْ أَعْمَارُهُمْ فِي طَاعَةِ اللهِ وَهُمُ التَّابِعُونَ بِإِحْسَانٍ، ثُمَّ عَجَّبَ نَبِيَّهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ وَهَذَا كَمَا يُقَالُ: زَيْدٌ مَا زَيْدٌ يُرَادُ زَيْدٌ شَدِيدٌ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ يَعْنِي أَصْحَابَ الشِّمَالِ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي الْيَدَ الْيُسْرَىٰ الشُّؤْمَىٰ، وَمِنْهُ يُسَمَّىٰ الشام واليمين، لِأَنَّ الْيَمَنَ عَنْ يَمِينِ الْكَعْبَةِ، وَالشَّامُ عَنْ شِمَالِهَا، وَهُمُ الَّذِينَ يؤخد بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ إِلَىٰ النَّارِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَىٰ شِمَالِ آدَمَ عِنْدَ إِخْرَاجِ الذُّرِّيَّةِ وَقَالَ اللهُ لَهُمْ: هَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أُبَالِي، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: هُمُ الَّذِينَ يُؤْتَوْنَ كُتُبَهُمْ بِشِمَالِهِمْ ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : هُمُ الْمَشَائِيمُ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَكَانَتْ أَعْمَارُهُمْ في المعاصي.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: السَّابِقُونَ إِلَىٰ الْهِجْرَةِ هُمُ السَّابِقُونَ فِي الْآخِرَةِ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: السَّابِقُونَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ، قَالَ ابْنُ سِيرِينَ: هُمُ الَّذِينَ صَلَّوْا إِلَىٰ الْقِبْلَتَيْنِ، دَلِيلُهُ قَوْلُهُ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ

الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التَّوْبَةِ: ١٠٠]، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ: إِلَىٰ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: السَّابِقُونَ إِلَىٰ إِجَابَةِ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدُّنْيَا هُمُ السَّابِقُونَ إِلَىٰ الْجَنَّةِ فِي الْعُقْبَىٰ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: إِلَىٰ إِجَابَةِ الأنبياء صلوات الله عليهم بِالْإِيمَانِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: إلىٰ الجهاد، وقام سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُمُ الْمُسَارِعُونَ إِلَىٰ التَّوْبَةِ وَإِلَىٰ أَعْمَالِ الْبِرِّ،قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١] ثُمَّ أَثْنَىٰ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١] قَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: وَالسَّابِقُونَ إِلَىٰ كُلِّ مَا دَعَا اللهُ إِلَيْهِ، وروي عن كعب: هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ الْمُتَوَّجُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقِيلَ: هُمْ أَوَّلُهُمْ رَوَاحًا إِلَىٰ الْمَسْجِدِ وَأَوَّلُهُمْ خُرُوجًا فِي سَبِيلِ اللهِ.وَقَالَ الْقُرَظِيُّ: إِلَىٰ كل خير.

[١٣]: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ مِنَ اللهِ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ يَتَمَتَّعُونَ فِيهَا بِمَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ زَمَانِ نَبِيِّنَا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم، والثُّلَّةُ: الجماعة غَيْرُ مَحْصُورَةِ الْعَدَدِ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ يَعْنِي مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، قَالَ الزَّجَّاجُ: الَّذِينَ عَايَنُوا جَمِيعَ النَّبِيِّينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَصَدَّقُوهُمْ، أَكْثَرُ مِمَّنْ عَايَنَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْسُوجَةٌ بِالذَّهَبِ، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: هِيَ مَوْصُولَةٌ مَنْسُوجَةٌ بِالذَّهَبِ وَالْجَوَاهِرِ ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: مَوْضُونَةٌ مَصْفُوفَةٌ ، وَالْوَضْنُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: النَّسْجُ الْمُضَاعَفُ، مِنْ وَضَنَ فُلَانٌ الْحَجَرَ وَالْآجُرَّ إِذَا وَضَعَهُ بَعْضَهُ فَوْقَ بَعْضٍ فَهُوَ مَوْضُونٌ. وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ سُرُرَ السَّابِقِينَ فِي الْجَنَّةِ مُحْكَمَةُ النَّسْجِ وَالتَّشْبِيكِ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ لَا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ فِي قَفَا بعض.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ للخدمة، ﴿وِلْدَانٌ﴾ غلمان، ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ لَا يَمُوتُونَ وَلَا يَهْرَمُونَ وَلَا يَتَغَيَّرُونَ، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: تَقُولُ الْعَرَبُ لمن كبر ولمن شمط إِنَّهُ مُخَلَّدٌ ، قَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: يَعْنِي وِلْدَانًا لَا يُحَوَّلُونَ مِنْ حَالَةٍ إِلَىٰ حَالَةٍ ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: مُقَرَّطُونَ يُقَالُ خَلَّدَ جَارِيَتَهُ إِذَا حَلَّاهَا بِالْخِلْدِ، وَهُوَ الْقِرْطُ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ فَالْأَكْوَابُ جَمْعُ كُوبٍ وَهِيَ الْأَقْدَاحُ الْمُسْتَدِيرَةُ الْأَفْوَاهِ لَا آذَانَ لَهَا ولا عرف، وَالْأَبَارِيقُ وَهِيَ ذَوَاتُ الْخَرَاطِيمِ سُمِّيَتْ أَبَارِيقَ لِبَرِيقِ لَوْنِهَا مِنَ الصَّفَاءِ ، ﴿وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ خَمْرٍ جَارِيَةٍ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي لا تنصدع رؤوسهم مِنْ شُرْبِهَا، أَيْ أَنَّهَا لَذَّةٌ بِلَا أَذًىٰ بِخِلَافِ شَرَابِ الدُّنْيَا، ﴿وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ أَيْ لَا يَسْكَرُونَ، هَذَا إِذَا قُرِئَ بِفَتْحِ الزَّايِ وَمَنْ كَسَرَ فَمَعْنَاهُ: لَا يَنْفَدُ شَرَابُهُمْ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أَيْ: مَهْمَا تَخَيَّرُوا، وَرَاقَ فِي أَعْيُنِهِمْ، وَاشْتَهَتْهُ نُفُوسُهُمْ، مِنْ أَنْوَاعِ الْفَوَاكِهِ الشَّهِيَّةِ، فَيَخْتَارُونَ مَا يَشْتَهُونَ، يُقَالُ تَخَيَّرْتُ الشَّيْءَ إِذَا أَخَذْتُ خَيْرَهُ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَخْطُرُ عَلَىٰ قَلْبِهِ لَحْمُ الطَّيْرِ فَيَصِيرُ مُمَثَّلًا بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَىٰ مَا اشْتَهَىٰ، وَيُقَالُ إِنَّهُ يَقَعُ عَلَىٰ صَحْفَةِ الرَّجُلِ فَيَأْكُلُ مِنْهُ مَا يَشْتَهِي ثُمَّ يَطِيرُ فَيَذْهَبُ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: تَضَمَّنَتِ النُّصُوصُ أَنَّ لَهُمْ فِيهَا الْخُبْزَ وَاللَّحْمَ وَالْفَاكِهَةَ وَالْحَلْوَىٰ وَأَنْوَاعَ الْأَشْرِبَةِ مِنَ الْمَاءِ وَاللَّبَنِ وَالْخَمْرِ، وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِمَّا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْأَسْمَاءُ، وَأَمَّا الْمُسَمَّيَاتُ فَبَيْنَهَا مِنَ التَّفَاوُتِ مَا لَا يَعْلَمُهُ الْبَشَرُ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ مَعْنَاهُ وَيُكْرَمُونَ بِفَاكِهَةٍ، وَلَحْمِ طَيْرٍ، وَحُورٌ عِينٌ، وَالْحُورُ: جَمْعُ حَوْرَاءَ، وَهِيَ النَّقِيَّةُ بَيَاضِ الْعَيْنِ، الشَّدِيدَةُ سَوَادُهَا، وَالْعِينُ: جَمْعُ عَيْنَاءَ، وَهِيَ النَّجْلَاءُ الْعَيْنِ فِي حُسْنٍ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ الْمَخْزُونِ فِي الصَّدَفِ لَمْ تَمَسَّهُ الأيدي.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: ثَوَابًا لَهُمْ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا، وَعِوَضًا مِنْ صَبْرِهِمْ عَلَىٰ الطَّاعَةِ وَالْبِرِّ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَاطِلًا وَلَا كَذِبًا، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: =شَتْمًا وَمَأْثَمًا ، وَاللَّغْوُ مِنَ الْكَلَامِ : هُوَ الْعَبَثُ الْخَالِي مِنَ الْمَعْنَىٰ، وَالتَّأْثِيمُ مَصْدَرُ أَثَّمْتَهُ، أَيْ قُلْتَ لَهُ أَثِمْتَ ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: ﴿تَأْثِيمًا﴾ أَيْ لَا يُؤَثِّمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وقال مُجَاهِدٌ: شَتْمًا وَلَا مَأْثَمًا.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا قِيلًا﴾ أي قولاً ﴿سَلَامًا سَلَامًا﴾ نَصَبَهُمَا اتِّبَاعًا لِقَوْلِهِ قِيلًا أَيْ يَسْمَعُونَ قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا. قَالَ عَطَاءٌ: يُحَيِّي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالسَّلَامِ، وَقِيلَ: تُحَيِّيهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يُحَيِّيهِمْ رَبُّهُمْ عز وجل ، ثُمَّ ذَكَرَ أَصْحَابَ الْيَمِينِ وَعَجَّبَ مِنْ شَأْنِهِمْ فَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ.

[٢٧] : ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَىٰ مَآلَ السَّابِقِينَ وَهُمُ الْمُقَرَّبُونَ، عَطَفَ عَلَيْهِمْ بِذِكْرِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَهُمُ الْأَبْرَارُ، كَمَا قَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: أصحاب اليمين منزلتهم دُونَ الْمُقَرَّبِينَ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ أَيْ: فِي ثَمَرِ سِدْرٍ مُوقَرٍ حَمْلًا لَا شَوْكَ فِيهِ. فَإِنَّ السِّدْرَ -عَادَةً- شَجَرٌ لَهُ شَوْكٌ، وَإِنَّمَا قَدْ خَضَدَ اللهُ تَعَالَىٰ شَوْكَهُ فِي الْجَنَّةِ فَجَعَلَ مَكَانَ كُلِّ شَوْكَةٍ ثَمَرَةً. قَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: هُوَ الَّذِي لَا أَذَىٰ فِيهِ، قَالَ الضَّحَّاكُ وَمُجَاهِدٌ: هُوَ الْمُوَقَّرُ حملاً ، ﴿وَطَلْحٍ﴾ أَيْ مَوْزٍ، وَاحِدَتُهَا طَلْحَةٌ،

عَنْ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : لَيْسَ هو بالموز ولكنه شجر لها ظِلٌّ بَارِدٌ طَيِّبٌ، قَالَ الْفَرَّاءُ وَأَبُو عُبَيْدَةَ: الطَّلْحُ عِنْدَ الْعَرَبِ شَجَرٌ عِظَامٌ لَهَا شَوْكٌ. والمنضود الْمُتَرَاكِمُ الَّذِي قَدْ نُضِّدَ بِالْحَمْلِ من أوله إلىٰ آخره، ليس هو سُوقٌ بَارِزَةٌ، قَالَ مَسْرُوقٌ: أَشْجَارُ الجنة من عروقها إلىٰ أفنانها ثمر كله.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ أَيْ دَائِمٌ بَاقٍ لَا يَزُولُ وَلَا تَنْسَخُهُ الشَّمْسُ، وَالْجَنَّةُ كُلُّهَا ظِلٌّ لَا شَمْسَ مَعَهُ ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: تَقُولُ الْعَرَبُ لِلدَّهْرِ الطَّوِيلِ وَالْعُمْرِ الطَّوِيلِ وَالشَّيْءِ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ مَمْدُودٌ، ﴿وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾ أَيْ جَارٍ لَا يَنْقَطِعُ وَأَصْلُ السَّكْبِ الصَّبُّ، يُقَالُ: سَكَبَهُ سَكْبًا، وَالسُّكُوبُ انْصِبَابُهُ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَكَانَتِ الْعَرَبُ أَصْحَابُ بَادِيَةٍ وَبِلَادٍ حَارَّةٍ، وَكَانَتِ الْأَنْهَارُ فِي بِلَادِهِمْ عَزِيزَةً لَا يَصِلُونَ إِلَىٰ الْمَاءِ إِلَّا بِالدَّلْوِ وَالرِّشَاءِ ، فَوُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خِلَافَ ذَلِكَ، وَوُصِفَ لَهُمْ أَسْبَابُ النُّزْهَةِ الْمَعْرُوفَةِ فِي الدُّنْيَا، وهي الأشجار وظلالها، والمياه والأنهار واطرادها.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَيْ لَيْسَتْ بِالْقَلِيلَةِ الْعَزِيزَةِ كَمَا كَانَتْ فِي بِلَادِهِمْ .

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ﴾ أَيْ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ كَانْقِطَاعِ فَوَاكِهِ الصيف في الشاء ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أَيْ لَا يُحْظَرُ عَلَيْهَا كَثِمَارِ الدُّنْيَا ، وَقِيلَ: ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أَيْ لَا يُمْنَعُ مَنْ أَرَادَهَا بِشَوْكٍ وَلَا بُعْدٍ وَلَا حَائِطٍ، بَلْ إِذَا اشْتَهَاهَا الْعَبْدُ

دَنَتْ مِنْهُ حَتَّىٰ يَأْخُذَهَا، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان : ١٤]، وَقِيلَ: لَيْسَتْ مَقْطُوعَةً بِالْأَزْمَانِ، وَلَا مَمْنُوعَةً بِالْأَثْمَانِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ عَلَىٰ الْأَسِرَّةِ، وَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ فَهِيَ مرفوعة عالية، وَقِيلَ: أَرَادَ بِالْفُرُشِ النِّسَاءَ وَالْعَرَبُ تُسَمِّي الْمَرْأَةَ فِرَاشًا وَلِبَاسًا عَلَىٰ الِاسْتِعَارَةِ، مَرْفُوعَةٍ رُفِعْنَ بِالْجَمَالِ وَالْفَضْلِ عَلَىٰ نِسَاءِ الدُّنْيَا دَلِيلُ هَذَا التَّأْوِيلِ قَوْلُهُ فِي عَقِبِهِ:

[٣٥]: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾ خَلَقْنَاهُنَّ خَلْقًا جَدِيدًا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الْآدَمِيَّاتِ الْعُجْزَ الشُّمْطَ، يَقُولُ خَلَقْنَاهُنَّ بَعْدَ الْهَرَمِ خَلْقًا آخر.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ قال المسيب بن شَرِيكٍ: هُنَّ عَجَائِزُ الدُّنْيَا أَنْشَأَهُنَّ اللهُ تَعَالَىٰ خَلْقًا جَدِيدًا كُلَّمَا أَتَاهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ وَجَدُوهُنَّ أَبْكَارًا. فُضِّلْنَ عَلَىٰ الْحُورِ الْعِينِ بِصَلَاتِهِنَّ فِي الدُّنْيَا، وَقَالَ مُقَاتِلٌ وَغَيْرُهُ: هُنَّ الْحُورُ الْعِينُ أَنْشَأَهُنَّ اللهُ لَمْ يَقَعْ عَلَيْهِنَّ وِلَادَةٌ ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ عَذَارَىٰ وَلَيْسَ هُنَاكَ وَجَعٌ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عُرُبًا﴾ جَمْعُ عَرُوبٍ أَيْ عَوَاشِقَ مُحَبَّبَاتٍ إِلَىٰ أَزْوَاجِهِنَّ وَقَالَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ أَبِيهِ: عُرُبًا حَسَنَاتِ الْكَلَامِ، وَقَالَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ قَالَ: أَتَتْ عَجُوزٌ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ ادع الله تعالىٰ أَنْ يُدْخِلَنِي الْجَنَّةَ فَقَالَ: «**يَا أُمَّ فُلَانٍ إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَدْخُلُهَا عَجُوزٌ**» قَالَ: فَوَلَّتْ تَبْكِي، قَالَ: **أَخْبِرُوهَا**

أَنَّهَا لَا تَدْخُلُهَا، وَهِيَ عَجُوزٌ، إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إنشآء فجعلناهن أبكاراً﴾[1] ، ﴿أَتْرَابًا﴾ عَلَىٰ مِيلَادٍ وَاحِدٍ فِي الِاسْتِوَاءِ وَسِنٍّ وَاحِدَةٍ ثَلَاثٌ وَثَلَاثِينَ سَنَةً ، يُقَالُ فِي النِّسَاءِ أَتْرَابٌ وَفِي الرِّجَالِ أَقْرَانٌ ، قال السُّدِّيُّ: أَتْرَابٌ فِي الْأَخْلَاقِ لا تباغض بينهن ولا تحاسد ، قِيلَ: الْحُورُ الْعِينُ لِلسَّابِقِينَ، وَالْأَتْرَابُ الْعُرُبُ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ يريد أنشأهن لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ مِنْ مُؤْمِنِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ إِلَىٰ أَنَّ الثُّلَّتَيْنِ جَمِيعًا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَآ أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ أيُّ شَيْءٍ هُمْ فِيهِ أَصْحَابُ الشِّمَالِ؟ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَىٰ حَالَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، عَطَفَ عَلَيْهِمْ بِذِكْرِ أَصْحَابِ الشِّمَالِ ، قال قتادة: أي ماذا لهم، وماذا أعدّ لهم، ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ :

[٤٢] : ﴿فِي سَمُومٍ﴾ ريح حارة، ﴿وَحَمِيمٍ﴾ مَاءٍ حَارٍّ.

---

(١) الترمذي (٢٣٩) .

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ﴾ دُخَانٍ شَدِيدِ السَّوَادِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: أَسْوَدُ يَحْمُومٌ إِذَا كَانَ شَدِيدَ السَّوَادِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: النَّارُ سَوْدَاءُ وَأَهْلُهَا سُودٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ فِيهَا أَسْوَدُ، وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: الْيَحْمُومُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: لَا بَارِدَ الْمَنْزِلِ وَلَا كَرِيمَ الْمَنْظَرِ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: وَلَا كَرِيمَ: وَلَا حَسَنَ، نَظِيرُهُ ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧] وَقَالَ مُقَاتِلٌ: طَيِّبٌ.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ يعني في الدنيا، ﴿مُتْرَفِينَ﴾ منعمين، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَيْ إِنَّمَا اسْتَحَقُّوا هَذِهِ الْعُقُوبَةَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُتَنَعِّمِينَ بِالْحَرَامِ، وَالْمُتْرَفُ: الْمُنَعَّمُ.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ﴾ يقيمون ﴿عَلَىٰ الْحِنْثِ الْعَظِيمِ﴾ عَلَىٰ الذَّنْبِ الْكَبِيرِ وَهُوَ الشِّرْكُ، وقال الشعبي: ﴿الْحِنْثِ الْعَظِيمِ﴾ الْيَمِينِ الْغَمُوسِ، وَمَعْنَىٰ هَذَا: أَنَّهُمْ كَانُوا يَحْلِفُونَ أَنَّهُمْ لَا يُبْعَثُونَ وَكَذَبُوا فِي ذَلِكَ. قال الشَّعْبِيُّ: هُوَ الْيَمِينُ الْغَمُوسُ وَهِيَ مِنَ الْكَبَائِرِ، يُقَالُ: حَنِثَ فِي يَمِينِهِ أَيْ لَمْ يبرها ورجع فيها، وكانوا يقسمون أن لا بعث، وَأَنَّ الْأَصْنَامَ أَنْدَادُ اللهِ فَذَلِكَ حِنْثُهُمْ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْهُمْ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا﴾ هَذَا اسْتِبْعَادٌ مِنْهُمْ لِأَمْرِ الْبَعْثِ وَتَكْذِيبٌ لَهُ.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّ بَعْثَ آبَائِهِمُ الْأَوَّلِينَ أَبْعَدُ لِتَقَدُّمِ مَوْتِهِمْ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ﴾ مِنْ آبَائِكُمْ ﴿وَالْآخِرِينَ﴾ مِنْكُمْ.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ يُرِيدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ هُمْ أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي الْقِسْمِ السَّابِقِ إِلَىٰ أَزْوَاجٍ ثَلَاثَةٍ.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: وَهُوَ أَقْبَحُ الْأَشْجَارِ وَأَخَسُّهَا، وَأَنْتَنُهَا رِيحًا، وَأَبْشَعُهَا مَنْظَرًا، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُقْبَضُونَ وَيُسْجَرُونَ حَتَّىٰ يَأْكُلُوا مِنْ شَجَرِ الزَّقُّومِ، حَتَّىٰ يَمْلَؤُوا مِنْهَا بُطُونَهُمْ.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قَطَرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا؛ لَأَفْسَدَتْ عَلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ مَعَايِشَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامَهُ**»(١).

---

(١) مسلم (٢٨٥٨).

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ وَهُوَ الْمَاءُ الْمَغْلِيُّ الَّذِي قَدِ اشْتَدَّ غَلَيَانُهُ وَهُوَ صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ، أَيْ يورثهم حرما يَأْكُلُونَ مِنَ الزَّقُّومِ مَعَ الْجُوعِ الشَّدِيدِ عَطَشًا فَيَشْرَبُونَ مَاءً يَظُنُّونَ أَنَّهُ يُزِيلُ الْعَطَشَ فَيَجِدُونَهُ حَمِيمًا مُغْلًىٰ .

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ وَ (الْهِيمُ) قَالَ عِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ: الْهُيَامُ دَاءٌ يُصِيبُ الْإِبِلَ لَا تُرْوَىٰ مَعَهُ وَلَا تَزَالُ تَشْرَبُ حَتَّىٰ تَهْلَكَ ، يُقَالُ: جَمَلٌ أَهْيَمُ، وَنَاقَةٌ هَيْمَاءُ، وَالْإِبِلُ : هِيمٌ ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَابْنُ عُيَيْنَةَ: (الْهِيمُ) الْأَرْضُ السَّهْلَةُ ذَاتُ الرَّمْلِ.

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ﴾ يَعْنِي مَا ذُكِرَ مِنَ الزَّقُّومِ وَالْحَمِيمِ، أَيْ رِزْقُهُمْ وَغِذَاؤُهُمْ وَمَا أعد لهم، كَالنُّزُلِ الَّذِي يُعَدُّ لِلْأَضْيَافِ تَكْرِمَةً لَهُمْ، وَفِيهِ تَهَكُّمٌ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران : ٢١] ، قوله ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ يَوْمَ يُجَازَوْنَ بِأَعْمَالِهِمْ، ثُمَّ احْتَجَّ عليهم في البعث:

[٥٧] : ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: خَلَقْنَاكُمْ وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ، ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلا ﴿تُصَدِّقُونَ﴾ بالبعث ، أَيْ فَهَلَّا تُصَدِّقُونَ بِالْبَعْثِ؟ لِأَنَّ الْإِعَادَةَ كَالِابْتِدَاءِ.

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ أَيْ مَا تَصُبُّونَهُ مِنَ الْمَنِيِّ فِي أَرْحَامِ النِّسَاءِ.

[٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾ يعني أأنتم تخلقون مَا تُمْنُونَ بَشَرًا، ﴿أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ﴾ الْمُقَدِّرُونَ الْمُصَوِّرُونَ.

[٦٠] قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿نَحنُ قَدَّرْنَا بَيْنكُمُ الْمَوْتَ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: فَمِنكُمْ مَنْ يَبْلُغُ الْهَرَمَ وَمِنْكُمْ مَنْ يَمُوتُ صَبِيًّا وَشَابًّا، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: تَقْدِيرُهُ إِنَّهُ جَعَلَ أَهْلَ السَّمَاءِ وَأَهْلَ الْأَرْضِ فِيهِ سَوَاءً، فَعَلَىٰ هَذَا يَكُونُ مَعْنَىٰ ﴿قَدَّرْنَا﴾ : قَضَيْنَا، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ مَعْنَاهُ بِمَغْلُوبِينَ ، وَقَالَ الطَّبَرِيُّ: الْمَعْنَىٰ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ بِآخَرِينَ مِنْ جِنْسِكُمْ، وَمَا نَحْنُ بمسبوقين فِي آجَالِكُمْ، أَيْ لَا يَتَقَدَّمُ مُتَأَخِّرٌ وَلَا يَتَأَخَّرُ مُتَقَدِّمٌ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:

[٦١] : ﴿عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ يَعْنِي نَأْتِي بِخَلْقٍ مِثْلِكُمْ بَدَلًا منكم، ﴿وَنُنْشِئَكُمْ﴾ نَخْلُقُكُمْ ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِنَ الصُّوَرِ وَالْهَيْئَاتِ ، قَالَ مُجَاهِدٌ: فِي أَيِّ خَلْقٍ شِئْنَا ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : أَيْ نُبَدِّلَ صِفَاتَكُمْ فَنَجْعَلَكُمْ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ كَمَا فَعَلْنَا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، يَعْنِي: إِنْ أَرَدْنَا أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ مَا فَاتَنَا ذَلِكَ.

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾ الْخِلْقَةَ الْأُولَىٰ وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا. أَيْ إِذْ خُلِقْتُمْ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ وَلَمْ تكُونُوا شَيْئًا، ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَنِّي قَادِرٌ عَلَىٰ إِعَادَتِكُمْ كَمَا قَدَرْتُ عَلَىٰ إِبْدَائِكُمْ.

[٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ﴾ يَعْنِي: تُثِيرُونَ مِنَ الْأَرْضِ وَتُلْقُونَ فِيهَا مِنَ الْبَذْرِ ، أَنْتُمْ تُنْبِتُونَهُ وَتُحَصِّلُونَهُ زَرْعًا ، فَيَكُونَ فِيهِ السُّنْبُلُ وَالْحَبُّ أَمْ نَحْنُ نَفْعَلُ ذَلِكَ؟.

[٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ تنبتونه، ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ الْمُنْبِتُونَ، إِذَا أَقْرَرْتُم بِأَنَّ إِخْرَاجَ السُّنْبُلَ مِنَ الْحَبِّ لَيْسَ إِلَيْكُمْ، فَكَيْفَ تُنْكِرُونَ إِخْرَاجَ الْأَمْوَاتِ مِنَ الْأَرْضِ وَإِعَادَتَهُمْ؟! قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَأَضَافَ الْحَرْثَ إِلَيْهِمْ وَالزَّرْعَ إِلَيْهِ تَعَالَىٰ ؛ لِأَنَّ الْحَرْثَ فِعْلُهُمْ وَيَجْرِي عَلَىٰ اخْتِيَارِهِمْ، وَالزَّرْعُ مِنْ فِعْلِ الله تعالىٰ.

[٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ أَيْ مُتَكَسِّرًا يَعْنِي الزَّرْعَ، وَالْحُطَامُ الْهَشِيمُ الْهَالِكُ الَّذِي لَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي مَطْعَمٍ وَلَا غِذَاءٍ، قال عطاء: نبتا لَا قَمْحَ فِيهِ، وَقِيلَ: هَشِيمًا لَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي مَطْعَمٍ وغذاء.

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَظَلْتُمْ﴾ وَأَصْلُهُ فَظَلَلْتُمْ، حُذِفَتْ إِحْدَىٰ اللَّامَيْنِ تخفيفًا، ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تتعجَّبُونَ بِمَا نَزَلَ بِكُمْ فِي زَرْعِكُمْ ، وَقِيلَ: تَنْدَمُونَ عَلَىٰ نَفَقَاتِكُمْ، وَهُوَ قَوْلُ يَمَانٍ، نَظِيرُهُ: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف : ٤٢] ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : تَنْدَمُونَ عَلَىٰ مَا سَلَفَ مِنْكُمْ مِنَ الْمَعْصِيَةِ الَّتِي أَوْجَبَتْ تِلْكَ الْعُقُوبَةَ ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: تَتَلَاوَمُونَ، وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: تَحْزَنُونَ ، قَالَ الْكِسَائِيُّ: هُوَ تَلَهُّفٌ عَلَىٰ مَا فَاتَ وَهُوَ مِنَ الْأَضْدَادِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: تَفَكَّهتُ أَيْ: تَنَعَّمتُ، وَتَفَكَّهتُ أَيْ: حَزِنتُ.

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : معذبون، والغرام: العذاب. وقال الضَّحَّاكُ وَابْنُ كَيْسَانَ: غَرِمْنَا أَمْوَالَنَا وَصَارَ مَا أَنْفَقْنَا غُرْمًا عَلَيْنَا، قال النَّحَّاسُ: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ مَأْخُوذٌ مِنَ الْغَرَامِ وَهُوَ الْهَلَاكُ، وَالْمُغْرَمُ: الَّذِي ذَهَبَ مَالُهُ بِغَيْرِ عِوَضٍ وَهُوَ قَوْلُهُ:

[٦٧] : ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ مَحْدُودُونَ مَمْنُوعُونَ، أَيْ حُرِمْنَا مَا كُنَّا نَطْلُبُهُ مِنَ الرِّيعِ فِي الزَّرْعِ.

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ لِتُحْيُوا بِهِ أَنْفُسَكُمْ، وَتُسَكِّنُوا بِهِ عَطَشِكُمْ، لِأَنَّ الشَّرَابَ إِنَّمَا يَكُونُ تَبَعًا لِلْمَطْعُومِ، وَلِهَذَا جَاءَ الطَّعَامُ مُقَدَّمًا فِي الْآيَةِ قَبْلُ، أَلَا تَرَىٰ أَنَّكَ تَسْقِي ضَيْفَكَ بَعْدَ أَنْ تُطْعِمَهُ.

[٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ السَّحَابِ، وَاحِدَتُهَا مُزْنَةٌ، ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ أَيْ فَإِذَا عَرَفْتُمْ بِأَنِّي أَنْزَلْتُهُ فَلِمَ لَا تَشْكُرُونِي بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِي .

[٧٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ أَيْ مِلْحًا شَدِيدَ الْمُلُوحَةِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: شَدِيدُ الْمُلُوحَةِ، قَالَ الْحَسَنُ البصري : مُرًّا ، ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أَيْ فَهَلَّا تَشْكُرُونَ الَّذِي صَنَعَ ذَلِكَ بِكُمْ.

[٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ أَيْ: أَخْبِرُونِي عَنِ النَّارِ الَّتِي تُظْهِرُونَهَا بِالْقَدْحِ مِنَ الزِّنَادِ، فَتَسْتَخْرِجُونَهَا مِنْ أَصْلِهَا، قَالَ النَّسَفِيُّ: وَالْعَرَبُ

تَقْدَحُ بِعُودَيْنِ تَحُكُّ أَحَدَهُمَا عَلَىٰ الْآخَرِ، وَيُسَمُّونَ الْأَعْلَىٰ الزَّنْدَ وَالْأَسْفَلَ الزَّنْدَةَ.

[٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾ الَّتِي تُقْدَحُ مِنْهَا وَلِلْعَرَبِ شَجَرَتَانِ، إِحْدَاهُمَا: الْمَرْخُ، وَالْأُخْرَىٰ: الْعَفَارُ، إِذَا أُخِذَ مِنْهُمَا غُصْنَانِ أَخْضَرَانِ فَحُكَّ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ تَنَاثَرَ مِنْ بَيْنِهِمَا شَرَرُ النَّارِ ، ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ وَإِنَّمَا اللهُ تَعَالَىٰ الَّذِي أَنْشَأَهَا مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ .

[٧٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا﴾ خلقناها يعني نار الدنيا، ﴿تَذْكِرَةً﴾ لِلنَّارِ الْكُبْرَىٰ إِذَا رَآهَا الرَّائِي ذَكَرَ جَهَنَّمَ، صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ نَارَكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ بَنُو آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ**، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةٌ، قَالَ: **فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا**»(١) ، وَقَالَ عَطَاءٌ: مَوْعِظَةٌ يَتَّعِظُ بها المؤمن، ﴿وَمَتَاعًا﴾ بلغة ومنفعة، ﴿لِلْمُقْوِينَ﴾ الْمُسَافِرِينَ، وَالْمُقْوِي: النَّازِلُ فِي الْأَرْضِ ، الْقِيِّ وَهِيَ الْأَرْضُ الْقَفْرُ الَّتِي لَا شَيْءَ فِيهَا، الْبَعِيدَةُ مِنَ الْعُمْرَانِ، يُقَالُ أَقْوَتِ الدَّارُ إِذَا خَلَتْ مِنْ سُكَّانِهَا، وَالْمَعْنَىٰ أَنَّهُ يَنْتَفِعُ بِهَا أَهْلُ الْبَوَادِي وَالْأَسْفَارِ، فَإِنَّ مَنْفَعَتَهُمْ بِهَا أَكْثَرُ مِنْ مَنْفَعَةِ الْمُقِيمِ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُوقِدُونَهَا لَيْلًا لِتَهْرَبَ مِنْهُمَ السِّبَاعُ وَيَهْتَدِيَ بِهَا الضُّلَّالُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمَنَافِعِ، هَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ ، وقال مجاهد

---

(١) البخاري (٣٢٦٥) .

وعكرمة: ﴿لِلْمُقْوِينَ﴾ يَعْنِي: لِلْمُسْتَمْتِعِينَ بِهَا مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ الْمُسَافِرِينَ وَالْحَاضِرِينَ يَسْتَضِيئُونَ بِهَا فِي الظُّلْمَةِ وَيَصْطَلُونَ مِنَ الْبَرْدِ، وَيَنْتَفِعُونَ بِهَا فِي الطَّبْخِ وَالْخَبْزِ ، قَالَ الْحَسَنُ البصري : بُلْغَةٌ لِلْمُسَافِرِينَ يَتَبَلَّغُونَ بها إلىٰ أسفارهم،

[٧٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: نَزِّهْ رَبَّكَ الْعَظِيمَ، كَامِلَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، كَثِيرَ الْإِحْسَانِ وَالْخَيْرَاتِ، وَاحْمَدْهُ بِقَلْبِكَ وَلِسَانِكَ، وَجَوَارِحِكَ، لِأَنَّهُ أَهْلٌ لِذَلِكَ، وَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرَ، وَيُذْكَرَ فَلَا يُنْسَىٰ، وَيُطَاعَ فَلَا يُعْصَىٰ.

[٧٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ فِي السَّمَاءِ وَيُقَالُ مَطَالِعُهَا وَمَشَارِقُهَا، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ، وَعَنْ قَتَادَةَ: مَوَاقِعُهَا: مَنَازِلُهَا، وَعَنِ الْحَسَنِ: أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ انْتِثَارُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَقْسَمَ تَعَالَىٰ بِالنُّجُومِ وَمَوَاقِعِهَا أَيْ: مَسَاقِطِهَا فِي مَغَارِبِهَا، وَمَا يُحْدِثُ اللهُ فِي تِلْكَ الْأَوْقَاتِ، مِنَ الْحَوَادِثِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ عَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ وَتَوْحِيدِهِ.

[٧٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ وَإِنَّ هَذَا الْقَسَمَ الَّذِي أَقْسَمْتُ بِهِ لَقَسَمٌ عَظِيمٌ، لَوْ تَعْلَمُونَ عَظَمَتَهُ لَعَظَّمْتُمُ الْمُقْسَمَ بِهِ.

[٧٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ عَزِيزٌ مُكَرَّمٌ لِأَنَّهُ كَلَامُ اللهِ ، قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْمَعَانِي: الْكَرِيمُ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُعْطِيَ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ .

[٧٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ مَصُونٍ عِنْدَ اللهِ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مِنَ الشَّيَاطِينِ ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: مَسْتُورٌ عَنْ أَعْيُنِ الْخَلْقِ، وَهَذَا الْكِتَابُ الْمَكْنُونُ هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ أَيْ: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، مُعَظَّمٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ مَلَائِكَتِهِ فِي الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ.

[٧٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ أَيْ ذَلِكَ الْكِتَابَ الْمَكْنُونَ، ﴿إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ الْمَوْصُوفُونَ بِالطَّهَارَةِ،قال الْكَلْبِيِّ: هُمُ السَّفَرَةُ الْكِرَامُ الْبَرَرَةُ، وقَالَ عِكْرِمَةُ: وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَنْهَىٰ أَنْ يُمَكَّنَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، قَالَ الْفَرَّاءُ: لَا يَجِدُ طَعْمَهُ وَنَفْعَهُ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ ، وَقَالَ قَوْمٌ: مَعْنَاهُ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ مِنَ الْأَحْدَاثِ وَالْجَنَابَاتِ ، قَالَ البغوي : وَظَاهِرُ الْآيَةِ نَفْيٌ وَمَعْنَاهَا نَهْيٌ، قَالُوا: لَا يَجُوزُ لِلْجُنُبِ وَلَا لِلْحَائِضِ وَلَا الْمُحْدِثِ حَمْلُ الْمُصْحَفِ وَلَا مَسُّهُ، وَهُوَ قَوْلُ عَطَاءٍ وَطَاوُسٍ وَسَالِمٍ وَالْقَاسِمِ وَأَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ ، وَقَالَ الْحَكَمُ وَحَمَّادُ وَأَبُو حَنِيفَةَ: يَجُوزُ لِلْمُحْدِثِ وَالْجُنُبِ حَمْلُ الْمُصْحَفِ وَمَسُّهُ بِغِلَافٍ، وَالْأَوَّلُ قَوْلُ أَكْثَرِ الْفُقَهَاءِ.

[٨٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيِ الْقُرْآنُ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَيْسَ هُوَ كَمَا يَقُولُونَ إِنَّهُ سِحْرٌ أَوْ كِهَانَةٌ أَوْ شِعْرٌ، بَلْ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فيه .

[٨١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن، ﴿أَنْتُمْ﴾ يا أهل مكة، ﴿مُدْهِنُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مُكَذِّبُونَ، وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: كَافِرُونَ، نَظِيرُهُ:

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم : ٩]، وَالْمُدْهِنُّ وَالْمُدَاهِنُ الْكَذَّابُ وَالْمُنَافِقُ، وَهُوَ مِنَ الْإِدْهَانِ وَهُوَ الْجَرْيُ فِي الْبَاطِنِ عَلَىٰ خِلَافِ الظَّاهِرِ، هَذَا أَصْلُهُ ثُمَّ قِيلَ لِلْمُكَذِّبِ مُدْهِنٌ وَإِنْ صَرَّحَ بِالتَّكْذِيبِ وَالْكُفْرِ. قال ابْنُ كَيْسَانَ: الْمُدْهِنُ الَّذِي لَا يَعْقِلُ مَا حَقُّ اللهِ عَلَيْهِ وَيَدْفَعُهُ بِالْعِلَلِ.

[٨٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ حَظَّكُمْ وَنَصِيبَكُمْ مِنَ الْقُرْآنِ، ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ مَعْنَاهُ وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تَكْذِبُونَ ، قَالَ الْحَسَنُ البصري فِي هَذِهِ الْآيَةِ: خَسِرَ عَبْدٌ لَا يَكُونُ حَظُّهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا التَّكْذِيبَ بِهِ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ يَقُولُ: شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ، تَقُولُونَ: مُطِرْنَا بنوء كذا وكذا، بنجم كذا وكذا.

[٨٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلا، ﴿إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ أَيْ بَلَغَتِ النَّفْسُ الْحُلْقُومَ عِنْدَ الموت.

[٨٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ﴾ يُرِيدُ وَأَنْتُمْ يَا أَهْلَ الْمَيِّتِ تَنْظُرُونَ إِلَيْهِ مَتَىٰ تَخْرُجُ نَفْسُهُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ مَنْ حَضَرَ مِنْ أَهْلِ الْمَيِّتِ يَنْتَظِرُونَ مَتَىٰ تَخْرُجُ نَفْسُهُ. وَقِيلَ: مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿تَنْظُرُونَ﴾ أَيْ إِلَىٰ أَمْرِي وَسُلْطَانِي لَا يُمْكِنُكُمُ الدَّفْعُ وَلَا تَمْلِكُونَ شَيْئًا.

[٨٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالرُّؤْيَةِ، وَقِيلَ: وَرُسُلُنَا الَّذِينَ يَقْبِضُونَ رُوحَهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ منكم، ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أَيْ لَا ترونهم.

[٨٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَوْلَا﴾ فَهَلَّا ﴿إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أَيْ مَجْزِيُّونَ مُحَاسَبُونَ، وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: غَيْرَ مُعَذَّبِينَ مَقْهُورِينَ، وَالْمَعْنَىٰ: أَيْ: فَهَلَّا إِذَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ، أَنَّكُمْ غَيْرُ مَبْعُوثِينَ وَلَا مُحَاسَبِينَ وَمُجَازَيْنَ.

[٨٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَيْ تَرُدُّونَ نَفْسَ هَذَا الْمَيِّتِ إِلَىٰ جَسَدِهِ بَعْدَمَا بَلَّغَتِ الْحُلْقُومَ، مَعْنَاهُ: إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُونَ أَنَّهُ لَا بَعْثَ وَلَا حِسَابَ وَلَا إِلَهَ يُجَازِي فَهَلَّا تَرُدُّونَ نَفْسَ مَنْ يَعِزُّ عَلَيْكُمْ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ، وَإِذَا لَمْ يُمْكِنْكُمْ ذَلِكَ فَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَمْرَ إِلَىٰ غَيْرِكُمْ وَهُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَآمَنُوا بِهِ، ثُمَّ ذَكَرَ طَبَقَاتِ الْخَلْقِ عِنْدَ الْمَوْتِ وَبَيَّنَ دَرَجَاتِهِمْ فَقَالَ:

[٨٨]: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ وَهُمُ السَّابِقُونَ.

[٨٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَرَوْحٌ﴾ قَالَ الْحَسَنُ مَعْنَاهُ: تَخْرُجُ رُوحُهُ فِي الرَّيْحَانِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: الرُّوحُ: الرَّحْمَةُ أَيْ لَهُ الرَّحْمَةُ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ فَحَيَاةٌ وَبَقَاءٌ لَهُمْ، وَمَنْ قَرَأَ بِالْفَتْحِ مَعْنَاهُ: فَلَهُ رَوْحٌ وَهُوَ الرَّاحَةُ، وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: فَرَحٌ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: مَغْفِرَةٌ وَرَحْمَةٌ، ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ اسْتِرَاحَةٌ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: رِزْقٌ كثير: أَيْ فَلَهُمْ رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَتُبَشِّرُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِذَلِكَ عِنْدَ الْمَوْتِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ أَنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَةِ تَقُولُ: « **أَيَّتُهَا الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، كُنْتِ تُعَمِّرِينَهُ اخرجه إِلَىٰ رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ**

غَضْبَانَ »[1] ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﴿فَرَوْحٌ﴾ يَقُولُ: رَاحَةٌ ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ يَقُولُ: مُسْتَرَاحَةٌ، ﴿وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ جَامِعَةٌ لِلْأَمْرَيْنِ كِلَيْهِمَا، فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ، فَيُبَشَّرُ الْمُقَرَّبُونَ عِنْدَ الِاحْتِضَارِ بِهَذِهِ الْبِشَارَةِ، الَّتِي تَكَادُ تَطِيرُ مِنْهَا الْأَرْوَاحُ مِنَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْوَرَّاقُ: الرَّوْحُ النجاة من النار، والريحان دُخُولُ دَارِ الْقَرَارِ.

[٩٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ﴾ الْمُتَوَفَّىٰ، ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ .

[٩١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أَيْ لَسْتَ تَرَىٰ مِنْهُمْ إِلَّا مَا تُحِبُّ مِنَ السَّلَامَةِ فَلَا تَهْتَمَّ لَهُمْ، فَإِنَّهُمْ يَسْلَمُونَ مِنْ عَذَابِ اللهِ. قَالَ مُقَاتِلٌ: هُوَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ وَيَقْبَلُ حَسَنَاتِهِمْ ، وَقَالَ الفراء وغيره: فسلام لَكَ أَنَّهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، أو يقال لصاحب اليمين: سلام لَكَ أَنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، فألقيت إن كان الرجل يَقُولُ إِنِّي مُسَافِرٌ عَنْ قَلِيلٍ، فتقول لَهُ: أَنْتَ مُصَدَّقٌ مُسَافِرٌ عَنْ قَلِيلٍ، وَقِيلَ: فَسَلَامٌ لَكَ أَيْ عَلَيْكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إِذَا جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ لِيَقْبِضَ رُوحَ الْمُؤْمِنِ قَالَ: رَبُّكَ يُقْرِئُكَ السَّلَامُ.

[٩٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعث، ﴿الضَّالِّينَ﴾ عَنِ الْهُدَىٰ وَطَرِيقِ الْحَقِّ .

---

(١) أحمد (٨٧٦١) .

[٩٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أَيْ فَلَهُمْ رِزْقٌ مِنْ حَمِيمٍ.

[٩٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ وَإِدْخَالُ نَارٍ عَظِيمَةٌ.

[٩٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ يَعْنِي مَا ذَكَرَ مِنْ قِصَّةِ المحتضرين، ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أَيِ الْحَقُّ الْيَقِينُ أَضَافَهُ إِلَىٰ نَفْسِهِ .

[٩٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فَسُبْحَانَ رَبِّنَا الْعَظِيمِ، وَتَعَالَىٰ وَتَنَزَّهَ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

سُورَةُ الْحَدِيدِ

سُورَةُ الْحَدِيدِ مَدَنِيَّةٌ فِي قَوْلِ الْجَمِيعِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ مَجَّدَ اللهَ وَنَزَّهَهُ عَنِ السُّوءِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: صَلَّىٰ لِلَّهِ ﴿مَا فِي السَّماواتِ﴾ مِمَّنْ خلق من الملائكة ﴿وَالْأَرْضِ﴾ مِنْ شَيْءٍ فِيهِ رُوحٌ أَوْ لَا رُوحَ فِيهِ ، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَيْ: وَهُوَ الْعَزِيزُ الَّذِي قَدْ عِزَّ وَغَلَبَ كُلَّ شَيْءٍ، وَقَدْ خضعَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي شَأْنِهِ كُلِّهِ: فِي خَلْقِهِ وَقَدَرِهِ وَقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ وَشَرْعِهِ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أَيْ هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ، فَيُحْيِي وَيُمِيتُ، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيْ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، ﴿وَالْآخِرُ﴾ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ، ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ الَّذِي لَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قَدْ أَحَاطَ عِلْمُهُ بِالظَّوَاهِرِ وَالْبَوَاطِنِ، وَالسَّرَائِرِ وَالْخَفَايَا، وَالْأُمُورِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَالْمُتَأَخِّرَةِ ، وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيث

أبي هُرَيْرَة رَضِي الله عَنهُ أَن رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَدْعُو عِنْد النّوم:

« **اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، مُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ**»[1] ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: هُوَ الْأَوَّلُ بِبِرِّهِ إِذْ عَرَّفَكَ تَوْحِيدَهُ، وَالْآخِرُ بِجُودِهِ إِذْ عَرَّفَكَ التَّوْبَةَ عَلَىٰ مَا جَنَيْتَ، وَالظَّاهِرُ بِتَوْفِيقِهِ إِذْ وَفَّقَكَ لِلسُّجُودِ لَهُ، وَالْبَاطِنُ بِسَتْرِهِ إذا عَصَيْتَهُ فَسَتَرَ عَلَيْكَ. وَقَالَ الْجُنَيْدُ: هُوَ الْأَوَّلُ بِشَرْحِ الْقُلُوبِ، وَالْآخِرُ بِغُفْرَانِ الذُّنُوبِ، وَالظَّاهِرُ بِكَشْفِ الْكُرُوبِ، وَالْبَاطِنُ بِعِلْمِ الْغُيُوبِ، وَسَأَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ كَعْبًا عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ فَقَالَ: مَعْنَاهَا إِنَّ عِلْمَهُ بِالْأَوَّلِ كَعِلْمِهِ بِالْآخِرِ، وَعِلْمَهُ بِالظَّاهِرِ كَعِلْمِهِ بِالْبَاطِنِ ، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ خَلْقِهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثم أخبر تعالىٰ بِاسْتِوَائِهِ عَلَىٰ الْعَرْشِ بَعْدَ خَلْقِهِنَّ، ﴿ثم اسْتَوَىٰ﴾ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ﴿عَلَىٰ الْعَرْشِ﴾ الْعَظِيمِ الَّذِي يَسَعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا، اسْتَوَىٰ

---

(١) مسلم (٢٧١٣) .

اسْتِوَاءً يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ، وَاحْتَوَىٰ عَلَىٰ الْمُلْكِ، وَدَبَّرَ الْمَمَالِكَ، وَأَجْرَىٰ عَلَيْهِمْ أَحْكَامَهُ الْكَوْنِيَّةَ، وَأَحْكَامَهُ الدِّينِيَّةَ، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾أَيْ: عَدَدَ مَا يَدْخُلُ فِيهَا مِنْ حَبٍّ وَقَطْرٍ، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أَيْ: مِنْ زَرْعٍ وَنَبَاتٍ وَثِمَارٍ، ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أَيْ: مِنَ الْبَرَدِ وَالْأَمْطَارِ، وَالثُّلُوجِ وَالْأَقْدَارِ، وَجَمِيعِ الْأَحْكَامِ وَالْأَوَامِرِ وَالْقَضَاءِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ الْأَبْرَارِ، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أَيْ مِنَ الْأَعْمَالِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ الْأَخْيَارِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ أَيْ: بِصِفَاتِهِ: بِسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَعِلْمِهِ، وَيُؤَكِّدُ ذَلِكَ آخِرُ الْآيَةِ: ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فَفِيهِ تَفْسِيرُ صِفَةِ الْمَعِيَّةِ ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ: رَقِيبٌ عَلَيْكُمْ، شَهِيدٌ عَلَىٰ أَعْمَالِكُمْ حَيْثُ أَنْتُمْ، وَأَيْنَ كُنْتُمْ، مِنْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ، فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، فِي الْبُيُوتِ أَوْ الْقِفَارِ، الْجَمِيعُ فِي عِلْمِهِ عَلَىٰ السَّوَاءِ، وَتَحْتَ بَصَرِهِ وَسَمْعِهِ، فَيَسْمَعُ كَلَامَكُمْ، وَيَرَىٰ مَكَانَكُمْ، وَيَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَنَجْوَاكُمْ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا سَبَقَ، فَلَهُ سُبْحَانَهُ سُلْطَانُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ، وَأَمْرُهُ تَعَالَىٰ نَافِذٌ بِهِنَّ، وَإِلَيْهِ مَصِيرُ أُمُورِ جَمِيعِ خَلْقِهِ، وَإِلَيْهِ مَآلُهُمْ وَحِسَابُهُمْ وَثَوَابُهُمْ وَعِقَابُهُمْ، ﴿وَإِلَىٰ اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أَيْ أُمُورُ الْخَلَائِقِ فِي الْآخِرَةِ

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: نُقْصَانُ اللَّيْلِ فِي زِيَادَةِ النَّهَارِ ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ نُقْصَانُ النَّهَارِ فِي زِيَادَةِ اللَّيْلِ، فَالنَّهَارُ فِي الصَّيْفِ طَوِيلٌ وَفِي الشِّتَاءِ قَصِيرٌ، وَاللَّيْلُ فِي الصَّيْفِ قَصِيرٌ وَفِي الشِّتَاءِ طَوِيلٌ،

فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ يَأْخُذُ مِنْ سَاعَاتِ هَذَا فَيَضُمُّهَا إِلَىٰ سَاعَاتِ هَذَا صَيْفًا وَشِتَاءً، ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَيْ لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ الضَّمَائِرُ، وَمَنْ كَانَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَلَا يَجُوزُ أن يعبد من سواه.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ أَيْ صَدِّقُوا أَنَّ اللهَ وَاحِدٌ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُهُ ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ تَصَدَّقُوا ، وَقِيلَ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ الزَّكَاةُ الْمَفْرُوضَةُ ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ غَيْرُهَا مِنْ وُجُوهِ الطَّاعَاتِ وَمَا يُقَرِّبُ مِنْهُ ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ أَصْلَ الْمُلْكِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّ الْعَبْدَ لَيْسَ لَهُ فِيهِ إِلَّا التَّصَرُّفُ الَّذِي يُرْضِي اللهَ فَيُثِيبُهُ عَلَىٰ ذَلِكَ بِالْجَنَّةِ. فَمَنْ أَنْفَقَ مِنْهَا فِي حُقُوقِ اللهِ وَهَانَ عَلَيْهِ الْإِنْفَاقُ مِنْهَا، كَمَا يهون عل الرَّجُلِ، النَّفَقَةَ مِنْ مَالِ غَيْرِهِ إِذَا أَذِنَ لَهُ فِيهِ، كَانَ لَهُ الثَّوَابُ الْجَزِيلُ وَالْأَجْرُ الْعَظِيمُ. وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: ﴿مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ بِوِرَاثَتِكُمْ إِيَّاهُ عَمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِأَمْوَالِكُمْ فِي الْحَقِيقَةِ، وَمَا أَنْتُمْ فِيهَا إِلَّا بِمَنْزِلَةِ النُّوَّابِ وَالْوُكَلَاءِ، فَاغْتَنِمُوا الْفُرْصَةَ فِيهَا بِإِقَامَةِ الْحَقِّ قَبْلَ أَنْ تُزَالَ عَنْكُمْ إِلَىٰ مَنْ بَعْدَكُمْ. ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا﴾ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وَهُوَ الْجَنَّةُ، أخرج مسلم، عن عبد الله بن الشخير قَالَ: انْتَهَيْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ: « **أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ، يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي،**

وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ؟ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ؟ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟ وَمَا سِوَىٰ ذَٰلِكَ فَذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ للناس»[1].

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وما لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ باللهِ﴾ اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ بِهِ التَّوْبِيخُ، أَيُّ عُذْرٍ لَكُمْ فِي أَلَّا تُؤْمِنُوا وَقَدْ أُزِيحَتِ الْعِلَلُ؟! ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ بَيَّنَ بِهَذَا أَنَّهُ لَا حُكْمَ قَبْلَ وُرُودِ الشَّرَائِعِ، ﴿لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ أَيْ: أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَكُمْ حِينَ أَخْرَجَكُمْ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِأَنَّ اللهَ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ لَكُمْ سِوَاهُ، وَقِيلَ: أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ بِإِقَامَةِ الْحُجَجِ وَالدَّلَائِلِ الَّتِي تَدْعُو إِلَىٰ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمًا لِأَصْحَابِهِ: «**أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَعْجَبُ إِلَيْكُمْ إِيمَانًا؟**» قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ، قَالَ: «**وَمَا لَهُم لَا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟**» قَالُوا: فَالْأَنْبِيَاءُ، قَالَ: «**وَمَا لَهُم لَا يُؤْمِنُونَ وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ؟**» قَالُوا: فَنَحْنُ، قَالَ: «**وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ وَلَكِنْ أَعْجَبُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا قَوْمٌ يَجِيئُونَ بَعْدَكُمْ يَجِدُونَ صُحُفًا يُؤْمِنُونَ بما فيها**»[2]، ﴿إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾ يَوْمًا فَالْآنَ أَحْرَىٰ الْأَوْقَاتِ أَنْ تُؤْمِنُوا لِقِيَامِ الْحُجَجِ وَالْإِعْلَامِ بِبَعْثَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنُزُولِ الْقُرْآنِ، وَقِيلَ: أَيْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِحَقٍّ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ، فَالْآنَ أَحْرَىٰ الْأَوْقَاتِ أَنْ تُؤْمِنُوا لِقِيَامِ

---

(١) مسلم (٢٩٥٨).

(٢) أحمد (١٦٩٩٩).

الْحُجَجِ وَالْإِعْلَامِ بِبَعْثَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ صَحَّتْ بَرَاهِينُهُ، وَقِيلَ: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِاللهِ خَالِقِكُمْ، وَكَانُوا يَعْتَرِفُونَ بِهَذَا، وَقِيلَ: هُوَ خِطَابٌ لِقَوْمٍ آمَنُوا وَأَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِيثَاقَهُمْ فَارْتَدُّوا.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يعني بالقرآن، وَقِيلَ: الْمُعْجِزَاتُ، أَيْ لَزِمَكُمُ الْإِيمَانُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِمَا مَعَهُ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ، وَالْقُرْآنُ أَكْبَرُهَا وَأَعْظَمُهَا. ﴿لِيُخْرِجَكُمْ﴾ اللهُ بِالْقُرْآنِ، وَقِيلَ: بِالرَّسُولِ، وَقِيلَ: بِالدَّعْوَةِ، ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ﴾ وَقِيلَ: لِيُخْرِجَكُمُ الرَّسُولُ بِالدَّعْوَةِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ أَيْ مِنَ ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ إِلَىٰ نُورِ الْإِيمَانِ، ﴿وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يَقُولُ: أَيُّ شَيْءٍ لَكُمْ فِي تَرْكِ الْإِنْفَاقِ فِيمَا يُقَرِّبُ مِنَ اللهِ وَأَنْتُمْ مَيِّتُونَ تَارِكُونَ أَمْوَالَكُمْ، ثُمَّ بَيَّنَ فَضْلَ مَنْ سَبَقَ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَبِالْجِهَادِ فَقَالَ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ﴾ يَعْنِي فَتْحَ مَكَّةَ فِي قَوْلِ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: هُوَ صلح الحديبية، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَقَدْ يُسْتَدَلُّ لِهَذَا الْقَوْلِ بِمَا قال الإمام أحمد، عَنْ أنس قَالَ: كَانَ بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَبَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ) كَلَامٌ، فَقَالَ خَالِدٌ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ: تَسْتَطِيلُونَ عَلَيْنَا بِأَيَّامٍ سَبَقْتُمُونَا بِهَا، فَبَلَغَنَا أَنَّ ذَلِكَ ذُكِرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «**دَعُوا لِي أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقْتُمْ مِثْلَ أُحُدٍ أَوْ مِثْلَ الْجِبَالِ ذَهَبًا مَا بَلَغْتُمْ**

أَعْمَالَهُمْ»[1]، وَمَعْلُومٌ أَنَّ إِسْلَامَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ كان بين صلح الحُدَيبية وفتح مكة ، ﴿وَقَاتَلَ﴾ لَا يَسْتَوِي فِي الْفَضْلِ مَنْ أَنْفَقَ مَالَهُ وَقَاتَلَ الْعَدُوَّ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ مَعَ مَنْ أَنْفَقَ وَقَاتَلَ بَعْدَهُ، ﴿أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ قِتَالَانِ أَحَدُهُمَا أَفْضَلُ مِنَ الْآخَرِ، وَنَفَقَتَانِ إِحْدَاهُمَا أَفْضَلُ مِنَ الْأُخْرَىٰ، كَانَ الْقِتَالُ وَالنَّفَقَةُ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ أَفْضَلَ مِنَ الْقِتَالِ وَالنَّفَقَةِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَفِي الْكَلَامِ حَذْفٌ وَالتَّقْدِيرُ: لَا يَسْتَوِي مَنْ أَنْفَقَ قَبْلَ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ مَعَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَإِنَّمَا كَانَتِ النَّفَقَةُ قَبْلَ الْفَتْحِ أَعْظَمَ، لِأَنَّ حَاجَةَ النَّاسِ كَانَتْ أَكْثَرَ لِضَعْفِ الْإِسْلَامِ، وَفِعْلُ ذَلِكَ كَانَ عَلَىٰ الْمُنْفِقِينَ حِينَئِذٍ أَشَقَّ، وَالْأَجْرُ عَلَىٰ قَدْرِ النَّصَبِ، وَاللهُ أَعْلَمُ، وَقَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ: يَنْبَغِي أَنْ يُقَدَّمَ أَهْلُ الْفَضْلِ وَالْعَزْمِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُم مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ﴾ أَيْ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ وَعَدَهُمُ اللهُ الْجَنَّةَ، قَالَ عَطَاءٌ: دَرَجَاتُ الْجَنَّةِ تَتَفَاضَلُ فَالَّذِينَ أَنْفَقُوا قَبْلَ الْفَتْحِ فِي أَفْضَلِهَا ، ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أَيْ: فَلِخِبْرَتِهِ فَاوَتَ بَيْنَ ثَوَابِ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِعِلْمِهِ بِقَصْدِ الْأَوَّلِ وَإِخْلَاصِهِ التَّامِّ، وَإِنْفَاقِهِ فِي حَالِ الْجَهْدِ وَالْقِلَّةِ وَالضِّيقِ.

---

(١) مسلم (٢٥٤١) .

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: هُوَ النَّفَقَةُ عَلَىٰ الْأَهْلِ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: هُوَ الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالْآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ إِنْفَاقٍ خَالِصٍ لِوَجْهِ اللهِ فِي أَيِّ وَجْهٍ مِنْ وُجُوهِ الْبِرِّ وَالْخَيْرَاتِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِكُلِّ مَنْ فَعَلَ فِعْلًا حَسَنًا: قَدْ أَقْرَضَ، وَسُمِّيَ الْقَرْضُ قَرْضًا، لِأَنَّ الْقَرْضَ أُخْرِجَ لِاسْتِرْدَادِ الْبَدَلِ، وَالْبَدَلُ هُنَا الْأَضْعَافُ الْكَثِيرَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ أَيْ: مَا بَيْنَ السَّبْعِ إِلَىٰ سَبْعِ مِئَةٍ إِلَىٰ مَا شَاءَ اللهُ مِنَ الْأَضْعَافِ ، قَالَ الْقُشَيْرِيُّ: وَالْقَرْضُ الْحَسَنُ أَنْ يَكُونَ الْمُتَصَدِّقُ صَادِقَ النِّيَّةِ طَيِّبَ النَّفْسِ، يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ دُونَ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ، وَأَنْ يَكُونَ مِنَ الْحَلَالِ، أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: **أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَىٰ الْفَقْرَ، وَتَأْمُلُ الْغِنَىٰ، وَلَا تُمْهِلَ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ**، قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا وَلِفُلَانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ»(١) .

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ تَرَىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ﴾ يَعْنِي عَلَىٰ الصِّرَاطِ، وَهُوَ الضِّيَاءُ الَّذِي يَمُرُّونَ فِيهِ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: لِيَكُونَ دَلِيلًا لَهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ. ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ يَعْنِي عَنْ أَيْمَانِهِمْ، وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: يُؤْتَوْنَ نُورَهُمْ عَلَىٰ قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْتَىٰ نُورَهُ كَالنَّخْلَةِ،

---

(١) البخاري (١٤١٩) ومسلم (١٠٣٢) .

وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْتَىٰ نُورَهُ كَالرَّجُلِ الْقَائِمِ، وَأَدْنَاهُمْ نُورًا مَنْ نُورُهُ أَعْلَىٰ إِبْهَامِهِ فَيُطْفَأُ مَرَّةً وَيَقِدُ مَرَّةً، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: التَّقْدِيرُ يُقَالُ لَهُمْ: ﴿بُشْراكُمُ الْيَوْمَ﴾ دُخُولُ جَنَّاتٍ، أَيْ يُقَالُ لَهُمْ: بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ، أَيْ لَكُمُ الْبِشَارَةُ بِجَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيْ مَاكِثِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ فَإِذَا رَأَىٰ الْمُنَافِقُونَ نُورَ الْمُؤْمِنِينَ يَمْشُونَ بِهِ وَهُمْ قَدْ طُفِئَ نُورُهُمْ وَبَقُوا فِي الظُّلُمَاتِ حَائِرِينَ، قَالُوا لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ أَيْ: أَمْهِلُونَا لِنَنَالَ مِنْ نُورِكُمْ مَا نَمْشِي بِهِ، لِنَنْجُوَ مِنَ الْعَذَابِ، فَـ ﴿قِيلَ﴾ لَهُمْ: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ أَيْ: إِنْ كَانَ ذَلِكَ مُمْكِنًا، وَالْحَالُ أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُمْكِنٍ، بَلْ هُوَ مِنَ الْمُحَالَاتِ، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: يُعْطِي اللهُ الْمُؤْمِنِينَ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ يَمْشُونَ بِهِ عَلَىٰ الصِّرَاطِ، وَيُعْطِي الْمُنَافِقِينَ أَيْضًا نُورًا خَدِيعَةً لَهُمْ، دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ خادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] وَقِيلَ: إِنَّمَا يُعْطَوْنَ النُّورَ، لِأَنَّ جَمِيعَهُمْ أَهْلُ دَعْوَةٍ دُونَ الْكَافِرِ، ثُمَّ يُسْلَبُ الْمُنَافِقُ نُورَهُ لِنِفَاقِهِ، وَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ: يُعْطَىٰ الْمُؤْمِنُ النُّورَ وَيُتْرَكُ الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ بِلَا نور، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ نَسْتَضِيءُ مِنْ نُورِكُمْ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُعْطِي الْمُؤْمِنِينَ نُورًا عَلَىٰ قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ يَمْشُونَ بِهِ عَلَىٰ الصِّرَاطِ، وَيُعْطِي الْمُنَافِقِينَ أَيْضًا نُورًا خَدِيعَةً لَهُمْ، وَهُوَ قَوْلُهُ عز وجل: ﴿وَهُوَ خادِعُهُمْ﴾، بينما هم يمشون إذا بَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ

رِيحًا وَظُلْمَةً فَأَطْفَأَتْ نُورَ الْمُنَافِقِينَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ مَخَافَةَ أَنْ يُسْلَبُوا نُورَهُمْ كَمَا سُلِبَ نُورُ الْمُنَافِقِينَ ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: بَلْ يَسْتَضِيءُ الْمُنَافِقُونَ بِنُورِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يُعْطَوْنَ النُّورَ ، فَإِذَا سَبَقَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَبَقُوا فِي الظُّلْمَةِ قَالُوا لِلْمُؤْمِنِينَ: انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ، ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَقُولُ لَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَقَالَ قَتَادَةُ: تَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ: ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ مِنْ حَيْثُ جِئتم، ﴿فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ فَاطْلُبُوا هُنَاكَ لِأَنْفُسِكُمْ نُورًا فَإِنَّهُ لَا سَبِيلَ لَكُمْ إِلَىٰ الِاقْتِبَاسِ مِنْ نُورِنَا، فَيَرْجِعُونَ فِي طَلَبِ النُّورِ فَلَا يَجِدُونَ شَيْئًا فَيَنْصَرِفُونَ إِلَيْهِمْ لِيَلْقُوهُمْ فَيُمَيَّزُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ﴾ أي سور، والباء صِلَةٌ يَعْنِي بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَهُوَ حَائِطٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، له أي لذلك السور، ﴿بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ أَيْ فِي بَاطِنِ ذَلِكَ السُّورِ الرحمة وهي الجنة ﴿وَظَاهِرُهُ﴾ أَيْ خَارِجَ ذَلِكَ السُّورِ، ﴿مِنْ قِبَلِهِ﴾ أَيْ مِنْ قِبَلِ ذَلِكَ الظَّاهِرِ، ﴿الْعَذَابُ﴾ وهو النار، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : والمراد بِذَلِكَ سُورٌ يُضْرَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَحْجِزَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، فَإِذَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ دَخَلُوهُ مِنْ بَابِهِ، فَإِذَا اسْتَكْمَلُوا دُخُولَهُمْ أُغْلِقَ الْبَابُ، وبقي المنافقين مِنْ وَرَائِهِ فِي الْحَيْرَةِ وَالظُّلْمَةِ وَالْعَذَابِ، كَمَا كانوا في الدار الدنيا في كفر وَشَكٍّ وَحَيْرَةٍ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ يعني: ينادون الْمُنَافِقُونَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ وَرَاءِ السُّورِ حين حجب بَيْنَهُمْ بِالسُّورِ وَبَقُوا فِي الظُّلْمَةِ: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا نُصَلِّي وَنَصُومُ: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أَيِ اسْتَعْمَلْتُمُوهَا فِي الْفِتْنَةِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَهْلَكْتُمُوهَا بِالنِّفَاقِ، وَقِيلَ: بِالْمَعَاصِي، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالإيمان والتوبة، وَالتَّرَبُّصُ: انْتِظَارُ شَيْءٍ، قال مقاتل: وتربصتم بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقُلْتُمْ يُوشِكُ أَنْ يَمُوتَ فَنَسْتَرِيحُ منه، ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ شَكَكْتُمْ فِي نُبُوَّتِهِ وَفِيمَا أَوْعَدَكُمْ به، ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ أَيِ الْأَبَاطِيلُ، وَقِيلَ: طُولُ الْأَمَلِ. وَقِيلَ: هُوَ مَا كَانُوا يَتَمَنَّوْنَهُ مِنْ ضَعْفِ الْمُؤْمِنِينَ وَنُزُولِ الدَّوَائِرِ بِهِمْ، قَالَ بِلَالُ بْنُ سَعْدٍ: ذِكْرُكَ حَسَنَاتَكَ وَنِسْيَانُكَ سَيِّئَاتِكَ غِرَّةٌ، ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللهِ﴾ يَعْنِي الْمَوْتَ، ﴿وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ يَعْنِي الشَّيْطَانَ، قَالَ قَتَادَةُ: مَا زَالُوا عَلَىٰ خُدْعَةٍ مِنَ الشَّيْطَانِ حَتَّىٰ قَذَفَهُمُ اللهُ فِي النَّارِ، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ لِلْبَاقِي بِالْمَاضِي مُعْتَبَرًا، وَلِلْآخِرِ بِالْأَوَّلِ مُزْدَجَرًا، وَالسَّعِيدُ مَنْ لَا يَغْتَرُّ بِالطَّمَعِ، وَلَا يَرْكَنُ إِلَىٰ الْخُدَعِ، وَمَنْ ذَكَرَ الْمَنِيَّةَ نَسِيَ الْأُمْنِيَّةَ، وَمَنْ أَطَالَ الْأَمَلَ نَسِيَ الْعَمَلَ، وَغَفَلَ عَنِ الْأَجَلِ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ بَدَلٌ وَعِوَضٌ بِأَنْ تَفْدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الْعَذَابِ، ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ، ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أَيْ مَقَامُكُمْ وَمَنْزِلُكُمْ ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ أَيْ أَوْلَىٰ بِكُمْ، وَالْمَوْلَىٰ مَنْ يَتَوَلَّىٰ مَصَالِحَ الْإِنْسَانِ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ فِيمَنْ كَانَ مُلَازِمًا لِلشَّيْءِ، وَقِيلَ: أَيِ النَّارُ تَمْلِكُ أَمْرَهُمْ،

بِمَعْنَىٰ أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُرَكِّبُ فِيهَا الْحَيَاةَ وَالْعَقْلَ فَهِيَ تَتَمَيَّزُ غَيْظًا عَلَىٰ الْكُفَّارِ، ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أَيْ سَاءَتْ مَرْجِعًا وَمَصِيرًا.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيْ يَقْرَبُ وَيَحِينُ، فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ﴾ إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ، ﴿أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ﴾ أَيْ تَذِلَّ وَتَلِينَ، قَالَ الْكَلْبِيُّ وَمُقَاتِلٌ: نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ بِسَنَةٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ سَأَلُوا سَلْمَانَ الْفَارِسِيَّ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالُوا حَدِّثْنَا عَنِ التَّوْرَاةِ فَإِنَّ فِيهَا الْعَجَائِبَ، فَنَزَلَتْ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ أَحْسَنُ قَصَصًا مِنْ غَيْرِهِ، فَكَفُّوا عَنْ سُؤَالِ سَلْمَانَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ عَادُوا فَسَأَلُوا سَلْمَانَ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ فَنَزَلَ: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] فَكَفُّوا عَنْ سُؤَالِهِ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ عَادُوا فَقَالُوا: حَدِّثْنَا عَنِ التَّوْرَاةِ فَإِنَّ فِيهَا الْعَجَائِبَ فَنَزَلَتْ هذه الآية، فعلىٰ هذا تأويل قَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ﴾ يَعْنِي فِي الْعَلَانِيَةِ وَبِاللِّسَانِ، وَقَالَ الآخرون: نَزَلَتْ فِي الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ اللهَ اسْتَبْطَأَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ فَعَاتَبَهُمْ عَلَىٰ رَأْسِ ثَلَاثَ عشر مِنْ نُزُولِ الْقُرْآنِ، فَقَالَ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ أَلَمْ يَحِنْ لِلَّذِينِ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ تَرِقَّ وَتَلِينَ وَتَخْضَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ، ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ، ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ﴾ وَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ، ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ الزَّمَانُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَنْبِيَائِهِمْ،

﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَالُوا إِلَىٰ الدُّنْيَا وَأَعْرَضُوا عَنْ مَوَاعِظِ اللهِ، وَالْمَعْنَىٰ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْهَىٰ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا فِي صحبة القرآن كاليهود الَّذِينَ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ لَمَّا طَالَ عليهم الدهر، ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ تَرَكُوا الْإِيمَانَ بِعِيسَىٰ ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: فِيهِ إشارة إلىٰ أن الله يُلِينُ الْقُلُوبَ بَعْدَ قَسْوَتِهَا، وَيَهْدِي الْحَيَارَىٰ بَعْدَ ضَلَّتِهَا، وَيُفَرِّجُ الْكُرُوبَ بَعْدَ شِدَّتِهَا، فَكَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ الْمُجْدِبَةَ الْهَامِدَةَ بِالْغَيْثِ الْهَتَّانِ الْوَابِلِ، كَذَلِكَ يَهْدِي الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ بِبَرَاهِينِ الْقُرْآنِ وَالدَّلَائِلِ، ويولج إليها النور بعد أن كَانَتْ مُقْفَلَةً لَا يَصِلُ إِلَيْهَا الْوَاصِلُ، فَسُبْحَانَ الْهَادِي لِمَنْ يَشَاءُ بَعْدَ الضَّلَالِ، وَالْمُضِلِّ لِمَنْ أَرَادَ بَعْدَ الْكَمَالِ، الَّذِي هُوَ لِمَا يَشَاءُ فَعَّالٌ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَدْلُ فِي جَمِيعِ الْفِعَالِ، اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الْمُصَّدِقِين والمُصَّدِقات﴾ بأموالهم علىٰ أهل الحاجة والفكر وَالْمَسْكَنَةِ ﴿وَأَقْرَضُواْ اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ أَيْ دَفَعُوهُ بنية خالصة ابتغاء مرضاة اللهِ، لَا يُرِيدُونَ جَزَاءً مِمَّنْ أَعْطَوْهُ وَلَا شُكُورًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ أَيْ: يُقَابَلُ لَهُمُ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، ويزاد إِلَىٰ سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ وَفَوْقَ ذَلِكَ، ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أَيْ: ثَوَابٌ جَزِيلٌ وَمَآبٌ كَرِيمٌ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ الصِّدِّيقُ الْكَثِيرُ الصِّدْقَ، قَالَ مُجَاهِدٌ: كل من آمن بالله ورسله فَهُوَ صِدِّيقٌ وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ، قَالَ الضَّحَّاكُ: هُمْ ثَمَانِيَةُ نَفَرٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَبَقُوا أَهْلَ الْأَرْضِ فِي زَمَانِهِمْ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ أَبُو بَكْرٍ وَعَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَعُثْمَانُ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَسَعْدٌ وَحَمْزَةُ، وَتَاسِعُهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ أَلْحَقَهُ اللهُ بِهِمْ لِمَا عَرَفَ مِنْ صِدْقِ نيته، ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ اخْتَلَفُوا فِي نَظْمِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: هِيَ مُتَّصِلَةٌ بما قبلها والواو وَاوُ النَّسَقِ، وَأَرَادَ بِالشُّهَدَاءِ الْمُؤْمِنِينَ المخلصين، وقال الضحاك: هم الذين سميناهم، وقال مُجَاهِدٌ: كُلُّ مُؤْمِنٍ صِدِّيقٌ شَهِيدٌ، وَتلَا هَذِهِ الْآيَةَ، وَقَالَ قَوْمٌ: تَمَّ الْكَلَامُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ ربهم﴾ ، والواو وَاوُ الِاسْتِئْنَافِ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمَسْرُوقٍ وَجَمَاعَةٍ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِيهِمْ فَقَالَ قَوْمٌ: هُمُ الْأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ عَلَىٰ الْأُمَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ: هُمُ الَّذِينَ اسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ، ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ بِمَا عَمِلُوا مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، ﴿وَنُورُهُمْ﴾ عَلَىٰ الصِّرَاطِ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : أَيْ لَهُمْ أَجْرُ أَنْفُسِهِمْ وَنُورُ أَنْفُسِهِمْ. وَفِيهِمْ قَوْلَانِ :

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمُ الرُّسُلُ يَشْهَدُونَ عَلَىٰ أُمَمِهِمْ بِالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ، قَالَهُ الْكَلْبِيُّ، وَدَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ [النساء : ٤١].

الثَّانِي: أَنَّهُمْ أُمَمُ الرُّسُلِ يَشْهَدُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنا﴾ أَيْ بِالرُّسُلِ وَالْمُعْجِزَاتِ ﴿أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ﴾ فَلَا أَجْرَ لَهُمْ وَلَا نُورَ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي الحياة الدنيا، (مَا) صِلَةٌ أَيْ أَنَّ الْحَيَاةَ في هذه الدار، ﴿لَعِبٌ﴾ بَاطِلٌ لَا حَاصِلَ لَهُ، ﴿وَلَهْوٌ﴾ فرح ثم ينقضي، ﴿وَزِينَةٌ﴾ مَنْظَرٌ تَتَزَيَّنُونَ بِهِ، الزِّينَةِ مَا يُتَزَيَّنُ بِهِ، فَالْكَافِرُ يَتَزَيَّنُ بِالدُّنْيَا وَلَا يَعْمَلُ لِلْآخِرَةِ، وَكَذَلِكَ مَنْ تَزَيَّنَ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ، ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ أَيْ يَفْخَرُ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ بِهَا، وَقِيلَ: بِالْخِلْقَةِ وَالْقُوَّةِ، وَقِيلَ: بِالْأَنْسَابِ عَلَىٰ عَادَةِ الْعَرَبِ فِي الْمُفَاخَرَةِ بِالْآبَاءِ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّىٰ لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ**»[١]، وَصَحَّ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ**»[٢]، ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أَيْ مُبَاهَاةٌ بِكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، لِأَنَّ عَادَةَ الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ تَتَكَاثَرَ بِالْأَبْنَاءِ وَالْأَمْوَالِ، وَتَكَاثُرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَجْهُ الِاتِّصَالِ بالآيات التي قبلها أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَتْرُكُ الْجِهَادَ خَوْفًا عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنَ الْقَتْلِ، وَخَوْفًا مِنْ لُزُومِ الْمَوْتِ،

---

(١) مسلم (٢٨٦٥).

(٢) مسلم (٩٣٤).

فَبَيَّنَ أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مُنْقَضِيَةٌ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُتْرَكَ أَمْرَ اللهِ مُحَافَظَةً عَلَىٰ مَا لَا يَبْقَىٰ، ثُمَّ ضَرَبَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهَا مَثَلًا بِالزَّرْعِ فِي غَيْثٍ فَقَالَ: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ أَيْ مَطَرٍ ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ الْكُفَّارُ هُنَا: الفلاحين لِأَنَّهُمْ يُغَطُّونَ الْبَذْرَ، وَالْمَعْنَىٰ أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَالزَّرْعِ يُعْجِبُ النَّاظِرِينَ إِلَيْهِ لِخُضْرَتِهِ بِكَثْرَةِ الْأَمْطَارِ، ثُمَّ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَصِيرَ هَشِيمًا كَأَنْ لَمْ يَكُنْ، وَإِذَا أَعْجَبَ الزُّرَّاعَ فَهُوَ غَايَةُ مَا يُسْتَحْسَنُ، وقيل: الْكُفَّارُ هُنَا : الْكَافِرُونَ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ لِأَنَّهُمْ أَشَدُّ إِعْجَابًا بِزِينَةِ الدُّنْيَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ، فَإِنَّ أَصْلَ الْإِعْجَابِ لَهُمْ وَفِيهِمْ، وَمِنْهُمْ يَظْهَرُ ذَلِكَ، وَهُوَ التَّعْظِيمُ لِلدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أَيْ يَجِفُّ بَعْدَ خُضْرَتِهِ ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ أَيْ مُتَغَيِّرًا عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الخضرة، ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ يَتَحَطَّمُ وَيَتَكَسَّرُ بَعْدَ يُبْسِهِ وَيَفْنَىٰ، كَذَلِكَ دُنْيَا الْكَافِرِ، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: لِأَعْدَاءِ اللهِ، ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ﴾ لِأَوْلِيَائِهِ وَأَهْلِ طَاعَتِهِ، ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ هذَا تَأْكِيدُ مَا سَبَقَ، أَيْ تَغُرُّ الْكُفَّارَ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَالدُّنْيَا لَهُ مَتَاعٌ بَلَاغٌ إِلَىٰ الْجَنَّةِ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: مَتَاعُ الغرور لمن لم يَشْتَغِلُ فِيهَا بِطَلَبِ الْآخِرَةِ، وَمَنِ اشْتَغَلَ بِطَلَبِهَا فَلَهُ مَتَاعُ بِلَاغٍ إِلَىٰ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، وَقِيلَ: الْعَمَلُ لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَتَاعُ الْغُرُورِ تَزْهِيدًا فِي الْعَمَلِ لِلدُّنْيَا، وَتَرْغِيبًا فِي الْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَيْ سَارِعُوا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تُوجِبُ الْمَغْفِرَةَ لَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، وَقِيلَ: سَارِعُوا بِالتَّوْبَةِ، لِأَنَّهَا

تُؤَدِّي إِلَىٰ الْمَغْفِرَةِ، ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ لَوْ وُصِلَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، قَالَ الحسن البصري: يعني جميع السموات وَالْأَرَضِينَ مَبْسُوطَتَانِ كُلُّ وَاحِدَةٍ إِلَىٰ صَاحِبَتِهَا ، وَقِيلَ: يُرِيدُ لِرَجُلٍ وَاحِدٍ أَيْ لِكُلِّ وَاحِدٍ جَنَّةٌ بِهَذِهِ السَّعَةِ، وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: عَنَىٰ بِهِ جَنَّةً وَاحِدَةً مِنَ الْجَنَّاتِ ، وَالْعَرْضُ أَقَلُّ مِنَ الطُّولِ، وَمِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ أَنَّهَا تُعَبِّرُ عَنْ سَعَةِ الشَّيْءِ بِعَرْضِهِ دُونَ طُولِهِ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾ أَيْ: هِيَ قَدْ خُصِّصَتْ لِأَهْلِ الصِّدْقِ فِي الْإِيمَانِ، وَمُتَابَعَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ قَالَ النَّسَفِيُّ: وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ إِلَّا بِفَضْلِ اللهِ ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِمُنْجِيهِ عَمَلُهُ**، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: **وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**»(١) ، ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ قَالَ الطَّبَرِيُّ: وَهُوَ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ عَلَيْهِمْ، بِمَا بَسَطَ لَهُمْ مِنَ الرِّزْقِ فِي الدُّنْيَا، وَوَهَبَ لَهُمْ مِنَ النِّعَمِ وَعَرَّفَهُمْ مَوْضِعَ الشُّكْرِ، ثُمَّ جَزَاهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَلَىٰ الطَّاعَةِ مَا وَصَفَ أَنَّهُ أَعَدَّهُ لَهُمْ.

---

(١) البخاري (٦٤٦٣) .

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ يَعْنِي قَحْطَ الْمَطَرِ وَقِلَّةَ النَّبَاتِ وَنَقْصَ الثِّمَارِ، ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ يَعْنِي الْأَمْرَاضَ وَفَقْدَ الْأَوْلَادِ، وَقِيلَ: ضِيقُ الْمَعَاشِ، ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ يَعْنِي اللَّوْحَ الْمَحْفُوظَ، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَخْلُقَ الْأَرْضَ وَالْأَنْفُسَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَ الْمُصِيبَةَ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَخْلُقَ الْأَرْضَ وَالنَّفْسَ، ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرٌ﴾ أَيْ إِثْبَاتَ ذَلِكَ عَلَىٰ كَثْرَتِهِ هَيِّنٌ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَهَذَا شَامِلٌ لِعُمُومِ الْمَصَائِبِ الَّتِي تُصِيبُ الْخَلْقَ، مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، فَكُلُّهَا قَدْ كُتِبَتْ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، صَغِيرُهَا وَكَبِيرُهَا، وَهَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ لَا تُحِيطُ بِهِ الْعُقُولُ، بَلْ تَذْهَلُ عِنْدَهُ أَفْئِدَةُ أُولِي الْأَلْبَابِ، وَلَكِنَّهُ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرٌ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلىٰ مَا فاتَكُمْ﴾ أَيْ حَتَّىٰ لَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ مِنَ الرِّزْقِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ إِذَا عَلِمُوا أَنَّ الرِّزْقَ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ لَمْ يَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَهُمْ مِنْهُ. وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ طَعْمَ الْإِيمَانِ، حَتَّىٰ يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ**»، ثُمَّ قَرَأَ ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلىٰ مَا فاتَكُمْ﴾[١] أَيْ كَيْ لَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ مِنَ الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ لَمْ يُقَدَّرْ لَكُمْ وَلَوْ قُدِّرَ لَكُمْ لَمْ يَفُتْكُمْ: ﴿وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ﴾ أَيْ مِنَ الدُّنْيَا، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَفْرَحُ وَيَحْزَنُ، وَلَكِنِ

---

(١) أحمد (٢٢٧٠٩).

اجْعَلُوا الْفَرَحَ شُكْرًا وَالْحُزْنَ صبراً، ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ أَيْ مُتَكَبِّرٍ بِمَا أُوتِيَ مِنَ الدُّنْيَا، فَخُورٍ بِهِ عَلَىٰ النَّاسِ ، قَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّادِقُ: يَا ابن آدم مالك تَأْسَىٰ عَلَىٰ مَفْقُودٍ لَا يَرُدُّهُ عَلَيْكَ الْفَوْتُ، أَوْ تَفْرَحُ بِمَوْجُودٍ لَا يَتْرُكُهُ فِي يَدَيْكَ الموت ، وَقِيلَ: الْمُخْتَالُ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَىٰ نَفْسِهِ بِعَيْنِ الِافْتِخَارِ، وَالْفَخُورُ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَىٰ النَّاسِ بِعَيْنِ الِاحْتِقَارِ، وَكِلَاهُمَا شِرْكٌ خَفِيٌّ، ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَعْنِي بِالْعِلْمِ ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أَيْ بِأَلَّا يُعَلِّمُوا النَّاسَ شَيْئًا ، زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: إِنَّهُ الْبُخْلُ بِأَدَاءِ حَقِّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وقيل: إنه البخل بالصدقة والحقوق، الْبُخْلُ الْمَذْمُومُ فِي الشَّرْعِ هُوَ الِامْتِنَاعُ مِنْ أَدَاءِ مَا أَوْجَبَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أَيْ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ الَّذِي غِنَاهُ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الَّذِي أَغْنَىٰ عِبَادَهُ وَأَقْنَاهُمْ، الْحَمِيدُ الَّذِي لَهُ كُلُّ اسْمٍ حَسَنٍ، وَوَصْفٍ كَامِلٍ، وَفِعْلٍ جَمِيلٍ، يَسْتَحِقُّ أَنْ يُحْمَدَ عَلَيْهِ وَيُثْنَىٰ وَيُعَظَّمَ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَيْ بِالْمُعْجِزَاتِ الْبَيِّنَةِ وَالشَّرَائِعِ الظَّاهِرَةِ، وَقِيلَ: الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ تَعَالَىٰ فِي الْعِبَادَةِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، بِذَلِكَ دَعَتِ الرُّسُلُ: نُوحٌ فَمَنْ دُونَهُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أَيْ: الْكُتُبُ، فِيهَا النَّقْلُ الصِّدْقُ وَالْخَبَرُ الصَّحِيحُ، قَالَ النَّسَفِيُّ: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أَيْ: الْوَحْيُ، ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ يَعْنِي الْعَدْلَ ، وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ: هُوَ مَا يُوزَنُ بِهِ أَيْ وَوَضَعْنَا الْمِيزَانَ كَمَا قَالَ: ﴿وَالسَّمَاءَ

رَفَعَهَا﴾ [الرحمن : ٧] بأن وضع الميزان ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ لِيَتَعَامَلُوا بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ، ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ قال أَهْلُ الْمَعَانِي مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾، أَنْشَأْنَا وَأَحْدَثْنَا، أَيْ أَخْرَجَ لَهُمُ الْحَدِيدَ مِنَ الْمَعَادِنِ وَعَلَّمَهُمْ صَنْعَتَهُ بِوَحْيِهِ، وَقَالَ قُطْرُبٌ: هَذَا مِنَ النَّزْلِ كَمَا يُقَالُ أَنْزَلَ الْأَمِيرُ عَلَىٰ فُلَانٍ نَزْلًا حَسَنًا فَمَعْنَىٰ الْآيَةِ أَنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ نَزْلًا لَهُمْ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر :٦]، قوله ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ قُوَّةٌ شَدِيدَةٌ يَعْنِي السِّلَاحَ لِلْحَرْبِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: فِيهِ جُنَّةٌ وَسِلَاحٌ يَعْنِي آلَةُ الدَّفْعِ وَآلَةُ الضَّرْبِ ، ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ أَيْ فِي مَعَايِشِهِمْ كَالسِّكَّةِ والفأس والمنشار وَالْآلَاتِ الَّتِي يُسْتَعَانُ بِهَا فِي الْحِرَاثَةِ وَالْحِيَاكَةِ والطبخ وغير ذلك، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ﴾ أَيْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ لِيَتَعَامَلَ النَّاسُ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ وَلِيَرَىٰ اللهُ، ﴿مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ أي دينه، ﴿وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي قام بنصرة الدين لم يَرَ اللهَ وَلَا الْآخِرَةَ وَإِنَّمَا يُحْمَدُ وَيُثَابُ مَنْ أَطَاعَ اللهَ بِالْغَيْبِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَنْصُرُونَهُمْ لَا يُكَذِّبُونَهُمْ، وَيُؤْمِنُونَ بِهِمْ ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أَيْ وَهُمْ لَا يَرَوْنَهُمْ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَيْ وَجَعَلْنَا الْحَدِيدَ رَادِعًا لِمَنْ أَبَىٰ الْحَقَّ وَعَانَدَهُ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا أَقَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً تُوحَىٰ إِلَيْهِ السُّوَرُ الْمَكِّيَّةُ ، وَكُلُّهَا جِدَالٌ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، وَبَيَانٌ وَإِيضَاحٌ لِلتَّوْحِيدِ، وبينات ودلالات، فَلَمَّا قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَىٰ مَنْ خَالَفَ، شَرَعَ اللهُ الْهِجْرَةَ، وَأَمَرَهُمْ بِالْقِتَالِ بِالسُّيُوفِ وَضَرْبِ الرِّقَابِ، وقد روىٰ الإمام أحمد، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ،

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ ، حَتَّىٰ يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجَعَلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَىٰ مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تشبه بقوم فهو منهم**»(١) ، ﴿إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قَوِيٌّ فِي أَمْرِهِ عَزِيزٌ فِي مُلْكِهِ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحًا وَإِبْراهِيمَ﴾ فَصَّلَ مَا أَجْمَلَ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ بِالْكُتُبِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَرْسَلَ نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلَ النُّبُوَّةَ فِي نَسْلِهِمَا ﴿وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ﴾ أَيْ جَعَلْنَا بَعْضَ ذُرِّيَّتِهِمَا الْأَنْبِيَاءَ، وَبَعْضَهُمْ أُمَمًا يَتْلُونَ الْكُتُبَ الْمُنَزَّلَةَ مِنَ السَّمَاءِ: التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالْفُرْقَانَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْكِتَابُ الْخَطُّ بِالْقَلَمِ ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أَيْ مَنِ ائْتَمَّ بِإِبْرَاهِيمَ وَنُوحٍ ﴿مُهْتَدٍ﴾ ، وَقِيلَ: ﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ﴾ أَيْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُهْتَدُونَ ، ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾ كَافِرُونَ خَارِجُونَ عَنِ الطَّاعَةِ.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنا﴾ أَيْ أَتْبَعْنَا ﴿عَلىٰ آثارِهِمْ﴾ أَيْ عَلَىٰ آثَارِ الذُّرِّيَّةِ، وَقِيلَ: عَلَىٰ آثَارِ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ ﴿بِرُسُلِنا﴾ مُوسَىٰ وَإِلْيَاسَ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَيُونُسَ وَغَيْرِهِمْ ﴿وَقَفَّيْنا بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ﴾ فَهُوَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ جِهَةِ أُمِّهِ ﴿وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ﴾ وَهُوَ الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ عَلَيْهِ ، ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ عَلَىٰ دِينِهِ يَعْنِي الْحَوَارِيِّينَ وَأَتْبَاعَهُمْ ﴿رَأْفَةً﴾ وهي أشد الرقة،

---

(١) أحمد (٤٠٣١) .

﴿وَرَحْمَةً﴾ كَانُوا مُتَوَادِّينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَقِيلَ: هَذَا إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهُمْ أُمِرُوا فِي الْإِنْجِيلِ بِالصُّلْحِ وَتَرْكِ إِيذَاءِ النَّاسِ وَأَلَانَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِذَلِكَ، بِخِلَافِ الْيَهُودِ الَّذِينَ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَحَرَّفُوا الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَالرَّأْفَةُ اللِّينُ، وَالرَّحْمَةُ الشَّفَقَةُ ، وَقِيلَ: الرَّأْفَةُ تَخْفِيفُ الْكَلِّ، وَالرَّحْمَةُ تَحَمُّلُ الثِّقَلِ، وَقِيلَ: الرَّأْفَةُ أَشَدُّ الرَّحْمَةِ. ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ وَلَيْسَ هَذَا بِعَطْفٍ عَلَىٰ مَا قَبْلَهُ وَانْتِصَابُهُ بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ كَأَنَّهُ قَالَ: وَابْتَدَعُوا رَهْبَانِيَّةً أَيْ جَاءُوا بِهَا مِنْ قبل أنفسهم، ﴿مَا كَتَبْنَاهَا﴾ أَيْ مَا فَرَضْنَاهَا، ﴿عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ﴾ يَعْنِي وَلَكِنَّهُمُ ابْتَغَوْا رِضْوَانَ اللهِ بِتِلْكَ الرَّهْبَانِيَّةِ، وَتِلْكَ الرَّهْبَانِيَّةُ مَا حَمَّلُوا أَنْفُسَهَمْ مِنَ الْمَشَاقِّ فِي الِامْتِنَاعِ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمَلْبَسِ وَالنِّكَاحِ وَالتَّعَبُّدِ فِي الْجِبَالِ، وقيل: ﴿إِلَّا ابْتِغاءَ﴾ الاستثناء مُنْقَطِعٌ، وَالتَّقْدِيرُ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ لَكِنِ ابْتَدَعُوهَا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ، ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أَيْ لَمْ يَرْعَوْا الرَّهْبَانِيَّةَ حَقَّ رِعَايَتِهَا بَلْ ضَيَّعُوهَا وَكَفَرُوا بِدِينِ عِيسَىٰ فَتَهَوَّدُوا وَتَنَصَّرُوا وَدَخَلُوا فِي دين ملوكهم وتركوا الترهيب، وَأَقَامَ مِنْهُمْ أُنَاسٌ عَلَىٰ دِينِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَتَّىٰ أَدْرَكُوا مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَآمَنُوا بِهِ، وقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ حَمَلُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَىٰ الْمَشَقَّاتِ فِي الِامْتِنَاعِ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالنِّكَاحِ وَالتَّعَلُّقِ بِالْكُهُوفِ وَالصَّوَامِعِ، وَذَلِكَ أَنَّ مُلُوكَهُمْ غَيَّرُوا وَبَدَّلُوا وَبَقِيَ نَفَرٌ قَلِيلٌ فَتَرَهَّبُوا وَتَبَتَّلُوا. وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ وَهُمُ الَّذِينَ ثَبَتُوا عَلَيْهَا وَهُمْ أَهْلُ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ، ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ

فَاسِقُونَ﴾ وَهُمُ الَّذِينَ تَرَكُوا الرَّهْبَانِيَّةَ وَكَفَرُوا بِدِينِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ﴾ الْخِطَابُ لِأَهْلِ الْكِتَابَيْنِ مِنَ الْيَهُودِ والنصارىٰ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ اتَّقَوْا اللهَ فِي مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ عَامًّا يَدْخُلُ فِيهِ أَهْلُ الْكِتَابِ وَغَيْرُهُمْ، وَهَذَا الظَّاهِرُ، وَأَنَّ اللهَ أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَىٰ الَّذِي يَدْخُلُ فِيهِ جَمِيعُ الدِّينِ، ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ، أُصُولُهُ وَفُرُوعُهُ، ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ نصيبين، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ : وَالْكِفْلُ: بِكَسْرِ الْكَافِ وَسُكُونِ الْفَاءِ: النَّصِيبُ ، وَأَصْلُهُ: الْأَجْرُ الْمُضَاعَفُ، وَهُوَ مُعَرَّبٌ مِنَ الحبشية كَمَا قَالَه أَبُو مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيُّ، أَيْ يُؤْتِكُمْ أَجْرَيْنِ عَظِيمَيْنِ، وَكُلُّ أَجْرٍ مِنْهُمَا هُوَ ضِعْفُ الْآخَرِ مُمَاثِلٌ لَهُ فَلِذَلِكَ ثُنِّيَ كِفْلَيْنِ كَمَا يُقَالُ: زَوْجٌ، لِأَحَدِ الْمُتَقَارِبَيْنِ، ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ يَعْنِي يُؤْتِكُمْ أَجْرَيْنِ لِإِيمَانِكُمْ بِعِيسَىٰ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَالْإِنْجِيلِ، وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْقُرْآنِ، وَقَالَ قَوْمٌ: انْقَطَعَ الْكَلَامُ عِنْدَ قوله ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ ثم قال: وَرَهْبَانِيَّةٌ ابْتَدَعُوهَا وَذَلِكَ أَنَّهُمْ تَرَكُوا الْحَقَّ فَأَكَلُوا الْخِنْزِيرَ وَشَرِبُوا الْخَمْرَ وَتَرَكُوا الْوُضُوءَ وَالْغُسْلَ مِنَ الْجَنَابَةِ وَالْخِتَانَ، فَمَا رَعَوْهَا يَعْنِي الطَّاعَةَ وَالْمِلَّةَ حَقَ رِعَايَتِهَا ، كِنَايَةً عَنْ غَيْرِ مَذْكُورٍ، ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ وَهُمْ أَهْلُ

الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وَهُمُ الَّذِينَ ابْتَدَعُوا الرَّهْبَانِيَّةَ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ مُجَاهِدٌ.

ومَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ﴾ عَلَىٰ هَذَا التَّأْوِيلِ: مَا أَمَرْنَاهُمْ وما كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ الله، وما أمرنا لهم بالترهب ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**ثَلَاثَة يوتون أُجُورَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكتاب آمن بنبيئه وآمن بِي، وَاتَّبَعَنِي، وَصَدَّقَنِي فَلَهُ أَجْرَانِ**»

﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي عَلَىٰ الصِّرَاطِ، كَمَا قَالَ: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ الْهُدَىٰ وَالْبَيَانُ، أَيْ يَجْعَلْ لَكُمْ سَبِيلًا وَاضِحًا في الدين تهمدون بِهِ، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ثُمَّ قَالَ:

[٢٩] : ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: حَسَدَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: قَالَتِ الْيَهُودُ: يُوشِكُ أَنْ يَخْرُجَ مِنَّا نَبِيٌّ يَقْطَعُ الْأَيْدِيَ وَالْأَرْجُلَ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْعَرَبِ كَفَرُوا بِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ قال الأخفش : أَيْ لِيَعْلَمَ وَ (لَا) صِلَةٌ، ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾ أَيْ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ لَا أَجْرَ لَهُمْ، وَلَا نَصِيبَ لَهُمْ فِي فَضْلِ اللهِ، قَالَ الْقَاسِمِيُّ: لِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَتَصَرَّفُوا فِي أَعْظَمِهِ، وَهُوَ النُّبُوَّةُ، فَيَخُصُّوا بِهَا مَنْ أَرَادُوا، ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ

يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيِ الْأُمُورُ كُلُّهَا تَحْتَ تَصَرُّفِهِ وَهُوَ الْمُعْطِي الْمَانِعُ ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَدِيدِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

سُورَةَ الْمُجَادَلَةِ

سبب تَسْمِيَتِهَا بـ«سُورَةَ الْمُجَادَلَةِ» لِأَنَّهَا افْتُتِحَتْ بِقَضِيَّةِ مُجَادَلَةِ امْرَأَةِ أَوْسِ ابْنِ الصَّامِتِ لَدَىٰ النبيء صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شَأْنِ مُظَاهَرَةِ زَوْجِهَا، وَسُمِّيَتْ فِي مُصْحَفِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ «سُورَةَ الظِّهَارِ» ، وَهَذِهِ السُّورَةُ مَدَنِيَّةٌ .

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ ، كَانَتْ تَحْتَ أَوْسِ بْنِ الصَّامِتِ ، وَكَانَتْ حَسَنَةَ الْجِسْمِ وَكَانَ بِهِ لَمَمٌ ، فَأَرَادَهَا فَأَبَتْ، فَقَالَ لَهَا: أَنْتِ عَلِيَّ كَظَهْرِ أُمِّي، ثُمَّ نَدِمَ عَلَىٰ مَا قَالَ ، وَكَانَ الظِّهَارُ وَالْإِيلَاءُ مِنْ طَلَاقِ أهل الجاهلية، فَأَتَتْ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: «يَا رسول الله إن زوجي ظَاهَرَ مِنِّي، وَقَدْ نَدِمَ فَهَلْ من شيء يجمعني وإياه، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **حَرُمْتِ عَلَيْهِ** ، فَقَالَتْ أَشْكُو إِلَىٰ اللهِ فَاقَتِي وَوَحْدَتِي، فَجَعَلَتْ تُرَاجِعُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ﴾ » الْآيَاتِ[١] ، وَمَعْنَىٰ قَوْلِهِ ﴿قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾

---

(١) أبو داود (٢٢١٤) وابن ماجه (١٨٨) .

وتخاصمك وَتُحَاوِرُكَ وَتَرَاجِعُكَ فِي زَوْجِهَا، ﴿وَتَشْتَكِي إِلَىٰ اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ مُرَاجَعَتَكُمَا الْكَلَامَ، ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ سَمِيعٌ لِمَا تُنَاجِيهِ وَتَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ، بَصِيرٌ بِمَنْ يَشْكُو إِلَيْهِ ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُكَلِّمُهُ وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ مَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ، وعن أبي يزيد قَالَ: لقيتْ امرأةٌ عُمَرَ يُقَالُ لَهَا خَوْلَةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ ، وَهُوَ يَسِيرُ مَعَ النَّاسِ، فَاسْتَوْقَفَتْهُ، فَوَقَفَ لَهَا وَدَنَا مِنْهَا وَأَصْغَىٰ إِلَيْهَا رَأْسَهُ وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَىٰ مَنْكِبَيْهَا، حَتَّىٰ قَضَتْ حَاجَتَهَا وَانْصَرَفَتْ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَبَسْتَ رِجَالَاتِ قُرَيْشٍ عَلَىٰ هَذِهِ الْعَجُوزِ، قَالَ: وَيْحَكَ وَتَدْرِي مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ لَا، قَالَ: هَذِهِ امْرَأَةٌ سَمِعَ اللهُ شَكْوَاهَا مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، هَذِهِ خَوْلَةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ، وَاللهِ لَوْ لَمْ تَنْصَرِفْ عَنِّي إِلَىٰ اللَّيْلِ مَا انصرفت عنها حتىٰ تقضي حاجتها، إلا أَنْ تَحْضُرَ صَلَاةٌ فَأُصَلِّيَهَا، ثُمَّ أَرْجِعَ إِلَيْهَا حتىٰ تقضي حاجتها، ثُمَّ ذَمَّ الظِّهَارَ فَقَالَ:

[٢] : ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ أَيْ مَا اللَّوَاتِي يَجْعَلُونَهُنَّ مَعَ زَوْجَاتِهِمْ كَالْأُمَّهَاتِ، الْمَعْنَىٰ لَيْسَ هُنَّ بِأُمَّهَاتِهِمْ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ:أَصْلُ الظِّهَارِ مُشْتَقٌّ مِنَ الظَّهْرِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَاهِلِيَّةَ كانوا إذا ظاهر أحدهم مِنِ امْرَأَتِهِ قَالَ لَهَا: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أمي، وَكَانَ الظِّهَارُ عِنْدَ الْجَاهِلِيَّةِ طَلَاقًا فَأَرْخَصَ اللهُ لهذه الْأُمَّةِ وَجَعَلَ فِيهِ كَفَّارَةً وَلَمْ يَجْعَلْهُ طَلَاقًا كَمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ

فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أَيْ مَا أُمَّهَاتُهُمْ، ﴿إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ أَيْ لَا تَصِيرُ الْمَرْأَةُ بِقَوْلِ الرَّجُلِ أَنْتِ عَلَيَّ كأُمّي، أَوْ مِثْلُ أُمي، أَوْ كَظَهْرِ أُمي وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، لَا تَصِيرُ أُمه بِذَلِكَ إِنَّمَا أُمُّهُ الَّتِي وَلَدَتْهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ﴾ لَا يُعْرَفُ فِي شَرْعٍ ﴿وَزُورًا﴾ كَذِبًا، ﴿وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أَيْ عَمَّا كَانَ مِنْكُمْ فِي حَالِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَهَكَذَا أَيْضًا عَمَّا خَرَجَ مِنْ سَبْقِ اللِّسَانِ ولم يقصد إليه المتكلم.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أَيْ فَعَلَيْهِمْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ، وَقِيلَ: أَيْ فَكَفَّارَتُهُمْ عِتْقُ رَقَبَةٍ وقوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أَيْ: ثُمَّ يَعُودُونَ لِنَقْضِ مَا قَالُوا أَوْ لِتَدَارُكِهِ - عَلَىٰ حَذْفِ الْمُضَافِ - أَوْ: ثُمَّ يَعُودُونَ لِتَحْلِيلِ مَا حَرَّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ. وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ بِمَاذَا يَحْصُلُ النَّقْضُ عَلَىٰ أَقْوَالٍ:

قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: هُوَ أَنْ يَعُودَ إِلَىٰ الظِّهَارِ بَعْدَ تَحْرِيمِهِ، وَرُفِعَ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْجَاهِلِيَّةِ، فَمَتَىٰ ظَاهَرَ الرَّجُلُ مِنِ امْرَأَتِهِ فَقَدْ حَرَّمَهَا تَحْرِيمًا لَا يَرْفَعُهُ إِلَّا الْكَفَّارَةُ.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: هُوَ أَنْ يُمسِكَهَا بَعْدَ الظِّهَارِ زَمَانًا يُمْكِنُهُ أَنْ يُطَلِّقَ فِيهِ فَلَا يُطَلِّقَ.

وَحُكِيَ عَنْ مَالِكٍ: أَنَّهُ الْعَزْمُ عَلَىٰ الْجِمَاعِ وَالْإِمْسَاكُ، وَعَنْهُ: (أَنَّهُ الْجِمَاعُ).

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: هُوَ أَنْ يَعُودَ إِلَىٰ الْجِمَاعِ، أَوْ يَعْزِمَ عَلَيْهِ، فَلَا يَحِلُّ لَهُ حَتَّىٰ يُكَفِّرَ بِهَذِهِ الْكَفَّارَةِ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ والمراد بالتماس الْمُجَامَعَةُ، فَلَا يَحِلُّ لِلْمُظَاهِرِ وَطْءُ امرأته التي ظاهر عنها مَا لَمْ يُكَفِّرْ سَوَاءٌ أَرَادَ التَّكْفِيرَ بِالْإِعْتَاقِ أَوْ بِالصِّيَامِ أَوْ بِالْإِطْعَامِ، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: لَيْسَ لَهُ أَنْ يُقَبِّلَهَا وَلَا يَمَسَّهَا حَتَّىٰ يُكَفِّرَ، ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾ الصِّيَامَ ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ إِمَّا بِأَنْ يُطْعِمَهُمْ مِنْ قُوتِ بَلَدِهِ مَا يَكْفِيهِمْ، كَمَا هُوَ قَوْلُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، وَإِمَّا بِأَنْ يُطْعِمَ كُلَّ مِسْكِينٍ مُدَّ بُرٍّ أَوْ نِصْفَ صَاعٍ مِنْ غَيْرِهِ مِمَّا يُجْزِي فِي الْفِطْرَةِ، كَمَا هُوَ قَوْلُ طَائِفَةٍ أُخْرَىٰ، ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ يعني الرقبة، ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ يعني المظاهر إذ لَمْ يَسْتَطِعِ الصَّوْمَ لِمَرَضٍ أَوْ كبر أو فرط شهوة لا يَصْبِرُ عَنِ الْجِمَاعِ يَجِبُ عَلَيْهِ إطعام سِتِّينَ مِسْكِينًا، ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ لِتُصَدِّقُوا مَا أَتَىٰ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ الله عز جل، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ أَيْ ذَلِكَ الَّذِي وَصَفْنَا مِنَ التَّغْلِيظِ فِي الْكَفَّارَةِ ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ أَيْ لِتُصَدِّقُوا أَنَّ اللهَ أَمَرَ بِهِ، ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾، ﴿ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ أَيْ ذَلِكَ الَّذِي وَصَفْنَا مِنَ التَّغْلِيظِ فِي الْكَفَّارَةِ ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ أَيْ لِتُصَدِّقُوا أَنَّ اللهَ أَمَرَ بِهِ، ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِمَنْ جَحَدَهُ وَكَذَّبَ بِهِ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَيْ يُعَادُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُشَاقُّونَ وَيُخَالِفُونَ أَمْرَهُمَا، قَالَ قَتَادَةُ: يَقُولُ: يُعَادُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ، وقَالَ الزَّجَّاجُ: الْمُحَادَّةُ أَنْ تَكُونَ فِي حَدٍّ يُخَالِفُ حَدَّ صَاحِبِكَ ، وَأَصْلُهَا الْمُمَانَعَةُ، وَمِنْهُ الْحَدِيدُ، وَمِنْهُ الْحَدَّادُ لِلْبَوَّابِ ﴿كُبِتُوا﴾ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَالْأَخْفَشُ: أُهْلِكُوا. وَقَالَ قَتَادَةُ: اخْزُوا كَمَا أُخْزِيَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: عُذِّبُوا ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: لُعِنُوا ، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: غِيظُوا يَوْمَ الْخَنْدَقِ ، وَالْكَبْتُ: الْخِزْيُ وَالْإِذْلَالُ ﴿كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أَيْ أُهِينُوا وَلُعِنُوا وَأُخْزُوا كَمَا فُعِلَ بِمَنْ سبقهم مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أَيْ وَاضِحَاتٍ لَا يُعَانِدُهَا وَلَا يُخَالِفُهَا إِلَّا كَافِرٌ فَاجِرٌ مُكَابِرٌ، ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيْ فِي مُقَابَلَةِ مَا اسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِ شَرْعِ اللهِ، وَالِانْقِيَادِ لَهُ وَالْخُضُوعِ لَدَيْهِ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أَيْ: يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا صَنَعُوا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ﴿أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ﴾ أَيْ ضَبَطَهُ اللهُ وَحَفِظَهُ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ قد نسوا ما كانوا عملوا، ﴿وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أَيْ لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ وَلَا يَخْفَىٰ وَلَا يَنْسَىٰ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِخَلْقِهِ وَاطِّلَاعِهِ عَلَيْهِمْ وَسَمَاعِهِ كَلَامَهُمْ وَرُؤْيَتِهِ مَكَانَهُمْ حيث كانوا وأين كانوا:

[٧] : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نجوىٰ ثَلَاثَةٍ﴾ أي من سر ثلاثة وَالنَّجْوَىٰ: اسْمُ مَصْدَرِ نَاجَاهُ، إِذَا سَارَّهُ ، وثَلَاثَةٍ

مُضَافٌ إِلَيْهِ نَجوىٰ ، أَيْ مَا يَكُونُ تَنَاجِي ثَلَاثَةٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا اللهُ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ كَرَابِعٍ لَهُمْ، وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ كَسَادِسٍ لَهُمْ، وَلَا أَدْنَىٰ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ. وَضَمَائِرُ الْغَيْبَةِ عَائِدَةٌ إِلَىٰ ثَلاثَةٍ وَإِلَىٰ خَمْسَةٍ وَإِلَىٰ ذلِكَ وأَكْثَرَ ، ﴿إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ، وَلاَ أَدْنَىٰ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أينما كَانُواْ﴾، أي مطلع عَلَيْهِمْ يَسْمَعُ كَلامَهُمْ وَسِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ، وَرُسُلُهُ أَيْضًا مَعَ ذَلِكَ تَكْتُبُ مَا يَتَنَاجَوْنَ بِهِ مَعَ علم الله به وسمعه له، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ الله عَلاَّمُ الغيوب﴾ [التوبة : ٧٨] ، وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم. بلىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يكتبون﴾ [الزخرف: ٨٠] ، وَلِهَذَا حَكَىٰ غَيْرُ وَاحِدٍ الْإِجْمَاعَ عَلَىٰ أَنَّ المراد بهذه معية علمه تَعَالَىٰ، وَلَا شَكَّ فِي إِرَادَةِ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ سَمْعَهُ أَيْضًا مَعَ عِلْمِهِ مُحِيطٌ بِهِمْ وَبَصَرَهُ نافذ فيهم، فهو سبحانه وتعالىٰ مُطَّلِعٌ عَلَىٰ خَلْقِهِ لَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْ أمورهم شيء، ثم قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: افتتح الآية واختتمها بالعلم .

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ﴾ نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ وَالْمُنَافِقِينَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَنَاجَوْنَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَنْظُرُونَ إِلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَيَتَغَامَزُونَ بِأَعْيُنِهِمْ يُوهِمُونَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ يَتَنَاجَوْنَ فِيمَا يَسُوءُهُمْ، فَيَحْزَنُونَ لِذَلِكَ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَكَثُرَ شَكُوا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأمرهم ألا يَتَنَاجَوْا دُونَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمْ يَنْتَهُوا عَنْ ذَلِكَ

وَعَادُوا إِلَىٰ مُنَاجَاتِهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ﴾ أَيِ الْمُنَاجَاةِ ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أَيْ يَرْجِعُونَ إِلَىٰ الْمُنَاجَاةِ الَّتِي نهوا عنها ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أَيِ الْكَذِبِ وَالظُّلْمِ، ﴿وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ أَيْ مُخَالَفَتِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ قَدْ نَهَاهُمْ عَنِ النَّجْوَىٰ فَعَصَوْهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ﴾ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : لَا خِلَافَ بَيْنَ النَّقَلَةِ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا الْيَهُودُ، كَانُوا يَأْتُونَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ السَّامُ عَلَيْكَ، وَالسَّامُ الْمَوْتُ وَهُمْ يُوهِمُونَهُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ السَّلَامُ عَلَيْكَ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ فَيَقُولُ: «**عَلَيْكُمْ** » ، وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَهُودُ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: وَعَلَيْكُمُ السام، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ياعائشة إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ**»، قُلْتُ: أَلَا تَسْمَعُهُمْ يَقُولُونَ: السَّامُ عَلَيْكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **أَوَمَا سَمِعْتِ مَا أَقُولُ: وَعَلَيْكُمْ؟**»[(١)] ، فَإِذَا خَرَجُوا قَالُوا: ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ﴾ يُرِيدُونَ لَوْ كَانَ نَبِيًّا حَقًّا لَعَذَّبَنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ، وَقِيلَ: قَالُوا إِنَّهُ يَرُدُّ عَلَيْنَا وَيَقُولُ وَعَلَيْكُمُ السَّامُّ وَالسَّامُّ الْمَوْتُ، فَلَوْ كَانَ نَبِيًّا لَاسْتُجِيبَ لَهُ فِينَا وَمُتْنَا ،

---

(١) البخاري (٦٠٢٤) ومسلم (٢١٦٥) .

وَهَذَا مَوْضِعُ تَعَجُّبٍ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ، وَكَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ قَدْ يُغْضَبُونَ فَلَا يُعَاجَلُ من يغضبهم بالعذاب ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أَيْ كَافِيهِمْ جَهَنَّمُ عِقَابًا غَدًا ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي المرجع.

[٩] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ﴾ نَهَىٰ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَنَاجَوْا فِيمَا بَيْنَهُمْ كَفِعْلِ الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تناجَيْتُمْ﴾ أَيْ تَسَارَرْتُمْ، ﴿فَلا تَتَناجَوْا﴾ النَّجْوَىٰ مَصْدَرٌ، هِيَ الْمُسَارَّةُ فِي الْحَدِيثِ، وَهِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ النَّجْوِ، وَهُوَ الْمَكَانُ الْمُسْتَتِرُ الَّذِي الْمُفْضِي إِلَيْهِ يَنْجُو مِنْ طَالِبِهِ، وَيُطْلَقُ النَّجْوَىٰ عَلَىٰ الْمُنَاجِينَ، وَهَذَا تَأْدِيبٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، بِمُخَالَفَةِ طَرِيقَةِ الْكَفَرَةِ وَالْمُنَافِقِينَ، فَإِذَا تَنَاجَوْا فَلَا يَتَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ وَالْمُنَافِقِينَ فِي تَنَاجِيهِمْ بِالشَّرِّ، ﴿بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ أَيْ كَفِعْلِ الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ، وَالْإِثْمُ: الْمَعْصِيَةُ وَهُوَ مَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ تَنَاجِيهِمْ مِنْ كَلَامِ الْكُفْرِ وَذَمِّ الْمُسْلِمِينَ. والْعُدْوانِ بِضَمِّ الْعَيْنِ: الظُّلْمُ وَهُوَ مَا يُدَبِّرُونَهُ مِنَ الْكَيْدِ لِلْمُسْلِمِينَ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ أَرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿آمَنُوا﴾ الْمُنَافِقِينَ أَيْ آمَنُوا بِلِسَانِهِمْ ، قَالَ عَطَاءٌ: يريد الذي آمَنُوا بِزَعْمِهِمْ قَالَ لَهُمْ : ﴿لَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ : وَالْباء لِلْمُلَابَسَةِ، أَيْ يَتَنَاجَوْنَ مُلَابِسِينَ الْإِثْمَ وَالْعُدْوَانَ وَمَعْصِيَةَ الرَّسُولِ ، وَهَذِهِ الْمُلَابَسَةُ مُتَفَاوِتَةٌ ، فَمُلَابَسَةُ الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ مُلَابَسَةُ الْمُتَنَاجِي فِي شَأْنِهِ لِفِعْلِ الْمُنَاجِينَ، ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ أَيْ بِالطَّاعَةِ (وَالتَّقْوىٰ) بِالْعَفَافِ عَمَّا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ ، وَقِيلَ: الْخِطَابُ لِلْمُنَافِقِينَ، أَيْ يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا بِزَعْمِهِمْ ، وَقِيلَ: أَيْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِمُوسَىٰ ، والْبِرُّ ضِدُّ الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَهُوَ يَعُمُّ أَفْعَالَ الْخَيْرِ الْمَأْمُورِ بِهَا فِي الدِّينِ. ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أَيْ فَيُخْبِرُكُمْ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ وَأَقْوَالِكُمُ الَّتِي قَدْ أَحْصَاهَا عَلَيْكُمْ وَسَيَجْزِيكُمْ بِهَا.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ أَيْ مِنْ تَزْيِينِ الشَّيْطَانِ، ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيْ إِنَّمَا يُزَيِّنُ لَهُمْ ذَلِكَ ليحزن المؤمنين، ﴿وَلَيْسَ﴾ التناجي، ﴿بِضَارِّهِمْ شَيْئًا﴾ وَقِيلَ: لَيْسَ الشَّيْطَانُ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَىٰ اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ، وفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **إِذَا كَانَ ثَلَاثَةٌ فَلَا يَتَنَاجَىٰ اثْنَانِ دُونَ الْوَاحِدِ** »(١).

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا﴾ أَيْ تَوَسَّعُوا فِي الْمَجْلِسِ، مَعْنَاهُ لِيَتَفَسَّحْ كُلُّ رَجُلٍ فِي مَجْلِسِهِ، قَالَ قَتَادَةُ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي مَجَالِسِ الذِّكْرِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا رَأَوْا أَحَدَهُمْ مُقْبِلًا ضَنُّوا بِمَجَالِسِهِمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأمرهم الله تعالىٰ أَنْ يُفْسِحَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، ﴿فَافْسَحُوا﴾ وسعوا ، يقول فَسَحَ يَفْسَحُ فَسْحًا إِذَا وَسَّعَ فِي الْمَجْلِسِ، ﴿يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ﴾ يُوَسِّعُ اللهُ لَكُمُ الْجَنَّةَ، وَالْمَجَالِسَ فيها، ﴿وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا﴾ أَيِ ارْتَفِعُوا، قِيلَ: ارْتَفِعُوا عَنْ مَوَاضِعِكُمْ حَتَّىٰ تُوَسِّعُوا

---

(١) البخاري (٦٢٩٠) ومسلم (٢١٨٤) .

لِإِخْوَانِكُمْ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: مَعْنَاهُ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْهَضُوا إِلَىٰ الصَّلَاةِ وَإِلَىٰ الْجِهَادِ وَإِلَىٰ مَجَالِسِ كُلِّ خَيْرٍ وَحَقٍّ فَقُومُوا لَهَا وَلَا تُقَصِّرُوا، ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ بِطَاعَتِهِمْ لِرَسُولِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقِيَامِهِمْ مِنْ مَجَالِسِهِمْ وَتَوْسِعَتِهِمْ لِإِخْوَانِهِمْ، ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِفَضْلِ عِلْمِهِمْ وَسَابِقَتِهِمْ، ﴿دَرَجَاتٍ﴾ أَيْ فِي الثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ وَفِي الْكَرَامَةِ فِي الدُّنْيَا، فَيَرْفَعُ الْمُؤْمِنَ عَلَىٰ مَنْ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ وَالْعَالِمَ عَلَىٰ مَنْ لَيْسَ بِعَالِمٍ ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: قَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ هَذِهِ الْآيَةَ وَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ افهموا هذه الآية ولترغبنكم فِي الْعِلْمِ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ الْمُؤْمِنُ الْعَالِمُ فَوْقَ الَّذِي لَا يعلم درجات ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: خُيِّرَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْمَالِ وَالْمُلْكِ ، فَاخْتَارَ الْعِلْمَ ، فَأُعْطِيَ المال والملك معه ، ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، أَيْ خَبِيرٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ وَبِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ﴾ أمام مناجاتكم، ﴿صَدَقَةً﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَكْثَرُوا حَتَّىٰ شَقُّوا عَلَيْهِ، فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَلَىٰ نَبِيِّهِ وَيُثَبِّطَهُمْ وَيَرْدَعَهُمْ عَنْ ذَلِكَ فَأَمَرَهُمْ أَنْ يُقَدِّمُوا صَدَقَةً عَلَىٰ الْمُنَاجَاةِ مَعَ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ الْحَسَنُ: نَزَلَتْ بِسَبَبِ أَنَّ قَوْمًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا يَسْتَخْلُونَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُنَاجُونَهُ، فَظَنَّ بِهِمْ قَوْمٌ

مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُمْ يَنْتَقِصُونَهُمْ فِي النَّجْوَىٰ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فَأَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالصَّدَقَةِ عِنْدَ النَّجْوَىٰ لِيَقْطَعَهُمْ عَنِ اسْتِخْلَائِهِ ، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ يَعْنِي تَقْدِيمُ الصَّدَقَةِ عَلَىٰ الْمُنَاجَاةِ، عَنْ مُجَاهِدٍ: أَنَّ أَوَّلَ مَنْ تَصَدَّقَ فِي ذَلِكَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَنَاجَىٰ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَقَدْ كَانَتْ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ثَلَاثَةٌ لَوْ كَانَتْ لِي وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ: تَزْوِيجُهُ فَاطِمَةَ، وَإِعْطَاؤُهُ الرَّايَةَ يَوْمَ خَيْبَرَ، وَآيَةُ النَّجْوَىٰ ، ﴿وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يَعْنِي الْفُقَرَاءَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَتَصَدَّقُونَ بِهِ مَعْفُوٌّ عَنْهُمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَسَخَهَا اللهُ بِالْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا﴾ اسْتِفْهَامٌ مَعْنَاهُ التَّقْرِيرُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَبَخِلْتُمْ؟ وَقِيلَ: خِفْتُمْ، وَالْإِشْفَاقُ الْخَوْفُ مِنَ الْمَكْرُوهِ ، أَيْ خِفْتُمْ وَبَخِلْتُمْ بِالصَّدَقَةِ وَشَقَّ عَلَيْكُمْ ﴿بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا بَقِيَ إِلَّا سَاعَةٌ مِنَ النَّهَارِ حَتَّىٰ نُسِخَ ، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَقِبَ الَّتِي قَبْلَهَا: وَالْمَشْهُورُ عِنْدَ جَمْعٍ مِنْ سَلَفِ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّهَا نَزَلَتْ بَعْدَ عَشَرَةِ أَيَّامٍ مِنَ الَّتِي قَبْلَهَا. ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ، أَيْ نَسَخَ اللهُ ذَلِكَ الْحُكْمَ. وَهَذَا خِطَابٌ لِمَنْ وَجَدَ مَا يَتَصَدَّقُ بِهِ ﴿وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ تَجَاوَزَ عَنْكُمْ وَلَمْ يُعَاقِبْكُمْ بِتَرْكِ الصَّدَقَةِ، وَقِيلَ: الْوَاوُ صِلَةٌ مَجَازُهُ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا تَابَ اللهُ عليكم تجاوز عنكم وخفف عنكم، وَنَسَخَ الصَّدَقَةَ، ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ بِأَرْكَانِهَا وَشُرُوطِهَا، وَجَمِيعِ حُدُودِهَا وَلَوَازِمِهَا، ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ الْمَفْرُوضَةَ فِي أَمْوَالِكُمْ إِلَىٰ

مُسْتَحِقِّيهَا. وَهَاتَانِ الْعِبَادَتَانِ هُمَا أُمُّ الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ وَالْمَالِيَّةِ، فَمَنْ قَامَ بِهِمَا عَلَىٰ الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ، فَقَدْ قَامَ بِحُقُوقِ اللهِ وَحُقُوقِ عِبَادِهِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ وَهَذَا أَشْمَلُ مَا يَكُونُ مِنَ الْأَوَامِرِ: ﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فَيَعْلَمُ تَعَالَىٰ أَعْمَالَهُمْ، وَعَلَىٰ أَيِّ وَجْهٍ صَدَرَتْ، فَيُجَازِيهِمْ عَلَىٰ حَسَبِ عِلْمِهِ بِمَا فِي صُدُورِهِمْ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ تَوَلَّوُا الْيَهُودَ وَنَاصَحُوهُمْ وَنَقَلُوا أَسْرَارَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِمْ وَأَرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ الْيَهُودَ، ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ يَعْنِي الْمُنَافِقِينَ لَيْسُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدين والولاية وَلَا مِنَ الْيَهُودِ وَالْكَافِرِينَ، كَمَا قَالَ: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾ [النساء : ١٤٣] ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَىٰ الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ وَيَقُولُونَ وَاللهِ إِنَّا الْمُسْلِمُونَ لَا مُنَافِقُونَ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ مُنَافِقُونَ ، يَقُولُ: لَيْسَ الْمُنَافِقُونَ مِنَ الْيَهُودِ وَلَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَلْ هُمْ مُذَبْذَبُونَ بَيْنَ ذَلِكَ، وَكَانُوا يَحْمِلُونَ أَخْبَارَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِمْ ، قَالَ السُّدِّيُّ وَمُقَاتِلٌ: نَزَلَتْ فِي عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ نَبْتَلَ الْمُنَافِقَيْنِ، كَانَ أَحَدُهُمَا يُجَالِسُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ يَرْفَعُ حَدِيثَهُ إِلَىٰ الْيَهُودِ، فَبَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حُجْرَةٍ مِنْ حُجُرَاتِهِ إِذْ قَالَ: **يَدْخُلُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ قَلْبُهُ قَلْبُ جَبَّارٍ وَيَنْظُرُ بِعَيْنَيْ شَيْطَانٍ** ، فَدَخَلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ نَبْتَلَ- وَكَانَ أَزْرَقَ أَسْمَرَ قَصِيرًا خَفِيفَ اللِّحْيَةِ- فَقَالَ عَلَيْهِ

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **عَلَامَ تَشْتُمُنِي أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ** ؟! فَحَلَفَ بِاللهِ مَا فَعَلَ ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **فَعَلْتَ** ، فَانْطَلَقَ فَجَاءَ بِأَصْحَابِهِ ، فَحَلَفُوا بِاللهِ مَا سَبُّوهُ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ﴾ أَيْ لِهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ ﴿عَذاباً شَدِيداً﴾ فِي جَهَنَّمَ وَهُوَ الدَّرْكُ الْأَسْفَلُ ، ﴿إِنَّهُمْ ساءَ مَا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ بِئْسَ الْأَعْمَالُ أَعْمَالُهُمْ ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ: أَرْصَدَ اللهُ لَهُمْ عَلَىٰ هَذَا الصَّنِيعِ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ عَلَىٰ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ، وَهِيَ مُوَالَاةُ الْكَافِرِينَ وَنُصْحُهُمْ، وَمُعَادَاةُ الْمُؤْمِنِينَ وَغِشُّهُمْ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ﴾ أَيْ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ وَأَبْطَنُوا الْكُفْرَ وَاتَّقَوْا بالحلف الكاذب ، فَظَنَّ كَثِيرٌ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُ حَقِيقَةَ أَمْرِهِمْ صِدْقَهُمْ فَاغْتَرَّ بِهِمْ ﴿جُنَّةً﴾ الْجُنَّةُ: الْوِقَايَةُ وَالسُّتْرَةُ، مِنْ جَنَّ، إِذَا اسْتَتَرَ، أَيْ وِقَايَةٌ مِنْ شُعُورِ الْمُسْلِمِينَ بِهِمْ لِيَتَمَكَّنُوا مِنْ صَدِّ كَثِيرٍ مِمَّنْ يُرِيدُ الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ عَنِ الدُّخُولِ فِيهِ لِأَنَّهُمْ يَخْتَلِقُونَ أُكْذُوبَاتٍ يَنْسِبُونَهَا إِلَىٰ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِين ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ صَدُّوا الْمُؤْمِنِينَ عَنْ جِهَادِهِمْ بِالْقَتْلِ وَأَخْذِ أَمْوَالِهِمْ، وَقِيلَ: فِي قَتْلِهِمْ بِالْكُفْرِ لِمَا أَظْهَرُوهُ مِنَ النِّفَاقِ ، وَقِيلَ: أَيْ بِإِلْقَاءِ الْأَرَاجِيفِ وَتَثْبِيطِ المسلمين عن الجهاد وتخويفهم ، ﴿فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ أَيْ فِي مُقَابَلَةِ مَا امْتَهَنُوا مِنَ الْحَلِفِ بِاسْمِ اللهِ الْعَظِيمِ فِي الْأَيْمَانِ الْكَاذِبَةِ الْحَانِثَةِ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ فَلَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ شَيْئًا مِنَ الْعَذَابِ، وَلَا تُحَصِّلُ لَهُمْ قِسْطًا مِنَ الثَّوَابِ، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الْمُلَازِمُونَ لَهَا، الَّذِينَ لَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا، وَ ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وَمَنْ عَاشَ عَلَىٰ شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ ، قَالَ السَّعْدِيُّ: فَكَمَا أَنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدُّنْيَا يُمَوِّهُونَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَحْلِفُونَ لَهُمْ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَبَعَثَهُمُ اللهُ جَمِيعًا، حَلَفُوا لِلَّهِ كَمَا حَلَفُوا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَيَحْسَبُونَ فِي حَلْفِهِمْ هَذَا أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ، لِأَنَّ كُفْرَهُمْ وَنِفَاقَهُمْ وَعَقَائِدَهُمُ الْبَاطِلَةَ، لَمْ تَزَلْ تَرْسَخُ فِي أَذْهَانِهِمْ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّىٰ غَرَّتْهُمْ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ يُعْتَدُّ بِهِ، وَيُعَلَّقُ عَلَيْهِ الثَّوَابُ، وَهُمْ كَاذِبُونَ فِي ذَلِكَ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْكَذِبَ لَا يَرُوجُ عَلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ﴾ مَا كَانُوا مُشْرِكِينَ، ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَيْ يَحْلِفُونَ بِاللهِ عَزَّ وجلَّ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَىٰ الْهُدَىٰ وَالِاسْتِقَامَةِ كَمَا كَانُوا يَحْلِفُونَ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّ مَنْ عَاشَ عَلَىٰ شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ وَبُعِثَ عَلَيْهِ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ اللهِ كَمَا كَانَ يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ النَّاسِ فَيُجْرُونَ عَلَيْهِمُ الْأَحْكَامَ الظَّاهِرَةَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أَيْ حَلِفُهُمْ ذَلِكَ لِرَبِّهِمْ عَزَّ وجلَّ، ثُمَّ قَالَ تعالىٰ مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ حُسْبَانَهُمْ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ فأكد الخبر عنهم بالكذب.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ﴾ أَيْ غَلَبَ وَاسْتَعْلَىٰ، أَيْ بِوَسْوَسَتِهِ فِي الدُّنْيَا ، يُقَالُ: أَحْوَذَ الشَّيْءَ أَيْ جَمَعَهُ وَضَمَّ بَعْضَهُ إِلَىٰ بَعْضٍ، وَإِذَا جَمَعَهُمْ فقد غلبهم وقوىٰ عليهم وأحاط بهم ، ﴿فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ﴾ أَيْ أَوَامِرَهُ فِي الْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ ، وَقِيلَ: زَوَاجِرَهُ فِي النَّهْيِ عَنْ مَعْصِيَتِهِ ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَالنِّسْيَانُ قَدْ يَكُونُ بِمَعْنَىٰ الْغَفْلَةِ، وَيَكُونُ بِمَعْنَىٰ التَّرْكِ، وَالْوَجْهَانِ مُحْتَمَلَانِ هُنَا. أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ طَائِفَتُهُ وَرَهْطُهُ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ فِي بَيْعِهِمْ، لِأَنَّهُمْ بَاعُوا الْجَنَّةَ بِجَهَنَّمَ، وباعوا الهدىٰ بالضلالة.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ الْمُحَادَّةُ:أَنْ تَكُونَ فِي حَدٍّ يُخَالِفُ صَاحِبَكَ، وَأَصْلُهَا الْمُمَانَعَةُ، وَمِنْهُ الْحَدِيدُ، وَمِنْهُ الْحَدَّادُ لِلْبَوَّابِ ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ الْأَسْفَلِينَ أَيْ مِنْ جُمْلَةِ الْأَذِلَّاءِ لَا أَذَلَّ مِنْهُمْ .

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَتَبَ اللهُ﴾ قَضَىٰ اللهُ قضاءً ثَابِتًا، قَالَ قَتَادَةُ: كَتَبَ اللهُ كِتَابًا وَأَمْضَاهُ،﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قَالَ الزَّجَّاجُ: غَلَبَةُ الرُّسُلِ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ: مَنْ بُعِثَ مِنْهُمْ بِالْحَرْبِ فَهُوَ غَالِبٌ بِالْحَرْبِ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِالْحَرْبِ فَهُوَ غَالِبٌ بالحجة، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَيْ كَتَبَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ أَنَّهُ الْغَالِبُ لِأَعْدَائِهِ، وَهَذَا قَدْرٌ مُحْكَمٌ وَأَمْرٌ مُبْرَمٌ أَنَّ الْعَاقِبَةَ وَالنُّصْرَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الْمُحَادَّةُ : الْمُعَادَاةُ وَالْمُخَالَفَةُ فِي الْحُدُودِ، وَقِيلَ: ﴿يُحَادُّونَ اللهَ﴾ أَيْ أَوْلِيَاءَ اللهِ كَمَا فِي

الْخَبَرِ: ﴿مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ﴾ ، قَالَ قَتَادَةُ: أَيْ مَنْ عَادَىٰ اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: الْمُحَادَّةُ أَنْ تَكُونَ فِي حَدٍّ يُخَالِفُ حَدَّ صَاحِبِكَ. وَأَصْلُهَا الْمُمَانَعَةُ، كما تقدم ﴿يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَيْ يُحِبُّونَ وَيُوَالُونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ الْآيَةَ أَخْبَرَ أَنَّ إِيمَانَ الْمُؤْمِنِينَ يفسد بموادة الكفار وَأَنَّ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا لَا يوالي من كفر، إن كان من عشيرته، ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَآءَهُمْ﴾ وقيل : نَزَلَتْ فِي أَبِي عُبَيْدَةَ قَتَلَ أَبَاهُ يَوْمَ بَدْرٍ،﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ فِي الصِّدِّيقِ، همَّ يومئذٍ بِقَتْلِ ابْنِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾ فِي مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ قَتَلَ أَخَاهُ عُبَيْدَ بْنَ عُمَيْرٍ يومئذٍ، ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ فِي عُمَرَ قَتَلَ قَرِيبًا لَهُ يومئذٍ أَيْضًا، وَفِي حَمْزَةَ وَعَلِيٍّ وَعُبَيْدَةَ بن الحارث، قتلوا عتبة وشيبة والوليد ابن عتبة يومئذٍ، ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ أَثْبَتَ التَّصْدِيقَ فِي قُلُوبِهِمْ فَهِيَ مُوقِنَةٌ مُخْلِصَةٌ ، وَقِيلَ: حَكَمَ لَهُمْ بِالْإِيمَانِ فَذَكَرَ الْقُلُوبَ لِأَنَّهَا مَوْضِعَهُ، ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ قَوَّاهُمْ بِنَصْرٍ مِنْهُ، قَالَ الْحَسَنُ: سَمَّىٰ نَصْرَهُ إِيَّاهُمْ رُوحًا لِأَنَّ أَمْرَهُمْ يَحْيَا بِهِ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي بِالْإِيمَانِ، وَقَالَ الرَّبِيعُ: يَعْنِي بالقران وحججه، وَقِيلَ: بِرَحْمَةٍ مِنْهُ، وَقِيلَ: أَمَدَّهُمْ بِجِبْرِيلَ عليه السلام، ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ هَذَا سِرٌّ بَدِيعٌ، وَهُوَ أَنَّهُ لَمَّا سَخِطُوا عَلَىٰ الْقَرَائِبِ وَالْعَشَائِرِ فِي اللهِ عَوَّضَهُمُ اللهُ بِالرِّضَا عَنْهُمْ، وَأَرْضَاهُمْ عَنْهُ بِمَا أَعْطَاهُمْ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، وَالْفَوْزِ الْعَظِيمِ وَالْفَضْلِ

الْعَمِيمِ وَقَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ﴾. أَيْ: أُولَئِكَ الَّذِينَ هَذِهِ صِفَتُهُمْ جُنْدُ اللهِ وَأَوْلِيَاؤُهُ وَأَهْلُ كَرَامَتِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قَالَ النَّسَفِيُّ: الْبَاقُونَ فِي النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، الْفَائِزُونَ بِكُلِّ مَحْبُوبٍ، الْآمِنُونَ مِنْ كُلِّ مَرْهُوبٍ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُجَادِلَةِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

سُورَةُ الْحَشْرِ

اشْتُهِرَتْ تَسْمِيَةُ هَذِهِ السُّورَةُ «سُورَةُ الْحَشْرِ» ، وَبِهَذَا الِاسْمِ دَعَاهَا النبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ : قَالَ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **مَنْ قَالَ - حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - : أُعَوِّذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، وَقَرَأَ ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْحَشْرِ**»[1] ، وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ، نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْبَيِّنَةِ وَقَبْلَ سُورَةِ النَّصْرِ، وَكَانَ نُزُولُهَا عَقِبَ إِخْرَاجِ بَنِي النَّضِيرِ مِنْ بِلَادِهِمْ سَنَةَ أَرْبَعٍ مِنَ الْهِجْرَةِ ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: سُورَةُ الْحَشْرِ؟ قَالَ: قُلْ سُورَةُ النَّضِيرِ، وَهُمْ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ مِنْ ذُرِّيَّةِ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، نَزَلُوا الْمَدِينَةَ فِي فِتَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ انْتِظَارًا لِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا نَصَّ اللهُ عَلَيْهِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ يُسَبِّحُ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَيْ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ، وَإِن مِّن

---

(١) أحمد (٢٠٣٠٦) والترمذي (٢٩٢٢) .

شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أَيِ الَّذِي قَدْ خَضَعَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ وَشَرْعِهِ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يَعْنِي اليهود من بَنِي النَّضِيرِ، ﴿مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ الَّتِي كَانَتْ بِيَثْرِبَ، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: كَانَ إِجْلَاءُ بَنِي النَّضِيرِ بَعْدَ مَرْجِعِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أُحُدٍ، وَفَتْحَ قُرَيْظَةَ عِنْدَ مَرْجِعِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ وبينهما سنتان، ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ قَالَ الزُّهْرِيُّ: كَانُوا مِنْ سِبْطٍ لَمْ يُصِبْهُمْ جَلَاءٌ فِيمَا مَضَىٰ (السِّبْطُ هو ولد البنت، ذكراً كان أو أنثىٰ)، وَكَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ شَكَّ أَنَّ الحشر بِالشَّامِ، فَلْيَقْرَأْ هَذِهِ الْآيَةَ، فَكَانَ هَذَا أَوَّلُ حَشْرٍ إِلَىٰ الشَّامِ، قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **اخْرُجُوا**، قَالُوا: إِلَىٰ أَيْنَ؟ قَالَ: **إِلَىٰ أَرْضِ الْمَحْشَرِ**، ثُمَّ يُحْشَرُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَىٰ الشَّامِ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: إِنَّمَا قَالَ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أول مع أُجْلِيَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ جريرة الْعَرَبِ، ثُمَّ أَجْلَىٰ آخِرَهُمْ عُمَرُ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ مُرَّةُ الْهَمْدَانِيُّ: كَانَ أَوَّلُ الْحَشْرِ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَالْحَشْرُ الثَّانِي مِنْ خَيْبَرَ وَجَمِيعِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ إِلَىٰ أَذْرِعَاتٍ وَأَرِيحَاءَ مِنَ الشَّامِ فِي أَيَّامِ عُمَرَ رضي الله عنه، وَالْحَشْرُ: جَمْعُ نَاسٍ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٦]، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا: حَشْرُ يَهُودِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ إِلَىٰ أَرْضٍ غَيْرِهَا، أَيْ جَمْعُهُمْ لِلْخُرُوجِ، وَهُوَ بِهَذَا الْمَعْنَىٰ يُرَادِفُ الْجَلَاءَ إِذَا كَانَ الْجَلَاءُ لِجَمَاعَةٍ عَظِيمَةٍ تُجْمَعُ مِنْ مُتَفَرِّقٍ

دِيَارِ الْبِلَادِ، ﴿مَا ظَنَنْتُمْ﴾ أيها المؤمنون، ﴿أَنْ يَخْرُجُوا﴾ مِنَ الْمَدِينَةِ لِعِزَّتِهِمْ وَمَنَعَتِهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ حُصُونٍ وَعَقَارٍ وَنَخِيلٍ كَثِيرَةٍ، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ﴾ أَيْ وَظَنَّ بَنُو النَّضِيرِ أَنَّ حُصُونَهُمْ تَمْنَعُهُمْ مِنْ سُلْطَانِ اللهِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَكَانُوا أَهْلَ حَلْقَةٍ- أَيْ سِلَاحٍ كَثِيرٍ- وَحُصُونٍ مَنِيعَةٍ، فَلَمْ يمنعهم شي مِنْهَا، ﴿فَأَتَاهُمُ اللهُ﴾ أَيْ أَمْرُ اللهِ وَعَذَابُهُ، ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ أَيْ لَمْ يَظُنُّوا، وَقِيلَ: مِنْ حَيْثُ لَمْ يَعْلَمُوا، وهو أَنَّهُ أَمَرَ نَبِيَّهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقِتَالِهِمْ وَإِجْلَائِهِمْ وَكَانُوا لَا يَظُنُّونَ ذَلِكَ، ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ بِقَتْلِ سَيِّدِهِمْ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، وَكَيْفَ لَا يحصِّلُ لَهُمْ ذَلِكَ، وَقَدْ حَاصَرَهُمُ الَّذِي نُصِرَ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ الْإِخْرَابُ وَالتَّخْرِيبُ: إِسْقَاطُ الْبِنَاءِ وَنَقْضُهُ، وَالْخَرَابُ: تَهَدُّمُ الْبِنَاءِ، قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا صَالَحَهُمْ عَلَىٰ أَنَّ لَهُمْ مَا أَقَلَّتِ الْإِبِلُ كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الْخَشَبِ فِي مَنَازِلِهِمْ فَيَهْدِمُونَهَا وَيَنْزِعُونَ مِنْهَا مَا يَسْتَحْسِنُونَهُ فَيَحْمِلُونَهُ عَلَىٰ إِبِلِهِمْ، وَيُخَرِّبُ الْمُؤْمِنُونَ بَاقِيَهَا، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: كَانُوا يَقْلَعُونَ الْعُمُدَ وَيَنْقُضُونَ السُّقُوفَ وَيَنْقُبُونَ الْجُدْرَانَ وَيَقْلَعُونَ الْخَشَبَ حَتَّىٰ الْأَوْتَادَ يُخَرِّبُونَهَا لِئَلَّا يَسْكُنَهَا الْمُؤْمِنُونَ حَسَدًا مِنْهُمْ وَبُغْضًا، قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ الْمُسْلِمُونَ يُخَرِّبُونَ مَا يَلِيهِمْ مِنْ ظَاهِرِهَا وَيُخَرِّبُهَا الْيَهُودُ مِنْ دَاخِلِهَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: كُلَّمَا ظَهَرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ دَارٍ مِنْ دُورِهِمْ هَدَمُوهَا لِتَتَّسِعَ لَهُمُ الْمَقَاتِلُ، وَجَعَلَ أَعْدَاءُ اللهِ يَنْقُبُونَ دَوْرَهُمْ فِي

أَدْبَارِهَا فَيَخْرُجُونَ إِلَىٰ الَّتِي بَعْدَهَا فَيَتَحَصَّنُونَ فِيهَا وَيَكْسِرُونَ مَا يَلِيهِمْ وَيَرْمُونَ بِالَّتِي خَرَجُوا مِنْهَا أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذلك قوله عز وجل: ﴿فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ﴾ أَيِ اتَّعِظُوا يَا أَصْحَابَ الْعُقُولِ وَالْأَلْبَابِ، وَقِيلَ: يَا مَنْ عَايَنَ ذَلِكَ بِبَصَرِهِ، فَهُوَ جَمْعٌ لِلْبَصَرِ، وَمِنْ جُمْلَةِ الِاعْتِبَارِ هُنَا أَنَّهُمُ اعْتَصَمُوا بِالْحُصُونِ مِنَ اللهِ فَأَنْزَلَهُمُ اللهُ مِنْهَا، وَمِنْ وُجُوهِهِ: أَنَّهُ سَلَّطَ عَلَيْهِمْ مَنْ كَانَ يَنْصُرُهُمْ، وَمِنْ وُجُوهِهِ أَيْضًا: أَنَّهُمْ هَدَمُوا أَمْوَالَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ، وَمَنْ لَمْ يَعْتَبِرْ بِغَيْرِهِ اعْتُبِرَ فِي نَفْسِهِ، وَفِي الْأَمْثَالِ الصَّحِيحَةِ: السَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ﴾ أَيْ لَوْلَا أَنَّهُ قَضَىٰ أَنَّهُ سَيُجْلِيهِمْ عَنْ دَارِهِمْ وَأَنَّهُمْ يَبْقَوْنَ مُدَّةً فَيُؤْمِنُ بَعْضُهُمْ وَيُولَدُ لَهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ. ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا﴾ أَيْ بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ كَمَا فَعَلَ بِبَنِي قُرَيْظَةَ. وَالْجَلَاءُ مُفَارَقَةُ الْوَطَنِ، قَالَ الْبُخَارِيُّ: الْجَلَاءُ الْإِخْرَاجُ مِنْ أَرْضٍ إِلَىٰ أَرْضٍ، قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ: وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْجَلَاءِ وَالْإِخْرَاجِ وَإِنْ كَانَ مَعْنَاهُمَا فِي الْإِبْعَادِ وَاحِدًا مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْجَلَاءَ مَا كَانَ مَعَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ، وَالْإِخْرَاجُ قد يكون مع بقاء الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ.

الثَّانِي: أَنَّ الْجَلَاءَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِجَمَاعَةٍ، وَالْإِخْرَاجَ يَكُونُ لِوَاحِدٍ وَلِجَمَاعَةٍ.

﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ كَمَا فَعَلَ بِبَنِي قُرَيْظَةَ، ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ أَيْ حَتْمٌ لازم لا بد منه.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك الجلاء ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ﴾ أَيْ عَادُوهُ وَخَالَفُوا أَمْرَهُ، وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿ذَلِكَ﴾ أَيِ الْجَلَاءُ وَالْعَذَابُ ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا﴾ أَيْ خَالَفُوا ﴿اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَيْ فِيمَا نَهَاهُمْ عَنْهُ مِنَ الْفَسَادِ، وَنَقْضِ الْمِيثَاقِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أَيْ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ﴾ الْآيَةَ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا نَزَلَ بِبَنِي النَّضِيرِ وَتَحَصَّنُوا بِحُصُونِهِمْ أمر بقطع نخليهم وَإِحْرَاقِهَا، فَجَزِعَ أَعْدَاءُ اللهِ عِنْدَ ذَلِكَ وَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ زَعَمْتَ أَنَّكَ تُرِيدُ الصَّلَاحَ أَفَمِنَ الصَّلَاحِ عَقْرُ الشَّجَرِ وَقَطْعُ النَّخِيلِ؟ فَهَلْ وَجَدْتَ فِيمَا زَعَمْتَ أَنَّهُ أُنْزِلَ عَلَيْكَ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ، فَوَجَدَ الْمُسْلِمُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ قَوْلِهِمْ وَخَشُوا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فَسَادًا، وَاخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا تَقْطَعُوا فَإِنَّهُ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نَغِيظُهُمْ بِقَطْعِهَا، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ، بِتَصْدِيقِ مَنْ نَهَىٰ عَنْ قَطْعِهِ وَتَحْلِيلِ مَنْ قَطَعَهُ مِنَ الإِثم، أَخْبَرَ اللهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أن ما قطعتموه وما تركوه فبإذن الله، ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ اخْتَلَفُوا فِي اللِّينَةِ، فَقَالَ قَوْمٌ: النَّخْلُ كُلُّهَا لِينَةٌ مَا خَلَا العجوة، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطِيَّةُ: هِيَ النَّخْلُ كُلُّهَا مِنْ غَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ، وَقَالَ سُفْيَانُ: هِيَ كِرَامُ النَّخْلِ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: هِيَ ضَرْبٌ مِنَ النَّخْلِ يُقَالُ لِثَمَرِهَا اللَّوْنُ، وَهُوَ شَدِيدُ الصُّفْرَةِ يُرَىٰ نَوَاهُ مِنْ خَارِجٍ يَغِيبُ فِيهَا الضِّرْسُ، وَكَانَ مِنْ أَجْوَدِ تَمْرِهِمْ وَأَعْجَبِهَا إِلَيْهِمْ،

وَكَانَتِ النَّخْلَةُ الْوَاحِدَةُ مِنْهَا ثَمَنُهَا ثَمَنُ وَصِيفٍ، وَأَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ وَصِيفٍ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ يَقْطَعُونَهَا شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا لِلْمُؤْمِنِينَ: إِنَّكُمْ تَكْرَهُونَ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ وَأَنْتُمْ تُفْسِدُونَ، دَعُوا هَذَا النَّخْلَ قَائِمًا هُوَ لمن غلب عليه، فَأَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّ ذَلِكَ بِإِذْنِهِ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ أَيْ: رَدَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ، يُقَالُ: فاء يفيء أي رجع وفاءها الله، ﴿مِنْهُمْ﴾ أَيْ مِنْ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ، ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ﴾ أَوْضَعْتُمْ، ﴿عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يُقَالُ: وَجَفَ الْفَرَسُ وَالْبَعِيرُ يَجِفُ وَجِيفًا وَهُوَ سُرْعَةُ السَّيْرِ، وَأَوْجَفَهُ صَاحِبُهُ إِذَا حَمَلَهُ عَلَىٰ السَّيْرِ، وَأَرَادَ بِالرِّكَابِ الْإِبِلَ الَّتِي تَحْمِلُ الْقَوْمَ ، وَذَلِكَ أَنَّ بَنِي النَّضِيرِ لَمَّا تَرَكُوا رِبَاعَهُمْ وَضِيَاعَهَمْ طَلَبَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقْسِمَهَا بَيْنَهُمْ، كَمَا فَعَلَ بِغَنَائِمِ خَيْبَرَ، فَبَيَّنَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهَا فَيْءٌ لَمْ يُوجِفِ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهَا خَيْلًا وَلَا رِكَابًا وَلَمْ يَقْطَعُوا إِلَيْهَا شُقَّةً وَلَا نَالُوا مَشَقَّةً وَلَمْ يَلْقَوْا حَرْبًا ، ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فَجَعَلَ أَمْوَالَ بَنِي النَّضِيرِ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةً يَضَعُهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، فَقَسَمَهَا رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَلَمْ يُعْطِ الْأَنْصَارَ مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا ثَلَاثَةَ نَفَرٍ كَانَتْ بِهِمْ حَاجَةٌ ، وَهُمْ أَبُو دُجَانَةَ سِمَاكُ بْنُ خَرَشَةَ وَسَهْلُ بْنُ حَنِيفٍ وَالْحَارِثُ ابْنُ الصمة.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ يَعْنِي مِنْ أَمْوَالِ كُفَّارِ أَهْلِ الْقُرَىٰ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ قُرَيْظَةُ وَالنَّضِيرُ وَفَدَكُ وَخَيْبَرُ وَقُرَىٰ عُرَيْنَةَ: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ حُكْمَ الْغَنِيمَةِ وَحُكْمَ الْفَيْءِ: إِنَّ مَالَ الْفَيْءِ كَانَ لِرَسُولِ اللهِ فِي حَيَاتِهِ يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ وَكَانَ يُنْفِقُ مِنْهُ عَلَىٰ أَهْلِهِ نَفَقَةَ سَنَتِهِمْ وَيَجْعَلُ مَا بَقِيَ مجعل مال الله ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً﴾ الدُّولَةُ بِضَمِّ الدَّالِ: مَا يَتَدَاوَلُهُ الْمُتَدَاوِلُونَ ، وَالتَّدَاوُلُ: التَّعَاقُبُ فِي التَّصَرُّفِ فِي شَيْءٍ، وَخَصَّهَا الِاسْتِعْمَالُ بِتَدَاوُلِ الْأَمْوَالِ ، وَالدَّوْلَةُ بِفَتْحِ الدَّالِ: النَّوْبَةُ فِي الْغَلَبَةِ وَالْمِلْكُ، وَلِذَلِكَ أَجْمَعَ الْقُرَّاءُ الْمَشْهُورُونَ عَلَىٰ قِرَاءَتِهَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِضَمِّ الدَّالِ، أَيْ لِكَيْلَا يَكُونَ الْفَيْءُ دُولَةً، أَيْ كَيْلَا يَكُونَ الْأَمْرُ إِلَىٰ دُولَةٍ، وَجَعَلَ الْكَيْنُونَةَ بِمَعْنَىٰ الْوُقُوعِ وَحِينَئِذٍ لَا خَبَرَ لَهُ وَالدُّولَةُ اسْمٌ لِلشَّيْءِ الَّذِي يَتَدَاوَلُهُ الْقَوْمُ بَيْنَهُمْ ﴿بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ يَعْنِي بَيْنَ الرُّؤَسَاءِ وَالْأَقْوِيَاءِ مَعْنَاهُ كَيْلَا يَكُونَ الْفَيْءُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ وَالْأَقْوِيَاءِ فَيَغْلِبُوا عَلَيْهِ الْفُقَرَاءَ وَالضُّعَفَاءَ، وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا إِذَا اغْتَنَمُوا غَنِيمَةً أَخَذَ الرَّئِيسُ رُبُعَهَا لِنَفْسِهِ، وَهُوَ الْمِرْبَاعُ ، ثُمَّ يَصْطَفِي مِنْهَا بَعْدَ الْمِرْبَاعِ مَا شَاءَ، فَجَعَلَهُ اللهُ لِرَسُولِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْسِمُهُ فِيمَا أُمِرَ بِهِ، ثُمَّ قَالَ ﴿وَمَا آتَاكُمُ﴾ أعطاكم، ﴿الرَّسُولُ﴾ مِنَ الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ، ﴿فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ﴾ من الغلول وغيره، ﴿فَانْتَهُوا﴾ وَهَذَا نَازِلٌ فِي أَمْوَالِ الْفَيْءِ، وَهُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ مَا أَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونهىٰ عَنْهُ، أَيْ مَهْمَا أَمَرَكُمْ بِهِ فَافْعَلُوهُ، وَمَهْمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ

فَاجْتَنِبُوهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَأْمُرُ بِخَيْرٍ، وإنما ينهىٰ عن شر. عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَىٰ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَتْ: بَلَغَنِي أَنَّكَ تَنْهَىٰ عَنِ الْوَاشِمَةِ والواصلة أَشيء وجدته في كتاب الله تعالىٰ أَوْ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: بَلَىٰ شَيْءٌ وَجَدْتُهُ فِي كِتَابِ اللهِ وَعَنْ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتِ: وَاللهِ لَقَدْ تَصَفَّحْتُ مَا بَيْنَ دَفَّتَيِ الْمُصْحَفِ، فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ الَّذِي تَقُولُ، قَالَ: فَمَا وجدتِ فِيهِ: ﴿وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾؟ قَالَتْ بَلَىٰ، قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْهَىٰ عَنِ الْوَاصِلَةِ وَالْوَاشِمَةِ وَالنَّامِصَةِ، قَالَتْ: فَلَعَلَّهُ فِي بَعْضِ أَهْلِكَ، قَالَ: فَادْخُلِي فَانْظُرِي، فَدَخَلَتْ فَنَظَرَتْ، ثُمَّ خَرَجَتْ، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ بَأْسًا، فَقَالَ لَهَا: أَمَا حَفِظْتِ وَصِيَّةَ الْعَبْدِ الصَّالِحِ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إل مَآ أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود : ٨٨]، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ اتَّقُوهُ فِي امْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ، فَإِنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِمَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ وَأَبَاهُ، وَارْتَكَبَ مَا عَنْهُ زَجَرَهُ وَنَهَاهُ، ثُمَّ بَيَّنَ مَنْ لَهُ الْحَقُّ فِي الْفَيْءِ فَقَالَ:

[٨] : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ بَيَانٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ لِحَالِ الْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الْمُسْتَحِقِّينَ لِلْفَيْءِ، ومعْنَىٰ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ أَيْ أَخْرَجَهُمْ كُفَّارُ مَكَّةَ، أَيْ أَحْوَجُوهُمْ إِلَىٰ الْخُرُوجِ، وَكَانُوا مِائَةَ رَجُلٍ، ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يَطْلُبُونَ، ﴿فَضْلًا مِنَ اللهِ﴾ أَيْ غَنِيمَةً فِي الدُّنْيَا ﴿وَرِضْوانًا﴾ فِي الْآخِرَةِ، أَيْ مَرْضَاةَ رَبِّهِمْ، ﴿وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ فِي

إِيمَانِهِمْ﴾، قَالَ قَتَادَةُ: هَؤُلَاءِ الْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ تَرَكُوا الدِّيَارَ وَالْأَمْوَالَ وَالْعَشَائِرَ وَخَرَجُوا حُبًّا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَاخْتَارُوا الْإِسْلَامَ عَلَىٰ مَا كَانُوا فيه من شدة، وَرُوِيَ أَنَّ عُمَرَ ابْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خَطَبَ بِالْجَابِيَةِ، فَقَالَ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الْقُرْآنِ فَلْيَأْتِ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الْفَرَائِضِ فَلْيَأْتِ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الْفِقْهِ فَلْيَأْتِ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الْمَالِ فَلْيَأْتِنِي، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ جَعَلَنِي لَهُ خَازِنًا وَقَاسِمًا، أَلَا وَإِنِّي بَادٍ بِأَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمُعْطِيهِنَّ، ثُمَّ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، أَنَا وَأَصْحَابِي أُخْرِجْنَا مِنْ مكة من ديارنا وأموالنا.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ وهم الْأَنْصَارُ تَبَوَّءُوا الدَّارَ تُوَطَّنُوا الدَّارَ، أَيْ الْمَدِينَةَ اتَّخَذُوهَا دَارَ الْهِجْرَةِ والإيمان، ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَيْ أَسْلَمُوا فِي دِيَارِهِمْ وَآثَرُوا الْإِيمَانَ وَابْتَنَوْا الْمَسَاجِدَ قَبْلَ قُدُومِ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَنَتَيْنِ، وَنَظْمُ الْآيَةِ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَيْ مِنْ قَبْلِ قُدُومِ الْمُهَاجِرِينَ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ آمَنُوا لِأَنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ بِمَكَانٍ تبوأ، ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ حَزَازَةً وَغَيْظًا وَحَسَدًا، ﴿مِمَّا أُوتُوا﴾ أَيْ مِمَّا أَعْطَىٰ الْمُهَاجِرِينَ دُونَهُمْ مِنَ الْفَيْءِ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَسَّمَ أَمْوَالَ بَنِي النَّضِيرِ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَلَمْ يُعْطِ مِنْهَا الْأَنْصَارَ فَطَابَتْ أَنْفُسُ الْأَنْصَارِ بِذَلِكَ، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ أَيْ يُؤْثِرُونَ عَلَىٰ إِخْوَانِهِمْ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ

خَصَاصَةٌ﴾ فَاقَةٌ وَحَاجَةٌ إِلَىٰ مَا يُؤْثِرُونَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَاسَمُوا دِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الشح فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْبُخْلُ وَمَنْعُ الْفَضْلِ، وَفَرَّقَ الْعُلَمَاءُ بَيْنَ الشُّحِّ والبخل ، قال ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما : لَيْسَ الشُّحُّ أَنْ يَمْنَعَ الرَّجُلَ مَالَهُ ، إِنَّمَا الشُّحُّ أَنْ تَطْمَحَ عَيْنُ الرَّجُلِ إِلَىٰ مَا لَيْسَ لَهُ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الشُّحُّ هُوَ أَخْذُ الْحَرَامِ وَمَنْعُ الزَّكَاةِ ، وَقِيلَ: الشُّحُّ هُوَ الْحِرْصُ الشَّدِيدُ الَّذِي يَحْمِلُهُ علىٰ ارتكاب المحارم.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يَعْنِي التَّابِعِينَ وَهُمَ الَّذِينَ يَجِيئُونَ بَعْدَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ ابْنُ أَبِي ليلىٰ: الناس ثَلَاثَةِ مَنَازِلَ: الْمُهَاجِرُونَ، وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ، وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ، فَاجْهَدْ أَلَّا تَخْرُجَ مِنْ هَذِهِ الْمَنَازِلِ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُمْ يَدْعُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِمَنْ سَبَقَهُمْ بِالْإِيمَانِ وَالْمَغْفِرَةِ، فَقَالَ: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ غَشًا وَحَسَدًا وَبُغْضًا، ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فكل مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ غِلٌّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَلَمْ يَتَرَحَّمْ عَلَىٰ جَمِيعِهِمْ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِمَّنْ عَنَاهُ اللهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ رَتَّبَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ مَنَازِلَ، الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ والتابعين الموصوفين بما ذكر، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ التَّابِعِينَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ كَانَ خَارِجًا مِنْ أَقْسَامِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ ابْنُ أَبِي لَيْلَىٰ النَّاسُ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ مَنَازِلَ: الْمُهَاجِرِينَ، وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ، وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ، فَاجْتَهِدْ أَنْ لَا تَكُونَ خَارِجًا مِنْ هذه

المنازل، وعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: أُمِرْتُم بِالِاسْتِغْفَارِ لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَبَبْتُمُوهُمْ! سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**لَا تَذْهَبُ هَذِهِ الْأُمَّةُ حَتَّىٰ يَلْعَنَ آخِرُهَا أَوَّلَهَا**»(١) ، قَالَ الْعَوَّامُ بْنُ حَوْشَبٍ: أَدْرَكْتُ صَدْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَقُولُونَ: اذْكُرُوا مَحَاسِنَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّىٰ تَأْلَفَ عَلَيْهِمُ الْقُلُوبُ، وَلَا تَذْكُرُوا مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ فَتُجَسِّرُوا النَّاسَ عَلَيْهِمْ.

وَعَنْ مَالِكِ بْنِ مِغْوَلٍ قَالَ: قَالَ الشَّعْبِيُّ: يَا مَالِكُ تَفَاضَلَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ عَلَىٰ الرَّافِضَةِ بِخَصْلَةٍ، سُئِلَتِ الْيَهُودُ مَنْ خَيْرُ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ فَقَالَتْ: أَصْحَابُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَسُئِلَتِ النَّصَارَىٰ مَنْ خَيْرُ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ فَقَالُوا: حَوَارِيُّ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَسُئِلَتِ الرَّافِضَةُ مَنْ شَرُّ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ فَقَالُوا: أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! أُمِرُوا بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ فَسَبُّوهُمْ، فَالسَّيْفُ عَلَيْهِمْ مَسْلُولٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا تَقُومُ لَهُمْ رَايَةٌ وَلَا يَثْبُتُ لَهُمْ قَدَمٌ، وَلَا تَجْتَمِعُ لَهُمْ كَلِمَةٌ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ بِسَفْكِ دِمَائِهِمْ وَتَفْرِيقِ شَمْلِهِمْ، وَإِدْحَاضِ حُجَّتِهِمْ، أَعَاذَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْأَهْوَاءِ الْمُضِلَّةِ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : هَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَىٰ وُجُوبِ مَحَبَّةِ الصَّحَابَةِ، لِأَنَّهُ جَعَلَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ حَظًّا فِي الْفَيْءِ مَا أَقَامُوا عَلَىٰ مَحَبَّتِهِمْ وَمُوَالَاتِهِمْ وَالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ، وَأَنَّ مَنْ سَبَّهُمْ أَوْ وَاحِدًا

---

(١) ابن أبي شيبة (٣٧٥٩٣) .

مِنْهُمْ أَوِ اعْتَقَدَ فِيهِ شَرًّا أَنَّهُ لَا حَقَّ لَهُ فِي الْفَيْءِ، رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ مَالِكٍ وَغَيْرِهِ. قَالَ مَالِكٌ: مَنْ كَانَ يُبْغِضُ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ كَانَ فِي قَلْبِهِ عَلَيْهِمْ غِلٌّ، فليس له حق في في المسلمين، ثم قرأ وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ الْآيَةَ.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ محمد بن عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، رَوَىٰ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ جَاءُوا إِلَيْهِ، فَسَبُّوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ثُمَّ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَأَكْثَرُوا، فَقَالَ لَهُمْ: أَمِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ أَنْتُمْ؟ قَالُوا لَا، فَقَالَ: أَفَمِنَ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ والايمان من قَبْلِهِمْ؟ فَقَالُوا لَا ، فَقَالَ: قَدْ تَبَرَّأْتُمْ مِنْ هَذَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ! أَنَا أَشْهَدُ أَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ قُومُوا، فَعَلَ اللهُ بِكُمْ وَفَعَلَ!! .

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ أَيْ أَظْهَرُوا خِلَافَ مَا أَضْمَرُوا يَعْنِي عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ ابْنَ سَلُولَ وَأَصْحَابَهُ، تَعَجُّبٌ مِنَ اغْتِرَارِ الْيَهُودِ بِمَا وَعَدَهُمُ الْمُنَافِقُونَ مِنَ النَّصْرِ مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ دِينًا وَلَا كِتَابًا ، ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهم الْيَهُودِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ جَعْلَ الْمُنَافِقِينَ إِخْوَانَهُمْ فِي الدِّينِ ؛ لِأَنَّهُمْ كُفَّارٌ مِثْلَهُمْ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ مِنَ الْمَدِينَةِ، ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ أَيْ يَقُولُونَ لَهُمْ: لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَمَنَازِلِكُمْ، وَأُجْلِيتُمْ عَنْهَا لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ، فَنَجْلِي عَنْ مَنَازِلِنَا وَدِيَارِنَا مَعَكُمْ ، ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا﴾ يَعْنُونَ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَا نُطِيعُهُ فِي قِتَالِكُمْ ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ صِحَّةِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ جِهَةِ عِلْمِ الْغَيْبِ، لِأَنَّهُمْ أُخْرِجُوا فَلَمْ يَخْرُجُوا، وَقُوتِلُوا فَلَمْ يَنْصُرُوهُمْ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أَيْ فِي قَوْلِهِمْ وَفِعْلِهِمْ، قَالَ السَّعْدِيُّ : وَلَا يُسْتَكْثَرُ هَذَا عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ الْكَذِبَ وَصْفُهُمْ، وَالْغُرُورَ وَالْخِدَاعَ مُقَارِنُهُمْ، وَالنِّفَاقَ وَالْجُبْنَ يَصْحَبُهُمْ، وَلِهَذَا كَذَّبَهُمُ اللهُ بِقَوْلِهِ، الَّذِي وُجِدَ مُخْبَرُهُ كَمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ، وَوَقَعَ طِبْقَ مَا قَالَ، فَقَالَ ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا﴾ مِنْ دِيَارِهِمْ جَلَاءً وَنَفْيًا ﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ لِمَحَبَّتِهِمْ لِلْأَوْطَانِ، وَعَدَمِ صَبْرِهِمْ عَلَىٰ الْقِتَالِ، وَعَدَمِ وَفَائِهِمْ بِوَعْدِهِمْ: ﴿وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾ وَكَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَإِنَّهُمْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ جلاء ونفيا ، فَلَمْ يَخْرُجِ الْمُنَافِقُونَ مَعَهُمْ، وَقُوتِلُوا فَلَمْ يَنْصُرُوهُمْ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾ أَيْ مُنْهَزِمِينَ، ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ قِيلَ: مَعْنَىٰ لَا يَنْصُرُونَهُمْ طَائِعِينَ. وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ مُكْرَهِينَ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ، وَقِيلَ: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ﴾ أَيْ عَلِمَ اللهُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَخْرُجُونَ إِنْ أُخْرِجُوا ، وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ أَيْ عَلِمَ اللهُ مِنْهُمْ ذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ: لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ فَأَخْبَرَ عَمَّا قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ لَوْ كَانَ؟ وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِما

نُهُوا﴾ الأنعام : ٢٨] قَالَ الزَّجَّاجُ: مَعْنَاهُ لَوْ قَصَدُوا نَصْرَ الْيَهُودِ لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ مُنْهَزِمِينَ، ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ يَعْنِي بَنِي النَّضِيرِ لَا يَصِيرُونَ مَنْصُورِينَ إِذَا انْهَزَمَ نَاصِرُهُمْ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَأَنْتُمْ﴾ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ﴾ أَيْ يَخَافُونَ مِنْكُمْ أَكْثَرَ مِنْ خَوْفِهِمْ مِنَ اللهِ، ﴿ذَلِكَ﴾ أَيْ ذَلِكَ الْخَوْفُ مِنْكُمْ، وَقَدَّمُوا مَخَافَةَ الْمَخْلُوقِ الَّذِي لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ وَلَا لِغَيْرِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، عَلَىٰ مَخَافَةِ الْخَالِقِ، الَّذِي بِيَدِهِ الضُّرُّ وَالنَّفْعُ، وَالْعَطَاءُ وَالْمَنْعُ ، ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أَيْ لَا يَفْقَهُونَ قَدْرَ عَظَمَةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ، وَلَا يَعْرِفُونَ حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ، وَلَا يَتَصَوَّرُونَ الْعَوَاقِبَ، وَإِنَّمَا الْفِقْهُ كُلُّ الْفِقْهِ، أَنْ يَكُونَ خَوْفُ الْخَالِقِ وَرَجَاؤُهُ وَمَحَبَّتُهُ مُقَدَّمَةً عَلَىٰ غَيْرِهَا، وَغَيْرُهَا تَبَعًا لَهَا.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ يَعْنِي الْيَهُودَ، ﴿جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ﴾ أَيْ لَا يَبْرُزُونَ لِقِتَالِكُمْ إِنَّمَا يُقَاتِلُونَكُمْ مُتَحَصِّنِينَ بِالْقُرَىٰ وَالْجُدْرَانِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ أَيْ مِنْ خَلْفِ حِيطَانٍ يَسْتَتِرُونَ بِهَا لِجُبْنِهِمْ وَرَهْبَتِهِمْ. ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أَيْ بَعْضُهُمْ فَظٌّ عَلَىٰ بَعْضٍ وَعَدَاوَةُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا شَدِيدَةٌ. وَقِيلَ: بَأْسُهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ مِنْ وَرَاءِ الْحِيطَانِ وَالْحُصُونِ شَدِيدٌ، فَإِذَا خَرَجُوا لَكُمْ فَهُمْ أَجْبَنُ خَلْقِ اللهِ ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ مُتَفَرِّقَةٌ مُخْتَلِفَةٌ، قَالَ قَتَادَةُ: أَهْلُ الْبَاطِلِ مُخْتَلِفَةٌ أَهْوَاؤُهُمْ مُخْتَلِفَةٌ شَهَادَتُهُمْ، مُخْتَلِفَةٌ أَعْمَالُهُمْ، وَهُمْ مُجْتَمِعُونَ فِي عَدَاوَةِ أَهْلِ الْحَقِّ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَرَادَ أَنَّ دِينَ

الْمُنَافِقِينَ يُخَالِفُ دِينَ الْيَهُودِ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أَيْ ذَلِكَ التَّشْتِيتُ وَالْكُفْرُ بِأَنَّهُمْ لَا عَقْلَ لَهُمْ يعقلون به أمر الله.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يَعْنِي مَثَلُ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ كَمَثَلِ الذين من قبلهم، ﴿قَرِيبًا﴾ يَعْنِي مُشْرِكِي مَكَّةَ، ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ يَعْنِي الْقَتْلَ بِبَدْرٍ، وَكَانَ ذَلِكَ قَبْلَ غَزْوَةِ بَنِي النَّضِيرِ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ يَعْنِي بَنِي قَيْنُقَاعَ، وَقِيلَ: مَثَلُ قُرَيْظَةَ كَمَثَلِ بَنِي النَّضِيرِ وَكَانَ بَيْنَهُمَا سَنَتَانِ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلًا لِلْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ جميعا في تخادعهم:

[١٦] : ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أَيْ مَثَلُ الْمُنَافِقِينَ فِي غُرُورِهِمْ بَنِي النَّضِيرِ وَخِذْلَانِهِمْ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ، ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾ أَيْ أَغْوَاهُ حَتَّىٰ نَطَقَ بِالْكُفْرِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَضَرَبَ اللهُ هَذَا مَثَلًا لِلْمُنَافِقِينَ مَعَ الْيَهُودِ، ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ تَشْبِيهٌ لِتَخَاذُلِ الْمُنَافِقِينَ عَنِ الْيَهُودِ وَعَدَمِ الْوَفَاءِ فِي نُصْرَتِهِمْ، قَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾ أَيْ إِذْ غَرَّ إِنْسَانًا وَوَعَدَهُ عَلَىٰ اتِّبَاعِهِ وَكُفْرِهِ بِاللهِ، النُّصْرَةَ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ ﴿فَلَمَّا كَفَرَ﴾ أَيْ بِاللهِ، وَاتَّبَعَهُ وَأَطَاعَهُ ﴿قَالَ﴾ أَيْ مَخَافَةَ أَنْ يُشْرِكَهُ فِي عَذَابِهِ، مُسْلِمًا لَهُ وَخَاذِلًا ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ أَيْ فَلَا أُعِينُكَ ﴿إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيْ فِي نُصْرَتِكَ، فَلَمْ يَنْفَعْهُ التَّبَرُّؤُ، كَمَا لَمْ يَنْفَعِ الْأَوَّلَ وَعْدُهُ بِالْإِعَانَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾أَيْ: فَكَانَ عَاقِبَةَ الشَّيْطَانِ وَذَلِكَ الْإِنْسَانِ الْمُصَدِّقِ لَهُ الْمُتَّبِعِ

لِأَمْرِهِ أَنَّهُمَا خَالِدَانِ فِي النَّارِ مَاكِثَانِ فِيهَا أَبَدًا، وَقَوْلُهُ: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾، قَالَ الطَّبَرِيُّ: وَذَلِكَ ثَوَابُ الْيَهُودِ مِنَ النَّضِيرِ وَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ وَعَدُوهُمُ النُّصْرَةَ، وَكُلُّ كَافِرٍ بِاللهِ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ عَلَىٰ كُفْرِهِ بِهِ أَنَّهُمْ فِي النَّارِ مُخَلَّدُونَ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا﴾ يَعْنِي الشَّيْطَانَ وَذَلِكَ الْإِنْسَانَ ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ الَّذِينَ اشْتَرَكُوا فِي الظُّلْمِ وَالْكُفْرِ، وَإِنِ اخْتَلَفُوا فِي شِدَّةِ الْعَذَابِ وَقُوَّتِهِ، وَهَذَا دَأْبُ الشَّيْطَانِ مَعَ كُلِّ أَوْلِيَائِهِ، فَإِنَّهُ يَدْعُوهُمْ وَيُدَلِّيهِمْ إِلَىٰ مَا يَضُرُّهُمْ بِغُرُورٍ، حَتَّىٰ إِذَا وَقَعُوا فِي الشِّبَاكِ، وَحَاقَتْ بِهِمْ أَسْبَابُ الْهَلَاكِ، تَبَرَّأَ مِنْهُمْ وَتَخَلَّىٰ عَنْهُمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ضَرَبَ اللهُ هَذَا الْمَثَلَ لِيَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ وَالْمُنَافِقِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ نَبِيَّهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِجْلَاءِ بَنِي النَّضِيرِ عَنِ الْمَدِينَةِ فَدَسَّ الْمُنَافِقُونَ إِلَيْهِمْ، وَقَالُوا: لَا تُجِيبُوا مُحَمَّدًا إِلَىٰ مَا دَعَاكُمْ وَلَا تَخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ ، فَإِنْ قَاتَلَكُمْ فَإِنَّا مَعَكُمْ وَإِنْ أَخْرَجَكُمْ خرجنا معكم، فأجابوهم ودربوا عَلَىٰ حُصُونِهِمْ وَتَحَصَّنُوا فِي دِيَارِهِمْ رَجَاءَ نَصْرِ الْمُنَافِقِينَ، حَتَّىٰ جَاءَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَاصَبُوهُ الْحَرْبَ يَرْجُونَ نَصْرَ الْمُنَافِقِينَ، فخذلوهم وتبرؤوا منهم.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ يَعْنِي لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَيْ لِيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ أَيَّ شَيْءٍ قَدَّمَ لِنَفْسِهِ عَمَلًا صَالِحًا يُنْجِيهِ أَمْ سَيِّئًا يُوبِقُهُ، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أَيِ اعْلَمُوا أَنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ، وَلَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْ

أُمُورِكُمْ جليل ولا حقير، عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَدْرِ النَّهَارِ قَالَ، فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ، مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِمَا رَأَىٰ بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، قَالَ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ فَصَلَّىٰ، ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ .

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ﴾ تَرَكُوا أَمْرَ اللهِ، ﴿فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ أَيْ حُظُوظَ أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ لَمْ يُقَدِّمُوا لَهَا خَيْرًا، أي لا تنسوا ذكر الله تعالىٰ فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أَيِ الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ، الْهَالِكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْخَاسِرُونَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ، قَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ: الْعَاصُونَ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْكَاذِبُونَ ، وَأَصْلُ الْفِسْقِ الْخُرُوجُ، أَيِ الَّذِينَ خَرَجُوا عَنْ طَاعَةِ اللهِ، خطب أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَالَ: أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ تَغْدُونَ وَتَرُوحُونَ لِأَجَلٍ مَعْلُومٍ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْضِيَ الْأَجَلَ، وَهُوَ فِي عَمَلِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فَلْيَفْعَلْ، وَلَنْ تَنَالُوا ذَلِكَ إِلَّا بِاللهِ عزَّ وجلَّ، إِنَّ قَوْمًا جعلوا آجالهم لغيرهم فنهاكم الله عزَّ وجلَّ إن تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ نَسُواْ اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾، أَيْنَ مَنْ تَعْرِفُونَ مِنْ إِخْوَانِكُمْ؟ قَدِمُوا عَلَىٰ مَا قَدِمُوا فِي أَيَّامِ سَلَفِهِمْ، وَخَلَوْا بِالشِّقْوَةِ وَالسَّعَادَةِ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ الْأَوَّلُونَ الَّذِينَ بَنَوُا الْمَدَائِنَ وَحَصَّنُوهَا بِالْحَوَائِطِ؟ قَدْ صَارُوا تَحْتَ

الصَّخْرِ وَالْآبَارِ، هَذَا كِتَابُ اللهِ لَا تَفْنَىٰ عَجَائِبُهُ، فَاسْتَضِيئُوا مِنْهُ لِيَوْمِ ظُلْمَةٍ، وَاسْتَضِيئُوا بِسَنَائِهِ وَبَيَانِهِ، إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَثْنَىٰ عَلَىٰ زَكَرِيَّا وَأَهْلِ بَيْتِهِ فَقَالَ لَهُمْ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء : ٩٠] ، لاَّ خَيْرَ فِي قَوْلٍ لَا يُرَادُ بِهِ وَجْهُ اللهِ، وَلَا خَيْرَ فِي مَالٍ لَا يُنْفَقُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ يَغْلِبُ جَهْلُهُ حِلْمَهُ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ يَخَافُ في الله لومة لائم.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ﴾ أَيْ فِي الْفَضْلِ وَالرُّتْبَةِ ﴿أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ﴾ أَيِ الْمُقَرَّبُونَ الْمُكَرَّمُونَ، وَقِيلَ: النَّاجُونَ مِنَ النَّارِ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً﴾ حَثَّ عَلَىٰ تَأَمُّلِ مَوَاعِظِ الْقُرْآنِ ، وَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا عُذْرَ فِي تَرْكِ التَّدَبُّرِ، فَإِنَّهُ لَوْ خُوطِبَ بِهَذَا الْقُرْآنِ الْجِبَالُ مَعَ تَرْكِيبِ الْعَقْلِ فِيهَا لَانْقَادَتْ لِمَوَاعِظِهِ، وَلَرَأَيْتَهَا عَلَىٰ صَلَابَتِهَا وَرَزَانَتِهَا خَاشِعَةً مُتَصَدِّعَةً، أَيْ مُتَشَقِّقَةً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَالْخَاشِعُ: الذَّلِيلُ، وَالْمُتَصَدِّعُ: الْمُتَشَقِّقُ ، وَقِيلَ: خاشِعاً لِلَّهِ بِمَا كَلَّفَهُ مِنْ طَاعَتِهِ ، مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ أَنْ يَعْصِيَهُ فَيُعَاقِبَهُ، وَقِيلَ: هُوَ عَلَىٰ وَجْهِ الْمَثَلِ لِلْكُفَّارِ،﴿وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أَيْ أَنَّهُ لَوْ أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَخَشَعَ لِوَعْدِهِ وَتَصَدَّعَ لِوَعِيدِهِ ، وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْمَقْهُورُونَ بِإِعْجَازِهِ لَا تَرْغَبُونَ فِي وعده، ولا ترهبون من وَعِيدِهِ .

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ الْغَيْبُ مَا غَابَ عَنِ الْعِبَادِ مِمَّا لَمْ يُعَايِنُوهُ وَلَمْ يَعْلَمُوهُ، وَالشَّهَادَةُ مَا شَاهَدُوهُ وَمَا عَلِمُوهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَالِمُ السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَقِيلَ: مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ ، وَقَالَ سَهْلٌ: عَالِمٌ بِالْآخِرَةِ وَالدُّنْيَا، ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ هُوَ رَحْمَنُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، رَحِيمٌ بِأَهْلِ الْإِيمَانِ بِهِ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ الطَّاهِرُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ الْمُنَزَّهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ، ﴿السَّلَامُ﴾ الَّذِي سَلِمَ مِنَ النَّقَائِصِ، ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ الَّذِي أَمِنَ النَّاسَ مِنْ ظُلْمِهِ وَأَمِنَ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ عَذَابِهِ، وهو مِنَ الْأَمَانِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ التَّخْوِيفِ كَمَا قَالَ: ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قُرَيْشٍ: ٤] وَقِيلَ: مَعْنَاهُ الْمُصَدِّقُ لِرُسُلِهِ بِإِظْهَارِ الْمُعْجِزَاتِ، وَالْمُصَدِّقُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَا وَعَدَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ، وَالْكَافِرِينَ بِمَا وَعَدَهُمْ مِنَ الْعِقَابِ ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ الشَّهِيدُ عَلَىٰ عِبَادِهِ بِأَعْمَالِهِمْ ، يُقَالُ: هَيْمَنَ يُهَيْمِنُ فَهُوَ مُهَيْمِنٌ إِذَا كَانَ رَقِيبًا عَلَىٰ الشَّيْءِ، وَقِيلَ: هُوَ فِي الْأَصْلِ مُؤَيْمِنٌ قُلِبَتِ الْهَمْزَةُ هَاءً، كَقَوْلِهِمْ أَرَقْتُ وَهَرَقْتُ، وَمَعْنَاهُ الْمُؤْمِنُ، وَقَالَ الْحَسَنُ: الْأَمِينُ ، وَقَالَ الْخَلِيلُ: هُوَ الرَّقِيبُ الْحَافِظُ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْمُصَدِّقُ ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَالضَّحَّاكُ: الْقَاضِي، وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي الْكُتُبِ وَاللهُ أعلم بتأويله ، ﴿الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ﴾ الَّذِي قَهَرَ جَمِيعَ الْعِبَادِ، وَأَذْعَنَ لَهُ سَائِرُ الْخَلْقِ، الَّذِي يَجْبُرُ الْكَسِيرَ، وَيُغْنِي الْفَقِيرَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْجَبَّارُ هُوَ الْعَظِيمُ، وَجَبَرُوتُ اللهِ

عَظَمَتُهُ، وَهُوَ عَلَىٰ هَذَا الْقَوْلِ صِفَةُ ذَاتِ اللهِ، وَقِيلَ: هُوَ مِنَ الْجَبْرِ وَهُوَ الْإِصْلَاحُ ، يُقَالُ: جَبَرْتُ الْكَسْرَ وَالْأَمْرَ،وَجَبَرْتُ الْعَظْمَ إِذَا أَصْلَحْتُهُ بَعْدَ الْكَسْرِ، فَهُوَ يُغْنِي الْفَقِيرَ وَيُصْلِحُ الْكَسِيرَ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ وَمُقَاتِلٌ: هُوَ الَّذِي يَقْهَرُ النَّاسَ وَيُجْبِرُهُمْ عَلَىٰ مَا أَرَادَ، ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ الَّذِي لَهُ الْكِبْرِيَاءُ وَالْعَظَمَةُ، الْمُتَنَزِّهُ عَنْ جَمِيعِ الْعُيُوبِ وَالظُّلْمِ وَالْجَوْرِ، وَقِيلَ: الْمُتَعَظِّمُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ وَأَصْلُ الْكِبْرِ وَالْكِبْرِيَاءِ الِامْتِنَاعُ، وَقِيلَ: ذُو الْكِبْرِيَاءِ وَهُوَ الْمَلِكُ، ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هَذَا تَنْزِيهٌ عَامٌّ عَنْ كُلِّ مَا وَصَفَهُ بِهِ مَنْ أَشْرَكَ بِهِ وَعَانَدَهُ ، ﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ﴾ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُقَدِّرُ وَالْمُقَلِّبُ لِلشَّيْءِ بِالتَّدْبِيرِ إِلَىٰ غَيْرِهِ، ﴿الْبَارِئُ﴾ المنشىء لِلْأَعْيَانِ مِنَ الْعَدَمِ إِلَىٰ الْوُجُودِ ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ الْمُمَثِّلُ لِلْمَخْلُوقَاتِ بِالْعَلَامَاتِ الَّتِي يَتَمَيَّزُ بعضها عَنْ بَعْضٍ ، وَمَعْنَىٰ التَّصْوِيرِ: التَّخْطِيطُ وَالتَّشْكِيلُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران : ٦] وَفِي سُنَنِ النَّسَائِيِّ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا سَجَدَ يَقُولُ: « **اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**»(١)، ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أَيْ: كُلُّ أَسْمَائِهِ تَعَالَىٰ حُسْنَىٰ، وَهِيَ الدَّالَّةُ عَلَىٰ صِفَاتِهِ الْعُلَا، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ

(١) ومسلم (٧٧١) والنسائي (١١٢٤) .

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِئَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[1] ، ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: يُنَزِّهُهُ جَمِيعُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيَسْجُدُ لَهُ طَوْعًا وَكَرْهًا، وَهُوَ ﴿الْعَزِيزُ﴾ أَيِ الشَّدِيدُ الِانْتِقَامِ مِنْ أَعْدَائِهِ، الْمَنِيعُ الَّذِي لَا يُرَامُ جَنَابُهُ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي تَدْبِيرِ خَلْقِهِ وَفِي شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَشْرِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

---

(١) البخاري (٢٧٣٦) .

سُورَةُ الْمُمْتَحَنَةِ

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَالْمَشْهُورُ عَلَىٰ الْأَلْسِنَةِ النُّطْقُ فِي كَلِمَةِ «الْمُمْتَحِنَةِ» بَكَسْرِ الْحَاءِ وسبب تسميتها أَنَّهَا جاءَتْ فِيهَا آيَةُ امْتِحَانِ إِيمَانِ النِّسَاءِ اللَّاتِي يَأْتِين مِنْ مَكَّةَ مُهَاجِرَاتٍ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ وَهِيَ آيَةُ :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿بِعِصَمِ الْكَوافِرِ ﴾ ، فَوَصَفَ النَّاسُ تِلْكَ الْآيَةَ بِالْمُمْتَحِنَةِ لِأَنَّهَا شَرَعَتْ الِامْتِحَانَ ، وَأُضِيفَتِ السُّورَةُ إِلَىٰ تِلْكَ الْآيَةِ ، وَقَالَ السُّهَيْلِيُّ: أُسْنِدَ الِامْتِحَانُ إِلَىٰ السُّورَةِ مَجَازًا ، كَمَا قِيلَ لِسُورَةِ بَرَاءَةٍ الْفَاضِحَةُ ، وَهَذِهِ السُّورَةُ مَدَنِيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أَيْ: مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْكُفَّارِ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَصُدُّونَ عَنِ الدِّينِ الْحَقِّ ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ يَعْنِي أَخِلَّاءَ وَأَصْدِقَاءَ وَأَنْصَارًا ، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: نَزَلَتِ الْآيَةُ فِي حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ حِينَ كتب إِلَىٰ نَاسٍ بِمَكَّةَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم: «**يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟** قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي

قريش، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهَمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْهُ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ**، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ: **إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَىٰ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لكم**» ، فأنزل الله هذه السورة[(١)] .

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ يَعْنِي بِالظَّاهِرِ، لِأَنَّ قَلْبَ حَاطِبٍ كَانَ سَلِيمًا، بِدَلِيلِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُمْ: « **أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ صَدَقَ**» وَهَذَا نَصٌّ فِي سَلَامَةِ فُؤَادِهِ وَخُلُوصِ اعْتِقَادِهِ ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: مَعْنَاهُ كقوله إِلَيْهِمْ أَخْبَارَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسِرَّهُ بِالْمَوَدَّةِ الَّتِي بينكم وبينهم، ﴿وَقَدْ كَفَرُوا﴾ الْوَاوُ لِلْحَالِ أَيْ وَحَالُهُمْ أَنَّهُمْ كَفَرُوا، ﴿بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ، قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ هَذَا مَعَ مَا قَبْلَهُ من التهييج علىٰ عدواتهم وَعَدَمِ مُوَالَاتِهِمْ لِأَنَّهُمْ أَخْرَجُوا الرَّسُولَ وَأَصْحَابَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، كَرَاهَةً لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَن تُؤْمِنُواْ بِاللهِ رَبِّكُمْ﴾ أَيْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ عِنْدَهُمْ ذَنْبٌ إِلَّا إِيمَانكُمْ

(١) البخاري (٤٢٧٤) ومسلم (٢٤٩٤) .

بِاللهِ رَبُّ العالمين، ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ أَيْ إِنْ كُنْتُمْ كَذَلِكَ فَلَا تَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ، إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِي فَلَا تُوَالُوا أَعْدَائِي، وَقَدْ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، حَنَقًا عَلَيْكُمْ وسخطًا لدينكم، ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ بِالنَّصِيحَةِ، ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾ مِنَ الْمَوَدَّةِ لِلْكُفَّارِ ﴿وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ أَظْهَرْتُم بِأَلْسِنَتِكُمْ، قَالَ النَّسَفِيُّ: الْمَعْنَىٰ: أَيُّ طَائِلٍ لَكُمْ فِي إِسْرَارِكُمْ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الْإِخْفَاءَ وَالْإِعْلَانَ سِيَّانِ فِي عِلْمِي وَأَنَا مُطْلِعٌ رَسُولِي عَلَىٰ مَا تُسِرُّونَ ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أَخْطَأَ طَرِيقَ الْهُدَىٰ ، أَيْ: وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ الْإِسْرَارَ إِلَىٰ الْكُفَّارِ أَوِ الْمُكَاتَبَةَ لِإِطْلَاعِهِمْ عَلَىٰ أَسْرَارِ الْمُسْلِمِينَ فَقَدْ أَخْطَأَ طَرِيقَ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، وَجَارَ عَنْ قَصْدِ الطَّرِيقِ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ﴾ أي: يجدوكم، وَيَرَوْكُمْ، وَمِنْهُ الْمُثَاقَفَةُ، أَيْ طَلَبُ مُصَادَفَةِ الْغِرَّةِ فِي الْمُسَايَفَةِ وَشِبْهِهَا ، وقيل: يَثْقَفُوكُمْ يظفروا بكم ويتمكنوا منكم ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بِالضَّرْبِ وَالْقَتْلِ، ﴿وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ﴾ أَيْ: بِالْقَوْلِ الَّذِي يَسُوءُ، مِنْ شَتْمٍ وَغَيْرِهِ ، ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ كَمَا كَفَرُوا ، يَقُولُ: لَا تُنَاصِحُوهُمْ فَإِنَّهُمْ لَا يُنَاصِحُونَكُمْ وَلَا يُوَادُّونَكُمْ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ مَعْنَاهُ لَا يَدْعُوَنَّكُمْ وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ ذوو أرحامكم وقراباتكم وأولادكم التي بِمَكَّةَ إِلَىٰ خِيَانَةِ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَتَرْكِ مُنَاصَحَتِهِمْ وَمُوَالَاةِ أَعْدَائِهِمْ فَلَنْ تَنْفَعَكُمْ أرحامكم، ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ الَّذِينَ عَصَيْتُمُ اللهَ لِأَجْلِهِمْ، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ فَيُدْخِلُ أَهْلَ طَاعَتِهِ الْجَنَّةَ وَأَهْلَ معصيته النار ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ﴾ قُدْوَةٌ وَالْإِسْوَةُ وَالْأُسْوَةُ مَا يُتَأَسَّىٰ بِهِ، مِثْلُ الْقِدْوَةِ وَالْقُدْوَةِ ، ﴿حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ ، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ : وَإِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَثَلٌ فِي الْيَقِينِ بِاللهِ وَالْغَضَبِ بِهِ، عَرَفَ ذَلِكَ الْعَرَبُ وَالْيَهُودُ ، وَالنَّصَارَىٰ مِنَ الْأُمَمِ، وَشَاعَ بَيْنَ الْأُمَمِ الْمُجَاوِرَةِ مِنَ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْأَرَامِيِّينَ، وَلَعَلَّهُ بَلَغَ إِلَىٰ الْهِنْدِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ اسْمَ (برهما) معبود البراهة مِنَ الْهُنُودِ مُحَرَّفٌ عَنِ (اسْمِ إِبْرَاهِيمَ) وَهُوَ احْتِمَالٌ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ﴾ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ﴾ جَمْعُ بَرِيءٍ، ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ جَحَدْنَا وَأَنْكَرْنَا دِينَكُمْ، ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ أَيْ: الْبُغْضُ بِالْقُلُوبِ، وَزَوَالُ مَوَدَّتِهَا، وَالْعَدَاوَةُ بِالْأَبْدَانِ، وَلَيْسَ لِتِلْكَ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ وَقْتٌ وَلَا حَدٌّ، بَلْ ذَلِكَ ﴿أَبَدًا﴾ أَيْ هَذَا دَأْبُنَا مَعَكُمْ مَا دُمْتُمْ عَلَىٰ كُفْرِكُمْ ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾ فَحِينَئِذٍ تَنْقَلِبُ الْمُعَادَاةُ مُوَالَاةً ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : لَمَّا نَهَىٰ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ مولاة الْكُفَّارِ ذَكَرَ قِصَّةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّ مِنْ سِيرَتِهِ التَّبَرُّؤَ مِنَ الْكُفَّارِ، أَيْ فَاقْتَدُوا بِهِ وَأْتَمُّوا، إِلَّا فِي اسْتِغْفَارِهِ لِأَبِيهِ ، ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ يَعْنِي لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَأُمُورِهِ إِلَّا فِي اسْتِغْفَارِهِ لِأَبِيهِ الْمُشْرِكِ،

فَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ قَدْ قَالَ لِأَبِيهِ: لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، ثُمَّ تَبَرَّأَ مِنْهُ عَلَىٰ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ: مَا أُغْنِي عَنْكَ وَلَا أَدْفَعُ عَنْكَ عَذَابَ اللهِ إِنْ عَصَيْتَهُ وَأَشْرَكْتَ بِهِ، وقيل : وَفَائِدَةُ الِاسْتِدْرَاكِ هُنَا التَّعْرِيضُ بِخَطَأِ حَاطِبِ ابْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ، أَيْ إِنْ كُنْتُمْ مُعْتَذِرِينَ فَلْيَكُنْ عُذْرُكُمْ فِي مُوَاصَلَةِ أَعْدَاءِ اللهِ بِأَنْ تَوَدُّوا لَهُمْ مَغْفِرَةَ كُفْرِهِمْ بِاسْتِدْعَاءِ سَبَبِ الْمَغْفِرَةِ وَهُوَ أَنْ يَهْدِيَهُمُ اللهُ إِلَىٰ الدِّينِ الْحَقِّ كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ أَيْ: اعْتَمَدْنَا عَلَيْكَ فِي جَلْبِ مَا يَنْفَعُنَا وَدَفْعِ مَا يَضُرُّنَا، وَوَثِقْنَا بِكَ يَا رَبَّنَا فِي ذَلِكَ ، ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ أَيْ رَجَعْنَا إِلَىٰ طَاعَتِكَ وَمَرْضَاتِكَ وَجَمِيعِ مَا يُقَرِّبُ إِلَيْكَ ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ لَكَ الرُّجُوعُ فِي الْآخِرَةِ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالب الْوَفَاة جَاءَهُ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوجدَ عِنْده أَبَا جهل بن هِشَام وَعبد الله بن أبي أُميَّة بن الْمُغيرَة فَقَالَ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا عَم قل لَا إِلَه إِلَّا الله كلمة أشهد لَك بهَا عِنْد الله فَقَالَ أَبُو جهل وَعبد الله بن أبي أُميَّة : يَا أَبَا طَالب أترغب عَن مِلَّة عبد الْمطلب ، فَلم يزل رَسُول الله يعرضهَا عَلَيْهِ ويعيدان لَهُ تِلْكَ الْمقَالة حَتَّىٰ قَالَ أَبُو طَالب آخر مَا كَلمهمْ بِهِ هُوَ علىٰ مِلَّة عبد الْمطلب وأبىٰ أَن يَقُول لَا إِلَه إِلَّا الله فَقَالَ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **أما وَالله لَأَسْتَغْفِرَن لَك مَا لم أَنه عَنْك** ، فَأَنْزل الله عز وَجل : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ

وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة : ١١٣][(١)] .

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا تُسَلِّطْهُمْ عَلَيْنَا فَيَفْتِنُونَا، قَالَ الزَّجَّاجُ: لَا تُظْهِرْهُمْ عَلَيْنَا فَيَظُنُّوا أَنَّهُمْ عَلَىٰ الْحَقِّ فَيَفْتَتِنُوا وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَا تُعَذِّبْنَا بِأَيْدِيهِمْ وَلَا بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِكَ فَيَقُولُونَ: لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ عَلَىٰ الْحَقِّ مَا أَصَابَهُمْ ذَلِكَ، ﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا﴾ أَيْ: وَاسْتُرْ عَلَيْنَا رَبَّنَا ذُنُوبَنَا بِعَفْوِكَ وَكَرَمِكَ ، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، أَيْ: إِنَّكَ أَنْتَ ﴿الْعَزِيزُ﴾ فِي انْتِقَامِكَ مِنْ أَعْدَائِكَ، وَالَّذِي لَا يُضَامُ مَنْ لَاذَ بِجَنَابِكَ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي تَدْبِيرِكَ شُؤُونَ خَلْقِكَ، وَفِي أَقْوَالِكَ وَأَفْعَالِكَ وَشَرْعِكَ وَقَدَرِكَ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ﴾ أَيْ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ مَعَهُ ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أَيْ فِي التَّبَرُّؤِ مِنَ الْكُفَّارِ، وَقِيلَ: كُرِّرَ لِلتَّأْكِيدِ ، ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ بَيَانٌ أَنَّ هَذِهِ الْأُسْوَةَ لِمَنْ يَخَافُ اللهَ وَيَخَافُ عَذَابَ الْآخِرَةِ، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ يُعْرِضْ عَنِ الْإِيمَانِ وَيُوَالِ الْكُفَّارَ، ﴿فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أَيْ لَمْ يَتَعَبَّدْهُمْ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِمْ ، ﴿الْحَمِيدُ﴾ فِي نَفْسِهِ وَصِفَاتِهِ ، فَوَالَىٰ أَوْلِيَاءَهُ وَأَهْلَ طَاعَتِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿الْغَنِيُّ﴾: الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي غِنَاهُ، وَهُوَ اللهُ، هَذِهِ صِفَتُهُ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لَهُ، لَيْسَ لَهُ كُفْءٌ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، سُبْحَانَ اللهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ،

---

(١) البخاري (١٣٦٠) ومسلم (٣١٠٨) .

وقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿الْحَمِيدُ﴾: المُستحمِدُ إلىٰ خَلْقه، أَيْ هُوَ الْمَحْمُودُ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ، قَالَ مُقَاتِلٌ: فَلَمَّا أَمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِعَدَاوَةِ الْكُفَّارِ عَادَىٰ الْمُؤْمِنُونَ أَقْرِبَاءَهُمُ الْمُشْرِكِينَ وَأَظْهَرُوا لَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَرَاءَةَ، وَيَعْلَمُ اللهُ شِدَّةَ وَجْدِ الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللهُ:

[٧] : ﴿عَسَىٰ اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِنْهُمْ﴾ أَيْ مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ، ﴿مَوَدَّةً﴾ فَفَعَلَ اللهُ ذَلِكَ بِأَنْ أَسْلَمَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَصَارُوا لَهُمْ أَوْلِيَاءَ وَإِخْوَانًا وَخَالَطُوهُمْ وَنَاكَحُوهُمْ، وَالْمَعْنَىٰ: إِنَّهُ تَعَالَىٰ قَدْ يُغَيِّرُ الْأَحْوَالَ وَيقْلِبُ الْقُلُوبَ فَيُؤْمِنُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ قُرَيْشٍ الَّذِينَ أُمِرْتُمْ بِمُعَادَاتِهِمْ وَمُفَاصَلَتِهِمْ عَلَىٰ الدِّينِ الْحَقِّ، وَمِنْ ثَمَّ يَجْعَلُ اللهُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مَحَبَّةً بَعْدَ الْبِغْضَةِ، وَمَوَدَّةً بَعْدَ النَّفْرَةِ، وَأُلْفَةً بَعْدَ الْفُرْقَةِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَتِ الْمَوَدَّةُ بَعْدَ الْفَتْحِ تَزْوِيجَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ، وَكَانَتْ تَحْتَ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَحْشٍ، وَكَانَتْ هِيَ وَزَوْجُهَا مِنْ مُهَاجِرَةِ الْحَبَشَةِ ، فَأَمَّا زَوْجُهَا فَتَنَصَّرَ وَسَأَلَهَا أَنْ تُتَابِعَهُ عَلَىٰ دِينِهِ فَأَبَتْ وَصَبَرَتْ عَلَىٰ دِينِهَا، وَمَاتَ زَوْجُهَا عَلَىٰ النَّصْرَانِيَّةِ. فَبَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ النَّجَاشِيِّ فَخَطَبَهَا، فَقَالَ النَّجَاشِيُّ لِأَصْحَابِهِ: مَنْ أَوْلَاكُمْ بِهَا؟ قَالُوا: خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ، قَالَ فَزَوِّجْهَا مِنْ نَبِيِّكُمْ، فَفَعَلَ، وَأَمْهَرَهَا النَّجَاشِيُّ مِنْ عِنْدِهِ أَرْبَعَمِائَةِ دِينَارٍ، ﴿وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ثُمَّ رَخَّصَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي صِلَةِ الَّذِينَ لَمْ يُعَادُوا الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ يُقَاتِلُوهُمْ فَقَالَ:

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾ أَيْ لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنْ بِرِّ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: كَانَ هَذَا فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ عِنْدَ الْمُوَادَعَةِ وَتَرْكِ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ ثُمَّ نُسِخَ ، قَالَ قَتَادَةُ: نَسَخَتْهَا فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَقِيلَ: هِيَ مَخْصُوصَةٌ فِي حُلَفَاءَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ عَهْدٌ لَمْ يَنْقُضْهُ، قَالَهُ الْحَسَنُ، وقَالَ الْكَلْبِيُّ: هُمْ خُزَاعَةُ وَبَنُو الْحَارِثِ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ، ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ تَعْدِلُوا فِيهِمْ بِالْإِحْسَانِ وَالْبِرِّ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: أَيْ تُعْطُوهُمْ قِسْطًا مِنْ أَمْوَالِكُمْ عَلَىٰ وَجْهِ الصِّلَةِ ، وَلَيْسَ يُرِيدُ بِهِ مِنَ الْعَدْلِ، فَإِنَّ الْعَدْلَ وَاجِبٌ فِيمَنْ قَاتَلَ وَفِيمَنْ لَمْ يقاتل، وعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَتْ: قَدِمَتْ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ إِذْ عَاهَدُوا، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ صِلِي أُمك» ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ فِي خُزَاعَةَ كَانُوا قَدْ صَالَحُوا النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُقَاتِلُوهُ وَلَا يُعِينُوا عَلَيْهِ أَحَدًا، فَرَخَّصَ اللهُ فِي برهم ثُمَّ ذَكَرَ الَّذِينَ نَهَاهُمْ عَنْ صِلَتِهِمْ فَقَالَ:

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّما يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أَيْ جَاهَدُوكُمْ عَلَىٰ الدِّينِ ﴿وَأَخرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ﴾ وَهُمْ كفار أَهْلِ مَكَّةَ، ﴿وَظاهَرُوا﴾ أَيْ عَاوَنُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ وَهُمْ مُشْرِكُو أَهْلِ مَكَّةَ ﴿أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾ أَيْ إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ عَنْ مُوَالَاةِ هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة فَقَاتَلُوكُمْ

وَأَخْرَجُوكُمْ وَعَاوَنُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ، يَنْهَاكُمُ اللهُ عزَّ ووجلَّ عَنْ مُوَالَاتِهِمْ وَيَأْمُرُكُمْ بِمُعَادَاتِهِمْ، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أَيْ: وَمَنْ يَتَّخِذْهُمْ أَوْلِيَاءَ وَأَنْصَارًا وَأَحْبَابًا ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: امْتِحَانُهَا أَنْ تُسْتَحْلَفَ مَا خَرَجَتْ لِبُغْضِ زَوْجِهَا وَلَا عِشْقًا لِرَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا رَغْبَةً عَنْ أَرْضٍ إِلَىٰ أرض، ولا لحديث أَحْدَثَتْهُ، وَلَا لِالْتِمَاسِ دُنْيَا، وَمَا خَرَجَتْ إِلَّا رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ وحبا لله ورسوله، ﴿اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ أَيْ هَذَا الِامْتِحَانُ لَكُمْ وَاللهِ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ، ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَىٰ الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ مَا أَحَلَّ اللهُ مُؤْمِنَةً لِكَافِرٍ، ﴿وَآتُوهُمْ﴾ يعني أزواجهم الْكُفَّارَ، مَا أَنْفَقُوا، عَلَيْهِنَّ يَعْنِي الْمَهْرَ الَّذِي دَفَعُوا إِلَيْهِنَّ، ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أَيْ مُهُورَهُنَّ، أَبَاحَ اللهُ نِكَاحَهُنَّ لِلْمُسْلِمِينَ، وَإِنْ كَانَ لَهُنَّ أَزْوَاجٌ فِي دَارِ الْكُفْرِ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ فَرَّقَ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ أَزْوَاجِهِنَّ الْكُفَّارِ، ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ وَالْعِصَمُ جَمْعُ الْعِصْمَةِ وَهِيَ مَا يُعْتَصَمُ بِهِ مِنَ الْعَقْدِ وَالنَّسَبِ، والكوافر جمع الكافرة، ونهىٰ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْمُقَامِ عَلَىٰ نِكَاحِ الْمُشْرِكَاتِ، يَقُولُ مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ كَافِرَةٌ بِمَكَّةَ فَلَا يَعْتَدُّ بِهَا، فَقَدِ انْقَطَعَتْ عِصْمَةُ الزَّوْجِيَّةِ بَيْنَهُمَا، قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ طَلَّقَ عُمَرُ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا لَهُ بِمَكَّةَ مُشْرِكَتَيْنِ ﴿وَاسْأَلُوا﴾ أيها

المؤمنون، ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ أَيْ إِنْ لَحِقَتِ امْرَأَةٌ مِنْكُمْ بِالْمُشْرِكِينَ مُرْتَدَّةً فَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ مِنَ الْمَهْرِ إِذَا مَنَعُوهَا مِمَّنْ تزوجها منهم، ﴿وَلْيَسْأَلُوا﴾ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَحِقَتْ أَزْوَاجُهُمْ بكم ﴿مَا أَنْفَقُوا﴾ مِنَ الْمَهْرِ مِمَّنْ تَزَوَجَهَا مِنْكُمْ، ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قَالَ الزُّهْرِيُّ: لَوْلَا الْهُدْنَةُ وَالْعَهْدُ الَّذِي كَانَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ لَأَمْسَكَ النِّسَاءَ وَلَم يَرُدَّ الصَّدَاقَ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَصْنَعُ بِمَنْ جَاءَهُ مِنَ الْمُسَلِّمَاتِ قَبْلَ الْعَهْدِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَقَرَّ الْمُؤْمِنُونَ بِحُكْمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَدَّوْا مَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ نَفَقَاتِ الْمُشْرِكِينَ عَلَىٰ نِسَائِهِمْ، وَأَبَىٰ الْمُشْرِكُونَ أَنْ يُقِرُّوا بحكم الله فيما أمروا مِنْ أَدَاءِ نَفَقَاتِ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ نِسَائِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

[١١] : ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، ﴿شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَىٰ الْكُفَّارِ﴾ فَلَحِقْنَ بِهِمْ مُرْتَدَّاتٍ ، ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ قَالَ ابْنُ بَحرٍ: أَيْ فَعَاقَبْتُمُ الْمُرْتَدَّةَ بِالْقَتْلِ فَلِزَوْجِهَا مَهْرُهَا مِنْ غَنَائِمِ الْمُسْلِمِينَ ، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: مَعْنَاهُ غَنِمْتُمْ أَيْ غَزَوْتُمْ فَأَصَبْتُمْ مِنَ الْكُفَّارِ عُقْبَىٰ وَهِيَ الْغَنِيمَةُ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: هَذَا فِي الْكُفَّارِ لَيْسَ لَهُمْ عَهْدٌ، إِذَا فَرَّتْ إِلَيْهِمُ امْرَأَةٌ، وَلَمْ يَدْفَعُوا إِلَىٰ زَوْجِهَا شَيْئًا، فَإِذَا جَاءَتْ مِنْهُمُ امْرَأَةٌ لَا يُدْفَعُ إِلَىٰ زَوْجِهَا شَيْءٌ، حَتَّىٰ يَدْفَعَ إِلَىٰ زَوْجِ الذَّاهِبَةِ إِلَيْهِمْ مِثْلَ نفقته عليها، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : يعني إذا لَحِقَتِ امْرَأَةُ رَجُلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ بِالْكُفَّارِ، أَمَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يعطي مثل ما أنفق من الغنيمة، قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَلَوْلَا الْعَهْدُ لَأَمْسَكَ النِّسَاءَ وَلَمْ يَرُدَّ إِلَيْهِمْ

صَدَاقًا. ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ﴾ إِلَىٰ الْكُفَّارِ مِنْكُمْ، ﴿مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْغَنَائِمِ الَّتِي صَارَتْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنْ أَمْوَالِ الْكُفَّارِ، وَقِيلَ: فَعَاقَبْتُمُ الْمُرْتَدَّةَ بِالْقَتْلِ ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فَإِيمَانُكُمْ بِاللهِ، يَقْتَضِي مِنْكُمْ أَنْ تَكُونُوا مُلَازِمِينَ لِلتَّقْوَىٰ عَلَىٰ الدَّوَامِ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ الْآيَةَ، وَذَلِكَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ لَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَيْعَةِ الرِّجَالِ، وَهُوَ عَلَىٰ الصَّفَا وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَسْفَلَ مِنْهُ، وَهُوَ يُبَايِعُ النِّسَاءَ بِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ صلي الله عليه وسلم ويبايعهن عَنْهُ، وَهِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ امْرَأَةُ أَبِي سُفْيَانَ مُتَنَقِّبَةٌ مُتَنَكِّرَةٌ مَعَ النِّسَاءِ خَوْفًا مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ يَعْرِفَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أبايعهن** ﴿عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا﴾ فَرَفَعَتْ هِنْدٌ رَأْسَهَا وَقَالَتْ: وَاللهِ إِنَّكَ لَتَأْخُذُ عَلَيْنَا أَمْرًا مَا رَأَيْنَاكَ أَخَذْتَهُ عَلَىٰ الرِّجَالِ، وَبَايَعَ الرِّجَالَ يَوْمَئِذٍ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ وَالْجِهَادِ فَقَطْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عليه وسلم: ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ » ، وَهِيَ أَنْ تَقْذِفَ وَلَدًا عَلَىٰ زَوْجِهَا لَيْسَ مِنْهُ، قَالَتْ هِنْدٌ: وَاللهِ إِنَّ الْبُهْتَانَ لَقَبِيحٌ، وَمَا تَأْمُرُنَا إِلَّا بِالرُّشْدِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، فَقَالَ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قَالَتْ هِنْدٌ: مَا جَلَسْنَا مَجْلِسَنَا هَذَا وُفِي أَنْفُسِنَا أَنْ نَعْصِيَكَ فِي شَيْءٍ، فَأَقَرَّ النِّسْوَةُ بِمَا أخذ عليهن، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ : وَاسْتَمَرَّ الْعَمَلُ بِهَذِهِ الْمُبَايَعَةِ إِلَىٰ يَوْمِ فَتْحِ مَكَّةَ وَقَدْ أَسْلَمَ أَهْلُهَا رِجَالًا وَنِسَاءً فَجَلَسَ ثَانِي يَوْمِ

الْفَتْحِ عَلَىٰ الصَّفَا يَأْخُذُ الْبَيْعَةَ مِنَ الرِّجَالِ عَلَىٰ مَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، قوله: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ أَرَادَ وَأْدَ الْبَنَاتِ الَّذِي كَانَ يفعل أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ ﴾ لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ نَهْيَهُنَّ عَنِ الزِّنَا لِأَنَّ النَّهْيَ عَنِ الزِّنَا قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، بَلِ الْمُرَادُ مِنْهُ أَنَّ تَلْتَقِطَ مَوْلُودًا وَتَقُولَ لِزَوْجِهَا هَذَا وَلَدِي مِنْكَ، فَهُوَ الْبُهْتَانُ الْمُفْتَرَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ، لِأَنَّ الْوَلَدَ إِذَا وَضَعَتْهُ الْأُمُّ سَقَطَ بَيْنَ يَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا، وَالْبُهْتَانُ: الْخَبَرُ الْمَكْذُوبُ الَّذِي لَا شُبْهَةَ لِكَاذِبِهِ فِيهِ لِأَنَّهُ يَبْهَتُ مَنْ يَنْقُلُ عَنْهُ ، ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ قَالَ النَّسَفِيُّ: كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَلْتَقِطُ الْمَوْلُودَ فَتَقُولُ لِزَوْجِهَا هُوَ وَلَدِي مِنْكَ، كَنَّىٰ بِالْبُهْتَانِ الْمُفْتَرَىٰ بَيْنَ يَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا عَنِ الْوَلَدِ الَّذِي تُلْصِقُهُ بِزَوْجِهَا كَذِبًا، لِأَنَّ بَطْنَهَا الَّذِي تَحْمِلُهُ فِيهِ بَيْنَ الْيَدَيْنِ، وَفَرْجَهَا الَّذِي تَلِدُهُ بِهِ بَيْنَ الرِّجْلَيْنِ ، قَوْلُهُ ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أَيْ فِي كُلِّ أَمْرٍ وَافَقَ طَاعَةَ اللهِ. قَالَ بَكْرُ ابْنُ عَبْدِ اللهِ الْمُزَنِيُّ: فِي كُلِّ أمر فيه رشد، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَا تَخْلُو الْمَرْأَةُ بِالرِّجَالِ ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: هُوَ النَّهْيُ عَنِ النَّوْحِ وَالدُّعَاءِ بِالْوَيْلِ وَتَمْزِيقِ الثَّوْبِ وَحَلْقِ الشَّعْرِ وَنَتْفِهِ وَخَمْشِ الْوَجْهِ، وَلَا تُحَدِّثُ الْمَرْأَةُ الرِّجَالَ إِلَّا ذَا مَحْرَمٍ، وَلَا تَخْلُو بِرَجُلٍ غَيْرِ ذِي مَحْرَمٍ، وَلَا تُسَافِرُ إِلَّا مَعَ ذي محرم ، وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ

اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بدعوىٰ الجاهلية**»(١).

﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ إِذَا الْتَزَمْنَ بِجَمِيعِ مَا ذُكِرَ، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ﴾ عَنْ تَقْصِيرِهِنَّ، وَتَطْيِيبًا لِخَوَاطِرِهِنَّ، ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ أَيْ: كَثِيرُ الْمَغْفِرَةِ لِلْعَاصِينَ، وَالْإِحْسَانِ إِلَىٰ الْمُذْنِبِينَ التَّائِبِينَ، ﴿رَحِيمٌ﴾ وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَعَمَّ إِحْسَانُهُ الْبَرَايَا، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبَايِعُ النِّسَاءَ بِالْكَلَامِ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿لَا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا﴾ قَالَتْ: وَمَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَ امْرَأَةٍ إِلَّا امْرَأَةً يَمْلِكُهَا»(٢).

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ وَهُمُّ الْيَهُودُ، وَذَلِكَ أَنَّ أُنَاسًا مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا يُخْبِرُونَ الْيَهُودَ أَخْبَارَ الْمُسْلِمِينَ، يَتَوَصَّلُونَ إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ فَيُصِيبُونَ مِنْ ثِمَارِهِمْ، فَنَهَاهُمُ اللهُ عَنْ ذَلِكَ، ﴿قَدْ يَئِسُوا﴾ يَعْنِي هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ، ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾ بِأَنْ يَكُونَ لَهُمْ فِيهَا ثَوَابٌ وَخَيْرٌ، ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ أَيْ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ الَّذِينَ مَاتُوا وَصَارُوا فِي الْقُبُورِ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ حَظٌّ وَثَوَابٌ فِي الآخرة، قَالَ قَتَادَةُ: كَمَا يَئِسُوا مِنْ ثَوَابِ الْآخِرَةِ حِينَ تَبَيَّنَ لَهُمْ عَمَلُهُمْ، وَعَايَنُوا النَّارَ.

---

(١) البخاري (١٢٩٨) ومسلم (١٠٣).

(٢) البخاري (٢٧١٣) ومسلم (١٨٦٦).

سُورَةِ الصَّفِّ

اشْتُهِرَتْ هَذِهِ السُّورَةُ بِاسْمِ «سُورَةِ الصَّفِّ» وَكَذَلِكَ سُمِّيَتْ فِي عَصْرِ الصَّحَابَةِ ، وَسبب التَّسْمِيَةِ وُقُوعُ لفظ صَفًّا فِيهَا وَهُوَ صَفُّ الْقِتَالِ، وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ عِنْدَ الْجُمْهُورِ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ، قَالَ: قَعَدْنَا نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَذَاكَرْنَا، فَقُلْنَا: لَوْ نَعْلَمُ أَيَّ الأَعْمَالِ أَحَبَّ إِلَىٰ اللهِ لَعَمِلْنَاهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ: «فَقَرَأَهَا عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» .

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ عَنِ اشْتِرَاكِ جَمِيعِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْكَائِنَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ فِي تَنْزِيهِهِ وَتَقْدِيسِهِ وَتَعْظِيمِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾: صَلَّىٰ لِلَّهِ ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ مِمَّنْ خَلَقَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿وَالْأَرْضِ﴾ مِنْ شَيْءٍ فِيهِ رُوحٌ أَوْ لَا رُوحَ فِيهِ، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَيْ: وَهُوَ الْعَزِيزُ الَّذِي قَدْ عَزَّ وَغَلَبَ كُلَّ

شَيْءٍ، وَقَدْ خَضَعَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي شَأْنِهِ كُلِّهِ: فِي خَلْقِهِ وَقَدَرِهِ وَقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ وَشَرْعِهِ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أَيْ: لِمَ تَقُولُونَ الْخَيْرَ وَتَحُثُّونَ عَلَيْهِ، وَرُبَّمَا تَمَدَّحْتُمْ بِهِ وَأَنْتُمْ لَا تَفْعَلُونَهُ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الشَّرِّ وَرُبَّمَا نَزَّهْتُمْ أَنْفُسَكُمْ عَنْهُ، وَأَنْتُمْ مُتَلَوِّثُونَ بِهِ وَمُتَّصِفُونَ بِهِ، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا: لَوْ نَعْلَمُ أَيَّ الْأَعْمَالِ أَحَبَّ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَعَمِلْنَاهُ وَلَبَذَلْنَا فِيهِ أَمْوَالَنَا وَأَنْفُسَنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ فَابْتُلُوا بِذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: لَمَّا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ رَسُولَهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بثواب الشهداء بَدْرٍ، قَالَتِ الصَّحَابَةُ: لَئِنْ لَقِينَا بَعْدَهُ قِتَالًا لَنُفْرِغَنَّ فِيهِ وُسْعَنَا، فَفَرُّوا يَوْمَ أُحُدٍ فَعَيَّرَهُمُ اللهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ: نَزَلَتْ فِي شَأْنِ الْقِتَالِ، كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ: قَاتَلْتُ وَلَمْ يُقَاتِلْ، وَطَعَنْتُ وَلَمْ يَطْعَنْ، وَضَرَبْتُ وَلَمْ يَضْرِبْ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ كانوا يعدون النصر لِلْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ كَاذِبُونَ. **وَفِي الصَّحِيحَيْنِ** أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**»[1]، وَلِهَذَا أَكَّدَ اللهُ تَعَالَىٰ هَذَا الْإِنْكَارَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ:

---

(١) البخاري (٣٣) ومسلم (٢٦٨٢) .

[٣] : ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا﴾ ، قَوْلُهُ: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ في موضع رفع، فَهُوَ كَقَوْلِكَ بِئْسَ رَجُلًا أَخُوكَ، وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ أَيْ عَظُمَ ذَلِكَ فِي الْمَقْتِ وَالْبُغْضِ عِنْدَ اللهِ، أَيْ إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ بُغْضًا شَدِيدًا أَنْ تَقُولُوا ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي تَعِدُوا مِنْ أَنْفُسِكُمْ شَيْئًا ثُمَّ لم تفوا بِهِ، وَالْكِبَرُ: مُسْتَعَارٌ لِلشِّدَةِ لِأَنَّ الْكَبِيرَ فِيهِ كَثْرَةٌ وَشِدَّةٌ فِي نَوْعِهِ. وَالْمَقْتُ: الْبُغْضُ الشَّدِيدُ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ أَيْ يَصُفُّونَ أَنْفُسَهُمْ عِنْدَ الْقِتَالِ صَفًّا وَلَا يَزُولُونَ عَنْ أَمَاكِنِهِمْ، ﴿كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ قَدْ رُصَّ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ أَيْ أُلْزِقَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ وَأُحْكِمَ فَلَيْسَ فِيهِ فُرْجَةٌ وَلَا خَلَلٌ، وَقِيلَ: أحكم بالرصاص.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ وَذَلِكَ حِينَ رَمَوْهُ بِالْأُدْرَةِ، ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ﴾ والرسول يعظم ويحترم، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ عَدَلُوا عَنِ الْحَقِّ، ﴿أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أَمَالَهَا عَنِ الْحَقِّ، يَعْنِي فَلَمَّا زاغوا عَنِ الطَّاعَةِ أزاغ اللهُ قُلُوبَهُمْ عن الهداية، وَقِيلَ: فَلَمَّا زاغوا عَنِ الْإِيمَانِ أزاغ اللهُ قُلُوبَهُمْ عَنِ الثَّوَابِ. ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ قَالَ الزَّجَّاجُ: يَعْنِي لَا يَهْدِي مَنْ سَبَقَ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُ فاسق.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أَيْ وَاذْكُرْ لَهُمْ هَذِهِ الْقِصَّةَ أَيْضًا. وَقَالَ: يَا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلَمْ يَقُلْ ﴿يَا قَوْمِ﴾ كَمَا قَالَ مُوسَىٰ، لِأَنَّهُ لَا نَسَبَ لَهُ فِيهِمْ فَيَكُونُونَ قَوْمَهُ، ﴿إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ﴾ أَيْ بِالْإِنْجِيلِ، ﴿مُصَدِّقًا لِما

بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ﴾ لِأَنَّ فِي التَّوْرَاةِ صِفَتِي، وَأَنِّي لَمْ آتِكُمْ بِشَيْءٍ يُخَالِفُ التَّوْرَاةَ فَتَنْفِرُوا عَنِّي، ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ مُصَدِّقًا ، ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ وأَحْمَدُ اسْمُ نَبِيِّنَا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَعْنَىٰ أَحْمَدُ أَيْ أَحْمَدُ الْحَامِدِينَ لِرَبِّهِ ، وَالْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ كُلُّهُمْ حَامِدُونَ اللهَ، وَنَبِيُّنَا أَحْمَدُ أَكْثَرُهُمْ حَمْدًا، وَأَمَّا مُحَمَّدٌ فَمَنْقُولٌ مِنْ صِفَةٍ أَيْضًا، وَهِيَ فِي مَعْنَىٰ مَحْمُودٍ، وَلَكِنْ فِيهِ مَعْنَىٰ الْمُبَالَغَةِ وَالتَّكْرَارِ، فَالْمُحَمَّدُ هُوَ الَّذِي حُمِدَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، كَمَا أَنَّ الْمُكَرَّمُ مِنَ الْكَرَمِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، وَكَذَلِكَ الْمُمَدَّحُ وَنَحْوُ ذَلِكَ ، فَاسْمُ مُحَمَّدٍ مُطَابِقٌ لِمَعْنَاهُ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ سَمَّاهُ قَبْلَ أَنْ يُسَمِّيَ بِهِ نَفْسَهُ، فَهَذَا عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ نُبُوَّتِهِ، إِذْ كَانَ اسْمُهُ صَادِقًا عَلَيْهِ، فَهُوَ مَحْمُودٌ فِي الدُّنْيَا لِمَا هُدِيَ إِلَيْهِ وَنَفَعَ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، وَهُوَ مَحْمُودٌ فِي الْآخِرَةِ بِالشَّفَاعَةِ ، فَقَدْ تَكَرَّرَ مَعْنَىٰ الْحَمْدِ كَمَا يَقْتَضِي اللَّفْظُ، ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُحَمَّدًا حَتَّىٰ كَانَ أَحْمَدَ، حَمِدَ رَبَّهُ فَنَبَّأَهُ وَشَرَّفَهُ، فَلِذَلِكَ تَقَدَّمَ اسْمُ أَحْمَدَ عَلَىٰ الِاسْمِ الَّذِي هُوَ مُحَمَّدٌ فَذَكَرَهُ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: اسْمُهُ أَحْمَدُ ، وَذَكَرَهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنْ أُمَّةِ أَحْمَدَ، فَبِأَحْمَدَ ذَكَرَهُ قَبْلَ أَنْ يَذْكُرَهُ بِمُحَمَّدٍ، لِأَنَّ حَمْدَهُ لِرَبِّهِ كَانَ قَبْلَ حَمْدِ النَّاسِ لَهُ، فَلَمَّا وُجِدَ وَبُعِثَ كَانَ مُحَمَّدًا بِالْفِعْلِ، وَكَذَلِكَ فِي الشَّفَاعَةِ يَحْمَدُ رَبَّهُ بِالْمَحَامِدِ الَّتِي يَفْتَحُهَا عَلَيْهِ، فَيَكُونُ أَحْمَدَ النَّاسِ لِرَبِّهِ ثُمَّ يَشْفَعُ فَيُحْمَدُ عَلَىٰ شَفَاعَتِهِ. مَا أَحْسَنَ مَا أَوْرَدَ الْبُخَارِيُّ، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ

اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ لِي أَسْمَاءً، أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِهِ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَىٰ قدمي، وَأَنَا الْعَاقِبُ**»(١) ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْعَهْدَ، لَئِنْ بُعِث مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لَيَتَّبِعَنَّهُ، وَأَخذَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ عَلَىٰ أُمّته لَئِنْ بُعِث مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءٌ ليتبعنه وينصرنه ، ﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ﴾ قِيلَ عِيسَىٰ، وَقِيلَ: مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ الله عليهما وَسَلَّمَ ، ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ قال ابن جريج : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم﴾ أَحْمَدُ أَيِ الْمُبَشَّرُ بِهِ فِي الْأَعْصَارِ الْمُتَقَادِمَةِ الْمُنَوَّهُ بِذِكْرِهِ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ، لَمَّا ظَهَرَ أَمْرُهُ وَجَاءَ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ الْكَفَرَةُ وَالْمُخَالِفُونَ : ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أَيْ لَا أَحَدَ أَظْلَمُ ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللهِ الْكَذِبَ﴾ تَقَدَّمَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، ﴿وَهُوَ يُدْعىٰ إِلَىٰ الْإِسْلامِ﴾ هَذَا تَعَجُّبٌ مِمَّنْ كَفَرَ بِعِيسَىٰ وَمُحَمَّدٍ بَعْدَ الْمُعْجِزَاتِ الَّتِي ظَهَرَتْ لَهُمَا، وَقَرَأَ طَلْحَةُ بْنُ مُصَرِّفٍ ﴿وَهُوَ يَدَّعِي﴾ أَيْ يَنْتَسِبُ ، وَيَدَّعِي وَيَنْتَسِبُ سَوَاءٌ، ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أَيْ مَنْ كَانَ فِي حُكْمِهِ أَنَّهُ يُخْتَمُ له بالضلالة.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ الْإِطْفَاءُ هُوَ الْإِخْمَادُ، يُسْتَعْمَلَانِ فِي النَّارِ، وَيُسْتَعْمَلَانِ فِيمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا مِنَ الضِّيَاءِ

---

(١) البخاري (٣٥٣٢) ومسلم (٢٣٥٤) .

وَالظُّهُورِ، وَيَفْتَرِقُ الْإِطْفَاءُ وَالْإِخْمَادُ مِنْ وَجْهٍ، وَهُوَ أَنَّ الْإِطْفَاءَ يُسْتَعْمَلُ فِي الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، وَالْإِخْمَادُ إِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْكَثِيرِ دُونَ الْقَلِيلِ، فَيُقَالُ: أَطْفَأْتُ السِّرَاجَ، وَلَا يُقَالُ أَخْمَدْتُ السِّرَاجَ، وَفِي نُورَ اللهِ هُنَا أقوال:

أَحَدُهَا: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ إِنَّهُ الْقُرْآنُ، يُرِيدُونَ إِبْطَالَهُ وَتَكْذِيبَهُ بِالْقَوْلِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ الْإِسْلَامُ، يُرِيدُونَ دَفْعَهُ بِالْكَلَامِ، قَالَهُ السُّدِّيُّ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُرِيدُونَ هَلَاكَهُ بِالْأَرَاجِيفِ، قَالَهُ الضَّحَّاكُ.

الرَّابِعُ: حُجَجُ اللهِ وَدَلَائِلُهُ، يُرِيدُونَ إِبْطَالَهَا بِإِنْكَارِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ، قَالَهُ ابْنُ بَحْرٍ.

﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أَيْ: قَدْ تَكَفَّلَ اللهُ بِنَصْرِ دِينِهِ، وَإِتْمَامِ الْحَقِّ الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ، وَإِشَاعَةِ نُورِهِ عَلَىٰ سَائِرِ الْأَقْطَارِ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ﴾ أَيْ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ وَالرَّشَادِ، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أَيْ بِالْحُجَجِ، وَمِنَ الظُّهُورِ الْغَلَبَةُ بِالْيَدِ فِي الْقِتَالِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالظُّهُورِ أَلَّا يَبْقَىٰ دِينٌ آخَرُ مِنَ الْأَدْيَانِ، بَلِ الْمُرَادُ يَكُونُ أَهْلُ الْإِسْلَامِ عَالِينَ غَالِبِينَ، وَمِنَ الْإِظْهَارِ أَلَّا يَبْقَىٰ دِينٌ سِوَىٰ الْإِسْلَامِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: وَذَلِكَ إِذَا نَزَلَ عِيسَىٰ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ دِينٌ إِلَّا دِينُ

الْإِسْلَامِ ، وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ بِخُرُوجِ عِيسَىٰ ، وَحِينَئِذٍ لَا يَبْقَىٰ كَافِرٌ إِلَّا أَسْلَمَ، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ .

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أَيْ: تُخَلِّصُكُمْ مِنْ عَذَابٍ مُوجِعٍ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، ونَزَلَ هَذَا حِينَ قَالُوا: لَوْ نَعْلَمُ أَيَّ الْأَعْمَالِ أَحَبَّ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَعَمِلْنَاهُ، وَجَعَلَ ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ التِّجَارَةِ لِأَنَّهُمْ يَرْبَحُونَ فيها رِضَا اللهِ وَنَيْلَ جَنَّتِهِ وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ، قَالَ السَّعْدِيُّ هَذِهِ وَصِيَّةٌ وَدَلَالَةٌ وَإِرْشَادٌ مِنْ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، لِأَعْظَمِ تِجَارَةٍ، وَأَجَلِّ مَطْلُوبٍ، وَأَعْلَىٰ مَرْغُوبٍ، يَحْصُلُ بِهَا النَّجَاةُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَالْفَوْزُ بِالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، ثُمَّ بَيَّنَ تِلْكَ التِّجَارَةَ فَقَالَ:

[١١] : ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي إيمانًا يقينيًا لا يشوبه أدنىٰ شك. ثم دعاهم إلىٰ الصدق في هذا الإيمان حتىٰ تحصل النجاة ويكون الظفر بالصفقة الكبيرة ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ ذَكَرَ الْأَمْوَالَ أَوَّلًا لِأَنَّهَا الَّتِي يُبْدَأُ بِهَا في الإنفاق ، ﴿ذلِكُمْ﴾ أي هذا الفعل ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من أموالكم وأنفسكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ مِنْ تِجَارَةِ الدُّنْيَا وَالْكَدِّ لَهَا والتصدي لها وحدها، ثم قال تعالىٰ:

[١٢] : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أَيْ إِنْ فَعَلْتُمْ مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ وَدَلَلْتُكُمْ عَلَيْهِ، غَفَرْتُ لَكُمُ الزَّلَّاتِ، وَأَدْخَلْتُكُمُ الْجَنَّاتِ، وَالْمَسَاكِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ

عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ: إِنْ فَعَلْتُمْ مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ وَدَلَلْتُكُمْ عَلَيْهِ غَفَرْتُ لَكُمُ الزَّلَّاتِ، وَأَدْخَلْتُكُمْ جَنَّاتٍ، وَالْمَسَاكِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَالدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ:

[١٣] : ﴿وأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ أَيْ وَأَزِيدُكُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ زِيَادَةً تُحِبُّونَهَا، وَهِيَ ﴿نَصْرٌ مِّن اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أَيْ إِذَا قَاتَلْتُمْ فِي سَبِيلِهِ وَنَصَرْتُم دِينَهُ، تكفل الله بنصركم، قَالَ الْكَلْبِيُّ: هُوَ النَّصْرُ عَلَىٰ قُرَيْشٍ، وَفَتْحُ مَكَّةَ، وَقَالَ عَطَاءٌ: يُرِيدُ فَتْحَ فَارِسَ وَالرُّومِ، وَلِهَذَا قَالَ تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَا مُحَمَّدُ بِالنَّصْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ ثُمَّ حَضَّهُمْ علىٰ نصرة الدِّينِ وَجِهَادِ الْمُخَالِفِينَ ، فَقَالَ:

[١٤] : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ﴾ أَيِ انْصُرُوا دِينَ اللهِ مِثْلَ نُصْرَةِ الْحَوَارِيِّينَ لَمَّا قَالَ لَهُمْ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَىٰ اللهِ﴾ أَيْ مَنْ يَنْصُرُنِي مَعَ اللهِ، ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾ فَمَضَىٰ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ أَمْرِ اللهِ وَنَصَرَ دِينَهُ، هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ، ﴿فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بِسَبَبِ دَعْوَةِ عِيسَىٰ وَالْحَوَارِيِّينَ ، ﴿وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ مِنْهُمْ، فَلَمْ يَنْقَادُوا لِدَعْوَتِهِمْ، فَجَاهَدَ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ،قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي فِي زَمَنِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا رُفِعَ تَفَرَّقَ قَوْمُهُ ثَلَاثَ فِرَقٍ: فِرْقَةٌ قَالُوا: كَانَ اللهَ فَارْتَفَعَ، وَفِرْقَةٌ قَالُوا: كَانَ ابن الله فرفعه إِلَيْهِ، وَفِرْقَةٌ قَالُوا: كَانَ عَبْدَ الله ورسوله فرفعه الله إِلَيْهِ وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ،

وَاتَّبَعَ كُلَّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ مِنَ النَّاسِ، فَاقْتَتَلُوا فَظَهَرَتِ الْفِرْقَتَانِ الْكَافِرَتَانِ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّىٰ بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَظَهَرَتِ الْمُؤْمِنَةُ عَلَىٰ الْكَافِرَةِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ أَيْ: قَوَّيْنَاهُمْ وَنَصَرْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ، ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ عَلَيْهِمْ وَقَاهِرِينَ لَهُمْ، فَأَنْتُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ وَدُعَاةَ دِينِهِ، يَنْصُرْكُمُ اللهُ كَمَا نَصَرَ مَنْ قَبْلَكُمْ، وَيُظْهِرْكُمْ عَلَىٰ عَدُوِّكُمْ ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ : فَأَصْبَحَتْ حُجَّةُ مِنْ آمَنَ بِعِيسَىٰ ظَاهِرَةً بِتَصْدِيقِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ عِيسَىٰ كَلِمَةُ اللهِ وَرُوحُهُ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الصَّفِّ بِعَوْنِ اللهِ وَفَضْلِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

سُمِّيَتْ هَذِهِ السُّورَةُ عِنْدَ الصَّحَابَةِ ، وَفِي كُتُبِ السُّنَّةِ وَالتَّفَاسِيرِ «سُورَةُ الْجُمُعَةِ» وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ فَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْجُمُعَةِ» ، وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ** »(١) .

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ﴾ أَيْ: يُسَبِّحُ لِلَّهِ، وَيَنْقَادُ لِأَمْرِهِ، وَيَتَأَلَّهُهُ، وَيَعْبُدُهُ، جَمِيعُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لِأَنَّهُ الْكَامِلُ الْمَلِكُ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ، فَالْجَمِيعُ مَمَالِيكُهُ، وَتَحْتَ تَدْبِيرِهِ، ﴿الْقُدُّوسُ﴾ الْمُعَظَّمُ، الْمُنَزَّهُ عَنْ كُلِّ آفَةٍ وَنَقْصٍ، ﴿الْعَزِيزُ﴾ الْقَاهِرُ لِلْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ.

---

(١) مسلم (٨٥٤) .

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ يَعْنِي الْعَرَبَ كَانَتْ أُمَّةً أُمِّيَّةً لَا تَكْتُبُ وَلَا تَقْرَأُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْأُمِّيُّونَ الْعَرَبُ كُلُّهُمْ، مَنْ كَتَبَ مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ يَكْتُبْ، لِأَنَّهُمْ لم يكونوا أهل كتاب، ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نسبُه نسبُهم، وَكَانَ أُمِّيًّا لَمْ يَقْرَأْ مِنْ كِتَابٍ ، وَلَمْ يَتَعَلَّمْ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ: فَإِنْ قِيلَ مَا وَجْهُ الامتنان فإن بَعَثَ نَبِيًّا أُمِّيًّا؟ فَالْجَوَابُ عَنْهُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا: لِمُوَافَقَتِهِ مَا تَقَدَّمَتْ بِهِ بِشَارَةُ الْأَنْبِيَاءِ.

الثَّانِي: لِمُشَاكَلَةِ حَالٍ لِأَحْوَالِهِمْ، فَيَكُونُ أَقْرَبَ إِلَىٰ مُوَافَقَتِهِمْ.

الثَّالِثُ: لِيَنْتَفِيَ عَنْهُ سُوءُ الظَّنِّ في تعليمه ما دعىٰ إِلَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي قَرَأَهَا وَالْحِكَمِ الَّتِي تَلَاهَا.

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ يَجْعَلُهُمْ أَزْكِيَاءَ الْقُلُوبِ بِالْإِيمَانِ، وَقِيلَ: يُطَهِّرُهُمْ مِنْ دَنَسِ الْكُفْرِ وَالذُّنُوبِ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: يَأْخُذُ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ ، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السُّنَّةَ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْكِتَابَ الْخَطُّ بِالْقَلَمِ، لِأَنَّ الْخَطَّ فَشَا فِي الْعَرَبِ بِالشَّرْعِ لَمَّا أُمِرُوا بِتَقْيِيدِهِ بِالْخَطِّ ، وَقَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ: الْحِكْمَةَ الْفِقْهُ فِي الدِّينِ، ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ مِنْ قَبْلِهِ وَقَبْلِ أَنْ يُرْسَلَ إِلَيْهِمْ، ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أَيْ مَا كَانُوا قَبْلَ بِعْثَةِ الرَّسُولِ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ يعبدون الأوثان.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ أي الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَدِينُونَ بِدِينِهِمْ؛ هُوَ عَطْفٌ عَلَىٰ الْأُمِّيِّينَ أَيْ بُعِثَ فِي الْأُمِّيِّينَ وَبُعِث فِي آخَرِينَ مِنْهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا أَسْلَمُوا صَارُوا مِنْهُمْ، فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ كُلَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيهِمْ ، فَقَالَ قَوْمٌ: هُمُ العجم ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَمُقَاتِلٌ: هُمُ التَّابِعُونَ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هُمْ جَمِيعُ مَنْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أَيْ لَمْ يُدْرِكُوهُمْ وَلَكِنَّهُمْ يَكُونُونَ بَعْدَهُمْ، وَقِيلَ: لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ أَيْ فِي الْفَضْلِ وَالسَّابِقَةِ لِأَنَّ التَّابِعِينَ لَا يُدْرِكُونَ شَأْوَ الصَّحَابَةِ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْجُمُعَةِ، فَلَمَّا قَرَأَ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ قَالَ رَجُلٌ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَلَمْ يُرَاجِعْهُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّىٰ سَأَلَهُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، قَالَ : وَفِينَا سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ، قَالَ: فَوَضَعَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ عَلَىٰ سَلْمَانَ ، ثُمَّ قَالَ: «**لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ هَؤُلَاءِ**»(١).

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يَعْنِي الْإِسْلَامَ وَالْهِدَايَةَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: حَيْثُ ألحق العجم بقريش، وقيل: يَعْنِي الْإِسْلَامَ، فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ

(١) البخاري (٤٨٩٧) ومسلم (٢٥٤٦) .

وَسَلَّمَ فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَا وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا ذَاكَ﴾؟ قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ، إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ**؟! قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: **تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً** »، قَالَ أَبُو صَالِحٍ: فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا فَفَعَلُوا مِثْلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ** »(١)، ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ يَعْنِي مَا أَعْطَاهُ اللهُ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ النُّبُوَّةِ الْعَظِيمَةِ وَمَا خَصَّ بِهِ أُمَّتَهُ مِنْ بَعْثَتِهِ صلّىٰ الله عليه وسلّم إليهم.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾ أَيْ كُلِّفُوا الْقِيَامَ بِهَا وَالْعَمَلَ بِمَا فِيهَا، ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ لَمْ يَعْمَلُوا بِمَا فِيهَا وَلَمْ يُؤَدُّوا حَقَّهَا، وقد ضَرَبَ مَثَلًا لِلْيَهُودِ لَمَّا تَرَكُوا الْعَمَلَ بِالتَّوْرَاةِ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ أَيْ كُلِّفُوا الْعَمَلَ بِهَا، ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ أَيْ كُتُبًا مِنْ الْعِلْمِ وَاحِدُهَا سِفْرٌ، قَالَ الْفَرَّاءُ: هِيَ الْكُتُبُ الْعِظَامُ يَعْنِي كَمَا أَنَّ الْحِمَارَ يَحْمِلُهَا

---

(١) البخاري (٨٤٣) ومسلم (٥٩٥).

وَلَا يَدْرِي مَا فِيهَا وَلَا يَنْتَفِعُ بِهَا، كَذَلِكَ الْيَهُودُ يقرؤون التَّوْرَاةَ وَلَا يَنْتَفِعُونَ بِهَا لِأَنَّهُمْ خَالَفُوا مَا فِيهَا، قَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: الْحِمَارُ لَا يَدْرِي أَسِفْرٌ عَلَىٰ ظَهْرِهِ أَمْ زبيل، فَهَكَذَا الْيَهُودُ ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِتَكْذِيبِ الْأَنْبِيَاءِ يَعْنِي مَنْ سَبَقَ فِي عِلْمِهِ أنه لَا يَهْدِيهِمْ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: لَا يُرْشِدُهُمْ إِلَىٰ مَصَالِحِهِمْ، مَا دَامَ الظُّلْمُ لَهُمْ وَصْفًا، وَالْعِنَادُ لَهُمْ نَعْتًا، وَمِنْ ظُلْمِ الْيَهُودِ وَعِنَادِهِمْ، أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ بَاطِلٍ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ حَقٍّ، وَأَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَهُودًا، يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هادُوا بِمَعْنَىٰ تَابُوا لِقَوْلِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ أَنْ أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ: إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: لَمَّا ادَّعَتِ الْيَهُودُ الْفَضِيلَةَ وَقَالُوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨] قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ فَلِلْأَوْلِيَاءِ عِنْدَ اللهِ الْكَرَامَةُ، ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ لِتَصِيرُوا إِلَىٰ مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ أَوْلِيَاءُ اللهِ ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ فَادْعُوا بِالْمَوْتِ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَنَّكُمْ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ فَإِنَّ الْمَوْتَ هُوَ الَّذِي يُوصِلُكُمْ إِلَيْهِ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً﴾ أَيْ بِمَا يَعْمَلُونَ مِنَ الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ وَالْفُجُورِ وَلَوْ تَمَنَّوْهُ بِقُلُوبِهِمْ لَأَظْهَرُوهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ رَدًّا عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ وَإِبْطَالًا لِحُجَّتِهِ، وَهَذَا بَيِّنٌ،قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «لَوْ تَمَنَّىٰ يَهُودُ الْمَوْتَ لَمَاتُوا وَلَوْ تَمَنَّوُا الْمَوْتَ لَشَرِقَ أَحَدُهُمْ بِرِيقِهِ» ، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ طَرِيقٌ لَهُمْ إِلَىٰ الْمُجَازَاةِ بِأَعْمَالِهِمُ الْخَبِيثَةِ، فَالْمَوْتُ أَكْرَهُ شَيْءٍ إِلَيْهِمْ، وَهُمْ أَحْرَصُ عَلَىٰ الْحَيَاةِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، حَتَّىٰ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِأَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ وَالْكُتُبِ ، ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ قَالَ الْقَاسِمِيُّ: تَذْيِيلٌ لِلتَّهْدِيدِ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ ظَالِمُونَ فِي دَعْوَىٰ مَا لَيْسَ لَهُمْ، وَنَفْيِهِ عَمَّنْ سِوَاهُمْ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ أَيْ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْيَهُودِ: إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَكْرَهُونَ تَمَنِّيَهُ وَتَحْذَرُونَ وُقُوعَهُ نَازِلٌ بِكُمْ ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] ، وقوله: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ ثُمَّ يَرُدُّكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ بَعْدِ مَمَاتِكُمْ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، عَالِمِ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾: يَعْنِي وَمَا شَهِدَ فَظَهَرَ لِرَأْيِ الْعَيْنِ، وَلَمْ يَغِبْ عَنْ أَبْصَارِ النَّاظِرِينَ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾قَالَ قَتَادَةُ: يَقُولُ: فَيُخْبِرُكُمْ حِينَئِذٍ مَا كُنْتُمْ فِي الدُّنْيَا تَعْمَلُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ، سَيِّئِهَا وَحَسَنِهَا، لِأَنَّهُ مُحِيطٌ بِجَمِيعِهَا، ثُمَّ يُجَازِيكُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ الْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءَ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ أَيْ فِي يوم الجمعة وَأَرَادَ بِهَذَا النِّدَاءِ الْأَذَانَ عِنْدَ قُعُودِ الإِمَامِ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ لِلْخُطْبَةِ

﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ﴾ أَيْ: فَامْضُوا إِلَيْهِ وَاعْمَلُوا لَهُ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنَ السَّعْيِ الْإِسْرَاعَ إنما المراد منه الْعَمَلُ وَالْفِعْلُ، كَمَا قَالَ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ﴾ [الْبَقَرَةِ: ٢٠٥] وَقَالَ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [اللَّيْلِ: ٤] وَقَالَ الْحَسَنُ: أَمَا وَاللهِ مَا هُوَ بِالسَّعْيِ عَلَى الْأَقْدَامِ ، وَلَقَدْ نُهُوا أَنْ يَأْتُوا الصَّلَاةَ إِلَّا وَعَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، ولكن بالقلوب والنية والخشوع، وعن قَتَادَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ، قَالَ: فَالسَّعْيُ أَنْ تَسْعَىٰ بِقَلْبِكَ وَعَمَلِكَ وَهُوَ المشي إليها ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ﴾ أَيْ الصَّلَاةِ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ﴾ قَالَ هُوَ مَوْعِظَةُ الْإِمَامِ، ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ يَعْنِي الْبَيْعَ وَالشِّرَاءَ لِأَنَّ اسْمَ الْبَيْعِ يَتَنَاوَلُهُمَا جميعًا ، وَإِنَّمَا يَحْرُمُ الْبَيْعُ وَالشِّرَاءُ عِنْدَ الْأَذَانِ الثَّانِي، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: عِنْدَ خُرُوجِ الْإِمَامِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: إِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ حرم البيع والشراء، ﴿ذَلِكُمْ﴾ الَّذِي ذَكَرْتُ مِنْ حُضُورِ الْجُمُعَةِ وترك البيع ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ مِنَ الْمُبَايَعَةِ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ مَصَالِحَ أَنْفُسِكُمْ، وَاعْلَمْ أَنَّ صَلَاةَ الْجُمُعَةِ مِنْ فُرُوضِ الْأَعْيَانِ فَتَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ جَمَعَ الْعَقْلَ وَالْبُلُوغَ وَالْحُرِّيَّةَ وَالذُّكُورَةَ وَالْإِقَامَةَ إِذَا لم يكن له عذر فمن تركها استحق الوعيد، أما الصَّبِيُّ وَالْمَجْنُونُ فَلَا جُمُعَةَ عَلَيْهِمَا، لِأَنَّهُمَا لَيْسَا مِنْ أَهْلِ أَنْ يَلْزَمَهُمَا فَرْضُ الْأَبْدَانِ لِنُقْصَانِ أَبْدَانِهِمَا، وَلَا جُمُعَةَ عَلَى النِّسَاءِ بِالِاتِّفَاقِ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ إِذَا فُرِغَ مِنَ الصَّلَاةِ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ لِلتِّجَارَةِ وَالتَّصَرُّفِ فِي حَوَائِجِكُمْ ﴿وَابْتَغُوا مِنْ

فَضْلِ اللهِ﴾ يَعْنِي الرِّزْقَ وَهَذَا أَمْرُ إِبَاحَةٍ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة : ٢] ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنْ شِئْتَ فَاخْرُجْ وَإِنْ شِئْتَ فَاقْعُدْ وَإِنْ شِئْتَ فَصَلِّ إِلَىٰ الْعَصْرِ، وَقِيلَ: فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ لَيْسَ لِطَلَبِ الدُّنْيَا وَلَكِنْ لِعِيَادَةِ مَرِيضٍ وَحُضُورِ جِنَازَةٍ وَزِيَارَةِ أَخٍ فِي اللهِ ، وَقَالَ الْحَسَنُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمَكْحُولٌ: ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾ هُوَ طَلَبُ الْعِلْمِ ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ الآية، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: «أَقْبَلَتْ عِيرٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَنَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَثَارَ النَّاسُ إِلَّا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ »[1] ، وَأَرَادَ بِاللَّهْوِ الطَّبْلَ، وَقِيلَ: كَانَتِ الْعِيرُ إِذَا قَدِمَتِ الْمَدِينَةَ اسْتَقْبَلُوهَا بِالطَّبْلِ وَالتَّصْفِيقِ. وَقَوْلُهُ: ﴿انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ رَدَّ الْكِنَايَةَ إِلَىٰ التِّجَارَةِ لِأَنَّهَا أَهَمُّ ، وَقَالَ عَلْقَمَةُ: «سُئِلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: أَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخطب قائما أَوْ قَاعِدًا؟ قَالَ: أَمَا تَقْرَأُ: ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ وَأَقَلُّ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ الْخُطْبَةِ أَنْ يَحْمَدَ اللهَ وَيُصَلِّيَ عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُوصِيَ بِتَقْوَىٰ اللهِ، هَذِهِ الثَّلَاثَةُ فَرْضٌ فِي الْخُطْبَتَيْنِ جَمِيعًا، وَيَجِبُ أَنْ يَقْرَأَ فِي الْأُولَىٰ آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ وَيَدْعُو لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الثَّانِيَةِ ، فَلَوْ تَرَكَ وَاحِدَةً مِنْ هَذِهِ

---

(١) البخاري (٩٣٦) ومسلم (٨٦٣) .

الْخَمْسِ لَا تَصِحُّ جَمْعَتُهُ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ، وَذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَىٰ أَنَّهُ لَوْ أَتَىٰ بِتَسْبِيحَةٍ أَوْ تَحْمِيدَةٍ أَوْ تَكْبِيرَةٍ أَجْزَأَهُ ، وَهَذَا الْقَدْرُ لَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ الخطبة، وهو مأمور بالخطبة ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ أَيْ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الثَّوَابِ عَلَىٰ الصَّلَاةِ وَالثَّبَاتِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ﴿وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لِأَنَّهُ مُوجِدُ الْأَرْزَاقِ فَإِيَّاهُ فَاسْأَلُوا ومنه فاطلبوا.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجُمُعَةِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ

سُمِّيَتْ هَذِهِ السُّورَةُ فِي كُتُبِ السُّنَّةِ وَكُتُبِ التَّفْسِيرِ «سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ» اعْتِبَارًا بِذِكْرِ أَحْوَالِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ فِيهَا ، وَرَجَّحَ أَهْلُ الْمَغَازِي وَابْنُ الْعَرَبِيِّ وَابْنُ كَثِيرٍ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُوَ الْأَظْهَرُ؛ لِأَنَّ قَوْلَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ: (لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ) ، يُنَاسِبُ الْوَقْتَ الَّذِي لَمْ يَضْعُفْ فِيهِ شَأْنُ الْمُنَافِقِينَ وَكَانَ أَمْرُهُمْ كُلَّ يَوْمٍ فِي ضَعْفٍ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ يَعْنِي عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ ابْنَ سَلُولَ وَأَصْحَابَهُ، ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ لِأَنَّهُمْ أَضْمَرُوا خِلَافَ مَا أَظْهَرُوا ، رَوَىٰ الْبُخَارِيُّ عَنْ زَيْدِ ابْنِ أَرْقَمَ قَالَ: كُنْتُ مَعَ عَمِّي فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيِّ بْنِ سَلُولَ يَقُولُ: ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا﴾ ، وَقَالَ: ﴿لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَ ﴾ ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي ، فَذَكَرَ عَمِّي لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ وَأَصْحَابِهِ فَحَلَفُوا مَا قَالُوا، فَصَدَّقَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَكَذَّبَنِي ، فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِبْنِي مِثْلُهُ، فَجَلَسْتُ فِي بَيْتِي ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ : ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ فَأَرْسَلَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: « **إِنَّ اللهَ قَدْ صَدَّقَكَ**»(١) .

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ سُتْرَةً ، وَالْجُنَّةُ: مَا يُسْتَتَرُ بِهِ وَيُتَّقَىٰ وَمِنْهُ سُمِّيَتِ الدِّرْعُ التي يلبسها الجندي جُنَّةً ، ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ مَنَعُوا النَّاسَ عَنِ الْجِهَادِ وَالْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ بِئْسَتْ أَعْمَالُهُمُ الْخَبِيثَةُ - مِنْ نِفَاقِهِمْ وَأَيْمَانِهِمُ الْكَاذِبَةِ وَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ- أعمالاً .

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ أَقَرُّوا بِاللِّسَانِ إِذَا رَأَوْا الْمُؤْمِنِينَ، ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ إِذَا خَلَوْا إِلَىٰ الْمُشْرِكِينَ ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أَيْ خُتِمَ عَلَيْهَا بِالْكُفْرِ ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الْإِيمَانَ وَلَا الْخَيْرَ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ يَعْنِي أَنَّ لَهُمْ أَجْسَامًا وَمَنَاظِرَ، ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ فَتَحَسَبُ أَنَّهُ صِدْقٌ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ جَسِيمًا فَصِيحًا ذَلِقَ اللِّسَانِ، فَإِذَا قَالَ سَمِعَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقَالَتَهُ، وَصَفَهُ اللهُ بِتَمَامِ الصُّورَةِ وَحُسْنِ الْإِبَانَةِ ، فَإِذَا قَالَ

---

(١) البخاري (٤٩٠١) .

سَمِعَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ أَشْبَاحٌ بِلَا أَرْوَاحٍ وَأَجْسَامٌ بِلَا أحلام ، قَالَ سِيبَوَيْهِ: خَشَبَةٌ وَخُشُبٌ، مِثْلَ بَدَنَةٍ وَبُدُنٍ، ﴿مُسَنَّدَةٌ﴾ مُمَالَةٌ إِلَىٰ جِدَارٍ مِنْ قَوْلِهِمْ أسندت الشيء إذا أملته، وَأَرَادَ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِأَشْجَارٍ تُثْمِرُ وَلَكِنَّهَا خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ إِلَىٰ حَائِطٍ، أَي اسْتَنَدُوا إِلَىٰ الْأَيْمَانِ بِحَقْنِ دِمَائِهِمْ. وَقِيلَ: شَبَّهَهُمْ بِالْخُشُبِ الَّتِي قَدْ تَآكَلَتْ فَهِيَ مُسْنَدَةٌ بِغَيْرِهَا لَا يُعْلَمُ مَا فِي بَطْنِهَا. ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ لَا يَسْمَعُونَ صَوْتًا فِي العسكر إن نَادَىٰ مُنَادٍ أَوِ انْفَلَتَتْ دَابَّةٌ أو أنشدت ضَالَّةٌ إِلَّا ظَنُّوا مِنْ جُبْنِهِمْ وَسُوءِ ظَنِّهِمْ أَنَّهُمْ يُرَادُونَ بِذَلِكَ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ أُتُوا، لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الرُّعْبِ. وَقِيلَ: ذَلِكَ لِكَوْنِهِمْ عَلَىٰ وَجَلٍ مِنْ أَنْ يُنْزِلَ اللهُ فِيهِمْ أَمْرًا يَهْتِكُ أَسْتَارَهُمْ وَيُبِيحُ دِمَاءَهُمْ وقيل تقدير الكلام: يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ فُطِنَ بِهِمْ وَعُلِمَ بِنِفَاقِهِمْ، لِأَنَّ لِلرِّيبَةِ خَوْفًا. ثُمَّ اسْتَأْنَفَ اللهُ خِطَابَ نَبِيِّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ هذا ابتداء وخبره، ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ ولا تأمنهم، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: فَاحْذَرْهُمْ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: فَاحْذَرْ أَنْ تَثِقَ بِقَوْلِهِمْ أَوْ تَمِيلَ إِلىٰ كلامهم.

الثاني: فاحذر مما يلتهم لِأَعْدَائِكَ وَتَخْذِيلِهِمْ لِأَصْحَابِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ﴾ لعنهم الله وَهِيَ كَلِمَةُ ذَمٍّ وَتَوْبِيخٍ ، وَقَدْ تَقُولُ الْعَرَبُ: قَاتَلَهُ الله ما أشعره! فيضعونه مَوْضِعَ التَّعَجُّبِ ، وَقِيلَ: مَعْنَىٰ قاتَلَهُمُ اللهُ أَيْ أَحَلَّهُمْ مَحَلَّ مَنْ قَاتَلَهُ عَدُوٌّ قَاهِرٌ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَاهِرٌ لِكُلِّ مُعَانِدٍ ، ﴿أَنَّىٰ

يُؤْفَكُونَ﴾ يُصْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : مَعْنَاهُ يُصْرَفُونَ عَنِ الرُّشْدِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ كَيْفَ تَضِلُّ عُقُولُهُمْ عَنْ هَذَا مَعَ وُضُوحِ الدَّلَائِلِ .

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ أَيْ عَطَفُوا وَأَعْرَضُوا بِوُجُوهِهِمْ رَغْبَةً عن الاستغفار ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: يَقُولُ: حَرَّكُوهَا وَهَزُّوهَا اسْتِهْزَاءً بِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِاسْتِغْفَارِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِصِفَتِهِمْ مَشَىٰ إِلَيْهِمْ عَشَائِرُهُمْ وَقَالُوا: افْتَضَحْتُمْ بِالنِّفَاقِ فَتُوبُوا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ مِنَ النِّفَاقِ، وَاطْلُبُوا أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكُمْ ، فَلَوَّوْا رؤوسهم، أَيْ حَرَّكُوهَا اسْتِهْزَاءً وَإِبَاءً، ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يُعْرِضُونَ عَمَّا دُعُوا إِلَيْهِ، ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ مُتَكَبِّرُونَ عَنِ اسْتِغْفَارِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ. قَالَ السَّعْدِيُّ : فَهَذِهِ حَالُهُمْ عِنْدَمَا يُدْعَوْنَ إِلَىٰ طَلَبِ الدُّعَاءِ مِنَ الرَّسُولِ، وَهَذَا مِنْ لُطْفِ اللهِ وَكَرَامَتِهِ لِرَسُولِهِ، حَيْثُ لَمْ يَأْتُوا إِلَيْهِ، فَيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ، فَإِنَّهُ سَوَاءٌ اسْتَغْفَرَ لَهُمْ أَمْ لَمْ يَسْتَغْفِرْ لَهُمْ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَوْمٌ فَاسِقُونَ، خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ، مُؤْثِرُونَ لِلْكُفْرِ عَلَىٰ الْإِيمَانِ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يَعْنِي كُلُّ ذَلِكَ سَوَاءٌ، لَا يَنْفَعُ اسْتِغْفَارُكَ شَيْئًا، لِأَنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ لَهُمْ ، نَظِيرُهُ: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة : ٦] ، قَوْلُهُ : ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أَيْ إِنَّ اللهَ لَا يُوَفِّقُ وَلَا يُصْلِحُ مَنْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللهِ أَنَّهُ سَيَمُوتُ فَاسِقًا، وَقَدْ قِيلَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ: اذْهَبْ إِلَىٰ

رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَغْفِرْ لَكَ، فَلَوَىٰ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ: أَمَرْتُمُونِي أَنْ أُؤْمِنَ فَآمَنْتُ، وَأَمَرْتُمُونِي أَنْ أُعْطِيَ زَكَاةَ مَالِي فَقَدْ أَعْطَيْتُ، فَمَا بَقِيَ إِلَّا أَنْ أَسْجُدَ لِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ ، وَنَزَلَ:

[٧] : ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا﴾ يَتَفَرَّقُوا، وَالِانْفِضَاضُ: التَّفَرُّقُ وَالِابْتِعَادُ ، ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فَيُؤْتِي الرِّزْقَ مَنْ يَشَاءُ، وَيَمْنَعُهُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُيَسِّرُ الْأَسْبَابَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَيُعَسِّرُهَا عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ، فَلَا يُعْطِي أَحَدٌ أَحَدًا شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِهِ وَلَا يَمْنَعُهُ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ، فَأَعْلَمَهُمُ اللهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ خَزَائِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَهُ، يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ، قَالَ رَجُلٌ لِحَاتِمٍ الْأَصَمِّ: مِنْ أَيْنَ تأكل فقال: وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ، وَقَالَ الْجُنَيْدُ: خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ الْغُيُوبُ، وَخَزَائِنُ الْأَرْضِ الْقُلُوبُ، فَهُوَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ وَمُقَلِّبُ الْقُلُوبِ ، وكان الشبلي يقول: وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ، ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أَنَّ أَمْرَهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَىٰ الْمَدِينَةِ﴾ عن غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ وقال أبو إسحاق فِي قِصَّةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ: فَبَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُقِيمٌ هُنَاكَ اقْتَتَلَ عَلَىٰ الْمَاءِ (جَهْجَاهُ بْنُ سَعِيدٍ الْغِفَارِيُّ) وَكَانَ أَجِيرًا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وسنان بن يزيد، فَقَالَ سِنَانٌ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، وَقَالَ

الْجَهْجَاهُ: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، وَزَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ وَنَفَرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ عِنْدَ (عَبْدِ اللهِ ابْنِ أُبي) فَلَمَّا سَمِعَهَا قَالَ: قَدْ ثَاوَرُونَا فِي بِلَادِنَا وَاللهِ مَا مَثَلُنَا وَجَلَابِيبُ قُرَيْشٍ هَذِهِ إِلَّا كَمَا قَالَ الْقَائِلُ: سمِّن كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ، وَاللهِ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَىٰ مَنْ عِنْدَهُ مِنْ قَوْمِهِ، وَقَالَ: هَذَا مَا صَنَعْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ أَحْلَلْتُمُوهُمْ بِلَادَكُمْ، وَقَاسَمْتُمُوهُمْ أَمْوَالَكُمْ، أَمَا وَاللهِ لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بِلَادِكُمْ إِلَىٰ غَيْرِهَا، فَسَمِعَهَا (زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ) رضي الله عنه ، فَذَهَبَ بِهَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عليه وسلم، وهو غليم عنده عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللهِ! مُرْ عَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ فَلْيَضْرِبْ عُنُقَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **فَكَيْفَ إِذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ يَا عُمَرُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ، لَا، وَلَكِنْ نَادِ يا عمر: الرَّحِيلِ**»(١)، فَلَمَّا بَلَغَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبي أَنَّ ذَلِكَ قَدْ بَلَغَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَتَاهُ فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ، وَحَلَفَ بِاللهِ مَا قَالَ، مَا قَالَ عَلَيْهِ (زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ) وَكَانَ عِنْدَ قَوْمِهِ بِمَكَانٍ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ عَسَىٰ أَن يَكُونَ هَذَا الْغُلَامُ أَوْهَمَ وَلَمْ يُثْبِتْ مَا قَالَ الرَّجُلُ، وَرَاحَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُهَجِّرًا فِي سَاعَةٍ كَانَ لَا يَرُوحُ فِيهَا، فَلَقِيَهُ (أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ بِتَحِيَّةِ النُّبُوَّةِ، ثُمَّ قَالَ: وَاللهِ لقد رحت في ساعة مبكرة مَا كُنْتَ تَرُوحُ فِيهَا، فَقَالَ رَسُولُ

(١) البخاري (٤٩٠٧) ومسلم (٢٥٨٤) .

اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَا بَلَغَكَ مَا قَالَ صَاحِبُكَ ابْنُ أُبي؟ زَعَمَ أَنَّهُ إِذَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ سَيُخْرِجُ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ»، قَالَ: فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ الْعَزِيزُ وَهُوَ الذَّلِيلُ، ثُمَّ قَالَ: ارْفُقْ بِهِ يَا رَسُولَ اللهِ ، فَوَاللهِ لَقَدْ جَاءَ اللهُ بِكَ، وَإِنَّا لَنَنْظِمُ لَهُ الْخَرَزَ لِنُتَوِّجَهُ، فَإِنَّهُ لَيَرَىٰ أَنْ قَدِ سلبته مُلْكًا، فَسَارَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّاسِ حتىٰ أمسوا وليلته حَتَّىٰ أَصْبَحُوا، وَصَدَرَ يَوْمَهُ حَتَّىٰ اشْتَدَّ الضُّحَىٰ، ثُمَّ نَزَلَ بِالنَّاسِ لِيَشْغَلَهُمْ عَمَّا كَانَ مِنَ الْحَدِيثِ، فَلَمْ يَأْمَنِ النَّاسُ أَنْ وَجَدُوا مَسَّ الْأَرْضِ فَنَامُوا، وَنَزَلَتْ سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ، ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ توَهَّمُوا أَنَّ الْعِزَّةَ بِكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَتْبَاعِ، فَبَيَّنَ اللهُ أَنَّ الْعِزَّةَ والمنعة والقوة لله. فَعِزَّةُ اللهِ قَهْرُهُ مَنْ دُونَهُ، وَعِزَّةُ رَسُولِهِ إِظْهَارُ دِينِهِ عَلَىٰ الْأَدْيَانِ كُلِّهَا، وَعِزَّةُ الْمُؤْمِنِينَ نَصْرُ اللهِ إِيَّاهُمْ عَلَىٰ أَعْدَائِهِمْ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذَلِكَ، وَلَوْ عَلِمُوا مَا قَالُوا هذه المقالة.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ﴾ لَا تَشْغَلْكُمْ ﴿أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: يَعْنِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: «أَفْضَلُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ بِالْلِسَانِ ذِكْرُ اللهِ عِنْدَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ» ، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: وَخُصَّ الْأَمْوَالُ وَالْأَوْلَادُ بِتَوَجُّهِ النَّهْيِ عَنِ الِاشْتِغَالِ بِهَا اشْتِغَالًا يُلْهِي عَنْ ذِكْرِ اللهِ ؛ لِأَنَّ الْأَمْوَالَ مِمَّا يَكْثُرُ إِقْبَالُ النَّاسِ عَلَىٰ إِنْمَائِهَا وَالتَّفْكِيرِ فِي اكْتِسَابِهَا بِحَيْثُ تَكُونُ أَوْقَاتُ الشُّغْلِ بِهَا أَكْثَرَ مِنْ أَوْقَاتِ الشُّغْلِ بِالْأَوْلَادِ، وَلِأَنَّهَا كَمَا تَشْغَلُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ بِصَرْفِ الْوَقْتِ فِي كَسْبِهَا وَنَمَائِهَا، تَشْغَلُ عَنْ ذِكْرِهِ

أَيْضًا بِالتَّذْكِيرِ لِكَنْزِهَا بِحَيْثُ يُنْسَىٰ ذِكْرُ مَا دَعَا اللهُ إِلَيْهِ مِنْ إِنْفَاقِهَا، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أَيْ مَنْ شَغَلَهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لِلسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، لِأَنَّهُمْ آثَرُوا مَا يَفْنَىٰ عَلَىٰ مَا يَبْقَىٰ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ زَكَاةَ الْأَمْوَالِ، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ فَيَسْأَلُ الرَّجْعَةَ، ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي﴾ هَلَّا أَخَّرْتَنِي أَمْهَلْتَنِي، أي: لأتدارك ما فرطت فيه، ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ مِنْ مَالِي، مَا بِهِ أَنْجُو مِنَ الْعَذَابِ، وَأَسْتَحِقُّ بِهِ جَزِيلَ الثَّوَابِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَذِهِ الْآيَةُ أَشَدُّ عَلَىٰ أَهْلِ التَّوْحِيدِ، لِأَنَّهُ لَا يَتَمَنَّىٰ الرُّجُوعَ فِي الدُّنْيَا أَوِ التَّأْخِيرَ فِيهَا أَحَدٌ لَهُ عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ فِي الْآخِرَةِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: إِلَّا الشَّهِيدَ فَإِنَّهُ يَتَمَنَّىٰ الرُّجُوعَ حَتَّىٰ يُقْتَلَ، لِمَا يَرَىٰ مِنَ الْكَرَامَةِ، ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أَيْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ قَالَ الطَّبَرِيُّ: لَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ فِي أَجَلِ أَحَدٍ فَيُمَدَّ لَهُ فِيهِ إِذَا حَضَرَ أَجَلُهُ، وَلَكِنْ يَخْتَرِمُهُ ﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يَقُولُ: وَاللهُ ذُو خِبْرَةٍ وَعِلْمٍ بِأَعْمَالِ عَبِيدِهِ هُوَ بِجَمِيعِهَا مُحِيطٌ، لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَهُوَ مُجَازِيهِمْ بِهَا، الْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُنَافِقُونَ، بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ التَّغَابُنِ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ، نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْجُمُعَةِ وَقَبْلَ سُورَةِ الصَّفِّ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ أَنَّ جَمِيعَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ يُسَبِّحُ لَهُ وَيُمَجِّدُهُ وَيُقَدِّسُهُ، وَيُصَلِّي لَهُ وَيُوَحِّدُهُ، كَقَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ أَيْ: هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ، وَسُلْطَانُهُ مَاضٍ وَقَضَاؤُهُ نَافِذٌ فِي جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ عَلَىٰ جَمِيعِ مَا يَخْلُقُهُ وَيُقَدِّرُهُ. وَقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيْ: مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَكُلُّ أَمْرٍ أَرَادَهُ فَلَا مَانِعَ لَهُ وَلَا مُدَافِعَ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ اللهَ خَلَقَ بَنِي آدَمَ مُؤْمِنًا وَكَافِرًا يُعِيدُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا خَلَقَهُمْ مُؤْمِنًا وَكَافِرًا، وَقَالَ جَمَاعَةٌ: مَعْنَىٰ الْآيَةِ إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ

ثُمَّ كَفَرُوا وَآمَنُوا، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ ذَكَرَ الْخَلْقَ ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِفِعْلِهِمْ، فَقَالَ ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي تَأْوِيلِهَا ، فروي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: فَمِنْكُمْ كَافِرٌ فِي حَيَاتِهِ مُؤْمِنٌ فِي الْعَاقِبَةِ، وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ فِي حَيَاتِهِ كَافِرٌ فِي الْعَاقِبَةِ ، وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ: فَمِنْكُمْ كَافِرٌ بِاللهِ مُؤْمِنٌ بِالْكَوَاكِبِ، وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ بِاللهِ كَافِرٌ بِالْكَوَاكِبِ، وَقِيلَ : فَمِنْكُمْ كَافِرٌ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خَلَقَهُ وَهُوَ مَذْهَبُ الدَّهْرِيَّةِ، وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ بِأَنَّ اللهَ خَلَقَهُ ، وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِيهِ أَنَّ اللهَ خَلَقَ الْكَافِرَ، وَكُفْرُهُ فِعْلًا لَهُ وَكَسْبًا، وَخَلَقَ الْمُؤْمِنَ، وَإِيمَانُهُ فِعْلًا لَهُ وَكَسْبًا، فَلِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ كَسْبٌ وَاخْتِيَارٌ وَكَسْبُهُ وَاخْتِيَارُهُ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَمَشِيئَتِهِ، فَالْمُؤْمِنُ بَعْدَ خَلْقِ اللهِ إِيَّاهُ يَخْتَارُ الْإِيمَانَ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَرَادَ ذَلِكَ مِنْهُ وَقَدَّرَهُ عليه وعلم مِنْهُ، وَالْكَافِرُ بَعْدَ خَلْقِ اللهِ تَعَالَىٰ إِيَّاهُ يَخْتَارُ الْكُفْرَ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَرَادَ ذَلِكَ مِنْهُ وَقَدَّرَهُ عَلَيْهِ وَعَلِمَهُ مِنْهُ، وَهَذَا طَرِيقُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ مَنْ سَلَكَهُ أَصَابَ الْحَقَّ وَسَلِمَ مِنَ الْجَبْرِ وَالْقَدَرِ، وَقَالَ سِيلَانُ: قَدِمَ أَعْرَابِيٌّ الْبَصْرَةَ ، فَقِيلَ لَهُ: مَا تَقُولُ فِي الْقَدَرِ؟ فَقَالَ: أَمْرٌ تَغَالَتْ فِيهِ الظُّنُونُ، وَاخْتَلَفَ فِيهِ الْمُخْتَلِفُونَ، فَالْوَاجِبُ أَنْ نَرُدَّ مَا أَشْكَلَ عَلَيْنَا مِنْ حُكْمِهِ إِلَىٰ مَا سَبَقَ مِنْ عِلْمِهِ ، وقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَيْ هُوَ الْخَالِقُ لَكُمْ عَلَىٰ هَذِهِ الصِّفَةِ، فَلَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ، وَهُوَ الْبَصِيرُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الضَّلَالَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ:﴿والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ:

[٣] : ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أَيْ بِالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَيْ خَلَقَهَا حَقًّا يَقِينًا لَا رَيْبَ فِيهِ، وَقِيلَ: الْبَاءُ بِمَعْنَىٰ اللَّامِ أَيْ خَلَقَهَا لِلْحَقِّ وَهُوَ أَنْ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بالحسنىٰ. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أَيْ أَحْسَنَ أَشْكَالَكُمْ، وَمِنْ حُسْنِ صُورَتِهِ أَنَّهُ خُلِقَ مُنْتَصِبًا غَيْرَ مُنْكَبٍّ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤] ، ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي المرجع والمآل، فَيُجَازِي كُلًّا بعمله.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أَيْ: مِنَ السَّرَائِرِ وَالظَّوَاهِرِ، وَالْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَيْ: بِمَا فِيهَا مِنَ الْأَسْرَارِ الطَّيِّبَةِ، وَالْخَبَايَا الْخَبِيثَةِ، وَالنِّيَّاتِ الصَّالِحَةِ، وَالْمَقَاصِدِ الْفَاسِدَةِ، فَإِذَا كَانَ عَلِيمًا بِذَاتِ الصُّدُورِ، تَعَيَّنَ عَلَىٰ الْعَاقِلِ الْبَصِيرِ، أَنْ يَحْرِصَ وَيَجْتَهِدَ فِي حِفْظِ بَاطِنِهِ، مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَاتِّصَافِهِ بِالْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ يُخَاطِبُ كُفَّارَ مَكَّةَ، ﴿نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ يَعْنِي الْأُمَمَ الْخَالِيَةَ، ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ يَعْنِي مَا لَحِقَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا، وَالْوَبَالُ: السُّوءُ وَمَا يُكْرَهُ ، وَالْأَمْرُ: الشَّأْنُ وَالْحَالُ ، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة ، قَالَ السَّعْدِيُّ : لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَىٰ مِنْ أَوْصَافِهِ الْكَامِلَةِ الْعَظِيمَةِ، مَا بِهِ يُعْرَفُ وَيُعْبَدُ، وَيُبْذَلُ الْجُهْدُ فِي مَرْضَاتِهِ، وَتُجْتَنَبُ مَسَاخِطُهُ، أَخْبَرَ بِمَا فَعَلَ

بِالْأُمَمِ السَّابِقِينَ، وَالْقُرُونِ الْمَاضِينَ، الَّذِينَ لَمْ تَزَلْ أَنْبَاؤُهُمْ يَتَحَدَّثُ بِهَا الْمُتَأَخِّرُونَ، وَيُخْبِرُ بِهَا الصَّادِقُونَ، وَأَنَّهُمْ حِينَ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ بِالْحَقِّ، كَذَّبُوهُمْ وَعَانَدُوهُمْ، فَأَذَاقَهُمُ اللهُ وَبَالَ أَمْرِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَأَخْزَاهُمْ فِيهَا.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ﴾ الْعَذَابُ الذي أحللناه بهم ﴿بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَيْ بِالدَّلَائِلِ الْوَاضِحَةِ، ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ مِنَ الْبَشَرِ، ومعناه يُنْكِرُونَ وَيَقُولُونَ آدَمِيٌّ مِثْلُنَا يَهْدِينَا، ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَىٰ اللهُ﴾ عَنْ إِيمَانِهِمْ، قَالَ مُقَاتِلٌ: أَيْ بِسُلْطَانِهِ عَنْ طَاعَةِ عِبَادِهِ، وَقِيلَ: اسْتَغْنَىٰ اللهُ بِمَا أَظْهَرَهُ لَهُمْ مِنَ الْبُرْهَانِ وَأَوْضَحَهُ لَهُمْ مِنَ الْبَيَانِ، عَنْ زِيَادَةٍ تَدْعُو إِلَىٰ الرُّشْدِ وَتَقُودُ إِلَىٰ الْهِدَايَةِ، ﴿وَاللهُ غَنِيٌّ﴾ عَنْ خَلْقِهِ، ﴿حَمِيدٌ﴾ فِي أَفْعَالِهِ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ أَيْ ظَنُّوا الزعم هو القول بالظن، وقال شريح: لكل شي كُنْيَةٌ وَكُنْيَةُ الْكَذِبِ زَعَمُوا ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ أَيْ لَتُخْرَجُنَّ مِنْ قُبُورِكُمْ أَحْيَاءً، ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ لَتُخْبَرُنَّ، ﴿بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أَيْ بِأَعْمَالِكُمْ، ﴿وَذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرٌ﴾ إِذِ الْإِعَادَةُ أَسْهَلُ مِنَ الِابْتِدَاءِ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بَعْدَ أَنْ عَرَّفَهُمْ قِيَامَ السَّاعَةِ، ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَهُوَ نُورٌ يُهْتَدَىٰ بِهِ مِنْ ظُلْمَةِ الضَّلَالِ، ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمُ الصَّالِحَةِ وَالسَّيِّئَةِ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْمَعُ فِيهِ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَسَمَّىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ التَّغَابُنِ، لِأَنَّهُ غَبَنَ فِيهِ أَهْلُ الْجَنَّةِ أَهْلَ النَّارِ، أَيْ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ أَخَذُوا الْجَنَّةَ، وَأَخَذَ أَهْلُ النَّارِ النَّارَ عَلَىٰ طَرِيقِ الْمُبَادَلَةِ، فَوَقَعَ الْغَبْنُ لِأَجْلِ مُبَادَلَتِهِمُ الْخَيْرَ بِالشَّرِّ، وَالْجَيِّدَ بِالرَّدِيءِ، وَالنَّعِيمَ بِالْعَذَابِ، يُقَالُ: غَبَنْتُ فُلَانًا إِذَا بَايَعْتُهُ أَوْ شَارَيْتُهُ فَكَانَ النَّقْصُ عَلَيْهِ وَالْغَلَبَةُ لَكَ ، وَكَذَا أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ، قالَ الْمُفَسِّرُونَ: فَالْمَغْبُونُ مَنْ غُبِنَ أَهْلُهُ وَمَنَازِلُهُ فِي الْجَنَّةِ ، وَيَظْهَرُ يَوْمَئِذٍ غَبْنُ كُلِّ كَافِرٍ بِتَرْكِ الْإِيمَانِ، وَغَبْنُ كُلِّ مُؤْمِنٍ بِتَقْصِيرِهِ فِي الْإِحْسَانِ وَتَضْيِيعِهِ الْأَيَّامَ ، قَالَ الزَّجَّاجُ: وَيَغْبِنُ مَنِ ارْتَفَعَتْ مَنْزِلَتُهُ فِي الْجَنَّةِ مَنْ كَانَ دُونَ مَنْزِلَتِهِ ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : بَلَغَنَا أَنَّ التَّغَابُنَ فِي ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: رَجُلٌ عَلِمَ عِلْمًا فَعَلَّمَهُ وَضَيَّعَهُ هُوَ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ فَشَقِيَ بِهِ، وَعَمِلَ بِهِ مَنْ تَعَلَّمَهُ مِنْهُ فَنَجَا بِهِ، وَرَجُلٌ اكْتَسَبَ مَالًا مِنْ وُجُوهٍ يُسْأَلُ عَنْهَا وَشَحَّ عَلَيْهِ، وَفَرَّطَ فِي طَاعَةِ رَبِّهِ بِسَبَبِهِ، وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ خَيْرًا، وَتَرَكَهُ لِوَارِثٍ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ فِيهِ، فَعَمِلَ ذَلِكَ الْوَارِثُ فِيهِ بِطَاعَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ كَانَ لَهُ عَبْدٌ فَعَمِلَ الْعَبْدُ بِطَاعَةِ رَبِّهِ فَسَعِدَ، وَعَمِلَ السَّيِّدُ بِمَعْصِيَةِ وبه فَشَقِيَ، قَالَ السَّعْدِيُّ : أَيْ: يَظْهَرُ فِيهِ التَّغَابُنُ وَالتَّفَاوُتُ بَيْنَ الْخَلَائِقِ، وَيَغْبِنُ الْمُؤْمِنُونَ الْفَاسِقِينَ، وَيَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ غَيْرِ شَيْءٍ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الْخَاسِرُونَ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: بِأَيِّ شَيْءٍ يَحْصُلُ الْفَلَاحُ وَالشَّقَاءُ وَالنَّعِيمُ وَالْعَذَابُ؟ فَذَكَرَ تَعَالَىٰ أَسْبَابَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ﴾ أَيْ: إِيمَانًا تَامًّا، شَامِلًا لِجَمِيعِ مَا أَمَرَ اللهُ

بِالْإِيمَانِ بِهِ، ﴿وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ مِنَ الْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ، مِنْ أَدَاءِ حُقُوقِ اللهِ وَحُقُوقِ عِبَادِهِ. ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ، وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ، وَتَخْتَارُهُ الْأَرْوَاحُ، وَتَحِنُّ إِلَيْهِ الْقُلُوبُ، وَيَكُونُ نِهَايَةَ كُلِّ مَرْغُوبٍ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أَيْ: كَفَرُوا بِهَا مِنْ غَيْرِ مُسْتَنَدٍ شَرْعِيٍّ وَلَا عَقْلِيٍّ، بَلْ جَاءَتْهُمُ الْأَدِلَّةُ وَالْبَيِّنَاتُ، فَكَذَّبُوا بِهَا، وَعَانَدُوا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ ، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ لِأَنَّهَا جَمَعَتْ كُلَّ بُؤْسٍ وَشِدَّةٍ، وَشَقَاءٍ وَعَذَابٍ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ بِإِرَادَتِهِ وَقَضَائِهِ، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: يُرِيدُ إِلَّا بِأَمْرِ اللهِ ، وَقِيلَ: إِلَّا بِعِلْمِ اللهِ ، وَقِيلَ: سَبَبُ نُزُولِهَا أَنَّ الْكُفَّارَ قَالُوا: لَوْ كَانَ مَا عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ حَقًّا لَصَانَهُمُ اللهُ عَنِ الْمَصَائِبِ فِي الدُّنْيَا، فَبَيَّنَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي نَفْسٍ أَوْ مَالٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، يَقْتَضِي هَمًّا أَوْ يُوجِبُ عِقَابًا عَاجِلًا أَوْ آجِلًا فَبِعِلْمِ اللهِ وَقَضَائِهِ، ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ﴾ فَيُصَدِّقْ أَنَّهُ لَا يُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ لِلصَّبْرِ وَالرِّضَا، وَقِيلَ: يُثَبِّتْهُ عَلَىٰ الْإِيمَانِ ، قَالَ البغوي : يُوَفِّقْهُ لِلْيَقِينِ حَتَّىٰ يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ فَيُسَلِّمَ لِقَضَائِهِ، وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ الْجِيزِيُّ: مَنْ صَحَّ إِيمَانُهُ يَهْدِ اللهُ قَلْبَهُ لِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ ، وَقِيلَ: وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ فيقول: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ أَنْ

يَجْعَلَ اللهُ فِي قَلْبِهِ الْيَقِينَ لِيَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: هُوَ إِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أُنْعِمَ عَلَيْهِ شَكَرَ، وَإِذَا ظُلِمَ غَفَرَ. وَقِيلَ: يَهْدِ قَلْبَهُ إِلَىٰ نَيْلِ الثَّوَابِ فِي الْجَنَّةِ ، ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ تَسْلِيمُ مَنِ انْقَادَ وَسَلَّمَ لأمره، ولا كراهة من كرهه.

[١٢] قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أَيْ: فِي امْتِثَالِ أَمْرِهِمَا، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِمَا، فَإِنَّ طَاعَةَ اللهِ وَطَاعَةَ رَسُولِهِ، مَدَارُ السَّعَادَةِ، وَعُنْوَانُ الْفَلَاحِ، ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أَيْ عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، ﴿فإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أَيْ: يُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلَ بِهِ إِلَيْكُمْ، بَلَاغًا يُبَيِّنُ لَكُمْ وَيَتَّضِحُ وَتَقُومُ عَلَيْكُمْ بِهِ الْحُجَّةُ، وَلَيْسَ بِيَدِهِ مِنْ هِدَايَتِكُمْ، وَلَا مِنْ حِسَابِكُمْ مِنْ شَيْءٍ، وَإِنَّمَا يُحَاسِبُكُمْ عَلَىٰ الْقِيَامِ بِطَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، أَوْ عَدَمِ ذَلِكَ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : أَيْ هَوِّنُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمُ الْمَصَائِبَ، وَاشْتَغِلُوا بِطَاعَةِ اللهِ، وَاعْمَلُوا بِكِتَابِهِ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فِي الْعَمَلِ بِسُنَّتِهِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ عَنِ الطَّاعَةِ فَلَيْسَ عَلَىٰ الرَّسُولِ إِلَّا التَّبْلِيغُ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اللهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾ أَيْ: هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ، فَكُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ فَبَاطِلٌ، ﴿وَعَلَىٰ اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: فَلْيَعْتَمِدُوا عَلَيْهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ نَابَهُمْ، وَفِيمَا يُرِيدُونَ الْقِيَامَ بِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَتَيَسَّرُ أَمْرٌ مِنَ الْأُمُورِ إِلَّا بِاللهِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ ذَلِكَ إِلَّا بِالِاعْتِمَادِ عَلَىٰ اللهِ، وَلَا يَتِمُّ الِاعْتِمَادُ عَلَىٰ اللهِ، حَتَّىٰ يُحْسِنَ الْعَبْدُ ظَنَّهُ بِرَبِّهِ، وَيَثِقَ بِهِ فِي كِفَايَتِهِ الْأَمْرَ الَّذِي

اعْتَمَدَ عَلَيْهِ بِهِ، وَبِحَسَبِ إِيمَانِ الْعَبْدِ يَكُونُ تَوَكُّلُهُ، فَكُلَّمَا قَوِيَ الْإِيمَانُ قَوِيَ التَّوَكُّلُ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَؤُلَاءِ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ أَسْلَمُوا وَأَرَادُوا أَنْ يُهَاجِرُوا إِلَىٰ الْمَدِينَةِ فَمَنَعَهُمْ أَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ، وَقَالُوا صَبَرْنَا عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ فَلَا نَصْبِرُ عَلَىٰ فِرَاقِكُمْ فَأَطَاعُوهُمْ، وَتَرَكُوا الْهِجْرَةَ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ أن تطيعوهم وتدعو الْهِجْرَةَ، **وَالْحَذَرُ عَلَىٰ النَّفْسِ** يَكُونُ بِوَجْهَيْنِ: إِمَّا لِضَرَرٍ فِي الْبَدَنِ، وَإِمَّا لِضَرَرٍ فِي الدِّينِ، وَضَرَرُ الْبَدَنِ يَتَعَلَّقُ بِالدُّنْيَا، وَضَرَرُ الدِّينِ يَتَعَلَّقُ بِالْآخِرَةِ. فَحَذَّرَ اللهُ سُبْحَانَهُ الْعَبْدَ مِنْ ذَلِكَ وَأَنْذَرَهُ بِهِ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ فِي طَرِيقِ الْإِيمَانِ، فَقَالَ لَهُ: أَتُؤْمِنُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ؟ فَخَالَفَهُ فَآمَنَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ عَلَىٰ طَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ لَهُ: أَتُهَاجِرُ وَتَتْرُكُ مَالَكَ وَأَهْلَكَ؟ فَخَالَفَهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ عَلَىٰ طَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ لَهُ: أَتُجَاهِدُ فَتَقْتُلُ نَفْسَكَ فَتُنْكَحُ نِسَاؤُكَ وَيُقْسَمُ مَالُكَ؟ فَخَالَفَهُ فَجَاهَدَ فَقُتِلَ، فَحَقٌّ عَلَىٰ اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ**»(١)، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَقُعُودُ الشَّيْطَانِ يَكُونُ بِوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: يَكُونُ بِالْوَسْوَسَةِ.

---

(١) أحمد (١٦٠٠١) والنسائي (٣١٣٤).

وَالثَّانِي: بِأَنْ يُحْمَلَ عَلَىٰ مَا يُرِيدُ مِنْ ذَلِكَ الزَّوْجِ وَالْوَلَدِ وَالصَّاحِبِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥] ، وَفِي حِكْمَةِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَنِ اتَّخَذَ أَهْلًا وَمَالًا وَوَلَدًا كَانَ لِلدُّنْيَا عَبْدًا ، ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هَذَا فِيمَنْ أَقَامَ عَلَىٰ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَلَمْ يُهَاجِرْ فَإِذَا هَاجَرَ رأىٰ الذين سبقوه بالهجرة وقد فَقِهُوا فِي الدِّينِ هَمَّ أَنْ يعاقب زوجته وولده الذين ثبطوه عَنِ الْهِجْرَةِ، وَإِنْ لَحِقُوا بِهِ فِي دَارِ الْهِجْرَةِ لَمْ يُنْفِقْ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُصِبْهُمْ بِخَيْرٍ، فَأَمَرَهُمُ الله عز وجل بالعفو عنهم والصفح. وَالْآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَعْصِيَةٍ يَرْتَكِبُهَا الْإِنْسَانُ بِسَبَبِ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ ، وَخُصُوصُ السَّبَبِ لَا يَمْنَعُ عُمُومَ الْحُكْمِ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ بَلَاءٌ وَاخْتِبَارٌ وَشُغْلٌ عَنِ الْآخِرَةِ، يَقَعُ بِسَبَبِهَا الْإِنْسَانُ فِي الْعَظَائِمِ وَمَنْعِ الْحَقِّ وَتَنَاوُلِ الْحَرَامِ، وَعَنْ بَعْضِ السَّلَفِ: العيال سوس الطاعات ، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمُ اللَّهُمَّ اعْصِمْنِي مِنَ الْفِتْنَةِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَرْجِعُ إِلَىٰ مَالٍ وَأَهْلٍ وَوَلَدٍ إِلَّا وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَىٰ فِتْنَةٍ، وَلَكِنْ لِيَقُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ ، ﴿وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ، فَجَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَعَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ، يَمْشِيَانِ وَيَعْثِرَانِ، فَنَزَلَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمَلَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: « **صَدَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ** : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ ، **نَظَرْتُ**

إِلَىٰ هَذَيْنَ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثِرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّىٰ قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا»، ثُمَّ أخذ في خطبته(١).

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي أَطَقْتُمْ، ذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ إِلَىٰ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَاسِخَةٌ لِقَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] إِنَّهَا لَمْ تُنْسَخْ، وَلَكِنَّ حَقَّ تُقَاتِهِ أَنْ يُجَاهَدَ لِلَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلَا يَأْخُذَهُمْ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَيَقُومُوا لِلَّهِ بِالْقِسْطِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَآبَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ، ﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ أَيِ اسْمَعُوا مَا تُوعَظُونَ بِهِ وَأَطِيعُوا فِيمَا تُؤْمَرُونَ بِهِ وَتُنْهَوْنَ عَنْهُ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: اسْمَعُوا أَيِ اصْغَوْا إِلَىٰ مَا يَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِ اللهِ، وَهُوَ الْأَصْلُ فِي السَّمَاعِ. وَأَطِيعُوا لِرَسُولِهِ فِيمَا أَمَرَكُمْ أَوْ نَهَاكُمْ، ﴿وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِكُمْ خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: هُوَ النَّفَقَةُ فِي الْجِهَادِ، وقال الْحَسَنُ: هُوَ نَفَقَةُ الرَّجُلِ لِنَفْسِهِ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَإِنَّمَا أَوْقَعَ قَائِلَ هَذَا قَوْلُهُ: لِأَنْفُسِكُمْ وَخَفِيَ عَلَيْهِ أَنَّ نَفَقَةَ النَّفْلِ وَالْفَرْضِ فِي الصَّدَقَةِ هِيَ نَفَقَةُ الرَّجُلِ عَلَىٰ نَفْسِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الاسراء: ٧]، وَكُلُّ مَا يَفْعَلُهُ الرَّجُلُ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّمَا هُوَ لِنَفْسِهِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا عَامَّةٌ، ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ حَتَّىٰ يُعْطِيَ حَقَّ اللهِ مِنْ ماله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ

---

(١) أحمد (٢٢٩٩٤) والترمذي (٣٧٧٤).

الْمُفْلِحُونَ﴾ لِأَنَّهُمْ أَدْرَكُوا الْمَطْلُوبَ، وَنَجَوْا مِنَ الْمَرْهُوبِ ، ثُمَّ رَغَّبَ تَعَالَىٰ فِي النَّفَقَةِ فَقَالَ:

[١٧] : ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وَهُوَ كُلُّ نَفَقَةٍ كَانَتْ مِنَ الْحَلَالِ، إِذَا قَصَدَ بِهَا الْعَبْدُ وَجْهَ اللهِ تَعَالَىٰ وَطَلَبَ مَرْضَاتِهِ، وَوَضَعَهَا فِي مَوْضِعِهَا ﴿يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ النَّفَقَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَىٰ سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، إِلَىٰ أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَمَعَ الْمُضَاعَفَةِ أَيْضًا ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بِسَبَبِ الْإِنْفَاقِ وَالصَّدَقَةِ ذُنُوبَكُمْ، فَإِنَّ الذُّنُوبَ يُكَفِّرُهَا اللهُ بِالصَّدَقَاتِ وَالْحَسَنَاتِ: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود : ١١٤] ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ لَا يُعَاجِلُ مَنْ عَصَاهُ، بَلْ يُمْهِلُهُ وَلَا يُهْمِلُهُ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أَيْ: مَا غَابَ عَنِ الْعِبَادِ مِنَ الْجُنُودِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَمَا يُشَاهِدُونَهُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، ﴿الْعَزِيزُ﴾ الَّذِي لَا يُغَالَبُ وَلَا يُمَانَعُ، الَّذِي قَهَرَ كُلَّ الْأَشْيَاءِ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّغَابُنِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الطَّلَاقِ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ ، وَسَبَبُ نُزُولِهَا مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ طَرِيقِ ابْنِ جُرَيْجٍ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سمع عبد الرحمن بْنَ أَيْمَنَ يَسْأَلُ ابْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما كَيْفَ تَرَىٰ فِي الرَّجُلِ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ حَائِضًا؟ فَقَالَ: طَلَّقَ ابْنُ عُمَرَ امْرَأَتَهُ حَائِضًا عَلَىٰ عَهْدِ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَ عُمَرُ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ: لِيُرَاجِعْهَا، فَرَدَّهَا وَقَالَ: إِذَا طَهُرَتْ فَلْيُطَلِّقْ أَوْ لِيُمْسِكْ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ ، وَقَرَأَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَ﴾.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خُوطِبَ بِلَفْظِ الْجَمَاعَةِ تَعْظِيمًا وَتَفْخِيمًا ؛ لِأَنَّهُ السَّيِّدُ الْمُقَدَّمُ، فَخِطَابُ الْجَمِيعِ مَعَهُ، وَقِيلَ: مَجَازُهُ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأُمَّتِكَ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ، أَي إِذَا أَرَدْتُمْ تَطْلِيقَهُنَّ، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ [النَّحْلِ: ٩٨] أَيْ إِذَا أَرَدْتَ القراءة ، ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أَيْ لِطُهْرِهِنَّ بِالَّذِي يَقْضِينَهُ مِنْ عِدَّتِهِنَّ ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: « **لَا يُطَلِّقُهَا وَهِيَ حَائِضٌ ، وَلَا فِي طُهْرٍ قَدْ جَامَعَهَا فِيهِ، وَلَكِنْ: يَتْرُكُهَا حَتَّىٰ إِذَا حَاضَتْ وَطَهُرَتْ طَلَّقَهَا**

تَطْلِيقَةً»[1] ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: الْعِدَّةُ: الطُّهْرُ، وَالْقُرْءُ: الْحَيْضَةُ، أَنْ يُطَلِّقَهَا حُبْلَىٰ مُسْتَبِينًا حَمْلُهَا، وَلَا يُطَلِّقَهَا وَقَدْ طَافَ عَلَيْهَا، وَلَا يَدْرِي حُبْلَىٰ هِيَ أَمْ لَا. قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : ومن ههنا أَخَذَ الْفُقَهَاءُ أَحْكَامَ الطَّلَاقِ، وَقَسَّمُوهُ إِلَىٰ طَلَاقِ سُنّة، وَطَلَاقِ بِدْعَةٍ، فَطَلَاقُ السُّنَّةِ أَنْ يُطَلِّقَهَا طاهرة مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ، أَوْ حَامِلًا قَدِ اسْتَبَانَ حملها، والبدعي أَنْ يُطَلِّقَهَا فِي حَالِ الحيضِ، أَوْ فِي طُهْرٍ قَدْ جَامَعَهَا فِيهِ، وَلَا يَدْرِي أَحَمَلَتْ أَمْ لَا؛ وَطَلَاقٌ ثَالِثٌ لَا سُنَّةَ فِيهِ وَلَا بِدْعَةَ وَهُوَ طَلاق الصَّغِيرَةِ وَالْآيِسَةِ وَغَيْرِ المدخول بها، ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أي عدد أقرائها فاحفظوها، قِيلَ: أَمَرَ بِإِحْصَاءِ الْعِدَّةِ لِتَفْرِيقِ الطَّلَاقِ عَلَىٰ الْأَقْرَاءِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُطَلِّقَ ثَلَاثًا ، وَقِيلَ: لِلْعِلْمِ بِبَقَاءِ زَمَانِ الرَّجْعَةِ وَمُرَاعَاةِ أَمْرِ النَّفَقَةِ وَالسُّكْنَىٰ ، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ أَرَادَ بِهِ إِذَا كَانَ الْمَسْكَنُ الَّذِي طَلَّقَهَا فِيهِ لِلزَّوْجِ لَا يجوز أَنْ يُخْرِجَهَا مِنْهُ، ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ وَلَا يَجُوزُ لَهَا أَنْ تَخْرُجَ ما لم تنقض العدة، فَإِنْ خَرَجَتْ لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ أَوْ حاجة أثمت ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ وَالْفَاحِشَةُ الْمُبَيِّنَةُ تَشْمَلُ الزِّنَا ، كَمَا قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَمُجَاهِدٌ وعكرمة وَغَيْرُهُمْ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: مَعْنَاهُ إِلَّا أَنْ يُطَلِّقَهَا عَلَىٰ نُشُوزِهَا فَلَهَا أَنْ تَتَحَوَّلَ مِنْ بَيْتِ زَوْجِهَا، وَالْفَاحِشَةُ: النُّشُوزُ ، وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ وَالسُّدِّيُّ: خُرُوجُهَا قَبْلَ انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ فَاحِشَةٌ، ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾ أَيْ شَرَائِعُهُ

---

(١) مسلم (١٤٧١).

وَمَحَارِمُهُ ، يَعْنِي مَا ذُكِرَ مِنْ سَنَةَ الطَّلَاقِ وَمَا بَعْدَهَا، قَالَ الضَّحَّاكُ: يَقُولُ: تِلْكَ طَاعَةُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، مَنْ كَانَ عَلَىٰ غَيْرِ هَذِهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ الْأَمْرُ الَّذِي يُحْدِثُهُ اللهُ أَنْ يُقَلِّبَ قَلْبَهُ مِنْ بُغْضِهَا إِلَىٰ مَحَبَّتِهَا، وَمِنَ الرَّغْبَةِ عَنْهَا إِلَىٰ الرَّغْبَةِ فِيهَا، وَمِنْ عَزِيمَةِ الطَّلَاقِ إِلَىٰ النَّدَمِ عَلَيْهِ، فَيُرَاجِعَهَا ، وَقَالَ جَمِيعُ الْمُفَسِّرِينَ: أَرَادَ بِالْأَمْرِ هُنَا الرَّغْبَةَ فِي الرَّجْعَةِ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أَيْ قَرُبْنَ مِنَ انْقِضَاءِ عِدَّتِهِنَّ، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ أَيْ رَاجِعُوهُنَّ، ﴿بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أَيِ اتْرُكُوهُنَّ حَتَّىٰ تَنْقَضِيَ عِدَّتُهُنَّ فَتَبِينَ مِنْكُمْ، ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ علىٰ الرجعة أو الفراق أَمَرَ بِالْإِشْهَادِ عَلَىٰ الرَّجْعَةِ وَعَلَىٰ الطلاق، ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ أيها الشهود، ﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فَأَمَّا غَيْرُ الْمُؤْمِنِ فَلَا يَنْتَفِعُ بِهَذِهِ الْمَوَاعِظِ ، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ وَالشَّعْبِيُّ: وَمَنْ يَتُقِ اللهَ فَيُطَلِّقْ لِلسَّنَةِ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا إِلَىٰ الرَّجْعَةِ، وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ قَالُوا: نَزَلَتْ فِي عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ أَسَرَ الْمُشْرِكُونَ ابْنًا لَهُ يُسَمَّىٰ مَالِكًا ، فَأَتَىٰ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَسْرَ العدو ابني وشكا إليه أيضا الْفَاقَةَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتَّقِ اللهَ وَاصْبِرْ وَأَكْثِرْ مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**» ، فَفَعَلَ الرَّجُلُ ذَلِكَ، فَبَيْنَمَا هُوَ فِي

بَيْتِهِ، إِذْ أَتَاهُ ابْنُهُ وَقَدْ غَفَلَ عَنْهُ الْعَدُوُّ، فَأَصَابَ إبلاً وجاء إلىٰ أبيه ، وقال الْحُسَيْنُ ابْنُ الْفَضْلِ: وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ فِي أَدَاءِ الْفَرَائِضِ، يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا من العقوبة .

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ما ساق من الغنم. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تعالىٰ عنهما وابن مسعود: هُوَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ مِنْ قِبَلِ اللهِ وَأَنَّ اللهُ رَازِقُهُ، وقال الربيع بْنُ خُثَيْمٍ: ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ضَاقَ عَلَىٰ الناس ، وقال أبو العالية: ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ مِنْ كُلِّ شِدَّةٍ ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : ﴿مَخْرَجًا﴾ عما نهاه الله عَنْهُ. وَقِيلَ: وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ فِي الرِّزْقِ بِقَطْعِ الْعَلَائِقِ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا بِالْكِفَايَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أَيْ مَنْ فَوَّضَ إِلَيْهِ أَمْرَهُ كَفَاهُ مَا أَهَمَّهُ، وَقِيلَ: أَيْ مَنِ اتَّقَىٰ اللهَ وَجَانَبَ الْمَعَاصِي وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ، فَلَهُ فِيمَا يُعْطِيهِ فِي الْآخِرَةِ مِنْ ثَوَابِهِ كِفَايَةٌ. وَلَمْ يُرِدِ الدُّنْيَا، لِأَنَّ الْمُتَوَكِّلَ قَدْ يُصَابُ فِي الدُّنْيَا وَقَدْ يُقْتَلُ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: التَّوَكُّلُ عَمَلُ الْقَلْبِ، وَقَالَ سَهْلٌ: التَّوَكُّلُ الِاسْتِرْسَالُ مَعَ اللهِ مَعَ مَا يُرِيدُ ، وَقِيلَ: هُوَ عِلْمُ الْقَلْبِ بِكِفَايَةِ الرَّبِّ لِلْعَبْدِ ، وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَىٰ اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ ، لَرُزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطانًا** » ، ﴿إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ أي منفذه أَمْرَهُ، مُمْضٍ فِي خَلْقِهِ قَضَاءَهُ ، ﴿قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي جعل الله لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ أجلا ينتهي إليه.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: يَعْنِي قَعَدْنَ عَنِ الْمَحِيضِ، ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أَيْ شَكَكْتُمْ فَلَمْ تَدْرُوا مَا عِدَّتُهُنَّ، قَالَ النَّسَفِيُّ: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أَيْ أَشْكَلَ عَلَيْكُم حُكْمُهُنَّ وَجَهِلْتُمْ كَيْفَ يَعْتَدِدْن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ أَيْ فَهَذَا حُكْمُهُنَّ، ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ يَعْنِي الصِّغَارَ اللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ فعدتهن أيضا ثلاثة أَشْهُرٍ، وَهَذَا كُلُّهُ فِي عِدَّةِ الطَّلَاقِ، أَمَّا الْمُتَوَفَّىٰ عَنْهَا زَوْجُهَا فعدتها أربعة أشهر وعشر سَوَاءٌ، كَانَتْ مِمَّنْ تَحِيضُ أَوْ لا تحيض، وأما الْحَامِلُ فَعِدَّتُهَا بِوَضْعِ الْحَمْلِ سَوَاءٌ طَلَّقَهَا زَوْجُهَا أَوْ مَاتَ عَنْهَا ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ أي يُسَهِّلْ عَلَيْهِ أَمْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خَيْثَمٍ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَضَىٰ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنَّ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ وَمَنْ آمَنَ بِهِ هَدَاهُ، وَمَنْ أَقْرَضَهُ جَازَاهُ، وَمَنْ وَثِقَ بِهِ نَجَّاهُ، وَمَنْ دَعَاهُ أَجَابَ لَهُ، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧]، ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ فِي اجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا فِي تَوْفِيقِهِ لِلطَّاعَةِ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذلِكَ أَمْرُ اللهِ﴾ أَيِ الَّذِي ذكر من الأحكام أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَبَيَّنَهُ لَكُمْ، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ﴾ أَيْ يَعْمَلُ بِطَاعَتِهِ ، ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ مِنَ الصَّلَاةِ إِلَىٰ الصَّلَاةِ، وَمِنَ الْجُمُعَةِ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ، ﴿وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾ أَيْ فِي الآخرة.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ يَعْنِي مُطَلَّقَاتِ نِسَائِكُمْ ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾ (مِنْ) صِلَةٌ أَيْ أَسْكِنُوهُنَّ حَيْثُ سكنتم ﴿مِنْ وُجْدِكُمْ﴾ سَعَتِكُمْ وَطَاقَتِكُمْ ، وَالْوُجْدُ: مُثَلَّثُ الْوَاوِ هُوَ الْوِسْعُ وَالطَّاقَةُ ، يَعْنِي إِنْ كَانَ غنيـًا يُوَسِّعُ عَلَيْهَا فِي الْمَسْكَنِ وَالنَّفَقَةِ، وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا فَعَلَىٰ قدر الطاقة، قال السدي: المرأة يطلقها، فعليه أن يسكنها، وينفق عليها، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: يَقُولُ تَعَالَىٰ آمِرًا عِبَادَهُ إِذَا طَلَّقَ أَحَدُهُمُ الْمَرْأَةَ أَنْ يُسْكِنَهَا فِي مَنْزِلٍ حَتَّىٰ تَنْقَضِيَ عِدَّتُهَا، ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ﴾ لَا تُؤْذُوهُنَّ، ﴿لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ مَسَاكِنَهُنَّ فَيَخْرُجْنَ، ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فَيَخْرُجْنَّ مِنْ عِدَّتِهِنَّ، قَالَ السَّعْدِيُّ : وَذَلِكَ لِأَجْلِ الْحَمْلِ الَّذِي فِي بَطْنِهَا، إِنْ كَانَتْ بَائِنًا، وَلَهَا وَلِحَمْلِهَا إِنْ كَانَتْ رَجْعِيَّةً، وَمُنْتَهَىٰ النَّفَقَةِ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، فَإِذَا وَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ، فَإِمَّا أَنْ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ أَوْ لَا ، وقال ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَبَسْطُ ذَلِكَ وَتَحْقِيقُهُ : أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا ذَكَرَ السُّكْنَىٰ أَطْلَقَهَا لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ، فَلَمَّا ذَكَرَ النَّفَقَةَ قَيَّدَهَا بِالْحَمْلِ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ الْمُطَلَّقَةَ الْبَائِنَ لَا نَفَقَةَ لَهَا، وَهِيَ مَسْأَلَةٌ عَظِيمَةٌ قَدْ مَهَّدْنَا سُبُلَهَا قُرْآنًا وَسُنَّةً وَمَعْنًىٰ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ ، وَهَذَا مَأْخَذُهَا مِنَ الْقُرْآنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أَيْ أَرْضَعْنَ أَوْلَادَكُمْ، ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ عَلَىٰ إِرْضَاعِهِنَّ، ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ هُوَ خِطَابٌ لِلْأَزْوَاجِ وَالزَّوْجَاتِ، أَيْ لِيَقْبَلَ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ إِذَا أمره بالمعروف، وقال الْكِسَائِيُّ: شَاوِرُوا، قَالَ مُقَاتِلٌ: بِتَرَاضِي الْأَبِ وَالْأُمِّ عَلَىٰ أَجْرٍ معين، وَالْخِطَابُ لِلزَّوْجَيْنِ جَمِيعًا، يَأْمُرُهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِالْمَعْرُوفِ وَبِمَا هُوَ الْأَحْسَنُ، ولا يقصدوا الضرار، ﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ﴾ التَّعَاسُرُ صُدُورُ الْعُسْرِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ، مِنْ قَوْلِكُمْ: عَسَرْتُ فُلَانًا، إِذَا أَخَذْتَهُ عَلَىٰ عُسْرِهِ، وَيُقَالُ: تَعَاسَرَ الْبَيِّعَانِ إِذَا لَمْ يَتَّفِقَا، فَمَعْنَىٰ تَعَاسَرْتُمْ اشْتَدَّ الْخِلَافُ بَيْنَكُمْ، وَلَمْ تَرْجِعُوا إِلَىٰ وِفَاقٍ، أَيْ فَلَا يُبْقَىٰ الْوَلَدُ بِدُونَ رَضَاعَةٍ. فإن حصل التعاسر فِي الرَّضَاعِ وَالْأُجْرَةِ فَأَبَىٰ الزَّوْجُ أن يعطي المرأة أجرتها وَأَبَتِ الْأُمُّ أَنْ تُرْضِعَهُ فَلَيْسَ لَهُ إِكْرَاهُهَا عَلَىٰ إِرْضَاعِهِ، وَلَكِنَّهُ يَسْتَأْجِرُ لِلصَّبِيِّ مُرْضِعًا غَيْرَ أُمِّهِ وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾ عَلَىٰ قَدْرِ غِنَاهُ، ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ﴾ مِنَ الْمَالِ، عَنْ أَبِي سِنَانٍ قَالَ: سَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، فَقِيلَ: إِنَّهُ يَلْبَسُ الْغَلِيظَ مِنَ الثِّيَابِ، وَيَأْكُلُ أَخْشَنَ الطَّعَامِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِأَلْفِ دِينَارٍ، وَقَالَ لِلرَّسُولِ: انْظُرْ مَا يَصْنَعُ بِهَا إِذَا هُوَ أَخَذَهَا؟ فَمَا لَبِثَ أَن لَبِسَ اللَّيِّنَ مِنَ الثِّيَابِ، وَأَكَلَ أَطْيَبَ الطَّعَامِ فَجَاءَهُ الرَّسُولُ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ: تَأَوَّلَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ آتَاهُ اللهُ﴾، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا﴾ فِي النَّفَقَةِ، ﴿إِلَّا مَا آتَاهَا﴾

أَعْطَاهَا مِنَ الْمَالِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : أَيْ لَا يُكَلِّفُ الْفَقِيرَ مِثْلَ مَا يُكَلِّفُ الْغَنِيَّ. سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً أَيْ بعد الضيق غنىٰ، وبعد الشدة سعة، ﴿سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ بُعْدَ ضَيِّقٍ وَشِدَّةٍ غِنًىٰ وَسَعَةً، وهذا وَعْدٌ مِنْهُ تَعَالَىٰ، وَوَعْدُهُ حَقٌّ لَا يُخْلِفُهُ، وأخرج الإمام أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: دَخَلَ رَجُلٌ عَلَىٰ أَهْلِهِ، فَلَمَّا رَأَىٰ مَا بِهِمْ مِّن الْحَاجَةِ خَرَجَ إِلَىٰ الْبَرِّيَّةِ، فَلَمَّا رَأَتِ امْرَأَتُهُ قَامَتْ إِلَىٰ الرَّحَىٰ فَوَضَعَتْهَا وَإِلَىٰ التَّنُّورِ فَسَجَرَتْهُ، ثُمَّ قَالَتِ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا، فَنَظَرَتْ، فَإِذَا الْجَفْنَةُ قَدِ امْتَلَأَتْ، قَالَ، وَذَهَبَتْ إِلَىٰ التَّنُّورِ فَوَجَدَتْهُ مُمْتَلِئًا، قال، فرجع الزوج فقال: أَصَبْتُمْ بَعْدِي شَيْئًا؟ قَالَتِ امْرَأَتُهُ: نَعَمْ مِنْ ربنا، فأمّ إِلَىٰ الرَّحَىٰ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَمَا إِنَّهُ لَوْ لَمْ تَرْفَعْهَا لَمْ تزل تدور إلىٰ يوم القيامة**»(١).

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ وَ(كَأَيِّنْ) بِمَعْنَىٰ كَمْ، قَالَ الْخَلِيلُ وَسِيبَوَيْهِ: هِيَ أَيُّ دَخَلَتْ عَلَيْهَا كَافُ التَّشْبِيهِ ، وَبُنِيَتْ مَعَهَا ، فَصَارَ فِي الْكَلَامِ مَعْنَىٰ (وَكَمْ) ، وَصُوِّرَتْ فِي الْمُصْحَفِ نُونًا، لِأَنَّهَا كَلِمَةٌ ، نُقِلَتْ عَنْ أَصْلِهَا فَغُيِّرَ لَفْظُهَا لِتَغَيُّرِ مَعْنَاهَا، ثُمَّ كَثُرَ اسْتِعْمَالُهَا ، وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ : لَمَّا ذَكَرَ الْأَحْكَامَ ذَكَرَ وَحَذَّرَ مُخَالَفَةَ الْأَمْرِ، وَذَكَرَ عُتُوَّ قَوْمٍ وَحُلُولَ الْعَذَابِ بِهِمْ ، ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ أَيْ وَأَمْرِ رُسُلِهِ، وَالْعُتُوُّ وَيُقَالُ الْعُتِيُّ: تَجَاوُزُ الْحَدِّ فِي الِاسْتِكْبَارِ

---

(١) أحمد (٢٥٠٩١) .

وَالْعِنَادِ ، ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ بالمعاقبة وَالِاسْتِقْصَاءِ، قَالَ مُقَاتِلٌ: حَاسَبَهَا بِعَمَلِهَا فِي الدُّنْيَا فَجَازَاهَا بِالْعَذَابِ، وَهُوَ قوله: ﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا﴾ مُنْكَرًا فَظِيعًا وَهُوَ عَذَابُ النَّارِ، لَفْظُهُمَا مَاضٍ وَمَعْنَاهُمَا الِاسْتِقْبَالُ، وَقِيلَ: فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، فَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا فِي الدُّنْيَا بِالْجُوعِ وَالْقَحْطِ وَالسَّيْفِ وَالْخَسْفِ وَالْمَسْخِ وَسَائِرِ الْمَصَائِبِ، وَحَاسَبْنَاهَا فِي الْآخِرَةِ حِسَابًا شَدِيدًا، وَالنُّكْرُ: المنكر.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ جَزَاءَ أَمْرِهَا، وَقِيلَ: ثِقَلَ عَاقِبَةِ كُفْرِهَا، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: ذَاقَتْ عَاقِبَةَ مَا عَمِلَتْ مِنَ الشَّرِّ، الْوَبَالُ: الْعَاقِبَةُ ، ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ خُسْرَانًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أَيْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مَعَ مَا عَجَّلَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ بَعْدَ مَا قَصَّ مِنْ خَبَرِ هَؤُلَاءِ: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ : أَيْ: يَا ذَوِي الْعُقُولِ، الَّتِي تَفْهَمُ عَنِ اللهِ آيَاتِهِ وَعِبَرَهُ ، وَأَنَّ الَّذِي أَهْلَكَ الْقُرُونَ الْمَاضِيَةَ بِتَكْذِيبِهِمْ، أَنَّ مَنْ بَعْدَهُمْ مِثْلُهُمْ، لَا فَرْقَ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بَدَلٌ مِنْ أُولِي الْأَلْبَابِ أَوْ نَعْتٌ لَهُمْ، أَيْ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنْتُمْ بِاللهِ ، اتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكُمُ الْقُرْآنَ، أَيْ خَافُوهُ وَاعْمَلُوا بِطَاعَتِهِ وَانْتَهُوا عَنْ مَعَاصِيهِ ، ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ يعني القرآن ، قَالَ الزَّجَّاجُ: إِنْزَالُ الذِّكْرِ دَلِيلٌ عَلَىٰ إِضْمَارِ أَرْسَلَ،

أَيْ أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ قُرْآنًا وَأَرْسَلَ رَسُولًا ، وَقِيلَ: إِنَّ الْمَعْنَىٰ قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ صَاحِبَ ذِكْرٍ رَسُولًا.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَسُولًا﴾ نَعْتٌ لِلذِّكْرِ عَلَىٰ تَقْدِيرِ حَذْفِ الْمُضَافِ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ رَسُولًا بَدَلٌ مِنْ ذِكْرٍ، عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ رَسُولًا بِمَعْنَىٰ رِسَالَةٍ، أَوْ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ بَابِهِ وَيَكُونَ مَحْمُولًا عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ، كَأَنَّهُ قَالَ: قَدْ أَظْهَرَ اللهُ لَكُمْ ذِكْرًا رَسُولًا، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ بَدَلِ الشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ وَهُوَ هُوَ، وَالْأَكْثَرُ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ بِالرَّسُولِ هُنَا : مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللهِ﴾ نعت لرسول ، وآياتِ اللهِ الْقُرْآنَ ، ﴿مُبَيِّناتٍ﴾ أَيْ يُبَيِّنُ لَكُمْ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَحْكَامِ، ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ أَيْ مَنْ سَبَقَ لَهُ ذَلِكَ فِي عِلْمِ اللهِ ، ﴿مِنَ الظُّلُماتِ﴾ أَيْ مِنَ الْكُفْرِ، ﴿إِلَىٰ النُّورِ﴾ الْهُدَىٰ وَالْإِيمَانِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ فِي مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَأَضَافَ الْإِخْرَاجَ إِلَىٰ الرَّسُولِ ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ يَحْصُلُ مِنْهُ بِطَاعَتِهِ ، ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ مِنَ الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ ، ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ،﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا﴾ يَعْنِي الْجَنَّةَ الَّتِي لَا يَنْقَطِعُ نَعِيمُهَا.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ مِنَ الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ ، ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ

الْمُقِيمِ، مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ، ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ قَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: هُوَ مَا يُدَبِّرُ فِيهِنَّ مِنْ عَجِيبِ تَدْبِيرِهِ ، فَيُنْزِلُ الْمَطَرَ وَيُخْرِجُ النَّبَاتَ، وَيَأْتِي بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ ، وَيَخْلُقُ الْحَيَوَانَ عَلَىٰ اخْتِلَافِ هَيْئَاتِهَا وَيَنْقُلُهَا مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: يَعْنِي أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَىٰ هَذَا الْمُلْكِ الْعَظِيمِ ، فَهُوَ عَلَىٰ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ خَلْقِهِ أَقْدَرُ، وَمِنَ الْعَفْوِ وَالِانْتِقَامِ أَمْكَنُ، وَإِنِ اسْتَوَىٰ كُلُّ ذَلِكَ فِي مَقْدُورِهِ وَمُكْنَتِهِ ، ﴿وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَقَالَ الطَّبَرِيُّ : يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: فَخَافُوا أَيُّهَا النَّاسُ الْمُخَالِفُونَ أَمْرَ رَبِّكُمْ عُقُوبَتَهُ، فَإِنَّهُ لَا يَمْنَعُهُ فِي عُقُوبَتِكُمْ مَانِعٌ، وَهُوَ عَلَىٰ ذَلِكَ قَادِرٌ، وَمُحِيطٌ أَيْضًا بِأَعْمَالِكُمْ، فَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْهَا خَافٍ، وَهُوَ مُحْصِيهَا عَلَيْكُمْ، لِيُجَازِيَكُمْ بِهَا، يَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الطَّلَاقِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ .

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ﴾ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَّتِكَ ، ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: هَذَا تَصْرِيحٌ بِأَنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لِرَسُولِهِ، وَرَفَعَ عَنْهُ اللَّوْمَ، وَرَحِمَهُ، وَصَارَ ذَلِكَ التَّحْرِيمُ الصَّادِرُ مِنْهُ، سَبَبًا لِشَرْعِ حُكْمٍ عَامٍّ لِجَمِيعِ الْأُمَّةِ، وَأَمَرَ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْ يَمِينِهِ وَيُرَاجِعَ أَمَتَهُ، فَقَالَ تَعَالَىٰ :

[٢] : ﴿قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ أَيْ بَيَّنَ وَأَوْجَبَ أَنْ تُكَفِّرُوهَا إِذَا حَنِثْتُمْ وَهِيَ مَا ذُكِرَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ، ﴿وَاللهُ مَوْلَاكُمْ﴾ وَلِيُّكُمْ وَنَاصِرُكُمْ، فِي أُمُورِ دِينِكُمْ وَدُنْيَاكُمْ، وَمَا بِهِ يَنْدَفِعُ عَنْكُمُ الشَّرُّ، فَلِذَلِكَ فَرَضَ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ، لِتَبْرَأَ ذِمَمُكُمْ، ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ الَّذِي أَحَاطَ عِلْمُهُ بِظَوَاهِرِكُمْ وَبَوَاطِنِكُمْ، وَهُوَ الْحَكِيمُ فِي جَمِيعِ مَا خَلَقَهُ وَحَكَمَ بِهِ، فَلِذَلِكَ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الْأَحْكَامِ، مَا يَعْلَمُ أَنَّهُ مُوَافِقٌ لِمَصَالِحِكُمْ، وَمُنَاسِبٌ لِأَحْوَالِكُمْ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾، قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: هِيَ حَفْصَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَسَرَّ لَهَا النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثًا، وَأَمَرَ أَنْ لَا تُخْبِرَ بِهِ أَحَدًا، فَحَدَّثَتْ بِهِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وَأَخْبَرَهُ اللهُ بِذَلِكَ الْخَبَرِ الَّذِي أَذَاعَتْهُ، فَعَرَّفَهَا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبَعْضِ مَا قَالَتْ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضِهِ، كَرَمًا مِنْهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحِلْمًا، فَـ ﴿قَالَتْ﴾ لَهُ: ﴿مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا﴾ الْخَبَرَ الَّذِي لَمْ يَخْرُجْ مِنَّا؟ ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ الَّذِي لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ﴾ الْخِطَابُ لِلزَّوْجَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ مِنْ أَزْوَاجِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، كَانَتَا سَبَبًا لِتَحْرِيمِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَفْسِهِ مَا يُحِبُّ، فَعَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمَا التَّوْبَةَ، وَعَاتَبَهُمَا عَلَىٰ ذَلِكَ، أَيْ: مَالَتْ وَانْحَرَفَتْ عَمَّا يَنْبَغِي لَهُنَّ، مِنَ الْوَرَعِ وَالْأَدَبِ مَعَ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاحْتِرَامِهِ، وَأَنْ لَا يَشْقُقْنَّ عَلَيْهِ ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أَيْ زَاغَتْ وَمَالَتْ عَنِ الْحَقِّ وَعَمَّا يَنْبَغِي لَهُنَّ، مِنَ الْوَرَعِ وَالْأَدَبِ مَعَ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاحْتِرَامِهِ، وَأَنْ لَا يَشْقُقْنَّ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: أَيْ مَالَتْ إِلَىٰ الْخَيْرِ وَحَقِّ الْمُعَاشَرَةِ مَعَ الزَّوْجِ، وَمِنْهُ سُمِّيَ سَمَاعُ الْكَلَامِ إِصْغَاءً لِأَنَّ الْمُسْتَمِعَ يَمِيلُ سَمْعُهُ إِلَىٰ مَنْ يُكَلِّمُهُ، ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا﴾ أَيْ تَتَظَاهَرَا وَتَتَعَاوَنَا عَلَىٰ أَذَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْمُظَاهَرَةُ: التَّعَاوُنُ، يُقَالُ: ظَاهَرَهُ، أَيْ

أَيَّدَهُ وَأَعَانَهُ ، ﴿فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ أَيْ وَلِيُّهُ وَنَاصِرُهُ ، فَلَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ، التَّظَاهُرُ مِنْهُمَا.

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَعَطْفُ وَجِبْرِيلُ وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذَا الْمَعْنَىٰ تَنْوِيهٌ بِشَأْنِ رَسُولِ الْوَحْيِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَشَأْنِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ ، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ أَيْ: أَعْوَانٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ﴾ عَطْفُ جُمْلَةٍ عَلَىٰ الَّتِي قَبْلَهَا، وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ تَعْظِيمُ هَذَا النَّصْرِ بِوَفْرَةِ النَّاصِرِينَ ، تَنْوِيهًا بِمَحَبَّةِ أَهْلِ السَّمَاء لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَحُسْنِ ذِكْرِهِ بَيْنَهُمْ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُزِيدُ نَصْرَ اللهِ إِيَّاهُ شَأْنًا. وَفِي الْحَدِيثِ «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَىٰ جِبْرِيلَ إِنِّي قَدْ أَحْبَبْتُ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ**»(١).

[٥] : قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾ أَيْ وَاجِبٌ مِنَ اللهِ إِنْ طَلَّقَكُنَّ رَسُولُهُ، ﴿أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ﴾ خَاضِعَاتٍ لِلَّهِ بِالطَّاعَةِ، قَالَ السَّعْدِيُّ : وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّعْلِيقِ الَّذِي لَمْ يُوجَدْ، وَلَا يَلْزَمُ وُجُودُهُ، فَإِنَّهُ مَا طَلَّقَهُنَّ، وَلَوْ طَلَّقَهُنَّ، لَكَانَ مَا ذَكَرَهُ اللهُ مِنْ هَذِهِ الْأَزْوَاجِ الْفَاضِلَاتِ، الْجَامِعَاتِ بَيْنَ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ الْقِيَامُ بِالشَّرَائِعِ الظَّاهِرَةِ، وَالْإِيمَانِ، وَهُوَ: الْقِيَامُ بِالشَّرَائِعِ

---

(١) البخاري (٣٢٠٩) ومسلم (٢٦٣٧) .

الْبَاطِنَةِ، مِنَ الْعَقَائِدِ وَأَعْمَالِ الْقُلُوبِ ، ﴿مُؤْمِنَاتٍ﴾ مُصَدِّقَاتٍ بِتَوْحِيدِ اللهِ، ﴿قَانِتَاتٍ﴾ طَائِعَاتٍ، وَقِيلَ: دَاعِيَاتٍ، وَقِيلَ: مُصَلِّيَاتٍ، وَالْقُنُوتُ هُوَ دَوَامُ الطَّاعَةِ وَاسْتِمْرَارُهَا ﴿تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ﴾ صَائِمَاتٍ، وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: مُهَاجِرَاتٍ ، وَقِيلَ: يَسِحْنَ مَعَهُ حَيْثُمَا سَاحَ، وَالسِّيَاحَةُ الْجَوَلَانُ فِي الْأَرْضِ، ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ أَيْ مِنْهُنَّ ثَيِّبٌ وَمِنْهُنَّ بِكْرٌ، وَهَذَا فِي الْإِخْبَارِ عَنِ الْقُدْرَةِ لَا عَنِ الْكَوْنِ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾ وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يُطَلِّقُهُنَّ وهذا إخبار عن القدرة، لا في الوجود أمة هم خَيْرٌ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا اعْتَزَلَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ قَالَ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا النَّاسُ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَىٰ وَيَقُولُونَ: طَلَّقَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ إلىٰ أن قال : فَدَخَلْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَىٰ حَصِيرٍ، فَجَلَسْتُ ، فَأَدْنَىٰ عَلَيْهِ إِزَارَهُ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ، وَمِثْلِهَا قَرَظًا فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ، وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ- قَالَ- فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ ، قَالَ: مَا يُبْكِيكَ يَا بْنَ الْخَطَّابِ؟ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللهِ، وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَىٰ فِيهَا إِلَّا مَا أَرَىٰ! وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكَسْرَىٰ فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَفْوَتُهُ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ! فَقَالَ: **يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ**

وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟! ، قُلْتُ: بَلَىٰ، قَالَ: وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ حِينَ دَخَلْتُ وَأَنَا أَرَىٰ فِي وَجْهِهِ الْغَضَبَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا يَشُقُّ عَلَيْكَ مِنْ شَأْنِ النِّسَاءِ، فَإِنْ كُنْتَ طَلَّقْتَهُنَّ فَإِنَّ اللهَ مَعَكَ وَمَلَائِكَتُهُ وَجِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ، وَأَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَكَ، وَقَلَّمَا تَكَلَّمْتُ وَأَحْمَدُ اللهَ بِكَلَامٍ ، إِلَّا رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُصَدِّقُ قَوْلِي الَّذِي أَقُولُ ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، آيَةُ التَّخْيِيرِ: ﴿عَسىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾ ، ﴿وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ﴾(١).

[٦] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قُوا أَنْفُسَكُمْ بِأَفْعَالِكُمْ وَقُوا أَهْلِيكُمْ بِوَصِيَّتِكُمْ ، وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ بِالِانْتِهَاءِ عَمَّا نَهَاكُمُ اللهُ تَعالَىٰ عَنْهُ وَالْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ، ﴿وَأَهْلِيكُمْ نارًا﴾ يَعْنِي مُرُوهُمْ بِالْخَيْرِ وَانْهُوهُمْ عَنِ الشَّرِّ، وَعَلِّمُوهُمْ وَأَدِّبُوهُمْ تَقُوهُمْ بِذَلِكَ نَارًا، وَعَنِ الضَّحَّاكِ: حَقٌّ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ أَنْ يُعَلِّمَ أَهْلَهُ مِنْ قَرَابَتِهِ وَإِمَائِهِ وَعَبِيدِهِ مَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَمَا نَهَاهُمُ اللهُ عَنْهُ، وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ عَنْ سَبْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مُرُوا الصَّبِيَّ بِالصَّلَاةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ، وَإِذَا بَلَغَ عَشْرَ سِنِينَ فَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا**»(٢) ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: قَالَ الْفُقَهَاءُ: وَهَكَذَا فِي الصَّوْمِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ تَمْرِينًا لَهُ

---

(١) البخاري (٦٠٨٨) ومسلم (١٤٧٩) .

(٢) أحمد (١٥٣٥٢) وأبو داود (٤٩٤) .

عَلَىٰ الْعِبَادَةِ لِكَيْ يَبْلُغَ وَهُوَ مُسْتَمِرٌّ عَلَىٰ الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ وَمُجَانَبَةِ الْمَعْصِيَةِ، وَتَرْكِ الْمُنْكَرِ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ، ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَقُولُ: حَطَبُهَا الَّذِي يُوقَدُ عَلَىٰ هَذِهِ النَّارِ بَنُو آدَمَ وَحِجَارَةُ الْكِبْرِيتِ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ: هِيَ حِجَارَةٌ مِنْ كِبْرِيتٍ، أَنْتَنُ مِنَ الْجِيفَةِ، ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ﴾ يعني خزنة النار ﴿غِلَاظٌ﴾ فِظَاظٌ عَلَىٰ أَهْلِ النَّارِ ﴿شِدَادٌ﴾ أَقْوِيَاءُ يَدْفَعُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ بِالدَّفْعَةِ الْوَاحِدَةِ سَبْعِينَ أَلْفًا فِي النَّارِ وَهُمُ الزَّبَانِيَةُ لَمْ يَخْلُقِ اللهُ فِيهِمُ الرَّحْمَةَ، وَقِيلَ: غِلَاظُ الْأَقْوَالِ شِدَادُ الْأَفْعَالِ، وَقِيلَ غِلَاظٌ فِي أَخْذِهِمْ أَهْلَ النَّارِ شِدَادٌ عَلَيْهِمْ، يُقَالُ: فُلَانٌ شَدِيدٌ عَلَىٰ فُلَانٍ، أَيْ قَوِيٌّ عَلَيْهِ يُعَذِّبُهُ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ ، وَقِيلَ: أَرَادَ بِالْغِلَاظِ ضَخَامَةَ أَجْسَامِهِمْ، وَبِالشِّدَّةِ الْقُوَّةَ ، ﴿لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أَيْ فِي وَقْتِهِ، فَلَا يُؤَخِّرُونَهُ وَلَا يُقَدِّمُونَهُ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ فَإِنَّ عُذْرَكُمْ لَا يَنْفَعُ، وَهَذَا النَّهْيُ لِتَحْقِيقِ الْيَأْسِ، قَالَ السَّعْدِيُّ : فَقَدْ ذَهَبَ وَقْتُ الِاعْتِذَارِ، وَزَالَ نَفْعُهُ، فَلَمْ يَبْقَ الْآنَ إِلَّا الْجَزَاءُ عَلَىٰ الْأَعْمَالِ، وَأَنْتُمْ لَمْ تُقَدِّمُوا إِلَّا الْكُفْرَ بِاللهِ، وَالتَّكْذِيبَ بِآيَاتِهِ، وَمُحَارَبَةَ رُسُلِهِ وَأَوْلِيَائِهِ، ﴿إِنَّما تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَىٰ اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ أَيْ تَوْبَةً ذَاتَ نُصْحٍ تَنْصَحُ صَاحِبَهَا بِتَرْكِ الْعَوْدِ إِلَىٰ مَا تاب منه، وَأَصْلُ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ مِنَ الْخُلُوصِ، يُقَالُ: هَذَا عَسَلٌ نَاصِحٌ إِذَا خَلَصَ مِنَ الشَّمْعِ ، واختلفوا في معناه

قَالَ عُمَرُ وأُبي وَمُعَاذٌ: التَّوْبَةُ النَّصُوحُ أَنْ يَتُوبَ ثُمَّ لَا يَعُودَ إِلَىٰ الذَّنْبِ، كَمَا لَا يَعُودُ اللَّبَنُ إِلَىٰ الضَّرْعِ، وقال ابن مسعود ﴿تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ قَالَ: يَتُوبُ ثُمَّ لَا يَعُودُ، وَلِهَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ: التَّوْبَةُ النَّصُوحُ هُوَ أَنْ يُقْلِعَ عَنِ الذَّنْبِ فِي الْحَاضِرِ، وَيَنْدَمَ عَلَىٰ مَا سَلَفَ مِنْهُ فِي الْمَاضِي، وَيَعْزِمَ عَلَىٰ أن لا يَفْعَلَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، ثُمَّ إِنْ كَانَ الْحَقُّ لآدمي رده إليه بطريقه، وقَالَ الْحَسَنُ البصري: هِيَ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ نَادِمًا عَلَىٰ مَا مَضَىٰ مُجْمِعًا عَلَىٰ أَلَّا يَعُودَ فِيهِ ، قَالَ الْكَلْبِيُّ: أَنْ يَسْتَغْفِرَ بِاللِّسَانِ وَيَنْدَمَ بِالْقَلْبِ وَيُمْسِكَ بِالْبَدَنِ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: تَوْبَةً تَنْصَحُونَ بِهَا أَنْفُسَكُمْ. قَالَ الْقُرَظِيُّ: يَجْمَعُهَا أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ: الِاسْتِغْفَارُ بِاللِّسَانِ، وَالْإِقْلَاعُ بِالْأَبْدَانِ، وَإِضْمَارُ تَرْكِ الْعَوْدِ بِالْجَنَانِ، وَمُهَاجَرَةُ سَيِّئِ الْإِخْوَانِ، وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: عَلَامَةُ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ أَرْبَعَةٌ: الْقِلَّةُ وَالْعِلَّةُ وَالذِّلَّةُ وَالْغُرْبَةُ ، وَقَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: هُوَ أَنْ يَكُونَ الذَّنْبُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَلَا يَزَالُ كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَقَالَ الْجُنَيْدُ البغدادي : التَّوْبَةُ النَّصُوحُ هُوَ أَنْ يَنْسَىٰ الذَّنْبَ ، فَلَا يَذْكُرُهُ أَبَدًا، لِأَنَّ مَنْ صَحَّتْ تَوْبَتُهُ صَارَ مُحِبًّا لِلَّهِ، وَمَنْ أَحَبَّ اللهَ نَسِيَ مَا دُونَ اللهِ ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْأَنْصَارِيِّ بِلَفْظِ: « **النَّدَمُ تَوْبَةٌ، وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ** »[1].

(١) أحمد(٣٥٦٨) وابن ماجه (٤٢٥٢) .

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَسىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ عَسىٰ مِنَ اللهِ وَاجِبَةٌ، وَهُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: « **التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ**»[1]، ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أَيْ لَا يُعَذِّبُهُمُ اللهُ بِدُخُولِ النَّارِ، وَعَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قَالَ: صَلَّيْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْفَتْحِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: « **اللَّهُمَّ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[2] ، ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ عَلَىٰ الصِّرَاطِ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: يَسْعَىٰ نُورُهُمْ أَمَامَهُمْ ﴿وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ وَبِأَيْمَانِهِم كِتَابُهُمْ، ﴿يَقُولُونَ﴾ إِذْ طَفِئَ نُورُ الْمُنَافِقِينَ ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَذَا دُعَاءُ الْمُؤْمِنِينَ حِينَ أَطْفَأَ اللهُ نُورَ الْمُنَافِقِينَ، حَسَبَ مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (الْحَدِيدِ) ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: يَقُولُ: وَاشْدُدْ عَلَيْهِمْ فِي ذَاتِ اللهِ، وقَالَ الْقُرْطُبِيُّ : أَمَرَهُ أَنْ يُجَاهِدَ الْكُفَّارَ بِالسَّيْفِ وَالْمَوَاعِظِ الْحَسَنَةِ وَالدُّعَاءِ إِلَىٰ اللهِ، وَالْمُنَافِقِينَ بِالْغِلْظَةِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ، وَأَنْ يُعَرِّفَهُمْ أَحْوَالَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَأَنَّهُمْ لَا نُورَ لَهُمْ يَجُوزُونَ بِهِ الصِّرَاطَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَالَ الْحَسَنُ: أَيْ جَاهِدْهُمْ بِإِقَامَةِ الْحُدُودِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ

---

(١) ابن ماجه (٤٢٥٠) .

(٢) أحمد(٢٣٤٠٣) .

كَانُوا يَرْتَكِبُونَ مُوجِبَاتِ الْحُدُودِ ، وَكَانَتِ الْحُدُودُ تُقَامُ عَلَيْهِمْ ، وَالْغِلْظَةُ: حَقِيقَتُهَا صَلَابَةُ الشَّيْءِ وَهِيَ مُسْتَعَارَةٌ هُنَا لِلْمُعَامَلَةِ بِالشِّدَّةِ بِدُونِ عَفْوٍ وَلَا تَسَامُحٍ، أَيْ كُنْ غَلِيظًا، أَيْ شَدِيدًا فِي إِقَامَةِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَمْثَالَهُمْ. ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أَيْ: وَمَكْثُهُمْ جَهَنَّمُ وَمُسْتَقَرُّهُمْ إِلَىٰ النَّارِ، وَبِئْسَ الْقَرَارُ وَالْمَوْضِعُ الَّذِي يَصِيرُونَ إِلَيْهِ نَارُ السَّعِيرِ ، ثُمَّ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلصَّالِحِينَ وَالصَّالِحَاتِ مِنَ النِّسَاءِ ، فَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ :

[١٠] : ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ﴾ واسمها واعلة ، ﴿وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ اسمها وَاهِلَةُ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: وَالِعَةُ وَوَالِهَةُ، ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ وَهُمَا نُوحٌ وَلُوطٌ -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا بَغَتِ امْرَأَةُ نَبِيٍّ قَطُّ، وَإِنَّمَا كَانَتْ خِيَانَتُهُمَا أَنَّهُمَا كَانَتَا عَلَىٰ غَيْرِ دِينِهِمَا، فَكَانَتِ امْرَأَةُ نُوحٍ تَقُولُ لِلنَّاسِ: إِنَّهُ مَجْنُونٌ، وَإِذَا آمَنَ بِهِ أَحَدٌ أَخْبَرَتْ بِهِ الْجَبَابِرَةَ، وَأَمَّا امْرَأَةُ لُوطٍ فَإِنَّهَا كَانَتْ تَدُلُّ قَوْمَهُ عَلَىٰ أَضْيَافِهِ، إِذَا نَزَلَ بِهِ ضَيْفٌ بِاللَّيْلِ أَوْقَدَتِ النَّارَ، وَإِذَا نَزَلَ بِالنَّهَارِ دَخَّنَتْ لِيَعْلَمَ قَوْمُهُ أَنَّهُ نَزَلَ بِهِ ضَيْفٌ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ، أَسَرَّتَا النِّفَاقَ وَأَظْهَرَتَا الْإِيمَانَ: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ أَيْ فَمَا نَفَعَ هَاتَيْنِ الْمَرْأَتَيْنِ إِذْ عَصَتَا اللهَ أَنَّ أَزْوَاجَهُمَا أَنْبِيَاءُ. قَالَ قَتَادَةُ: هَاتَانِ زَوْجَتَا نَبِيَّيِ اللهِ، لَمَّا عَصَتَا رَبَّهُمَا لَمْ يُغْنِ أَزْوَاجُهُمَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا، ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ قَطَعَ اللهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ طَمَعَ كُلِّ مَنْ يَرْكَبُ الْمَعْصِيَةَ أَنْ يَنْفَعَهُ صَلَاحُ غَيْرِهِ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: قَالَ اللهُ لَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ادْخُلَا أَيَّتُهَا الْمَرْأَتَانِ نَارَ

جَهَنَّم مَعَ الدَّاخِلِينَ فِيهَا، قَالَ السَّعْدِيُّ: هَذَانِ الْمَثَلَانِ اللَّذَانِ ضَرَبَهُمَا اللهُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّ اتِّصَالَ الْكَافِرِ بِالْمُؤْمِنِ وَقُرْبَهُ مِنْهُ لَا يُفِيدُهُ شَيْئًا، وَأَنَّ اتِّصَالَ الْمُؤْمِنِ بِالْكَافِرِ لَا يَضُرُّهُ شَيْئًا مَعَ قِيَامِهِ بِالْوَاجِبِ عَلَيْهِ .فَكَأَنَّ فِي ذَلِكَ إِشَارَةً وَتَحْذِيرًا لِزَوْجَاتِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَأَنَّ اتِّصَالَهُنَّ بِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَا يَنْفَعُهُنَّ شَيْئًا مَعَ الْإِسَاءَةِ، فَقَالَ:

[١١] : ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ وَهِيَ آسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: لَمَّا غَلَبَ مُوسَىٰ السَّحَرَةَ آمَنَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَقِيلَ: هَذَا حَثٌّ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ الصَّبْرِ فِي الشِّدَّةِ، أَيْ لَا تَكُونُوا فِي الصَّبْرِ عِنْدَ الشِّدَّةِ أَضْعَفَ مِنَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ حِينَ صَبَرَتْ عَلَىٰ أَذَىٰ فِرْعَوْنَ ، وَكَانَتْ آسِيَةُ آمَنَتْ بِمُوسَىٰ، وَلَمَّا تَبَيَّنَ لِفِرْعَوْنَ إِسْلَامُهَا أَوْتَدَ يَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا بِأَرْبَعَةِ أَوْتَادٍ وَأَلْقَاهَا فِي الشَّمْسِ، قَالَ سَلْمَانُ: كَانَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ تُعَذَّبُ بِالشَّمْسِ فَإِذَا انْصَرَفُوا عَنْهَا ظلتها الْمَلَائِكَةُ: ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فَكَشَفَ اللهُ لَهَا عَنْ بَيْتِهَا في الجنة حتىٰ رأته: ﴿وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: وَعَمَلِهِ يَعْنِي الشِّرْكَ. وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَعَمَلِهِ، قَالَ: جِمَاعُهُ: ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾ أَيْ وَاذْكُرْ مَرْيَمَ ، وَقِيلَ: هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَىٰ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ، وَالْمَعْنَىٰ: وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لمريم بنة عِمْرَانَ

وَصَبْرِهَا عَلَىٰ أَذَىٰ الْيَهُودِ، ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها﴾ أَيْ عَنِ الْفَوَاحِشِ ، وَقَالَ الْمُفَسِّرُونَ: إِنَّهُ أَرَادَ بِالْفَرْجِ هُنَا الْجَيْبَ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا﴾ وَجِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا نَفَخَ فِي جَيْبِهَا ، وَلَمْ يَنْفُخْ فِي فَرْجِهَا ، أَيْ فِي جَيْبِ دِرْعِهَا، وَلِذَلِكَ ذَكَرَ الْكِنَايَةَ، ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ يَعْنِي الشَّرَائِعَ الَّتِي شَرَعَهَا اللهُ للعباد بكلماته المنزلة ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي بِالْكَلِمَاتِ عِيسَىٰ وَأَنَّهُ نَبِيٌّ وَعِيسَىٰ كَلِمَةُ اللهِ، ﴿وَكُتُبِهِ﴾ أراد الكتب الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَدَاودَ وَعِيسَىٰ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ أَيْ مِنَ الْقَوْمِ الْقَانِتِينَ الْمُطِيعِينَ لِرَبِّهَا وَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ مِنَ الْقَانِتَاتِ، وَقَالَ عَطَاءٌ: مِنَ الْقَانِتِينَ أَيْ مِنَ الْمَصَلِّينَ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِالْقَانِتِينَ رَهْطَهَا وَعَشِيرَتَهَا فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ صَلَاحٍ مُطِيعِينَ لِلَّهِ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّحْرِيمِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الْمُلْكِ

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَبَارَكَ﴾ أَيْ: تَعَاظَمَ وَتَعَالَىٰ، وَكَثُرَ خَيْرُهُ، وَعَمَّ إِحْسَانُهُ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: تَقَدَّسَ، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَمِنْ عَظَمَتِهِ أَنَّ بِيَدِهِ مُلْكَ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ، فَهُوَ الَّذِي خَلَقَهُ، وَيَتَصَرَّفُ فِيهِ بِمَا شَاءَ، مِنَ الْأَحْكَامِ الْقَدَرِيَّةِ، وَالْأَحْكَامِ الدِّينِيَّةِ، التَّابِعَةِ لِحِكْمَتِهِ، وَمِنْ عَظَمَتِهِ، كَمَالُ قُدْرَتِهِ الَّتِي يَقْدِرُ بِهَا عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهَا أَوْجَدَ مَا أَوْجَدَ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ، كَالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، ﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ أَيْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِيَدِهِ الْمُلْكُ يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيُغْنِي وَيُفْقِرُ، وَيُعْطِي وَيَمْنَعُ ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: لَهُ مُلْكُ النُّبُوَّةِ الَّتِي أَعَزَّ بِهَا مَنِ اتَّبَعَهُ وَذَلَّ بِهَا مَنْ خَالَفَهُ ، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مِنْ إِنْعَامٍ وَانْتِقَامٍ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ أَيْ: قَدَّرَ لِعِبَادِهِ أَنْ يُحْيِيَهُمْ ثُمَّ يُمِيتَهُمْ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ الْمَوْتَ فِي الدُّنْيَا وَالْحَيَاةَ فِي الْآخِرَةِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: أَرَادَ مَوْتَ الْإِنْسَانِ وَحَيَاتَهُ فِي الدُّنْيَا وجعل اللهُ الدُّنْيَا دَارَ حَيَاةٍ وَفَنَاءٍ، وَجَعْلَ الْآخِرَةَ دَارَ جَزَاءٍ وَبَقَاءٍ: قِيلَ: إِنَّمَا قَدَّمَ الْمَوْتَ لِأَنَّهُ إِلَىٰ الْقَهْرِ أَقْرَبُ. قِيلَ:

الْمَعْنَىٰ خَلَقَكُمْ لِلْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ، يَعْنِي لِلْمَوْتِ فِي الدُّنْيَا وَالْحَيَاةِ فِي الْآخِرَةِ وَقَدَّمَ الْمَوْتَ عَلَىٰ الْحَيَاةِ، لِأَنَّ الْمَوْتَ إِلَىٰ الْقَهْرِ أَقْرَبُ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ فِيمَا بَيْنَ الْحَيَاةِ إِلَىٰ الْمَوْتِ: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي أكثر كم لِلْمَوْتِ ذِكْرًا وَأَحْسَنُ اسْتِعْدَادًا، وَمِنْهُ أَشَدُّ خَوْفًا وَحَذَرًا ، وَقيل: معنىٰ لِيَبْلُوَكُمْ ليعاملكم معا ملة الْمُخْتَبِرِ، أَيْ لِيَبْلُوَ الْعَبْدَ بِمَوْتِ مَنْ يَعِزُّ عَلَيْهِ لِيُبَيِّنَ صَبْرَهُ، وَبِالْحَيَاةِ لِيُبَيِّنَ شُكْرَهُ. رُوِيَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أَحْسَنُ عَقْلًا وَأَوْرَعُ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ، وَأَسْرَعُ فِي طاعة الله، وقال الفضيل بْنُ عِيَاضٍ: أَحْسَنُ عَمَلًا أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ، وَقَالَ: الْعَمَلُ لَا يُقْبَلُ حتىٰ يكون خالصًا صوابًا، فالخالص إِذَا كَانَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ إِذَا كَانَ عَلَىٰ السُّنَّةِ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : أَيُّكُمْ أَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا وَأَتْرَكُ لها وقال الفراء: لم تقع الْبَلْوَىٰ عَلَىٰ أَيٍّ إِلَّا وَبَيْنَهُمَا إِضْمَارٌ، كَمَا تَقُولُ: بَلَوْتُكُمْ لِأَنْظُرَ أَيُّكُمْ أَطْوَعُ، وَمِثْلُهُ سَلْهُمْ أيهم بذلك زعيم أي سلهم وانظر أيهم ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فِي انْتِقَامِهِ مِمَّنْ عَصَاهُ، ﴿الْغَفُورُ﴾ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أَيْ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: طَبَقًا فَوْقَ طَبَقٍ، بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ : وَالطِّبَاقُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَصْدَرَ طَابَقَ وُصِفَتْ بِهِ السَّمَاوَاتُ لِلْمُبَالَغَةِ، أَيْ شَدِيدَةُ الْمُطَابَقَةِ، أَيْ مُنَاسِبَةٌ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ فِي النِّظَامِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ طِباقًا جَمْعَ طَبَقٍ، وَالطَّبَقُ الْمُسَاوِي فِي حَالَةٍ مَا، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ فِي الْمَثَلِ: «وَافَقَ شَنٌّ طَبَقَهُ» ، ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ معناه: ما ترىٰ يا بن آدَمَ فِي

خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنَ اعْوِجَاجٍ وَاخْتِلَافٍ وَتَنَاقُضٍ، بَلْ هِيَ مُسْتَقِيمَةٌ مُسْتَوِيَةٌ وَأَصْلُهُ مِنَ الْفَوْتِ وَهُوَ أَنْ يَفُوتَ بَعْضُهَا بَعْضًا لقلة استوائها، ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ كَرِّرِ النَّظَرَ، مَعْنَاهُ: انْظُرْ ثُمَّ ارْجِعْ، ﴿هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ﴾ شُقُوقٍ وَصُدُوعٍ، قَالَ قَتَادَةُ: مِنْ خَلَلٍ، وقال السُّدِّيُّ: مِنْ خُرُوقٍ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَرَّةً بَعْدَ مرة، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَإِنَّمَا أَمَرَ بِالنَّظَرِ مَرَّتَيْنِ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا نَظَرَ فِي الشَّيْءِ مَرَّةً لَا يَرَىٰ عَيْبَهُ مَا لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَىٰ، فَأَخْبَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ وَإِنْ نَظَرَ فِي السَّمَاءِ مَرَّتَيْنِ لَا يَرَىٰ فِيهَا عَيْبًا بَلْ يَتَحَيَّرُ بِالنَّظَرِ إِلَيْهَا، ﴿يَنْقَلِبْ﴾ يَنْصَرِفْ وَيَرْجِعْ ﴿إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أَيْ خَاشِعًا صَاغِرًا مُتَبَاعِدًا عَنْ أَنْ يَرَىٰ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ. يُقَالُ: خَسَأْتُ الْكَلْبَ أَيْ أَبْعَدْتُهُ وَطَرَدْتُهُ. وَخَسَأَ الْكَلْبُ بِنَفْسِهِ، ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أَيْ قَدْ بَلَغَ الْغَايَةَ فِي الْإِعْيَاءِ، مِنَ الْحُسُورِ الَّذِي هُوَ الْإِعْيَاءُ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ أَرَادَ الْأَدْنَىٰ مِنَ الْأَرْضِ وَهِيَ الَّتِي يَرَاهَا النَّاسُ ، وَقَوْلُهُ: ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ الْكَوَاكِبَ، وَاحِدُهَا مِصْبَاحٌ، وَهُوَ السِّرَاجُ سُمِّيَ الْكَوْكَبُ مِصْبَاحًا لِإِضَاءَتِهِ، ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا﴾ أَيْ جَعَلْنَا شُهُبَهَا ، ﴿لِلشَّيَاطِينِ﴾ إِذَا اسْتَرَقُوا السَّمْعَ، قَالَ قَتَادَةُ: خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ: زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَىٰ بِهَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَالْأَوْقَاتِ ، عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: مَا قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ الْجِنِّ وَلَا رَآهُمْ، انْطَلَقَ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي

طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَىٰ سُوقِ عُكَاظَ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا : حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ ، وَقَدْ مَرَّ مَعَنَا فِي سُورَةِ الْأَحْقَافِ ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ في الآخرة، ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ أَيْ أَعْتَدْنَا لِلشَّيَاطِينِ أَشَدَّ الْحَرِيقِ، يُقَالُ: سُعِرَتِ النَّارُ فَهِيَ مَسْعُورَةٌ وَسَعِيرٌ، مِثْلَ مَقْتُولَةٍ وَقَتِيل.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ أَيْ أَعَدَّ اللهُ لِكُلِّ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَغَيْرِهِمْ عَذَابَ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أَيْ: وَبِئْسَ الْمَرْجِعُ وَالْمَآلُ وَالْمُسْتَقَرُّ وَالْمُنْقَلَبُ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾ يَعْنِي الْكُفَّارَ، ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ أَيْ صَوْتًا وَهُوَ أَوَّلُ نَهِيقِ الْحِمَارِ وَذَلِكَ أقبح الأصوات، وَقِيلَ: الشَّهِيقُ مِنَ الْكُفَّارِ عِنْدَ إِلْقَائِهِمْ فِي النَّارِ قَالَهُ عَطَاءٌ، ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ تغلي كَغَلْيِ الْمِرْجَلِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: تَفُورُ بِهِمْ كَمَا يَفُورُ الْمَاءُ الْكَثِيرُ بالحب القليل.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ يَعْنِي تَتَقَطَّعُ وَيَنْفَصِلُ بعضها من بعض، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَتَفَرَّقُ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: التَّمَيُّزُ: التَّفَرُّقُ مِنَ الْغَيْظِ عَلَىٰ أَهْلِ مَعَاصِي اللهِ غَضَبًا لِلَّهِ، وَانْتِقَامًا لَهُ ، ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ مِنْ تَغَيُّظِهَا عَلَيْهِمْ، قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ، تَكَادُ تَنْشَقُّ غَيْظًا عَلَىٰ الْكُفَّارِ وَقِيلَ: مِنَ الْغَيْظِ مِنَ الْغَلَيَانِ،﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ أَيْ جَمَاعَةٌ مِنَ الْكُفَّارِ، ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ عَلَىٰ جِهَةِ التَّوْبِيخ

وَالتَّقْرِيعِ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ أَيْ رَسُولٌ فِي الدُّنْيَا يُنْذِرُكُمْ هَذَا الْيَوْمَ حَتَّىٰ تَحْذَرُوا.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قالُوا بَلىٰ قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ﴾ أَنْذَرَنَا وَخَوَّفَنَا، ﴿فَكَذَّبْنا وَقُلْنا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيْ عَلَىٰ أَلْسِنَتِكُمْ، ﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ يَا مَعْشَرَ الرُّسُلِ، ﴿إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ﴾ اعْتَرَفُوا بِتَكْذِيبِ الرُّسُلِ، وَوَصْفُ الضَّلَالِ بِـ ﴿كَبِيرٍ﴾ مَعْنَاهُ شَدِيدٌ بَالِغٌ غَايَةَ مَا يَبْلُغُ إِلَيْهِ جِنْسُهُ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ جِسْمٌ كَبِيرٌ ، ثُمَّ اعْتَرَفُوا بِجَهْلِهِمْ فَقَالُوا وهم في النار:

[١٠] : ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ مِنَ الرُّسُلِ مَا جَاءُونَا بِهِ، ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ مِنْهُمْ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ الْهُدَىٰ أَوْ نَعْقِلُهُ فَنَعْمَلُ بِهِ، ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ قَالَ الزَّجَّاجُ: لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ سَمْعَ مَنْ يَعِي وَيَتَفَكَّرُ أَوْ نَعْقِلُ عَقْلَ مَنْ يُمَيِّزُ وَيَنْظُرُ مَا كُنَّا مِنْ أَهْلِ النَّارِ .

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا﴾ أَيْ فَبُعْدًا لَهُمْ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُوَ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ السُّحْقُ ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَيْ لَوْ كَانَتْ لَنَا عُقُولٌ نَنْتَفِعُ بِهَا لَمَا كُنَّا عَلَىٰ مَا كُنَّا عَلَيْهِ، مِنَ الْكُفْرِ بِاللهِ وَالِاغْتِرَارِ بِهِ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ لَنَا فَهْمٌ نَعِي بِهِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَلَا كَانَ لَنَا عَقْلٌ يُرْشِدُنَا إِلَىٰ اتِّبَاعِهِمْ، ﴿لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ .

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ أَيْ: فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ، حَتَّىٰ فِي الْحَالَةِ الَّتِي لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِيهَا إِلَّا اللهُ، فَلَا يُقْدِمُونَ عَلَىٰ

مَعَاصِيهِ، وَلَا يُقَصِّرُونَ فِيمَا أَمَرَ بِهِ ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لِذُنُوبِهِمْ، وَإِذَا غَفَرَ اللهُ ذُنُوبَهُمْ؛ وَقَاهُمْ شَرَّهَا، وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وَهُوَ مَا أَعَدَّهُ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، وَالْمُلْكِ الْكَبِيرِ، وَالْحُورِ الْحِسَانِ، وَالْخَدَمِ وَالْوِلْدَانِ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ أَيْ: كُلُّهَا سَوَاءٌ لَدَيْهِ، لَا يَخْفىٰ عَلَيْهِ مِنْهَا خَافِيَةٌ، يَعْنِي إِنْ أَخْفَيْتُمْ كَلَامَكُمْ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ جَهَرْتُمْ به ف إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ يَعْنِي بِمَا فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ ذَاتِ الصُّدُورِ مَا فِيهَا.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ يَعْنِي أَلَا يَعْلَمُ السِّرَّ مَنْ خَلَقَ السِّرَّ، يَقُولُ أَنَا خَلَقْتُ السِّرَّ فِي الْقَلْبِ أَفَلَا أَكُونُ عَالِمًا بِمَا فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، وَقَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: إِنْ شِئْتَ جَعَلْتَ مَنْ اسْمًا لِلْخَالِقِ جَلَّ وَعَزَّ، وَيَكُونُ الْمَعْنَىٰ: أَلَا يَعْلَمُ الْخَالِقُ خَلْقَهُ. وَإِنْ شِئْتَ جَعَلْتَهُ اسْمًا لِلْمَخْلُوقِ، وَالْمَعْنَىٰ: أَلَا يَعْلَمُ اللهُ مَنْ خَلَقَ. وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْخَالِقُ عَالِمًا بِمَا خَلَقَهُ وَمَا يَخْلُقُهُ. قَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ: بَيْنَمَا رَجُلٌ وَاقِفٌ بِاللَّيْلِ فِي شَجَرٍ كَثِيرٍ، وَقَدْ عَصَفَتِ الرِّيحُ فَوَقَعَ فِي نَفْسِ الرَّجُلِ: أَتَرَىٰ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَسْقُطُ مِنْ هَذَا الْوَرَقِ؟ فَنُودِيَ مِنْ جَانِبِ الْغَيْضَةِ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ لَطِيفٌ عِلْمُهُ فِي الْقُلُوبِ، الْخَبِيرُ بما فيها من السر وَالْوَسْوَسَةِ، وَقِيلَ: (مَنْ) يَرْجِعُ إِلَىٰ الْمَخْلُوقِ، أَيْ أَلَّا يَعْلَمَ اللهُ مَخْلُوقَهُ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ أَيْ سَهْلَةً تَسْتَقِرُّونَ عَلَيْهَا ، وَالذَّلُولُ الْمُنْقَادُ الَّذِي يَذِلُّ لَكَ ، أَيْ لَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ بِحَيْثُ يَمْتَنِعُ الْمَشْيُ فِيهَا بِالْحُزُونَةِ وَالْغِلْظَةِ ، وَقِيلَ: أَيْ ثَبَّتَهَا بِالْجِبَالِ لِئَلَّا تَزُولَ بِأَهْلِهَا، وَلَوْ كَانَتْ تَتَكَفَّأُ مُتَمَائِلَةً لَمَا كَانَتْ مُنْقَادَةً لَنَا ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أَيْ فَسَافِرُوا حَيْثُ شِئْتُمْ مِنْ أقطارها، وترددوا فِي أَقَالِيمِهَا وَأَرْجَائِهَا فِي أَنْوَاعِ الْمَكَاسِبِ وَالتِّجَارَاتِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ سَعْيَكُمْ لَا يُجْدِي عَلَيْكُمْ شَيْئًا إِلاَّ أَن يُيَسِّرَهُ اللهُ لَكُمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي جِبَالِهَا، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: فِي آكَامِهَا، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: فِي طُرُقِهَا وَفِجَاجِهَا، قَالَ الْحَسَنُ: فِي سُبُلِهَا ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: فِي أَطْرَافِهَا. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: فِي نَوَاحِيهَا، قَالَ الْفَرَّاءُ: فِي جَوَانِبِهَا ، وَالْأَصْلُ فِي الْكَلِمَةِ الْجَانِبُ ، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: الْمَنْكَبَ هُوَ مُلْتَقَىٰ الْكَتِفِ مَعَ الْعَضُدِ، جَعَلَ الْمَنَاكِبَ اسْتِعَارَةً لِأَطْرَافِ الْأَرْضِ أَوْ لِسَعَتِهَا، ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ مِمَّا خَلَقَهُ رِزْقًا لَكُمْ فِي الأرض، ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ أَيْ: وَإِلَيْهِ تُبْعَثُونَ مِنْ قُبُورِكُمْ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَنَّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ لَا تَفَاوُتَ فِيهَا، وَالْأَرْضَ ذلولا قادر علىٰ أن ينشركم، ثُمَّ خَوَّفَ الْكُفَّارَ فَقَالَ:

[١٦] : ﴿ءَأَمِنتُم مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ عَذَابٌ مَنْ فِي السَّمَاءِ إِنْ عَصَيْتُمُوهُ، وَقِيلَ: تَقْدِيرُهُ : ﴿ءَأَمِنْتُم مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ قُدْرَتُهُ وَسُلْطَانُهُ وَعَرْشُهُ وَمَمْلَكَتُهُ ، وَخَصَّ السَّمَاءَ وَإِنْ عَمَّ مُلْكُهُ تَنْبِيهًا عَلَىٰ أَنَّ الْإِلَهَ الَّذِي تَنْفُذُ قُدْرَتُهُ فِي السَّمَاءِ لَا مَنْ يُعَظِّمُونَهُ فِي الْأَرْضِ ، ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أَيْ تَذْهَبُ وَتَجِيءُ ، وَالْمَوْرُ: الِاضْطِرَابُ بِالذَّهَابِ وَالْمَجِيءِ، قَالَ

الْحَسَنُ البصري: تَتَحَرَّكُ بِأَهْلِهَا ، وَقِيلَ: تَهْوِي بِهِمْ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُحَرِّكُ الْأَرْضَ عِنْدَ الْخَسْفِ بِهِمْ حَتَّىٰ تُلْقِيَهُمْ إِلَىٰ أَسْفَلَ، تَعْلُو عَلَيْهِمْ وَتَمُرُّ فَوْقَهُمْ. يُقَالُ: مار يمور إذا جَاءَ وَذَهَبَ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ رِيحًا ذَاتَ حِجَارَةٍ كَمَا فَعَلَ بقوم لوط، وَأَصْحَابِ الْفِيلِ ، وَقِيلَ: رِيحٌ فِيهَا حِجَارَةٌ وَحَصْبَاءُ. وَقِيلَ: سَحَابٌ فِيهِ حِجَارَةٌ ، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ فِي الْآخِرَةِ وَعِنْدَ الْمَوْتِ، ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أَيْ إِنْذَارِي إِذَا عَايَنْتُمُ الْعَذَابَ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يَعْنِي كُفَّارَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، كَقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ لُوطٍ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَأَصْحَابِ الرَّسِّ وَقَوْمِ فِرْعَوْنَ ، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أَيْ إِنْكَارِي عَلَيْهِمْ بِالْعَذَابِ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ: فَكَيْفَ كَانَ إِنْكَارِي عَلَيْهِمْ وَمُعَاقَبَتِي لَهُمْ؟ أَيْ: عَظِيمًا شَدِيدًا أَلِيمًا.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ﴾ تَصُفُّ أَجْنِحَتَهَا فِي الْهَوَاءِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: بَسْطُهُنَّ أَجْنِحَتَهُنَّ وَقَبْضُهُنَّ، وَقَالَ قَتَادَةُ:﴿صَافَّاتٍ﴾ الطَّيْرُ يَصُفُّ جَنَاحَهُ كَمَا رَأَيْتَ، ثُمَّ يَقْبِضُهُ ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أَجْنِحَتَهُنَّ بَعْدَ الْبَسْطِ ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ فِي حَالِ الْقَبْضِ وَالْبَسْطِ أَنْ يَسْقُطْنَ، ﴿إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ أَيْ بِمَا سَخَّرَ لَهُنَّ مِنَ الْهَوَاءِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ، ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ أَيْ بِمَا يُصْلِحُ كُلَّ شيء من مخلوقاته.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ﴾ اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ مَنَعَةٌ لَكُمْ، أَيْ لَا جُنْدَ لَكُم يَدْفَعُ عَنْكُمْ عَذَابَ اللهِ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ أَيْ مَنْ سِوَىٰ الرَّحْمَنِ ، ﴿يَنْصُرُكُم مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ يَمْنَعُكُمْ مِنْ عَذَابِهِ وَيَدْفَعُ عَنْكُم مَا أَرَادَ بِكُمْ، قَالَ السَّعْدِيُّ : فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ هُوَ النَّاصِرُ الْمُعِزُّ الْمُذِلُّ، وَغَيْرُهُ مِنَ الْخَلْقِ، لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ نَصْرِ عَبْدٍ، لَمْ يَنْفَعُوهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، عَلَىٰ أَيِّ عَدُوٍّ كَانَ، فَاسْتِمْرَارُ الْكَافِرِينَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، بَعْدَ أَنْ عَلِمُوا أَنَّهُ لَا يَنْصُرُهُمْ أَحَدٌ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ، غُرُورٌ وَسَفَهٌ، ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ أَيْ فِي غُرُورٍ مِنَ الشَّيْطَانِ يَغُرُّهُمْ بِأَنَّ الْعَذَابَ لَا يَنْزِلُ بِهِمْ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ أَيْ مِنَ الَّذِي يَرْزُقُكُمُ الْمَطَرَ إِنْ أَمْسَكَ اللهُ عَنْكُمْ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَيْ مَنْ هَذَا الَّذِي إِذَا قَطَعَ اللهُ عنكم رزقه يَرْزُقُكُمْ بَعْدَهُ؟ أَيْ لَا أَحَدَ يُعْطِي وَيَمْنَعُ، وَيَخْلُقُ وَيَرْزُقُ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ﴾ تَمَادَوْا فِي الضَّلَالِ، ﴿وَنُفُورٍ﴾ تَبَاعُدٍ مِنَ الْحَقِّ. وَالْمَقْصُودُ: بَلِ اسْتَمَرُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ وَتَمَادِيهِمْ وَضَلَالِهِمْ وَشُرُودِهِمْ عَنِ الْحَقِّ ، ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلًا فَقَالَ:

[٢٢] : ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ رَاكِبًا رَأْسَهُ فِي الضَّلَالَةِ وَالْجَهَالَةِ أعمىٰ العين والقلب لَا يُبْصِرُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا وهو الكافر، قال قتادة: راكبا عَلَىٰ الْمَعَاصِي فِي الدُّنْيَا فَحَشَرَهُ اللهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا﴾ مُعْتَدِلًا يُبْصِرُ الطَّرِيقَ وَهُوَ، ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو مؤمن ، قَالَ

قَتَادَةُ: يَمْشِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ سويا، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : أَيْ أَهَذَا الْكَافِرُ أَهْدَىٰ أَوِ الْمُسْلِمُ الَّذِي يَمْشِي سَوِيًّا مُعْتَدِلًا يُبْصِرُ لِلطَّرِيقِ وَهُوَ عَلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ وَهُوَ الْإِسْلَامُ، عن أَنَس بن مالك قال، قيل: يارسول اللهِ كَيْفَ يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ؟ فَقَالَ: « **أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَىٰ أَرْجُلِهِمْ قَادِرًا عَلَىٰ أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ**»[1]؟! .

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ﴾ أَيِ ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أَيِ الْعُقُولَ وَالْإِدْرَاكَ، قَالَ النَّسَفِيُّ: خَصَّهَا لِأَنَّهَا آلَاتُ الْعِلْمِ، فَالسَّمْعُ تَسْمَعُونَ بِهِ، وَالْأَبْصَارُ تُبْصِرُونَ بِهَا، وَالْأَفْئِدَةُ تَعْقِلُونَ بِهَا، ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي قلّما تَسْتَعْمِلُونَ هَذِهِ الْقُوَىٰ، الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فِي طَاعَتِهِ وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ، قَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي أَنَّهُمْ لَا يَشْكُرُونَ رَبَّ هَذِهِ النِّعَمِ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ بَثَّكُمْ وَنَشَرَكُمْ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ، مَعَ اخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَلُغَاتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ، ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أَيْ تَجْتَمِعُونَ بَعْدَ هَذَا التَّفَرُّقِ وَالشَّتَاتِ ، يَجْمَعُكُمْ كَمَا فَرَّقَكُمْ وَيُعِيدُكُمْ كَمَا بَدَأَكُمْ، ثُمَّ قال تعالىٰ مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ، الْمُنْكِرِينَ لِلْمَعَادِ، الْمُسْتَبْعِدِينَ وُقُوعَهُ.

---

(١) البخاري (٤٧٦٠) ومسلم (٢٨٠٦) .

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَيْ مَتَىٰ يَقَعُ هَذَا الَّذِي تُخْبِرُنَا عَنْهُ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللهِ﴾ أَيْ لَا يَعْلَمُ وَقْتَ ذَلِكَ عَلَىٰ التَّعْيِينِ إِلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ، لَكِنَّهُ أَمَرَنِي أَنْ أُخْبِرَكُمْ أَنَّ هَذَا كَائِنٌ وَوَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ فَاحْذَرُوهُ ﴿وَإِنَّمَآ أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي وَإِنَّمَا عليَّ الْبَلَاغُ وَقَدْ أَدَّيْتُهُ إِلَيْكُمْ.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ يَعْنِي الْعَذَابَ فِي الْآخِرَةِ عَلَىٰ قَوْلِ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يعني العذاب ببدر، ﴿زُلْفَةً﴾ أَيْ قَرِيبًا ﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اسْوَدَّتْ وَعَلَتْهَا الْكَآبَةُ، فالمعنىٰ قُبِّحَتْ وُجُوهُهُمْ بِالسَّوَادِ، يُقَالُ سَاءَ الشَّيْءُ يَسُوءُ فَهُوَ سَيِّئٌ إِذَا قبح، ﴿وَقِيلَ﴾ لها أي قال لهم الخزنة، ﴿هَذَا﴾ أَيْ هَذَا الْعَذَابُ، ﴿الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ﴾ قَالَ الْفَرَّاءُ: تَدَّعُونَ تَفْتَعِلُونَ مِنَ الدُّعَاءِ وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ العلماء أي تتمنون وتسألون.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِمُشْرِكِي مَكَّةَ الَّذِينَ يَتَمَنَّوْنَ هَلَاكَكَ، ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ﴾ من المؤمنين، ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ فأبقاها إلىٰ منتهىٰ آجالنَا، ﴿فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فَإِنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ فَيُعَذِّبَنِي وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَيَغْفِرَ لَنَا، فَنَحْنُ مَعَ إِيمَانِنَا خَائِفُونَ أَنْ يُهْلِكَنَا بِذُنُوبِنَا، لِأَنَّ حُكْمَهُ نافذ فينا، فمن يجير الكافرين فمن يجيركم ويمنعكم مع عَذَابِهِ وَأَنْتُمْ كَافِرُونَ.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ﴾ الَّذِي نَعْبُدُهُ، ﴿آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أَيْ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ أَيْ مِنَّا وَمِنْكُمْ، وَلِمَنْ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا والآخرة؟ .

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي غَائِرًا ذَاهِبًا فِي الْأَرْضِ لَا تَنَالُهُ الْأَيْدِي وَالدِّلَاءُ، قَالَ الْكَلْبِيُّ وَمُقَاتِلٌ: يَعْنِي مَاءَ زَمْزَمٍ، ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ ظَاهِرٍ تَرَاهُ الْعُيُونُ وَتَنَالُهُ الْأَيْدِي وَالدِّلَاءُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَعِينٌ أَيْ جَارٍ، وَقِيلَ: هُوَ مِنْ مَعَنَ الْمَاءُ أَيْ كَثُرَ، فَتَشْرَبُونَ مِنْهُ، وَتَسْقُونَ أَنْعَامَكُمْ وَأَشْجَارَكُمْ وَزُرُوعَكُمْ؟ وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَىٰ النَّفْيِ، أَيْ: لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَىٰ ذَلِكَ غَيْرُ اللهِ تَعَالَىٰ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُلْكِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الْقَلَمِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ وَهَذِهِ السُّورَةُ عَدَّهَا جَابِرُ بْنُ زَيْدٍ ثَانِيَةَ السُّورِ نُزُولًا قَالَ: نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وَبَعْدَهَا سُورَةُ الْمُزَّمِّلِ ثُمَّ سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ، وَالْأَصَحُّ حَدِيثُ عَائِشَةَ «أَنَّ أَوَّلَ مَا أُنْزِلَ سُورَةُ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ثُمَّ فَتَرَ الْوَحْيُ ثُمَّ نَزَلَتْ سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ» .

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ن . وَالْقَلَمِ﴾ هُوَ الَّذِي كَتَبَ اللهُ بِهِ الذكر ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ يَكْتُبُونَ أَيْ مَا تَكْتُبُ الْمَلَائِكَةُ الْحَفَظَةُ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿وَالْقَلَمِ﴾ فهو قَسَمٌ منه تعالىٰ، وَتَنْبِيهٌ لِخَلْقِهِ عَلَىٰ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ تَعْلِيمِ الْكِتَابَةِ الَّتِي بِهَا تُنَالُ الْعُلُومُ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ﴾ بِنُبُوَّةٍ، قَالَ النَّسَفِيُّ: أَيْ بِإِنْعَامِهِ عَلَيْكَ بِالنُّبُوَّةِ وَغَيْرِهَا ، ﴿رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ هذا جَوَابٌ لِقَوْلِهِمْ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر : ٦] فَأَقْسَمَ اللهُ بِالنُّونِ وَالْقَلَمِ وما يكتب من الأعمال ، أَيْ: إِنَّكَ لَا تَكُونُ مَجْنُونًا ، وَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْكَ بِالنُّبُوَّةِ وَالْحِكْمَةِ ، وَقِيلَ: بِعِصْمَةِ رَبِّكَ، وَقِيلَ: هُوَ كَمَا يُقَالُ مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَقِيلَ:

مَعْنَاهُ مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ وَالنِّعْمَةُ لِرَبِّكَ، كَقَوْلِهِمْ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَيْ وَالْحَمْدُ لَكَ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أَيْ مَنْقُوصٍ وَلَا مَقْطُوعٍ بِصَبْرِكِ عَلَىٰ افْتِرَائِهِمْ عَلَيْكَ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: دِينٌ عَظِيمٌ لَا دِينَ أَحَبُّ إِلَيَّ وَلَا أَرْضَىٰ عِنْدِي مِنْهُ، وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: هُوَ آداب الْقُرْآنَ، وَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ مَا كَانَ يَأْتَمِرُ بِهِ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَيَنْتَهِي عَنْهُ مِنْ نَهْيِ الله، والمعنىٰ إنك لعلىٰ الْخُلُقِ الَّذِي أَمَرَكَ اللهُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَإِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ لَعَلَىٰ أَدَبٍ عَظِيمٍ، وَذَلِكَ أَدَبُ الْقُرْآنِ الَّذِي أَدَّبَهُ اللهُ بِهِ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ وَشَرَائِعُهُ،

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ فَسَتُرَىٰ يَا مُحَمَّدُ وَيَرَوْنَ يَعْنِي أَهْلَ مَكَّةَ إِذَا نَزَلَ بِهِمُ العذاب.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ قيل معناه بأيكم المجنون. وَقِيلَ: الْبَاءُ بِمَعْنَىٰ (فِي) مَجَازُهُ: فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ فِي أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ الْمَجْنُونُ فِي فَرِيقِكَ أَمْ فِي فريقهم؟ وقيل: بأيكم المفتون وهو الشيطان الَّذِي فُتِنَ بِالْجُنُونِ، وقال آخرون: الباء فيه زَائِدَةٌ مَعْنَاهُ: أَيُّكُمُ الْمَفْتُونُ؟ أَيِ الْمَجْنُونُ الَّذِي فُتِنَ بِالْجُنُونِ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أَيْ هُوَ يَعْلَمُ تَعَالَىٰ أَيَّ الْفَرِيقَيْنِ مِنْكُمْ وَمِنْهُمْ هُوَ الْمُهْتَدِي، وَيَعْلَمُ الْحِزْبَ الضَّالَّ عَنِ الْحَقِّ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ يَعْنِي مُشْرِكِي مَكَّةَ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَدْعُونَهُ إِلَىٰ دِينِ آبَائِهِ فَنهَاهُ أَنْ يُطِيعَهُمْ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ: لَوْ تَكْفُرُونَ فَيَكْفُرُونَ ، وقال الْكَلْبِيُّ: لَوْ تَلِينُ لَهُمْ فَيَلِينُونَ لَكَ. قَالَ الْحَسَنُ: لَوْ تُصَانِعُهُمْ فِي دينك فيصانعون فِي دِينِهِمْ ، قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: لَوْ تُنَافِقُ وَتُرَائِي فَيُنَافِقُونَ، وَالِادِّهَانُ: التَّلْيِينُ لِمَنْ لَا يَنْبَغِي لَهُ التَّلْيِينُ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كَثِيرِ الْحَلِفِ بِالْبَاطِلِ. قَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ، وَقِيلَ: الْأُسُودُ بْنُ عَبْدِ يَغُوث: وَقَالَ عطاء: الأخنس بن شريق ، قوله: ﴿مَهِينٍ﴾ ضَعِيفٍ حَقِيرٍ ، وَالْحَلَّافُ: الْكَثِيرُ الْحَلِفِ، وَالْمَهِينُ: الضَّعِيفُ الْقَلْبِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَذَّابٌ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الْأَوَّلِ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَكْذِبُ لِمَهَانَةِ نَفْسِهِ عليه.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَمَّازٍ﴾ مُغْتَابٍ يَأْكُلُ لُحُومَ النَّاسِ بِالطَّعْنِ والغيبة، وقال الْحَسَنُ البصري : هُوَ الَّذِي يَغْمِزُ بِأَخِيهِ فِي الْمَجْلِسِ، كَقَوْلِهِ (هُمَزَةٍ) ، ﴿مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ قَتَّاتٍ يَسْعَىٰ بِالنَّمِيمَةِ بَيْنَ النَّاسِ ليفسد بينهم ، وَقِيلَ: الْهَمَّازُ الَّذِي يَذْكُرُ النَّاسَ فِي وُجُوهِهِمْ ، وَاللَّمَّازُ الَّذِي يَذْكُرُهُمْ فِي مَغِيبِهِمْ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ بِخَيْلٍ بِالْمَالِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ أَيْ لِلْإِسْلَامِ يَمْنَعُ وَلَدَهُ وَعَشِيرَتَهُ عَنِ الْإِسْلَامِ، يَقُولُ: لَئِنْ دَخَلَ وَاحِدٌ مِنْكُمْ فِي دِينِ مُحَمَّدٍ لَا أَنْفَعُهُ بِشَيْءٍ أبداً ، ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظلوم يتعدي الحق، ﴿أَثِيمٍ﴾ فاجر.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عُتُلٍّ﴾ الْعُتُلُّ: الْغَلِيظُ الْجَافِي ، وَقَالَ الْحَسَنُ: هُوَ الْفَاحِشُ الْخُلُقِ، السَّيِّئُ الْخُلُقِ ، قَالَ الْفَرَّاءُ: هُوَ الشَّدِيدُ الْخُصُومَةِ فِي الْبَاطِلِ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: هُوَ الشَّدِيدُ فِي كَفْرِهِ، وَكُلُّ شَدِيدٍ عِنْدَ الْعَرَبِ عُتُلٌّ، وَأَصْلُهُ مِنَ العتل وهو الدفع بالعنف ، ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أَيْ مَعَ ذَلِكَ يُرِيدُ مَعَ ما وصفناه به، ﴿زَنِيمٍ﴾ وَهُوَ الدَّعِيُّ الْمُلْصَقُ بِالْقَوْمِ، وَلَيْسَ منهم، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يُرِيدُ مَعَ هَذَا هُوَ دَعِيٌّ فِي قُرَيْشٍ وَلَيْسَ مِنْهُمْ ، قَالَ مُرَّةُ الْهَمْدَانِيُّ: إِنَّمَا ادَّعَاهُ أَبُوهُ بَعْدَ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً. وَقِيلَ: الزَّنِيمُ الَّذِي لَهُ زَنَمَةٌ كَزَنَمَةِ الشَّاةِ ، وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يُعْرَفُ بِالشَّرِّ كَمَا تُعْرَفُ الشَّاةُ بِزَنَمَتِهَا ، قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: لَا نحلم أَنَّ اللهَ وَصَفَ أَحَدًا وَلَا ذَكَرَ مِنْ عُيُوبِهِ مَا ذَكَرَ مِنْ عُيُوبِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فَأَلْحَقَ بِهِ عَارًا لَا يُفَارِقُهُ في الدنيا والآخرة.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ التَّقْدِيرُ: يَكْفُرُ ؛ لِأَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ جَعَلَ مُجَازَاةَ النِّعَمِ الَّتِي خُوِّلَهَا مِنَ الْبَنِينَ وَالْمَالِ الْكُفْرَ بِآيَاتِنَا ، قَالَ السَّعْدِيُّ : أَيْ:

لِأَجْلِ كَثْرَةِ مَالِهِ وَوَلَدِهِ، طَغَىٰ وَاسْتَكْبَرَ عَنِ الْحَقِّ، وَدَفَعَهُ حِينَ جَاءَهُ، وَجَعَلَهُ مِنْ جُمْلَةِ أَسَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ .

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ الْخُرْطُومُ الْأَنْفُ ، قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ: أَيْ نُسَوِّدُ وَجْهَهُ فَنَجْعَلُ لَهُ عَلَمًا فِي الْآخِرَةِ يُعْرَفُ بِهِ وَهُوَ سَوَادُ الْوَجْهِ. قَالَ الفراء: خص الخرطوم بالسمة ، وأنه فِي مَذْهَبِ الْوَجْهِ لِأَنَّ بَعْضَ الشَّيْءِ يُعَبَّرُ بِهِ عَنْ كُلِّهِ، وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سنحطمه بِالسَّيْفِ، وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: سَنُلْحِقُ بِهِ شيئا لا يفارقه، وَقَدْ أَلْحَقَ اللهُ بِمَا ذَكَرَ مِنْ عُيُوبِهِ عَارًا لَا يُفَارِقُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَالْوَسْمِ عَلَى الْخُرْطُومِ ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَالْكِسَائِيُّ: سَنَكْوِيهِ علىٰ وجهه.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ يَعْنِي اخْتَبَرْنَا أَهْلَ مَكَّةَ بِالْقَحْطِ والجوع، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ : وَالْبَلْوَىٰ حَقِيقَتُهَا: الِاخْتِبَارُ وَهِيَ هُنَا تَمْثِيلٌ بِحَالِ الْمُبْتَلَىٰ فِي إِرْخَاءِ الْحَبَلِ لَهُ بِالنِّعْمَةِ لِيَشْكُرَ أَوْ يَكْفُرَ، فَالْبَلْوَىٰ الْمَذْكُورَةُ هُنَا بَلْوَىٰ بِالْخَيْرِ فَإِنَّ اللهَ أَمَدَّ أَهْلَ مَكَّةَ بِنِعْمَةِ الْأَمْنِ، وَنِعْمَةِ الرِّزْقِ، وَجَعَلَ الرِّزْقَ يَأْتِيهِمْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، وَيَسَّرَ لَهُمْ سُبُلَ التِّجَارَةِ فِي الْآفَاقِ بِنِعْمَةِ الْإِيلَافِ بِرِحْلَةِ الشِّتَاءِ وَرِحْلَةِ الصَّيْفِ، فَلَمَّا أَكْمَلَ لَهُمُ النِّعْمَةَ بِإِرْسَالِ رَسُولٍ مِنْهُمْ لِيُكْمِلَ لَهُمْ صَلَاحَ أَحْوَالِهِمْ وَيَهْدِيَهُمْ إِلَىٰ مَا فِيهِ النَّعِيمُ الدَّائِمُ فَدَعَاهُمْ وَذَكَّرَهُمْ بِنِعَمِ اللهِ أَعْرَضُوا وَطَغَوْا وَلَمْ يَتَوَجَّهُوا إِلَىٰ النَّظَرِ فِي النِّعَمِ السَّالِفَةِ وَلَا فِي النِّعْمَةِ الْكَامِلَةِ الَّتِي أَكْمَلَتْ لَهُمُ النِّعَمِ ، ﴿كَمَا بَلَوْنَا﴾ ابتلينا، ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ وَهِيَ الْبُسْتَانُ

الْمُشْتَمِلُ عَلَىٰ أَنْوَاعِ الثِّمَارِ وَالْفَوَاكِهِ ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ حلفوا، ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ ليقطعن ثَمَرَهَا إِذَا أَصْبَحُوا قَبْلَ أَنْ يعلم المساكين، وَالصَّرْمُ: قَطْعُ الثَّمَرَةِ وَجِذَاذُهَا.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ لا يَقُولُونَ: إِنْ شَاءَ اللهُ ، وَمَعْنَىٰ لَا يَسْتَثْنُونَ: أَنَّهُمْ لَا يَسْتَثْنُونَ مِنَ الثَّمَرَةِ شَيْئًا لِلْمَسَاكِينِ، أَيْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّ جَمِيعَ الثَّمَرِ وَلَا يَتْرُكُونَ مِنْهُ شَيْئًا.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: طَافَ عَلَيْهَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ وَهُمْ نَائِمُونَ، وَالْمَقْصُودُ: نَزَلَ بِهَا بَلَاءٌ أَوْ آفَةٌ سَمَاوِيَّةٌ ، ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ لَيْلًا قال الْفَرَّاء: أَنَّ الطَّائِفَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِاللَّيْلِ، يَعْنِي وَمِنْهُ سُمِّيَ الْخَيَالُ الَّذِي يَرَاهُ النَّائِمُ فِي نَوْمِهِ طَيْفًا، وَكَانَ ذَلِكَ الطَّائِفُ نَارًا نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فَأَحْرَقَتْهَا، ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ .

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ الْأَسْوَدِ، الْأَسْوَدِ بِلُغَةِ خُزَيْمَةَ ، وَقَالَ الثَّوْرِيُّ وَالسُّدِّيُّ: مِثْلُ الزَّرْعِ إِذَا حُصِدَ، أَيْ: هَشِيمًا يَبَسًا، وَالصَّرِيمُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ: الْمَجْدُودُ الْمَقْطُوعُ، كَمَا يُطْلَقُ عَلَىٰ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ لِأَنَّهُ يَقْطَعُ بِظُلْمَتِهِ عَنِ التَّصَرُّفِ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ نَادَىٰ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عِنْدَ الصَّبَاحِ لِيَذْهَبُوا إِلَىٰ حَصْدِ الثَّمَرِ .

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ يَعْنِي الثِّمَارَ وَالزُّرُوعَ وَالْأَعْنَابَ، وَالْغُدُوُّ: الْخُرُوجُ وَمُغَادَرَةُ الْمَكَانِ فِي غَدْوَةِ النَّهَارِ، أَيْ أوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾ قاطعين للنخل.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَانْطَلَقُوا﴾ مَشَوْا إِلَيْهَا ﴿وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ يَتَسَارُّونَ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سِرًّا.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ﴾ أَيْ: لَا تُمَكِّنُوا الْيَوْمَ فَقِيرًا مِنَ الدُّخُولِ عَلَيْكُمْ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ الْحَرْدُ فِي اللُّغَةِ يَكُونُ بِمَعْنَىٰ الْقَصْدِ وَالْمَنْعِ وَالْغَضَبِ، قَالَ الْحَسَنُ البصري : عَلَىٰ جِدٍّ وَجَهْدٍ ، وَقَالَ مجاهد: علىٰ أمر مجتمع قَدْ أَسَّسُوهُ بَيْنَهُمْ، وَهَذَا عَلَىٰ مَعْنَىٰ الْقَصْدِ لِأَنَّ الْقَاصِدَ إِلَىٰ الشَّيْءِ جَادٌّ مُجْمِعٌ عَلَىٰ الْأَمْرِ ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: غَدَوْا من بيتهم علىٰ منع المساكين، وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: عَلَىٰ حَنَقٍ وَغَضَبٍ مِنَ الْمَسَاكِينِ، وَعَنِ ابْنِ عباس: علىٰ قدرة، ﴿قَادِرِينَ﴾ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ عَلَىٰ جَنَّتِهِمْ وَثِمَارِهَا لَا يَحُولُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُمْ أَحَدٌ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أَيْ لَمَّا رَأَوْا الْجَنَّةَ مُحْتَرِقَةً قَالُوا: إِنَّا لَمُخْطِئُونَ الطَّرِيقَ أَضْلَلْنَا مَكَانَ جَنَّتِنَا لَيْسَتْ هَذِهِ بِجَنَّتِنَا، وَقِيلَ: أَيْ إِنَّا لَضَالُّونَ عَنِ الصواب في غدونا وعلىٰ نِيَّةِ مَنْعِ الْمَسَاكِينِ، فَلِذَلِكَ عُوقِبْنَا. فَقَالَ بَعْضُهُمْ:

[٢٧] : ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ حُرِمْنَا خَيْرَهَا وَنَفْعَهَا لِمَنْعِنَا الْمَسَاكِينَ وَتَرْكِنَا الِاسْتِثْنَاءَ، وقد ذَكَرَ بَعْضُ السَّلَفِ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، وَكَانَ أَبُوهُمْ قَدْ خَلَّفَ لَهُمْ هَذِهِ الْجَنَّةَ، وَكَانَ يَسِيرُ فِيهَا سِيرَةً حَسَنَةً، فَكَانَ مَا يَسْتَغِلُّ مِنْهَا يَرُدُّ فِيهَا مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَيَدَّخِرُ لِعِيَالِهِ قُوتَ سَنَتِهِمْ، وَيَتَصَدَّقُ بِالْفَاضِلِ، فَلَمَّا مات وورثه بَنُوهُ قَالُوا: لَقَدْ كَانَ أَبُونَا أَحْمَقَ، إِذْ كَانَ يَصْرِفُ مِنْ هَذِهِ شَيْئًا لِلْفُقَرَاءِ، وَلَوْ أَنَّا مَنَعْنَاهُمْ لَتَوَفَّرَ ذَلِكَ عَلَيْنَا، فَلَمَّا عَزَمُوا عَلَىٰ ذَلِكَ عُوقِبُوا بِنَقِيضِ قَصْدِهِمْ، فَأَذْهَبَ اللهُ ما بأيديهم بالكلية : رأس الْمَالِ وَالرِّبْحَ وَالصَّدَقَةَ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ شَيْءٍ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أعدلهم أعقلهم وَأَفْضَلُهُمْ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ هَذَا الْأَوْسَطَ كَانَ أَمَرَهُمْ بِالِاسْتِثْنَاءِ فَلَمْ يُطِيعُوهُ ، ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ هَلَّا تُسْتَثْنُونَ، أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ تَرْكَ الِاسْتِثْنَاءِ فِي قَوْلِهِمْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ، وَسَمَّىٰ الِاسْتِثْنَاءَ تَسْبِيحًا لِأَنَّهُ تَعْظِيمٌ لِلَّهِ وَإِقْرَارٌ بِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ، وقيل: هلا تسبحون الله وتقولوا : سُبْحَانَ اللهِ ، وَتَشْكُرُونَهُ عَلَىٰ مَا أَعْطَاكُمْ ، قَالَ النَّحَّاسُ: أَصْلُ التَّسْبِيحِ التَّنْزِيهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَجَعَلَ مُجَاهِدٌ التَّسْبِيحَ فِي مَوْضِعِ إِنْ شَاءَ اللهُ، لِأَنَّ الْمَعْنَىٰ تَنْزِيهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يكون شي إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ. وَقِيلَ: هَلَّا تَسْتَغْفِرُونَهُ مِنْ فعلكم.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ اعْتَرَفُوا بِالْمَعْصِيَةِ وَنَزَّهُوا اللهَ عَنْ أَنْ يَكُونَ ظَالِمًا فِيمَا فَعَلَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِمْ: سُبْحانَ رَبِّنا أَيْ نَسْتَغْفِرُ اللهَ

مِنْ ذَنْبِنَا ، وَأَقَرُّوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالظُّلْمِ فَقَالُوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بِمَنْعِنَا الْمَسَاكِينَ.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ يَلُومُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي مَنْعِ الْمَسَاكِينِ حُقُوقَهُمْ ، وَنَادَوْا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بالويل .

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا يا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ أَيْ عَاصِينَ بِمَنْعِ حَقِّ الْفُقَرَاءِ وَتَرْكِ الِاسْتِثْنَاءِ ، وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: طَغَيْنَا نعمة اللهِ فَلَمْ نَشْكُرْهَا وَلَمْ نَصْنَعْ مَا صَنَعَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ، قَالَ السَّعْدِيُّ : فَالظَّاهِرُ أَنَّ اللهَ أَبْدَلَهُمْ فِي الدُّنْيَا خَيْرًا مِنْهَا لِأَنَّ مَنْ دَعَا اللهَ صَادِقًا، وَرَغِبَ إِلَيْهِ وَرَجَاهُ، أَعْطَاهُ سُؤْلَهُ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا:

[٣٢] : ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ قيل: راغبون فِي بَذْلِهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَقِيلَ: احْتَسَبُوا ثَوَابَهَا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: بَلَغَنِي أَنَّ الْقَوْمَ أَخْلَصُوا وَعَرَفَ اللهُ مِنْهُمُ الصِّدْقَ فَأَبْدَلَهُمْ بِهَا جنة فِيهَا عِنَبٌ يَحْمِلُ الْبَغْلُ مِنْهَا عُنْقُودًا وَاحِدًا .

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ أَيْ كَفِعْلِنَا بِهِمْ نَفْعَلُ بِمَنْ تَعَدَّىٰ حُدُودَنَا وَخَالَفَ أَمْرَنَا، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ هَذِهِ عُقُوبَةُ الدُّنْيَا وعذاب الآخرة أشق، ثُمَّ أَخْبَرَ بِمَا عِنْدَهُ لِلْمُتَّقِينَ فَقَالَ:

[٣٤] : ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّا نُعْطَىٰ فِي الْآخِرَةِ أَفْضَلَ مِمَّا تُعْطَوْنَ ، فَقَالَ اللهُ تَكْذِيبًا لَهُمْ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ أَيْ أَفَنُسَاوِي بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ فِي الْجَزَاءِ؟ كَلَّا وَرَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، ولهذا قال:

[٣٦] : ﴿مالكم كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أَيْ كَيْفَ تَظُنُّونَ ذَلِكَ، ثُمَّ قال تعالىٰ:

[٣٧] : ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ﴾ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، ﴿فِيهِ﴾ في هذا الكتاب، ﴿تَدْرُسُونَ﴾ تقرءون ، أَيْ لَكُمْ كِتَابٌ تَجِدُونَ فِيهِ الْمُطِيعَ كَالْعَاصِي.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ﴾ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ، ﴿لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ تَخْتَارُونَ وَتَشْتَهُونَ.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ﴾ عهود ومواثيق، ﴿عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ مُؤَكَّدَةٌ عَاهَدْنَاكُمْ عَلَيْهَا، فَاسْتَوْثَقْتُمْ بِهَا منا فلا تنقطع، وَالْبَالِغَةُ الْمُؤَكَّدَةُ بِاللهِ تَعَالَىٰ ، أَيْ أَمْ لَكُمْ عُهُودٌ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ اسْتَوْثَقْتُمْ بِهَا فِي أَنْ يُدْخِلَكُمُ الْجَنَّةَ. ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ الخير والكرامة عند الله، ثُمَّ قَالَ لِنَبِيِّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

[٤٠] : ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ كفيل أي أيهم يكفل لَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مَا لِلْمُسْلِمِينَ.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أَيْ عِنْدَهُمْ شُرَكَاءُ لِلَّهِ أَرْبَابٌ تَفْعَلُ هَذَا، وَقِيلَ: شُهَدَاءُ يَشْهَدُونَ لَهُمْ بِصِدْقِ مَا يَدَّعُونَهُ، ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ .

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَأَتَىٰ الْبَارِي لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ وَمُجَازَاتِهِمْ فَكَشَفَ عَنْ سَاقِهِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي لَا يُشْبِهُهَا شَيْءٌ، وَرَأَىٰ الْخَلَائِقُ مِنْ جَلَالِ اللهِ وَعَظَمَتِهِ مَا لَا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ، فَحِينَئِذٍ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ السُّجُودِ لِلَّهِ، فَيَسْجُدُ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ كَانُوا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ طَوْعًا وَاخْتِيَارًا، وَيَذْهَبُ الْفُجَّارُ الْمُنَافِقُونَ لِيَسْجُدُوا فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ السُّجُودِ، وَتَكُونُ ظُهُورُهُمْ كَصَيَاصِي الْبَقَرِ، لَا يَسْتَطِيعُونَ الِانْحِنَاءَ، وَهَذَا الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُدْعَوْنَ فِي الدُّنْيَا إِلَىٰ السُّجُودِ لِلَّهِ وَتَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ وَهُمْ سَالِمُونَ، لَا عِلَّةَ فِيهِمْ، فَيَسْتَكْبِرُونَ عَنْ ذَلِكَ وَيَأْبَوْنَ، ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَىٰ السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يَعْنِي الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ، تَصِيرُ أَصْلَابُهُمْ كَصَيَاصِيِّ الْبَقَرِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ السُّجُودَ، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا**»(١).

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ أَيْ ذَلِيلَةً مُتَوَاضِعَةً، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ مِنَ السُّجُودِ وَوُجُوهُهُمْ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلْجِ، وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ الْكَافِرِينَ والمنافقين: ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يَغْشَاهُمْ ذُلُّ النَّدَامَةِ

---

(١) البخاري (٤٩١٩) ومسلم (١٨٣).

وَالْحَسْرَةِ، والرَهَقُ: الغشيان.وتَرْهَقُهُمْ: تَحِلُّ بِهِمْ وَتَقْتَرِبُ مِنْهُمْ بِحِرْصٍ عَلَىٰ التَّمَكُّنِ مِنْهُمْ، ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَىٰ السُّجُودِ﴾ قَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ: يَعْنِي إِلَىٰ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ بِالْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَانُوا يَسْمَعُونَ حي علىٰ الصلاة حَيَّ عَلَىٰ الْفَلَّاحِ فَلَا يُجِيبُونَ، ﴿وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ أَصِحَّاءُ فَلَا يَأْتُونَهُ، قَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ: وَاللهِ مَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ إِلَّا عَنِ الَّذِينَ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الْجَمَاعَاتِ.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ أَيْ فَدَعْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ بِالْقُرْآنِ، وَخَلِّ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، قَالَ الزَّجَّاجُ: مَعْنَاهُ لَا تَشْغَلْ قَلْبَكَ بِهِ وَكِلْهُ إلي فإني أكفيك أمره، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ سَنَأْخُذُهُمْ بِالْعَذَابِ، وَالِاسْتِدْرَاجُ: تَرْكُ الْمُعَاجَلَةِ ، وَأَصْلُهُ النَّقْلُ مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ كَالتَّدَرُّجِ ، ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فَعُذِّبُوا يَوْمَ بَدْرٍ ، وَهَذَا تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيْ فَأَنَا أُجَازِيهِمْ وأنتقم منهم، وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: نُسْبِغُ عَلَيْهِمُ النِّعَمَ وَنُنْسِيهِمُ الشُّكْرَ. وَقَالَ الْحَسَنُ: كَمْ مُسْتَدْرَجٌ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَكَمْ مَفْتُونٌ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَكَمْ مَغْرُورٌ بِالسِّتْرِ عَلَيْهِ.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أَيْ أُمْهِلُهُمْ وَأُطِيلُ لَهُمُ الْمُدَّةَ ، وَأَمْلَىٰ اللهُ لَهُ أَيْ أَطَالَ لَهُ، وَقِيلَ: وَأُمْلِي لَهُمْ أَيْ لَا أُعَاجِلُهُمْ بِالْمَوْتِ، ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أَيْ عَظِيمٌ لِمَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَكَذَّبَ رُسُلِي، وتجرأ عَلَىٰ مَعْصِيَتِي.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجراً﴾؟ أَيْ أُجْرَةٌ عَلَىٰ إِبْلَاغِكَ إِيَّاهُمْ رِسَالَةَ اللهِ، أَيْ لستُ تَسْأَلُهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ شَيْئًا، ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أَيْ فَهُمْ مِنْ أَدْنَىٰ شَيْءٍ يَتَبَرَّمُونَ مِنْهُ، وَيُثْقِلُهُمْ وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ .

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أَيْ لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أَيْ لِقَضَاءِ رَبِّكَ ، وَالْحُكْمُ هُنَا الْقَضَاءُ ، وَقِيلَ: فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا حَكَمَ بِهِ عَلَيْكَ رَبُّكَ مِنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ ، وَقَالَ ابْنُ بَحْرٍ: فَاصْبِرْ لِنَصْرِ رَبِّكَ، قَالَ قَتَادَةُ: أَيْ لَا تَعْجَلْ وَلَا تُغَاضِبْ فَلَا بُدَّ مِنْ نَصْرِكَ، ﴿وَلَا تَكُنْ﴾ فِي الضَّجَرِ وَالْعَجَلَةِ، ﴿كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ وَهُوَ يُونُسُ بْنُ مَتَّىٰ، قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُعَزِّي نَبِيَّهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَأْمُرُهُ بِالصَّبْرِ وَلَا يَعْجَلُ كَمَا عَجِلَ صَاحِبُ الْحُوتِ، ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ دعا ربه وهو فِي بَطْنِ الْحُوتِ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أَيْ مَمْلُوءٌ غَمًّا، وَقِيلَ: كَرْبًا، قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ: وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْغَمَّ فِي الْقَلْبِ، وَالْكَرْبَ فِي الْأَنْفَاسِ، وَقِيلَ: مَكْظُومٌ مَحْبُوسٌ، وَالْكَظْمُ الْحَبْسُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ كَظَمَ غَيْظَهُ، أَيْ حَبَسَ غَضَبَهُ.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ﴾ أدركه ﴿نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ حِينَ رَحِمَهُ وَتَابَ عَلَيْهِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَاخْتُلِفَ فِي مَعْنَىٰ النِّعْمَةِ هُنَا، فَقِيلَ النُّبُوَّةُ، وَقِيلَ عِبَادَتُهُ الَّتِي سَلَفَتْ، وَقِيلَ: نِدَاؤُهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ

﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ﴾ لَطُرِحَ بِالْفَضَاءِ مِنْ بَطْنِ الْحُوتِ، ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أَيْ لَنُبِذَ مَذْمُومًا وَلَكِنَّهُ نُبِذَ سَقِيمًا غَيْرَ مَذْمُومٍ، وَالْعَرَاءُ: الْأَرْضُ الْوَاسِعَةُ الْفَضَاءِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا جَبَلٌ وَلَا شَجَرٌ يَسْتُرُ.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ أَيِ اصْطَفَاهُ وَاخْتَارَهُ ، ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: رَدَّ اللهُ إِلَيْهِ الْوَحْيَ، وَشَفَّعَهُ فِي نَفْسِهِ وَفِي قَوْمِهِ، وَقَبِلَ تَوْبَتَهُ، وَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ بِأَنْ أَرْسَلَهُ إِلَىٰ مائة ألف أو يزيدون.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْكُفَّارَ أَرَادُوا أَنْ يُصِيبُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعين فنظروا إِلَيْهِ قَوْمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَهُ وَلَا مِثْلَ حججه، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَعْنَاهُ يُنْفِذُونَكَ، يقال: زَلِقَ السَّهْمُ إِذَا أُنْفِذَ، قَالَ السُّدِّيُّ: يُصِيبُونَكَ بِعُيُونِهِمْ ، قَالَ النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ: يصيبونك بالعين، وَقِيلَ: يُزِيلُونَكَ ، وَقِيلَ: يَصْرِفُونَكَ عَمَّا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ ، قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: لَيْسَ يُرِيدُ أَنَّهُمْ يُصِيبُونَكَ بِأَعْيُنِهِمْ كَمَا يُصِيبُ الْعَائِنُ بِعَيْنِهِ مَا يُعْجِبُهُ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ نَظَرًا شَدِيدًا بِالْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ، يَكَادُ يُسْقِطُكَ ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: يَعْنِي مِنْ شِدَّةِ عَدَاوَتِهِمْ يَكَادُونَ بِنَظَرِهِمْ نَظَرَ الْبَغْضَاءِ أَنْ لَصَرَعُوكَ، وَهَذَا مُسْتَعْمَلٌ فِي الْكَلَامِ يَقُولُ الْقَائِلُ: نَظَرَ إِلَيَّ نَظَرًا يَكَادُ يَصْرَعُنِي، وَنَظَرًا يَكَادُ يَأْكُلُنِي، يَدُلُّ عَلَىٰ صِحَّةِ هَذَا الْمَعْنَىٰ أَنَّهُ قَرَنَ هَذَا النَّظَرَ بِسَمَاعِ الْقُرْآنِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ وَهُمْ كَانُوا يَكْرَهُونَ ذَلِكَ أَشَدَّ الْكَرَاهِيَةِ فَيُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ بِالْبَغْضَاءِ، قَوْلُهُ

تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ أي ينسبونه لجنون إِذَا سَمِعُوهُ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، فَقَالَ الله تَعَالَىٰ : ﴿وَمَا هُوَ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَوْعِظَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، قَالَ الْحَسَنُ البصري : دَوَاءُ إِصَابَةِ الْعَيْنِ أَنْ يَقْرَأَ الْإِنْسَانُ هَذِهِ الآية.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَلَمِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ يُرِيدُ الْقِيَامَةَ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ الْأُمُورَ تَحِقُّ فِيهَا وَقِيلَ: لِأَنَّ فِيهَا حَوَاقَّ الْأُمُورِ وَحَقَائِقَهَا، وَلِأَنَّ فِيهَا يَحِقُّ الْجَزَاءُ عَلَىٰ الْأَعْمَالِ، أَيْ يَجِبُ، يُقَالُ: حَقَّ عَلَيْهِ الشَّيْءُ إِذَا وَجَبَ يحق حقوقًا، وَقِيلَ: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا أَحَقَّتْ لِأَقْوَامٍ الْجَنَّةَ، وَأَحَقَّتْ لِأَقْوَامٍ النَّارَ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ هَذَا اسْتِفْهَامٌ مَعْنَاهُ التَّفْخِيمُ لِشَأْنِهَا، كَمَا يُقَالُ: زَيْدٌ مَا زَيدٌ، عَلَىٰ التَّعْظِيمِ لِشَأْنِهِ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ أَيْ أَنَّكَ لَا تَعْلَمُهَا إِذْ لَمْ تُعَايِنْهَا وَلَمْ تَرَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَهْوَالِ ، وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: كُلُّ شَيْءٍ قَالَ فِيهِ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فَإِنَّهُ عَلَّمَهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ الْقَارِعَةُ الْقِيَامَةُ ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّهَا تَقْرَعُ النَّاسَ بِأَهْوَالِهَا، يُقَالُ: أَصَابَتْهُمْ قَوَارِعُ الدَّهْرِ، أَيْ أَهْوَالُهُ

وَشَدَائِدُهُ ، وَقِيلَ: كَذَّبَتْ بِالْعَذَابِ الَّذِي أَوْعَدَهُمْ نَبِيُّهُمْ حَتَّىٰ نَزَلَ بِهِمْ فَقَرَعَ قُلُوبَهُمْ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ أَيْ بِطُغْيَانِهِمْ وَكُفْرِهِمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ: بِالصَّيْحَةِ الطَّاغِيَةِ، وَهِيَ الَّتِي جَاوَزَتْ مَقَادِيرَ الصِّيَاحِ فأهلكتهم، وَالطُّغْيَانُ: مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ، وَمِنْهُ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَىٰ الْماءُ﴾ أَيْ جَاوَزَ الْحَدَّ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ أَيْ بَارِدَةٍ تُحْرِقُ بِبَرْدِهَا كَإِحْرَاقِ النَّارِ، مَأْخُوذٌ مِنَ الصِّرِّ وَهُوَ الْبَرْدُ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الشَّدِيدَةُ السَّمُومِ. عاتِيَةٍ أَيْ عَتَتْ عَلَىٰ خُزَّانِهَا فَلَمْ تُطِعْهُمْ، وَلَمْ يُطِيقُوهَا مِنْ شِدَّةِ هُبُوبِهَا، غَضِبَتْ لِغَضَبِ اللهِ ، وَقِيلَ: عَتَتْ عَلَىٰ عَادٍ فَقَهَرَتْهُمْ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ أَرْسَلَهَا عَلَيْهِمْ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: سَلَّطَهَا عَلَيْهِمْ ، ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ قَالَ وَهْبٌ: هِيَ الْأَيَّامُ الَّتِي تُسَمِّيهَا الْعَرَبُ أَيَّامَ الْعَجُوزِ ذَاتُ بَرْدٍ وَرِيَاحٍ شَدِيدَةٍ ، قِيلَ: سُمِّيَتْ عجوزا لأنها عَجُزِ الشِّتَاءِ، ﴿حُسُومًا﴾ أَيْ مُتَتَابِعَةً لَا تَفْتُرُ وَلَا تَنْقَطِعُ، لَيْسَ فيها فترة، فعلىٰ هذا هو حَسْمِ الْكَيِّ، وَهُوَ أَنْ يُتَابَعَ علىٰ موضع الداء بالمكوة حَتَّىٰ يَبْرَأَ، ثُمَّ قِيلَ لِكُلِّ شَيْءٍ تُوبِعَ: حَاسِمٌ، وَجَمْعُهُ حُسُومٌ، مِثْلَ شَاهِدٍ وَشُهُودٌ، وَقَالَ النَّضِرُ بْنُ شُمَيْلٍ: حَسَمَتْهُمْ قَطَعَتْهُمْ وَأَهْلَكَتْهُمْ، وَالْحَسْمُ: الْقَطْعُ وَالْمَنْعُ وَمِنْهُ حَسْمُ الداء ، قال الزجاج: أي تَحْسِمُهُمْ حُسُومًا تُفْنِيهِمْ وَتُذْهِبُهُمْ ، وَقَالَ عطية: شؤما كَأَنَّهَا حَسَمَتِ الْخَيْرَ عَنْ أَهْلِهَا ، ﴿فَتَرَىٰ الْقَوْمَ فِيهَا﴾ أَيْ فِي تِلْكَ اللَّيَالِي وَالْأَيْامِ،

﴿صَرْعَىٰ﴾ هَلْكَىٰ جَمْعُ صَرِيعٍ، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ سَاقِطَةٍ، وَقِيلَ: خَالِيَةِ الْأَجْوَافِ، قَالَ يَحْيَىٰ بْنُ سَلَّامٍ: إِنَّمَا قَالَ خاوِيَةٍ لِأَنَّ أَبْدَانَهُمْ خَوَتْ مِنْ أَرْوَاحِهِمْ مِثْلَ النَّخْلَةِ الْخَاوِيَةِ، وقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ: جُعِلَتِ الرِّيحُ تَضْرِبُ بِأَحَدِهِمُ الْأَرْضَ فيخرّ مَيّتًا علىٰ أمِّ رأسِه، فينشَدِخُ رأسُه وتبقىٰ جُثّته كأنها قائمةُ النخلةِ إذا خَرَّت بلا أغصان.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ أَيْ مِنْ نَفْسٍ بَاقِيَةٍ يَعْنِي: لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ أَيْ وَمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْأُمَمِ الكافرة، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ يعني أَيْ قُرَىٰ قَوْمِ لُوطٍ يُرِيدُ أَهْلَ الْمُؤْتَفِكَاتِ، قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّمَا سُمِّيَتْ قُرَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (مُؤْتَفِكَاتٍ) لِأَنَّهَا ائْتَفَكَتْ بِهِمْ، أَيِ انْقَلَبَتْ، وَقِيلَ: يُرِيدُ الْأُمَمَ الذين ائتفكوا بخطيئتهم، ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ أَيْ بِالْخَطِيئَةِ وَالْمَعْصِيَةِ وَهِيَ الشِّرْكُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: بِالْخَطَايَا الَّتِي كَانُوا يَفْعَلُونَهَا، وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ: أَيْ بِالْخَطَأِ الْعَظِيمِ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ يَعْنِي لُوطًا وَمُوسَىٰ، ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ أَيْ عَالِيَةً زَائِدَةً عَلَىٰ الْأَخَذَاتِ وَعَلَىٰ عَذَابِ الْأُمَمِ، وَمِنْهُ الرِّبَا إِذَا أَخَذَ فِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَىٰ، يُقَالُ: رَبَا الشَّيْءُ يَرْبُو أَيْ زَادَ وَتَضَاعَفَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمَا: شَدِيدَةً، وَقِيلَ: زَائِدَةً عَلَىٰ

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ أَيْ عَتَا وَجَاوَزَ حَدَّهُ حَتَّىٰ عَلَا عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَارْتَفَعَ فَوْقَهُ يَعْنِي زَمَنَ نُوحٍ عَلَيْهِ السلام، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَالْمَقْصُودُ مِنْ قَصَصِ هَذِهِ الْأُمَمِ وَذِكْرِ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ: زَجْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَنِ الِاقْتِدَاءِ بِهِمْ فِي مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ، ثُمَّ مَنَّ عَلَيْهِمْ بِأَنْ جَعَلَهُمْ ذُرِّيَّةَ مَنْ نَجَا مِنَ الْغَرَقِ بِقَوْلِهِ: ﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ أَيْ حَمَلْنَا آبَاءَكُمْ وَالْمَحْمُولُ فِي الْجَارِيَةِ نُوحٌ وَأَوْلَادُهُ، وَكُلُّ مَنْ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ نَسْلِ أُولَئِكَ، ﴿فِي الْجَارِيَةِ﴾ فِي السَّفِينَةِ الَّتِي تَجْرِي فِي الماء ، والْجارِيَةِ: صِفَةٌ لِمَحْذُوفٍ وَهُوَ السَّفِينَةُ وَقَدْ شَاعَ هَذَا الْوَصْفُ حَتَّىٰ صَارَ بِمَنْزِلَةِ الاسْمِ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ﴾ [الرَّحْمَن: ٢٤].

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أَيْ لِنَجْعَلَ تِلْكَ الْفَعْلَةَ الَّتِي فَعَلْنَا مِنْ إِغْرَاقِ قَوْمِ نُوحٍ وَنَجَاةِ مَنْ حَمَلْنَا مَعَهُ، ﴿لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ عبرة وعظة ﴿وَتَعِيَهَا﴾ أي تحفظها، ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ أَيْ تَحْفَظُهَا وَتَسْمَعُهَا أُذُنٌ حَافِظَةٌ لِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، قَالَ قَتَادَةُ: أُذُنٌ سَمِعَتْ وَعَقَلَتْ مَا سَمِعَتْ ، قَالَ الْفَرَّاءُ: لِتَحْفَظَهَا كُلُّ أُذُنٍ فَتَكُونُ عِبْرَةً وَمَوْعِظَةً لِمَنْ يَأْتِي بَعْدُ ، قَالَ الزَّجَّاجُ: وَيُقَالُ وَعَيْتُ كَذَا أَيْ حَفِظْتُهُ فِي نَفْسِي، أَعِيهِ وَعْيًا، وَوَعَيْتُ الْعِلْمَ، وَوَعَيْتُ مَا قُلْتَ، كُلُّهُ بِمَعْنًىٰ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ وَهِيَ النَّفْخَةُ الْأُولَىٰ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ النَّفْخَةُ الْأُولَىٰ لِقِيَامِ السَّاعَةِ، فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ إِلَّا مَاتَ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ رفعت أماكنها، ﴿فَدُكَّتَا﴾ كسرتا، ﴿دَكَّةً﴾ كسرة، ﴿وَاحِدَةً﴾ فَصَارَتَا هَبَاءً مَنْثُورًا. قَالَ النَّسَفِيُّ: رُفِعَتَا عَنْ مَوْضِعِهِمَا ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ دُقَّتَا وَكُسِرَتَا، أَيْ ضُرِبَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ حَتَّىٰ تَنْدَقَّ وَتَرْجِعَ كَثِيبًا مَهِيلًا وَهَبَاءً مُنْبَثًّا.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ قَامَتِ الْقِيَامَةُ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ أَيِ انْصَدَعَتْ وَتَفَطَّرَتْ، وَقِيلَ: تَنْشَقُّ لِنُزُولِ مَا فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ ضَعِيفَةٌ قَالَ الْفَرَّاءُ، وَهْيُهَا تَشَقُّقُهَا، يُقَالُ: وَهَىٰ الْبِنَاءُ يَهِي وَهْيًا فَهُوَ وَاهٍ إِذَا ضَعُفَ جِدًّا، وَيُقَالُ: كَلَامٌ وَاهٍ، أَيْ ضَعِيفٌ، فَقِيلَ: إِنَّهَا تَصِيرُ بَعْدَ صَلَابَتِهَا بِمَنْزِلَةِ الصُّوفِ فِي الْوَهْيِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ لِنُزُولِ الْمَلَائِكَةِ كَمَا ذَكَرْنَا.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْمَلَكُ﴾ يعني الملائكة، ﴿عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ نَوَاحِيهَا، وَأَقْطَارِهَا مَا لَمْ يَنْشَقَّ منها، وأحدها رجا وَتَثْنِيَتُهُ رِجَوَانِ، قَالَ الضَّحَّاكُ: تَكُونُ الملائكة علىٰ حافاتها حَتَّىٰ يَأْمُرَهُمُ الرَّبُّ، فَيَنْزِلُونَ فَيُحِيطُونَ بِالْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الْمَعْنَىٰ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ حَافَاتِ الدُّنْيَا، أَيْ يَنْزِلُونَ إِلَىٰ الْأَرْضِ وَيَحْرُسُونَ أَطْرَافَهَا، وَقِيلَ: إِذَا صَارَتِ السَّمَاءُ قِطَعًا تَقِفُ الْمَلَائِكَةُ عَلَىٰ تِلْكَ الْقِطَعِ الَّتِي لَيْسَتْ مُتَشَقِّقَةً فِي أَنْفُسِهَا.

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ أَيْ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ يَعْنِي الْحَمْلَةَ، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة، ﴿ثَمَانِيَةٌ﴾ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ الْعَرْشَ ثَمَانِيَةٌ من الملائكة، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ أَيْ ثَمَانِيَةُ صُفُوفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَا يَعْلَمُ عِدَّتَهُمْ إِلَّا اللهُ، وفي الحديث عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، أَنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَىٰ عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ**»[(١)].

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ على الله، ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أَيْ فِعْلَةٌ خَافِيَةٌ. قَالَ الْكَلْبِيُّ: لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللهِ مِنْكُمْ شَيْءٌ ، قَالَ أَبُو مُوسَىٰ: يُعْرَضُ النَّاسُ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ، فَأَمَّا عَرْضَتَانِ فَجِدَالٌ وَمَعَاذِيرُ، وَأَمَّا الْعَرْضَةُ الثَّالِثَةُ فَعِنْدَهَا تَطَايُرُ الصُّحُفِ فَآخِذٌ بِيَمِينِهِ وَآخِذٌ بِشِمَالِهِ، وَقِيلَ: لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ إِنْسَانٌ، أَيْ لَا يَبْقَىٰ إِنْسَانٌ لَا يُحَاسَبُ، وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: لَا يَخْفَىٰ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْكَافِرِ وَلَا الْبَرُّ مِنَ الْفَاجِرِ، وَقِيلَ: لَا تَسْتَتِرُ مِنْكُمْ عَوْرَةٌ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **يُحْشَرُ النَّاسُ حُفَاةً عُرَاةً**»[(٢)] ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ

---

(١) أبو داود (٤٧٢٧) .

(٢) البخاري (٣٣٤٩) ومسلم (٢٨٦٠) .

أَنْ تُوزَنُوا، فَإِنَّهُ أَخفُّ عَلَيْكُمْ فِي الحساب غداً، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ .

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ وَمَعْنَىٰ: هاؤُمُ تَعَالَوْا، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: هَلُمَّ ، وَقِيلَ: أَيْ خُذُوا، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ سَعَادَةِ مَنْ يؤتىٰ كِتَابَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِيَمِينِهِ، وَفَرَحِهِ بِذَلِكَ وَأَنَّهُ مِنْ شِدَّةِ فَرَحِهِ يَقُولُ لِكُلِّ مَنْ لَقِيَهُ: ﴿هَآؤُمُ اقرأوا كِتَابيَهْ﴾ أي خذوا اقرأوا كِتَابِيَهْ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي فِيهِ خَيْرٌ وَحَسَنَاتٌ مَحْضَةٌ، لِأَنَّهُ مِمَّنْ بَدَّلَ اللهُ سَيِّئَاتِهِ حسنات، قوله تعالىٰ :

[٢٠] : ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ﴾ عَلِمْتُ وَأَيْقَنْتُ، وَقِيلَ: أَيْ إِنِّي ظَنَنْتُ إِنْ يُؤَاخِذْنِي اللهُ بِسَيِّئَاتِي عَذَّبَنِي ، قَالَ الضَّحَّاكُ: كُلُّ ظَنٍّ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْمُؤْمِنِ فَهُوَ يَقِينٌ ، وَمِنَ الْكَافِرِ فَهُوَ شَكٌّ ، وَقَالَ الْحَسَنُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ فَأَحْسَنَ الْعَمَلَ وَإِنَّ الْمُنَافِقَ أَسَاءَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ فَأَسَاءَ الْعَمَلَ. ﴿أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي أُحَاسَبُ فِي الْآخِرَةِ.

[٢١] : ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ﴾ أَيْ فِي الْآخِرَةِ وَلَمْ أُنْكِرِ الْبَعْثَ، يَعْنِي أَنَّهُ مَا نَجَا إِلَّا بِخَوْفِهِ مِنْ يَوْمِ الْحِسَابِ، لِأَنَّهُ تَيَقَّنَ أَنَّ اللهَ يُحَاسِبُهُ فَعَمِلَ لِلْآخِرَةِ ، ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ﴾ أَيْ فِي عَيْشٍ يَرْضَاهُ لَا مَكْرُوهَ فِيهِ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ رفيعة عَظِيمَةٌ فِي النُّفُوسِ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أَيْ قَرِيبَةُ التَّنَاوُلِ، يَتَنَاوَلُهَا الْقَائِمُ وَالْقَاعِدُ وَالْمُضْطَجِعُ ، وَالْقُطُوفُ هُوَ مَا يُقْطَفُ مِنَ الثِّمَارِ. وَيُقَالُ لَهُمْ:

[٢٤] : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ قَدَّمْتُمْ لِآخِرَتِكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، ﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ الْمَاضِيَةِ يُرِيدُ أَيَّامَ الدُّنْيَا، أَيْ يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَفَضُّلًا عَلَيْهِمْ وَامْتِنَانًا، وَإِنْعَامًا وَإِحْسَانًا، وَإِلَّا فَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**اعْمَلُوا وَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَنْ يُدْخِلَهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ**» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ منه وفضل**»(١).

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ قَالَ ابْنُ السَّائِبِ: تُلْوَىٰ يَدُهُ اليسرىٰ خَلْفَ ظَهْرِهِ ثُمَّ يُعْطَىٰ كِتَابَهُ. وَقِيلَ: تُنْزَعُ يَدُهُ الْيُسْرَىٰ مِنْ صَدْرِهِ إِلَىٰ خَلْفِ ظَهْرِهِ ثُمَّ يعطىٰ كتابه، ﴿فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ يَتَمَنَّىٰ أَنَّهُ لَمْ يُؤْتَ كِتَابَهُ لِمَا يَرَىٰ فِيهِ مِنْ قَبَائِحِ أعماله ، قَالَ السَّعْدِيُّ : ؤُلَاءِ أَهْلُ الشَّقَاءِ يُعْطَوْنَ كُتُبَ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةَ بِشِمَالِهِمْ تَمْيِيزًا لَهُمْ وَخِزْيًا وَعَارًا وَفَضِيحَةً، فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ وَالْخِزْيِ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ أَيْ: يَتَمَنَّىٰ أَنْ لَمْ يَكُنْ أُعْطِيَ الْكِتَابَ، وَلَمْ يَدْرِ مَا الْحِسَابُ .

---

(١) البخاري (٥٦٧٣) .

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ يَقُولُ: يَا لَيْتَ الْمَوْتَةَ الَّتِي مُتُّهَا فِي الدُّنْيَا كَانَتِ الْقَاضِيَةُ مِنْ كُلِّ مَا بَعْدَهَا، وَالْقَاطِعَةُ لِلْحَيَاةِ، فَلَمْ أُبْعَثْ بَعْدَهَا، وَالْقَاضِيَةُ مَوْتٌ لَا حَيَاةَ بَعْدَهَا، يَتَمَنَّىٰ أَنَّهُ لَمْ يُبْعَثْ لِلْحِسَابِ ، قَالَ قَتَادَةُ: يَتَمَنَّىٰ الْمَوْتَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ أَكْرَهَ مِنَ الْمَوْتِ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ لَمْ يَدْفَعْ عَنِّي مِنْ عَذَابِ اللهِ شَيْئًا.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ ضَلَّتْ عَنِّي حُجَّتِي، عَنْ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: زَالَ عَنِّي مِلْكِي وَقُوَّتِي ، قَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي حِينَ شَهِدَتْ عَلَيْهِ الْجَوَارِحُ بِالشِّرْكِ ، يَقُولُ اللهُ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ:

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ اجْمَعُوا يَدَهُ إِلَىٰ عُنُقِهِ، وَغُلُّوهُ: أَمْرٌ مِنْ غَلَّهُ إِذَا وَضَعَهُ فِي الْغُلِّ وَهُوَ الْقَيْدُ الَّذِي يُجْعَلُ فِي عُنُقِ الْجَانِي أَوِ الْأَسِيرِ ، قال الفضيل بن عِيَاضٍ : إِذَا قَالَ الرَّبُّ عزَّ وجلَّ ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ ابْتَدَرَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ أَيُّهُمْ يَجْعَلُ الْغُلَّ فِي عُنُقِهِ.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أَيْ أَدْخِلُوهُ الْجَحِيمَ ، قَالَ السَّعْدِيُّ : أَيْ قَلِّبُوهُ عَلَىٰ جَمْرِهَا وَلَهَبِهَا.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ فَأَدْخِلُوهُ فِيهَا، قَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ﴾ أَيْ حَلْقَةٍ مُنْتَظِمَةٍ بِأُخْرَىٰ، وَهِيَ بِثَالِثَةٍ، وَهَلُمَّ جَرًّا ، ﴿ذَرْعُهَا﴾ أَيْ: مِقْدَارُهَا ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ فَأَدْخِلُوهُ

فِيهَا، أَيْ: لُفُّوهُ بِهَا، بِحَيْثُ يَكُونُ فِيمَا بَيْنَ حَلَقِهَا مُرْهَقًا، لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ حَرَكَةٍ، فَإِنَّ السَّبَبَ الَّذِي أَوْصَلَهُ إِلَىٰ هَذَا الْمَحَلِّ:

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ﴾ بِأَنْ كَانَ كَافِرًا بِرَبِّهِ مُعَانِدًا لِرُسُلِهِ رَادًّا مَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْحَقِّ.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ لَا يُطْعِمُ الْمِسْكِينَ فِي الدُّنْيَا ولا يأمر أهله بذلك. وَالْحَضُّ: التَّحْرِيضُ وَالْحَثُّ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ لَا يَقُومُ بِحَقِّ اللهِ عَلَيْهِ مِنْ طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَلَا يَنْفَعُ خَلْقَهُ وَيُؤَدِّي حَقَّهُمْ، فَإِنَّ لِلَّهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ أَنْ يُوَحِّدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَلِلْعِبَادِ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ حَقُّ الْإِحْسَانِ وَالْمُعَاوَنَةِ عَلَىٰ الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾ الْحَمِيمُ هَا هُنَا الْقَرِيبُ، أَيْ لَيْسَ لَهُ قَرِيبٌ يَرِقُّ لَهُ وَيَدْفَعُ عَنْهُ.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ وَهُوَ صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ مَأْخُوذٌ مِنَ الْغَسْلِ كَأَنَّهُ غُسَالَةُ جُرُوحِهِمْ وَقُرُوحِهِمْ، قَالَ الضَّحَّاكُ وَالرَّبِيعُ: هُوَ شَجَرٌ يَأْكُلُهُ أَهْلُ النَّارِ، والغِسْلين فِعْلين من الغَسل، وَالْمَقْصُودُ: مِمَّا يَنْزِلُ مِنْ أَبْدَانِ أَهْلِ النَّارِ وَصَدِيدِهِمْ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ أَيِ الْمُذْنِبُونَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ، قَالَ السَّعْدِيُّ: الَّذِينَ أَخْطَأُوا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ وَسَلَكُوا سُبُلَ الْجَحِيمِ فَلِذَلِكَ اسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ (لَا) رَدٌّ لِكَلَامِ الْمُشْرِكِينَ كَأَنَّهُ قَالَ: لَيْسَ كَمَا يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ أُقْسِمُ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وقيل: فَلا هَا هُنَا نَفْيٌ لِلْقَسَمِ، أَيْ لَا يَحْتَاجُ فِي هَذَا إِلَىٰ قَسَمٍ لِوُضُوحِ الْحَقِّ فِي ذَلِكَ، وَعَلَىٰ هَذَا فَجَوَابُهُ كَجَوَابِ الْقَسَمِ : ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ .

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ أَيْ بِمَا تَرَوْنَ وَبِمَا لَا تَرَوْنَ، قَالَ قَتَادَةُ: أَقْسَمَ بِالْأَشْيَاءِ كلها فيدخل فيه جميع المكونات وَالْمَوْجُودَاتِ، وَقَالَ: أَقْسَمَ بِالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقِيلَ: مَا تُبْصِرُونَ مَا عَلَىٰ وجه الأرض وما لَا تُبْصِرُونَ مَا فِي بَطْنِهَا ، وقيل: ما تُبْصِرُونَ مِنَ الْأَرْوَاحِ ، وَقِيلَ: مَا تبصرون: الإنس وما لَا تُبْصِرُونَ: الْمَلَائِكَةُ وَالْجِنُّ ، وَقِيلَ: النِّعَمُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ ، وَقِيلَ: مَا تُبْصِرُونَ: مَا أَظْهَرَ اللهُ لِلْمَلَائِكَةِ واللوح والقلم، وما لَا تُبْصِرُونَ مَا اسْتَأْثَرَ بِعِلْمِهِ فَلَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهِ أَحَدًا.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أَيْ تِلَاوَةُ رَسُولٍ كَرِيمٍ يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ﴾ لِأَنَّهُ مُبَايِنٌ لِصُنُوفِ الشِّعْرِ كُلِّهَا، ﴿قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ .

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ﴾ لِأَنَّهُ وَرَدَ بِسَبِ الشَّيَاطِينِ وَشَتْمِهِمْ فَلَا يُنَزِّلُونَ شَيْئًا عَلَىٰ مَنْ يَسُبُّهُمْ ، ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ وَالْمَعْنَىٰ: قَلِيلًا تُؤْمِنُونَ،

وَقَلِيلًا تَذَكَّرُونَ ، وَذَلِكَ الْقَلِيلُ مِنْ إِيمَانِهِمْ هُوَ أَنَّهُمْ إِذَا سُئِلُوا مَنْ خَلَقَهُمْ قَالُوا: اللهُ.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيْ: وَإِنَّمَا هَذَا الْقُرْآنُ تَنْزِيلٌ مِنْ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الَّذِي رَبَّاهُمْ بِصُنُوفِ نِعَمِهِ، وَمَا خَلَقَهُمْ عَبَثًا وَلَا تَرَكَهُمْ لِلضَّيَاعِ، بَلْ أَكْرَمَهُمْ بِالْوَحْيِ وَالنُّبُوَّةِ، لِيُوصِلَهُمْ إِلَىٰ سُبُلِ السَّعَادَةِ وَمَنَاهِجِ الْفَلَاحِ .

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ﴾ تَقَوَّلَ أَيْ: تَكَلَّفَ وَأَتَىٰ بِقَوْلٍ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ أَيْ مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَوْ كَانَ كَمَا يَزْعُمُونَ مُفْتَرِيًا عَلَيْنَا، فَزَادَ فِي الرِّسَالَةِ أَوْ نَقَصَ مِنْهَا، أَوْ قَالَ شَيْئًا مِنْ عِنْدِهِ، فَنَسَبَهُ إِلَيْنَا لَعَاجَلْنَاهُ بِالْعُقُوبَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ:

[٤٥] : ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَأَخَذْنَاهُ بِالْقُوَّةِ وَالْقُدْرَةِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لَأَخَذْنَا بِيَدِهِ الْيُمْنَىٰ، وَهُوَ مِثْلُ مَعْنَاهُ ، لَأَذْلَلْنَاهُ وَأَهَنَّاهُ كَالسُّلْطَانِ، إِذَا أَرَادَ الِاسْتِخْفَافَ بِبَعْضٍ من بين يديه، يَقُولُ لِبَعْضِ أَعْوَانِهِ: خُذْ بِيَدِهِ فَأَقِمْهُ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ خَرَجَ مَخْرَجَ الْإِذْلَالِ عَلَىٰ عَادَةِ النَّاسِ فِي الْأَخْذِ بِيَدِ مَنْ يُعَاقِبُ ، كَمَا يَقُولُ السُّلْطَانُ لِمَنْ يُرِيدُ هَوَانَهُ: خُذُوا يَدَيْهِ، أَيْ لَأَمَرْنَا بِالْأَخْذِ بِيَدِهِ وَبَالَغْنَا فِي عِقَابِهِ .

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ نِيَاطَ الْقَلْبِ، وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْحَبْلُ الَّذِي فِي الظَّهْرِ، وَقِيلَ: هُوَ عِرْقٌ يَجْرِي فِي الظَّهْرِ حَتَّىٰ يَتَّصِلَ بِالْقَلْبِ، فَإِذَا انْقَطَعَ مَاتَ صَاحِبُهُ.

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ مَانِعِينَ يَحْجِزُونَنَا عَنْ عُقُوبَتِهِ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنْ مُحَمَّدًا لَا يَتَكَلَّفُ الْكَذِبَ لِأَجْلِكُمْ، مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ لَوْ تكلمه لَعَاقَبْنَاهُ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَىٰ دفْعِ عُقُوبَتِنَا عَنْهُ.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني القرآن، ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أَيْ لَعِظَةٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ عِقَابَ اللهِ.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ أَيْ مَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَالْوُضُوحِ، سَيُوجَدُ مِنْكُمْ مَنْ يُكَذِّبُ بالقرآن، ثم قال تعالىٰ:

[٥٠]: ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْدَمُونَ عَلَىٰ تَرْكِ الْإِيمَانِ بِهِ.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي الخبر الصادق الْحَقُّ، الذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ ولا ريب .

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أَيِ الَّذِي أَنْزَلَ هذا القرآن العظيم.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَاقَّةِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالْاتِّفَاقِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي استعجل سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ذَلِكَ سُؤَالُ الْكُفَّارِ عَنْ عذاب الله وهو واقع بهم، ﴿وَاقِعٍ﴾ نَازِلٍ كَائِنٍ عَلَىٰ مَنْ يُنَزَّلْ، وَلِمَنْ ذَلِكَ الْعَذَابُ ، فَقَالَ اللهُ مُبِينًا مُجِيبًا لِذَلِكَ السَّائِلِ: ﴿لِلْكَافِرينَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ لَمَّا خَوَّفَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْعَذَابِ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: من أهل الْعَذَابِ؟ وَلِمَنْ هُوَ؟ سَلُوا عَنْهُ مُحَمَّدًا فَسَأَلُوهُ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ . لِلْكَافِرينَ﴾ أَيْ هُوَ لِلْكَافِرِينَ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ أَيْ: لَا دَافِعَ لَهُ إِذَا أَرَادَ اللهُ كَوْنَهُ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مِنَ اللهِ﴾ أَيْ بِعَذَابٍ مِنَ اللهِ، ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ أَيْ: ذُو الْعُلُوِّ وَالْجَلَالِ وَالْعَظَمَةِ، وَالتَّدْبِيرِ لِسَائِرِ الْخَلْقِ، الَّذِي تَعْرُجُ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ ذِي السَّمَاوَاتِ، سَمَّاهَا مَعَارِجَ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَعْرُجُ فِيهَا ، وَقَالَ

سَعِيدُ ابْنُ جُبَيْرٍ: ذِي الدَّرَجَاتِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: ذِي الْفَوَاضِلِ وَالنِّعَمِ، وَمَعَارِجُ الملائكة.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ أَيْ تَصْعَدُ فِي الْمَعَارِجِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ لَهُمْ ، يَعْنِي جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿إِلَيْهِ﴾ أَيْ إِلَىٰ اللهِ عزوجل ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ مِنْ سِنِي الدُّنْيَا ، قال عِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ: هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَأَرَادَ أَنَّ مَوْقِفَهُمْ لِلْحِسَابِ حَتَّىٰ يُفْصَلُ بَيْنَ النَّاسِ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ مِنْ سِنِي الدُّنْيَا، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لَوْ وَلِيَ مُحَاسَبَةَ الْعِبَادِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ غَيْرُ الله لم يفرغ منه في خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَقِيلَ: فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، وَالْمَعْنَىٰ: سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ مِنَ اللهِ دَافِعٌ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ. وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ مَعْنَىٰ مَا اخْتَرْنَاهُ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ يَا مُحَمَّدُ عَلَىٰ تَكْذِيبِهِمْ، وَهَذَا قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِالْقِتَالِ ، وَالصَّبْرُ الْجَمِيلُ: هُوَ الَّذِي لَا جَزَعَ فِيهِ وَلَا شَكْوَىٰ لِغَيْرِ اللهِ، وَقِيلَ: هُوَ أَنْ يَكُونَ صَاحِبُ الْمُصِيبَةِ فِي الْقَوْمِ لَا يُدْرَىٰ مَنْ هُوَ ، وَالْمَعْنَىٰ مُتَقَارِبٌ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ السَّيْفِ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ يُرِيدُ أَهْلَ مَكَّةَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ بِالنَّارِ بَعِيدًا، أَيْ غَيْرَ كَائِنٍ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ لِأَنَّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ وهو يوم القيامة، وَقَالَ الْأَعْمَشُ: يَرَوْنَ الْبَعْثَ بَعِيدًا لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ كَأَنَّهُمْ يَسْتَبْعِدُونَهُ عَلَىٰ جِهَةِ الْإِحَالَةِ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ كَعَكَرِ الزَّيْتِ ، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مَا أُذِيبَ مِنَ الرَّصَاصِ وَالنُّحَاسِ وَالْفِضَّةِ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : كَالْفِضَّةِ إِذَا أُذِيبَتْ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ كَالصُّوفِ الْمَصْبُوغِ ، وَلَا يُقَالُ عِهْنٌ إِلَّا لِلْمَصْبُوغِ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: كَالصُّوفِ المنفوش ، وَقَالَ الْحَسَنُ: وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ وَهُوَ الصُّوفُ الْأَحْمَرُ، وَهُوَ أَضْعَفُ الصُّوفِ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أَيْ عَنْ شَأْنِهِ لِشُغْلِ كُلِّ إِنْسَانٍ بِنَفْسِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ لَا يَسْأَلُ الْقَرِيبُ قَرِيبَهُ عَنْ حَالِهِ، وَهُوَ يَرَاهُ فِي أَسْوَأِ الْأَحْوَالِ فَتَشْغَلُهُ نَفْسُهُ عَنْ غَيْرِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْرِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَفِرُّ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ بَعْدَ ذَلِكَ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ:﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧].

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ يَرَوْنَهُمْ وَلَيْسَ فِي الْقِيَامَةِ مَخْلُوقٌ إِلَّا وَهُوَ نُصْبُ عَيْنِ صَاحِبِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فَيُبْصِرُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأَخَاهُ وَقَرَابَتَهُ فَلَا يَسْأَلُهُ، وَيُبَصَّرُ حَمِيمَهُ فَلَا يُكَلِّمُهُ لِاشْتِغَالِهِ بِنَفْسِهِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُبَصَّرُونَهُمْ

يُبْصِرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَيَتَعَارَفُونَ ثُمَّ يَفِرُّ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ. وَقِيلَ: يُبَصَّرُونَهُمْ يُعَرَّفُونَهُمْ أَيْ يُعَرَّفُ الْحَمِيمُ حَمِيمَهُ حَتَّىٰ يَعْرِفَهُ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَسْأَلُهُ عن شأنه لشغله بنفسه ، ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ﴾ أَيْ يَتَمَنَّىٰ الْكَافِرُ ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ .

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾ زَوْجَتِهِ ﴿وَأَخِيهِ﴾ هَؤُلَاءِ أَعَزُّ النَّاسِ عَلَيْهِ وَأَكْرَمُهُمْ لَدَيْهِ .

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ عَشِيرَتِهِ الَّتِي فَصَلَ مِنْهُمْ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: قَبِيلَتُهُ، وَقَالَ غَيْرُهُ: أَقْرِبَاؤُهُ الْأَقْرَبُونَ ، ﴿الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ أَيْ تَضُمُّهُ وَيَأْوِي إِلَيْهَا.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ يَوَدُّ لَوْ يَفْتَدِي بِهِمْ جَمِيعًا، ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ أَيْ يُخَلِّصُهُ ذَلِكَ الْفِدَاءُ من عذاب الله.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا﴾ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿كَلَّا﴾: تَكُونُ بِمَعْنَىٰ حَقًّا، وَبِمَعْنَىٰ لَا، وَهِيَ هُنَا تَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ، فَإِذَا كَانَتْ بِمَعْنَىٰ حَقًّا كَانَ تَمَامُ الْكَلَامِ ﴿يُنْجِيهِ﴾، وَإِذَا كَانَتْ بِمَعْنَىٰ لَا كَانَ تَمَامُ الْكَلَامِ عَلَيْهَا، أَيْ لَيْسَ يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ الِافْتِدَاءُ ثُمَّ قَالَ:﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ وَهِيَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ جَهَنَّمَ. وقيل: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَتَلَظَّىٰ أَيْ تَتَلَهَّبُ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ﴾ وَهِيَ الْأَطْرَافُ: الْيَدَانِ، وَالرِّجْلَانِ، وَالْأَطْرَافُ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لِجُلُودِ الرَّأْسِ، قَالَ مُقَاتِلٌ: تَنْزِعُ النَّارُ الْأَطْرَافَ فَلَا تَتْرُكُ لَحْمًا وَلَا جِلْدًا ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: تَنْزِعُ الجلد واللحم عن العظام، وَفِي

الصِّحَاحِ: (وَالشَّوَىٰ) : جَمْعُ شَوَاةٍ وَهِيَ جِلْدَةُ الرَّأْسِ، وَالشَّوَىٰ: الْيَدَانِ وَالرِّجْلَانِ وَالرَّأْسُ مِنَ الْآدَمِيِّينَ، وَكُلُّ مَا لَيْسَ مَقْتَلًا، يُقَالُ: رَمَاهُ فَأَشْوَاهُ إِذَا لَمْ يُصِبِ الْمَقْتَلَ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَدْعُو﴾ النَّارُ إِلَىٰ نَفْسِهَا، ﴿مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أَيْ تَدْعُو لَظَىٰ مَنْ أَدْبَرَ فِي الدُّنْيَا عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَتَوَلَّىٰ عَنِ الْإِيمَانِ ، وَدُعَاؤُهَا أَنْ تَقُولَ: إِلَيَّ يَا مُشْرِكُ، إِلَيَّ يَا كَافِرُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَدْعُو الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ بِأَسْمَائِهِمْ بِلِسَانٍ فَصِيحٍ ثُمَّ تَلْتَقِطُهُمْ كَمَا يَلْتَقِطُ الطَّيْرُ الحب ، وَقَالَ الْخَلِيلُ: إِنَّهُ لَيْسَ كَالدُّعَاءِ (تَعَالَوْا) وَلَكِنْ دَعْوَتُهَا إِيَّاهُمْ تَمَكُّنُهَا مِنْ تَعْذِيبِهِمْ، وَقِيلَ: الدَّاعِي خَزَنَةُ جَهَنَّمَ، أُضِيفَ دُعَاؤُهُمْ إِلَيْهَا.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ أَيْ جَمَعَ الْمَالَ فَجَعَلَهُ فِي وِعَائِهِ وَمَنَعَ مِنْهُ حَقَّ اللهِ تَعَالَىٰ، فَكَانَ جَمُوعًا مَنُوعًا، قَالَ الْحَكَمُ: كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُكَيْمٍ لَا يَرْبِطُ كِيسَهُ وَيَقُولُ سَمِعْتُ الله يقول: وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْهَلُوعُ الْحَرِيصُ عَلَىٰ مَا لَا يَحِلُّ لَهُ ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: شَحِيحًا ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ضَجُورًا ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : بَخِيلًا ، وَقَالَ قَتَادَةُ: جَزُوعًا ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: ضَيِّقَ الْقَلْبِ وَالْهَلَعُ فِي اللُّغَةِ: أَشَدُّ الْحِرْصِ وَأَسْوَأُ الْجَزَعِ وَأَفْحَشُهُ ، وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: خَلَقَ اللهُ الْإِنْسَانَ يُحِبُّ مَا يَسُرُّهُ وَيُرْضِيهِ، وَيَهْرُبُ مِمَّا يَكْرَهُهُ ويسخط، ثُمَّ تَعَبَّدَهُ اللهُ بِإِنْفَاقِ مَا يُحِبُّ وَالصَّبْرِ عَلَىٰ مَا يَكْرَهُ ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: « **شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ: شُحٌّ هَالِعٌ، وَجُبْنٌ خَالِعٌ** »(١) ، وَفُسِّرَ الْهَلُوعُ بِأَنَّهُ:

[٢٠] : ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ فَيَجْزَعُ إِنْ أَصَابَهُ فَقْرٌ أَوْ مَرَضٌ، أَوْ ذَهَابُ مَحْبُوبٍ لَهُ، مِنْ مَالٍ أَوْ أَهْلٍ أَوْ وَلَدٍ، وَلَا يَسْتَعْمِلُ فِي ذَلِكَ الصَّبْرَ وَالرِّضَا بِمَا قَضَىٰ اللهُ .

[٢١] : ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ فَلَا يُنْفِقُ مِمَّا آتَاهُ اللهُ، وَلَا يَشْكُرُ اللهَ عَلَىٰ نِعَمِهِ وَبِرِّهِ، فَيَجْزَعُ فِي الضَّرَّاءِ، وَيَمْنَعُ فِي السَّرَّاءِ. يَعْنِي إِذَا أَصَابَهُ الْفَقْرُ لَمْ يَصْبِرْ، وَإِذَا أَصَابَهُ الْمَالُ لَمْ يُنْفِقْ ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ! أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ! أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا** »(٢) ، ثُمَّ اسْتَثْنَىٰ فَقَالَ:

[٢٢] : ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ عَامَّةً، فَإِنَّهُمْ يَغْلِبُونَ فَرْطَ الْجَزَعِ بِثِقَتِهِمْ بِرَبِّهِمْ وَيَقِينِهِمْ ، قَالَ النَّخَعِيُّ: الْمُرَادُ بِالْمُصَلِّينَ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ ، ابْنُ مَسْعُودٍ: الَّذِينَ يُصَلُّونَهَا لِوَقْتِهَا، فَأَمَّا تَرْكُهَا فَكُفْرٌ .

---

(١) أحمد (٨٦٠٤) .

(٢) البخاري (١٤٤٢) ومسلم (١٠١٠) .

[٢٣] : ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ يُقِيمُونَهَا فِي أَوْقَاتِهَا يَعْنِي الْفَرَائِضَ ، وَقَالَ عُقْبَةُ ابن عَامِرٍ: هُمُ الَّذِينَ إِذَا صَلَّوْا لَمْ يَلْتَفِتُوا يَمِينًا وَلَا شِمَالًا، وَالدَّائِمُ السَّاكِنُ، وَمِنْهُ: نُهِيَ عَنِ الْبَوْلِ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ، أَيِ السَّاكِنِ.

[٢٤] : ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ يُرِيدُ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَالْحَقُّ الْمَعْلُومُ هُوَ الزَّكَاةُ الَّتِي بَيَّنَ الشَّرْعُ قَدْرَهَا وَجِنْسَهَا وَوَقْتَهَا، فَأَمَّا غَيْرُهَا لِمَنْ يَقُولُ بِهِ فَلَيْسَ بِمَعْلُومٍ، لِأَنَّهُ غَيْرُ مُقَدَّرٍ وَلَا مُجَنَّسٍ وَلَا مُوَقَّتٍ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ السَّائِلُ الَّذِي يَسْأَلُ النَّاسَ لِفَاقَتِهِ، ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ الَّذِي حُرِمَ الْمَالَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَالزُّهْرِيُّ: الْمَحْرُومُ الْمُتَعَفِّفُ الَّذِي لَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَا يُعْلَمُ بِحَاجَتِهِ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أَيْ بِيَوْمِ الْجَزَاءِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أَيْ خَائِفُونَ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي: هو العذاب الذي يخشىٰ ويحذر ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِمَنْ أَشْرَكَ أَوْ كَذَّبَ أَنْبِيَاءَهُ ، وَقِيلَ: لَا يَأْمَنُهُ أَحَدٌ، بَلِ الْوَاجِبُ عَلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَخَافَهُ وَيُشْفِقَ مِنْهُ .

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ فَلَا يَطَأُونَ بِهَا وَطْأً مُحَرَّمًا، مِنْ زِنًىٰ أَوْ لِوَاطٍ، أَوْ وَطْءٍ فِي دُبُرٍ، أَوْ حَيْضٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَيَحْفَظُونَهَا

أَيْضًا مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهَا وَمَسِّهَا، مِمَّنْ لَا يَجُوزُ لَهُ ذَلِكَ، وَيَتْرُكُونَ أَيْضًا وَسَائِلَ الْمُحَرَّمَاتِ الدَّاعِيَةَ لِفِعْلِ الْفَاحِشَةِ.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أَيْ: سُرِّيَّاتِهِمْ ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ فِي وَطْئِهِنَّ فِي الْمَحَلِّ الَّذِي هُوَ مَحَلُّ الْحَرْثِ.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أَيْ: غَيْرَ الزَّوْجَةِ وَمِلْكِ الْيَمِينِ، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أَيْ: الْمُتَجَاوِزُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ إِلَىٰ مَا حَرَّمَ اللهُ، وَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَىٰ تَحْرِيمِ نِكَاحِ الْمُتْعَةِ، لِكَوْنِهَا غَيْرَ زَوْجَةٍ مَقْصُودَةٍ، وَلَا مِلْكِ يَمِينٍ.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أَيْ إِذَا اؤْتُمِنُوا لَمْ يَخُونُوا، وَإِذَا عَاهَدُوا لَمْ يَغْدِرُوا.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِم قَائِمُونَ﴾ أي يقومون فيها بالحق ولا يَكْتُمُونَهَا وَلَا يُغَيِّرُونَهَا.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أَيْ عَلَىٰ مَوَاقِيتِهَا وَأَرْكَانِهَا وَوَاجِبَاتِهَا وَمُسْتَحِبَّاتِهَا، فَافْتَتَحَ الْكَلَامَ بِذِكْرِ الصَّلَاةِ، وَاخْتَتَمَهُ بِذِكْرِهَا، فَدَلَّ عَلَىٰ الِاعْتِنَاءِ بِهَا والتنويه بشرفها:

[٣٥] : ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ أَيْ أَكْرَمَهُمُ الله فيها بأنواع الكرامات.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيْ فَمَا بَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا، كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر : ٤٩] ، ﴿قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ مُسْرِعِينَ مُقْبِلِينَ إِلَيْكَ مَادِّي أَعْنَاقِهِمْ وَمُدِيمِي النَّظَرِ إِلَيْكَ مُتَطَلِّعِينَ نَحْوَكَ، نَزَلَتْ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْكُفَّارِ كَانُوا يَجْتَمِعُونَ حَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَمِعُونَ كَلَامَهُ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ وَيُكَذِّبُونَهُ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : مَا لَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَيَجْلِسُونَ عِنْدَكَ وَهُمْ لَا يَنْتَفِعُونَ بِمَا يَسْتَمِعُونَ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ حِلَقًا وَفِرَقًا، وَقَالَ: الْعِزِينَ: الْعُصَبُ مِنَ النَّاسِ، عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ مُعْرِضِينَ يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَعْنَاهُ أَيَطْمَعُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّتِي كَمَا يُدْخُلُهَا الْمُسْلِمُونَ وَيَتَنَعَّمَ فيها وقد كذب نبي؟.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا﴾ لا يدخلها، ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ، نَبَّهَ النَّاسَ عَلَىٰ أَنَّهُمْ خُلِقُوا مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ وَإِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ وَيَسْتَوْجِبُونَ الجنة بالإيمان والطاعة.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ يَعْنِي مَشْرِقَ كُلِّ يَوْمٍ مِنْ السَّنَةِ وَمَغْرِبَهُ، ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَلىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ﴾ يَقُولُ: نَقْدِرُ عَلَىٰ إِهْلَاكِهِمْ وَالذَّهَابِ بِهِمْ وَالْمَجِيءِ بِخَيْرٍ مِنْهُمْ فِي الْفَضْلِ وَالطَّوْعِ وَالْمَالِ، ﴿وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أَيْ لَا يَفُوتُنَا شَيْءٌ وَلَا يُعْجِزُنَا أَمْرٌ نُرِيدُهُ.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا﴾ فِي بَاطِلِهِمْ، ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ فِي دُنْيَاهُمْ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: يَخُوضُوا بِالْبَاطِلِ، وَيَلْعَبُوا بِالْمُحَالِ، فَعُلُومُهُمْ ضَارَّةٌ غَيْرُ نَافِعَةٍ، وَهِيَ الْخَوْضُ وَالْبَحْثُ بِالْعُلُومِ الَّتِي يُعَارِضُونَ بِهَا الْحَقَّ وَمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَأَعْمَالُهُمْ لَعِبٌ وَسَفَاهَةٌ، لَا تُزَكِّي النُّفُوسَ، وَلَا تُثْمِرُ الْمَعَارِفَ، ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ نَسَخَتْهَا آيَةُ الْقِتَالِ.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي القبور، والْأَجْداثِ: جَمْعُ جَدَثٍ بِفَتْحَتَيْنِ وَهُوَ الْقَبْرُ، ﴿سِرَاعًا﴾ إِلَىٰ إِجَابَةِ الدَّاعِي، ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ أي إِلَىٰ شَيْءٍ مَنْصُوبٍ، يُقَالُ: فَلَانٌ نَصْبَ عَيْنِي. قَالَ الْحَسَنُ البصري: يُسْرِعُونَ إِلَيْهَا أَيُّهُمْ يستلمها أولا ﴿يُوفِضُونَ﴾ أي يسرعون.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿خَاشِعَةً﴾ ذليلة خاصعة ﴿أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يَغْشَاهُمْ هَوَانٌ،أَيْ ذَلِيلَةٌ خَاضِعَةٌ، لَا يَرْفَعُونَهَا لِمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ، قَالَ قَتَادَةُ: هُوَ سَوَادُ الْوُجُوهِ، وَالرَّهَقُ: الْغَشَيَانُ، وَمِنْهُ غُلَامٌ مُرَاهِقٌ إِذَا غَشِيَ الِاحْتِلَامَ، ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَيْ يُوعَدُونَهُ فِي الدُّنْيَا أَنَّ لَهُمْ فِيهِ الْعَذَابَ، وَأُخْرِجَ الْخَبَرُ بِلَفْظِ الْمَاضِي لِأَنَّ مَا وَعَدَ اللهُ به يكون ولا محالة.

سُورَةُ نُوحٍ

وَهِيَ مَكِّيَّة بالِاتِّفَاقِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ نُوحٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ أَوَّلُ رَسُولٍ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ وَالْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ- مَرْفُوعًا: «**فَيَقُولُ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ نُوحٍ. فَيَأْتُونَ نُوحًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ وَسَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا فَاشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ**. . .» الْحَدِيثَ[١]، ﴿أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الْمَعْنَىٰ: إِنَّا أَرْسَلْنَاهُ لِيُنْذِرَهُمْ بِالْعَذَابِ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي عَذَابَ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: هُوَ مَا نَزَلَ

(١) البخاري (٣٣٤٠).

عَلَيْهِمْ مِنَ الطُّوفَانِ ، وَقِيلَ: أَيْ أَنْذِرْهُمُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ عَلَىٰ الْجُمْلَةِ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أُنْذِرُكُمْ وَأُبَيِّنُ لَكُمْ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ﴾ أَيِ اتْرُكُوا مَحَارِمَهُ وَاجْتَنِبُوا مَآثِمَهُ، وَذَلِكَ بِإِفْرَادِهِ تَعَالَىٰ بِالتَّوْحِيدِ وَالعِبَادَةِ، وَالْبُعْدِ عَنِ الشِّرْكِ وَطُرُقِهِ وَوَسَائِلِهِ، فَإِنَّهُمْ إِذَا اتَّقَوُا اللهَ غَفَرَ ذُنُوبَهُمْ، وَإِذَا غَفَرَ ذُنُوبَهُمْ حَصَلَ لَهُمُ النَّجَاةُ مِنَ الْعَذَابِ، وَالْفَوْزُ بِالثَّوَابِ، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فِيمَا آمُرُكُمْ بِهِ وَأَنْهَاكُمْ عَنْهُ، ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أَيْ إذا فعلتم ما آمركم بِهِ وَصَدَّقْتُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ غَفَرَ الله لكم ذنوبكم، وقال زيد ابن أَسْلَمَ: الْمَعْنَىٰ يُخْرِجُكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ. وقال ابْنُ شَجَرَةَ: الْمَعْنَىٰ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ مَا اسْتَغْفَرْتُمُوهُ مِنْهَا ، ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّىٰ﴾ أَيْ يَمُدُّ فِي أعماركم ويدرأ عنكم العذاب، وَقَدْ يَسْتَدِلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الطَّاعَةَ وَالْبِرَّ وَصِلَةَ الرَّحِمِ يُزَادُ بِهَا فِي الْعُمْرِ حَقِيقَةً، كَمَا وَرَدَ بِهِ الْحَدِيثُ: عن أنس بن مالك، أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال: « **مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ له في رزقه، ويُنْسَأَ له في أثره، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»[(١)] ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ يُنْسِئُ فِي أَعْمَارِكُمْ ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ كَانَ قَضَىٰ قَبْلَ خَلْقِهِمْ أَنَّهُمْ إِنْ آمَنُوا بَارَكَ فِي أَعْمَارِهِمْ، وَإِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا عُوجِلُوا بِالْعَذَابِ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: يُؤَخِّرُكُمْ

---

(١) البخاري (٢٠٦٧) .

إِلَىٰ مُنْتَهَىٰ آجَالِكُمْ فِي عَافِيَةٍ، فَلَا يُعَاقِبُكُمْ بِالْقَحْطِ وَغَيْرِهِ. فَالْمَعْنَىٰ عَلَىٰ هَذَا يُؤَخِّرُكُمْ مِنَ الْعُقُوبَاتِ وَالشَّدَائِدِ إِلَىٰ آجَالِكُمْ ، وقوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَآءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ بَادِرُوا بِالطَّاعَةِ قَبْلَ حلول النقمة، فإنَّ أمره تعالىٰ لَا يُرَدُّ وَلَا يُمَانَعُ، فَإِنَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي قد قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ، الْعَزِيزُ الَّذِي دَانَتْ لِعِزَّتِهِ جميع المخلوقات.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهاراً﴾ أَيْ سِرًّا وَجَهْرًا، وَقِيلَ: أَيْ وَاصَلْتُ الدُّعَاءَ .

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ نِفَارًا وَإِدْبَارًا عَنِ الْإِيمَانِ وَالْحَقِّ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إِلَىٰ الْإِيمَانِ بِكَ، ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ لِئَلَّا يَسْمَعُوا دَعْوَتِي، ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ غَطَّوْا بِهَا وُجُوهَهُمْ لِئَلَّا يَرَوْنِي، ﴿وَأَصَرُّوا﴾ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، أَيْ: رَكِبُوا رُؤُوسَهُمْ بِالِاسْتِمْرَارِ عَلَىٰ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ فَلَمْ يَتُوبُوا، وَالْإِصْرَارُ عَلَىٰ الذُّنُوبِ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ وَفِيهِ الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ، ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ عَنِ الْإِيمَانِ بِكَ، ﴿اسْتِكْبَارًا﴾ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ، لِأَنَّهُمْ قَالُوا: أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَتَكَبَّرُوا فَتَعَاظَمُوا عَنِ الْإِذْعَانِ لِلْحَقِّ، وَقَبُولِ مَا دَعَوْتَهُمْ إِلَيْهِ مِنَ النَّصِيحَةِ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ مُعْلِنًا: بِالدُّعَاءِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِأَعْلَىٰ صَوْتِي.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ﴾ أي كَرَّرْتُ الدُّعَاءَ مُعْلِنًا، ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ الرَّجُلَ بَعْدَ الرَّجُلِ، أُكَلِّمُهُ سِرًا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، أَدْعُوهُ إِلَىٰ عِبَادَتِكَ وَتَوْحِيدِكَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَعْنَىٰ أَعْلَنْتُ: صِحْتُ، وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً. بِالدُّعَاءِ عَنْ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، وَقِيلَ: أَسْرَرْتُ لَهُمْ أَتَيْتُهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ. وَكُلُّ هَذَا مِنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُبَالَغَةٌ فِي الدُّعَاءِ لَهُمْ، وَتَلَطُّفٌ فِي الِاسْتِدْعَاءِ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أَيْ سَلُوهُ الْمَغْفِرَةَ مِنْ ذُنُوبِكُمُ السَّالِفَةِ بِإِخْلَاصِ الْإِيمَانِ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ الْأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَىٰ قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»(١)، وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: «قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي ذَرِبُ اللِّسَانِ، وَإِنَّ عَامَّةَ ذَلِكَ عَلَىٰ أَهْلِي، فَقَالَ: **أَيْنَ أَنْتَ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ؟ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»(٢)، قَالَ الْفُضَيْلُ: يَقُولُ الْعَبْدُ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ. وَتَفْسِيرُهَا أَقِلْنِي، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَكْثِرُوا مِنَ الِاسْتِغْفَارِ فِي بُيُوتِكُمْ، وَعَلَىٰ

---

(١) مسلم (٢٧٠٢).

(٢) أحمد (٢٣٣٨١).

مَوَائِدِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ، وَفِي أَسْوَاقِكُمْ، وَفِي مَجَالِسِكُمْ، وَأَيْنَمَا كُنْتُمْ، فَإِنَّكُمْ مَا تَدْرُونَ مَتَىٰ تَنْزِلُ الْمَغْفِرَةُ ، ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ كَثِيرَ الْمَغْفِرَةِ لِمَنْ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ، فَرَغَّبَهُمْ بِمَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ حُصُولِ الثَّوَابِ، وَانْدِفَاعِ الْعِقَابِ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مدرارا﴾ ومِدْراراً ذَا غَيْثٍ كَثِيرٍ ، وَهُوَ السَّيَلَانُ، يُقَالُ: دَرَّتِ السَّمَاءُ بِالْمَطَرِ، وَسَمَاءٌ مِدْرَارٌ، وَمَعْنَىٰ ذَلِكَ: أَنْ يَتْبَعَ بَعْضُ الْأَمْطَارِ بَعْضًا، والسَّماءَ: هُنَا الْمَطَرُ، وَمِنْ أَسْمَاءِ الْمَطَرِ السَّمَاءُ ، قَالَ الشَّعْبِيُّ: خَرَجَ عُمَرُ يَسْتَسْقِي فَلَمْ يَزِدْ عَلَىٰ الِاسْتِغْفَارِ حَتَّىٰ رَجَعَ، فَأُمْطِرُوا فَقَالُوا: مَا رَأَيْنَاكَ اسْتَسْقَيْتَ؟ فَقَالَ: لَقَدْ طَلَبْتُ الْمَطَرَ بِمَجَادِيحِ السَّمَاءِ الَّتِي يُسْتَنْزَلُ بِهَا الْمَطَرُ، ثُمَّ قَرَأَ: اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ قَالَ عَطَاءٌ: يُكَثِّرْ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ ، ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ .

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا تَرَوْنَ لِلَّهِ عَظَمَةً ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: مَا لَكَمَ لَا تُعَظِّمُونَ اللهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: لَا تَخَافُونَ اللهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ. وَالرَّجَاءُ: بِمَعْنَىٰ الْخَوْفِ، وَالْوَقَارُ: الْعِفَّةُ، اسْمٌ مِنَ التَّوْقِيرِ وَهُوَ التَّعْظِيمُ ، قَالَ: الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: لَا تَعْرِفُونَ لِلَّهِ حَقًا وَلَا تَشْكُرُونَ لَهُ نِعْمَةً ، قَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: مَا لَكَمَ لَا تَرْجُونَ فِي عِبَادَةِ اللهِ أَنْ يُثِيبَكُمْ

عَلَىٰ تَوْقِيرِكُمْ إِيَّاهُ خيرا، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : قِيلَ: الرَّجَاءُ هُنَا بِمَعْنَىٰ الْخَوْفِ، أي مالكم لَا تَخَافُونَ لِلَّهِ عَظَمَةً وَقُدْرَةً عَلَىٰ أَحدِكُمْ بِالْعُقُوبَةِ ، أَيْ أَيُّ عُذْرٍ لَكُمْ فِي تَرْكِ الْخَوْفِ مِنَ اللهِ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أَيْ: وَقَدْ خَلَقَكُمْ سُبْحَانَهُ حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، نُطْفَةً ثُمَّ عَلَقَةً ثُمَّ مُضْغَةً إِلَىٰ تَمَامِ الْخَلْقِ ، وَالطَّوْرُ فِي اللُّغَةِ: الْمَرَّةُ، أَيْ مَنْ فَعَلَ هَذَا وَقَدَرَ عَلَيْهِ فَهُوَ أَحَقُّ أَنْ تُعَظِّمُوهُ ، وَقِيلَ: أَطْوَاراً صِبْيَانًا، ثُمَّ شَبَابًا، ثُمَّ شُيُوخًا وَضُعَفَاءَ، ثُمَّ أَقْوِيَاءَ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ وَمَعْنَىٰ طِبَاقاً بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، كُلُّ سَمَاءٍ مُطْبَقَةٍ عَلَىٰ الْأُخْرَىٰ كَالْقِبَابِ ، كَرَ لَهُمْ دَلِيلًا آخَرَ، أَيْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ الَّذِي قَدَرَ عَلَىٰ هَذَا، فَهُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُعْبَدَ!﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ قَالَ الْحَسَنُ البصري : يَعْنِي فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، كَمَا يُقَالُ: أَتَيْتُ بَنِي تَمِيمٍ وَإِنَّمَا أَتَىٰ بَعْضَهُمْ، وَفُلَانٌ مُتَوَارٍ فِي دُورِ بَنِي فُلَانٍ وهو في دار واحدة. قال السدي : وَمَعْنَىٰ نُوراً أَيْ لِأَهْلِ الْأَرْضِ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ مِصْبَاحًا مُضِيئًا.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ أراد مبدأ خلق أبي البشر آدَمَ خَلَقَهُ مِنَ الْأَرْضِ، وَالنَّاسُ ولده، قوله: (نَبَاتًا) اسْمٌ جُعِلَ فِي مَوْضِعِ المصدر أي نباتا قَالَ الْخَلِيلُ: مَجَازُهُ: أَنْبَتَكُمْ فَنَبَتُّمْ نباتا ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ**

مِنْ قُبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَىٰ قَدْرِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ مِنْهُمُ الْأَحْمَرُ، وَالْأَبْيَضُ، وَالْأَسْوَدُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ، والسَّهْلُ، والحَزْنُ، والخبيثُ، والطيِّبُ»[1] .

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أَيْ عِنْدَ مَوْتِكُمْ بِالدَّفْنِ ، ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ مِنْهَا يَوْمَ الْبَعْثِ والنشور .

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ فَرَشَهَا وَبَسَطَهَا لَكُمْ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ طُرُقًا وَاسِعَةً ، السُّبُلُ: الطُّرُقُ ، وَالْفِجَاجُ جَمْعُ فَجٍّ، وَهُوَ الطَّرِيقُ الْوَاسِعَةُ ، وَقِيلَ: الْفَجُّ الْمَسْلَكُ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ يعني لَمْ يُجِيبُوا دَعْوَتِي، شَكَاهُمْ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ ، وقَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: لَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا دَاعِيًا لَهُمْ وَهُمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَعِصْيَانِهِمْ ، ﴿وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ يَعْنِي اتَّبَعَ السَّفَلَةُ وَالْفُقَرَاءُ الْقَادَةَ والرؤساء الذين هم لَمْ يَزِدْهُمْ كَثْرَةُ الْمَالِ وَالْوَلَدِ إِلَّا ضَلَالًا فِي الدُّنْيَا وَعُقُوبَةً فِي الْآخِرَةِ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ أَيْ كَبِيرًا عَظِيمًا، يُقَالُ: كَبِيرٌ وَكُبَارٌ بِالتَّخْفِيفِ، وَكُبَّارٌ بِالتَّشْدِيدِ -شُدِّدَ لِلْمُبَالَغَةِ- كُلُّهَا بِمَعْنًىٰ وَاحِدٍ، كَمَا

---

(١) أحمد (١٩٦٣٠) .

يُقَالُ: أَمْرٌ عَجِيبٌ وَعُجَابٌ، وَعُجَّابٌ بِالتَّشْدِيدِ أَشَدُّ فِي الْمُبَالَغَةِ، وَاخْتَلَفُوا فِي مَكْرِهِمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالُوا قولاً عظيماً، قال الضَّحَّاكُ: افْتَرَوْا عَلَىٰ اللهِ وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَقِيلَ: مَنَعَ الرُّؤَسَاءُ أَتْبَاعَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِنُوحٍ، وَحَرَّشُوهُمْ عَلَىٰ قَتْلِهِ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا﴾ لَهُمْ دَاعِينَ إِلَىٰ الشِّرْكِ مُزَيِّنِينَ لَهُ: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ فَدَعَوْهُمْ إِلَىٰ التَّعَصُّبِ عَلَىٰ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ، وَأَنْ لَا يَدَعُوا مَا عَلَيْهِ آبَاؤُهُمُ الْأَقْدَمُونَ، ثُمَّ عَيَّنُوا آلِهَتَهُمْ فَقَالُوا: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ وَهَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ لَمَّا مَاتُوا زَيَّنَ الشَّيْطَانُ لِقَوْمِهِمْ أَنْ يُصَوِّرُوا صُوَرَهُمْ لِيَنْشَطُوا -بِزَعْمِهِمْ- عَلَىٰ الطَّاعَةِ إِذَا رَأَوْهَا، ثُمَّ طَالَ الْأَمَدُ، وَجَاءَ غَيْرُ أُولَئِكَ فَقَالَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ: إِنَّ أَسْلَافَكُمْ يَعْبُدُونَهُمْ، وَيَتَوَسَّلُونَ بِهِمْ، وَبِهِمْ يُسْقَوْنَ الْمَطَرَ، فَعَبَدُوهُمْ، وَلِهَذَا أَوْصَىٰ رُؤَسَاؤُهُمْ لِلتَّابِعِينَ لَهُمْ أَنْ لَا يَدَعُوا عِبَادَةَ هَذِهِ الْآلِهَةِ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: هَذِهِ أَسْمَاءُ قَوْمٍ صَالِحِينَ كَانُوا بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ، فَلَمَّا مَاتُوا كَانَ لَهُمْ أَتْبَاعٌ يَقْتَدُونَ بِهِمْ وَيَأْخُذُونَ بَعْدَهُمْ مَأْخَذَهُمْ فِي الْعِبَادَةِ فَجَاءَهُمْ إِبْلِيسُ وَقَالَ لَهُمْ: لَوْ صَوَّرْتُمْ صُوَرَهُمْ كَانَ أَنْشَطَ لَكُمْ وَأَشْوَقَ إِلَىٰ الْعِبَادَةِ، فَفَعَلُوا ثُمَّ نَشَأَ قَوْمٌ بَعْدَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ إِبْلِيسُ: إِنَّ الَّذِينَ مَنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ فَعَبَدُوهُمْ، فَابْتِدَاءُ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ كَانَ مِنْ ذَلِكَ وَسُمِّيَتْ تِلْكَ الصُّوَرُ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ لِأَنَّهُمْ صَوَّرُوهَا عَلَىٰ صُوَرِ أُولَئِكَ القوم من المسلمين.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ أَيْ ضَلَّ بِسَبَبِ الْأَصْنَامِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم : ٣٦] وَقَالَ مُقَاتِلٌ: أَضَلَّ كُبَرَاؤُهُمْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ، ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ هَذَا دُعَاءٌ عَلَيْهِمْ بَعْدَمَا أَعْلَمَ اللهُ نُوحًا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ .

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾ أي من خطيئاتهم، (وما) صِلَةٌ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَيْ مِنْ كَثْرَةِ ذُنُوبِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ، وَإِصْرَارِهِمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، وَمُخَالَفَتِهِمْ رَسُولَهُمْ، ﴿أُغْرِقُوا﴾ بالطوفان، ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ أي نقلوا من الْبِحَارِ إِلَىٰ حَرَارَةِ النَّارِ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: فَأُدْخِلُوا نَارًا فِي الْآخِرَةِ، ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَارًا﴾ لَمْ يَجِدُوا أَحَدًا يَمْنَعُهُمْ مِنْ عذاب الله الواحد القهار.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَىٰ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ أَحَدًا يَدُورُ فِي الْأَرْضِ فَيَذْهَبُ ويجيء من الدوران، وقال القتيبي: إِنَّ أَصْلَهُ مِنَ الدَّارِ أَيْ نَازِلُ دَارٍ، هُوَ دُعَاءُ نُوحٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ حِينَ يَئِسَ مِنِ اتِّبَاعِهِمْ إِيَّاهُ ، قَالَ قَتَادَةُ: دَعَا عَلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ أَيْ: إِنْ تَرَكْتَهُمْ وَلَمْ تُهْلِكْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ الَّذِينَ قَدْ آمَنُوا بِكَ، وَمَنْ سَيَجِيءُ بَعْدَهُمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ بِابْنِهِ إِلَىٰ نُوحٍ فَيَقُولُ: احْذَرْ هَذَا فَإِنَّهُ كَذَّابٌ وَإِنَّ أَبِي حَذَّرَنِيهِ فَيَمُوتُ الْكَبِيرُ وَيَنْشَأُ الصَّغِيرُ عَلَيْهِ، ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ أَيْ فَاجِرًا فِي

الْأَعْمَالِ كَافِرَ الْقَلْبِ، وَذَلِكَ لِخِبْرَتِهِ بِهِمْ وَمُكْثِهِ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ، وَأَخْبَرَ اللهُ نُوحًا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَا يَلِدُونَ مُؤْمِنًا فَحِينَئِذٍ دَعَا عَلَيْهِمْ فَأَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ، وَأَهْلَكَهُمْ كُلَّهُمْ ، ثُمَّ دَعَا نُوحٌ لِنَفْسِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ:

[٢٨] : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ وكانا مؤمنين، ﴿وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ داري ﴿مُؤْمِنًا﴾ وَقَالَ الضَّحَّاكُ: مَسْجِدِي ، وَقِيلَ: سفينتي ، ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ هَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ آمن بالله وملائكته وَصَدَّقَ الرُّسُلَ، ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ هَلَاكًا وَدَمَارًا وَقَالَ مُجَاهِدٌ: إلاَّ خَسَاراً أَيْ في الدنيا والآخرة ، فَاسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ فأهلكهم. وَالتَّبَارُ: الْهَلَاكُ ، وَقِيلَ: الْخُسْرَانُ، حَكَاهُمَا السُّدِّيُّ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ ﴾ [الأعراف: ١٣٩] ، وَقِيلَ: التَّبَارُ الدَّمَارُ، وَالْمَعْنَىٰ وَاحِدٌ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ نُوحٍ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الْجِنِّ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ ، وَيَظْهَرُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي حُدُودِ سَنَةِ عَشْرٍ مِنَ الْبَعْثَةِ ، فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» و «جَامع التِّرْمِذِيِّ» مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَىٰ سُوقِ عُكَاظٍ بِنَخْلَةَ وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ وَأَنَّهُ اسْتَمَعَ فَرِيقٌ مِنَ الْجِنِّ إِلَىٰ قِرَاءَتِهِ فَرَجَعُوا إِلَىٰ طَائِفَتِهِمْ فَقَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنا قُرْآنـًا عَجَبـًا﴾ [الْجِنّ: ١] وَأَنْزَلَ الله علىٰ نبيه : ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِ﴾(١) ، وَذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ أَنَّ نُزُولَ هَذِهِ السُّورَةِ كَانَ بَعْدَ سَفَرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ الطَّائِفِ يَطْلُبُ النُّصْرَةَ مِنْ ثَقِيفٍ، أَيْ وَذَلِكَ يَكُونُ فِي سَنَةِ عَشْرٍ بَعْدَ الْبَعْثَةِ وَسَنَةِ ثَلَاثٍ قَبْلَ الْهِجْرَةِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ وَكَانُوا تِسْعَةً مِنْ الْجِنِّ وَقِيلَ: سَبْعَةٌ، اسْتَمَعُوا قِرَاءَةَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالنَّفَرُ

---

(١) البخاري (٧٧٣) ومسلم (٤٤٩) .

جَمَاعَةٌ مِنَ الثَّلَاثَةِ إِلَىٰ الْعَشَرَةِ ، وَقَوْلُهُ: ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ أَيْ: جِنُّ نَصِيبِينَ ، وَقِيلَ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَىٰ الْجِنَّ لَيْلَةَ الْجِنِّ وَهُوَ أَثْبَتُ، وَرَوَىٰ عَامِرٌ الشَّعْبِيُّ قَالَ: سَأَلْتُ عَلْقَمَةَ هَلْ كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ شَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْجِنِّ؟ فَقَالَ عَلْقَمَةُ: أَنَا سَأَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ فَقُلْتُ: هَلْ شَهِدَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْجِنِّ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَفَقَدْنَاهُ، فَالْتَمَسْنَاهُ فِي الْأَوْدِيَةِ وَالشِّعَابِ، فَقُلْنَا اسْتُطِيرَ أَوِ اغْتِيلَ، قَالَ: فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ، فَلَمَّا أَصْبَحَ إذا هو يجيء مِنْ قِبَلِ حِرَاءَ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! فَقَدْنَاكَ وَطَلَبْنَاكَ ، فَلَمْ نَجِدْكَ، فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ، فَقَالَ: « **أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ فذهبت معه ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ** ، فَانْطَلَقَ بِنَا ، فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ، وَسَأَلُوهُ الزَّادَ وَكَانُوا مِنْ جِنِّ الْجَزِيرَةِ، فَقَالَ: **لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا، وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ** ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا، فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمُ الْجِنِّ** »[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَقَالُوا﴾ لَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ، ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَلِيغًا أَيْ قُرْآنًا ذَا عَجَبٍ يُعْجَبُ مِنْهُ لبلاغته ، وَقِيلَ: عَجَبًا فِي بَلَاغَةِ مَوَاعِظِهِ، وَقِيلَ: عَجَبًا فِي عِظَمِ بَرَكَتِهِ، وَقِيلَ: قُرْآنًا عَزِيزًا لَا يُوجَدُ مِثْلُهُ.

---

(١) الترمذي (٣٢٥٨) وأبو داود (٨٥) .

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَهْدِي إِلَىٰ الرُّشْدِ﴾ يَدْعُو إِلَىٰ الصَّوَابِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَالرُّشْدُ: اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُرْشِدُ النَّاسَ إِلَىٰ مَصَالِحِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، ﴿فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَيْ لَا نَرْجِعُ إِلَىٰ إِبْلِيسَ وَلَا نُطِيعُهُ، لِأَنَّهُ الَّذِي كَانَ بَعَثَهُمْ لِيَأْتُوهُ بِالْخَبَرِ، ثُمَّ رُمِيَ الْجِنُّ بِالشُّهُبِ. وَقِيلَ لَا نَتَّخِذُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، لِأَنَّهُ الْمُتَفَرِّدُ بِالرُّبُوبِيَّةِ. وَفِي هَذَا تَعْجِيبُ الْمُؤْمِنِينَ بِذَهَابِ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ عَمَّا أَدْرَكَتْهُ الْجِنُّ بِتَدَبُّرِهَا الْقُرْآنَ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أَيْ: تَعَالَتْ عَظَمَتُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، يُقَالُ: جَدَّ الرَّجُلُ أَيْ عَظُمَ، وَمِنْهُ قَوْلُ أَنَسٍ: إذا كَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ جَدَّ فِينَا، أَيْ عَظُمَ قَدْرُهُ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ أَيْ أَمْرُ رَبِّنَا، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: غِنَىٰ رَبِّنَا، وَمِنْهُ قِيلَ لِلْجَدِّ: حَظٌّ، وَرَجُلٌ مَجْدُودٌ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قُدْرَةُ رَبِّنَا، وَقَالَ الْأَخْفَشُ: عَلَا مُلْكُ رَبِّنَا، ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أَيْ تَعَالَىٰ عن اتخاذ الصاحبة والأولاد، أي قالت الجن: تنزه الرب جلَّ جلاله عَنِ اتِّخَاذِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ، ثُمَّ قَالُوا:

[٤]: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ هُوَ إِبْلِيسُ، ﴿عَلَىٰ اللهِ شَطَطًا﴾ كَذِبًا وَعُدْوَانًا وَهُوَ وَصْفُهُ بِالشَّرِيكِ والولد، وَالشَّطَطُ وَالِاشْتِطَاطُ: الْغُلُوُّ فِي الْكُفْرِ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا﴾ حَسِبْنَا ﴿أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾ أَيْ كُنَّا نَظُنُّهُمْ صَادِقِينَ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّ لِلَّهِ صَاحِبَةً وَوَلَدًا حَتَّىٰ سَمِعْنَا الْقُرْآنَ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: كُنَّا مُغْتَرِّينَ قَبْلَ ذَلِكَ، وَغَرَّنَا الْقَادَةُ وَالرُّؤَسَاءُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ،

فَأَحْسَنَّا بِهِمُ الظَّنَّ، وَظَنَنَّاهُمْ لَا يَتَجَرَّأُونَ عَلَىٰ الْكَذِبِ عَلَىٰ اللهِ، فَلِذَلِكَ كُنَّا قَبْلَ هَذَا عَلَىٰ طَرِيقِهِمْ، فَالْيَوْمَ إِذْ بَانَ لَنَا الْحَقُّ، رَجَعْنَا إِلَيْهِ، وَانْقَدْنَا لَهُ، وَلَمْ نُبَالِ بِقَوْلِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ يُعَارِضُ الْهُدَىٰ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ مِنَ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ إِذَا سَافَرَ فأمسىٰ في الوادي قال: أعوذ بسيد سُفَهَاءِ قَوْمِهِ، فَيَبِيتُ فِي أَمْنٍ وجوار منهم حتىٰ يصبح ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ يَعْنِي زَادَ الْإِنْسَانُ الْجِنَّ بِاسْتِعَاذَتِهِمْ بِقَادَتِهِمْ ﴿رَهَقًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِثْمًا، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: طُغْيَانًا ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: غَيًّا ، وَقَالَ الْحَسَنُ: شَرًّا، وقال إِبْرَاهِيمُ: عَظَمَةً وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَزْدَادُونَ بِهَذَا التَّعَوُّذِ طُغْيَانًا، يَقُولُونَ: سدنا الجن والإنس، والرهق فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الْإِثْمُ وَغِشْيَانُ المحارم.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا﴾ يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: إِنَّ الْجِنَّ ظنوا، ﴿كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ يَا مَعْشَرَ الْكُفَّارِ مِنَ الْإِنْسِ ﴿أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَدًا﴾ بعد موته، قال الْكَلْبِيُّ: الْمَعْنَىٰ: ظَنَّتِ الْجِنُّ ، كَمَا ظَنَّتِ الْإِنْسُ : أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ رَسُولًا إِلَىٰ خَلْقِهِ ، يُقِيمُ بِهِ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ ، وَكُلُّ هَذَا تَوْكِيدٌ لِلْحُجَّةِ عَلَىٰ قُرَيْشٍ، أَيْ إِذَا آمَنَ هَؤُلَاءِ الْجِنُّ بِمُحَمَّدٍ، فَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِذَلِكَ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّا﴾ يَقُولُ الْجِنُّ، ﴿لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ: السَّمَاءَ الدُّنْيَا، ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿وَشُهُبًا﴾ مِنَ النُّجُومِ، أَيْ طَلَبْنَا خَبَرَهَا كَمَا جَرَتْ عَادَتُنَا فَوَجَدْناها قَدْ مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً

أَيْ حَفَظَةً، يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ، وَالْحَرَسُ: جَمْعُ حَارِسٍ وَشُهُبًا جَمْعُ شِهَابٍ، وَهُوَ انْقِضَاضُ الْكَوَاكِبِ الْمُحْرِقَةِ لَهُمْ عَنِ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ من السماء، ﴿مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ أَيْ كُنَّا نَسْتَمِعُ، ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ أُرْصِدَ لَهُ لِيُرْمَىٰ بِهِ، قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: إِنَّ الرَّجْمَ كَانَ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ مَا كَانَ بَعْدَ مَبْعَثِهِ فِي شِدَّةِ الْحِرَاسَةِ، وَكَانُوا يَسْتَرِقُونَ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ، فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنِعُوا مِنْ ذَلِكَ أَصْلًا. ثُمَّ قَالُوا:

[١٠]: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ بِرَمْيِ الشُّهُبِ، ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِأَهْلِ الْأَرْضِ أَمْ رُشْدٌ، وَهَذَا مِنْ أَدَبِهِمْ فِي الْعِبَارَةِ حَيْثُ أَسْنَدُوا الشَّرَّ إِلَىٰ غَيْرِ فَاعِلٍ، وَالْخَيْرَ أَضَافُوهُ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ أَيْ: مِنَّا الْمُسْلِمُونَ الْعَامِلُونَ بِطَاعَةِ اللهِ، وَمِنَّا غَيْرُ ذَلِكَ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِنَّا الْمُسْلِمُ، وَمِنَّا الْمُشْرِكُ، ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ أَيْ جَمَاعَاتٍ مُتَفَرِّقِينَ وَأَصْنَافًا مُخْتَلِفَةً، وَالْقِدَّةُ: الْقِطْعَةُ مِنَ الشَّيْءِ، يُقَالُ: صَارَ الْقَوْمُ قِدَدًا إِذَا اخْتَلَفَتْ حَالَاتُهُمْ، وَأَصْلُهَا مِنَ الْقَدِّ وَهُوَ الْقَطْعُ، قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنُونَ مُسْلِمِينَ وكافرين، وقيل: أهواء مختلفة وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: شِيَعًا وَفِرَقًا لِكُلِّ فِرْقَةٍ هَوًىٰ كَأَهْوَاءِ النَّاسِ. وَقَالَ

سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: أَلْوَانًا شَتَّىٰ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: أَصْنَافًا ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ وَأَنَّا كُنَّا أَهْوَاءً مُخْتَلِفَةً، وَفِرَقًا شَتَّىٰ، مِنَّا الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا﴾ علمنا وأيقنا، ﴿نُعجِزَ اللهَ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ أَنَّنَا لَنْ نُعْجِزَ اللهَ فِي الْأَرْضِ إِنْ أَرَادَ بِنَا سُوءًا ، ﴿وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ إِنْ طَلَبَنَا ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَيْ نَعْلَمُ أَنَّ قدرة الله حاكمة علينا، وأنا لانعجزه وَلَوْ أَمْعَنَّا فِي الْهَرَبِ، فَإِنَّهُ عَلَيْنَا قَادِرٌ لَا يُعْجِزُهُ أَحَدٌ مِنَّا.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ﴾ الْقُرْآنَ وَمَا أَتَىٰ بِهِ مُحَمَّدٌ، يَفْتَخِرُونَ بِذَلِكَ ، وَهُوَ مَفْخَرٌ لَهُمْ وَشَرَفٌ رَفِيعٌ، وَصِفَةٌ حَسَنَةٌ، ﴿آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا﴾ نُقْصَانًا مِنْ عَمَلِهِ وَثَوَابِهِ، ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ ظُلْمًا، وَقِيلَ: مَكْرُوهًا يَغْشَاهُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ : فَلَا يَخَافُ أَنْ يُنْقِصَ مِنْ حَسَنَاتِهِ أَوْ يَحْمِلَ عَلَيْهِ غَيْرَ سَيِّئَاتِهِ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾ وَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ الْجَائِرُونَ الْعَادِلُونَ عَنِ الْحَقِّ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الَّذِينَ جَعَلُوا لِلَّهِ نِدًّا، يُقَالُ: أَقْسَطَ الرَّجُلُ إِذَا عَدَلَ فَهُوَ مُقْسِطٌ، وَقَسَطَ إِذَا جَارَ فَهُوَ قَاسِطٌ، ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ أَيْ قَصَدُوا طَرِيقَ الْحَقِّ وَتَوَخَّوْهُ، وَمِنْهُ تَحَرِّي الْقِبْلَةِ .

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا، ﴿فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ كَانُوا وَقُودَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ويروىٰ : أَنَّ الْحَجَّاجَ قَالَ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ

حِينَ أَرَادَ قَتْلَهُ مَا تَقُولُ فِيَّ؟ قَالَ: قَاسِطٌ عَادِلٌ، فَقَالَ الْقَوْمُ: مَا أَحْسَنَ مَا قَالَ! حَسِبُوا أَنَّهُ وَصَفَهُ بِالْقِسْطِ (بِكَسْرِ الْقَافِ) وَالْعَدْلِ، فَقَالَ الْحَجَّاجُ: يَا جَهَلَةُ إِنَّهُ سَمَّانِي ظَالِمًا مُشْرِكًا ، وَتَلَا لَهُمْ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ كُفَّارِ مَكَّةَ فَقَالَ:

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ اخْتَلَفُوا فِي تَأْوِيلِهَا، فَقَالَ قَوْمٌ : لو استقاموا علىٰ طريق الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ وَالْهُدَىٰ ، فَكَانُوا مُؤْمِنِينَ مطيعين، ﴿لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ كثيرا، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ :أَيْ لَوْ آمَنَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ لَوَسَّعْنَا عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَبَسَطْنَا لَهُمْ فِي الرِّزْقِ ، قال مقاتل: وذلك بعد ما رَفَعَ عَنْهُمُ الْمَطَرَ سَبْعَ سِنِينَ. وَقَالُوا: مَعْنَاهُ لَوْ آمَنُوا لَوَسَّعْنَا عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَأَعْطَيْنَاهُمْ مَالًا كَثِيرًا وَعَيْشًا رَغَدًا، وَضَرْبُ الْمَاءِ الْغَدَقِ مَثَلًا لِأَنَّ الْخَيْرَ وَالرِّزْقَ كُلَّهُ فِي الْمَطَرِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦] ، وَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَيْنَمَا كَانَ الْمَاءُ كَانَ الْمَالُ، وَأَيْنَمَا كَانَ الْمَالُ كَانَتِ الْفِتْنَةُ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أَيْ لِنَخْتَبِرَهُمْ كَيْفَ شُكْرُهُمْ فِيمَا خولوا، وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَاهَا وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَىٰ طَرِيقَةِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ لَأَعْطَيْنَاهُمْ مَالًا كَثِيرًا وَلَوَسَّعْنَا عَلَيْهِمْ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ عُقُوبَةً لَهُمْ وَاسْتِدْرَاجًا حتىٰ يفتتنوا بها فنعذبهم كَمَا قَالَ اللهُ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: شَاقًّا، وَالْمَعْنَىٰ ذا صعيد أَيْ ذَا مَشَقَّةٍ ، قَالَ قَتَادَةُ : لَا رَاحَةَ فِيهِ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: لَا فَرَحَ فِيهِ ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: لَا يَزْدَادُ إِلَّا شِدَّةً ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ الْمَعْنَىٰ مَشَقَّةٌ مِنَ الْعَذَابِ، وَذَلِكَ مَعْلُومٌ فِي اللُّغَةِ أَنَّ الصَّعَدَ: الْمَشَقَّةُ، تَقُولُ: تَصَعَّدَنِي الْأَمْرُ: إِذَا شَقَّ عَلَيْكَ، قال البغوي : وَالْأَصْلُ فِيهِ أَنَّ الصُّعُودَ يَشُقُّ عَلَىٰ الإنسان.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ يَعْنِي الْمَوَاضِعَ الَّتِي بُنِيَتْ لِلصَّلَاةِ وَذِكْرِ اللهِ، ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: كَانَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ إِذَا دَخَلُوا كَنَائِسَهُمْ وَبِيَعَهُمْ أَشْرَكُوا بِاللهِ، فَأَمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُخْلِصُوا لِلَّهِ الدَّعْوَةَ إِذَا دَخَلُوا الْمَسَاجِدَ وَأَرَادَ بِهَا الْمَسَاجِدَ كُلَّهَا ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : أَرَادَ بِهَا الْبِقَاعَ كُلَّهَا لِأَنَّ الْأَرْضَ جُعِلَتْ كُلُّهَا مَسْجِدًا لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: قَالَتِ الْجِنُّ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَيْفَ لَنَا أَنْ نَشْهَدَ مَعَكَ الصَّلَاةَ وَنَحْنُ نَاءُونَ؟ فنزلت: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾، وَرُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَيْضًا: أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمَسَاجِدِ الْأَعْضَاءُ الَّتِي يَسْجُدُ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ وَهِيَ سَبْعَةٌ: الْجَبْهَةُ وَالْيَدَانِ وَالرُّكْبَتَانِ وَالْقَدَمَانِ، يقول: هذه الأعضاء التي تقع عَلَيْهَا السُّجُودُ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ فَلَا تسجدوا عليها لغيره، فَإِنْ جَعَلْتَ الْمَسَاجِدَ مَوَاضِعَ الصَّلَاةِ فَوَاحِدُهَا مَسْجِدٌ بِكَسْرِ الْجِيمِ، وَإِنْ جَعَلْتَهَا الْأَعْضَاءَ فَوَاحِدُهَا مَسْجَدٌ بِفَتْحِ الْجِيمِ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾ هَذَا تَوْبِيخٌ لِلْمُشْرِكِينَ فِي دُعَائِهِمْ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ أَفْرِدُوا الْمَسَاجِدَ لِذِكْرِ

اللهِ، وَلَا تَتَّخِذُوهَا هُزُوًا وَمَتْجَرًا وَمَجْلِسًا، وَلَا طُرُقًا، وَلَا تَجْعَلُوا لِغَيْرِ اللهِ فِيهَا نَصِيبًا.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ﴾ يَعْنِي النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿يَدْعُوهُ﴾ يَعْنِي يَعْبُدُهُ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَذَلِكَ حِينَ كَانَ يُصَلِّي بِبَطْنِ نَخْلَةَ ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، ﴿كَادُوا﴾ يَعْنِي الْجِنَّ، ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أَيْ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ: هُمُ الْجِنُّ حِينَ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أَيْ كَادَ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ازْدِحَامًا وَيَسْقُطُونَ، حِرْصًا عَلَىٰ سَمَاعِ الْقُرْآنِ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْهُ: هَذَا مِنْ قَوْلِ النَّفَرِ الَّذِينَ رَجَعُوا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مِنَ الْجِنِّ أَخْبَرُوهُمْ بِمَا رَأَوْا مِنْ طَاعَةِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاقْتِدَائِهِمْ بِهِ فِي الصَّلَاةِ ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: يَعْنِي لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ بِالدَّعْوَةِ تَلَبَّدَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ، وَتَظَاهَرُوا عَلَيْهِ لِيُبْطِلُوا الْحَقَّ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ، وَيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ فَأَبَىٰ اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ، وَيُتِمَّ هَذَا الْأَمْرَ وينصره علىٰ سق ناوأه، وَأَصْلُ اللُّبَدِ الْجَمَاعَاتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، وَمِنْهُ سُمِّيَ اللِّبْدُ الَّذِي يُفْرَشُ لِتَرَاكُمِهِ وَتَلَبَّدَ الشَّعْرُ إِذَا تَرَاكَمَ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي﴾ يَعْنِي رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي، قَالَ مُقَاتِلٌ: وَذَلِكَ أَنَّ كُفَّارَ مَكَّةَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَدْ جِئْتَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ فَارْجِعْ عَنْهُ فَنَحْنُ نُجِيرُكَ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي، ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ .

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ لَا أَقْدِرُ أَنْ أَدْفَعَ عَنْكُمْ ضررا، ﴿وَلَا رَشَدًا﴾ أي لا أسوق لكم أو إِلَيْكُمْ رَشَدًا، أَيْ خَيْرًا، يَعْنِي أَنَّ اللهَ يَمْلِكُهُ. وَقِيلَ: لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا أَيْ كُفْرًا وَلا رَشَداً أَيْ هُدًىٰ، أَيْ إِنَّمَا عَلَيَّ التَّبْلِيغُ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ﴾ لَنْ يَمنَعَنِي مِنْهُ أَحَدٌ إِنْ عَصَيْتُهُ ، قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ: وَيَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : لَنْ يُجِيرَنِي مَعَ إِجَارَةِ اللهِ لِي أَحَدٌ.

الثَّانِي لَنْ يُجِيرَنِي مِمَّا قَدَّرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيَّ أَحَدٌ.

﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ مَلْجَأً أَمِيلُ إِلَيْهِ ، وَمَعْنَىٰ الْمُلْتَحَدِ أَيِ الْمَائِلِ، قَالَ السُّدِّيُّ: حِرْزًا ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: مُدْخَلًا فِي الْأَرْضِ مِثْلَ السِّرْبِ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ فَفِيهِ الْجِوَارُ وَالْأَمْنُ وَالنَّجَاةُ، قَالَ مُقَاتِلٌ: ذَلِكَ الَّذِي يُجِيرُنِي مِنْ عَذَابِ اللهِ، يَعْنِي التَّبْلِيغَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللهِ فَذَلِكَ الَّذِي أَمْلِكُهُ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَقِيلَ: لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ، لَكِنْ أُبَلِّغُ بَلَاغًا مِنَ اللهِ فَإِنَّمَا أَنَا مُرْسَلٌ بِهِ لَا أَمْلِكُ إِلَّا مَا مُلِّكْتُ، ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ فِي التَّوْحِيدِ وَالعِبَادَةِ ، وَلَمْ يُؤْمِنْ، ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ .

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ يَعْنِي الْعَذَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عِنْدَ نُزُولِ الْعَذَابِ، ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ هُمْ أَمِ

الْمُؤْمِنُونَ الموحدون لله تعالىٰ، أَيْ بَلِ الْمُشْرِكِينَ لَا نَاصِرَ لَهُمْ بِالْكُلِّيَّةِ، وَهُمْ أَقَلُّ عَدَدًا مِنْ جُنُودِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي﴾ أَيْ مَا أَدْرِي، ﴿أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ مِنَ الْعَذَابِ وَقِيلَ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ أَيْ غَايَةً وَأَجَلًا ، قَالَ النَّسَفِيُّ: ﴿أَمَدًا﴾ غَايَةً بَعِيدَةً، يَعْنِي أَنَّكُمْ تُعَذَّبُونَ قَطْعًا، وَلَكِنْ لَا أَدْرِي أَهُوَ حَالٌّ أَمْ مُؤَجَّلٌ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ أَيْ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ، وَالْغَيْبُ مَا غَابَ عَنِ الْعِبَادِ ، ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ لَا يُطْلِعُ، ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ .

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ إِلَّا مَنْ يَصْطَفِيهِ لِرِسَالَتِهِ فَيُظْهِرَهُ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ مِنَ الْغَيْبِ لِأَنَّهُ يَسْتَدِلُّ عَلَىٰ نُبُوَّتِهِ بِالْآيَةِ المعجزة التي تخبر عَنِ الْغَيْبِ، ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ يَعْنِي مَلَائِكَةً يَحْفَظُونَهُ عَنْ أَنْ يَقْرَبَ مِنْهُ شَيْطَانٌ، فَيَحْفَظُ الْوَحْيَ مِنِ اسْتِرَاقِ الشَّيَاطِينِ ، وَالْإِلْقَاءِ إِلَىٰ الْكَهَنَةِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: رَصَداً أَيْ حَفَظَةً يَحْفَظُونَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَمَامِهِ وَوَرَائِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: الْمَلَائِكَةُ رَصَدٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنَ الْجِنِّ ، وَفِي الصِّحَاحِ: وَالرَّصَدُ الْقَوْمُ يَرْصُدُونَ كَالْحَرَسِ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَعْلَمَ﴾ فِيهِ تَفَاسِيرُ، حَسَبَ عَوْدَةِ الضَّمِيرِ: قِيلَ: ﴿لِيَعْلَمَ﴾ عَائِدٌ عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: لِيَعْلَمَ

مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: لِيَعْلَمَ نَبِيُّ اللهِ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغَتْ عَنِ اللهِ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ حَفِظَتْهَا وَدَفَعَتْ عَنْهَا، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقِيلَ: ﴿لِيَعْلَمَ﴾ عَائِدٌ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ الرُّسُلَ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾، قَالَ: هِيَ مُعَقِّبَاتٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُونَ النَّبِيَّ مِنَ الشَّيْطَانِ، حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ، وَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ: لِيَعْلَمَ أَهْلُ الشِّرْكِ أَنْ قَدْ أُبْلِغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ، ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾] أَيْ عَلِمَ اللهُ مَا عِنْدَ الرُّسُلِ فَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَحْصَىٰ مَا خَلَقَ ، وَعَرَفَ عَدَدَ مَا خَلَقَ فَلَمْ يَفُتْهُ عِلْمُ شَيْءٍ حَتَّىٰ مَثَاقِيلِ الذَّرِّ وَالْخَرْدَلِ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجِنِّ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الْمُزَّمِّلِ

قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: هِيَ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ مَكِّيَّةٌ ، وَاخْتُلِفَ فِي عَدِّ هَذِهِ السُّورَةِ فِي تَرْتِيبِ نُزُولِ السُّوَرِ، وَالْجُمْهُورُ عَلَىٰ أَنَّ الْمُدَّثِّرَ نَزَلَتْ قَبْلَ الْمُزَّمِّلِ، وَأُنْزِلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْعَلَقِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ أَيِ الْمُلْتَفِفُ بِثَوْبِهِ، وَأَصْلُهُ (الْمُتَزَمِّلُ) أُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الزَّايِ، وَمِثْلُهُ (الْمُدَّثِّرُ) أُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الدَّالِ، يُقَالُ: تَزَمَّلَ وَتَدَثَّرَ بِثَوْبِهِ إِذَا تَغَطَّىٰ بِهِ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: أَرَادَ يَا أَيُّهَا النَّائِمُ قُمْ فَصَلِّ قَالَ الحكماء: كَانَ هَذَا الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَوَّلِ الْوَحْيِ قَبْلَ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، ثُمَّ خُوطِبَ بَعْدُ بِالنَّبِيِّ وَالرَّسُولِ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُمِ اللَّيْلَ ﴾ أَيْ لِلصَّلَاةِ، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ، وَكَانَ قِيَامُ اللَّيْلِ فَرِيضَةً فِي الِابْتِدَاءِ ثم بين قَدْرَهُ فَقَالَ:

[٣] : ﴿نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ إِلَىٰ الثُّلُثِ .

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ عَلَىٰ النِّصْفِ إِلَىٰ الثُّلُثَيْنِ، وَخَيَّرَهُ بَيْنَ هَذِهِ الْمَنَازِلِ ، فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ يَقُومُونَ عَلَىٰ هَذِهِ

الْمَقَادِيرِ، وَكَانَ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي مَتَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ وَمَتَىٰ النِّصْفُ وَمَتَىٰ الثُّلُثَانِ ، فكان يَقُومُ حَتَّىٰ يُصْبِحَ مَخَافَةَ أَنْ لَا يَحْفَظَ الْقَدْرَ الْوَاجِبَ، وَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ حَتَّىٰ انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ فَرَحِمَهُمُ اللهُ وَخَفَّفَ عَنْهُمْ وَنَسَخَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ﴾ الْآيَةَ، فَكَانَ بَيْنَ أَوَّلِ السُّورَةِ وآخرها سنة، وقال مُقَاتِلٌ وَابْنُ كَيْسَانَ: كَانَ هَذَا بِمَكَّةَ قَبْلَ أَنْ تُفْرَضَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ بِالصَّلَوَاتِ الخمس، ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ أَيِ اقْرَأْهُ عَلَىٰ تَمَهُّلٍ، فَإِنَّهُ يَكُونُ عَوْنًا عَلَىٰ فَهْمِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَيِّنْهُ بَيَانًا، وَالتَّرْتِيلُ التَّنْضِيدُ وَالتَّنْسِيقُ وَحُسْنُ النِّظَامِ ، وعن أُمّ سلمة رضي الله عنها أَنَّهَا سُئِلَتْ عَنْ قِرَاءَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: كَانَ يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ آيَةً آيَةً: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدين﴾ ، وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ طَاهِرٍ: تَدَبَّرْ فِي لَطَائِفِ خِطَابِهِ، وَطَالِبْ نَفْسَكَ بِالْقِيَامِ بِأَحْكَامِهِ، وَقَلْبَكَ بِفَهْمِ مَعَانِيهِ، وَسِرَّكَ بِالْإِقْبَالِ عَلَيْهِ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : أَيْ سَنُلْقِي عَلَيْكَ بِافْتِرَاضِ صَلَاةِ اللَّيْلِ قَوْلًا ثَقِيلًا يَثْقُلُ حَمْلُهُ، لِأَنَّ اللَّيْلَ لِلْمَنَامِ، فَمَنْ أُمِرَ بِقِيَامِ أَكْثَرِهِ لَمْ يَتَهَيَّأْ لَهُ ذَلِكَ إِلَّا بِحَمْلٍ شَدِيدٍ عَلَىٰ النَّفْسِ وَمُجَاهَدَةٍ لِلشَّيْطَانِ، فَهُوَ أَمْرٌ يَثْقُلُ عَلَىٰ الْعَبْدِ ، وَقِيلَ: إِنَّا سَنُوحِي إِلَيْكَ الْقُرْآنَ، وَهُوَ قَوْلٌ ثَقِيلٌ يَثْقُلُ الْعَمَلُ بِشَرَائِعِهِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : شَدِيدًا، قَالَ الْحَسَنُ البصري: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَهُذُّ السُّورَةَ ، وَلَكِنَّ الْعَمَلَ بِهَا ثَقِيلٌ، قَالَ قَتَادَةُ: ثَقِيلٌ هُوَ وَاللهِ فَرَائِضُهُ

وَحُدُودُهُ. قَالَ مُقَاتِلٌ: ثَقِيلٌ لِمَا فِيهِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْحُدُودِ. قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: ثَقِيلٌ بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كعب: ثقيل علىٰ المنافقين. قال الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: قَوْلًا خَفِيفًا عَلَىٰ اللِّسَانِ ثَقِيلًا فِي الْمِيزَانِ. قال ابْنُ زَيْدٍ: هُوَ وَاللهِ ثَقِيلٌ مُبَارَكٌ كَمَا ثَقُلَ فِي الدُّنْيَا ثَقُلَ فِي الْمَوَازِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ أَيْ سَاعَاتِهِ كُلَّهَا، وَكُلُّ سَاعَةٍ مِنْهُ نَاشِئَةٌ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَنْشَأُ أَيْ تَبْدُو، وَمِنْهُ نَشَأَتِ السحابة إذا بدت، وكل مَا حَدَثَ بِاللَّيْلِ وَبَدَا فَقَدْ نَشَأَ فَهُوَ نَاشِئٌ، وَالْجَمْعُ نَاشِئَةٌ، وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ وَابْنَ الزُّبَيْرِ عَنْهَا فَقَالَا: اللَّيْلُ كُلُّهُ نَاشِئَةٌ، وَقَالَتْ عَائِشَةُ: النَّاشِئَةُ الْقِيَامُ بَعْدَ النَّوْمِ ، وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: هِيَ الْقِيَامُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: كُلُّ صَلَاةٍ بَعْدَ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ فَهِيَ نَاشِئَةٌ مِنَ اللَّيْلِ، ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ أَيْ أَشَدُّ عَلَىٰ الْمُصَلِّي وَأَثْقَلُ مِنْ صَلَاةِ النَّهَارِ، لِأَنَّ اللَّيْلَ لِلنَّوْمِ والراحة ، وَقَالَ قَتَادَةُ: أَثْبَتُ فِي الْخَيْرِ وَأَحْفَظُ لِلْقِرَاءَةِ ، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: أَثْبَتُ قِيَامًا أَيْ أَوْطَأُ لِلْقِيَامِ وَأَسْهَلُ لِلْمُصَلِّي مِنْ سَاعَاتِ النَّهَارِ، لِأَنَّ النَّهَارَ خلق لتصرف العبادة، وَاللَّيْلَ لِلْخَلْوَةِ فَالْعِبَادَةُ فِيهِ أَسْهَلُ ، وَقِيلَ: أَشَدُّ نَشَاطًا ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: أَفْرَغُ لَهُ قَلْبًا مِنَ النَّهَارِ؛ لِأَنَّهُ لَا تَعْرِضُ فِيهِ حَوَائِجُ ، وَقَالَ الْحَسَنُ: أَشَدُّ وَطْأً فِي الْخَيْرِ ، وَأَمْنَعُ مِنَ الشَّيْطَانِ ، ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أَيْ أَجْمَعُ لِلْخَاطِرِ فِي أَدَاءِ الْقِرَاءَةِ وَتَفَهُّمِهَا مِنْ قِيَامِ

النَّهَارِ، لِهَدْأَةِ النَّاسِ وَسُكُونِ الْأَصْوَاتِ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: أَبْيَنُ قَوْلًا بِالْقُرْآنِ، وَفِي الْجُمْلَةِ عِبَادَةُ اللَّيْلِ أَشَدُّ نَشَاطًا وَأَتَمُّ إِخْلَاصًا وَأَكْثَرُ بَرَكَةً وَأَبْلَغُ فِي الثواب.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أَيْ تَصَرُّفًا وَتَقَلُّبًا وَإِقْبَالًا وَإِدْبَارًا فِي حَوَائِجِكَ وَأَشْغَالِكَ، وَأَصْلُ السَّبْحِ سُرْعَةُ الذَّهَابِ، وَمِنْهُ السِّبَاحَةُ فِي الْمَاءِ ، قال السدي: تَطَوُّعًا كَثِيرًا، وَقَالَ عبد الرحمن بن زيد ﴿سَبْحًا طَوِيلاً﴾ قَالَ: لِحَوَائِجِكَ فَأَفْرِغْ لِدِينِكَ اللَّيْلَ، وَقِيلَ: سَبْحًا طَوِيلًا أَيْ فَرَاغًا وَسِعَةً لِنَوْمِكَ وَتَصَرُّفِكَ فِي حَوَائِجِكَ فَصَلِّ مِنَ اللَّيْلِ .

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ بِالتَّوْحِيدِ وَالتَّعْظِيمِ، ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أَيْ أَخْلِصْ لَهُ الْعِبَادَةَ، قال الْحَسَنُ البصري : اجْتَهِدْ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: تفرغ لعبادته، وَقِيلَ : انْقَطِعْ إِلَيْهِ فِي الْعِبَادَةِ انْقِطَاعًا، وَهُوَ الْأَصْلُ فِي الْبَابِ، يُقَالُ: تَبَتَّلْتُ الشَّيْءَ أَيْ قَطَعْتُهُ، وَالْمَعْنَىٰ: بَتِّلْ إِلَيْهِ نَفْسَكَ، وَلِذَلِكَ قَالَ: تَبْتِيلًا، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يُقَالُ لِلْعَابِدِ متبتل، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ الْمَرْوِيُّ: « **نَهَىٰ عَنِ التَّبَتُّلِ**»(١)، يَعْنِي الِانْقِطَاعَ إِلَىٰ الْعِبَادَةِ وترك التزوج.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أَيْ هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ في المشارق والمغارب ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ قَيِّمًا بِأُمُورِكَ فَفَوِّضْهَا إِلَيْهِ. وَكَمَا أَفْرَدْتَهُ بِالْعِبَادَةِ فأفرده بالتوكل فاتخذه وكيلاً.

---

(١) البخاري (٥٠٧٣) ومسلم (١٤٠٢) .

[١٠] قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿وَاصْبِرْ عَلىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أَيْ مِنَ الْأَذَىٰ وَالسَّبِّ وَالِاسْتِهْزَاءِ، وَلَا تَجْزَعْ مِنْ قَوْلِهِمْ، وَلَا تَمْتَنِعْ مِنْ دُعَائِهِمْ، ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا﴾ أَيْ لَا تَتَعَرَّضْ لَهُمْ، وَلَا تَشْتَغِلْ بِمُكَافَأَتِهِمْ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَرْكَ الدُّعَاءِ إِلَىٰ اللهِ. وَكَانَ هَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ، ثُمَّ أُمِرَ بَعْدُ بِقِتَالِهِمْ وَقَتْلِهِمْ، فَنُسِخَتْ آيَةُ الْقِتَالِ مَا كَانَ قَبْلَهَا مِنَ التَّرْكِ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَذَرْنِي والمكذبين أُوْلِي النعمة﴾ أَيْ أُولِي الْغِنَىٰ وَالتَّرَفُّهِ واللذة في الدنيا ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ أي رويداً، نَزَلَتْ فِي صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ الْمُسْتَهْزِئِينَ. وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: نَزَلَتْ في المطعمين ببدر فلم يَكُنْ إِلَّا يَسِيرٌ حَتَّىٰ قُتِلُوا ببدر، وَقِيلَ: وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا يَعْنِي إِلَىٰ مدة الدنيا.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا﴾ عندنا في الآخرة، ﴿أَنْكَالًا﴾ الْأَنْكَالُ: الْقُيُودُ، عَنِ الْحَسَنِ وَمُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِمَا، وَاحِدُهَا نِكْلٌ، وَهُوَ مَا مَنَعَ الْإِنْسَانَ مِنَ الْحَرَكَةِ، وَقِيلَ: سُمِّيَ نِكْلًا، لِأَنَّهُ يُنَكَّلُ بِهِ، قَالَ الشَّعْبِيُّ: أَتَرَوْنَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ جَعَلَ الْأَنْكَالَ فِي أَرْجُلِ أَهْلِ النَّارِ خَشْيَةَ أَنْ يَهْرُبُوا؟ لَا وَاللهِ! وَلَكِنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَرْتَفِعُوا اسْتَفَلَتْ بِهِمْ، ﴿وَجَحِيمًا﴾ وَهِيَ السَّعِيرُ الْمُضْطَرِمَةُ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ أَيْ غَيْرُ سَائِغٍ، يَأْخُذُ بِالْحَلْقِ، لَا هُوَ نَازِلٌ وَلَا هُوَ خَارِجٌ، وَهُوَ الْغِسْلِينُ وَالزَّقُّومُ وَالضَّرِيعُ، ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ .

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ أَيْ تَتَزَلْزَلُ وَتَتَحَرَّكُ، ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ رَمْلًا سَائِلًا، قَالَ الْكَلْبِيُّ: هُوَ الرمل الذي أَخَذْتَ

مِنْهُ شَيْئًا تَبِعَكَ مَا بَعْدَهُ، يُقَالُ: أَهَلْتُ الرَّمْلَ أُهِيلُهُ هَيْلًا إِذَا حَرَّكْتُ أَسْفَلَهُ حَتَّىٰ انْهَالَ مِنْ أَعْلَاهُ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ يُرِيدُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْسَلَهُ إِلَىٰ قُرَيْشٍ ﴿كَما أَرْسَلْنا إِلىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ وَهُوَ مُوسَىٰ عليه السلام .

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَعَصىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ أَيْ كَذَّبَ بِهِ وَلَمْ يُؤْمِنْ ، ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ شَدِيدًا ثَقِيلًا، يَعْنِي عَاقَبْنَاهُ عُقُوبَةً غَلِيظَةً، يُخَوِّفُ كُفَّارَ مَكَّةَ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ﴾ أَيْ كَيْفَ تَتَّقُونَ الْعَذَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَبِأَيِّ شَيْءٍ تَتَحَصَّنُونَ مِنْهُ إِذَا كَفَرْتُمْ؟ قالَ قَتَادَةُ: وَاللهِ مَا يَتَّقِي مَنْ كَفَرَ بِاللهِ ذَلِكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ، ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ أَيْ مِنْ شَدَّةِ أَهْوَالِهِ وَزَلَازِلِهِ وَبَلَابِلِهِ، وذلك حِينَ يُقَالُ لِآدَمَ قُمْ فَابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، ثُمَّ وَصَفَ هَوْلَ ذَلِكَ الْيَوْمَ فَقَالَ:

[١٨] : ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ أَيْ مُتَشَقِّقَةٌ لِشِدَّتِهِ ، وَمَعْنَىٰ بِهِ أَيْ فِيهِ، أَيْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لِهَوْلِهِ ، مُتَشَقِّقٌ لِنُزُولِ الْمَلَائِكَةِ بِهِ أَيْ: بِذَلِكَ الْمَكَانِ ، وَقِيلَ: الْهَاءُ تَرْجِعُ إِلَىٰ الرَّبِّ أَيْ بِأَمْرِهِ وَهَيْبَتِهِ، ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ كائنـًا .

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ أَيْ: آيَاتُ الْقُرْآنِ ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ تَذْكِيرٌ وَمَوْعِظَةٌ ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أَيْ طَرِيقًا إِلَىٰ رِضَاهُ وَرَحْمَتِهِ فَلْيَرْغَبْ، فَقَدْ أَمْكَنَ لَهُ، لِأَنَّهُ أَظْهَرَ لَهُ الْحُجَجَ وَالدَّلَائِلَ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ﴾ أَقَلَّ ﴿مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ وَكَانُوا يَقُومُونَ مَعَهُ، ﴿وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ قَالَ عَطَاءٌ: يُرِيدُ لَا يَفُوتُهُ عِلْمُ مَا تَفْعَلُونَ، أَيْ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَقَادِيرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فَيَعْلَمُ الْقَدْرَ الَّذِي تَقُومُونَ مِنَ اللَّيْلِ، ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ﴾ قَالَ الْحَسَنُ البصري : قَامُوا حَتَّىٰ انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ، فَنَزَلَ: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ﴾ لن تطيقوه ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: كَانَ الرَّجُلُ يُصَلِّي الليل كله، مخافة ألا يُصِيبُ مَا أُمِرَ بِهِ مِنَ الْقِيَامِ، فَقَالَ: عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ: لَنْ تُطِيقُوا مَعْرِفَةَ ذَلِكَ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : عَلِمَ أَنَّكُمْ لَنْ تُحْصُوهُ، لِأَنَّكُمْ إِنْ زِدْتُمْ ثَقُلَ عَلَيْكُمْ، وَاحْتَجْتُمْ إِلَىٰ تَكْلِيفِ مَا لَيْسَ فَرْضًا، وَإِنْ نَقَصْتُمْ شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ ، ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ فَعَادَ عَلَيْكُمْ بِالْعَفْوِ وَالتَّخْفِيفِ، ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ يَعْنِي فِي الصَّلَاةِ، قَالَ الْحَسَنُ البصري : يَعْنِي فِي صَلَاةِ الْمَغْرِبِ وَالْعَشَاءِ ، قال قيس بن حَازِمٍ: صَلَّيْتُ خَلْفَ ابْنَ عَبَّاسٍ بِالْبَصْرَةِ ، فَقَرَأَ فِي أَوَّلِ رَكْعَةٍ بِالْحَمْدِ ، وَأَوَّلِ آيَةٍ مِنَ الْبَقَرَةِ، ثُمَّ قَامَ فِي الثَّانِيَةِ، فَقَرَأَ بِالْحَمْدِ ، وَالْآيَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْبَقَرَةِ، ثُمَّ رَكَعَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ علينا بوجهه فَقَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾ يَعْنِي الْمُسَافِرِينَ لِلتِّجَارَةِ يَطْلُبُونَ مِنْ رِزْقِ اللهِ، وَحَقِيقَةُ الضَّرْبِ: قُرْعُ جِسْمٍ بِجِسْمٍ آخَرَ، وَسُمِّيَ السَّيْرُ فِي الْأَرْضِ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ لِتَضْمِينِ فِعْلِ يَضْرِبُونَ مَعْنَىٰ يَسِيرُونَ ، فَإِنَّ السَّيْرَ ضَرْبٌ لِلْأَرْضِ بِالرِّجْلَيْنِ ﴿وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ وَآخَرُونَ مَشْغُولُونَ بِالْغَزْوِ فِي سَبِيلِ الله،لَا يُطِيقُونَ قِيَامَ اللَّيْلِ، ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أَيْ مَا تَيَسَّرَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْقُرْآنِ، قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ كَانَ هَذَا فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ ثُمَّ نُسِخَ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ مَا سِوَىٰ الزَّكَاةِ مِنْ صِلَةِ الرَّحِمِ، وَقِرَىٰ الضَّيْفِ ، ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا﴾ تَجِدُوا ثَوَابَهُ فِي الْآخِرَةِ أَفْضَلَ مما أعطيتم، ﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ مِنَ الَّذِي أَخَّرْتُمْ، وَلَمْ تُقَدِّمُوهُ ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: الْجَنَّةُ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَعْظَمَ أَجْرًا، لِإِعْطَائِهِ بِالْحَسَنَةِ عَشْرًا، ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ﴾ أَيْ سَلُوهُ الْمَغْفِرَةَ لِذُنُوبِكُمْ ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ لِمَا كَانَ قَبْلَ التَّوْبَةِ ﴿رَحِيمٌ﴾ لَكُمْ بَعْدَهَا.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُزَّمِّلِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ، قِيلَ: إِنَّهَا ثَانِيَةُ السُّوَرِ نُزُولًا ، وَإِنَّهَا لَمْ يَنْزِلْ قَبْلَهَا إِلَّا سُورَةُ : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق : ١] .

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أَيْ يَا ذَا الَّذِي قَدْ تَدَثَّرَ بِثِيَابِهِ، أَيْ تَغَشَّىٰ بِهَا وَنَامَ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ أَيْ أَنْذِرْ كُفَّارَ مَكَّةَ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ ابْنِ عَبْدِ اللهِ : أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: « فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ ، قَاعِدٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجَثَثْتُ مِنْهُ حَتَّىٰ هَوَيْتُ إِلَىٰ الْأَرْضِ، فَجِئْتُ إِلَىٰ أَهْلِي فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي ، فأنزل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ »(١).

---

(١) مسلم (١٦٠) .

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي عَظِّمْهُ بالتوحيد عَمَّا يَقُولُهُ عَبَدَةُ الْأَوْثَانِ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ: نَفْسَكَ فَطَهِّرْ من الذَّنْبِ، فَكَنَّىٰ عَنِ النَّفْسِ بِالثَّوْبِ، وسُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ عن قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فَقَالَ: لَا تَلْبَسْهَا عَلَىٰ مَعْصِيَةٍ ولا علىٰ غدر، وَرَوَىٰ أَبُو رَوْقٍ عَنِ الضَّحَّاكِ مَعْنَاهُ: وَعَمَلَكَ فَأَصْلِحْ ، قَالَ السُّدِّيُّ: يُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا كَانَ صَالِحًا إِنَّهُ لَطَاهِرُ الثِّيَابِ، وَإِذَا كَانَ فَاجِرًا إِنَّهُ لَخَبِيثُ الثِّيَابُ ، وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ وَابْنُ زَيْدٍ: أَمَرَ بِتَطْهِيرِ الثِّيَابِ مِنَ النَّجَاسَاتِ الَّتِي لَا تَجُوزُ الصَّلَاةُ مَعَهَا، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا لَا يَتَطَهَّرُونَ وَلَا يُطَهِّرُونَ ثِيَابَهُمْ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ الْمُرَادُ بِالرِّجْزِ الْأَوْثَانُ، قَالَ: فَاهْجُرْهَا وَلَا تَقْرَبْهَا ، وَقِيلَ: الزَّايُ فِيهِ مُنْقَلِبَةٌ عَنِ السِّينِ، وَالْعَرَبُ تُعَاقِبُ بَيْنَ السِّينِ وَالزَّايِ لِقُرْبِ مُخْرِجِهِمَا، وَدَلِيلُ هَذَا التَّأْوِيلِ قَوْلُهُ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج : ٣٠] ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ مَعْنَاهُ : اتْرُكِ الْمَآثِمَ ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ: الرُّجْزَ بِضَمِّ الرَّاءِ الصَّنَمُ، وَبِالْكَسْرِ: النَّجَاسَةُ وَالْمَعْصِيَةُ، قَالَ الضَّحَّاكُ: يَعْنِي الشِّرْكَ ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: يَعْنِي الْعَذَابَ، وَمَجَازُ الْآيَةِ: اهْجُرْ مَا أَوْجَبَ لَكَ الْعَذَابَ مِنَ الأعمال.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ أَيْ لَا تُعْطِ مَالَكَ مُصَانَعَةً لِتُعْطَىٰ أكثر منه، وَهَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ ، قَالَ السَّعْدِيُّ : أَيْ: لَا تَمْنُنْ عَلَىٰ النَّاسِ

بِمَا أَسْدَيْتَ إِلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، فَتَتَكَثَّرَ بِتِلْكَ الْمِنَّةِ، وَتَرَىٰ لَكَ الْفَضْلَ عَلَيْهِمْ بِإِحْسَانِكَ الْمِنَّةَ، بَلْ أَحْسِنْ إِلَىٰ النَّاسِ مَهْمَا أَمْكَنَكَ، وَانْسَ عِنْدَهُمْ إِحْسَانَكَ، وَلَا تَطْلُبْ أَجْرَهُ إِلَّا مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَاجْعَلْ مَنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ وَغَيْرَهُ عَلَىٰ حَدٍّ سَوَاءٍ، وَقَالَ قَتَادَةُ: لَا تُعْطِ شَيْئًا طَمَعًا لِمُجَازَاةِ الدُّنْيَا، يَعْنِي أَعْطِ لِرَبِّكَ وَأَرِدْ بِهِ اللهَ ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: مَعْنَاهُ لَا تَمْنُنْ عَلَىٰ اللهِ بِعَمَلِكَ فَتَسْتَكْثِرُهُ، قَالَ الرَّبِيعُ: لَا يكثرن عَمَلَكَ فِي عَيْنِكَ ، فَإِنَّهُ فِيمَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْكَ وَأَعْطَاكَ قَلِيلٌ، وقال ابْنُ زِيدٍ مَعْنَاهُ: لَا تَمْنُنْ بِالنُّبُوَّةِ عَلَىٰ النَّاسِ فَتَأْخُذَ عَلَيْهَا أَجْرًا أَوْ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ قِيلَ: فَاصْبِرْ عَلَىٰ طَاعَتِهِ وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ لِأَجْلِ ثَوَابِ اللهِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: فَاصْبِرْ لِلَّهِ عَلَىٰ مَا أوذيت فيه، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: مَعْنَاهُ حَمَلْتَ أمراً عظيماً فيه مُحَارَبَةَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ فَاصْبِرْ عَلَيْهِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقِيلَ: فَاصْبِرْ تَحْتَ مَوَارِدِ الْقَضَاءِ لِأَجْلِ اللهِ .

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ أَيْ نُفِخَ فِي الصُّورِ، وَهُوَ الْقَرْنُ الَّذِي يَنْفُخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ يعني النفخة الثانية، وَالنَّقْرُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الصَّوْتُ .

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَذَلِكَ﴾ أَيْ: النَّفْخُ فِي الصُّورِ ، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ شديد .

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أَيْ عَلَىٰ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ وَبِأَنْبِيَائِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِمِ ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ أَيْ غَيْرُ سَهْلٍ وَلَا هَيِّنٍ، وَذَلِكَ أَنَّ عُقَدَهُمْ لَا تَنْحَلُّ إِلَّا

إِلَىٰ عُقْدَةٍ أَشَدَّ مِنْهَا، بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُوَحِّدِينَ الْمُذْنِبِينَ فَإِنَّهَا تَنْحَلُّ إِلَىٰ مَا هُوَ أَخَفُّ مِنْهَا حَتَّىٰ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِرَحْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ أَيْ خَلَقْتُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَحِيدًا فَرِيدًا لَا مَالَ لَهُ وَلَا وَلَدَ، نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ كَانَ يُسَمَّىٰ الْوَحِيدُ فِي قَوْمِهِ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾ أَيْ كَثِيرًا، وَقَالَ عُمَرُ رِضَيَ اللهُ عَنْهُ: وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُوداً غَلَّةُ شَهْرٍ بِشَهْرٍ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ حُضُورًا بِمَكَّةَ لَا يَغِيبُونَ عَنْهُ وَكَانُوا عَشَرَةً، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: كَانُوا سَبْعَةً وَهُمُ الْوَلِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَخَالِدٌ وَعِمَارَةُ وَهُشَامٌ وَالْعَاصُ وَقَيْسٌ وَعَبْدُ شَمْسٍ، أَسْلَمَ مِنْهُمْ ثَلَاثَةٌ خَالِدٌ وَهُشَامٌ وعمارة.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ أَيْ بَسَطْتُ لَهُ فِي الْعَيْشِ وَطُولِ الْعُمُرِ بَسْطًا، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: يَعْنِي الْمَالَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ كَمَا يُمَهَّدُ الْفَرْشُ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ﴾ يرجو، ﴿أَنْ أَزِيدَ﴾ أَيْ أَنْ أَزِيدَهُ مَالًا، وَوَلَدًا، وتمهيدا.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا﴾ لَا أَفْعَلُ وَلَا أَزِيدُهُ، قَالُوا: فَمَا زَالَ الْوَلِيدُ بَعْدَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي نُقْصَانٍ مِنْ مَالِهِ وَوَلَدِهِ حَتَّىٰ هَلَكَ، ﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾

أَيْ مُعَانِدًا لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا جاءَ بِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: جَحُودًا ، وَقِيلَ: إِنَّهُ الْمُجَاهِرُ بِعُدْوَانِهِ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ سَأُكَلِّفُهُ مَشَقَّةً مِنَ الْعَذَابِ لَا راحة له فيها، وَالْإِرْهَاقُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: أَنْ يُحْمَلَ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ الشَّيْءِ ، صَعُوداً وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْمَعْنَىٰ سَأُكَلِّفُهُ مَشَقَّةً مِنَ الْعَذَابِ لَا رَاحَةَ لَهُ فِيهِ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾ فِي مُحَمَّدٍ وَالْقُرْآنِ ﴿وَقَدَّرَ﴾ فِي نَفْسِهِ مَاذَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَقُولَ فِي مُحَمَّدٍ وَالْقُرْآنِ ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: قَدَّرْتُ الشَّيْءَ إِذَا هَيَّأْتُهُ، قَالَ قَتَادَةُ: زَعَمُوا أَنَّهُ قَالَ: وَاللهِ لَقَدْ نَظَرْتُ فِيمَا قَالَ هَذَا الرَّجُلُ، فَإِذَا هُوَ لَيْسَ لَهُ بِشِعْرٍ، وَإِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَىٰ، وَمَا أَشُكُّ أَنَّهُ سِحْرٌ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِ هَذِهِ الْآيَاتِ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَقُتِلَ﴾ لَعِنٌ، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: عُذِّبَ، ﴿كَيفَ قَدَّرَ﴾ عَلَىٰ طَرِيقِ التَّعَجُّبِ وَالْإِنْكَارِ وَالتَّوْبِيخِ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أي لُعِنَ لعنًا بعد لعن. وَقِيلَ: فَقُتِلَ بِضَرْبٍ مِنَ الْعُقُوبَةِ، ثُمَّ قُتِلَ بِضَرْبٍ آخَرَ مِنَ الْعُقُوبَةِ كَيْفَ قَدَّرَ أَيْ عَلَىٰ أَيِّ حَالٍ قَدَّرَ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ فِي طَلَبِ مَا يَدْفَعُ بِهِ الْقُرْآنَ وَيَرُدَّهُ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ كَلَحَ وَقَطَّبَ وَجْهَهُ وَنَظَرَ بِكَرَاهِيَةٍ شَدِيدَةٍ كَالْمُهْتَمِّ الْمُتَفَكِّرِ فِي شَيْءٍ ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا حَمَلَ قُرَيْشًا

عَلَىٰ مَا حَمَلَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْقَوْلِ فِي مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهُ سَاحِرٌ، مَرَّ عَلَىٰ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَدَعَوْهُ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ، فَعَبَسَ فِي وُجُوهِهِمْ ، قِيلَ: عَبَسَ وَبَسَرَ عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ دَعَاهُ ، وعَبَسَ: قَطَّبَ وَجْهَهُ لَمَّا اسْتَعْصَىٰ عَلَيْهِ مَا يَصِفُ بِهِ الْقُرْآنَ وَلَمْ يَجِدْ مَغْمَزًا مَقْبُولًا، وبَسَرَ: مَعْنَاهُ كَلَحَ وَجْهُهُ وَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ خَوْفًا وَكَمَدًا حِينَ لَمْ يَجِدْ مَا يَشْفِي غَلِيلَهُ مِنْ مَطْعَنٍ فِي الْقُرْآنِ لَا تَرُدُّهُ الْعُقُولُ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الإيمان ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ تَكَبَّرَ حِينَ دُعِيَ إِلَيْهِ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا﴾ مَا هَذَا الَّذِي يَقْرَأُهُ مُحَمَّدٌ، ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ يُرْوَىٰ وَيُحْكَىٰ عَنِ السَّحَرَةِ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ أَيْ مَا هَذَا إِلَّا كَلَامُ الْمَخْلُوقِينَ، يَخْتَدِعُ بِهِ الْقُلُوبَ كَمَا تُخْتَدَعُ بِالسِّحْرِ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَأُصْلِيهِ﴾ سأدخله ﴿سَقَرَ﴾ وَسَقَرُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ جَهَنَّمَ. وَإِنَّمَا سَمَّيْتُ سَقَرَ مَنْ سَقَرَتْهُ الشَّمْسُ: إِذَا أَذَابَتْهُ وَلَوَّحَتْهُ، وَأَحْرَقَتْ جِلْدَةَ وَجْهِهِ.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾ وَهِيَ كَلِمَةُ تَعْظِيمٍ ثُمَّ فَسَّرَ حَالَهَا فَقَالَ:

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أَيْ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا أَكَلَتْهُ وَأَهْلَكَتْهُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَا تُمِيتُ وَلَا تُحْيِي يَعْنِي لَا تُبْقِي مَنْ فِيهَا حَيًّا وَلَا تَذَرُ مَنْ فِيهَا مَيِّتًا، كُلَّمَا احْتَرَقُوا جُدِّدُوا ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: لَا تُبْقِي لَهُمْ لَحْمًا وَلَا تَذَرُ لَهُمْ عَظْمًا.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ مُغَيِّرَةٌ لِلْجِلْدِ حَتَّىٰ تَجْعَلَهُ أَسْوَدَ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: لَاحَهُ الْبَرْدُ وَالْحَرُّ وَالسُّقْمُ وَالْحُزْنُ ، قال مُجَاهِدٌ: تَلْفَحُ الْجِلْدَ حَتَّىٰ تَدَعَهُ أَشَدَّ سَوَادًا مِنَ اللَّيْلِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مُحْرِقَةٌ لِلْجِلْدِ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : تُلَوِّحُ لَهُمْ جَهَنَّمُ حَتَّىٰ يروها عيانا.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أَيْ عَلَىٰ النَّارِ تِسْعَةَ عَشَرَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَهُمْ خَزَنَتُهَا: مَالِكٌ وَمَعَهُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ، غِلَاظٌ شِدَادٌ، لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ، ملاحظة: ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ عَدَدٌ مُرَكَّبٌ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ فَتْحِ الْجُزْأَيْنِ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ، وَ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ بِالرَّفْعِ (التَّنْوِينِ) لِأَنَّهُمَا صِفَتَانِ لِخَزَنَةٍ أَوْ لِلْعَدَدِ، ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ لَا رِجَالًا آدَمِيِّينَ فَمَنْ ذَا يَغْلِبُ الْمَلَائِكَةَ؟ .

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ أَيْ عَدَدَهُمْ فِي الْقِلَّةِ، ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ضلالة لهم ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ أَنَّهُمْ تِسْعَةَ عَشَرَ، ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ يَعْنِي مَنْ آمَنُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَزْدَادُونَ تَصْدِيقًا بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا وَجَدُوا مَا

قَالَهُ مُوَافِقًا لِمَا فِي كتبهم، ﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾ لا يَشُكَّ، ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ فِي عَدَدِهِمْ، ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شك ونفاق، ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ مُشْرِكُو مَكَّةَ ﴿مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أَيَّ شَيْءٍ أَرَادَ بِهَذَا الْحَدِيثِ، وَأَرَادَ بِالْمَثَلِ الْحَدِيث نَفْسَهُ ﴿كَذَلِكَ﴾ أَيْ كَمَا أَضَلَّ اللهُ مَنْ أَنْكَرَ عَدَدَ الْخَزَنَةِ وَهَدَىٰ مَنْ صَدَّقَ، كَذَلِكَ ﴿يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: هَذَا جَوَابُ أَبِي جَهْلٍ حِينَ قَالَ: أَمَا لِمُحَمَّدٍ أعوان إلا تسعة؟ قَالَ عَطَاءٌ: وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ يَعْنِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ خَلَقَهُمْ لِتَعْذِيبِ أَهْلِ النَّارِ، لَا يَعْلَمُ عِدَّتَهُمْ إِلَّا اللهُ وَالْمَعْنَىٰ إِنَّ تِسْعَةَ عَشَرَ هُمْ خَزَنَةُ النَّارِ، وَلَهُمْ مِنَ الْأَعْوَانِ وَالْجُنُودِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَا لا يعلمهم إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَدْ قيل: إن أبا الأشدين قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اكْفُونِي مِنْهُمُ اثْنَيْنِ، وَأَنَا أَكْفِيكُمْ مِنْهُمْ سَبْعَةَ عَشَرَ إِعْجَابًا مِنْهُ بنفسه، وكان قد بلغ من القوة فبما يَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَانَ يَقِفُ عَلَىٰ جِلْدِ الْبَقَرَةِ، ويجاذبه عشرة لينزعوه مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ، فَيَتَمَزَّقُ الْجِلْدُ، وَلَا يَتَزَحْزَحُ عَنْهُ، قَالَ السُّهَيْلِيُّ: وَهُوَ الَّذِي دَعَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ مُصَارَعَتِهِ، وَقَالَ: إِنْ صَرَعْتَنِي آمَنْتُ بِكَ، فَصَرَعَهُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِرَارًا فَلَمْ يُؤْمِنْ، ثُمَّ رَجعَ إِلَىٰ ذِكْرِ سَقَرَ فَقَالَ: ﴿وَمَا هِيَ﴾ يعني النار، ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً وَمَوْعِظَةً لِلنَّاسِ ، وَقِيلَ: نَارُ الدُّنْيَا تَذْكِرَةٌ لِنَارِ الْآخِرَةِ.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾ هَذَا قَسَمٌ يَقُولُ: حَقًّا ، قَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ لِمَنْ أَنْكَرَ الْعِدَّةَ أَوْ سَقَرَ أَوْ الْآيَاتِ، أَوْ إِنْكَارٌ لِأَنْ تَكُونَ لَهُمْ ذِكْرَىٰ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ دَبَرَ اللَّيْلُ وَأَدْبَرَ إِذَا وَلَّىٰ ذاهبًا.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ أَضَاءَ وَتَبَيَّنَ، يُقَالُ: سَفَرَ وَجْهُ فُلَانٍ وَأَسْفَرَ: إِذَا أَضَاءَ، وَفِي الْحَدِيثِ: «**أَسْفِرُوا بِالْفَجْرِ، فَإِنَّهُ أَعْظَمُ لِلْأَجْرِ**»[١] ، أَيْ صَلُّوا صَلَاةَ الصُّبْحِ مُسْفِرِينَ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ يَعْنِي أَنَّ سَقَرَ لَإِحْدَىٰ الْأُمُورِ الْعِظَامِ، وَوَاحِدُ الْكُبَرِ كُبْرَىٰ، قَالَ مقاتل والكلبي: أراد بالكبر كانت جَهَنَّمَ ، وَهِيَ سَبْعَةٌ: جَهَنَّمُ وَلَظَىٰ وَالْحُطَمَةُ وَالسَّعِيرُ وَسَقَرُ وَالْجَحِيمُ وَالْهَاوِيَةُ ، وَقِيلَ: أَيْ إِنَّ قِيَامَ السَّاعَةِ لَإِحْدَىٰ الْكُبَرِ، وَالْكُبَرُ: هِيَ الْعَظَائِمُ مِنَ الْعُقُوبَاتِ.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ يَعْنِي النَّارَ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ، قَالَ الْحَسَنُ البصري : وَاللهِ مَا أَنْذَرَ اللهُ بشي أدهىٰ منها، وَقِيلَ: أَيْ إِنَّ الْقُرْآنَ نَذِيرٌ لِلْبَشَرِ، لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ﴾ فِي الْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ عنها في الشر والمعصية، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : أَيْ نَذِيرًا لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ

---

(١) أحمد (١٧٢٣٣) وأبو داود (٤٢٤) .

يَتَقَدَّمَ إِلَىٰ الْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ، أَوْ يتأخر إلىٰ الشر والمعصية، وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: هَذَا تَهْدِيدٌ وَإِعْلَامٌ أَنَّ مَنْ تَقَدَّمَ إِلَىٰ الطَّاعَةِ وَالْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُوزِيَ بِثَوَابٍ لَا يَنْقَطِعُ، وَمَنْ تَأَخَّرَ عَنِ الطَّاعَةِ وَكَذَّبَ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُوقِبَ عِقَابًا لَا يَنْقَطِعُ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ مُرْتَهَنَةٌ فِي النَّارِ بِكَسْبِهَا مَأْخُوذَةٌ بعملها ، قَالَ السَّعْدِيُّ : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ مِنْ أَعْمَالِ السُّوءِ وَأَفْعَالِ الشَّرِّ ﴿رَهِينَةٌ﴾ بِهَا، مُوَثَّقَةٌ بِسَعْيِهَا، قَدْ أُلْزِمَ عُنُقُهَا، وَغُلَّ فِي رَقَبَتِهَا، وَاسْتَوْجَبَتْ بِهِ الْعَذَابَ.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَرْتَهِنُونَ بِذُنُوبِهِمْ فِي النَّارِ وَلَكِنْ يَغْفِرُهَا اللهُ لَهُمْ ، قَالَ مُقَاتِلٌ: هُمْ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ الَّذِينَ كَانُوا عَلَىٰ يَمِينِ آدَمَ يَوْمَ الْمِيثَاقِ، حِينَ قَالَ اللهُ لَهُمْ: « **هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي** » ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : هُمُ الْمُسْلِمُونَ الْمُخْلِصُونَ ، وَقَالَ الْقَاسِمُ: كُلُّ نَفْسٍ مَأْخُوذَةٌ بِكَسْبِهَا مَنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ إِلَّا مَنِ اعْتَمَدَ عَلَىٰ الْفَضْلِ، وَكُلُّ مَنِ اعْتَمَدَ عَلَىٰ الْكَسْبِ فَهُوَ رَهِينٌ بِهِ، وَمَنِ اعْتَمَدَ عَلَىٰ الْفَضْلِ فَهُوَ غَيْرُ مَأْخُوذٍ بِهِ.

[٤٠-٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أَيِ الْمُشْرِكِينَ أَيْ يَسْأَلُونَ الْمُجْرِمِينَ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ، وَأُولَئِكَ فِي الدَّرَكَاتِ قَائِلِينَ لَهُمْ :

[٤٢] : ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ أدخلكم، ﴿فِي سَقَرَ﴾ كَمَا تَقُولُ: سَلَكْتُ الْخَيْطَ فِي كَذَا أَيْ أَدْخَلْتُهُ فِيهِ ، قَالَ الْكَلْبِيُّ: فَيَسْأَلُ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ بِاسْمِهِ، فَيَقُولُ لَهُ: يَا فُلَانُ. فَأَجَابُوا:

[٤٣] : ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ قالُوا يَعْنِي أَهْلَ النَّارِ لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ أَيِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ أَيْ لَمْ نَكُ نَتَصَدَّقُ.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ أَيْ كُنَّا نُخَالِطُ أَهْلَ الْبَاطِلِ فِي بَاطِلِهِمْ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ -لَعَنَهُمُ اللهُ- كَاهِنٌ، مَجْنُونٌ، شَاعِرٌ، سَاحِرٌ، أَيْ لَمْ نَكُ نُصَدِّقُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، يَوْمِ الْجَزَاءِ وَالْحُكْمِ.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أَيْ: بِيَوْمِ الْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ.

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ أَيْ جَاءَنَا وَنَزَلَ بِنَا الْمَوْتُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر : ٩٩] ، وقالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَمَّا هُوَ** - يَعْنِي عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ - **فَقَدْ جاءه اليقين مِن رَّبِّهِ**»(١).

---

(١) مسلم (١٢٤٣) .

[٤٨] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ أَنَّهُمْ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ، وَهَؤُلَاءِ لَا يَرْضَىٰ اللهُ أَعْمَالَهُمْ ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يَشْفَعُ نَبِيُّكُمْ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَابِعَ أَرْبَعَةٍ: جِبْرِيلُ، ثُمَّ إِبْرَاهِيمُ، ثُمَّ مُوسَىٰ أَوْ عِيسَىٰ ، ثُمَّ نَبِيُّكُمْ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ الْمَلَائِكَةُ، ثُمَّ النَّبِيُّونَ، ثُمَّ الصِّدِّيقُونَ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ، وَيَبْقَىٰ قَوْمٌ فِي جَهَنَّمَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ . قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ ، قَالَ عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ: الشَّفَاعَةُ نَافِعَةٌ لِكُلِّ وَاحِدٍ دُونَ هَؤُلَاءِ الذين تسمعون.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أَيْ فَمَا لِأَهْلِ مَكَّةَ أَعْرَضُوا وَوَلَّوْا عَمَّا جِئْتُمْ بِهِ، وَفِي تَفْسِيرِ مُقَاتِلٍ: الْإِعْرَاضُ عَنِ الْقُرْآنِ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا الْجُحُودُ وَالْإِنْكَارُ، وَالْوَجْهُ الْآخَرُ تَرْكُ الْعَمَلِ بما فيه.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ﴾ جمع حمار، ﴿مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ نَافِرَةٌ، يُقَالُ: نَفَرَ وَاسْتَنْفَرَ بِمَعْنًىٰ وَاحِدٍ، كَمَا يُقَالُ عَجِبَ وَاسْتَعْجَبَ.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ أَيْ كَأَنَّهُمْ فِي نِفَارِهِمْ عَنِ الْحَقِّ، وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ، حُمُرٌ مِنْ حُمُرِ الْوَحْشِ ، إِذَا فَرَّتْ مِمَّنْ يُرِيدُ صَيْدَهَا من أسد وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: هِيَ الْأَسَدُ، وَهُوَ قَوْلُ عَطَاءٍ وَالْكَلْبِيِّ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْحُمُرَ الْوَحْشِيَّةَ إِذَا عَايَنَتِ الْأَسَدَ هَرَبَتْ، كَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ إِذَا سَمِعُوا النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ هَرَبُوا مِنْهُ، قَالَ عِكْرِمَةُ: هِيَ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ، وَيُقَالُ لِسَوَادِ أَوَّلِ اللَّيْلِ قَسْوَرَةٌ.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: إِنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ قَالُوا لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لِيُصْبِحَ عِنْدَ رَأْسِ كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا كِتَابٌ مَنْشُورٌ مِنَ اللهِ أَنَّكَ لَرَسُولُهُ نُؤْمَرُ فِيهِ بِاتِّبَاعِكَ، وَقَالَ قَتَادَةُ: قَدْ قَالَ قَائِلُونَ مِنَ النَّاسِ: يَا مُحَمَّدُ إِنْ سَرَّكَ أَنْ نَتَّبِعَكَ فَأْتِنَا بِكِتَابٍ خَاصَّةً إِلَىٰ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، نُؤْمَرُ فِيهِ بِاتِّبَاعِكَ، قَالَ قَتَادَةُ: يُرِيدُونَ أَنْ يُؤْتَوْا بَرَاءَةً بِغَيْرِ عَمَلٍ، فَقَالَ اللهُ – تَعَالَىٰ :

[٥٣] : ﴿كَلَّا﴾ لَا يُؤْتَوْنَ الصُّحُفَ، وَقِيلَ: حَقًّا وَكُلُّ مَا وَرَدَ عَلَيْكَ مِنْهُ فَهَذَا وَجْهُهُ ﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ أَيْ لَا يَخَافُونَ عَذَابَ الْآخِرَةِ، وَالْمَعْنَىٰ أَنَّهُمْ لَوْ خَافُوا النَّارَ لَمَا اقْتَرَحُوا هَذِهِ الْآيَاتِ بَعْدَ قيام الأدلة، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَيْ إِنَّمَا أَفْسَدَهُمْ عَدَمُ إِيمَانِهِمْ بِهَا وَتَكْذِيبُهُمْ بِوُقُوعِهَا.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا﴾ حقا ﴿إِنَّهُ﴾ يعني القرآن ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ موعظة.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ اتعظ به.

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ لَهُمُ الْهُدَىٰ، ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أَيْ هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُخَافَ مِنْهُ، وَهُوَ أَهْلٌ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْآيَةَ ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾

وَقَالَ: «**قَالَ رَبُّكُمْ : أَنَا أَهْلٌ أَنْ أُتَّقَىٰ فَلَا يُجْعَلْ مَعِي إِلَهٌ، فَمَنِ اتَّقَىٰ أَنْ يَجْعَلَ مَعِي إِلَهًا كَانَ أَهْلًا أَنْ أَغْفِرَ لَهُ**»(١).

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

---

(١) الترمذي (٣٣٢٨) .

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ قِيلَ: ﴿لَا﴾ صِلَةٌ، وَقِيلَ: ﴿لَا﴾ تَوْكِيدٌ لِلْكَلَامِ ، قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ: قَوْلُهُ ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ تَوْكِيدٌ لِلْقَسَمِ، كَقَوْلِهِ لَا وَاللهِ ، وَالْمَقْصُودُ: إِثْبَاتُ الْمَعَادِ، وَالرَّدُّ عَلَىٰ مُنْكِرِي بَعْثِ الْأَجْسَادِ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: أَقْسَمَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَمْ يُقْسِمْ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: بَلْ أَقْسَمَ بِهِمَا جَمِيعًا، قُلْتُ: وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ أَقْسَمَ بِهِمَا تَعَالَىٰ جَمِيعًا، وَهُوَ اخْتِيَارُ شَيْخِ الْمُفَسِّرِينَ الْإِمَامِ الطَّبَرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ، وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ: هُوَ تَأْكِيدٌ كَقَوْلِكَ لَا وَاللهِ ، قَالَ سَعِيدُ ابْنُ جُبَيْرٍ: النفس اللوامة هي تَلُومُ عَلَىٰ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَلَا تَصْبِرُ عَلَىٰ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: تَنْدَمُ عَلَىٰ مَا فَاتَ وتقول: لو فعلت ولم أَفْعَلْ، قَالَ الْفَرَّاءُ: لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ بَرَّةٍ وَلَا فَاجِرَةٍ إِلَّا وهي تلوم نفسها، إن صانت عَمِلَتْ خَيْرًا قَالَتْ: هَلَّا ازْدَدْتُ، وإن عملت شراً قالت: لَيْتَنِي لَمْ أَفْعَلْ ، قال الحسن

البصري: إِنَّ الْمُؤْمِنَ وَاللهِ مَا نَرَاهُ إِلَّا يَلُومُ نَفْسَهُ: مَا أَرَدْتُ بِكَلِمَتِي، مَا أَرَدْتُ بِأَكْلَتِي، مَا أَرَدْتُ بِحَدِيثِ نَفْسِي، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَمْضِي قدمًا قدمًا ما يعاتب نفسه، قال مُقَاتِلٌ: هِيَ النَّفْسُ الْكَافِرَةُ تَلُومُ نَفْسَهَا فِي الْآخِرَةِ عَلَىٰ مَا فَرَّطَتْ فِي أَمْرِ اللهِ فِي الدنيا.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾ يَعْنِي الْكَافِرَ ﴿أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ بَعْدَ التَّفَرُّقِ وَالْبِلَىٰ فَنُحْيِيهِ، قِيلَ: ذَكَرَ الْعِظَامَ، وَأَرَادَ نَفْسَهُ لِأَنَّ الْعِظَامَ قَالِبُ النَّفْسِ لَا يَسْتَوِي الْخَلْقُ إِلَّا بِاسْتِوَائِهَا، وَقِيلَ: هُوَ خَارِجٌ عَلَىٰ قَوْلِ الْمُنْكِرِ أو يجمع اللهُ الْعِظَامَ كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ﴾ أي نقدر يُرِيدُ بَلْ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَكْثَرَ مِنْ ذَا، مَجَازُ الْآيَةِ: بَلَىٰ نَقْدِرُ عَلَىٰ جَمْعِ عِظَامِهِ وَعَلَىٰ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ: ﴿عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ أَنَامِلَهُ فَنَجْعَلُ أَصَابِعَ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ شَيْئًا وَاحِدًا كَخُفِّ الْبَعِيرِ وَحَافِرِ الْحِمَارِ، فَلَا يَرْتَفِقُ بِهَا بِالْقَبْضِ وَالْبَسْطِ وَالْأَعْمَالِ اللَّطِيفَةِ، كَالْكِتَابَةِ وَالْخِيَاطَةِ وَغَيْرِهَا، هَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ وَابْنُ قُتَيْبَةَ: مَعْنَاهُ ظَنَّ الْكَافِرُ أَنَا لَا نَقْدِرُ عَلَىٰ جَمْعِ عِظَامِهِ بَلَىٰ نَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ نُعِيدَ السُّلَامَيَاتِ عَلَىٰ صِغَرِهَا فَنُؤَلِّفُ بَيْنَهَا حَتَّىٰ نُسَوِّيَ الْبَنَانَ، فَمَنْ قَدَرَ عَلَىٰ جَمْعِ صِغَارِ الْعِظَامِ فَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِ كِبَارِهَا أَقْدَرُ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ يقول: لا جهل ابْنُ آدَمَ أَنَّ رَبَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ جَمْعِ عِظَامِهِ لَكِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَفْجُرَ أَمَامَهُ أَيْ يَمْضِي قدما في

مَعَاصِي اللهِ مَا عَاشَ رَاكِبًا رَأْسَهُ لَا يَنْزِعُ عَنْهَا وَلَا يَتُوبُ ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ يُقْدِمُ عَلَىٰ الذَّنْبِ وَيُؤَخِّرُ التَّوْبَةَ ، فَيَقُولُ: سَوْفَ أَتُوبُ سَوْفَ أَعْمَلُ حَتَّىٰ يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ عَلَىٰ شَرِّ أَحْوَالِهِ وَأَسْوَإِ أَعْمَالِهِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُكَذِّبُ بِمَا أَمَامَهُ مِنَ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ ، وَأَصْلُ الْفُجُورِ :الْمَيْلُ ، وَسُمِّي الْفَاسِقُ وَالْكَافِرُ فَاجِرًا لِمَيْلِهِ عَنِ الْحَقِّ.

[٦] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ أَيْ مَتَىٰ يَكُونُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا سُؤَالُهُ سُؤَالُ اسْتِبْعَادٍ لِوُقُوعِهِ وَتَكْذِيبٌ لِوُجُودِهِ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ الْمَقْصُودُ أَنَّ الْأَبْصَارَ تَنْبَهِرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتَخْشَعُ وَتَحَارُ وَتَذِلُّ مِنْ شِدَّةِ الْأَهْوَالِ، وَمَنْ عِظَمِ مَا تُشَاهِدُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأُمُورِ، قَالَ قَتَادَةُ: شَخَصَ الْبَصَرُ فَلَا يَطْرِفُ مِمَّا يَرَىٰ مِنَ الْعَجَائِبِ الَّتِي كَانَ يُكَذِّبُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، قِيلَ: ذَلِكَ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: عِنْدَ رُؤْيَةِ جهنم تبرق أَبْصَارُ الْكُفَّارِ، وَقَالَ الْفَرَّاءُ وَالْخَلِيلُ: بَرِقَ بِالْكَسْرِ : أَيْ فَزِعَ وَتَحَيَّرَ لما يرىٰ من العجائب، وبرق بِالْفَتْحِ أَيْ شَقَّ عَيْنَهُ وَفَتَحَهَا مِنَ الْبَرِيقِ وَهُوَ التَّلَأْلُؤُ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ أَظْلَمَ وَذَهَبَ نُورُهُ وَضَوْءُهُ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ صارا أَسْوَدَيْنِ مُكَوَّرَيْنِ كَأَنَّهُمَا ثَوْرَانِ عَقِيرَانِ ، وَقِيلَ: يُجْمَعُ بَيْنَهُمَا فِي ذَهَابِ الضياء، وقال كعطاء بْنُ يَسَارٍ: يُجْمَعَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يُقْذَفَانِ فِي الْبَحْرِ فَيَكُونَانِ نار الله الكبرىٰ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ أَيِ الْكَافِرُ الْمُكَذِّبُ ، ﴿يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ أَيْ الْمَهْرَبُ وَهُوَ مَوْضِعُ الْفِرَارُ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ أَيْ لَيْسَ لَكُمْ مَكَانٌ تَعْتَصِمُونَ فِيهِ، لا حِرْزَ وَلَا مَلْجَأَ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: لَا جَبَلَ وَكَانُوا إِذَا فَزِعُوا لَجَئُوا إِلَىٰ الْجَبَلِ فَتُحَصَّنُوا به.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ أَيْ مُسْتَقَرُّ الْخَلْقِ. وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: الْمَصِيرُ وَالْمَرْجِعُ نَظِيرُهُ ، قَالَ السَّعْدِيُّ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ لِسَائِرِ الْعِبَادِ فَلَيْسَ فِي إِمْكَانِ أَحدٍ أَنْ يَسْتَتِرَ أَوْ يَهْرُبَ عَنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ إِيقَافِهِ لِيُجْزَىٰ بِعَمَلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ لِسَائِرِ الْعِبَادِ فَلَيْسَ فِي إِمْكَانِ أَحدٍ أَنْ يَسْتَتِرَ أَوْ يَهْرُبَ عَنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ إِيقَافِهِ لِيُجْزَىٰ بِعَمَلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ:

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: بما قدم قبل الموت مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ وَسَيِّءٍ، وَمَا أَخَّرَ بَعْدَ مَوْتِهِ مِنْ سُنَّةٍ حَسَنَةٍ أَوْ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُ بِهَا، وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِمَا قَدَّمَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَأَخَّرَ مِنَ الطَّاعَةِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: بِمَا قَدَّمَ مِنْ طَاعَةِ اللهِ وَأَخَّرَ مِنْ حَقِّ اللهِ فَضَيَّعَهُ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ مَعْنَاهُ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ نَفْسِهِ رُقَبَاءُ يَرْقُبُونَهُ وَيَشْهَدُونَ عَلَيْهِ بِعَمَلِهِ، وَهِيَ سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ

وَجَوَارِحُهُ، وَدَخَلَ الْهَاءُ فِي الْبَصِيرَةِ لِأَنَّ المراد بالإنسان هنا جَوَارِحُهُ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ شَاهَدٌ .

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ يَعْنِي يَشْهَدُ عَلَيْهِ الشَّاهِدُ وَلَوِ اعْتَذَرَ وَجَادَلَ عَنْ نَفْسِهِ لَمْ ينفعه، كما قال ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [غَافِرٍ: ٥٢]. قَالَ الْفَرَّاءُ: وَلَوِ اعْتَذَرَ فَعَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ مَنْ يُكَذِّبُ عُذْرَهُ، وَمَعْنَىٰ الْإِلْقَاءِ: الْقَوْلُ كَمَا قَالَ: ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [النَّحْلِ: ٨٦] وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ يَعْنِي وَلَوْ أَرْخَىٰ السُّتُورَ وَأَغْلَقَ الْأَبْوَابَ، وَأَهْلُ الْيَمَنِ يُسَمُّونَ السِّتْرَ مِعْذَارًا وَجَمْعُهُ مَعَاذِيرُ، وَمَعْنَاهُ عَلَىٰ هَذَا الْقَوْلِ: وَإِنْ أَسْبَلَ السِّتْرَ ليخفي ما كان يَعْمَلُ فَإِنَّ نَفْسَهُ شَاهِدَةٌ عَلَيْهِ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ « كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ نَزَلَ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ ، كَانَ يُحَرِّكُ لِسَانَهُ وَشَفَتَيْهِ فَيَشْتَدُّ عَلَيْهِ، وَكَانَ يُعْرَفُ مِنْهُ »(١) ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ، ثُمَّ ضَمِنَ لَهُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَحْفَظَهُ وَيَقْرَأَهُ، وَيَجْمَعَهُ اللهُ فِي صَدْرِهِ، فَقَال :

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ قَالَ: عَلَيْنَا أَنْ نَجْمَعَهُ فِي صَدْرِكَ، وَقُرْآنَهُ. قَالَ: فَاسْتَمِعْ وَأَنْصِتْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ، قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ

---

(١) البخاري (٤٩٢٧) .

اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ، فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا أَقْرَأَهُ .

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ فَإِذَا أَنْزَلْنَاهُ فَاسْتَمِعْ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَهُ بِلِسَانِكَ. قَالَ: فَكَانَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ أَطْرَقَ، فَإِذَا ذَهَبَ قَرَأَهُ كَمَا وَعَدَهُ اللهُ. قَالَ السَّعْدِيُّ :فَوَعَدَهُ بِحِفْظِ لَفْظِهِ وَحِفْظِ مَعَانِيهِ، وَهَذَا أَعْلَىٰ مَا يَكُونُ، فَامْتَثَلَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَدَبِ رَبِّهِ، فَكَانَ إِذَا تَلَا عَلَيْهِ جِبْرِيلُ الْقُرْآنَ بَعْدَ هَذَا، أَنْصَتَ لَهُ، فَإِذَا فَرَغَ قَرَأَهُ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ أَيِ الدَّارَ الدُّنْيَا وَالْحَيَاةَ فِيهَا وَتَذَرُونَ أَيْ تَدَعُونَ الْآخِرَةَ وَالْعَمَلَ لَهَا.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ أَيْ يَخْتَارُونَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْعُقْبَىٰ وَيَعْمَلُونَ لَهَا يَعْنِي كَفَّارَ مَكَّةَ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿نَاضِرَةٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: حَسَنَةٌ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَسْرُورَةٌ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: نَاعِمَةٌ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: بِيضٌ يَعْلُوهَا النُّورُ، مِنَ النَّضْرَةِ الَّتِي هِيَ الْحُسْنُ وَالنِّعْمَةُ ، وَالثَّانِي مِنَ النَّظَرِ أَيْ وُجُوهُ الْمُؤْمِنِينَ مُشْرِقَةٌ حَسَنَةٌ نَاعِمَةٌ، يُقَالُ: نَضَرَهُمُ اللهُ يَنْضُرُهُمْ نَضْرَةً وَنَضَارَةً وَهُوَ الْإِشْرَاقُ وَالْعَيْشُ وَالْغِنَىٰ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلىٰ رَبِّها ناظِرَةٌ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَكْثَرُ النَّاسِ: تَنْظُرُ إِلَىٰ رَبِّهَا عِيَانًا بِلَا حِجَابٍ ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: تَنْظُرُ إِلَىٰ الْخَالِقِ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَنْضُرَ وهي تنظر إلىٰ الخالق ، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: أَكْرَمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ عَلَىٰ اللهِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ وَجْهِهِ غُدْوَةً وَعَشِيَّةً، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ. إِلىٰ رَبِّها ناظِرَةٌ﴾ .

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ عَابِسَةٌ كَالِحَةٌ مُغْبَرَّةٌ مُسَوَّدَةٌ عابسة .

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ تَسْتَيْقِنُ أَنْ يُعْمَلَ بِهَا عَظِيمَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، وَالْفَاقِرَةُ: الدَّاهِيَةُ الْعَظِيمَةُ، وَالْأَمْرُ الشَّدِيدُ يَكْسِرُ فَقَارَ الظَّهْرِ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: قَاصِمَةُ الظَّهْرِ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هِيَ دُخُولُ النَّارِ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ﴾ يَعْنِي النَّفْسَ ﴿التَّرَاقِيَ﴾ فَحَشْرَجَ بِهَا عِنْدَ الْمَوْتِ، وَالتَّرَاقِي جَمْعُ التَّرْقُوَةِ ، وَهِيَ الْعِظَامُ بَيْنَ ثُغْرَةِ النَّحْرِ وَالْعَاتِقِ وَيُكَنَّىٰ بِبُلُوغِ النَّفْسِ التَّرَاقِيَ عَنِ الْإِشْرَافِ عَلَىٰ الموت ، وَمَعْنَىٰ بَلَغَتِ التَّراقِيَ: أَنَّ الرُّوحَ بَلَغَتِ الْحَنْجَرَةَ حَيْثُ تَخْرُجُ الْأَنْفَاسُ الْأَخِيرَةُ فَلَا يُسْمَعُ صَوْتُهَا إِلَّا فِي جِهَةِ التَّرْقُوَةِ وَهِيَ آخِرُ حَالَاتِ الِاحْتِضَارِ.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ أَيْ قَالَ مَنْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ: هَلْ مِنْ طَبِيبٍ يَرْقِيهِ وَيُدَاوِيهِ فَيَشْفِيَهُ بِرُقْيَتِهِ أَوْ دَوَائِهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: الْتَمَسُوا لَهُ الْأَطِبَّاءَ فَلَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنْ قَضَاءِ اللهِ شَيْئًا، وَقَالَ سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ وَمُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ: هَذَا مِنْ

قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَنْ يَرْقَىٰ بِرُوحِهِ فَتَصْعَدُ بِهَا مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ أَوْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَظَنَّ﴾ أيقن الذين بَلَغَتْ رُوحُهُ التَّرَاقِيَ، ﴿أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ مِنَ الدُّنْيَا.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾، قال عَطَاءٌ: شِدَّةُ الْمَوْتِ بِشِدَّةِ الْآخِرَةِ، قال سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: تَتَابَعَتْ عَلَيْهِ الشدائد، قال السُّدِّيُّ: لَا يَخْرُجُ مِنْ كَرْبٍ إِلَّا جَاءَهُ أَشَدُّ مِنْهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمْرُ الدُّنْيَا بِأَمْرِ الْآخِرَةِ فَكَانَ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنَ الدُّنْيَا وَأَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ أي مرجع العباد إِلَىٰ اللهِ يُسَاقُونَ إِلَيْهِ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَذَلِكَ أَنَّ الرُّوحَ تُرْفَعُ إِلَىٰ السَّمَاوَاتِ، فَيَقُولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: رُدُّوا عَبْدِي إِلَىٰ الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخرىٰ، كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ الطويل.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ هَذَا إِخْبَارٌ عَنِ الْكَافِرِ الَّذِي كَانَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مُكَذِّبًا لِلْحَقِّ بِقَلْبِهِ، مُتَوَلِّيًا عَنِ الْعَمَلِ بِقَالَبِهِ، فَلَا خَيْرَ فِيهِ بَاطِنًا وَلَا ظاهراً.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ عَنِ الْإِيمَانِ.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ رجع إليهم، ﴿يَتَمَطَّىٰ﴾ يتبختر ويختال في مشيه، قيل: أَصْلُهُ يَتَمَطَّطُ أَيْ يَتَمَدَّدُ، وَالْمَطُّ هُوَ الْمَدُّ.

[٣٤-٣٥] قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ . ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ هَذَا وَعِيدٌ عَلَىٰ وَعِيدٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِأَبِي جَهْلٍ، وَهِيَ كَلِمَةٌ مَوْضُوعَةٌ لِلتَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: مَعْنَاهُ أَنَّكَ أَجْدَرُ بِهَذَا الْعَذَابِ وَأَحَقُّ وَأَوْلَىٰ به، تقال للرجل حيث يُصِيبُهُ مَكْرُوهٌ يَسْتَوْجِبُهُ، وَقِيلَ: هِيَ كَلِمَةٌ تَقُولُهَا الْعَرَبُ لِمَنْ قَارَبَهُ الْمَكْرُوهُ، وَأَصْلُهَا من الولي وَهُوَ الْقُرْبُ، قَالَ اللهُ تعَالَىٰ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ .

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًىٰ﴾ هَمَلًا لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَىٰ، قَالَ السُّدِّيُّ: يعني لا يبعث، وقال مجاهد: يَعْنِي لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَىٰ وَإِبِلٌ سُدًىٰ إِذَا كَانَتْ تَرْعَىٰ حَيْثُ شَاءَتْ بِلَا رَاعٍ. وَقِيلَ: أَيَحْسَبُ أَنْ يُتْرَكَ فِي قَبْرِهِ كَذَلِكَ أَبَدًا لَا يُبْعَثُ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ تُصَبُّ فِي الرَّحِمِ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أَيْ فَسَوَّاهُ تَسْوِيَةً، وَعَدَّلَهُ تَعْدِيلًا، بِجَعْلِ الرُّوحِ فِيهِ.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾ أَيِ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ﴾ الَّذِي فَعَلَ هَذَا، ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ أَيْ عَلَىٰ أَنْ يُعِيدَ هَذِهِ الْأَجْسَامَ كَهَيْئَتِهَا لِلْبَعْثِ بَعْدَ الْبِلَىٰ.

سُورَةُ الْإِنْسَانِ

اخْتُلِفَ فِيهَا فَقِيلَ هِيَ مَكِّيَّةٌ، وَقِيلَ مَدَنِيَّةٌ، وَقِيلَ بَعْضُهَا مَكِّيٌّ وَبَعْضُهَا مَدَنِيٌّ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ قد أتىٰ، ﴿عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ يَعْنِي آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾ قَبْلَ أَنْ يُنْفَخَ فِيهِ الرُّوحُ، ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ لَا يُذْكَرُ وَلَا يُعْرَفُ وَلَا يُدْرَىٰ مَا اسْمُهُ وَلَا مَا يُرَادُ بِهِ، يُرِيدُ: كَانَ شَيْئًا وَلَمْ يَكُنْ مَذْكُورًا، وَذَلِكَ مِنْ حِينِ خَلَقَهُ مِنْ طِينٍ إِلَىٰ أن نفخ فيه الروح.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ يَعْنِي وَلَدَ آدَمَ، ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ يَعْنِي مَنِيِّ الرَّجُلِ وَمَنِيِّ الْمَرْأَةِ، ﴿أَمْشَاجٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي مَاءَ الرَّجُلِ وَمَاءَ الْمَرْأَةِ يَخْتَلِطَانِ فِي الرحم فيكون منهما الولد، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: أَرَادَ بِالْأَمْشَاجِ اخْتِلَافُ أَلْوَانِ النُّطْفَةِ فَنُطْفَةُ الرَّجُلِ بَيْضَاءُ وحمراء وَنُطْفَةُ الْمَرْأَةِ خَضْرَاءُ وَحَمْرَاءُ وَصَفْرَاءُ، وَقَالَ يَمَانٌ: كُلُّ لَوْنَيْنِ اخْتَلَطَا فهو أمشاج، وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ أَطْوَارُ الْخَلْقِ: نُطْفَةً، ثُمَّ عَلَقَةً ثُمَّ مُضْغَةً، ثُمَّ عَظْمًا ثُمَّ يَكْسُوهُ لَحْمًا ثُمَّ يُنْشِئُهُ خَلْقًا آخَرَ. وأَمْشاجٍ: مُشْتَقٌّ مِنَ الْمَشْجِ وَهُوَ الْخَلْطُ، أَيْ نُطْفَةٌ مَخْلُوطَةٌ ﴿نَبْتَلِيهِ﴾

نَخْتَبِرُهُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ: وَفِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، مَجَازُهُ: فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا لِنَبْتَلِيَهُ، لِأَنَّ الِابْتِلَاءَ لَا يَقَعُ إِلَّا بَعْدَ تَمَامِ الْخِلْقَةِ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أَيْ بَيَّنَّا لَهُ سَبِيلَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْهُدَىٰ وَالضَّلَالَةِ، وَعَرَّفْنَاهُ طَرِيقَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ إِمَّا مُؤْمِنًا سَعِيدًا وَإِمَّا كَافِرًا شَقِيًّا، وَقِيلَ: مَعْنَىٰ الْكَلَامِ الْجَزَاءُ يَعْنِي بَيَّنَّا لَهُ الطَّرِيقَ إِنْ شَكَرَ أَوْ كَفَرَ، قَالَ قَتَادَةُ: إِمَّا شَاكِرًا لِلنِّعَمِ وَإِمَّا كَفُورًا لَهَا ، ثُمَّ بَيَّنَ مَا لِلْفَرِيقَيْنِ فَقَالَ:

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ﴾ الْقُيُودُ فِي جَهَنَّمَ طُولُ كُلِّ سَلْسَلَةٍ سَبْعُونَ ذِرَاعًا كَمَا مَضَىٰ فِي (الْحَاقَّةِ)، ﴿وَأَغْلَالًا﴾ يَعْنِي فِي أَيْدِيهِمْ تُغَلُّ فِي أَعْنَاقِهِمْ، ﴿وَسَعِيرًا﴾ وَقُودًا شَدِيدًا ، وَقَالَ الْحَسَنُ: إِنَّ الْأَغْلَالَ لَمْ تُجْعَلْ فِي أَعْنَاقِ أَهْلِ النَّارِ، لِأَنَّهُمْ أَعْجَزُوا الرَّبَّ سُبْحَانَهُ ولكن إذلالاً.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ الْأَبْرَارُ: أَهْلُ الصِّدْقِ وَاحِدُهُمْ بَرٌّ، يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ فِي إِيمَانِهِمُ المطيعين لربهم، ﴿يَشْرَبُونَ﴾ في الآخرة، ﴿مِنْ كَأْسٍ﴾ فيه شراب ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: يُمْزَجُ لَهُمْ بِالْكَافُورِ وَيُخْتَمُ بِالْمِسْكِ، قَالَ عِكْرِمَةُ: مِزَاجُهَا طَعْمُهَا، وَقَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: أَرَادَ كَالْكَافُورِ فِي بَيَاضِهِ وَطِيبِ رِيحِهِ وَبَرْدِهِ، لِأَنَّ الْكَافُورَ لَا يُشْرَبُ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ

نَارًا﴾ [الْكَهْفِ: ٩٦] أَيْ كَنَارٍ، وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: طُيِّبَتْ بِالْكَافُورِ وَالْمِسْكِ والزنجبيل.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ﴾ أَيْ: ذَلِكَ الْكَأْسُ اللَّذِيذُ الَّذِي يَشْرَبُونَ بِهِ، لَا يَخَافُونَ نَفَادَهُ، بَلْ لَهُ مَادَّةٌ لَا تَنْقَطِعُ، وَهِيَ عَيْنٌ دَائِمَةُ الْفَيَضَانِ وَالْجَرَيَانِ،﴿عِبَادُ اللهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَوْلِيَاءُ اللهِ، ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أَيْ يَقُودُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا مِنْ مَنَازِلِهِمْ، وَقُصُورِهِمْ، كَمَنْ يَكُونُ لَهُ نهر يفجره ههنا إِلَىٰ حَيْثُ يُرِيدُ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ هَذَا مِنْ صِفَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا: أَيْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا كَذَلِكَ، قَالَ قَتَادَةُ: أَرَادَ يُوفُونَ بِمَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الصَّلَاةِ والزكاة والصوم والحج والعمرة، وغيره مِنَ الْوَاجِبَاتِ، وَمَعْنَىٰ النَّذْرِ الْإِيجَابُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا نَذَرُوا فِي طَاعَةِ اللهِ وَفَّوْا بِهِ، وَالنَّذْرُ: حَقِيقَتُهُ مَا أَوْجَبَهُ المكلف علىٰ نفسه من شي يَفْعَلُهُ ، ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ فَاشِيًا مُمْتَدًّا، يُقَالُ: اسْتَطَارَ الصُّبْحُ إِذَا امْتَدَّ وَانْتَشَرَ، قَالَ قَتَادَةُ: اسْتَطَارَ وَاللهِ شَرُّ ذَلِكَ الْيَوْمِ حَتَّىٰ مَلَأَ السموات وَالْأَرْضَ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ أَيْ عَلَىٰ حُبِّ الطَّعَامِ وَقِلَّتِهِ وَشَهْوَتِهِمْ لَهُ وَحَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ، وَقِيلَ علىٰ حب الله، وَكَانَ الرَّبِيعُ بن خيثم إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ قَالَ: أَطْعِمُوهُ سُكَّرًا فَإِنَّ الرَّبِيعَ يُحِبُّ السُّكَّرَ، ﴿مِسْكِينًا﴾ فَقِيرًا لَا مَالَ لَهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ الطَّوَّافُ يَسْأَلُكُ مَالَكَ وَيَتِيمًا أَيْ مِنْ يَتَامَىٰ الْمُسْلِمِينَ.

﴿وَيَتِيمًا﴾ صَغِيرًا لَا أَبَ لَهُ ﴿وَأَسِيرًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ الْمَسْجُونُ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: أَمَرَ اللهُ بِالْأُسَرَاءِ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْهِمْ وَإِنَّ أَسْرَاهُمْ يَوْمَئِذٍ لَأَهْلُ الشِّرْكِ. وَقِيلَ: الأسير المملوك، وقيل المرأة، يَقُولَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**اتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ**»(١) أَيْ أُسَرَاءُ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾ أَيْ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ لِلْمِسْكِينِ وَالْيَتِيمِ وَالْأَسِيرِ إِنَّما نُطْعِمُكُمْ فِي اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ فَزَعًا مِنْ عَذَابِهِ وَطَمَعًا فِي ثَوَابِهِ، ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً﴾ أَيْ مُكَافَأَةً، ﴿وَلا شُكُوراً﴾ أَيْ وَلَا أَنْ تُثْنُوا عَلَيْنَا بِذَلِكَ، قَالَ مُجَاهِدٌ: إِنَّهُمْ لَمْ يَتَكَلَّمُوا بِهِ وَلَكِنْ عَلِمَ اللهُ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ، فَأَثْنَىٰ عَلَيْهِمْ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا﴾ تَعْبَسُ فِيهِ الْوُجُوهُ مِنْ هَوْلِهِ وشدته، ونسب الْعَبُوسُ إِلَىٰ الْيَوْمِ، كَمَا يُقَالُ: يوم صائم وليل نائم، وَقِيلَ: وُصِفَ الْيَوْمُ بِالْعَبُوسِ لِمَا فيه من الشدة، ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: الْقَمْطَرِيرُ الَّذِي يَقْبِضُ الْوُجُوهَ وَالْجِبَاهَ بِالتَّعْبِيسِ، وقال الْكَلْبِيُّ: الْعَبُوسُ الَّذِي لَا انْبِسَاطَ فيه، والقمطرير: الشَّدِيدُ، قَالَ الْأَخْفَشُ: الْقَمْطَرِيرُ: أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ الْأَيَّامِ وَأَطْوَلُهُ فِي الْبَلَاءِ، يُقَالُ: يَوْمٌ قَمْطَرِيرٌ وَقُمَاطِرٌ إِذَا كَانَ شَدِيدًا كَرِيهًا ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْعَبُوسُ: الشَّرُّ، وَالْقَمْطَرِيرُ: الشَّدِيدُ.

---

(١) مسلم (١٢١٨) .

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ أَيْ دَفَعَ عَنْهُمْ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ أَيْ بَأْسَهُ وَشِدَّتَهُ وَعَذَابَهُ ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً﴾ حسنا في وجوههم، ﴿وَسُرُورًا﴾ فِي قُلُوبِهِمْ، أَيْ حُسْنًا وَسُرُوراً أَيْ حُبُورًا ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: نَضْرَةً فِي وُجُوهِهِمْ وَسُرُوراً فِي قُلُوبِهِمْ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: عَلَىٰ الْفَقْرِ، وَقَالَ عَطَاءٌ: عَلَىٰ الْجُوعِ ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أَيْ مَنْزِلًا رَحْبًا، وعيشًا رغداً، ولباسًا حسنًا، قال الْحَسَنُ: أَدْخَلَهُمُ اللهُ الْجَنَّةَ وَأَلْبَسَهُمُ الحرير.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مُتَّكِئِينَ فيها﴾ في الجنة ﴿عَلَىٰ الْأَرَائِكِ﴾ السُّرُرُ فِي الْحِجَالِ، وَلَا تَكُونُ أَرِيكَةً إِلَّا إِذَا اجْتَمَعَا، ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أَيْ صَيْفًا وَلَا شِتَاءً، قَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي شَمْسًا يُؤْذِيهِمْ حَرُّهَا وَلَا زَمْهَرِيرًا يُؤْذِيهِمْ بِرْدُهُ، لِأَنَّهُمَا يُؤْذِيَانِ فِي الدُّنْيَا ، وَالزَّمْهَرِيرُ: الْبَرْدُ الشديد .

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ أَيْ قَرِيبَةً مِنْهُمْ ظِلَالُ أَشْجَارِهَا، ﴿وَذُلِّلَتْ﴾ سخرت وقربت، ﴿قُطُوفُهَا﴾ ثمارها ﴿تَذْلِيلًا﴾ يَأْكُلُونَ مِنْ ثِمَارِهَا قِيَامًا وَقُعُودًا وَمُضْطَجِعِينَ، وَيَتَنَاوَلُونَهَا كَيْفَ شَاءُوا عَلَىٰ أي حال كانوا.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أَيْ: وَتَدُورُ عَلَيْهِمُ الْخَدَمُ إِذَا أَرَادُوا الشُّرْبَ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَكُؤُوسِ الْفِضَّةِ. وَالْأَكْوَابُ: جَمْعُ كُوبٍ. وَهُوَ كُوزٌ لَا أُذُنَ لَهُ، أَوْ إِبْرِيقٌ لَا عُرْوَةَ لَهُ، ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾ .

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَوَارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: أَرَادَ بَيَاضَ الْفِضَّةِ فِي صَفَاءِ الْقَوَارِيرِ، فَهِيَ مِنْ فِضَّةٍ فِي صَفَاءِ الزُّجَاجِ، يَرَىٰ مَا فِي دَاخِلِهَا مِنْ خَارِجِهَا، ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ الْكَأْسَ عَلَىٰ قَدْرِ رِيِّهِمْ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، أَيْ قَدَّرَهَا لَهُمُ السُّقَاةُ وَالْخَدَمُ الَّذِينَ يَطُوفُونَ عَلَيْهِمْ يُقَدِّرُونَهَا ثُمَّ يُسْقَوْنَ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ يُشَوِّقُ وَيُطْرِبُ، وَالزَّنْجَبِيلُ: مِمَّا كَانَتِ الْعَرَبُ تَسْتَطِيبُهُ جِدًّا، فَوَعَدَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّهُمْ يُسْقَوْنَ فِي الْجَنَّةِ الْكَأْسَ الْمَمْزُوجَةَ بِزَنْجَبِيلِ الْجَنَّةِ. قَالَ مُقَاتِلٌ: لَا يُشْبِهُ زَنْجَبِيلَ الدُّنْيَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُلُّ مَا ذكره اللهُ فِي الْقُرْآنِ مِمَّا فِي الْجَنَّةِ وَسَمَّاهُ لَيْسَ لَهُ فِي الدُّنْيَا مِثْلٌ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: سَلِسَةٌ مُنْقَادَةٌ لَهُمْ يَصْرِفُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا، قَالَ مُجَاهِدٌ: شَدِيدَةُ الْجَرْيَةِ ، قال أَبُو الْعَالِيَةِ: سُمِّيَتْ سَلْسَبِيلًا لِأَنَّهَا تَسِيلُ عَلَيْهِمْ فِي الطُّرُقِ وَفِي مَنَازِلِهِمْ، قَالَ الزَّجَّاجُ: سُمِّيَتْ سَلْسَبِيلًا لِأَنَّهَا فِي غَايَةِ السَّلَاسَةِ تَتَسَلْسَلُ فِي الْحَلْقِ، وَمَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿تُسَمَّىٰ﴾ أَيْ تُوصَفُ لِأَنَّ أَكْثَرَ الْعُلَمَاءِ عَلَىٰ أَنَّ سَلْسَبِيلًا صِفَةٌ لَا اسْمٌ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا﴾ قَالَ عَطَاءٌ: يُرِيدُ فِي بَيَاضِ اللُّؤْلُؤِ وَحُسْنِهِ، وَاللُّؤْلُؤُ إِذَا نُثِرَ مِنَ الْخَيْطِ عَلَىٰ الْبِسَاطِ، كَانَ أَحْسَنَ مِنْهُ مَنْظُومًا. وَقَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: إِنَّمَا شُبِّهُوا بِالْمَنْثُورِ لِانْتِشَارِهِمْ فِي الْخِدْمَةِ، فَلَوْ كَانُوا صَفًّا لَشُبِّهُوا بِالْمَنْظُومِ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ أَيْ إِذَا رَأَيْتَ بِبَصَرِكَ وَنَظَرْتَ بِهِ ثَمَّ يَعْنِي فِي الجنة، ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ لا يوصف، ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ وَهُوَ أَنَّ أَدْنَاهُمْ مَنْزِلَةً يَنْظُرُ إِلَىٰ مُلْكِهِ فِي مَسِيرَةِ أَلْفِ عَامٍ يَرَىٰ أَقْصَاهُ كَمَا يَرَىٰ أدناه. قال مُقَاتِلٌ وَالْكَلْبِيُّ: هُوَ أَنَّ رَسُولَ رَبِّ الْعِزَّةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ. وَقِيلَ: مُلْكًا لَا زَوَالَ لَهُ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ﴾ أَيْ فَوْقَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ ﴿خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ السُّنْدُسُ: مَا رَقَّ مِنَ الدِّيبَاجِ، وَالْإِسْتَبْرَقُ: مَا غَلُظَ مِنْهُ. قَالَ الزَّجَّاجُ: هُمَا نَوْعَانِ مِنَ الْحَرِيرِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ أَيْ: وَحَلَّاهُمْ رَبُّهُمْ أَسَاوِرَ - جَمْعُ أَسْوِرَةٍ - مِنْ فِضَّةٍ، وَالْمَقْصُودُ بِذَلِكَ: حِلْيَةُ الْأَبْرَارِ، ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ قِيلَ: طَاهِرًا مِنَ الْأَقْذَارِ وَالْأَقْذَاءِ لَمْ تُدَنِّسْهُ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ كَخَمْرِ الدُّنْيَا، وَقَالَ أَبُو قِلَابَةَ وَإِبْرَاهِيمُ: إِنَّهُ لَا يَصِيرُ بَوْلًا نَجِسًا وَلَكِنَّهُ يَصِيرُ رَشْحًا فِي أَبْدَانِهِمْ، كَرِيحِ الْمِسْكِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُؤْتَوْنَ بالطعام فيأكلون، فَإِذَا كَانَ آخِرُ ذَلِكَ أُتُوا بالشراب الطهور، فيشربون فتطهر بُطُونَهُمْ وَيَصِيرُ مَا أَكَلُوا رَشْحًا يخرج من جلودهم أَطْيَبَ مِنَ الْمِسْكِ الْأَذْفَرِ، وَتَضْمُرُ بُطُونُهُمْ وَتَعُودُ شَهْوَتُهُمْ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ أَيْ مَا وُصِفَ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ كَانَ لَكُمْ جَزَاءً بِأَعْمَالِكُمْ، وَكَانَ سَعْيُكُمْ عَمَلُكُمْ فِي الدُّنْيَا بِطَاعَةِ اللهِ مَشْكُورًا، قَالَ عَطَاءٌ: شكرتكم عليه وأثبتكم أَفْضَلَ الثَّوَابِ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مُتَفَرِّقًا آيَةً بَعْدَ آيَةٍ، وَلَمْ يَنْزِلْ جُمْلَةً وَاحِدَةً.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أَيْ لِقَضَاءِ رَبِّكَ ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾ يَعْنِي مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ، وَقِيلَ: أَيِ اصْبِرْ لِمَا حُكِمَ بِهِ عَلَيْكَ مِنَ الطَّاعَاتِ، أَوِ انْتَظِرْ حُكْمَ اللهِ إِذْ وَعَدَكِ أَنَّهُ يَنْصُرُكِ عَلَيْهِمْ، وَلَا تَسْتَعْجِلْ فَإِنَّهُ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، ﴿آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ يعني وكفورا، وَقِيلَ: الْآثِمُ الْمُنَافِقُ، وَالْكَفُورُ الْكَافِرُ الَّذِي يُظْهِرُ الْكُفْرَ، أَيْ لَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا وَلَا كَفُورًا.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أَيْ: وَاذْكُرْ - يَا مُحَمَّدُ - رَبَّكَ فَادْعُهُ بُكْرَةً فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ، وَعَشِيًّا فِي صَلَاتَيِ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: بُكْرَةً: صَلَاةُ الصُّبْحِ، وَأَصِيلًا: صَلَاةُ الْعَصْرِ، وَقِيلَ: هُوَ الذِّكْرُ الْمُطْلَقُ سَوَاءً كَانَ فِي الصَّلَاةِ أَوْ فِي غَيْرِهَا.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ أَيْ: أَكْثِرْ لَهُ مِنَ السُّجُودِ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْإِكْثَارِ مِنَ الصَّلَاةِ، ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ يَعْنِي التَّطَوُّعَ فِي اللَّيْلِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسُفْيَانُ: كُلُّ تَسْبِيحٍ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ صَلَاةٌ.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ يَعْنِي كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ أَيِ الدَّارَ الْعَاجِلَةَ وَهِيَ الدُّنْيَا. ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ﴾ يعني أمامهم، ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ شَدِيدًا وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ ثَقِيلًا لِشَدَائِدِهِ وَأَهْوَالِهِ، أَيْ يتركون فَلَا

يُؤْمِنُونَ بِهِ وَلَا يَعْمَلُونَ له ، وَقِيلَ: وَراءَهُمْ أَيْ خَلْفَهُمْ، أَيْ وَيَذَرُونَ الْآخِرَةَ خَلْفَ ظُهُورِهِمْ، فَلَا يَعْمَلُونَ لَهَا.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا﴾ قوينا وأحكمنا، ﴿أَسْرَهُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَمُقَاتِلٌ: أَسْرَهُمْ أَيْ خَلْقَهُمْ، يُقَالُ رَجُلٌ حَسَنُ الْأَسْرِ أَيِ الْخَلْقِ، وَقَالَ الْحَسَنُ: يعني أوصالهم شددنا بَعْضَهَا إِلَىٰ بَعْضٍ بِالْعُرُوقِ وَالْعَصَبِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَالْكَلَامُ خَرَجَ مَخْرَجَ الِامْتِنَانِ عَلَيْهِمْ بِالنِّعَمِ حِينَ قَابَلُوهَا بِالْمَعْصِيَةِ، أَيْ سَوَّيْتُ خَلْقَكَ وَأَحْكَمْتُهُ بِالْقُوَىٰ ثُمَّ أَنْتَ تَكْفُرُ بِي ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أَيْ إِذَا شِئْنَا أَهْلَكْنَاهُمْ وَأَتَيْنَا بِأَشْبَاهِهِمْ فَجَعَلْنَاهُمْ بَدَلًا مِنْهُمْ.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ يعني هذه السورة، ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ تَذْكِيرٌ وَعِظَةٌ، ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أَيْ طَرِيقًا مُوَصِّلًا إِلَىٰ طَاعَتِهِ وَطَلَبِ مَرْضَاتِهِ. وَقِيلَ: سَبِيلًا أَيْ وَسِيلَةً، وَقِيلَ وِجْهَةً وَطَرِيقًا إِلَىٰ الجنة والمعنىٰ واحد.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أَيْ لَسْتُمْ تَشَاءُونَ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، لِأَنَّ الْأَمْرَ إِلَيْهِ وَأَنَّهُ لَا تَنْفُذُ مَشِيئَةُ أَحَدٍ وَلَا تَتَقَدَّمُ، إِلَّا أَنْ تَتَقَدَّمَ مَشِيئَتُهُ ، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ أَيْ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ فَيُيَسِّرُهَا لَهُ وَيُقَيِّضُ لَهُ أَسْبَابَهَا، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغَوَايَةَ فَيَصْرِفُهُ عَنِ الْهُدَىٰ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ، وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ قَالَ أَبُو السُّعُودِ: بَيَانٌ لِإِحْكَامِ مَشِيئَتِهِ تَعَالَىٰ الْمُتَرَتِّبَةِ عَلَىٰ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ ، ﴿وَالظَّالِمِينَ أعدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أَيْ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يشاء، فمن يَهْدِهِ ، فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ له.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْإِنْسَانِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ عِنْدَ الْجُمْهُورِ ، وَعَنْ كُرَيْبٍ مَوْلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَرَأْتُ سُورَةَ وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا فَسَمِعَتْنِي أُمُّ الْفَضْلِ امْرَأَةُ الْعَبَّاسِ، فَبَكَتْ وَقَالَتْ: وَاللهِ يَا بُنَيَّ لَقَدْ أَذْكَرْتَنِي بِقِرَاءَتِك هَذِهِ السُّورَةَ إِنَّهَا لَآخِرُ مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ بِهَا فِي صَلَاةِ الْمَغْرِبِ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ- قَالَ: « بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي غَارٍ بِمِنًىٰ، إِذْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾، فَإِنَّهُ لَيَتْلُوهَا وَإِنِّي لَأَتَلَقَّاهَا مِنْ فِيهِ، وَإِنَّ فَاهُ لَرَطْبٌ بِهَا، إِذْ وَثَبَتْ عَلَيْنَا حَيَّةٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **اقْتُلُوهَا**، فَابْتَدَرْنَاهَا فَذَهَبَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **وُقِيَتْ شَرَّكُمْ ، كَمَا وُقِيتُمْ شَرَّهَا**»[(١)].

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ يَعْنِي الرِّيَاحَ أُرْسِلَتْ مُتَتَابِعَةً كَعُرْفِ الْفَرَسِ. وَقِيلَ: عُرْفًا أَيْ كَثِيرًا، تَقُولُ الْعَرَبُ: النَّاسُ إِلَىٰ فُلَانٍ عُرْفٌ وَاحِدٌ، إِذَا تَوَجَّهُوا إِلَيْهِ فَأَكْثَرُوا.

---

(١) البخاري (٤٩٣٤) ومسلم (٢٢٣٤) .

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ يَعْنِي الرِّيَاحَ الشَّدِيدَةَ الْهُبُوبِ. ، يُقَالُ: عَصَفَ بِالشَّيْءِ أَيْ أَبَادَهُ وَأَهْلَكَهُ، وَنَاقَةٌ عَصُوفٌ أَيْ تَعْصِفُ بِرَاكِبِهَا، فَتَمْضِي كَأَنَّهَا رِيحٌ فِي السُّرْعَةِ، وَعَصَفَتِ الْحَرْبُ بِالْقَوْمِ أَيْ ذَهَبَتْ بِهِمْ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾ يَعْنِي الرِّيَاحَ اللَّيِّنَةَ ، وَقَالَ الْحَسَنُ: هي الرِّيَاحَ اللَّيِّنَةَ ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: هِيَ الرِّيَاحُ الَّتِي يُرْسِلُهَا اللهُ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ، وَقِيلَ: هِيَ الرِّيَاحُ الَّتِي تَنْشُرُ السَّحَابَ وَتَأْتِي بِالْمَطَرِ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ تَأْتِي بِمَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَالْحَسَنُ البصري: هِيَ آيُ الْقُرْآنِ تُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ .

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ تُلْقِي الذِّكْرَ إِلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ، نَظِيرُهَا: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [غَافِرٍ: ١٥] .

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ أَيْ لِلْإِعْذَارِ وَالْإِنْذَارِ، قَالَ قَتَادَةُ: عُذْرًا مِنَ اللهِ، وَنُذْرًا مِنْهُ إِلَىٰ خَلْقِهِ، وَالْمَقْصُودُ: إِرْسَالُ الْمَلَائِكَةِ إِعْذَارٌ مِنَ اللهِ إِلَىٰ الْخَلْقِ، وَإِنْذَارٌ لَهُمْ عِقَابَهُ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَهُ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ مِنْ أَمْرِ السَّاعَةِ وَالْبَعْثِ، ﴿لَوَاقِعٌ﴾ لَكَائِنٌ ثُمَّ ذَكَرَ مَتَىٰ يَقَعُ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ أَيْ مَا وُعِدْتُمْ بِهِ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ وَالنَّفْخِ فِي الصُّوَرِ وَبَعْثِ الْأَجْسَادِ وَجَمْعِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ فِي

صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَمُجَازَاةِ كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، إِنَّ هَذَا كُلَّهُ لَوَاقِعٌ أَيْ لَكَائِنٌ لَا مَحَالَةَ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أَيْ ذَهَبَ ضَوْءُهَا وَمُحِيَ نُورُهَا كَطَمْسِ الْكِتَابِ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ أَيْ فُتِحَتْ وَشُقَّتْ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ قُلِعَتْ مِنْ أَمَاكِنِهَا ، يُقَالُ: نَسَفْتُ الشَّيْءَ وَأَنْسَفْتُهُ: إِذَا أَخَذْتُهُ كُلَّهُ بِسُرْعَةٍ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ جُمِعَتْ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لِيَشْهَدُوا عَلَىٰ الْأُمَمِ ، فَالْمَعْنَىٰ: جُعِلَ لَهَا وَقْتٌ وَأَجَلٌ لِلْفَصْلِ وَالْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأُمَمِ،

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ أَيْ أُخِّرَتْ، وَضَرَبَ الْأَجَلَ لِجَمْعِهِمْ فَعَجِبَ الْعِبَادُ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ، ثُمَّ بَيَّنَ فَقَالَ:

[١٣] : ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يوم فصل الرحمن بَيْنَ الْخَلَائِقِ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَهَذَا تَعْظِيمٌ لِذَلِكَ الْيَوْمِ فَهُوَ اسْتِفْهَامٌ عَلَىٰ التَّعْظِيمِ ، أَيْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ أُجِّلَتْ .

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ وَعِيدٌ أَكِيدٌ، وَتَهْدِيدٌ شَدِيدٌ، يَحْمِلُ فِي مَفْهُومِهِ ثَبَاتَ الْهَلَاكِ وَدَوَامَهُ لِلْمَدْعُوِّ عَلَيْهِمْ، وَالْوَيْلُ: أَشَدُّ السُّوءِ وَالشَّرِّ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : كَرَّرَهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ لِمَنْ كَذَّبَ، لِأَنَّهُ قَسَمَهُ

بَيْنَهُمْ عَلَىٰ قَدْرِ تَكْذِيبِهِمْ، فَإِنَّ لِكُلِّ مُكَذِّبٍ بِشَيْءٍ عَذَابًا سِوَىٰ تكذيبه بشيء آخر، ورب شي كَذَّبَ بِهِ هُوَ أَعْظَمُ جُرْمًا مِنْ تَكْذِيبِهِ بِغَيْرِهِ، لِأَنَّهُ أَقْبَحُ فِي تَكْذِيبِهِ، وَأَعْظَمُ فِي الرَّدِّ عَلَىٰ اللهِ، فَإِنَّمَا يُقْسَمُ لَهُ مِنَ الْوَيْلِ عَلَىٰ قَدْرِ ذَلِكَ، وَعَلَىٰ قَدْرِ وِفَاقِهِ وهو قوله: ﴿جَزاءً وِفاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]، وَرُوِيَ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: وَيْلٌ: وَادٍ فِي جَهَنَّمَ فِيهِ أَلْوَانُ الْعَذَابِ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ يَعْنِي الْأُمَمَ الْمَاضِيَةَ بِالْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا حِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ السَّالِكِينَ سَبِيلَهُمْ فِي الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ، يَعْنِي كُفَّارَ مَكَّةَ بِتَكْذِيبِهِمْ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ بِقَوْلِهِ:

[١٨] : ﴿كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ يُرِيدُ مَنْ يُهْلَكُ فِيمَا بَعْدُ، أَيْ مِثْلَ ذَلِكَ الْهَلَاكِ نَفْعَلُهُ بِكُلِّ مُشْرِكٍ ، ثُمَّ قِيلَ: مَعْنَاهُ التَّهْوِيلُ لِهَلَاكِهِمْ فِي الدُّنْيَا اعْتِبَارًا، وَقِيلَ: هُوَ إخبار بعذابهم في الآخرة.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ﴾ أَيْ ضَعِيفٍ حَقِيرٍ وَهُوَ النُّطْفَةُ .

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ﴾ أَيْ فِي مَكَانٍ حَرِيزٍ وَهُوَ الرَّحِمُ. قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: يَعْنِي: جَمَعْنَاهُ فِي الرَّحِمِ، وَهُوَ قَرَارُ الْمَاءِ مِنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ، وَالرَّحِمُ مُعَدٌّ لِذَلِكَ، حَافِظٌ لِمَا أُودِعَ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ،

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: إِلَىٰ أَنْ نُصَوِّرَهُ ، وَقِيلَ: إِلَىٰ وَقْتِ الْوِلَادَةِ .

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ : أَيْ: قَدَّرْنَا وَدَبَّرْنَا ذَلِكَ الْجَنِينَ، فِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَنَقَلْنَاهُ مِنَ النُّطْفَةِ إِلَىٰ الْعَلَقَةِ، إِلَىٰ الْمُضْغَةِ، إِلَىٰ أَنْ جَعَلَهُ اللهُ جَسَدًا، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُوتُ قَبْلَ ذَلِكَ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: يَعْنِي: جَمَعْنَاهُ فِي الرَّحِمِ، وَهُوَ قَرَارُ الْمَاءِ مِنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ، وَالرَّحِمُ مُعَدٌّ لِذَلِكَ، حَافِظٌ لِمَا أُودِعَ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ وِعَاءً، وَمَعْنَىٰ الْكَفْتِ: الضَّمُّ وَالْجَمْعُ، يُقَالُ: كَفَتَ الشَّيْءَ إِذَا ضَمَّهُ وَجَمَعَهُ، وَقَالَ الفَرَّاءُ: يُرِيدُ تَكْفِتُهُمْ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَحْيَاءً﴾ عَلَىٰ ظَهْرِهَا فِي دُورِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ وَتَكْفِتُهُمْ ﴿أَمْوَاتًا﴾ في بطنها، وَخَرَجَ الشَّعْبِيُّ فِي جِنَازَةٍ فَنَظَرَ إِلَىٰ المقبرة ، فَقَالَ: هَذِهِ كِفَاتُ الْأَمْوَاتِ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَىٰ الْبُيُوتِ فَقَالَ: هذه كِفَاتُ الأحياء.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ، ﴿شَامِخَاتٍ﴾ عاليات، وَالرَّوَاسِي الثَّوَابِتُ، وَالشَّامِخَاتُ الطِّوَالُ، وَمِنْهُ يُقَالُ: شَمَخَ بِأَنْفِهِ إِذَا رَفَعَهُ كِبْرًا، ﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ عذبـًا ، أَيْ وَجَعَلْنَا لَكُمْ سَقْيًا، وَالْفُرَاتُ: الْمَاءُ الْعَذْبُ يُشْرَبُ وَيُسْقَىٰ مِنْهُ الزَّرْعُ، أَيْ خَلَقْنَا الْجِبَالَ وَأَنْزَلْنَا الْمَاءَ الْفُرَاتَ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: وَهَذَا كُلُّهُ أَعْجَبُ من البعث الذي تكذبون به، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا ، أَيْ يُقَالُ لِلْكُفَّارِ سِيرُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ مِنَ الْعَذَابِ يَعْنِي النَّارَ، فَقَدْ شَاهَدْتُمُوهَا عِيَانًا.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ يَعْنِي دُخَانَ جَهَنَّمَ إِذَا ارْتَفَعَ انْشَعَبَ وَافْتَرَقَ ثَلَاثَ فِرَقٍ. ثُمَّ وَصَفَ ذَلِكَ الظِّلَّ فقال:

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا ظَلِيلٍ﴾ يُظِلُّ مِنَ الْحَرِّ ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ: لَا يَرُدُّ لَهَبَ جَهَنَّمَ عَنْكُمْ، وَالْمَعْنَىٰ أَنَّهُمْ إِذَا اسْتَظَلُّوا بِذَلِكَ الظِّلِّ لَمْ يَدْفَعْ عَنْهُمْ حَرَّ اللَّهَبِ ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَفِي الْحَدِيثِ: « **إِنَّ الشَّمْسَ تدنو من رءوس الْخَلَائِقِ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ لِبَاسٌ ، وَلَا لَهُمْ أَكْفَانٌ فَتَلْحَقُهُمُ الشَّمْسُ وَتَأْخُذُ بِأَنْفَاسِهِمْ وَمُدَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ، ثُمَّ يُنَجِّي اللهُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ ظِلٍّ مِنْ ظِلِّهِ فَهُنَالِكَ يَقُولُونَ:** ﴿فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور:

٢٧]»[1]، وَيُقَالُ لِلْمُكَذِّبِينَ: انْطَلِقُوا إِلىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ مِنْ عَذَابِ اللهِ وَعِقَابِهِ انْطَلِقُوا إِلىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ ، فَيَكُونُ أَوْلِيَاءُ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ فِي ظِلِّ عَرْشِهِ أَوْ حَيْثُ شَاءَ مِنَ الظِّلِّ، إِلَىٰ أَنْ يُفْرَغَ مِنَ الْحِسَابِ ثُمَّ يُؤْمَرُ بِكُلِّ فَرِيقٍ إِلَىٰ مُسْتَقَرِّهِ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ وَصَفَ النَّارَ فَقَالَ

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهَا﴾ يعني جهنم، ﴿تَرْمِي بِشَرَرٍ﴾ وَهُوَ مَا تَطَايَرَ مِنَ النَّارِ، واحدها شررة ، وَهُوَ مَا تَطَايَرَ مِنَ النَّارِ فِي كُلِّ جِهَةٍ، وَأَصْلُهُ مِنْ شَرَرْتُ الثَّوْبَ إِذَا بَسَطْتُهُ لِلشَّمْسِ لِيَجِفَّ ، ﴿كَالْقَصْرِ﴾ وَهُوَ الْبِنَاءُ الْعَظِيمُ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: يَعْنِي الْحُصُونَ ، وقال الضحاك : أُصُولُ الشَّجَرِ وَالنَّخْلِ الْعِظَامِ إِذَا وَقَعَ وَقَطَعَ.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ تَأْوِيلٍ :

التَّأْوِيلُ الْأَوَّلُ: قِيلَ الْمُرَادُ بِهِ الْإِبِلُ السُّودُ، ذَكَرَهُ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ .

التَّأْوِيلُ الثَّانِي: قِيلَ بَلِ الْمُرَادُ قِطَعُ النُّحَاسِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ .

التَّأْوِيلُ الثَّالِثُ: قِيلَ بَلِ الْمُرَادُ بِهِ حِبَالُ السُّفُنِ، ذَكَرَهُ مُجَاهِدٌ.

جَمْعُ الْأَصْفَرِ، يَعْنِي لَوْنَ النَّارِ، وَقِيلَ: الصُّفْرُ مَعْنَاهُ السُّودُ لِأَنَّهُ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «**إِنَّ شَرَرَ نَارِ جَهَنَّمَ أَسْوَدُ كَالْقِيرِ**» ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي سُودَ الْإِبِلِ صُفْرًا

---

(١) الحاكم (٨٧١٧) .

لِأَنَّهُ يَشُوبُ سَوَادَهَا شَيْءٌ مِنْ صُفْرَةٍ كَمَا يُقَالُ لِبَيْضِ الظِّبَاءِ: أُدْمٌ، لِأَنَّ بَيَاضَهَا يَعْلُوهُ كُدْرَةٌ.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ .

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ﴾ أَيْ لَا يَتَكَلَّمُونَ فِي القيامة لأن فيها مَوَاقِفُ، فَفِي بَعْضِهَا يَخْتَصِمُونَ وَيَتَكَلَّمُونَ، وَفِي بَعْضِهَا يُخْتَمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ فَلَا يَنْطِقُونَ. قَالَ الْحَسَنُ: لَا يَنْطِقُونَ بِحُجَّةٍ وَإِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ. وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ: أَسْكَتَتْهُمْ رُؤْيَةُ الْهَيْبَةِ وَحَيَاءُ الذُّنُوبِ.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ قَالَ الْجُنَيْدُ: أَيْ لَا عُذْرَ لِمَنْ أَعْرَضَ عَنْ مُنْعِمِهِ وَكَفَرَ بِأَيَادِيهِ وَنِعَمِهِ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ .

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَبَيَّنُ الْمُحِقُّ مِنَ الْمُبْطِلِ، ﴿جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ يَعْنِي مُكَذِّبِي هَذِهِ الْأُمَّةِ وَالْأَوَّلِينَ الذين كانوا أَنْبِيَاءَهُمْ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: جَمَعَ الَّذِينَ كَذَّبُوا مُحَمَّدًا وَالَّذِينَ كَذَّبُوا النَّبِيِّينَ مِنْ قَبْلِهِ ، وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ كُنْتُمْ فِي الدُّنْيَا تُحَارِبُونَ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتُحَارِبُونَنِي فَالْيَوْمَ حَارِبُونِي ، وَقِيلَ: أَيْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ فِي الدُّنْيَا تَعْمَلُونَ بِالْمَعَاصِي وَقَدْ عَجَزْتُمُ الْآنَ عَنْهَا وَعَنِ الدَّفْعِ عَنْ أَنْفُسِكُمْ. وَقِيلَ: إِنَّهُ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَكُونُ كَقَوْلِ هود: فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: إِنْ كَانَتْ لَكُمْ حيلة فاحتلوا لِأَنْفُسِكُمْ ، وَقِيلَ: أَيْ فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ أَيْ قدرتم علىٰ حرب فَكِيدُونِ أَيْ حَارِبُونِي، وَقِيلَ: أَيْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ فِي الدُّنْيَا تَعْمَلُونَ بِالْمَعَاصِي وَقَدْ عَجَزْتُمُ الْآنَ عَنْهَا وَعَنِ الدَّفْعِ عَنْ أَنْفُسِكُمْ ، عن عبادة بن الصامت أنه قال: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جَمَعَ اللهُ الْأَوَّلِينَ والآخرين في صعيد واحد ينفذهم وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَقُولُ اللهُ:

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ .

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ﴾ جَمْعُ ظِلٍّ أَيْ فِي ظِلَالِ الشجر، ﴿وَعُيُونٍ﴾ الْمَاءُ ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ: إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا عِقَابَ اللهِ بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ فِي الدُّنْيَا، وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ ، ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ ظَلِيلَةٍ، وَكِنٍّ كَنِينٍ، لَا يُصِيبُهُمْ أَذَىٰ حَرٍّ وَلَا قُرٍّ، إِذْ كَانَ الْكَافِرُونَ بِاللهِ فِي ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ، لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ، ﴿وَعُيُونٍ﴾ أَنْهَارٍ تَجْرِي خِلَالَ أَشْجَارِ جَنَّاتِهِمْ،

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي ومن سَائِرِ أَنْوَاعِ الثِّمَارِ مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا وَيُقَالُ لَهُمْ:

[٤٣] : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا بِطَاعَتِي.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيْ نُثِيبُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي تَصْدِيقِهِمْ بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأعمالهم في الدنيا.

[٤٥] : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ثُمَّ قَالَ لِكُفَّارِ مَكَّةَ:

[٤٦] : ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا﴾ في الدنيا، ﴿إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾ مُشْرِكُونَ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُسْتَحِقُّونَ للعذاب.

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ .

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا﴾ يعني صلوا، مَعَ الْجَمَاعَةِ امْتَنَعُوا مِنْ ذلك واستكبروا عنه ، ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ لَا يُصَلُّونَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمَا: إِنَّمَا يُقَالُ لَهُمْ هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ، وَيُذْكَرُ أَنَّ مَالِكًا رَحِمَهُ اللهُ دَخَلَ الْمَسْجِدَ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ، وَهُوَ مِمَّنْ لَا يَرَىٰ الرُّكُوعَ بَعْدَ الْعَصْرِ، فَجَلَسَ وَلَمْ يَرْكَعْ، فَقَالَ لَهُ صَبِيٌّ: يَا شَيْخُ قُمْ فَارْكَعْ. فَقَامَ فَرَكَعَ وَلَمْ يُحَاجَّهُ بِمَا يَرَاهُ مَذْهَبًا، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الَّذِينَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ أي بعد القرآن، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَكُرِّرَ: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ لِمَعْنَىٰ تَكْرِيرِ التَّخْوِيفِ وَالْوَعِيدِ ، وَقِيلَ: لَيْسَ بِتَكْرَارٍ، لِأَنَّهُ أَرَادَ بِكُلِّ قَوْلٍ مِنْهُ غَيْرَ الَّذِي أَرَادَ بِالْآخَرِ، كَأَنَّهُ ذَكَرَ شَيْئًا فَقَالَ: وَيْلٌ لِمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا، ثُمَّ ذَكَرَ شَيْئًا آخَرَ فَقَالَ: وَيْلٌ لِمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا ، ثُمَّ ذَكَرَ شَيْئًا آخَرَ فَقَالَ: وَيْلٌ لِمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا. ثُمَّ كَذَلِكَ إِلَىٰ آخرها.

سُورَةُ النَّبَإِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ ، ويروىٰ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَا يَقْتَضِي أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ فِي أَوَّلِ الْبَعْثِ، رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «كَانَتْ قُرَيْشٌ تَجْلِسُ لَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ ، فَتَتَحَدَّثُ فِيمَا بَيْنَهَا ، فَمِنْهُمُ الْمُصَدِّقُ وَمِنْهُمُ الْمُكَذِّبُ بِهِ» ، فَنَزَلَتْ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عَمَّ لَفْظُ اسْتِفْهَامٍ، وَلِذَلِكَ سَقَطَتْ مِنْهَا أَلِفُ (مَا)، لِيَتَمَيَّزَ الْخَبَرُ عَنِ الِاسْتِفْهَامِ ، وَالْمَعْنَىٰ: أَيْ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ يَتَسَاءَلُونَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ، وَهُوَ النَّبَأُ الْعَظِيمُ: يَعْنِي الْخَبَرَ الهائل الفظيع الباهر ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ تَسَاؤُلَهُمْ عَمَّاذَا فقال:

[٢] : ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ النَّبَأُ: الْخَبَرُ، قَالَ الرَّاغِبُ: النَّبَأُ الْخَبَرُ ذُو الْفَائِدَةِ الْعَظِيمَةِ يَحْصُلُ بِهِ عِلْمٌ أَوْ غَلَبَةُ ظَنٍّ وَلَا يُقَالُ لِلْخَبَرِ نَبَأٌ حَتَّىٰ يَتَضَمَّنَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الثَّلَاثَةَ وَيَكُونَ صَادِقًا، قال قتادة: النَّبَأُ الْعَظِيمُ: الْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ الْقُرْآنُ، وَالْأَظْهَرُ الْأَوَّلُ، لِقَوْلِهِ:

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ أَيْ يُخَالِفُ فِيهِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَيُصَدِّقُ وَاحِدٌ وَيُكَذِّبُ آخَرُ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ كَلَّا نَفْيٌ يَقُولُ: هُمْ سَيَعْلَمُونَ عَاقِبَةَ تَكْذِيبِهِمْ حِينَ تَنْكَشِفُ الْأُمُورُ.

[٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ وَعِيدٌ لَهُمْ عَلَىٰ إِثْرِ وَعِيدٍ، ثُمَّ ذَكَرَ صَنَائِعَهُ لِيَعْلَمُوا تَوْحِيدَهُ، فَقَالَ:

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ فراشـًا، وَالْمِهَادُ: الْوِطَاءُ وَالْفِرَاشُ، وَمَعْنَاهُ أَنَّهَا لَهُمْ كَالْمَهْدِ لِلصَّبِيِّ وَهُوَ مَا يُمَهَّدُ لَهُ فَيُنَوَّمُ عَلَيْهِ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أَيْ لِتَسْكُنَ وَلَا تَتَكَفَّأَ وَلَا تَمِيلَ بِأَهْلِهَا. وَالْوَتَدُ: عُودٌ غَلِيظٌ شَيْئًا، أَسْفَلُهُ أَدَقُّ مِنْ أَعْلَاهُ يُدَقُّ فِي الْأَرْضِ لِتُشَدَّ بِهِ أَطْنَابُ الْخَيْمَةِ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أَصْنَافًا ذُكُورًا وَإِنَاثًا. وَقِيلَ: يَدْخُلُ فِي هَذَا كُلُّ زَوْجٍ مِنْ قَبِيحٍ وَحَسَنٍ، وَطَوِيلٍ وَقَصِيرٍ، لِتَخْتَلِفَ الْأَحْوَالُ فَيَقَعُ الِاعْتِبَارُ، فَيَشْكُرُ الْفَاضِلُ وَيَصْبِرُ الْمَفْضُولُ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي راحة لأبدانكم، وجَعَلْنا مَعْنَاهُ صَيَّرْنَا، وَمِنْهُ يَوْمُ السَّبْتِ أَيْ يَوْمَ الرَّاحَةِ، أَيْ قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: اسْتَرِيحُوا فِي هَذَا الْيَوْمِ، فَلَا تَعْمَلُوا فِيهِ شَيْئًا، وَأَنْكَرَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ هَذَا وَقَالَ: لَا يُقَالُ لِلرَّاحَةِ سُبَاتٌ، وَقِيلَ: أَصْلُهُ التَّمَدُّدُ، يُقَالُ: سَبَتَتِ الْمَرْأَةُ شَعْرَهَا: إِذَا حَلَّتْهُ وَأَرْسَلَتْهُ،

فَالسُّبَاتُ كَالْمَدِّ، وَرَجُلٌ مَسْبُوتُ الْخَلْقِ: أَيْ مَمْدُودٌ. وَإِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَسْتَرِيحَ تَمَدَّدَ، فَسُمِّيَتِ الرَّاحَةُ سَبْتًا.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ غِطَاءً وَغِشَاءً يَسْتُرُ كُلَّ شَيْءٍ بظلمته. وَقال السُّدِّيُّ: أَيْ سَكَنًا لَكُمْ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ الْمَعَاشُ: الْعَيْشُ وَهُوَ كُلُّ مَا يُعَاشُ بِهِ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، أَيْ جَعَلْنَا منها سَبَبًا لِلْمَعَاشِ وَالتَّصَرُّفِ فِي الْمَصَالِحِ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أَيْ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ مُحْكَمَاتٍ، أَيْ مُحْكَمَةَ الْخَلْقِ وَثِيقَةَ الْبُنْيَانِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ، وَالصَّلَابَةِ وَالشِّدَّةِ، وَقَدْ أَمْسَكَهَا اللهُ بِقُدْرَتِهِ، وَجعَلَهَا سَقْفًا لِلْأَرْضِ، فِيهَا عِدَّةُ مَنَافِعَ لَهُمْ، وَلِهَذَا ذَكَرَ مِنْ مَنَافِعِهَا الشَّمْسَ فَقَالَ:

[١٣] : ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا﴾ يعني الشمس، ﴿وَهَّاجًا﴾ مضيئًا منيراً، وَالْوَهَّاجُ الَّذِي لَهُ وَهَجٌ وَيُقَالُ لِلْجَوْهَرِ إِذَا تَلَأْلَأَ تَوَهَّجَ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَهَّاجًا مُنِيرًا مُتَلَأْلِئًا.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ يَعْنِي الرِّيَاحَ الَّتِي تَعْصِرُ السَّحَابَ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: الْمُعْصِرَاتُ هِيَ السَّحَابُ ، وَقَالَ سُفْيَانُ وَالرَّبِيعُ: أَيِ السَّحَائِبُ الَّتِي تَنْعَصِرُ بِالْمَاءِ وَلَمَّا تُمْطِرْ بَعْدُ، كَالْمَرْأَةِ الْمُعصِرِ الَّتِي قَدْ دَنَا حَيْضُهَا وَلَمْ تَحِضْ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : فَالرِّيَاحُ تُسَمَّىٰ مُعْصِرَاتٍ، يُقَالُ: أَعْصَرَتِ

الرِّيحُ تُعْصِرُ إِعْصَارًا: إِذَا أَثَارَتِ الْعَجَاجُ، وَهِيَ الْإِعْصَارُ، وَالسُّحُبُ أَيْضًا تُسَمَّىٰ الْمُعْصِرَاتِ لِأَنَّهَا تُمْطِرُ، ﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾ صَبَّابًا مُتَتَابِعًا ، وَقَالَ قَتَادَةُ: مُتَتَابِعًا يَتْلُو بَعْضُهُ بعضا. وَالثَّجَّاجُ فِي الْآيَةِ الْمُنْصَبُّ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: أَيِ الصَّبَّابُ، وَهُوَ مُتَعَدٍّ كَأَنَّهُ يَثُجُّ: نَفْسَهُ أَيْ يَصُبُّ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ﴾ أي بذلك الماء، ﴿حَبًّا﴾ وَهُوَ مَا يَأْكُلُهُ النَّاسُ،كَالْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَنَباتـًا مِنَ الْأَبِّ ﴿وَنَبَاتًا﴾ مَا تُنْبِتُهُ الْأَرْضُ مِمَّا تَأْكُلُهُ الأنعام مِنَ الحشيش.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ أَيْ مُلْتَفَّةً بَعْضُهَا بِبَعْضٍ لِتَشَعُّبِ أَغْصَانِهَا، ثُمَّ هَذَا الِالْتِفَافُ وَالِانْضِمَامُ مَعْنَاهُ أَنَّ الْأَشْجَارَ فِي الْبَسَاتِينِ تَكُونُ مُتَقَارِبَةً ، فَالْأَغْصَانُ من كل شجرة متقاربة لقوتها.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ يَوْمَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْخَلْقِ، وَسُمِّيَ يَوْمَ الْفَصْلِ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَفْصِلُ فِيهِ بَيْنَ خَلْقِهِ ﴿كَانَ مِيقَاتًا﴾ أَيِ وَقْتًا وَمَجْمَعًا وَمِيعَادًا لِلْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، لِمَا وَعَدَ اللهُ مِنَ الْجَزَاءِ وَالثَّوَابِ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ الصُّورُ: قَرْنٌ ، قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أَفْوَاجًا﴾: زُمَرًا زُمَرًا، وَالْمَقْصُودُ ابْتِدَاءُ يَوْمِ الْفَصْلِ بِالنَّفْخِ فِي الصُّورِ، فَإِذَا جَمِيعُ الْخَلَائِقِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ يَجِيئُونَ زُمَرًا زُمَرًا، وَجَمَاعَةً جَمَاعَةً، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَإِنَّمَا قِيلَ: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ لِأَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ أَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهَا رَسُولًا تَأْتِي مَعَ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْهَا، أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ

رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدِ الْتَقَمَهُ وَأَصْغَىٰ سَمْعَهُ وَحَنَىٰ جَبْهَتَهُ يَنْتَظِرُ مَتَىٰ يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ**؟ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: قُولُوا: **حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**»(١) .

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ﴾ أَيْ شُقَّتْ لِنُزُولِ الْمَلَائِكَةِ، ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ أَيْ ذَاتَ أَبْوَابٍ، وَقِيلَ: تَنْحَلُّ وتتناثر حتىٰ تصير فيها أبوابا وطرقا.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ، ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أَيْ هَبَاءً مُنْبَثًّا لِعَيْنِ النَّاظِرِ كَالسَّرَابِ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ طَرِيقًا وَمَمَرًّا فَلَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ إِلَىٰ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ يَقْطَعَ النَّارَ، وَقِيلَ: كَانَتْ مِرْصَادًا أَيْ مُعَدَّةً لهم، وَقِيلَ: هُوَ مَنْ رَصَدْتُ الشَّيْءَ أرصده إذا ترقبته، والمرصاد فِيهِ الْعَدُوَّ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أَيْ تَرْصُدُ الْكُفَّارَ، وَقِيلَ: طَرِيقًا وَمَمَرًّا، فَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ يَقْطَعَ جَهَنَّمَ ، وَفِي الصِّحَاحِ: وَالْمِرْصَادُ: الطَّرِيقُ ، وَذَكَرَ الْقُشَيْرِيُّ: أَنَّ الْمِرْصَادَ الْمَكَانُ الَّذِي يَرْصُدُ فِيهِ الْوَاحِدُ الْعَدُوَّ، نَحْوَ الْمِضْمَارِ: الْمَوْضِعُ الَّذِي تُضْمَرُ فِيهِ الْخَيْلُ ، أَيْ هِيَ مُعَدَّةٌ لَهُمْ، فَالْمِرْصَادُ بِمَعْنَىٰ الْمَحَلِّ، فَالْمَلَائِكَةُ يَرْصُدُونَ الْكُفَّارَ حَتَّىٰ يَنْزِلُوا بِجَهَنَّمَ.

---

(١) أحمد (١١٠٠٥) والترمذي (٢٤٣١) .

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِلطَّاغِينَ﴾ للكافرين، ﴿مَآبًا﴾ مرجعا يرجعون إليه، وَقَالَ قَتَادَةُ: مَأْوًىٰ وَمَنْزِلًا.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ جَمْعُ حِقْبٍ، وَالْحِقْبُ الْوَاحِدُ: ثَمَانُونَ سَنَةً، قَالَ الْحَسَنُ البصري: إِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ لِأَهْلِ النَّارِ مُدَّةً، بَلْ قَالَ: ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا إِذَا مَضَىٰ حِقَبٌ دَخَلَ آخَرُ ثُمَّ آخَرُ إِلَىٰ الْأَبَدِ، فَلَيْسَ لِلْأَحْقَابِ عِدَّةٌ إِلَّا الخلود.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ قال عَطَاءٌ: لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بردا أي روحا وراحة، قال مُقَاتِلٌ: لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا يَنْفَعُهُمْ مِنْ حَرٍّ وَلَا شَرَابًا يَنْفَعُهُمْ مِنْ عَطَشٍ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: والبرد عند العرب يَعْنِي النَّوْمَ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: مَنَعَ الْبَرْدُ الْبَرْدَ، يَعْنِي: أَذْهَبَ الْبَرْدُ النَّوْمَ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ الْحَمِيمُ: الْمَاءُ الْحَارُّ، قَالَ النَّحَّاسُ: أَصْلُ الْحَمِيمِ: الْمَاءُ الْحَارُّ، وَمِنْهُ اشْتُقَّ الْحَمَّامُ، وَمِنْهُ الْحُمَّىٰ والْغَسَّاقُ: الزَّمْهَرِيرُ يَحْرِقُهُمْ بِبَرْدِهِ، وَقِيلَ: صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ أَيْ مُوَافِقًا لِأَعْمَالِهِمْ.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ لَا يَخَافُونَ أَنْ يُحَاسَبُوا، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُمْ كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ ولا بأنهم يحاسبون.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي بما جاء به الأنبياء، ﴿كِذَّابًا﴾ يعني تكذيبا.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ أَيْ وَكُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْأَعْمَالِ بيناه في اللوح المحفوظ.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَذُوقُوا﴾ أَيْ يُقَالُ لَهُمْ فَذُوقُوا، ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: لَمْ يُنْزِلِ اللهُ عَلَىٰ أَهْلِ النَّارِ آيَةً أَشَدَّ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ فَهُمْ فِي مَزِيدٍ مِنَ الْعَذَابِ أَبَدًا.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ فوز وَنَجَاةً مِنَ النَّارِ، قَالَ الضَّحَّاكُ: متنزها، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : ذَكَرَ جَزَاءَ مَنِ اتَّقَىٰ مُخَالَفَةَ أَمْرِ اللهِ مَفازاً مَوْضِعُ فَوْزٍ وَنَجَاةٍ وَخَلَاصٍ مِمَّا فِيهِ أَهْلُ النَّارِ، وَلِذَلِكَ قِيلَ لِلْفَلَاةِ إِذَا قَلَّ مَاؤُهَا: مَفَازَةٌ، تَفَاؤُلًا بِالْخَلَاصِ مِنْهَا.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ هَذَا تَفْسِيرُ الْفَوْزِ. يُرِيدُ أَشْجَارَ الْجَنَّةِ وَثِمَارَهَا، و حَدَائِقَ، جَمْعُ حَدِيقَةٍ، وَهِيَ الْبُسْتَانُ الْمَحُوطُ عَلَيْهِ، يُقَالُ أَحْدَقَ بِهِ: أَيْ أَحَاطَ.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ جَوَارِيَ نَوَاهِدَ قَدْ تَكَعَّبَتْ ثُدِيُّهُنَّ، واحدتها كاعب، ﴿أَتْرَابًا﴾ مُسْتَوِيَاتٍ فِي السِّنِّ.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مُتْرَعَةً مَمْلُوءَةً. يُقَالُ: أَدْهَقْتُ الْكَأْسَ: أَيْ مَلَأْتُهَا، وَكَأْسٌ دِهَاقٌ أَيْ مُمْتَلِئَةٌ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: مُتَتَابِعَةً يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا، قَالَ عِكْرِمَةُ: صَافِيَةً، قال القشيري : وَالْمُرَادُ بِالْكَأْسِ الْخَمْرُ، فَالتَّقْدِيرُ: خَمْرًا ذَاتَ دِهَاقٍ، أَيْ عُصِرَتْ وَصُفِّيَتْ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ بَاطِلًا مِنَ الْكَلَامِ، ﴿وَلَا كِذَّابًا﴾ تَكْذِيبًا، لَا يُكَذِّبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ أَيْ جَازَاهُمْ جَزَاءً وَأَعْطَاهُمْ عَطَاءً حِسَابًا أَيْ كَافِيًا وَافِيًا، قَالَ الْكَلْبِيُّ: حَاسَبَهُمْ فَأَعْطَاهُمْ بِالْحَسَنَةِ عَشْرًا. يُقَالُ: أَحْسَبْتُ فُلَانًا أَيْ أَعْطَيْتُهُ مَا يكفيه حتىٰ قال حسبي.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ﴾ أَيْ: الَّذِي أَعْطَاهُمْ هَذِهِ الْعَطَايَا هُوَ رَبُّهُمْ ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الَّذِي خَلَقَهَا وَدَبَّرَهَا ﴿الرَّحْمَنِ﴾ الَّذِي رَحْمَتُهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، فَرَبَّاهُمْ وَرَحِمَهُمْ، وَلَطَفَ بِهِمْ، حَتَّىٰ أَدْرَكُوا مَا أَدْرَكُوا، ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: لَا يَقْدِرُ الْخَلْقُ عَلَىٰ أَنْ يُكَلِّمُوا الرَّبَّ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: لَا يَمْلِكُونَ شَفَاعَةً إِلَّا بِإِذْنِهِ. وَقِيلَ: الْخِطَابُ: الْكَلَامُ، أَيْ لَا يَمْلِكُونَ أَنْ يُخَاطِبُوا الرَّبَّ سُبْحَانَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، دَلِيلُهُ: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥].

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ أَيْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ وَاخْتَلَفُوا فِي هَذَا الرُّوحِ، قَالَ الشَّعْبِيُّ وَالضَّحَّاكُ: هُوَ جِبْرِيلُ ، وَهُنَاكَ أَقْوَالٌ غَرِيبَةٌ عَجِيبَةٌ عِنْدَ الْمُفَسِّرِينَ فِي تَفْسِيرِ الرُّوحِ لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا. قُلْتُ: وَإِنَّمَا خَصَّهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِالْإِفْرَادِ بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْمَلَائِكَةِ لِشَرَفِهِ فِيهِمْ ، وَالْمَقْصُودُ: يَقِفُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْمَلَائِكَةُ الْكِرَامُ فِي ذَلِكَ الْمَشْهَدِ

الْمَهِيبِ مُصْطَفِّينَ صَامِتِينَ لَا يَتَكَلَّمُونَ ، ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ فِي الدُّنْيَا، أَيْ حَقًّا وَقِيلَ: قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ .

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ الْكَائِنُ الْوَاقِعُ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ مَرْجِعًا وَسَبِيلًا بِطَاعَتِهِ، أَيْ فَمَنْ شَاءَ رَجَعَ إِلَىٰ اللهِ بِطَاعَتِهِ.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني الْعَذَابَ فِي الْآخِرَةِ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ ، ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أَيْ كُلُّ امْرِئٍ يَرَىٰ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَا قَدَّمَ مِنَ الْعَمَلِ مُثْبَتًا فِي صَحِيفَتِهِ، ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ يَتَمَنَّىٰ ذَلِكَ. عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مُدَّتِ الْأَرْضُ مَدَّ الْأَدِيمِ، وَحُشِرَتِ الدَّوَابُّ وَالْبَهَائِمُ وَالْوُحُوشُ، ثُمَّ يُوضَعُ الْقِصَاصُ بَيْنَ الْبَهَائِمِ، حَتَّىٰ يُقْتَصَّ لِلشَّاةِ الْجَمَّاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ بِنَطْحَتِهَا، فَإِذَا فُرِغَ مِنَ الْقِصَاصِ بَيْنَهَا قِيلَ لَهَا: كُونِي تُرَابًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ الْكَافِرُ ﴿يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّبَإِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ تَنْزِعُ أَرْوَاحَ الْكُفَّارِ مِنْ أَجْسَادِهِمْ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: الملائكة حِينَ تُنْزَعُ أَرْوَاحُ بَنِي آدَمَ، فَمِنْهُمْ مَنْ تأخذ روحه بعسر فتغرق في نزعها، ومنهم مَنْ تَأْخُذُ رُوحَهُ بِسُهُولَةٍ وَكَأَنَّمَا حَلَّتْهُ مِنْ نشاط، وَغَرْقًا: اسْمُ مَصْدَرِ أَغْرَقَ، وَأَصْلُهُ إِغْرَاقًا، كَمَا يُغْرِقُ النَّازِعُ فِي الْقَوْسِ فَيَبْلُغُ بِهَا غَايَةَ المد، وَالْمُرَادُ بِالْإِغْرَاقِ: الْمُبَالَغَةُ فِي الْمَدِّ، وقيل: وَغَرْقًا: تَشْبِيهٌ لِغُرُوبِ النُّجُومِ بِالْغَرَقِ فِي الْمَاءِ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ هِيَ الْمَلَائِكَةُ تُنْشِطُ نَفْسَ الْمُؤْمِنِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ تَنْشِطُ نَفْسَ الْمُؤْمِنِ فَتَقْبِضُهَا كَمَا يُنْشَطُ الْعِقَالُ مِنْ يَدِ الْبَعِيرِ: إِذَا حُلَّ عَنْهُ، وَالنَّشْطُ: الْجَذْبُ بِسُرْعَةٍ، وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: هِيَ الْمَلَائِكَةُ تَنْشَطُ أَرْوَاحَ الْكُفَّارِ، مَا بَيْنَ الْجِلْدِ وَالْأَظْفَارِ، حَتَّىٰ تُخْرِجَهَا مِنْ أَجْوَافِهِمْ نَشْطًا بِالْكَرْبِ وَالْغَمِّ، كَمَا تَنْشِطُ الصُّوفَ مِنْ سَفُّودِ الْحَدِيدِ، وَهِيَ مِنَ النَّشْطِ بِمَعْنَىٰ الْجَذْبِ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ هَمُ الْمَلَائِكَةُ يَقْبِضُونَ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ يُسَلُّونَهَا سُلًّا رَفِيقًا، ثُمَّ يَدَعُونَهَا حَتَّىٰ تَسْتَرِيحَ كَالسَّابِحِ بِالشَّيْءِ فِي الماء يرفق به. وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ النُّجُومُ وَالشَّمْسُ والقمر، قال الله تعالىٰ: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هِيَ الْمَلَائِكَةُ تَسْبِقُ الشَّيَاطِينَ بِالْوَحْيِ إِلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، قَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ الْمَلَائِكَةُ سَبَقَتْ ابْنَ آدَمَ بِالْخَيْرِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: هِيَ الْمَلَائِكَةُ تَسْبِقُ بأرواح المؤمنين إلىٰ الجنة، وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ النُّجُومُ يَسْبِقُ بَعْضُهَا بَعْضًا فِي السَّيْرِ، وَقَالَ عَطَاءٌ: هِيَ الْخَيْلُ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمُ الْمَلَائِكَةُ وُكِّلُوا بِأُمُورٍ عَرَّفَهُمُ اللهُ عز وجل العمل بها، وَجَوَابُ هَذِهِ الْأَقْسَام مَحْذُوفٌ عَلَىٰ تقديره: لَتُبْعَثُنَّ وَلَتُحَاسَبُنَّ، وَقِيلَ: جَوَابُهُ قَوْلُهُ: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ. وَقِيلَ: فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ تقديره: يوم ترتجف الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ يَعْنِي النَّفْخَةَ الْأُولَىٰ يَتَزَلْزَلُ وَيَتَحَرَّكُ لَهَا كُلُّ شَيْءٍ وَيَمُوتُ مِنْهَا جميع الخلق، و الْمُرَادُ بِ الرَّاجِفَةُ الصَّيْحَةُ وَالزَّلْزَلَةُ الَّتِي تَرْجُفُ الْأَرْضُ بِسَبَبِهَا جُعِلَتْ هِيَ الرَّاجِفَةَ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ وَهِيَ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ رَدَفَتِ الْأُولَىٰ وَبَيْنَهُمَا أَرْبَعُونَ سَنَةً ، قَالَ قَتَادَةُ: هُمَا صَيْحَتَانِ فَالْأُولَىٰ تُمِيتُ كُلَّ شَيْءٍ وَالْأُخْرَىٰ تُحْيِي كُلَّ شَيْءٍ بِإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَقَالَ مجاهد: وأصل الرجفة: الصوت والحركة، والرَّادِفَةُ: التَّالِيَةُ، يُقَالُ: رَدِفَ بِمَعْنَىٰ تَبِعَ، وَالرَّدِيفُ: التَّابِعُ لِغَيْرِهِ .

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ خائفة قلقة مضطربة ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: زَائِلَةٌ عَنْ أَمَاكِنِهَا ، وَالْوَاجِفَةُ: الْمُضْطَرِبَةُ مِنَ الْخَوْفِ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ ذَلِيلَةٌ كَقَوْلِهِ: ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ [الشورىٰ: ٤٥] الآية، وَمَعْنَىٰ خاشِعَةٌ مُنْكَسِرَةٌ ذَلِيلَةٌ مِنْ هَوْلِ مَا ترىٰ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَقُولُونَ﴾ يَعْنِي الْمُنْكِرِينَ لِلْبَعْثِ إِذَا قِيلَ لَهُمْ: إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ أَيْ إِلَىٰ أَوَّلِ الْحَالِ وَابْتِدَاءِ الْأَمْرِ فَنُصَيَّرُ أَحْيَاءً بَعْدَ الْمَوْتِ كما كنا، يُقَالُ: رَجَعَ فُلَانٌ فِي حَافِرَتِهِ، أَيْ رَجَعَ مِنْ حَيْثُ جاء، وَقِيلَ: الْحافِرَةِ: الْأَرْضُ الَّتِي تُحْفَرُ فِيهَا قُبُورُهُمْ، فَهِيَ بِمَعْنَىٰ الْمَحْفُورَةِ، والمعنىٰ أينا لَمَرْدُودُونَ فِي قُبُورِنَا أَحْيَاءً.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾ أَيْ بَالِيَةً مُتَفَتِّتَةً، يُقَالُ: نَخِرَ الْعَظْمُ بِالْكَسْرِ: أَيْ بَلِيَ وَتَفَتَّتَ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا﴾ يَعْنِي الْمُنْكِرِينَ، ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ رَجْعَةٌ خَائِبَةٌ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ، قَالَتْ قُرَيْشٌ: لَئِنْ أَحْيَانَا اللهُ بَعْدَ أَنْ نَمُوتَ لَنَخْسَرَنَّ،قَالَ اللهُ عَزَّ وجل:

[١٣] : ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ يعني النفخة الأخيرة، ﴿زَجْرَةٌ﴾ صيحة، ﴿وَاحِدَةٌ﴾ يسمعونها.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ يَعْنِي وَجْهَ الْأَرْضِ أَيْ صَارُوا عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَا كَانُوا فِي جَوْفِهَا ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ قَالَ: أَرْضٌ بَيْضَاءُ عَفْرَاءُ خَالِيَةٌ كَالْخُبْزَةِ النّقي قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ :

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ يَقُولُ قَدْ جَاءَكَ يَا مُحَمَّدُ حَدِيثُ مُوسَىٰ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًىٰ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ : وَهُوَ الْمَحَلُّ الَّذِي كَلَّمَهُ اللهُ فِيهِ، وَامْتَنَّ عَلَيْهِ بِالرِّسَالَةِ، وَاخْتَصَّهُ بِالْوَحْيِ وَالِاجْتِبَاءِ، قَالَ الْفَرَّاءُ: طُوًىٰ: وَادٍ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَمِصْرَ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَىٰ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ ابتعثه إلىٰ فرعون وأيده الله بِالْمُعْجِزَاتِ، وَمَعَ هَذَا اسْتَمَرَّ عَلَىٰ كُفْرِهِ وَطُغْيَانِهِ حَتَّىٰ أَخَذَهُ اللهُ أَخذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ، فَقَالَ:

[١٨] : ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾ أَيْ تُسْلِمُ فَتطْهُرَ مِنَ الذُّنُوبِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ أَيْ أَدْعُوكَ إِلَىٰ عِبَادَةِ رَبِّكَ وَتَوْحِيدِهِ فَتَخْشَىٰ عِقَابَهُ ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : فيصيرَ قلبُكَ خاضعًا له مطيعً خاشعًا بعد ما كان قاسيًا خبيثًا بعيدًا من الخير ، وقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ : وَفِي الِاقْتِصَارِ عَلَىٰ ذِكْرِ الْخَشْيَةِ إِيجَازٌ بَلِيغٌ لِأَنَّ الْخَشْيَةَ مِلَاكُ كُلِّ خَيْرٍ، وَفِي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « **مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ**»(١).

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ وَهِيَ الْعَصَا وَالْيَدَ الْبَيْضَاءُ ، وَقِيلَ: الْآيَةُ: إِشَارَةٌ إِلَىٰ جَمِيعِ آيَاتِهِ وَمُعْجِزَاتِهِ، فَكَذَّبَ أَيْ كَذَّبَ نَبِيَّ اللهِ مُوسَىٰ وَعَصىٰ أَيْ عَصَىٰ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَذَّبَ﴾ بأنهما من الله ﴿وَعَصَىٰ﴾ .

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ تَوَلَّىٰ وَأَعْرَضَ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿يَسْعَىٰ﴾ يَعْمَلُ بِالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، أَيْ وَلَّىٰ مُدْبِرًا مُعْرِضًا عَنِ الْإِيمَانِ يَسْعىٰ أَيْ يَعْمَلُ بِالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَقِيلَ: يَعْمَلُ فِي نِكَايَةِ مُوسَىٰ.

---

(١) الترمذي (٢٤٥٠) .

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَحَشَرَ﴾ فجمع قومه وجنوده، وَقِيلَ: جَمَعَ جُنُودَهُ لِلْقِتَالِ وَالْمُحَارَبَةِ، وَالسَّحَرَةَ لِلْمُعَارَضَةِ، ﴿فَنَادَىٰ﴾ لَمَّا اجْتَمَعُوا.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ فَلَا رَبَّ فَوْقِي، وَقِيلَ: أَرَادَ أَنَّ الْأَصْنَامَ أَرْبَابٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ وَرَبُّهَا. وَقَالَ عَطَاءٌ: كَانَ صَنَعَ لَهُمْ أَصْنَامًا صِغَارًا وَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهَا، فَقَالَ أَنَا رَبُّ أَصْنَامِكُمْ، وَقِيلَ: أَرَادَ الْقَادَةَ وَالسَّادَةَ، هُوَ رَبُّهُمْ، وَأُولَئِكَ هُمْ أَرْبَابُ السَّفَلَةِ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ أَيْ فِي الدُّنْيَا بِالْغَرَقِ وَفِي الآخرة بالنار، وَقِيلَ: الْآخِرَةُ قَوْلُهُ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلىٰ وَالْأُولَىٰ تَكْذِيبُهُ لِمُوسَىٰ. وَالنَّكَالُ: اسْمٌ لِمَا جُعِلَ نَكَالًا لِلْغَيْرِ أَيْ عُقُوبَةً لَهُ حَتَّىٰ يُعْتَبَرَ بِهِ. يُقَالُ: نَكَّلَ فُلَانٌ بِفُلَانٍ: إِذَا أَثْخَنَهُ عُقُوبَةً، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، ذَكَرَ أَحَدُهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ جِبْرِئِيلَ جَعَلَ يَدُسُّ فِي فِي فِرْعَوْنَ الطِّينَ، خَشْيَةَ أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَيَرْحَمَهُ اللهُ، أَوْ خَشْيَةَ أَنْ يَرْحَمَهُ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الَّذِي فُعِلَ بِفِرْعَوْنَ حِينَ كَذَّبَ وعصىٰ، ﴿لَعِبْرَةً﴾ عظة، ﴿لِمَنْ يَخْشَىٰ﴾ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ السَّعْدِيُّ: فَإِنَّ مَنْ يَخْشَىٰ اللهَ هُوَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِالْآيَاتِ وَالْعِبَرِ، فَإِذَا رَأَىٰ عُقُوبَةَ فِرْعَوْنَ، عَرَفَ أَنَّ كُلَّ مَنْ تَكَبَّرَ وَعَصَىٰ، وَبَارَزَ الْمَلِكَ الْأَعْلَىٰ، عَاقَبَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَمَّا مَنْ تَرَحَّلَتْ خَشْيَةُ اللهِ مِنْ قَلْبِهِ، فَلَوْ جَاءَتْهُ كُلُّ آيَةٍ لَمْ يُؤْمِنْ بِهَا، ثُمَّ خَاطَبَ مُنْكِرِي الْبَعْثِ فَقَالَ:

[٢٧] : ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾ يُرِيدُ أَهْلَ مَكَّةَ، أَيْ أَخَلْقُكُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ أَشَدُّ فِي تَقْدِيرِكُمْ أَمِ السَّماءُ فَمَنْ قَدَرَ عَلَىٰ السَّمَاءِ قَدَرَ عَلَىٰ الْإِعَادَةِ ؟ وَهُمَا فِي قُدْرَةِ اللهِ وَاحِدٌ، ثُمَّ وَصَفَ مَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ ، فَقَالَ: ﴿بَنَاهَا﴾ أَيْ رَفَعَهَا فَوْقَكُمْ كَالْبِنَاءِ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أَيْ أَعْلَىٰ سَقْفَهَا فِي الْهَوَاءِ، يُقَالُ: سَمَكْتُ الشَّيْءَ أَيْ رَفَعْتُهُ فِي الْهَوَاءِ، وَسَمَكَ الشَّيْءُ سُمُوكًا: ارْتَفَعَ ، ﴿فَسَوَّاهَا﴾ أَيْ خَلَقَهَا خَلْقًا مُسْتَوِيًا، لَا تَفَاوُتَ فِيهِ، وَلَا شُقُوقَ، وَلَا فُطُورَ.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَغْطَشَ﴾ أظلم، ﴿لَيْلَهَا﴾ وَالْغَطْشُ وَالْغَبْشُ : الظُّلْمَةُ، غَطِشَ اللَّيْلُ وَأَغْطَشَهُ اللهُ، كَقَوْلِكَ: ظَلِمَ اللَّيْلُ وَأَظْلَمَهُ اللهُ ، ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أَبْرَزَ وَأَظْهَرَ نَهَارَهَا وَنُورَهَا، وَأَضَافَهُمَا إِلَىٰ السَّمَاءِ ؛ لِأَنَّ الظُّلْمَةَ وَالنُّورَ كِلَاهُمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وأضاف الضحا إِلَىٰ السَّمَاءِ كَمَا أَضَافَ إِلَيْهَا اللَّيْلَ، لِأَنَّ فِيهَا سَبَبَ الظَّلَامِ وَالضِّيَاءِ ، وَهُوَ غُرُوبُ الشَّمْسِ وَطُلُوعُهَا.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ، ﴿دَحَاهَا﴾ بَسَطَهَا، وَالدَّحْوُ: الْبَسْطُ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: دَحَوْتُ الشَّيْءَ أَدْحُوهُ دَحْوًا: إِذَا بَسَطْتُهُ ، وَقِيلَ: دَحاها: حَرَثَهَا وَشَقَّهَا ، وَقِيلَ: دَحَاهَا مَهَّدَهَا لِلْأَقْوَاتِ، وَالْمَعْنَىٰ مُتَقَارِبٌ.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ أَيِ الْعُيُونَ الْمُتَفَجِّرَةَ بِالْمَاءِ، وَمَرْعاها أَيِ النَّبَاتَ الَّذِي يُرْعَىٰ، وَقَالَ الْقُتَبِيُّ: دَلَّ بِشَيْئَيْنِ عَلَىٰ جَمِيعِ مَا أَخْرَجَهُ مِنَ الْأَرْضِ قُوتًا وَمَتَاعًا لِلْأَنَامِ مِنَ الْعُشْبِ وَالشَّجَرِ وَالْحَبِّ وَالتَّمْرِ وَالْعَصْفِ وَالْحَطَبِ وَاللِّبَاسِ وَالنَّارِ وَالْمِلْحِ، لِأَنَّ النَّارَ مِنَ الْعِيدَانِ وَالْمِلْحَ مِنَ الْمَاءِ.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ يَعْنِي: أَثْبَتَهَا فِيهَا أَوْتَادًا لها.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ يْ مَنْفَعَةً لَكُمْ، وَلِأَنْعامِكُمْ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾ يَعْنِي النَّفْخَةَ الثَّانِيَةَ الَّتِي فِيهَا الْبَعْثُ وَقَامَتِ الْقِيَامَةُ، وَسُمِّيَتِ الْقِيَامَةُ طَامَّةً لِأَنَّهَا تَطُمُّ عَلَىٰ كُلِّ هَائِلَةٍ مِنَ الْأُمُورِ فَتَعْلُو فَوْقَهَا وتغمر ما سواها، والطامة عِنْدَ الْعَرَبِ: الدَّاهِيَةُ الَّتِي لَا تُسْتَطَاعُ. وَقَالَ الْقَاسِمُ بْنُ الْوَلِيدِ الْهَمْدَانِيُّ: الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ حِينَ يُسَاقُ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَىٰ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ إِلَىٰ النَّارِ، وَهُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِ مُجَاهِدٍ: وَقَالَ سُفْيَانُ: هِيَ السَّاعَةُ الَّتِي يُسْلِمُ فِيهَا أَهْلُ النَّارِ إِلَىٰ الزَّبَانِيَةِ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ﴾ مَا عَمِلَ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ﴾ أَيْ ظَهَرَتْ، لِمَنْ يَرىٰ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُكْشَفُ عَنْهَا فَيَرَاهَا تَتَلَظَّىٰ كُلُّ ذِي بَصَرٍ، وقَالَ مُقَاتِلٌ: يُكْشَفُ عَنْهَا

الْغِطَاءُ فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا الْخَلْقُ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ الْكَافِرُ لِأَنَّهُ الَّذِي يَرَىٰ النَّارَ بِمَا فِيهَا مِنْ أَصْنَافِ الْعَذَابِ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ﴾ أَيْ تَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي الْعِصْيَانِ والكفر، قَالَ حُذَيْفَةُ: أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَىٰ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ يُؤْثِرُوا مَا يَرَوْنَ عَلَىٰ مَا يَعْلَمُونَ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ عَلَىٰ الْآخِرَةِ.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ أَيْ مَأْوَاهُ.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أَيْ حَذِرَ مَقَامَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ. وَقَالَ الرَّبِيعُ: مَقَامَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ، وَكَانَ قَتَادَةُ يَقُولُ: إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَقَامًا قَدْ خَافَهُ الْمُؤْمِنُونَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ خَوْفُهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَ مُوَاقَعَةِ الذَّنْبِ، ﴿وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أَيْ زَجَرَهَا عَنِ الْمَعَاصِي وَالْمَحَارِمِ. وَقَالَ سَهْلٌ: تَرْكُ الْهَوَىٰ مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ، لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: أَنْتُمْ فِي زَمَانٍ يَقُودُ الْحَقُّ الْهَوَىٰ، وَسَيَأْتِي زَمَانٌ يَقُودُ الْهَوَىٰ الْحَقَّ فَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ الزَّمَانِ.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ أَيِ الْمَنْزِلُ.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ مَتَىٰ ظُهُورُهَا وَثُبُوتُهَا، وَمَعْنَىٰ مُرْساها أَيْ قِيَامُهَا، قَالَ الْفَرَّاءُ: رُسُوُّهَا قِيَامُهَا كَرُسُوِّ السَّفِينَةِ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: أَيْ مُنْتَهَاهَا، وَمَرْسَىٰ السَّفِينَةِ حَيْثُ، تَنْتَهِي.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾ لَسْتَ فِي شَيْءٍ مِنْ عِلْمِهَا وَذِكْرِهَا، أَيْ لَا تَعْلَمُهَا.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ أَيْ مُنْتَهَىٰ عِلْمِهَا عِنْدَ اللهِ.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ أَيْ إِنَّمَا يَنْفَعُ إِنْذَارُكَ مَنْ يخافها، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَخَصَّ الْإِنْذَارَ بِمَنْ يَخْشَىٰ، لِأَنَّهُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بِهِ، وَإِنْ كَانَ مُنْذِرًا لِكُلِّ مُكَلَّفٍ.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ يَعْنِي كُفَّارَ قُرَيْشٍ، ﴿يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ يُعَايِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ فِي الدُّنْيَا وَقِيلَ: فِي قُبُورِهِمْ، ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ مَعْنَاهُ آخِرَ يَوْمٍ أَوْ أَوَّلَهُ، وَالْمُرَادُ تَقْلِيلُ مُدَّةِ الدُّنْيَا، قَالَ الْفَرَّاءُ: يَقُولُ الْقَائِلُ: وَهَلْ لِلْعَشِيَّةِ ضُحًا؟ وَإِنَّمَا الضُّحَا لِصَدْرِ النَّهَارِ، وَلَكِنْ أُضِيفَ الضُّحَىٰ إِلَىٰ الْعَشِيَّةِ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ عَلَىٰ عَادَةِ الْعَرَبِ، يَقُولُونَ: آتِيكَ الْغَدَاةَ أَوْ عَشِيَّتَهَا، وَآتِيكَ الْعَشِيَّةَ أَوْ غَدَاتَهَا، فَتَكُونُ الْعَشِيَّةُ فِي مَعْنَىٰ آخِرِ النَّهَارِ، وَالْغَدَاةُ فِي مَعْنَىٰ أَوَّلِ النَّهَارِ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّازِعَاتِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ عَبَسَ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ وَفِي سَبَبِ نُزُولِهَا فَقَدْ أَخْرَجَ أَبُو يَعْلَىٰ فِي الْمُسْنَدِ، بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: جَاءَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُكَلِّمُ أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾، فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ يُكْرِمُهُ، قَالَ قَتَادَةُ: وَأَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: رَأَيْتُهُ يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ وَمَعَهُ رَايَةٌ سَوْدَاءُ، يَعْنِي ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَبَسَ﴾ أَيْ كَلَحَ بِوَجْهِهِ، يُقَالُ: عَبَسَ وَبَسَرَ، ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أَعْرَضَ بِوَجْهِهِ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ وَهُوَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَاسْمُهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ شُرَيْحٍ الْفِهْرِيُّ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ يَتَطَهَّرَ مِنَ الذُّنُوبِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ وما يتعلمه منك، وَزَوَالِ ظُلْمَةِ الْجَهْلِ عَنْهُ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ يتعظ، ﴿فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ أَيْ: أَوْ يَعْتَبِرُ وَيَتَّعِظُ فَيَنْفَعُهُ الِاتِّعَاظُ وَالِاعْتِبَارُ، وَيَشُدُّ ذَلِكَ مِنْ عَزِيمَتِهِ لِيَثْبُتَ عَلَىٰ سَبِيلِ الْأَخْيَارِ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ﴾ أَيْ كَانَ ذَا ثَرْوَةٍ وَغِنًى، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَنِ اللهِ وَعَنِ الْإِيمَانِ بِمَا لَهُ مِنَ المال.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾ تَتَعَرَّضُ لَهُ وَتُقْبِلُ عَلَيْهِ وَتُصْغِي إِلَىٰ كَلَامِهِ، التَّصَدِّي: الْإِصْغَاءُ، وَأَصْلُهُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مِنَ الصَّدَدِ: الْقُرْبِ، يُقَالُ: دَارِي صَدَدَ دَارِهِ أَيْ قُبَالَتَهَا، وَهُوَ نَصْبٌ عَلَىٰ الظَّرْفِ، وَالْمَقْصُودُ: إِنَّكَ تُقْبِلُ - يَا مُحَمَّدُ- عَلَيْهِ بِوَجْهِكَ وَحَدِيثِكَ، وَهُوَ يُظْهِرُ الِاسْتِغْنَاءَ عَنْكَ وَالْإِعْرَاضَ عَمَّا جِئْتَ بِهِ، غَرَّهُ مَالُهُ وَجَاهُهُ وَسُلْطَانُهُ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أَيْ لَا يَهْتَدِي هَذَا الْكَافِرُ وَلَا يُؤْمِنُ، إِنَّمَا أَنْتَ رَسُولٌ، مَا عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ﴾ يَمْشِي يَعْنِي ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ أَيْ يَخَافُ اللهَ، أَيْ تُعْرِضُ عَنْهُ بِوَجْهِكَ وَتُشْغَلُ بِغَيْرِهِ، وَأَصْلُهُ تَتَلَهَّىٰ، يُقَالُ: لَهِيتُ عَنِ الشَّيْءِ أَلْهَىٰ: أَيْ تَشَاغَلْتُ عَنْهُ، وَالتَّلَهِّي: التَّغَافُلُ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ تَتَشَاغَلُ وَتُعْرِضُ عَنْهُ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا﴾ زَجْرٌ أَيْ لَا تَفْعَلْ بَعْدَهَا مثلها، ﴿إِنَّهَا﴾ يعني هذه الموعظة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ مَوْعِظَةٌ وَتَذْكِيرٌ لِلْخَلْقِ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ من عباد الله ﴿ذَكَرَهُ﴾ أي اتعظ به، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أي هذه الْوَصِيَّةُ بِالْمُسَاوَاةِ بَيْنَ النَّاسِ، فِي إِبْلَاغِ الْعِلْمِ بين شريفهم ووضيعهم ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ جَلَالَتِهِ عِنْدَهُ فقال:

[١٣] : ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ يَعْنِي اللَّوْحَ الْمَحْفُوظَ. وَقِيلَ: كُتُبُ الأنبياء، لما فيها من العلم والحكمة.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ رَفِيعَةِ الْقَدْرِ عِنْدَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَقِيلَ: مَرْفُوعَةٍ يَعْنِي فِي السماء السابعة، ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ لَا يَمَسُّهَا إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، وَهُمُ الملائكة ، وقيل: مصانة عن أن ينالها الكفار.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: كَتَبَةٌ، وهم الملائكة الكرام الكاتبون ، وَقَالَ الْآخَرُونَ: هُمُ الرُّسُلُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَاحِدُهُمْ سَفِيرٌ، وَهُوَ الرَّسُولُ، وَسَفِيرُ الْقَوْمِ الَّذِي يَسْعَىٰ بَيْنَهُمْ بالصلح، ثُمَّ أَثْنَىٰ عَلَيْهِمْ فَقَالَ:

[١٦] : ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ أَيْ كِرَامٍ عَلَىٰ اللهِ بَرَرَةٍ مُطِيعِينَ جَمْعُ بَارٍّ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ وَالْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ ، مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ ، فَلَهُ أَجْرَانِ »**(١).

(١) البخاري (٤٩٣٧) ومسلم (٧٩٨) .

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ﴾ أي لعن الكافر ، قال مجاهد : مَا كَانَ فِي الْقُرْآنِ قُتِلَ الْإِنْسانُ فَإِنَّمَا عُنِيَ بِهِ الْكَافِرُ، ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾ ما أشد كفره مَعَ كَثْرَةِ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِ وَأَيَادِيهِ عنده، علىٰ طريق التعجب، قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: أَيْ مَا أَشَدَّ كُفْرَهُ! ثم تبين مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ يَنْبَغِي مَعَهُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ خَالِقُهُ، فَقَالَ:

[١٨] : ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ لَفْظُهُ اسْتِفْهَامٌ وَمَعْنَاهُ التَّقْرِيرُ: أَيْ مِنْ أَيِّ شي خَلَقَ اللهُ هَذَا الْكَافِرَ فَيَتَكَبَّرَ؟ أَيِ اعْجَبُوا لِخَلْقِهِ ، ثُمَّ فَسَّرَهُ فَقَالَ:

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ أطوار: نُطْفَةً ثُمَّ عَلَقَةً إِلَىٰ آخِرِ خلقه. فَقَدَّرَهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ قَدَّرَ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ وَعَيْنَيْهِ وَسَائِرَ آرَابِهِ، وَحَسَنًا وَدَمِيمًا، وَقَصِيرًا وَطَوِيلًا، وَشَقِيًّا وَسَعِيدًا، قَالَ الْحَسَنُ البصري : كَيْفَ يَتَكَبَّرُ مَنْ خَرَجَ مِنْ سَبِيلِ الْبَوْلِ مَرَّتَيْنِ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ أَيْ طَرِيقَ خُرُوجِهِ مِنْ بَطْنِ أمه، وقال الحسن وَمُجَاهِدٌ: يَعْنِي طَرِيقَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ سهل له العلم به: وَقِيلَ: يَسَّرَ عَلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ ما خلقه له وقدر عليه.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ جَعَلَ لَهُ قَبْرًا يُوَارَىٰ فِيهِ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ أَحْيَاهُ بَعْدَ مَوْتِهِ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا﴾ رد عَلَيْهِ أَيْ لَيْسَ كَمَا يَقُولُ ويظن هذا الكافر، ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ أَيْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ به ربه وَلَمْ يُؤَدِّ مَا فُرِضَ عَلَيْهِ، قَالَ

مُجَاهِدٌ: لَمَّا يَقْضِ: لَا يَقْضِي أَحَدٌ مَا أُمِرَ بِهِ. وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : أَيْ حَقًّا لَمْ يَقْضِ: أَيْ لَمْ يَعْمَلْ بِمَا أُمِرَ به، وَلَمَّا ذَكَرَ خَلْقَ ابْنِ آدَمَ ذَكَرَ رِزْقَهُ لِيَعْتَبِرَ، فَقَالَ:

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ كَيْفَ قَدَّرَهُ رَبُّهُ وَدَبَّرَهُ لَهُ وَجَعَلَهُ سَبَبًا لِحَيَاتِهِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : أَيْ لِيَتَدَبَّرْ كَيْفَ خَلَقَ اللهُ طَعَامَهُ الَّذِي هُوَ قِوَامُ حَيَاتِهِ، وَكَيْفَ هَيَّأَ لَهُ أَسْبَابَ الْمَعَاشِ، لِيَسْتَعِدَّ بِهَا لِلْمَعَادِ، ثُمَّ بَيَّنَ فَقَالَ:

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ يَعْنِي الْمَطَرَ، صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا: يَعْنِي الْغَيْثَ وَالْأَمْطَارَ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ بالنبات.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ يَعْنِي الْحُبُوبَ الَّتِي يُتَغَذَّىٰ بِهَا، وَسَائِرَ مَا يُحْصَدُ وَيُدَّخَرُ .

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ وَهُوَ الْقَتُّ : (يعني الجت مثل ما نقزل بالعراقي) الرَّطْبُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يُقْضَبُ فِي كُلِّ الْأَيَّامِ أي يقطع ، قال الْحَسَن البصري : سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يُقْضَبُ أَيْ يُقْطَعُ بَعْدَ ظُهُورِهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَزَيْتُونًا﴾ وَهُوَ مَا يُعْصَرُ مِنْهُ الزَّيْتُ، ﴿وَنَخْلًا﴾ جمع نخلة.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ غِلَاظًا، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَمُقَاتِلٌ: الْغُلْبُ الشَّجَرُ الْمُلْتَفَّةُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : غُلْبًا عِظَامًا شَجَرُهَا، يُقَالُ: شَجَرَةٌ غَلْبَاءُ، وَيُقَالُ لِلْأَسَدِ: الْأَغْلَبُ، لِأَنَّهُ مُصْمَتُ الْعُنُقِ، لَا يُلْتَفَتُ إِلَّا جَمِيعًا،

قال الكلبي: وكل شي أُحِيطَ عَلَيْهِ مِنْ نَخِيلٍ أَوْ شَجَرٍ فَهُوَ حَدِيقَةٌ، وَمَا لَمْ يُحَطْ عَلَيْهِ فَلَيْسَ بِحَدِيقَةٍ.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفَاكِهَةً﴾ يريد ألوان الفواكه، ﴿وَأَبًّا﴾ يَعْنِي الْكَلَأَ وَالْمَرْعَىٰ الَّذِي لَمْ يَزْرَعْهُ النَّاسُ، مِمَّا يَأْكُلُهُ الْأَنْعَامُ وَالدَّوَابُّ، قَالَ عِكْرِمَةُ: الْفَاكِهَةُ مَا يأكل الناس، والأب ما يأكله الدواب، وَقال الْحَسَنُ البصري : الْأَبُّ: كُلُّ مَا أَنْبَتَتِ الْأَرْضُ، مِمَّا لَا يَأْكُلُهُ النَّاسُ، مَا يَأْكُلُهُ الْآدَمِيُّونَ هُوَ الْحَصِيدُ.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ﴾ مَنْفَعَةً لَكُمْ يَعْنِي الْفَاكِهَةَ، وَالْمَتَاعُ فِي اللغة: مَا يُتَمَتَّعُ بِهِ، وَالتَّمَتُّعُ: انْتِفَاعٌ بِمَا يَلَذُّ وَيَسُرُّ﴿وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ يَعْنِي الْعُشْبَ، وَيَتَضَمَّنُ امْتِنَانًا عَلَيْهِمْ بِمَا أَنْعَمَ بِهِ، ثُمَّ ذَكَرَ الْقِيَامَةَ فقال:

[٣٣] :﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ يَعْنِي صَيْحَةَ الْقِيَامَةِ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَصُخُّ الْأَسْمَاعَ أَيْ تُبَالِغُ فِي أسماعها حَتَّىٰ تَكَادَ تُصِمُّهَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿الصَّاخَّةُ﴾: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْقِيَامَةِ، عَظَّمَهُ اللهُ، وَحَذَّرَهُ عِبَادَهُ.

[٣٤-٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ﴾ يعني زوجته التي كانت في الدنيا ﴿وَبَنِيهِ﴾ أيْ يهرب، أي تجيء الصَّاخَّةُ فِي هَذَا الْيَوْمِ الَّذِي يَهْرُبُ فِيهِ مِنْ أَخِيهِ، أَيْ مِنْ مُوَالَاةِ أَخِيهِ وَمُكَالَمَتِهِ، لِأَنَّهُ لَا يَتَفَرَّغُ لِذَلِكَ، لِاشْتِغَالِهِ بِنَفْسِهِ، كَمَا قَالَ بَعْدَهُ

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ يَشْغَلُهُ عَنْ شَأْنِ غَيْرِهِ ، قَالَ قَتَادَةُ : أَفْضَىٰ إِلَىٰ كُلِّ إِنْسَانٍ مَا يَشْغَلُهُ عَنِ النَّاسِ .

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ﴾ مُشْرِقَةٌ مُضِيئَةٌ ، وَهِيَ وُجُوهُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ نَالُوا رِضْوَانَ اللهِ ، وَفِي لُغَةِ الْعَرَبِ: أَسْفَرَ وَجْهُ فُلَانٍ: إِذَا حَسُنَ وَأَشْرَقَ، وَأَسْفَرَ الصُّبْحُ: إِذَا أَضَاءَ.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ بالسرور، ﴿مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ فَرِحَةٌ بِمَا نَالَتْ مِنْ كَرَامَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ سَوَادٌ وَكَآبَةٌ مِمَّا يُشَاهِدُونَهُ مِنَ الْغَمِّ وَالْهَمِّ.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ تَعْلُوهَا وَتَغْشَاهَا ظُلْمَةٌ وَكُسُوفٌ ، فَالْقَتَرُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْغُبَارُ ، قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: الْقَتَرَةُ: مَا ارْتَفَعَتْ إِلَىٰ السَّمَاءِ. وَالْغَبَرَةُ: مَا انْحَطَّتْ إِلَىٰ الْأَرْضِ، وَالْغُبَارُ وَالْغَبَرَةُ: وَاحِدٌ.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَئِكَ﴾ الَّذِينَ يُصْنَعُ بِهِمْ هَذَا، ﴿هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ جَمْعُ الْكَافِرِ وَالْفَاجِرِ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ عَبَسَ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ ، وَفِي صحيح التِّرْمِذِيِّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ، وَإِذا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ**»(١).

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أصل التَّكْوِيرِ جَمْعُ بَعْضِ الشَّيْءِ إِلَىٰ بَعْضٍ، فَمَعْنَاهُ أَنَّ الشَّمْسَ يُجْمَعُ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ ثُمَّ تُلَفُّ، فَإِذَا فُعِلَ بِهَا ذَلِكَ ذَهَبَ ضوؤها ، فَقَدْ أَخْرَجَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُكَوَّرَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٢) .

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أَيْ تَنَاثَرَتْ مِنَ السَّمَاءِ وَتَسَاقَطَتْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: انْكَدَرَتْ تَغَيَّرَتْ فَلَمْ يَبْقَ لَهَا ضَوْءٌ لِزَوَالِهَا عَنْ

---

(١) أحمد (٤٧٩٢) .

(٢) البخاري (٣٢٠٠) .

أَمَاكِنِهَا ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ انْكِدَارُهَا طَمْسَ آثَارِهَا ، وَسُمِّيَتِ النُّجُومُ نُجُومًا لِظُهُورِهَا فِي السَّمَاءِ بِضَوْئِهَا.

[٣] قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ فَصَارَتْ هَبَاءً منبثـًا.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ ﴾ وَهِيَ النُّوقُ الْحَوَامِلُ الَّتِي أَتَىٰ عَلَىٰ حَمْلِهَا عَشَرَةُ أَشْهُرٍ، وَاحِدَتُهَا عشراء لِمَا جَاءَهُمْ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ القيامة ﴿عُطِّلَتْ﴾ قال: سُيِّبت، تُرِكَتْ، أَيْ تُرِكَتْ هَمَلًا بِلَا رَاعٍ، وَذَلِكَ لِمَا شَاهَدُوا مِنَ الْهَوْلِ الْعَظِيمِ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: سَيَّبَهَا أَهْلُهَا فَلَمْ تُصَرَّ، وَلَمْ تُحْلَبْ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا مَالٌ أَعْجَبَ إِلَيْهِمْ مِنْهَا.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ﴾ يعني دواب البر، ﴿حُشِرَتْ﴾ جُمِعَتْ بَعْدَ الْبَعْثِ لِيُقْتَصَّ لِبَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: حَشْرُ الْبَهَائِمِ: مَوْتُهَا، وَحَشْرُ كُلِّ شَيْءٍ: الْمَوْتُ، غَيْرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، فَإِنَّهُمَا يُوقَفَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أُوقِدَتْ فَصَارَتْ نَارًا تَضْطَرِمُ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَمُقَاتِلٌ: يَعْنِي فُجِّرَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ الْعَذْبُ وَالْمِلْحُ، فَصَارَتِ الْبُحُورُ كُلُّهَا بحرا واحداً ، وَقِيلَ: صَارَتْ مِيَاهُهَا بَحْرًا وَاحِدًا مِنَ الْحَمِيمِ لِأَهْلِ النَّارِ ، والسَّجُور: ما يُسْجَرُ به التَّنُّور، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ ، قَوْلُهُ:

[٧] : ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ يُقْرَنُ بَيْنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مَعَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ، وَيُقْرَنُ بَيْنَ الرَّجُلِ السُّوءِ مَعَ الرَّجُلِ السوء في النار، وهذا قَوْلِ عِكْرِمَةَ وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: أُلْحِقَ كُلُّ امْرِئٍ بِشِيعَتِهِ، الْيَهُودِيُّ باليهودي والنصراني بالنصراني، وَقَالَ عَطَاءٌ وَمُقَاتِلٌ: زُوِّجَتْ نُفُوسُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحُورِ الْعِينِ، وَقُرِنَتْ نُفُوسُ الْكَافِرِينَ بِالشَّيَاطِينِ، وسُئِل عُمَر رضي الله عنه عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ فَقَال: يُقْرَنُ بَيْنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مَعَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ، وَيُقْرَنُ بَيْنَ الرَّجُلِ السَّوْءِ مَعَ الرَّجُلِ السَّوْءِ فِي النَّارِ، فَذَلِكَ تَزْوِيجُ الْأَنْفُسِ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ وَهِيَ الْجَارِيَةُ الْمَدْفُونَةُ حَيَّةً.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ وَمَعْنَىٰ سُؤَالِهَا تَوْبِيخُ قَاتِلِهَا ؛ لِأَنَّهَا تقول: قُتِلَتْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ، قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمُ ابْنَتَهُ، وَيَغْذُو كَلْبَهُ، فَعَابَ اللهُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ يَعْنِي صَحَائِفَ الْأَعْمَالِ تُنْتَشَرُ لِلْحِسَابِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: صَحِيفَتُكَ يَا ابْنَ آدَمَ، تُمْلِي فِيهَا، ثُمَّ تُطْوَىٰ، ثُمَّ تُنْشَرُ عَلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلْيَنْظُرْ رَجُلٌ مَاذَا يُملِي فِي صَحِيفَتِهِ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ قَالَ الْفَرَّاءُ: نُزِعَتْ فَطُوِيَتْ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: قُلِعَتْ كَمَا يُقْلَعُ السَّقْفُ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: تَكْشِفُ عَمَّنْ فِيهَا، وَمَعْنَىٰ الْكَشْطِ رَفْعُكَ شَيْئًا عَنْ شَيْءٍ قَدْ غَطَّاهُ كَمَا يُكْشَطُ الْجِلْدُ عَنِ السَّنَامِ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أَيْ أُوقِدَتْ فَأُضْرِمَتْ لِلْكُفَّارِ وَزِيدَ فِي إِحْمَائِهَا، يُقَالُ: سَعَّرْتُ النَّارَ وَأَسْعَرْتُهَا، قَالَ قَتَادَةُ: سَعَّرَهَا غَضَبُ اللهِ وَخَطَايَا بَنِي آدَمَ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ قُرِّبَتْ لِأَوْلِيَاءِ اللهِ ، قَالَ الْحَسَنُ: إِنَّهُمْ يُقَرَّبُونَ مِنْهَا، لَا أَنَّهَا تَزُولُ عَنْ مَوْضِعِهَا، الزُّلْفَىٰ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْقُرْبَةُ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠].

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَلِمَتْ﴾ عند ذلك كل ﴿نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ يَعْنِي مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَهَذَا جَوَابُ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَمَا بَعْدَهَا ، قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِهَذَا أجرىٰ الحديث.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ وَالْخُنَّسُ: هِيَ النُّجُومُ تَخْنِسُ بِالنَّهَارِ فَتَخْتَفِي تَحْتَ ضَوْءِ الشَّمْسِ وَلَا تُرَىٰ، قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هِيَ النُّجُومُ تَخْنِسُ بِالنَّهَارِ، وَتَظْهَرُ بِاللَّيْلِ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ تَخْتَفِي فِي وَقْتِ غُرُوبِهَا ، قَالَ قَتَادَةُ: هِيَ النُّجُومُ تَبْدُو بِاللَّيْلِ وَتَخْنَسُ بِالنَّهَارِ، فَتُخْفَىٰ فَلَا ترىٰ، قَالَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ: إِنَّمَا قِيلَ لِلنُّجُومِ الْخُنَّسُ، أَيْ فِي حَالِ طُلُوعِهَا، ثُمَّ هِيَ جِوَارٌ فِي فَلَكِهَا، وَفِي حَالِ غَيْبُوبَتِهَا يُقَالُ لَهَا كُنَّسٌ، مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ: أَوَىٰ الظَّبْيُ إِلَىٰ كناسه، إذا تغيب فيه.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: أَقْبَلَ بِظَلَامِهِ ، قَالَ الْفَرَّاءُ: أَجْمَعَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَىٰ أَنَّ مَعْنَىٰ عَسْعَسَ أَدْبَرَ، تَقُولُ الْعَرَبُ: عَسْعَسَ اللَّيْلُ وَسَعْسَعَ إِذَا أَدْبَرَ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا الْيَسِيرُ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أَقْبَلَ وَبَدَا أَوَّلُهُ وَقِيلَ امْتَدَّ ضوؤه وارتفع. وَقِيلَ: إِذا تَنَفَّسَ أَي انْشَقَّ وَانْفَلَقَ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يَعْنِي جِبْرِيلَ أَيْ نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ .

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ فِي الْمَنْزِلَةِ ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: لَهُ مَكَانَةٌ وَمَنْزِلَةٌ فَوْقَ مَنَازِلِ الْمَلَائِكَةِ كُلِّهِمْ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ أَيْ فِي السَّمَاوَاتِ تُطِيعُهُ الْمَلَائِكَةُ وَمِنْ طَاعَةِ الْمَلَائِكَةِ إِيَّاهُ أَنَّهُمْ فَتَحُوا أَبْوَابَ السَّمَاوَاتِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ بِقَوْلِهِ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَفَتَحَ خَزَنَةُ الْجَنَّةِ أَبْوَابَهَا بِقَوْلِهِ، (أَمِينٍ) عَلَىٰ وَحْيِ اللهِ وَرِسَالَتِهِ إِلَىٰ أَنْبِيَائِهِ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ يَقُولُ لِأَهْلِ مَكَّةَ وَمَا صَاحِبُكُمْ يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَجْنُونٍ ، وَهَذَا أَيْضًا مِنْ جَوَابِ الْقَسَمِ أَقْسَمَ عَلَىٰ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا لَيْسَ كَمَا يَقُولُهُ أَهْلُ مَكَّةَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّهُ مَجْنُونٌ، وَمَا يَقُولُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ يَعْنِي رَأَىٰ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ صورته، ﴿بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ وَهُوَ الْأُفُقُ الْأَعْلَىٰ مِنْ نَاحِيَةِ المشرق ، والأفق المبين: أي البيِّن ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: لِأَنَّ هَذَا الْأُفُقَ إِذَا كَانَ مِنْهُ تَطْلُعُ الشَّمْسُ فَهُوَ مُبِينٌ. أَيْ مِنْ جِهَتِهِ تُرَىٰ الْأَشْيَاءُ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا هُوَ﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿عَلَىٰ الْغَيْبِ﴾ أَيِ الْوَحْيِ، وَخَبَرِ السَّمَاءِ وَمَا اطَّلَعَ عَلَيْهِ مِمَّا كَانَ غَائِبًا عَنْهُ مِنَ الْأَنْبَاءِ وَالْقَصَصِ، ﴿بِضَنِينٍ﴾ الضَّنِينُ: الْبَخِيلُ ، وَالْمَقْصُودُ مَا سَبَقَ، إِنَّهُ غَيْرُ بَخِيلٍ عَلَيْهِمْ بِتَعْلِيمِهِمْ مَا عَلَّمَهُ اللهُ مِنَ الْوَحْيِ وَأَحْكَامِ الشَّرْعِ، فهو يَأْتِيهِ عِلْمُ الْغَيْبِ فَلَا يبخل به عليهم بَلْ يُعَلِّمُكُمْ وَيُخْبِرُكُمْ بِهِ، وَلَا يَكْتُمُهُ كَمَا يَكْتُمُ الْكَاهِنُ مَا عِنْدَهُ حَتَّىٰ يَأْخُذَ عَلَيْهِ حُلْوَانًا.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا هُوَ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، ﴿بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ: يَقُولُ إِنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ بِشِعْرٍ وَلَا كَهَانَةٍ كَمَا قَالَتْ قُرَيْشٌ، قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ غَيْبٌ، فَأَعْطَاهُ اللهُ مُحَمَّدًا، فَبَذَلَهُ وَعَلَّمَهُ وَدَعَا إِلَيْهِ، وَاللهِ مَا ضَنَّ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أَيْ أَيْنَ تَعْدِلُونَ عَنْ هَذَا الْقُرْآنِ، وَفِيهِ الشِّفَاءُ وَالْبَيَانُ، قَالَ الزَّجَّاجُ: أَيُّ طَرِيقٍ تَسْلُكُونَ أَبْيَنُ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي قَدْ بَيَّنْتُ لَكُمْ، ثُمَّ بَيَّنَ فَقَالَ:

[٢٧] : ﴿إِنْ هُوَ﴾ أَيْ مَا الْقُرْآنُ، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ مَوْعِظَةٌ لِلْخَلْقِ أَجْمَعِينَ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ أَيْ يَتْبَعَ الْحَقَّ وَيُقِيمَ عَلَيْهِ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: مَعْنَىٰ الْكَلَامِ: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ مَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ عَلَىٰ سَبِيلِ الْحَقِّ فَيَتَّبِعَهُ وَيُؤْمِنَ بِهِ.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيْ أَعْلَمَهُمْ أَنَّ الْمَشِيئَةَ فِي التَّوْفِيقِ إِلَيْهِ وَأَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ ذَلِكَ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ وَفِيهِ إِعْلَامٌ أَنَّ أَحَدًا لَا يَعْمَلُ خَيْرًا إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللهِ وَلَا شَرًّا إِلَّا بِخِذْلَانِهِ. ، قَالَ سفيان الثوري: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ قَالَ أَبُو جَهْلٍ: الْأَمْرُ إِلَيْنَا إِنْ شِئْنَا اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ شِئْنَا لَمْ نَسْتَقِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّكْوِيرِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الِانْفِطَارِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ ، وَفِي صحيح التِّرْمِذِيِّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ، وَإِذا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ**»(١).

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ أَيْ تَشَقَّقَتْ بِأَمْرِ اللهِ، لِنُزُولِ الْمَلَائِكَةِ، كَقَوْلِهِ: وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا، وَقِيلَ: تَفَطَّرَتْ لِهَيْبَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَالْفَطْرُ: الشَّقُّ، يُقَالُ: فَطَرْتُهُ فَانْفَطَرَ، وَمِنْهُ فَطَرَ نَابُ الْبَعِيرِ: طَلَعَ، فَهُوَ بَعِيرٌ فَاطِرٌ، وَتَفَطَّرَ الشَّيْءُ: شُقِّقَ .

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ تساقطتن نَثَرْتُ الشَّيْءَ أَنْثُرُهُ نَثْرًا، فَانْتَثَرَ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ فُجِّرَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، وَاخْتَلَطَ الْعَذْبُ بِالْمِلْحِ فَصَارَتْ بَحْرًا وَاحِدًا ، قَالَ الْحَسَنُ البصري : فُجِّرَتْ: ذَهَبَ

---

(١) أحمد (٤٧٩٦) .

مَاؤُهَا وَيَبِسَتْ، وَذَلِكَ أَنَّهَا أَوَّلًا رَاكِدَةٌ مُجْتَمِعَةٌ، فَإِذَا فُجِّرَتْ تَفَرَّقَتْ، فَذَهَبَ مَاؤُهَا.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ بحثت وقلب ترابها وبعث من فيها من الموتىٰ أحياء، قال السُّدّي: تُبَعْثَر: تُحَرَّكُ فيخرج مَنْ فيها، يُقَالُ: بَعْثَرْتُ الْمَتَاعَ: قَلَّبْتُهُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ، وَبَعْثَرْتُ الْحَوْضَ وَبَحْثَرْتُهُ: إِذَا هَدَمْتُهُ وَجَعَلْتُ أَسْفَلَهُ أَعْلَاهُ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ قِيلَ: مَا قَدَّمَتْ مِنْ عَمَلٍ صالح أو سيئ، وما أَخَّرَتْ مِنْ سُنَّةٍ حَسَنَةٍ أَوْ سَيِّئَةٍ، وَقِيلَ: مَا قَدَّمَتْ مِنَ الصَّدَقَاتِ وَأَخَّرَتْ مِنَ التَّرِكَاتِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: حِينَئِذٍ يَنْكَشِفُ الْغِطَاءُ، وَيَزُولُ مَا كَانَ خَفِيًّا، وَتَعْلَمُ كُلُّ نَفْسٍ مَا مَعَهَا مِنَ الْأَرْبَاحِ وَالْخُسْرَانِ، هُنَالِكَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ إِذَا رَأَىٰ أَعْمَالَهُ بَاطِلَةً، وَمِيزَانُهُ قَدْ خَفَّ، وَالْمَظَالِمُ قَدْ تَدَاعَتْ إِلَيْهِ، وَالسَّيِّئَاتُ قَدْ حَضَرَتْ لَدَيْهِ، وَأَيْقَنَ بِالشَّقَاءِ الْأَبَدِيِّ وَالْعَذَابِ السَّرْمَدِيِّ، وَهُنَالِكَ يَفُوزُ الْمُتَّقُونَ الْمُقَدِّمُونَ لِصَالِحِ الْأَعْمَالِ بِالْفَوْزِ الْعَظِيمِ، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ وَالسَّلَامَةِ مِنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ مَا خَدَعَكَ وَسَوَّلَ لَكَ الْبَاطِلَ حَتَّىٰ أَضَعْتَ مَا وَجَبَ عَلَيْكَ، والمعنىٰ: ماذا أمنك من عقابه؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْإِنْسَانُ هُنَا: الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ، وَعن يحيىٰ البكاء قال: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ قال ابْنُ عُمَرَ

ﷺ : غَرَّهُ وَاللهِ جَهْلُهُ ، وقَالَ قَتَادَةُ: غَرَّهُ شَيْطَانُهُ الْمُسَلَّطُ عَلَيْهِ ، قَالَ الْحَسَنُ: غَرَّهُ شَيْطَانُهُ الْخَبِيثُ، وقال إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْأَشْعَثِ: قِيلَ: لِلْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ: لَوْ أَقَامَكَ اللهُ تعالىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لَكَ: مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ؟ مَاذَا كُنْتَ تَقُولُ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُولُ غَرَّنِي سُتُورُكَ الْمُرْخَاةِ، لِأَنَّ الْكَرِيمَ هُوَ السَّتَّارُ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ﴾ أَيْ قَدَّرَ خَلْقَكَ مِنْ نُطْفَةٍ ﴿فَسَوَّاكَ﴾ فِي بَطْنِ أُمِّكَ، وَجَعَلَ لَكَ يَدَيْنِ وَرِجْلَيْنِ وَعَيْنَيْنِ وَسَائِرَ أَعْضَائِكَ ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أَيْ قَوَّمَكَ وَجَعَلَكَ مُعْتَدِلَ الْخَلْقِ وَالْأَعْضَاءِ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: فِي أَيِّ شَبَهٍ مِنْ أَبٍ أَوْ أُمٍّ أَوْ عَمٍّ، وَذَكَرَ الْفَرَّاءُ قَوْلًا آخَرَ، إِمَّا طَوِيلًا أَوْ قَصِيرًا أَوْ حَسَنًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ بِالْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ ، قَالَ قَتَادَةُ: يَوْمُ شِدَّةٍ، يَوْمٌ يَدِينُ اللهُ الْعِبَادَ بِأَعْمَالِهِمْ .

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ رُقَبَاءَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُونَ عَلَيْكُمْ أعمالكم.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كِرَامًا﴾ على الله، ﴿كَاتِبِينَ﴾ يَكْتُبُونَ أَقْوَالَكُمْ وَأَعْمَالَكُمْ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، سُئِلَ سُفْيَانُ: كَيْفَ تَعْلَمُ الْمَلَائِكَةُ أَنَّ الْعَبْدَ قَدْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ أَوْ سَيِّئَةٍ؟ قَالَ: إِذَا هَمَّ الْعَبْدُ بِحَسَنَةٍ

وَجَدُوا مِنْهُ رِيحَ الْمِسْكِ، وَإِذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ وَجَدُوا مِنْهُ ريح النتن، وَعَنِ الْحَسَنِ البصري قَالَ : يَعْلَمُونَ لَا يَخْفَىٰ عليهم شي مِنْ أَعْمَالِكُمْ ، وَقِيلَ: يَعْلَمُونَ مَا ظَهَرَ مِنْكُمْ دُونَ مَا حَدَّثْتُمْ بِهِ أَنْفُسَكُمْ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ الْأَبْرَارُ الَّذِينَ بَرُّوا وَصَدَقُوا فِي إِيمَانِهِمْ بِأَدَاءِ فَرَائِضِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ، والْأَبْرار: جَمْعُ بَرٍّ بِفَتْحِ الْبَاءِ وَهُوَ التَّقِيُّ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ الْفَاجِرُ: الْمُتَّصِفُ بِالْفُجُورِ وَهُوَ ضِدُّ البرور.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها، وَالْفَاجِرُ: الْمُتَّصِفُ بِالْفُجُورِ وَهُوَ ضِدُّ البرور، ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم القيامة.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ أَيْ: بَلْ هُمْ مُلَازِمُونَ لَهَا، لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَيْ لَا يَغِيبُونَ عَنِ الْعَذَابِ سَاعَةً وَاحِدَةً، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا، وَلَا يُجَابُونَ إِلَىٰ مَا يَسْأَلُونَ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الرَّاحَةِ وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا ثُمَّ عَظَّمَ ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَقَالَ:

[١٧] : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ كرر تفخيما لِشَأْنِهِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كل شي مِنَ الْقُرْآنِ مِنْ قَوْلِهِ: وَما أَدْراكَ؟ فَقَدْ أدراه.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ وَكَرَّرَهُ تَعْظِيمًا لِقَدْرِهِ وَتَفْخِيمًا لِشَأْنِهِ، وَتَهْوِيلًا لِأَمْرِهِ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي لا يقدر أحد عَلَىٰ نَفْعِ أَحَدٍ وَلَا خَلَاصِهِ مِمَّا هُوَ فِيهِ، إِلَّا أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَآءُ ويرضىٰ، قَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي لِنَفْسٍ كَافِرَةٍ شَيْئًا مِنَ الْمَنْفَعَةِ، وَفِي الْحَدِيثِ قَالَ عَلَيْهِ الصلاة والسَّلَامُ: «**يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا**»[١]؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ أي يوم لا يُمَلِّكِ اللهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَحَدًا شَيْئًا كَمَا مَلَّكَهُمْ فِي الدنيا.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الِانْفِطَارِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

---

(١) مسلم (٢٠٤).

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

وَهِيَ سُورَةٌ مَدَنِيَّةٌ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَالَ لَمَّا قَدِمَ النَّبِيءُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ كَانُوا مِنْ أَخْبَثِ النَّاسِ كَيْلًا، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ فَأَحْسَنُوا الْكَيْلَ بَعْدَ ذَلِكَ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ يَنْقُصُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ويبخسون حقوق الناس، قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الْمُطَفِّفُ مَأْخُوذٌ مِنَ الطَّفِيفِ، وَهُوَ الْقَلِيلُ، وَالْمُطَفِّفُ هُوَ الْمُقِلُّ حَقَّ صَاحِبِهِ بِنُقْصَانِهِ عَنِ الْحَقِّ، فِي كَيْلٍ أَوْ وَزْنٍ، ثم بين الْمُطَفِّفِينَ مَنْ هُمْ فَقَالَ:

[٢]: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَىٰ النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ وَأَرَادَ إِذَا اكْتَالُوا مِنَ النَّاسِ أَيْ أَخَذُوا مِنْهُمْ، قَالَ الْفَرَّاءُ: أَيْ مِنَ النَّاسِ يُقَالُ: اكْتَلْتُ مِنْكَ: أَيِ اسْتَوْفَيْتُ مِنْكَ وَيُقَالُ اكْتَلْتُ مَا عَلَيْكَ: أَيْ أَخَذْتُ مَا عَلَيْكَ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: أَيْ إِذَا اكْتَالُوا مِنَ النَّاسِ اسْتَوْفَوْا عَلَيْهِمُ الْكَيْلَ، وَالْمَعْنَىٰ: الَّذِينَ إِذَا اسْتَوْفَوْا أَخَذُوا الزِّيَادَةَ، وَإِذَا أَوْفَوْا أَوْ وَزَنُوا لِغَيْرِهِمْ نَقَصُوا، فَلَا يَرْضَوْنَ لِلنَّاسِ مَا يَرْضَوْنَ لِأَنْفُسِهِمْ. الطَّبَرِيُّ: عَلَىٰ بِمَعْنَىٰ عِنْدَ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ أَيْ كَالُوا لَهُمْ أَوْ وَزَنُوا لهم أي للناس، وقوله: (يُخْسِرُونَ) أي ينقصون، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خَمْسٌ بِخَمْسٍ: مَا نَقَضَ قَوْمُ الْعَهْدَ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ، وَلَا حَكَمُوا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الْفَقْرُ، وَمَا ظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ فِيهِمْ إِلَّا ظَهَرَ فِيهِمُ الطَّاعُونُ، وَمَا طَفَّفُوا الْكَيْلَ إِلَّا مُنِعُوا النَّبَاتَ، وَأُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَلَا مَنَعُوا الزَّكَاةَ إِلَّا حَبَسَ اللهُ عَنْهُمُ الْمَطَرَ**»(١) ، قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: وَسَمِعْتُ أَعْرَابِيَّةً تَقُولُ: لَا تَلْتَمِسِ الْمُرُوءَةَ مِمَّنْ مُرُوءَتُهُ فِي رُؤُوسِ الْمَكَايِيلِ، وَلَا أَلْسِنَةِ الْمَوَازِينَ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ يستيقن، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَالظَّنُّ هُنَا بِمَعْنَىٰ الْيَقِينِ، أَيْ أَلَا يُوقِنُ أُولَئِكَ، وَلَوْ أَيْقَنُوا مَا نَقَصُوا فِي الْكَيْلِ وَالْوَزْنِ، ﴿أُولَئِكَ﴾ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ، إنكار وتعجيب عَظِيمٌ مِنْ حَالِهِمْ، فِي الدرأة عَلَىٰ التَّطْفِيفِ، كَأَنَّهُمْ لَا يُخْطِرُونَ التَّطْفِيفَ بِبَالِهِمْ، وَلَا يُخَمِّنُونَ تَخْمِينًا ﴿أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ فَمَسْئُولُونَ عَمَّا يَفْعَلُونَ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَفِي هَذَا الْإِنْكَارِ وَالتَّعْجِيبِ وَكَلِمَةِ الظَّنِّ، وَوَصْفِ الْيَوْمِ بِالْعَظِيمِ، وَقِيَامِ النَّاسِ فِيهِ لِلَّهِ خَاضِعِينَ، وَوَصْفِ ذَاتِهِ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، بَيَانٌ بَلِيغٌ لِعِظَمِ الذَّنْبِ، وَتَفَاقُمِ الْإِثْمِ

(١) المعجم الكبير (١١١٣٤) .

فِي التَّطْفِيفِ، وَفِيمَا كَانَ فِي مِثْلِ حَالِهِ مِنَ الْحَيْفِ، وَتَرْكِ الْقِيَامِ بِالْقِسْطِ، وَالْعَمَلِ عَلَىٰ التَّسْوِيَةِ وَالْعَدْلِ، فِي كُلِّ أَخْذٍ وَإِعْطَاءٍ، بَلْ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾ من قبورهم، ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي لأمره ولجزائه ولحسابه، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: يَقُومُونَ مِقْدَارَ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ. قَالَ: وَيُهَوَّنُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ قَدْرَ صَلَاتِهِمُ الْفَرِيضَةَ، وفي الصحيحين مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ قَالَ: « **يَقُومُ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَىٰ نِصْفِ أُذُنَيْهِ** »(١)، ثُمَّ قِيلَ: هَذَا الْقِيَامُ يَوْمَ يَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ. وَقِيلَ: فِي الْآخِرَةِ بِحُقُوقِ عِبَادِهِ فِي الدُّنْيَا، وَقَالَ يَزِيدُ الرَّشْكُ: يَقُومُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ لِلْقَضَاءِ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ أَيْ لَيْسَ الْأَمْرُ عَلَىٰ مَا هُمْ عَلَيْهِ فَلْيَرْتَدِعُوا، وَتَمَامُ الْكَلَامِ هَاهُنَا، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: كَلَّا ابْتِدَاءٌ يَتَّصِلُ بِمَا بَعْدَهُ عَلَىٰ مَعْنَىٰ حَقًّا، ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾ الَّذِي كُتِبَتْ فِيهِ أَعْمَالُهُمْ، ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو: ﴿سِجِّينٌ﴾ هِيَ الْأَرْضُ السَّابِعَةُ السُّفْلَىٰ فيها أرواح الكفار. وقال عكرمة: ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ أَيْ لَفِي خَسَارٍ وَضَلَالٍ، وَقَالَ الْأَخْفَشُ: هُوَ فِعِّيلٌ مِنَ السِّجْنِ، كَمَا يُقَالُ: فِسِّيقٌ وَشِرِّيبٌ، مَعْنَاهُ لَفِي حَبْسٍ وَضِيقٍ شَدِيدٍ، وَفِي

---

(١) البخاري (٤٩٣٨) ومسلم (٢٨٦٢).

حَدِيثِ الْبَرَاءِ فِي خُرُوجِ رُوحِ الْكَافِرِ وَالْفَاجِرِ : « **لَا تُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ، فِي الْأَرْضِ السُّفْلَىٰ** »[1] .

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ هُوَ تَعْظِيمٌ لِأَمْرِ سِجِّينٍ، قَالَ الزَّجَّاجُ: أَيْ لَيْسَ ذَلِكَ مِمَّا كُنْتَ تَعْلَمُهُ أَنْتَ وَلَا قومك.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ قال البغوي : لَيْسَ هَذَا تَفْسِيرُ السَّجِينِ بَلْ هُوَ بَيَانُ الْكِتَابِ الْمَذْكُورِ فِي قوله: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾ أَيْ مَكْتُوبٌ كَالرَّقْمِ فِي الثَّوْبِ، لَا يُنْسَىٰ وَلَا يُمْحَىٰ، وَقَالَ قَتَادَةُ: مَرْقُومٌ أَيْ مَكْتُوبٌ، رُقِمَ لَهُمْ بِشَرٍّ: لَا يُزَادُ فِيهِمْ أَحَدٌ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُمْ أَحَدٌ، أي هو كتاب الفجار مَرْقُومٌ، أَيْ مَكْتُوبٌ فِيهِ أَعْمَالُهُمْ مُثْبَتَةٌ عَلَيْهِمْ كَالرَّقْمِ فِي الثَّوْبِ، لَا يُنْسَىٰ وَلَا يُمْحَىٰ حَتَّىٰ يجازوا به.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أَيْ شِدَّةٌ وَعَذَابٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْمُكَذِّبِينَ، ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَىٰ أَمْرَهُمْ فَقَالَ :

[١١] : ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أَيْ بِيَوْمِ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ وَالْفَصْلِ بَيْنَ الْعِبَادِ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أَيْ فَاجِرٍ جَائِرٍ عَنِ الْحَقِّ، مُعْتَدٍ عَلَى الْخَلْقِ فِي مُعَامَلَتِهِ إِيَّاهُمْ وَعَلَىٰ نَفْسِهِ، وَهُوَ أَثِيمٌ فِي تَرْكِ أَمْرِ

---

(١) أحمد (١٨٥٣٤) .

اللهِ ، وَالْاعْتِدَاءُ: مُبَالَغَةٌ فِي الْعُدْوَانِ فَالْافْتِعَالُ فِيهِ لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ الشِّدَّةِ ، وَالْأَثِيمُ: كَثِيرُ الْإِثْمِ، وَهُوَ فَعِيلٌ مِنْ أَمْثِلَةِ الْمُبَالَغَةِ .

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَحَادِيثُهُمْ وَأَبَاطِيلُهُمُ الَّتِي كَتَبُوهَا وَزَخْرَفُوهَا.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا﴾ كَلَّا: رَدْعٌ وَزَجْرٌ، أَيْ لَيْسَ هُوَ أَسَاطِيرَ الْأَوَّلِينَ. قَالَ مُقَاتِلٌ: أَيْ لَا يُؤْمِنُونَ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ فَقَالَ: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ جاء فِي سنن التِّرْمِذِيِّ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ اللهَ وَتَابَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا، حَتَّىٰ تَعْلُوَ عَلَىٰ قَلْبِهِ ، وَهُوَ (الرَّانُّ) الَّذِي ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ:** ﴿كَلَّا بَلْ رانَ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كانُوا يَكْسِبُونَ﴾»(١)، والرَّيْنِ في اللغة الْغَلَبَةُ، يُقَالُ: رَانَتِ الْخَمْرُ عَلَىٰ عَقْلِهِ تَرِينُ إذا غلبت عليه حتىٰ سكر، وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: غَلَبَتْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمُ الْمَعَاصِي وَأَحَاطَتْ بِهَا. قَالَ الْحَسَنُ: هُوَ الذَّنْبُ عَلَىٰ الذَّنْبِ حَتَّىٰ يَمُوتَ الْقَلْبُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ طَبَعَ عَلَيْهَا، قَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ الرَّجُلُ يُذْنِبُ الذَّنْبَ، فَيُحِيطُ الذَّنْبُ بِقَلْبِهِ، ثُمَّ يُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيُحِيطُ الذَّنْبُ بِقَلْبِهِ، حَتَّىٰ تُغْشِيَ الذُّنُوبُ قَلْبَهُ، وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ صَارَ فِي قَلْبِهِ كَوَخْزَةِ الْإِبْرَةِ، ثُمَّ صَارَ

---

(١) أحمد (٧٩٥٢) والترمذي (٣٣٣٤) .

إِذَا أَذْنَبَ ثَانِيًا صَارَ كَذَلِكَ، ثُمَّ إِذَا كَثُرَتِ الذُّنُوبُ صَارَ الْقَلْبُ كَالْمُنْخُلِ، أَوْ كَالْغِرْبَالِ، لَا يَعِي خَيْرًا، وَلَا يَثْبُتُ فِيهِ صَلَاحٌ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كلَّا: يُرِيدُ لَا يُصَدِّقُونَ، أَيْ: بَلْ هُمْ مَمْنُوعُونَ عَنْ رُؤْيَتِهِ تَعَالَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قَالَ قَتَادَةُ: هُوَ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: كَمَا حَجَبَهُمْ فِي الدُّنْيَا عَنْ تَوْحِيدِهِ حَجَبَهُمْ فِي الْعُقْبَىٰ عَنْ رُؤْيَتِهِ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ﴾ لَدَاخِلُو النَّارِ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ أَيْ تَقُولُ لَهُمُ الْخَزَنَةُ، ﴿هَذَا﴾ أَيْ هَذَا الْعَذَابُ، ﴿الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ هَذَا التَّكْذِيبُ لِلرُّسُلِ فِي الدُّنْيَا أَوْصَلَكُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: لَا يُؤْمِنُ بِالْعَذَابِ الَّذِي يَصْلَاهُ ثُمَّ بَيَّنَ مَحَلَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ ، و﴿عِلِّيِّينَ﴾ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَمُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ مَرْفُوعًا -فِي ارْتِفَاعِ رُوحِ الْمُؤْمِنِ بَعْدَ نَزْعِهَا إِلَىٰ طَبَقَاتِ السَّمَاءِ: «**فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا، إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّىٰ يُنْتَهَىٰ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ**» ، وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْمَعَانِي: عُلُوٌّ بَعْدَ عُلُوٍّ وَشَرَفٌ بَعْدَ شَرَفٍ، وَلِذَلِكَ جُمِعَتْ بِالْيَاءِ والنون.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ مَا أَعْلَمَكَ يَا مُحَمَّدُ أَيُّ شَيْءٍ عِلِّيُّونَ؟ عَلَىٰ جِهَةِ التَّفْخِيمِ وَالتَّعْظِيمِ لِعِلِّيِّينَ، ثُمَّ فَسَّرَهُ فَقَالَ:

[٢٠]: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ لَيْسَ هَذَا بِتَفْسِيرِ عِلِّيِّينَ، بَلْ هُوَ بَيَانُ الْكِتَابِ الْمَذْكُورِ، أَيْ مَكْتُوبٌ أَعْمَالُهُمْ كَمَا ذَكَرْنَا في كتاب الفجار.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ فِي عِلِّيِّينَ يَشْهَدُونَ وَيَحْضُرُونَ ذَلِكَ الْمَكْتُوبَ، أَوْ ذَلِكَ الْكِتَابَ إِذَا صُعِدَ بِهِ إِلَىٰ عِلِّيِّينَ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ الَّذِينَ بَرُّوا بِاتِّقَاءِ اللهِ، وَأَدَاءِ فَرَائِضِهِ، لَفِي نَعِيمٍ دَائِمٍ، لَا يَزُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَذَلِكَ نَعِيمُهُمْ فِي الْجِنَّانِ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ إِلَىٰ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالنِّعْمَةِ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: يَنْظُرُونَ إِلىٰ عدوهم كيف يعذبون.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ إِذَا رَأَيْتَهُمْ عَرَفْتَ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ النِّعْمَةِ مِمَّا تَرَىٰ فِي وُجُوهِهِمْ مِنَ النُّورِ وَالْحُسْنِ وَالْبَيَاضِ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ﴾ خَمْرٌ صَافِيَةٌ طَيِّبَةٌ، وَالرَّحِيقُ مِنْ أَسْمَاءِ الْخَمْرِ، وَهُوَ مِنَ الْخَمْرِ مَا لَا غِشَّ فِيهِ وَلَا شَيْءَ يُفْسِدُهُ ﴿مَخْتُومٍ﴾ خُتِمَ وَمُنِعَ مِنْ أَنْ تَمَسَّهُ يَدٌ إِلَى أَنْ يَفُكَّ خَتْمَهُ الْأَبْرَارُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مَخْتُومٍ﴾ أَيْ مطين.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ أَيْ طِينُهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: طَيَّبَ اللهُ لَهُمُ الْخَمْرَ، فَكَانَ آخِرَ شَيْءٍ جُعِلَ فِيهَا مِسْكٌ، خُتِمَ بِمِسْكٍ، وقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: خِتَامُهُ

عِنْدَ اللهِ مِسْكٌ وَخِتَامُ خَمْرِ الدُّنْيَا طين ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ فَلْيَرْغَبِ الرَّاغِبُونَ بِالْمُبَادَرَةِ إِلَىٰ طَاعَةِ الله ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ .

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ شراب يَنْصَبُّ عَلَيْهِمْ مِنْ عُلْوٍ فِي غرفهم ومنازلهم، وأصل كلمة السنام مِنَ الْعُلُوِّ، يُقَالُ لِلشَّيْءِ الْمُرْتَفِعِ: سنام، ومنه سنام البعير.

[٢٨] قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ (يَشْرَبُ بِهَا) أَيْ مِنْهَا، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: عَيْنٌ فِي الْجَنَّةِ يَشْرَبُهَا الْمُقَرَّبُونَ صِرْفًا (يعني براسها بدون خلط)، وتمزج لأصحاب اليمين.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ أشركوا يعني كفار قريش، ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من فقراء المؤمنين ﴿يَضْحَكُونَ﴾ وَبِهِمْ يَسْتَهْزِءُونَ .

[٣٠] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ﴾ يَعْنِي مَرَّ الْمُؤْمِنُونَ بِالْكُفَّارِ، ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ وَالْغَمْزُ الْإِشَارَةُ بِالْجَفْنِ وَالْحَاجِبِ، أَيْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْأَعْيُنِ اسْتِهْزَاءً ، قَالَ قَتَادَةُ: فِي الدُّنْيَا، يَقُولُونَ: وَاللهِ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَكَذَبَةٌ، وَمَا هُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ، اسْتِهْزَاءً بِهِمْ.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا﴾ يَعْنِي الْكُفَّارَ، ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ مُعْجَبِينَ بِمَا هُمْ فِيهِ يَتَفَكَّهُونَ بذكرهم ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ: رَجَعَ هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمُونَ إِلَىٰ مَنَازِلِهِمْ، انْقَلَبُوا إِلَيْهَا فَاكِهِينَ، أَيْ: مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا، وَمَعَ

هَذَا مَا شَكَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِمْ، بَلِ اشْتَغَلُوا بِالْقَوْمِ الْمُؤْمِنِينَ يَحْتَقِرُونَهُمْ وَيَحْسُدُونَهُمْ.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ رَأَوْا أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ يَأْتُونَ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أُرْسِلُوا﴾ يعني المشركين، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعني علىٰ المؤمنين، ﴿حَافِظِينَ﴾ أَعْمَالَهُمْ، أَيْ لَمْ يُوَكَّلُوا بِحِفْظِ أعمالهم ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: وَمَا أُرْسِلُوا وُكَلَاءَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ مُلْزَمِينَ بِحِفْظِ أَعْمَالِهِمْ، حَتَّىٰ يَحْرَصُوا عَلَىٰ رَمْيِهِمْ بِالضَّلَالِ، وَمَا هَذَا مِنْهُمْ إِلَّا تَعَنُّتٌ وَعِنَادٌ وَتَلَاعُبٌ، لَيْسَ لَهُ مُسْتَنَدٌ وَلَا بُرْهَانٌ، وَلِهَذَا كَانَ جَزَاؤُهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾، ﴿فَالْيَوْمَ﴾ يَعْنِي هَذَا الْيَوْمَ الَّذِي هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ كَمَا ضَحِكَ الْكُفَّارُ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا ، فَقَلَبَ اللهُ الصُّورَةَ وَحَاقَ الْمَكْرُ بِأَهْلِهِ، فَعَزَّ الْمُؤْمِنِينَ وَأَخْزَىٰ الْكَافِرِينَ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَىٰ الْأَرَائِكِ﴾ أَيْ: يَنْظُرُونَ إِلَىٰ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَهُمْ عَلَىٰ سُرُرِهِمْ، وَإِلَىٰ خِزْيِ وَعَذَابِ الْكَافِرِينَ، قَالَ النَّسَفِيُّ: ﴿عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ حَالٌ، أَيْ يَضْحَكُونَ مِنْهُمْ نَاظِرِينَ إِلَيْهِمْ وَإِلَىٰ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْهَوَانِ وَالصَّغَارِ، بَعْدَ الْعِزَّةِ وَالِاسْتِكْبَارِ، وَهُمْ ﴿عَلَىٰ الْأَرَائِكِ آمِنُونَ﴾ ، وقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿عَلَىٰ

الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾أَيْ: إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي مُقَابَلَةِ مَنْ زَعَمَ فِيهِمْ أَنَّهُمْ ضَالُّونَ، وَلَيْسُوا بِضَالِّينَ، بَلْ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ الْمُقَرَّبِينَ، يَنْظُرُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ﴾ هَلْ جُوزِيَ بِسُخْرِيَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا بِالْمُؤْمِنِينَ إِذَا فَعَلَ بِهِمْ ذَلِكَ ، وَهُوَ مِنْ ثَابَ يَثُوبُ أَيْ رَجَعَ، فَالثَّوَابُ مَا يَرْجِعُ عَلَىٰ الْعَبْدِ فِي مُقَابَلَةِ عَمَلِهِ، وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أَيْ جَزَاءَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِالْمُؤْمِنِينَ وَمَعْنَىٰ الِاسْتِفْهَامِ هَاهُنَا: التَّقْرِيرُ. وَثُوِّبَ وَأُثِيبَ وَأَثَابَ بِمَعْنًىٰ وَاحِدٍ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الِانْشِقَاقِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ أَيِ انْصَدَعَتْ، وَتَفَطَّرَتْ، وانْشِقَاقُهَا مِنْ عَلَامَاتِ الْقِيَامَةِ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أَيْ سَمِعَتْ أَمْرَ رَبِّهَا بِالِانْشِقَاقِ وَأَطَاعَتْهُ، مِنَ الْأُذُنِ وَهُوَ الِاسْتِمَاعُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ كَإِذْنِهِ لِنَبِيٍّ يَتَغَنَّىٰ بِالْقُرْآنِ**»(١)، أَيْ مَا اسْتَمَعَ اللهُ لِشَيْءٍ ﴿وَحُقَّتْ﴾ أَيْ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تُطِيعَ ربها، قَالَ الضَّحَّاكُ: حُقَّتْ: أَطَاعَتْ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تُطِيعَ رَبَّهَا، لِأَنَّهُ خَلَقَهَا.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ تُمَدُّ مَدَّ الْأَدِيمِ يعني الجلد، لِأَنَّ الْأَدِيمَ إِذَا مُدَّ زَالَ كُلُّ انْثِنَاءٍ فِيهِ وَامْتَدَّ وَاسْتَوَىٰ، وَزِيدَ فِي سعتها، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:

---

(١) البخاري (٥٠٢٤) ومسلم (٧٩٢).

وَيُزَادُ وَسِعَتُهَا كَذَا وَكَذَا، لِوُقُوفِ الْخَلَائِقِ عَلَيْهَا لِلْحِسَابِ حَتَّىٰ لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ إِلَّا مَوْضِعُ قَدَمِهِ، لِكَثْرَةِ الْخَلَائِقِ فِيهَا.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَلْقَتْ﴾ أخرجت، ﴿مَا فِيهَا﴾ من الموتىٰ والكنوز، ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ خَلَتْ مِنْهَا ، قَالَ سعيد بْنُ جُبَيْرٍ: أَلْقَتْ مَا فِي بَطْنِهَا مِنَ الْمَوْتَىٰ، وَتَخَلَّتْ مِمَّنْ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنَ الْأَحْيَاءِ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أَيْ فِي إِلْقَاءِ مَوْتَاهَا ﴿وَحُقَّتْ﴾ أَيْ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَسْمَعَ أَمْرَهُ ، وَاخْتُلِفَ فِي جَوَابِ إِذَا فَقَالَ الْفَرَّاءُ: أَذِنَتْ ، وَالْوَاوُ زَائِدَةٌ، وَكَذَلِكَ وَأَلْقَتْ ، وقِيلَ: جَوَابُهُ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ يَرَىٰ الْإِنْسَانُ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ، وَقِيلَ جَوَابُهُ:

[٦] : ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ الْمُرَادُ بِالْإِنْسَانِ الْجِنْسُ أَيْ يَا ابْنَ آدَمَ ، يَعْنِي أَيُّ إِنْسَانٍ ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ أَيْ سَاعٍ إِلَيْهِ فِي عملك، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّكَ كادِحٌ أَيْ رَاجِعٌ إِلىٰ رَبِّكَ كَدْحًا أَيْ رُجُوعًا لَا مَحَالَةَ والكدح: سعي الْإِنْسَانِ وَجُهْدُهُ فِي الْأَمْرِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ حَتَّىٰ يَكْدَحَ ذَلِكَ فيه، أي يؤثر ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ أَيْ مُلَاقِي جَزَاءَ عَمَلِكَ خَيْرًا كَانَ أَوْ شَرًّا، وَالْمُلَاقَاةُ بِمَعْنَىٰ اللِّقَاءِ أَنْ تَلْقَىٰ رَبَّكَ بِعَمَلِكَ ، وَقِيلَ : أَيْ تُلَاقِي كِتَابَ عَمَلِكَ، لِأَنَّ الْعَمَلَ قَدِ انْقَضَىٰ وَلِهَذَا قَالَ

[٧] : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ﴾ دِيوَانُ أَعْمَالِهِ ، ﴿بِيَمِينِهِ﴾ وَهُوَ الْمُؤْمِنُ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ لَا مُنَاقَشَةَ فِيهِ ، كما أخرج البخاري مِنْ حَدِيثِ أم المؤمنين عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ** » ، قَالَتْ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللهُ : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ . فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً ﴾ ؟ فَقَالَ: **لَيْسَ ذَاكَ الْحِسَابَ، إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ**»(١).

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ يَعْنِي فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْحُورِ العين والآدميات، ﴿مَسْرُورًا﴾ بِمَا أُوتِيَ مِنَ الْخَيْرِ وَالْكَرَامَةِ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ أي: بشماله من خلفه، فَتُغَلُّ يَدُهُ الْيُمْنَىٰ إِلَىٰ عُنُقِهِ وَتُجْعَلُ يَدُهُ الشِّمَالُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، فَيُؤْتَىٰ كِتَابَهُ بِشَمَالِهِ مِنْ وَرَاءِ ظهره.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ يُنَادِي بِالْوَيْلِ وَالْهَلَاكِ إِذَا قَرَأَ كِتَابَهُ يَقُولُ: يَا وَيْلَاهُ يَا ثبوراه ، وَالْمَثْبُورُ: الَّذِي أَصَابَهُ الثُّبُورُ وَهُوَ الْهَلَاكُ ، وَهَذَا نِذَارَةٌ وَتَهْدِيدٌ لِفِرْعَوْنَ بِقُرْبِ هَلَاكِهِ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَصْلىٰ سَعِيراً﴾ أَيْ وَيَدْخُلُ النَّارَ حَتَّىٰ يَصْلَىٰ بَحَرِّهَا.

---

(١) البخاري (٤٩٣٩) ومسلم (٢٨٧٦) .

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ يَعْنِي فِي الدُّنْيَا بِاتِّبَاعِ هَوَاهُ وَرُكُوبِ شَهْوَتِهِ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: وَصَفَ اللهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ بِالْمَخَافَةِ وَالْحُزْنِ وَالْبُكَاءِ وَالشَّفَقَةِ فِي الدُّنْيَا فَأَعْقَبَهُمْ بِهِ النَّعِيمَ وَالسُّرُورَ فِي الْآخِرَةِ، وَقَرَأَ قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ. فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنا وَوَقانا عَذابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٦-٢٧]، قَالَ: وَوَصَفَ أَهْلَ النَّارِ بِالسُّرُورِ فِي الدُّنْيَا وَالضَّحِكِ فِيهَا وَالتَّفَكُّهِ، فَقَالَ: إِنَّهُ كانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ أَنْ لَنْ يَرْجِعَ إِلَيْنَا وَلَنْ يبعث، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا كُنْتُ أَدْرِي: مَا يَحُورُ؟ حَتَّىٰ سَمِعْتُ أَعْرَابِيَّةً تَدْعُو بُنَيَّةً لَهَا: حُورِيُّ، أَي ارْجِعِي إِلَيَّ، فَالْحَوْرُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الرُّجُوعُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ**»[1]، يَعْنِي: مِنَ الرُّجُوعِ إِلَىٰ النُّقْصَانِ بَعْدَ الزِّيَادَةِ، ثم قال:

[١٥]: ﴿بَلَىٰ﴾ أَيْ لَيْسَ كَمَا ظَنَّ بَلْ يَحُورُ إِلَيْنَا وَيُبْعَثُ ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُ، عَالِمًا بِأَنَّ مَرْجِعَهُ إِلَيْهِ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ أَيْ بِالْحُمْرَةِ الَّتِي تَكُونُ عِنْدَ مَغِيبِ الشَّمْسِ، حَتَّىٰ تَأْتِيَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ الْآخِرَةَ، وَقَالَ قَوْمٌ: هُوَ الْبَيَاضُ الَّذِي يَعْقُبُ تِلْكَ الْحُمْرَةَ.

---

(١) مسلم (١٣٤٣).

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي: والليل وما جَمَعَ وحَمَلَ، فَإِنَّهُ جَمَعَ وَضَمَّ مَا كَانَ مُنْتَشِرًا بِالنَّهَارِ فِي تَصَرُّفِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّيْلَ إِذَا أَقْبَلَ آوَىٰ كُلَّ شَيْءٍ إِلَىٰ مَأْوَاهُ يُقَالُ: وَسَقْتُهُ أَيْ جَمَعْتُهُ، وَاسْتَوْسَقَتِ الْإِبِلُ إِذَا اجْتَمَعَتْ وَانْضَمَّتْ، وَالْمَعْنَىٰ: وَاللَّيْلِ وَمَا جَمَعَ وَضَمَّ مَا كَانَ بِالنَّهَارِ مُنْتَشِرًا مِنَ الدَّوَابِّ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّيْلَ إِذَا أَقْبَلَ أَوَىٰ كُلُّ شَيْءٍ إِلَىٰ مَأْوَاهُ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ اجْتَمَعَ وَاسْتَوَىٰ وَتَمَّ نُورُهُ، وَهُوَ فِي الأيام البيض، قَالَ الْحَسَنُ البصري: اتَّسَقَ: أَيِ امْتَلَأَ وَاجْتَمَعَ، يُقَالُ: أَمْرُ فُلَانٍ مُتَّسِقٌ: أَيْ مُجْتَمِعٌ عَلَىٰ الصَّلَاحِ مُنْتَظِمٌ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ يَعْنِي لَتَرْكَبَنَّ يا محمد، قَالَ الشَّعْبِيُّ وَمُجَاهِدٌ: سَمَاءً بَعْدَ سَمَاءٍ، قَالَ الْكَلْبِيُّ: يَعْنِي تُصْعَدُ فِيهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ دَرَجَةً بَعْدَ دَرَجَةٍ وَرُتْبَةً بَعْدَ رُتْبَةٍ فِي الْقُرْبِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ والرفعة، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ حَالًا بَعْدَ حَالٍ، قَالَ: هَذَا نَبِيُّكُمْ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقِيلَ: أَرَادَ بِهِ السَّمَاءَ تَتَغَيَّرُ لَوْنًا بَعْدَ لَوْنٍ، فَتَصِيرُ تَارَةً كَالدِّهَانِ وَتَارَةً كَالْمُهْلِ، فتنشق بِالْغَمَامِ مَرَّةً وَتُطْوَىٰ أُخْرَىٰ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي الْمَوْتَ ثُمَّ الْحَيَاةَ ثُمَّ الْمَوْتَ ثُمَّ الْحَيَاةَ، وَقَالَ عَطَاءٌ: مَرَّةً فَقِيرًا وَمَرَّةً غَنِيًا، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الشَّدَائِدَ وَالْأَهْوَالَ وَالْمَوْتَ، ثُمَّ الْبَعْثَ ثُمَّ الْعَرْضَ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ فَمَاذَا يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَا لَهُمْ إذا قرئت عليهم آيات الله ، وَهُوَ هَذَا الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ إِعْظَامًا وَإِكْرَامًا واحتراماً .

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ لَا يُصَلُّونَ وَلَا يَنْقَادُونَ لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ .

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ بِالْقُرْآنِ وَالْبَعْثِ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ التَّكْذِيبِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: يَكْتُمُونَ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أَيْ فَأَخْبِرْهُمْ يَا مُحَمَّدُ بِأَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أعد لهم عذابا إليمـاً.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ يَعْنِي لَكِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ أَيْ بِقُلُوبِهِمْ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي بِجَوَارِحِهِمْ ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ أَيْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أَيْ غَيْرُ مَنْقُوصٍ وَلَا مَقْطُوعٍ، يُقَالُ: مَنَنْتُ الْحَبْلَ: إِذَا قَطَعْتُهُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: غَيْرُ مَنْقُوصٍ، وقال مجاهد: غَيْرُ مَحْسُوبٍ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الِانْشِقَاقِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الْبُرُوجِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِاتِّفَاقٍ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ أَيْ: النُّجُومُ الْعِظَامُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْبُرُوجُ: النُّجُومُ، وَفِي التَّنْزِيلِ نَحْوُ ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]، وَالْبُرُوجُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْقُصُورُ، قَالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، الَّذِي وَعَدَ اللهُ الْخَلْقَ أَنْ يَجْمَعَهُمْ فِيهِ، وَيَضُمَّ فِيهِ أَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُمْ، وَقَاصِيَهُمْ وَدَانِيَهُمْ، الَّذِي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَغَيَّرَ، وَلَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ آخَرُ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَهُوَ الْقِيَامَةُ، وَبِالشَّاهِدِ وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَبِالْمَشْهُودِ وَهُوَ يَوْمُ عَرَفَةَ، فَقَدْ أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ بِسَنَدٍ حَسَنٍ - عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَاتِ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَالْيَوْمُ**

الْمَشْهُودُ يَوْمُ عَرَفَةَ، وَالشَّاهِدُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ » ، قَالَ: « **وَمَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَلَا غَرَبَتْ عَلَىٰ يَوْمٍ أفضلَ مِنْهُ، فيه ساعةٌ لا يُوافِقُها عَبْدٌ مؤمِنٌ يدعو الله بخير إلا استجابَ الله لهُ، ولا يَستعيذُ مِنْ شيءٍ إلا أعاذَهُ الله مِنْهُ** »[1].

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ أَيْ لُعِنَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ ﴿قُتِلَ﴾ فَهُوَ لُعِنَ ، وَالْأُخْدُودُ: الشَّقُّ الْمُسْتَطِيلُ فِي الْأَرْضِ كَالنَّهْرِ، وَجَمْعُهُ أَخَادِيدُ ، وَكَانَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ هَؤُلَاءِ قَوْمـًا كَافِرِينَ، وَلَدَيْهِمْ قَوْمٌ مُؤْمِنُونَ، فَرَاوَدُوهُمْ لِلدُّخُولِ فِي دِينِهِمْ، فَامْتَنَعَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ ذَلِكَ، فَشَقَّ الْكَافِرُونَ أُخْدُوداً فِي الْأَرْضِ، وَقَذَفُوا فِيهَا النَّارَ، وَقَعَدُوا حَوْلَهَا، وَفَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ، وَعَرَضُوهُمْ عَلَيْهَا، فَمَنِ اسْتَجَابَ لَهُمْ أَطْلَقُوهُ، وَمَنْ اسْتَمَرَّ عَلَىٰ الْإِيمَانِ قَذَفُوهُ فِي النَّارِ، وَهَذَا فِي غَايَةِ الْمُحَارَبَةِ لِلَّهِ وَلِحِزْبِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِهَذَا لَعَنَهُمُ اللهُ وَأَهْلَكَهُمْ وَتَوَعَّدَهُمْ فَقَالَ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ ثُمَّ فَسَّرَ الْأُخْدُودَ بِقَوْلِهِ:

[٥] : ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ الحطب الذي توقد به، قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: نَجَّىٰ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أُلْقُوا فِي النَّارِ بِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ قَبْلَ أَنْ تَمَسَّهُمُ النَّارُ ، وَخَرَجَتِ النَّارُ إِلَىٰ مَنْ عَلَىٰ شَفِيرِ الْأُخْدُودِ مِنَ الْكُفَّارِ فَأَحْرَقَتْهُمْ.

---

(١) الترمذي (٣٣٣٩) .

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ أَيْ عِنْدَ النَّارِ جُلُوسٌ يُعَذِّبُونَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانُوا قُعُوداً عَلَىٰ الْكَرَاسِيِّ عِنْدَ الْأُخْدُودِ ﴿وَهُمْ﴾ يَعْنِي الْمَلِكَ وَأَصْحَابَهُ الَّذِينَ خَدُّوا الْأُخْدُودَ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ مِنْ عَرْضِهِمْ عَلَىٰ النَّارِ وَإِرَادَتِهِمْ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَىٰ دِينِهِمْ، ﴿شُهُودٌ﴾ حُضُورٌ، أَيْ كَانُوا يَعْرِضُونَ الْكُفْرَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ، فَمَنْ أَبَىٰ أَلْقَوْهُ فِي النَّارِ وَهُمْ شُهُودٌ لِذَلِكَ التَّعْذِيبِ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مَا كَرِهُوا مِنْهُمْ، ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: مَا عَابُوا مِنْهُمْ، وَقِيلَ: مَا عَلِمُوا فِيهِمْ عَيْبًا، قَالَ الزَّجَّاجُ: مَا أَنْكَرُوا عَلَيْهِمْ ذَنْبًا إِلَّا إِيمَانَهُمْ بِاللهِ ﴿بِاللهِ الْعَزِيزِ﴾ أَيِ الغالب المنيع، ﴿الْحَمِيدِ﴾ أَيِ الْمَحْمُودِ فِي كُلِّ حَالٍ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ فِيهِمَا وَلَا نَدّ ﴿وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أَيْ عَالِمٌ بِأَعْمَالِ خَلْقِهِ لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خافية.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أَيْ حَرَّقُوهُمْ بِالنَّارِ. وَالْعَرَبُ تَقُولُ: فَتَنَ فُلَانٌ الدِّرْهَمَ وَالدِّينَارَ إِذَا أَدْخَلَهُ الْكَوْرَ لِيَنْظُرَ جَوْدَتَهُ، وَدِينَارٌ مَفْتُونٌ ، وَيُسَمَّىٰ الصَّائِغُ الْفَتَّانَ، وَكَذَلِكَ الشَّيْطَانُ ، ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ أَيْ مِنْ قَبِيحِ صَنِيعِهِمْ مَعَ مَا أَظْهَرَهُ اللهُ لِهَذَا الْمَلِكِ الْجَبَّارِ الظَّالِمِ وَقَوْمِهِ مِنَ الْآيَاتِ وَالْبَيِّنَاتِ عَلَىٰ يَدِ الْغُلَامِ ، قَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللهُ: انْظُرُوا إِلَىٰ هَذَا الْكَرَمِ وَالْجُودِ،

هُمْ قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ وَأَهْلَ طَاعَتِهِ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ التَّوْبَةِ ، ﴿فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ﴾ لِكُفْرِهِمْ ، ﴿وَلَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ﴾ فِي الدُّنْيَا لِإِحْرَاقِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّارِ. وَالْحَرِيقُ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ جَهَنَّمَ، كَالسَّعِيرِ ، قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ فِي الدُّنْيَا، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ أَحْرَقَهُمْ بِالنَّارِ الَّتِي أحرقوا بها المؤمنين، وارتفعت إِلَيْهِمْ مِنَ الْأُخْدُودِ، ، ثُمَّ ذَكَرَ مَا أَعَدَّ لِلْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ:

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَانُوا آمَنُوا بِاللهِ، أَيْ صَدَّقُوا بِهِ وَبِرُسُلِهِ، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾ أَيْ بَسَاتِينَ، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَمِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَمِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّىٰ، ﴿ذلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ أَيِ الْعَظِيمُ، الذي لا فوز يشبهه.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ أَخْذَهُ بِالْعَذَابِ إِذَا أَخَذَ الظَّلَمَةَ لَشَدِيدٌ، الْبَطْشِ وَهُوَ: الْأَخْذُ الشَّدِيدُ بِعُنْفٍ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أَيْ يَخْلُقُهُمْ أَوَّلًا فِي الدُّنْيَا ثُمَّ يُعِيدُهُمْ أَحْيَاءً بَعْدَ الْمَوْتِ، قَالَ الْمُبَرِّدُ: إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ جَوَابُ الْقَسَمِ ، الْمَعْنَىٰ: وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ، وَمَا بَيْنَهُمَا مُعْتَرِضٌ مُؤَكِّدٌ لِلْقَسَمِ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ الَّذِي يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعَهَا لِمَنْ تَابَ، وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ لِمَنْ اسْتَغْفَرَهُ وَأَنَابَ، ﴿الْوَدُودُ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: الَّذِي يُحِبُّهُ أَحْبَابُهُ مَحَبَّةً لَا يُشْبِهُهَا شَيْءٌ فَكَمَا أَنَّهُ لَا يُشَابِهُهُ شَيْءٌ فِي صِفَاتِ الْجَلَالِ

وَالْجَمَالِ، وَالْمَعَانِي وَالْأَفْعَالِ، فَمَحَبَّتُهُ فِي قُلُوبِ خَوَاصِّ خَلْقِهِ، التَّابِعَةِ لِذَلِكَ، لَا يُشْبِهُهَا شَيْءٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَحَابِّ، وَلِهَذَا كَانَتْ مَحَبَّتُهُ أَصْلَ الْعُبُودِيَّةِ، وَهِيَ الْمَحَبَّةُ الَّتِي تَتَقَدَّمُ جَمِيعَ الْمَحَابِّ وَتَغْلِبُهَا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَيْرُهَا تَبَعًا لَهَا، كَانَتْ عَذَابًا عَلَىٰ أَهْلِهَا، وَهُوَ تَعَالَىٰ الْوَدُودُ، الْوَادُّ لِأَحْبَابِهِ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ أَيْ: صَاحِبُ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، الَّذِي مِنْ عَظَمَتِهِ، أَنَّهُ وَسِعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَخَصَّ اللهُ الْعَرْشَ بِالذِّكْرِ، لِعَظَمَتِهِ، وَلِأَنَّهُ أَخَصُّ الْمَخْلُوقَاتِ بِالْقُرْبِ مِنْهُ تَعَالَىٰ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ لَا يَحْجُزُهُ شَيْءٌ يُرِيدُهُ وَلَا يَمْتَنِعُ مِنْهُ شَيْءٌ طَلَبَهُ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ قَدْ أَتَاكَ خَبَرُ الْجُمُوعِ الْكَافِرَةِ الذين تجندوا علىٰ الأنبياء، ثُمَّ بَيَّنَ مَنْ هُمْ؟ يُؤْنِسُهُ بِذَلِكَ وَيُسَلِّيهِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَإِنَّمَا خَصَّ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ، لِأَنَّ ثَمُودَ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ وَقِصَّتُهُمْ عِنْدَهُمْ مَشْهُورَةٌ وَإِنْ كَانُوا مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَأَمْرُ فِرْعَوْنَ كَانَ مَشْهُورًا عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ، وَكَانَ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي الْهَلَاكِ، فَدَلَّ بِهِمَا علىٰ أمثالهما في الهلاك.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَىٰ التَّقْرِيرِ، الْمَعْنَىٰ: إِنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ مَا فَعَلَ اللهُ بِهِمْ حِينَ كَذَّبُوا أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنْ قَوْمِكَ يَا مُحَمَّدُ، ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ لك وللقرآن كدأب مِنْ قَبْلِهِمْ، وَلَمْ يَعْتَبِرُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ عَالِمٌ بِهِمْ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، يَقْدِرُ أَنْ يُنْزِلَ بِهِمْ مَا أَنْزَلَ بِمَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ. وَقِيلَ: أَيْ وَاللهُ عَالِمٌ بِهِمْ فَهُوَ يُجَازِيهِمْ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ كَرِيمٌ شَرِيفٌ كَثِيرُ الْخَيْرِ، لَيْسَ كَمَا زَعَمَ الْمُشْرِكُونَ أَنَّهُ شِعْرٌ وكهانة، هُوَ بَيَانُ مَا بِالنَّاسِ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، لَا كَمَا زَعَمَ الْمُشْرِكُونَ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ مَحْفُوظٌ مِنَ التَّبْدِيلِ وَالتَّغْيِيرِ وَالتَّحْرِيفِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وقيل: أَيْ مَكْتُوبٍ فِي لَوْحٍ، وَهُوَ مَحْفُوظٌ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ وُصُولِ الشَّيَاطِينِ إِلَيْهِ، وقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ: هُوَ فِي الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ مَحْفُوظٌ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ وَالتَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْبُرُوجِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الطَّارِقِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ ، عَنْ خَالِدِ بْنِ أَبِي جَبَلٍ الْعُدْوَانِيِّ: «أَنَّهُ أَبْصَرَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَشْرِقِ ثَقِيفٍ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ قَوْسٍ أَوْ عَصَا حِينَ أَتَاهُمْ يَبْتَغِي عِنْدَهُمُ النَّصْرَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: وَالسَّماءِ وَالطَّارِقِ حَتَّىٰ خَتَمَهَا قَالَ: «فَوَعَيْتُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ثُمَّ قَرَأْتُهَا فِي الْإِسْلَامِ»(١).

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ قسمان: السَّماءِ قسم، والطَّارِقِ قَسَمٌ، والطارق النَّجْمُ يَظْهَرُ بِاللَّيْلِ، وَمَا أَتَاكَ لَيْلًا فَهُوَ طَارِقٌ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُ فَقَالَ:

[٣] : ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ أَيِ الْمُضِيءُ الْمُنِيرُ، قَالَ مُجَاهِدٌ: المتوهج ، قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ: وَأَصْلُ الطَّرْقِ: الدَّقُّ، وَمِنْهُ سُمِّيَتِ الْمِطْرَقَةُ، فَسُمِّيَ قَاصِدُ اللَّيْلِ طَارِقًا، لِاحْتِيَاجِهِ فِي الْوُصُولِ إِلَىٰ الدَّقِّ ، قَالَ السَّعْدِيُّ : أَيْ: الْمُضِيءُ، الَّذِي يَثْقُبُ نُورُهُ، فَيَخْرِقُ السَّمَاوَاتِ ، فَيَنْفُذُ حَتَّىٰ يُرَىٰ فِي الْأَرْضِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ اسْمُ جِنْسٍ يَشْمَلُ سَائِرَ النُّجُومِ الثَّوَاقِبِ.

---

(١) أحمد (١٧٩٥١) .

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ هَذَا هُوَ جَوَابُ الْقَسَمِ ، ﴿لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ كُلُّ نَفْسٍ عَلَيْهَا حَافِظٌ مِنْ رَبِّهَا يَحْفَظُ عَمَلَهَا وَيُحْصِي عَلَيْهَا مَا تَكْتَسِبُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمُ الْحَفَظَةُ من الملائكة.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ اسْتِفْهَامٌ لِلتَّنْبِيهِ، أَيْ فَلْيَتَفَكَّرْ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ رَبُّهُ، أَيْ فَلْيَنْظُرْ نَظَرَ الْمُتَفَكِّرِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَجْهُ الِاتِّصَالِ بِمَا قَبْلَهُ تَوْصِيَةُ الْإِنْسَانِ بِالنَّظَرِ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ وَسُنَّتِهِ الْأُولَىٰ، حَتَّىٰ يَعْلَمَ أَنْ مَنْ أَنْشَأَهُ قَادِرٌ عَلَىٰ إِعَادَتِهِ وَجَزَائِهِ، فَيَعْمَلَ لِيَوْمِ الْإِعَادَةِ وَالْجَزَاءِ، وَلَا يُمْلِي عَلَىٰ حَافِظِهِ إِلَّا مَا يَسُرُّهُ فِي عَاقِبَةِ أَمْرِهِ ، ثُمَّ بَيَّنَ فَقَالَ:

[٦] : ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ مَدْفُوقٍ أَيْ مَصْبُوبٍ فِي الرَّحِمِ، وَهُوَ الْمَنِيُّ، وَالدَّفْقُ الصَّبُّ وَأَرَادَ مَاءَ الرَّجُلِ وَمَاءَ الْمَرْأَةِ لِأَنَّ الْوَلَدَ مَخْلُوقٌ مِنْهُمَا، وَجَعَلَهُ وَاحِدًا لِامْتِزَاجِهِمَا.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ يَعْنِي صُلْبَ الرَّجُلِ أَيِ الظهر، وَتَرَائِبَ الْمَرْأَةِ والترائب جُمَعُ التَّرِيبَةِ وَهِيَ عِظَامُ الصَّدْرِ وَالنَّحْرِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: تَرِيبَةُ الْمَرْأَةِ مَوْضِعُ الْقِلَادَةِ

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِنَّهُ عَلَىٰ رَدِّ الْإِنْسَانِ بَعْدَ الْمَوْتِ لَقَادِرٌ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: عَلَىٰ رَدِّ الْمَاءِ فِي الصُّلْبِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ بعث الانسان وإعادته بعد الموت قَادِرٌ، وَهَذَا أَوْلَىٰ الْأَقَاوِيلِ، لِقَوْلِهِ:

[٩] : ﴿يَوْمَ تُبْلَىٰ السَّرَائِرُ﴾ وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، تُبْلَىٰ السَّرَائِرُ تظهر الخفايا. قَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ: السَّرَائِرُ فَرَائِضُ الْأَعْمَالِ، كَالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ وَالْوُضُوءِ وَالِاغْتِسَالِ مِنَ الْجَنَابَةِ، فَإِنَّهَا سَرَائِرُ بَيْنَ اللهِ تَعَالَىٰ وَبَيْنَ الْعَبْدِ، فَلَوْ شَاءَ الْعَبْدُ لَقَالَ: صُمْتُ وَلَمْ يَصُمْ، وَصَلَّيْتُ وَلَمْ يصل ، وَقِيلَ: تُبْلَىٰ السَّرائِرُ: أَيْ تُخْرَجُ مُخَبَّآتُهَا وَتُظْهَرُ، وَهُوَ كُلُّ مَا كَانَ اسْتَسَرَّهُ الْإِنْسَانُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَأَضْمَرَهُ مِنْ إِيمَانٍ أَوْ كُفْرٍ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما : يُبْدِي اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كُلَّ سِرٍّ خَفِيٍ، فَيَكُونُ زَيْنًا فِي الْوُجُوهِ، وَشَيْنًا في الوجوه

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ أَيْ مَا لِهَذَا الْإِنْسَانِ الْمُنْكِرِ لِلْبَعْثِ مِنْ قُوَّةٍ يَمْتَنِعُ بِهَا مِنْ عَذَابِ اللهِ وَلَا نَاصِرَ يَنْصُرُهُ مِنَ اللهِ ، ثُمَّ ذَكَرَ قَسَمًا آخَرَ فَقَالَ:

[١١] : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ أَيْ ذَاتِ الْمَطَرِ ؛ لِأَنَّهُ يَرْجِعُ كُلَّ عَامٍ وَيَتَكَرَّرُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ السَّحَابُ يَرْجِعُ الْمَطَرُ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ أي تصدع وَتَنَشَقُّ عَنِ النَّبَاتِ وَالْأَشْجَارِ وَالْأَنْهَارِ، وَالصَّدْعُ: بِمَعْنَىٰ الشَّقِّ، لِأَنَّهُ يَصْدَعُ الْأَرْضَ، فَتَنْصَدِعُ بِهِ، وَكَأَنَّهُ قَالَ: وَالْأَرْضِ ذَاتِ النَّبَاتِ، لِأَنَّ النَّبَاتَ صَادِعٌ لِلْأَرْضِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: وَالْأَرْضِ ذَاتِ الطُّرُقِ الَّتِي تَصْدَعُهَا الْمُشَاةُ ، وَقِيلَ: ذَاتُ الْحَرْثِ، لِأَنَّهُ يَصْدَعُهَا.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ﴾ يعني القرآن، ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ حَقٌّ وَجِدٌّ يَفْصِلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، هَذَا جَوَابُ الْقَسَمِ، وَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ رضي الله عنه قال: كِتَابٌ فِيهِ خَبَرُ مَا قَبْلَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَعْدَكُمْ، هُوَ الْفَصْلُ، لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ ابْتَغَىٰ الْهُدَىٰ فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْقَوْلِ الْفَصْلِ: مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْوَعِيدِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ. يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ بِاللَّعِبِ وَالْبَاطِلِ، وَالْهَزْلُ: ضِدُّ الْجِدِّ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ فَقَالَ:

[١٥]: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ يَخَافُونَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُظْهِرُونَ مَا هُمْ عَلَىٰ خلافه.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ وَكَيْدُ اللهِ اسْتِدْرَاجُهُمْ إِيَّاهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، قَالَ السَّعْدِيُّ: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ لِإِظْهَارِ الْحَقِّ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، وَلِدَفْعِ مَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْبَاطِلِ، وَيُعْلَمُ بِهَذَا مَنِ الْغَالِبُ، فَإِنَّ الْآدَمِيَّ أَضْعَفُ وَأَحْقَرُ مِنْ أَنْ يُغَالِبَ الْقَوِيَّ الْعَلِيمَ فِي كَيْدِهِ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَذَا وَعِيدٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ، ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ قَلِيلًا وَمَعْنَىٰ مَهِّلْ وَأَمْهِلْ أَنْظِرْ وَلَا تَعْجَلْ، وَمَهَّلَ وَأَمْهَلَ: بِمَعْنَىٰ، مِثْلَ نَزَّلَ وَأَنْزَلَ، وَأَمْهِلْهُ: أَنْظِرْهُ، وَمَهِّلْهُ تَمْهِيلًا، وَالِاسْمُ: الْمُهْلَةُ، فَأَخَذَهُمُ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ، وَنُسِخَ الْإِمْهَالُ بِآيَةِ السَّيْفِ، وَفِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ

بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّىٰ يُوَافَىٰ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[١] .

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الطَّارِقِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِه

(١) الترمذي (٢٣٩٦) .

سُورَةُ الْأَعْلَى

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ ، رَوَىٰ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْهَا: «**كَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي الْوِتْرِ فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَىٰ سَبِّحِ**»(١).

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ﴾ يَعْنِي قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَىٰ، وَقَالَ قَوْمٌ: مَعْنَاهُ نَزِّهْ رَبَّكَ الْأَعْلَىٰ عَمَّا يَصِفُهُ بِهِ الملحدون، وَقَالَ آخَرُونَ: نَزِّهْ تَسْمِيَةَ رَبِّكَ بِأَنْ تَذْكُرَهُ وَأَنْتَ مُعَظِّمٌ وَلِذِكْرِهِ مُحْتَرِمٌ ، وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ قَالَ: « لَمَّا نَزَلَتْ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ** »(٢).

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أَيْ خَلَقَ الْخَلِيقَةَ وَالْأَشْيَاءَ، وَسَوَّىٰ كُلَّ مَخْلُوقٍ فِي أَحْسَنِ الْهَيْئَاتِ، وَالتَّسْوِيَةُ: التَّعْدِيلُ ، قَالَ الْكَلْبِيُّ: خَلَقَ كُلَّ ذِي رُوحٍ فَسَوَّىٰ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ وَالْعَيْنَيْنِ ، قال الزَّجَّاجُ: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مُسْتَوِيًا، وَمَعْنَىٰ سَوَّىٰ: عَدَلَ قَامَتَهُ.

---

(١) أبو داود (١٤٢٣) والترمذي (٤٦٢) .

(٢) أبو داود (٨٦٩) .

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ قال مُجَاهِدٌ: هَدَىٰ الْإِنْسَانَ لِسَبِيلِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، وَهَدَىٰ الْأَنْعَامَ لِمَرَاتِعِهَا، وَقِيلَ: قدر الأرزاق فهدىٰ لِاكْتِسَابِ الْأَرْزَاقِ وَالْمَعَاشِ، وَقِيلَ: خَلَقَ الْمَنَافِعَ فِي الْأَشْيَاءِ وَهَدَىٰ الْإِنْسَانَ لوجه استخراجها منها.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ﴾ أَنْبَتَ الْعُشْبَ وَمَا تَرْعَاهُ النَّعَمُ. مِنْ بَيْنِ أَخْضَرَ وَأَصْفَرَ وَأَحْمَرَ وأبيض.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَجَعَلَهُ﴾ بعد الخضرة، ﴿غُثَاءً﴾ هَشِيمًا بَالِيًا، والْغُثَاءُ: مَا يَقْذِفُ بِهِ السَّيْلُ عَلَىٰ جَوَانِبِ الْوَادِي مِنَ الْحَشِيشِ وَالنَّبَاتِ وَالْقُمَاشِ ﴿أَحْوَىٰ﴾ أَسْوَدَ بَعْدَ الْخُضْرَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْكَلَأَ إِذَا جَفَّ وَيَبِسَ اسْوَدَّ ، وَالْأَحْوَىٰ: الْأَسْوَدُ، أَيْ إِنَّ النَّبَاتَ يَضْرِبُ إِلَىٰ الْحُوَّةِ مِنْ شِدَّةِ الْخُضْرَةِ كَالْأَسْوَدِ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ سَنُعَلِّمُكَ بِقِرَاءَةِ جِبْرِيلَ عَلَيْكَ، ﴿فَلَا تَنْسَىٰ﴾ فِيهِ تَأْوِيلَانِ:

التَّأْوِيلُ الْأَوَّلُ: أَيْ: سَنُقْرِئُكَ يَا مُحَمَّدُ هَذَا الْقُرْآنَ فَتَحْفَظُ وَلَا تَنْسَىٰ مَا تَقْرَؤُهُ.

التَّأْوِيلُ الثَّانِي: قِيلَ بَلْ قَوْلُهُ ﴿فَلَا تَنْسَىٰ﴾ طَلَبٌ، أَيْ لَا تَنْسَىٰ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكَ، وَقَالَ الْجُنَيْدُ: ﴿فَلَا تَنْسَىٰ﴾ الْعَمَلَ بِهِ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ أَنْ تَنْسَاهُ وَمَا نَسَخَ اللهُ تلاوته من القرآن، ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ﴾ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، ﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾ مِنْهُمَا، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ والعلانية.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: نُهَوِّنُ عَلَيْكَ عَمَلَ الْجَنَّةِ، وَهُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ: نُيَسِّرُكَ لِأَنْ تَعْمَلَ خَيْرًا، وَالْيُسْرَىٰ عَمَلُ الْخَيْرِ، وَقِيلَ: نُوَفِّقُكَ لِلشَّرِيعَةِ الْيُسْرَىٰ وَهِيَ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَذَكِّرْ﴾ عِظْ بِالْقُرْآنِ، ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ الْمَوْعِظَةُ وَالتَّذْكِيرُ، وَالْمَعْنَىٰ: نَفَعَتْ أَوْ لم تنفع.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ سيتعظ، ﴿مَنْ يَخْشَىٰ﴾ الله عز وجل.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أَيْ يَتَجَنَّبُ الذِّكْرَىٰ وَيَتَبَاعَدُ عَنْهَا، ﴿الْأَشْقَىٰ﴾ الشَّقِيُّ فِي عِلْمِ اللهِ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِي يَصْلَىٰ النَّارَ الْكُبْرَىٰ﴾ الْعَظِيمَةَ وَالْفَظِيعَةَ لِأَنَّهَا أَعْظَمُ وَأَشَدُّ حَرًّا مِنْ نَارِ الدُّنْيَا ، قال الْحَسَنِ البصري : الْكُبْرَىٰ نَارُ جَهَنَّمَ، وَالصُّغْرَىٰ نَارُ الدُّنْيَا.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح، ﴿وَلَا يَحْيَا﴾ حَيَاةً تَنْفَعُهُ. وَقَالَ يَحْيَىٰ بْنُ سَلَّامٍ: لَا يَمُوتُ فَيَسْتَرِيحُ مِنَ الْعَذَابِ، وَلَا يَحْيَا حَيَاةً تَنْفَعُهُ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ﴾ تَطَهَّرَ مِنَ الشِّرْكِ وَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَقَالَ الْحَسَنُ: مَنْ كَانَ عَمَلُهُ زَاكِيًا، وَقَالَ آخرون: هو صَدَقَةُ الْفِطْرِ، وقيل

لِعَطَاءٍ: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ لِلْفِطْرِ؟ قَالَ: هِيَ لِلصَّدَقَاتِ كُلِّهَا، وَقِيلَ: هِيَ زَكَاةُ الْأَعْمَالِ، لَا زَكَاةُ الْأَمْوَالِ، أَيْ تَطَهَّرَ فِي أَعْمَالِهِ مِنَ الرِّيَاءِ وَالتَّقْصِيرِ، لِأَنَّ الْأَكْثَرَ أَنْ يُقَالَ فِي الْمَالِ: زَكَّىٰ، لَا تَزَكَّىٰ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ قَالَ: خَرَجَ إِلَىٰ الْعِيدِ فَصَلَّىٰ صلاته، وَقِيلَ: الصَّلَاةُ هَاهُنَا الدُّعَاءُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ ذَكَرَ مَعَادَهُ وَمَوْقِفَهُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، فَعَبَدَهُ وَصَلَّىٰ لَهُ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أَيْ: تُقَدِّمُونَهَا عَلَىٰ أَمْرِ الْآخِرَةِ، وَتُبِدُّونَهَا عَلَىٰ مَا فِيهِ نَفْعُكُمْ وَصَلَاحُكُمْ فِي مَعَاشِكُمْ وَمَعَادِكُمْ .

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: خَيْرٌ فِي الْخَيْرِ، وَأَبْقَىٰ فِي الْبَقَاءِ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَزِينَةُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَأَبْقَىٰ بَقَاءً، لِأَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَانِيَةٌ، وَالْآخِرَةَ بَاقِيَةٌ، لَا تَنْفَدُ وَلَا تَفْنَىٰ.

قَالَ عَرْفَجَةُ الْأَشْجَعِيُّ: كُنَّا عِنْدَ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ، فَقَالَ لَنَا: أَتَدْرُونَ لِمَ آثَرْنَا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ؟ قُلْنَا: لَا، قَالَ: لِأَنَّ الدُّنْيَا أُحْضِرَتْ وَعُجِّلَ لَنَا طَعَامُهَا وَشَرَابُهَا وَنِسَاؤُهَا وَلَذَّاتُهَا وَبَهْجَتُهَا، وَأَنَّ الْآخِرَةَ نُعِتَتْ لَنَا وَزُوِيَتْ عَنَّا فَأَحْبَبْنَا الْعَاجِلَ وتركنا الآجل.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ مَا تَقَدَّمَ مِنْ مَضْمُونِ هَذِهِ السُّورَةِ، وَتَعْرِيفِ مِنْهَاجِ الْفَلَاحِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَارِدٌ فِي تِلْكَ الصُّحُفِ الْمُكَرَّمَةِ ﴿لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ أي الْكُتُبِ الْأُولَىٰ الَّتِي أُنْزِلَتْ قَبْلَ الْقُرْآنِ ذَكَرَ فِيهَا فَلَاحَ

الْمُتَزَكِّي وَالْمُصَلِّي وَإِيثَارَ الْخَلْقِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ. ثُمَّ بَيَّنَ الصُّحُفَ فَقَالَ:

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ يَعْنِي الْكُتُبَ الْمُنَزَّلَةَ عَلَيْهِمَا، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَلَمْ يُرِدْ أَنَّ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ بِعَيْنِهَا فِي تِلْكَ الصُّحُفِ، وَإِنَّمَا هُوَ عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ، أَيْ إِنَّ مَعْنَىٰ هَذَا الْكَلَامِ وَارِدٌ فِي تِلْكَ الصُّحُفِ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَعْلَىٰ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بالاتفاق

[١] قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ قَدْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْقِيَامَةِ تَغْشَىٰ كُلَّ شَيْءٍ بِالْأَهْوَالِ ، هَلْ بِمَعْنَىٰ قَدْ، كَقَوْلِهِ: ﴿هَلْ أَتىٰ عَلَىٰ الْإِنْسانِ﴾ [الإنسان: ١].

[٢] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني يوم القيامة، ﴿خَاشِعَةٌ﴾ قَالَ سُفْيَانُ: أَيْ ذَلِيلَةٌ بِالْعَذَابِ ، وَكُلُّ مُتَضَائِلٍ سَاكِنٌ خَاشِعٌ، يُقَالُ: خَشَعَ فِي صَلَاتِهِ: إِذَا تَذَلَّلَ وَنَكَّسَ رَأْسَهُ.

[٣] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الَّذِينَ عَمِلُوا وَنَصَبُوا فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ غَيْرِ دِينِ الْإِسْلَامِ مِنْ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ وَكُفَّارِ أَهْلِ الْكِتَابِ مِثْلَ الرُّهْبَانِ وَغَيْرِهِمْ لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُمُ اجْتِهَادًا فِي ضَلَالَةٍ، يَدْخُلُونَ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَعْنَىٰ النَّصَبِ الدَّأْبُ فِي الْعَمَلِ بالتعب، وناصِبَةٌ أَيْ تَعِبَةٌ، وقال عكرمة: عامدة فِي الدُّنْيَا بِالْمَعَاصِي، نَاصِبَةٌ فِي الآخرة في النار، وقال الْحَسَنُ البصري: لَمْ تَعْمَلْ لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا فَأَعْمَلَهَا وَأَنْصَبَهَا فِي النَّارِ، ويروىٰ أن عُمَرُ بْنُ

الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما قدم الشَّامَ أَتَاهُ رَاهِبٌ شَيْخٌ كَبِيرٌ مُتَقَهِّلٌ « التَّقَهُّلُ: رَثَاثَةُ الْهَيْئَةِ»، عَلَيْهِ سَوَادٌ، فَلَمَّا رَآهُ عُمَرُ بَكَىٰ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: هَذَا الْمِسْكِينُ طَلَبَ أَمْرًا فَلَمْ يُصِبْهُ، وَرَجَا رَجَاءً فَأَخْطَأَهُ، وَقَرَأَ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ. عامِلَةٌ ناصِبَةٌ﴾.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ أَيْ يُصِيبُهَا صِلَاؤُهَا وَحَرُّهَا، حامِيَةً: شَدِيدَةُ الْحَرِّ، أَيْ قَدْ أُوقِدَتْ وَأُحْمِيَتِ الْمُدَّةَ الطَّوِيلَةَ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَدْ حَمِيَتْ فَهِيَ تَتَلَظَّىٰ عَلَىٰ أَعْدَاءِ اللهِ.

[٥] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ مُتَنَاهِيَةٍ فِي الْحَرَارَةِ قَدْ أُوقِدَتْ عَلَيْهَا جَهَنَّمُ مُنْذُ خُلِقَتْ، فَدُفِعُوا إِلَيْهَا وِرْدًا عِطَاشًا ، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: لَوْ وَقَعَتْ مِنْهَا قَطْرَةٌ عَلَىٰ جِبَالِ الدُّنْيَا لَذَابَتْ، هَذَا شَرَابُهُمْ، ثُمَّ ذَكَرَ طَعَامَهُمْ فَقَالَ:

[٦] : ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ قال مجاهد: هُوَ نَبْتٌ ذُو شَوْكٍ لَاطِئٍ بِالْأَرْضِ، تُسَمِّيهِ قُرَيْشٌ الشِّبْرِقَ فَإِذَا هَاجَ سَمَّوْهَا الضَّرِيعَ، وَهُوَ أَخْبَثُ طعام وأبشعه، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ الضَّرِيعَ الشَّوْكُ الْيَابِسُ الذي ليس لَهُ وَرَقٌ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ شوك من نار .

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ أَيْ: لَا يُخْصِبُ الْبَدَنُ وَلَا يَحْصُلُ بِهِ مَقْصُودٌ، وَلَا يَسْكُنُ دَاعِيَةُ النَّفْسِ وَلَا نَهَمُهَا وَلَا يَنْدَفِعُ بِهِ مَحْذُورٌ. ثُمَّ وَصَفَ أَهْلَ الْجَنَّةِ فَقَالَ:

[٨] : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ أَيْ ذَاتُ نِعْمَةٍ وَبَهْجَةٍ، وَهِيَ وُجُوهُ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: هِيَ نَاعِمَةٌ بِتَنْعِيمِ اللهِ أَهْلَهَا فِي جَنَّاتِهِ، وَهُمْ أَهْلُ الْإِيمَانِ بِاللهِ، قَالَ مُقَاتِلٌ: فِي نِعْمَةٍ وَكَرَامَةٍ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِسَعْيِهَا﴾ أَيْ: لِعَمَلِهَا الَّذِي عَمِلَتْهُ فِي الدُّنْيَا رَاضِيَةٌ، ﴿رَاضِيَةٌ﴾ فِي الْآخِرَةِ حِينَ أُعْطِيَتِ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهَا.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أَيْ رَفِيعَةٌ بَهِيَّةٌ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ أَيْ لا تسمع فِي الْجَنَّةِ الَّتِي هُمْ فِيهَا كَلِمَةَ لَغْوٍ، قَالَ قَتَادَةُ: لَا تَسْمَعُ فِيهَا بَاطِلًا، وَلَا شَاتِمًا.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أَيْ سَارِحَةٌ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَا عَيْنٌ وَاحِدَةً وَإِنَّمَا هَذَا جِنْسٌ يَعْنِي فِيهَا عُيُونٌ جاريات.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ أَيْ عَالِيَةٌ نَاعِمَةٌ، كَثِيرَةُ الْفُرُشِ مُرْتَفِعَةُ السَّمْكِ، عَلَيْهَا الْحُورُ الْعِينُ ، فَإِذَا أَرَادَ وَلِيُ اللهِ أَنْ يَجْلِسَ عَلَىٰ تِلْكَ السُّرُرِ الْعَالِيَةِ تَوَاضَعَتْ لَهُ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ يَعْنِي أَوَانِي الشُّرْبِ مُعَدَّةٌ مُرْصَدَةٌ لِمَنْ أَرَادَهَا.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: النَّمَارِقُ الْوَسَائِدُ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَزَرَابِيُّ﴾ يَعْنِي الْبُسُطَ الْعَرِيضَةَ ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ مَبْسُوطَةٌ، وَقِيلَ: مُتَفَرِّقَةٌ فِي الْمَجَالِسِ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: لَمَّا نَعَتَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَا فِي الْجَنَّةِ عَجِبَ مِنْ ذَلِكَ أَهْلُ الْكُفْرِ وَكَذَّبُوهُ، فَذَكَرَ لَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ صُنْعَهُ فَقَالَ: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ وكانت الإبل أعظم عَيْشِ الْعَرَبِ، لَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كثيرة فكما صَنَعَ لَهُمْ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا صَنَعَ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ فِيهَا مَا صنع.

[١٨] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَإِلَىٰ السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ عَنِ الْأَرْضِ حَتَّىٰ لَا يَنَالَهَا شيء يغيرها.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَىٰ الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ مُرْسَاةً لَا تَزُولُ ، وَالنَّصْبُ: الرَّفْعُ أَيْ كَيْفَ رُفِعَتْ وَهِيَ مَعَ ارْتِفَاعِهَا ثَابِتَةٌ رَاسِخَةٌ لَا تَمِيلُ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَىٰ الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ بُسِطَتْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَلْ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَ الْإِبِلِ أَوْ يَرْفَعَ مِثْلَ السَّمَاءِ أَوْ يَنْصِبَ مِثْلَ الْجِبَالِ أَوْ يَسْطَحَ مِثْلَ الْأَرْضِ غَيْرِي؟.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ أيْ فَعِظْهُمْ يَا مُحَمَّدُ وَخَوِّفْهُمْ. إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ أَيْ وَاعِظٌ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ بِمُسَلَّطٍ فَتَقْتُلَهُمْ وَتُكْرِهَهُمْ عَلَىٰ الْإِيمَانِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَقُولُ: لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ، نَسَخَتْهَا آيَةُ الْقِتَالِ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّىٰ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ عَمَّا قَبْلَهُ مَعْنَاهُ لكن من تولىٰ، ﴿وَكَفَرَ﴾ بَعْدَ التَّذْكِيرِ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ وَهُوَ أَنْ يُدْخِلَهُ النَّارَ، وَإِنَّمَا قَالَ (الْأَكْبَرَ) لِأَنَّهُمْ عُذِّبُوا فِي الدُّنْيَا بِالْجُوعِ وَالْقَحْطِ وَالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ رُجُوعَهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ، يُقَالُ: آبَ يَؤُوبُ أَوْبًا وَإِيَابًا ، قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ إِلَىٰ اللهِ الْإِيَابَ، وَعَلَيْهِ الْحِسَابَ .

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ يَعْنِي جَزَاءَهُمْ بَعْدَ الْمَرْجِعِ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ .

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْغَاشِيَةِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الْفَجْرَ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالاتِّفَاقِ

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ أَقْسَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْفَجْرِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ انْفِجَارُ الصُّبْحِ كُلَّ يَوْمٍ ، وَقَالَ عَطِيَّةُ عَنْهُ: صَلَاةُ الصُّبْحِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ فَجْرُ أَوَّلِ يَوْمٍ مِنَ الْمُحَرَّمِ تَنْفَجِرُ مِنْهُ السَّنَةُ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: فَجْرُ ذِي الحجة لأنه قرن بِهِ اللَّيَالِي الْعَشْرُ ، ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنَّهَا الْعَشْرُ الْأُوَلُ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، وقد ثبت في صحيح البخاري: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ**» يَعْنِي عَشَرَ ذِي الْحِجَّةِ، قَالُوا: وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: «**وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلَّا رجُلاً خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، ثُمَّ لَمْ يرجع من ذلك بشيء**»(١).

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ الشفع: الزوج، والوتر: الفرد، اختلفوا فِي الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ، قِيلَ: الشَّفْعُ الْخَلْقُ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ وَالْوَتْرُ: هُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً**

---

(١) البخاري (٩٦٩) .

إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَهُوَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ » ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الشَّفْعُ وَالْوَتْرُ الْخَلْقُ كُلُّهُ مِنْهُ شَفْعٌ وَمِنْهُ وَتْرٌ، قَالَ الحسن البصري: هُوَ الْعَدَدُ مِنْهُ شَفْعٌ وَمِنْهُ وَتْرٌ، وَقَالَ قَتَادَةُ: هُمَا الصَّلَوَاتُ مِنْهَا شَفْعٌ وَمِنْهَا وِتْرٌ. قَالَ الطَّبَرِيُّ: وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ أَقْسَمَ بِالشَّفْعِ وَالْوِتْرِ، وَلَمْ يُخَصِّصْ نَوْعًا مِنَ الشَّفْعِ وَلَا مِنَ الْوِتْرِ دُونَ نَوْعٍ بِخَبَرٍ وَلَا عَقْلٍ، وَكُلُّ شَفْعٍ وَوِتْرٍ فَهُوَ مِمَّا أَقْسَمَ بِهِ، مِمَّا قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ إِنَّهُ دَاخِلٌ فِي قَسَمِهِ هَذَا، لِعُمُومِ قَسَمِهِ بِذَلِكَ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ أَيْ إِذَا سَارَ وَذَهَبَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: إِذَا جَاءَ وَأَقْبَلَ وَأَرَادَ كل ليلة.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ﴾ أي فيما ذكرت، ﴿قَسَمٌ﴾ أَيْ مَقْنَعٌ وَمُكْتَفًىٰ فِي الْقَسَمِ، ﴿لِذِي حِجْرٍ﴾ للذي عَقْلٍ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَحْجُرُ صَاحِبَهُ عَمَّا لَا يَحِلُّ وَلَا يَنْبَغِي، وَأَصْلُ الْحَجْرِ الْمَنْعُ ، قَالَ الْفَرَّاءُ: الْكُلُّ يَرْجِعُ إِلَىٰ مَعْنًىٰ وَاحِدٍ: لِذِي حِجْرٍ، وَلِذِي عَقْلٍ، وَلِذِي حِلْمٍ، وَلِذِي سِتْرٍ، الْكُلُّ بِمَعْنَىٰ الْعَقْلِ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قَالَ الفَرَّاءُ: أَلَمْ تُخْبَرْ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: أَلَمْ تَعْلَمْ وَمَعْنَاهُ التَّعَجُّبُ.

[٦-٧] : ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ - إِرَمَ﴾ يُخَوِّفُ أَهْلَ مَكَّةَ يَعْنِي كَيْفَ أَهْلَكَهُمْ، وَهُمْ كَانُوا أَطْوَلَ أَعْمَارًا وَأَشَدَّ قُوَّةً مِنْ هَؤُلَاءِ، وَإِرَمُ: اسْمٌ آخَرُ لِعَادٍ الْأُولَىٰ، فَهُوَ عَلَىٰ سَبِيلِ زِيَادَةِ التَّعْرِيفِ بِهِمْ. وَهُمُ الَّذِينَ بَعَثَ اللهُ فِيهِمْ هُودًا -

صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَذَّبُوهُ، وَعَتَوْا فِي الْأَرْضِ مُتَمَرِّدِينَ جَبَّارِينَ، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ وَسُمُّوا ذَاتَ الْعِمَادِ لِهَذَا لِأَنَّهُمْ كانوا أَهْلَ عُمُدٍ وَخِيَامٍ وَمَاشِيَةٍ سَيَّارَةٍ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: سُمُّوا ذَاتَ الْعِمَادِ لِطُولِ قَامَتِهِمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يعني طولهم مثل العماد، وَقَوْلُهُ: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ ، أَيْ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُ تِلْكَ الْقَبِيلَةِ فِي الطُّولِ وَالْقُوَّةِ، وَهُمُ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وَقِيلَ: سُمُّوا ذَاتَ الْعِمَادِ لِبِنَاءٍ بناه بعضهم.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَثَمُودَ﴾ أَيْ وَبِثَمُودَ، ﴿الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ﴾ قَطَعُوا الْحَجَرَ، ﴿بِالْوَادِ﴾ يَعْنِي وَادِي الْقُرَىٰ كَانُوا يَقْطَعُونَ الْجِبَالَ فَيَجْعَلُونَ فِيهَا بُيُوتًا، وَفِي لُغَةِ الْعَرَبِ: اجْتَابَ الثَّوْبَ أَيْ فَتَحَهُ، وَمِنْهُ الْجَيْبُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَنْحِتُونَهَا وَيَخْرِقُونَهَا، وَقَالَ قَتَادَةُ: جَابُوهَا وَنَحَتُوهَا بُيُوتًا.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ سُمِّي بِذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ يُعَذِّبُ النَّاسَ بِالْأَوْتَادِ، وقَالَ السَّعْدِيُّ : أَيْ ذِي الْجُنُودِ الَّذِينَ ثَبَّتُوا مُلْكَهُ، كَمَا تُثَبِّتُ الْأَوْتَادُ مَا يُرَادُ إِمْسَاكُهُ بِهَا.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ يَعْنِي عَادًا وَثَمُودَ وَفِرْعَوْنَ عَمِلُوا فِي الْأَرْضِ بِالْمَعَاصِي وَتَجَبَّرُوا. وَتَجَاوَزُوا الْقَدْرَ فِي الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ أَيِ الْجَوْرَ وَالْأَذَىٰ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أَيْ نَصِيبَ عَذَابٍ. وَيُقَالُ: شِدَّتُهُ، لِأَنَّ السَّوْطَ كَانَ عِنْدَهُمْ نِهَايَةَ مَا يُعَذَّبُ بِهِ، قَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي لَوْنًا مِنَ الْعَذَابِ صَبَّهُ عَلَيْهِمْ، قَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: هَذَا عَلَىٰ الِاسْتِعَارَةِ لِأَنَّ السَّوْطَ عِنْدَهُمْ غَايَةُ الْعَذَابِ، فَجَرَىٰ ذَلِكَ لِكُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْعَذَابِ، قال الزَّجَّاجُ: جَعَلَ سَوْطَهُ الَّذِي ضَرَبَهُمْ بِهِ الْعَذَابَ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ أَيْ يَرْصُدُ عَمَلَ كُلِّ إِنْسَانٍ حَتَّىٰ يُجَازِيَهُ بِهِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي بِحَيْثُ يرىٰ ويسمع ويبصر ما تقول وتفعل وتهجس به العباد ، قَالَ الْكَلْبِيُّ: عَلَيْهِ طَرِيقُ الْعِبَادِ لَا يَفُوتُهُ أَحَدٌ، قَالَ مُقَاتِلٌ: مَمَرُّ النَّاسِ عَلَيْهِ، وَالْمِرْصَادُ وَالْمَرْصَدُ: الطَّرِيقُ، وَقِيلَ: مَرْجِعُ الْخَلْقِ إِلَىٰ حُكْمِهِ وَأَمْرِهِ وَإِلَيْهِ مَصِيرُهُمْ ، وَقَالَ الْحَسَنُ وَعِكْرِمَةُ: يَرْصُدُ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُ لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ كَمَا لَا يَفُوتُ مَنْ هُوَ بِالْمِرْصَادِ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسانُ﴾ يَعْنِي الْكَافِرَ ، ﴿إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ امتحنه، ﴿رَبُّهُ﴾ بالنعمة، ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾ بالمال، ﴿وَنَعَّمَهُ﴾ بِمَا وَسَّعَ عَلَيْهِ، ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ بِمَا أَعْطَانِي.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ بالفقر، ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أَيْ ضَيَّقَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ، وَقِيلَ: قَدَّرَ بِمَعْنَىٰ قَتَّرَ وَأَعْطَاهُ قَدْرَ مَا يَكْفِيهِ، ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ أَذَلَّنِي بِالْفَقْرِ، وَهَذَا يَعْنِي بِهِ الْكَافِرَ تَكُونُ الْكَرَامَةُ وَالْهَوَانُ عِنْدَهُ بِكَثْرَةِ الْمَالِ وَالْحَظِّ فِي الدُّنْيَا وقلته ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : الْآيَتَانِ صِفَةُ كُلِّ كَافِرٍ ، وَكَثِيرٌ مِنَ

الْمُسْلِمِينَ يَظُنُّ أَنَّ مَا أَعْطَاهُ اللهُ لِكَرَامَتِهِ وَفَضِيلَتِهِ عِنْدَ اللهِ، وَرُبَّمَا يَقُولُ بِجَهْلِهِ: لَوْ لَمْ أستحق هذا لم يعطينه اللهُ. وَكَذَا إِنْ قَتَرَ عَلَيْهِ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ لِهَوَانِهِ عَلَىٰ اللهِ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا﴾ رَدٌّ، أَيْ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يُظَنُّ ، لم أبتله بالمغنىٰ لِكَرَامَتِهِ وَلَمْ أَبْتَلِهِ بِالْفَقْرِ لِهَوَانِهِ، فَأَخْبَرَ أَنَّ الْإِكْرَامَ وَالْإِهَانَةَ لَا تَدُورُ عَلَىٰ الْمَالِ وَسَعَةِ الرِّزْقِ، وَلَكِنَّ الْفَقْرَ وَالْغِنَىٰ بِتَقْدِيرِهِ فَيُوَسِّعُ علىٰ الكافر لا لكرامته، وبقدر عَلَىٰ الْمُؤْمِنِ لَا لِهَوَانِهِ، إِنَّمَا يكرم المرء بطاعته ويهينه بمعصيته، ﴿بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ لا تحسنوا إِلَيْهِ. وَقِيلَ: لَا تُعْطُونَهُ حَقَّهُ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أَيْ لَا تَأْمُرُونَ بِإِطْعَامِهِ، أَيْ يَحُضُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، مِنَ الْحَضِّ، وَهُوَ الْحَثُّ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ أي الميراث، وهو الْمَالُ الْمَوْرُوثُ، أَيِ الَّذِي يُخْلِفُهُ الرَّجُلُ بَعْدَ مَوْتِهِ لِوَارِثِهِ ، ﴿أَكْلًا لَمًّا﴾ شديداً يَأْكُلَ نَصِيبَهُ وَنَصِيبَ غَيْرِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا لَا يُوَرِّثُونَ النِّسَاءَ وَلَا الصِّبْيَانَ، وَيَأْكُلُونَ نَصِيبَهُمْ ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْأَكْلُ اللَّمُّ الَّذِي يَأْكُلُ كُلَّ شَيْءٍ يَجِدُهُ لَا يَسْأَلُ عَنْهُ أَحَلَالٌ هُوَ أَمْ حَرَامٌ، وَيَأْكُلُ الَّذِي لَهُ وَلِغَيْرِهِ. قَالَ الْحَسَنُ: يَأْكُلُ نَصِيبَهُ وَنَصِيبَ غَيْرِهِ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أَيْ كَثِيرًا، حَلَالُهُ وَحَرَامُهُ، وَالْجَمُّ الْكَثِيرُ، يقال: جم المال فِي الْحَوْضِ إِذَا كَثُرَ وَاجْتَمَعَ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا﴾ مَا هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ، فَهُوَ رَدٌّ لِانْكِبَابِهِمْ عَلَىٰ الدُّنْيَا، وَجَمْعِهِمْ لَهَا، فَإِنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ يَنْدَمُ يوم تدك الأرض، يَنْفَعُ النَّدَمُ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: أَيْ لَا يَفْعَلُونَ مَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ إِكْرَامِ الْيَتِيمِ وَإِطْعَامِ الْمِسْكِينِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ تَلَهُّفِهِمْ عَلَىٰ مَا سَلَفَ مِنْهُمْ حِينَ لَا يَنْفَعُهُمْ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ وَكُسِرَ كُلُّ شَيْءٍ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ جَبَلٍ وَبِنَاءٍ وَشَجَرٍ فَلَمْ يَبْقَ عَلَىٰ ظهرها شيء، وَالدَّكُّ: الْكَسْرُ وَالدَّقُّ، أَيْ زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ، وَحُرِّكَتْ تَحْرِيكًا بَعْدَ تَحْرِيكٍ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: أَيْ زُلْزِلَتْ فَدَكَّ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَقَالَ الْمُبَرِّدُ: أَيْ أُلْصِقَتْ وَذَهَبَ ارْتِفَاعُهَا، يُقَالُ نَاقَةٌ: دَكَّاءُ، أَيْ لَا سَنَامَ لَهَا.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: وَيَجِيءُ اللهُ تَعَالَىٰ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ، وَتَجِيءُ الْمَلَائِكَةُ الْكِرَامُ، أَهْلُ السَّمَاوَاتِ كُلُّهُمْ، ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ أَيْ: صَفًّا بَعْدَ صَفٍّ، كُلُّ سَمَاءٍ يَجِيءُ مَلَائِكَتُهَا صَفًّا، يُحِيطُونَ بِمَنْ دُونَهُمْ مِنَ الْخَلْقِ، وَهَذِهِ الصُّفُوفُ صُفُوفُ خُضُوعٍ وَذُلٍّ لِلْمَلِكِ الْجَبَّارِ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ﴾ يَعْنِي يَوْمَ يُجَاءُ بِجَهَنَّمَ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **يُؤْتَىٰ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ، لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ**

مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا »(١) ، ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ يَتَّعِظُ وَيَتُوبُ الْكَافِرُ، ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ أَيْ وَمِنْ أَيْنَ لَهُ الِاتِّعَاظُ وَالتَّوْبَةُ وَقَدْ فَرَّطَ فِيهَا فِي الدُّنْيَا.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ أَيْ قَدَّمْتُ الْخَيْرَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ لِحَيَاتِي فِي الْآخِرَةِ، أَيْ لِآخِرَتِي الَّتِي لَا مَوْتَ فِيهَا.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ أَيْ لَا يُعَذِّبُ كَعَذَابِ اللهِ أَحَدٌ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ أي لَا يُعَذَّبُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا كَعَذَابِ اللهِ يَوْمَئِذٍ، وَلَا يُوثَقُ كوثاقه يَوْمَئِذٍ، وَقِيلَ: لَا يعذب أحد من الدُّنْيَا كَعَذَابِ اللهِ الْكَافِرَ يَوْمَئِذٍ، وَلَا يُوثَقُ كَوَثَاقِهِ أَحَدٌ، يَعْنِي لَا يَبْلُغُ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ كَبَلَاغِ اللهِ فِي الْعَذَابِ، وَالْوَثَاقِ وهو الْإِسَارُ فِي السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ إِلَىٰ مَا وَعَدَ اللهُ الْمُصَدِّقَةَ بِمَا قَالَ اللهُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيِ الْمُطْمَئِنَّةُ بِثَوَابِ اللهِ ، وقال مجاهد : وَالنَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ: السَّاكِنَةُ الْمُوقِنَةُ، أَيْقَنَتْ أَنَّ اللهَ رَبَّهَا، فَأَخْبَتَتْ لِذَلِكَ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْمُطْمَئِنَّةُ لِأَنَّهَا بُشِّرَتْ بِالْجَنَّةِ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَعِنْدَ الْبَعْثِ، وَيَوْمَ الْجَمْعِ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: أَيْ إِلَىٰ جِوَارِهِ وَثَوَابِهِ وَمَا أَعَدَّ لِعِبَادِهِ فِي جَنَّتِهِ ﴿رَاضِيَةً﴾ أَيْ فِي نَفْسِهَا، ﴿مَرْضِيَّةً﴾ أَيْ قَدْ رَضِيَتْ عَنِ اللهِ، وَرَضِيَ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا، قَالَ

---

(١) مسلم (٢٨٤٢) .

ابْنُ عَبَّاسٍ: تُرَدُّ الْأَرْوَاحُ الْمُطْمَئِنَّةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْأَجْسَادِ، وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ - فِي احْتِضَارِ الْمُؤْمِنِ - قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ** - وَفِي رِوَايَةٍ: الْمُطْمَئِنَّةُ - **اخْرُجِي إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ**».

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ أَيْ مَعَ عِبَادِي فِي جَنَّتِي، وَقِيلَ: فِي جُمْلَةِ عِبَادِي الصَّالِحِينَ المطيعين المصطفين.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ أَيْ: وَادْخُلِي جَنَّتِي مَعَهُمْ، وَهِيَ دَارُ الْخُلُودِ مَسْكَنُ الْأَبْرَارِ، وَدَارُ الصَّالِحِينَ وَالْأَخْيَارِ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَجْرِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

سُورَةُ الْبَلَدِ

وَهي مَكِّيَّةٌ بِالاتِّفَاقِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا أُقْسِمُ﴾ يعني أقسم، ﴿بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ يَعْنِي مَكَّةَ، أَيْ أُقْسِمُ بِالْبَلَدِ الْحَرَامِ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ، لِكَرَامَتِكَ عَلَيَّ وَحُبِّي لَكَ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ﴾ أَيْ حَلَالٌ، ﴿بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ وَفِيهِ تَأْوِيلَانِ:

التَّأْوِيلُ الْأَوَّلُ: أَيْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: أُحِلَّ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا صَنَعَ فِيهِ سَاعَةً ، وَقَالَ قَتَادَةُ: يَقُولُ: وَأَنْتَ بِهِ حِلٌّ لَسْتَ بِآثِمٍ.

وَالتَّأْوِيلُ الثَّانِي: أَيْ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ الَّذِي أَنْتَ مُقِيمٌ بِهِ، تَشْرِيفًا لَكَ وَتَعْظِيمًا لِقَدْرِكَ، لِأَنَّهُ صَارَ بِحُلُولِكَ فِيهِ عَظِيمًا شَرِيفًا.

وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَمَّا أَقْسَمَ بِمَكَّةَ ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ عظيم قدرها من حُرْمَتِهَا فَوَعَدَ نَبِيَّهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ يَحِلُّهَا لَهُ حَتَّىٰ يُقَاتِلَ فِيهَا، وَأَنْ يَفْتَحَهَا عَلَىٰ يَدِهِ، فَهَذَا وَعْدٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ يُحِلَّهَا لَهُ .

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ يَعْنِي آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَذُرِّيَّتَهُ ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : أَقْسَمَ بِهِمْ لِأَنَّهُمْ أَعْجَبُ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، لِمَا فِيهِمْ مِنَ التبيان وَالنُّطْقِ وَالتَّدْبِيرِ، وَفِيهِمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالدُّعَاةُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ :

[٤] : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي نَصَبٍ، وقَالَ الْحَسَنُ البصري: يُكَابِدُ مَصَائِبَ الدُّنْيَا وَشَدَائِدَ الْآخِرَةِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: فِي مَشَقَّةٍ فَلَا تَلْقَاهُ إِلَّا يُكَابِدُ أَمْرَ الدُّنْيَا ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: فِي شِدَّةٍ ، وَالْكَبَدُ: الشِّدَّةُ وَالْمُعَانَاةُ، التَّقْدِيرُ: لَا يَزَالُ الْإِنْسَانُ فِي مُكَابَدَةِ شَدَائِدِ هَذِهِ الدُّنْيَا وَمُقَاسَاةِ آلَامِهَا حَتَّىٰ يَمُوتَ، فَإِذَا مَاتَ كَابَدَ شَدَائِدَ الْقَبْرِ وَالْبَرْزَخِ وَأَهْوَالَهُمَا، ثُمَّ إِذَا بُعِثَ كَابَدَ شَدَائِدَ الْآخِرَةِ ، وَفِيهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا كَانَ يُكَابِدُهُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً .

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ أَيْ يَظُنُّ مِنْ شِدَّتِهِ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ اللهُ تَعَالَىٰ .

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ﴾ يعني أنفقت، ﴿مَالًا لُبَدًا﴾ أَيْ كَثِيرًا بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنَ التَّلْبِيدِ فِي عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ: أَيَظُنُّ أَنَّ اللهَ لَمْ يَرَهُ، وَلَا يَسْأَلُهُ عَنْ مَالِهِ مِنْ أين اكتسبه وأين أنفقه ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: يَقُولُ أَتْلَفْتُ مَالًا كَثِيرًا، فَمَنْ يُحَاسِبُنِي بِهِ، دَعْنِي أَحْسِبْهُ ، أَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَىٰ مُحَاسَبَتِهِ، وَأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَرَىٰ صَنِيعَهُ ، ثُمَّ عَدَّدَ عَلَيْهِ نِعَمَهُ فَقَالَ:

[٨] : ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ﴾ عَيْنَيْنِ يُبْصِرُ بِهِمَا.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ وَلِسانـًا يَنْطِقُ به، وَشَفَتَيْنِ يستر بهما ثَغْرَهُ ، وَالْمَعْنَىٰ: نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ، وَنَحْنُ نَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ نَبْعَثَهُ وَنُحْصِيَ عَلَيْهِ مَا عَمِلَهُ ، قَالَ قَتَادَةُ: نِعَمُ اللهِ مُتَظَاهِرَةٌ يقررك بها كيما تشكر.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: طَرِيقُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْهُدَىٰ وَالضَّلَالَةِ، وَبَيَّنَّا لَهُ الْهُدَىٰ مِنَ الضَّلَالِ، وَالرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ ، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ : وَالنَّجْدُ: الْأَرْضُ الْمُرْتَفِعَةُ ارْتِفَاعًا دُونَ الْجَبَلِ. فَالْمُرَادُ هُنَا طَرِيقَانِ نَجْدَانِ مُرْتَفِعَانِ، وَالطَّرِيقُ قَدْ يَكُونُ مُنْجِدًا مُصْعِدًا، وَقَدْ يَكُونُ غَوْرًا مُنْخَفِضًا، وَاسْتُعِيرَ النَّجْدَانِ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَجُعِلَا نَجْدَيْنِ لِصُعُوبَةِ اتِّبَاعِ أَحَدِهِمَا وَهُوَ الْخَيْرُ فَغُلِّبَ عَلَىٰ الطَّرِيقَيْنِ، أَوْ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ صَعْبٌ بِاعْتِبَارٍ، فَطَرِيقُ الْخَيْرِ صُعُوبَتُهُ فِي سُلُوكِهِ، وَطَرِيقُ الشَّرِّ صُعُوبَتُهُ فِي عَوَاقِبِهِ، وَلِذَلِكَ عَبَّرَ عَنْهُ بعد هَذَا بِ الْعَقَبَةَ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ يَقُولُ: فَهَلَّا أَنْفَقَ مَالَهُ فِيمَا يجوز به العقبة مِنْ فَكِّ الرِّقَابِ وَإِطْعَامِ السَّغْبَانِ، فَيَكُونُ خَيْرًا لَهُ مِنْ إِنْفَاقِهِ عَلَىٰ عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، هَذَا قَوْلُ ابْنِ زَيْدٍ وَجَمَاعَةٍ، وَقِيلَ: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ أَيْ لَمْ يَقْتَحِمْهَا وَلَا جَاوَزَهَا ، وَالِاقْتِحَامُ: الدُّخُولُ فِي الْأَمْرِ الشَّدِيدِ، وَذِكْرُ الْعَقَبَةِ هَاهُنَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِمُجَاهِدَةِ النَّفْسِ وَالْهَوَىٰ وَالشَّيْطَانِ فِي أَعْمَالِ الْبِرِّ، فَجَعَلَهُ كالذي يتكلف صعود العقبة، تقول لَمْ يَحْمِلْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الْمَشَقَّةَ

بِعِتْقِ الرَّقَبَةِ وَلَا طَعَامٍ ، وَقِيلَ: إِنَّهُ شَبَّهَ ثِقَلَ الذُّنُوبِ عَلَىٰ مُرْتَكِبِهَا بِعَقَبَةٍ ، فَإِذَا أَعْتَقَ رَقَبَةً وَأَطْعَمَ كَانَ كَمَنِ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَجَاوَزَهَا، وقال ابْنُ زَيْدٍ: يَقُولُ فَهَلَّا سَلَكَ الطريق التي فيها النجاة ثُمَّ بَيَّنَ مَا هِيَ فَقَالَ:

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: كُلُّ شَيْءٍ قَالَ فِيهِ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ؟﴾ فَإِنَّهُ أَخْبَرَ بِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَالَ فِيهِ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ؟﴾ فَإِنَّهُ لَمْ يُخْبِرْ بِهِ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ أراد بِفَكِّ الرَّقَبَةِ إِعْتَاقَهَا وَإِطْلَاقَهَا، وَمَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً كَانَتِ الرَّقَبَةُ فِدَاءَهُ مِنَ النَّارِ، أَيْ: فَكُّهَا مِنَ الرِّقِّ، بِعِتْقِهَا أَوْ مُسَاعَدَتِهَا عَلَىٰ أَدَاءِ كِتَابَتِهَا، وَمِنْ بَابِ أَوْلَىٰ فَكَاكُ الْأَسِيرِ الْمُسْلِمِ عِنْدَ الْكُفَّارِ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ مَجَاعَةٍ، وَالسَّغَبُ: الْجُوعُ ، وَالسَّاغِبُ الْجَائِعُ ، وَقَالَ النَّخَعِيُّ: فِي يَوْمٍ عَزِيزٍ فِيهِ الطَّعَامُ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أَيْ ذَا قَرَابَةٍ يُرِيدُ يَتِيمًا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ قَرَابَةٌ. يُعْلِمُكَ أَنَّ الصَّدَقَةَ عَلَىٰ الْقَرَابَةِ أَفْضَلُ مِنْهَا عَلَىٰ غَيْرِ الْقَرَابَةِ، كَمَا أَنَّ الصَّدَقَةَ عَلَىٰ الْيَتِيمِ الَّذِي لَا كَافِلَ لَهُ أَفْضَلُ مِنَ الصَّدَقَةِ عَلَىٰ الْيَتِيمِ الَّذِي يَجِدُ مَنْ يَكْفُلُهُ، وَأَهْلُ اللُّغَةِ يَقُولُونَ: سُمِّيَ يَتِيمًا لِضَعْفِهِ، يُقَالُ: يَتِمَ الرَّجُلَ يتما: إذا ضعف.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي لا شي لَهُ، حَتَّىٰ كَأَنَّهُ قَدْ لَصِقَ بِالتُّرَابِ مِنَ الْفَقْرِ، لَيْسَ لَهُ مَأْوَىٰ إِلَّا التُّرَابَ ، وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ الْمَطْرُوحُ فِي التُّرَابِ لا يقيه شيء ، والمَتْرَبَةِ: مَصْدَرُ تَرِبَ يَتْرَبُ تَرَبًا وَمَتْرَبَةً إِذَا افْتَقَرَ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم بين أن هذا الْقُرَبَ إِنَّمَا تَنْفَعُ مَعَ الْإِيمَانِ، وَقِيلَ: (ثُمَّ) بِمَعْنَىٰ الْوَاوِ، ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ أَوْصَىٰ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، ﴿بِالصَّبْرِ﴾ عَلَىٰ فَرَائِضِ اللهِ وَأَوَامِرِهِ، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ بِرَحْمَةِ النَّاسِ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أَصْحَابُ الْيَمِينِ، الَّذِينَ يُؤْخَذُ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ذَاتَ الْيَمِينِ إِلَىٰ الْجَنَّةَ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ :﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أَيْ: أَصْحَابُ الشِّمَالِ ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: أَيْ يَأْخُذُونَ كُتُبَهُمْ بِشَمَائِلِهِمْ، قَالَ يَحْيَىٰ بْنُ سَلَّامٍ : لِأَنَّهُمْ مَشَائِيمُ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ مُطْبَقَةٌ عَلَيْهِمْ أَبْوَابُهَا لَا يَدْخُلُ فِيهَا رَوْحٌ وَلَا يَخْرُجُ مِنْهَا غم، يُقَالُ: آصَدْتُ الْبَابَ وَأَوْصَدْتُهُ إِذَا أغلقته وأطبقته ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مُغْلَقَةُ الْأَبْوَابِ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْبَلَدِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الشَّمْسِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ، وَسَبَبُ نُزُولِهَا مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ جُنْدُبِ ابْنِ سُفْيَانَ الْبَجَلِيِّ قَالَ: «دَمِيَتْ إِصْبَعُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاشْتَكَىٰ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ (وَهِيَ) أُمُّ جَمِيلٍ بِنْتُ حَرْبٍ زَوْجُ أَبِي لَهَبٍ، فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ لَمْ أَرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَالضُّحىٰ . وَاللَّيْلِ إِذا سَجىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلىٰ﴾[1].

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ قَسَمٌ مِنَ اللهِ بِالشَّمْسِ وَنَهَارِهَا. فَإِنَّ الضُّحَىٰ وَقْتُ ارْتِفَاعِ الشَّمْسِ بَعْدَ طُلُوعِهَا إِذَا تَمَّ ضِيَاؤُهَا، فَهُمَا قَسَمَانِ: أَقْسَمَ اللهُ بِالشَّمْسِ، وَأَقْسَمَ بِضُحَا الشَّمْسِ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَالْكَلْبِيُّ: ضَوْؤُهَا، وَالضُّحَىٰ: حِينَ تَطْلُعُ الشَّمْسُ، فَيَصْفُو ضوؤها، قَالَ قَتَادَةُ: هُوَ النَّهَارُ كُلُّهُ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: حَرُّهَا، كَقَوْلِهِ فِي طه: ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾ يَعْنِي لَا يُؤْذِيكَ الْحَرُّ.

(١) البخاري (٤٩٥٠) ومسلم (١٧٩٧).

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ تَبِعَهَا وَذَلِكَ فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الشَّهْرِ إِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ، تَلَاهَا الْقَمَرُ فِي الْإِضَاءَةِ وَخَلَفَهَا فِي النُّورِ ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: وَذَلِكَ حِينَ اسْتَدَارَ يَعْنِي كَمَلَ ضَوْؤُهُ ، فَصَارَ تَابِعًا لِلشَّمْسِ فِي الْإِنَارَةِ وَذَلِكَ فِي اللَّيَالِي الْبِيضِ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ أَيْ: جَلَّىٰ مَا عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ وَأَوْضَحَهُ ، وَقِيلَ: جَلَّىٰ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ حَيَوَانِهَا حَتَّىٰ ظَهَرَ، لِاسْتِتَارِهِ لَيْلًا وَانْتِشَارِهِ نَهَارًا.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ يَعْنِي يَغْشَىٰ الشَّمْسَ حِينَ تَغِيبُ فَتُظْلِمُ الْآفَاقُ، قال بقية: إِذَا جَاءَ اللَّيْلُ قَالَ الرَّبُّ جلَّ جَلَالُهُ: غشي عبادي خلقي العظيم، فالليل تهابه، وَالَّذِي خَلَقَهُ أَحَقُّ أَنْ يَهَابَ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ أَيْ وَبُنْيَانِهَا. فَمَا مَصْدَرِيَّةٌ، كما قال: ﴿بِما غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ [يس: ٢٧] أَيْ بِغُفْرَانِ رَبِّي، وَاخْتَارَهُ الْمُبَرِّدُ ، وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ وَمَنْ بَنَاهَا، ، وَهُوَ اخْتِيَارُ الطَّبَرِيِّ ، أَيْ وَمَنْ خَلَقَهَا وَرَفَعَهَا، وَهُوَ اللهُ تَعَالَىٰ .

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ بسطها، قَالَ السَّعْدِيُّ : أَيْ: مَدَّهَا وَوَسَّعَهَا، فَتَمَكَّنَ الْخَلْقُ حِينَئِذٍ مِنَ الِانْتِفَاعِ بِهَا، بِجَمِيعِ وُجُوهِ الِانْتِفَاعِ .

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ عَدَلَ خَلْقَهَا وَسَوَّىٰ أَعْضَاءَهَا، قَالَ عَطَاءٌ: يُرِيدُ جَمِيعَ مَا خَلَقَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَهَذَا مَوْضِعُ

الْقَسَمِ أَيْ فَازَتْ وَسَعِدَتْ نَفْسٌ زَكَّاهَا اللهُ، أَيْ أَصْلَحَهَا وَطَهَّرَهَا مِنَ الذُّنُوبِ وَوَفَّقَهَا لِلطَّاعَةِ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : بَيَّنَ لَهَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: أَلْزَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: جَعَلَ فِيهَا ذَلِكَ يَعْنِي بِتَوْفِيقِهِ إِيَّاهَا لِلتَّقْوَىٰ، وَخِذْلَانِهِ إِيَّاهَا لِلْفُجُورِ، وَحَمَلَ الْإِلْهَامَ عَلَىٰ التَّوْفِيقِ وَالْخِذْلَانِ، وَهَذَا يُبَيِّنُ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ فِي الْمُؤْمِنِ التَّقْوَىٰ وَفِي الْكَافِرِ الفجور.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ أَفْلَحَ : فَازَ ، أَيْ: طَهَّرَ نَفْسَهُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَنَقَّاهَا مِنَ الْعُيُوبِ، وَرَقَّاهَا بِطَاعَةِ اللهِ، وَعَلَّاهَا بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ .

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ أي خانت وَخَسِرَتْ نَفْسٌ أَضَلَّهَا اللهُ فَأَفْسَدَهَا ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : مَعْنَاهُ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّىٰ نَفْسَهُ فَأَصْلَحَهَا وَحَمَلَهَا عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ أَيْ خَسِرَتْ نَفْسٌ دَسَّهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْمَعْصِيَةِ، فَجَعَلَ الفعل للنفس، ودساها أَصْلُهُ: دَسَّسَهَا مِنَ التَّدْسِيسِ، وَهُوَ إِخْفَاءُ الشَّيْءِ، فَأُبْدِلَتِ السِّينُ الثَّانِيَةُ ياء ، وَالْمَعْنَىٰ هَاهُنَا: أَخْمَلَهَا وَأَخْفَىٰ مَحَلَّهَا بالكفر والمعصية، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: خَابَتْ نَفْسٌ أَضَلَّهَا وَأَغْوَاهَا، وَقِيلَ: أَفْلَحَ مَنْ زَكَّىٰ نَفْسَهُ بِطَاعَةِ اللهِ، وَصَالِحِ

الْأَعْمَالِ، وَخَابَ مَنْ دَسَّ نَفْسَهُ فِي الْمَعَاصِي، وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا أَيْ دَسَّ نَفْسَهُ فِي جُمْلَةِ الصَّالِحِينَ وَلَيْسَ مِنْهُمْ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ أَيْ بِطُغْيَانِهَا، وَهُوَ خُرُوجُهَا عَنِ الْحَدِّ فِي الْعِصْيَانِ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: بِطُغْيَانِهِمْ وَبِمَعْصِيَتِهِمْ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿بِطَغْوَاهَا﴾: بِمَعَاصِيهَا، وَالْمَقْصُودُ: بِسَبَبِ الْمَعَاصِي وَالطُّغْيَانِ، الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَىٰ تَكْذِيبِ نَبِيِّ الرَّحْمَنِ، صَالِحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ أَيْ قَامَ أشقىٰ القبيلة ، وَالِانْبِعَاثُ: هُوَ الْإِسْرَاعُ فِي الطَّاعَةِ لِلْبَاعِثِ، أَيْ كَذَّبُوا بِالْعَذَابِ وَكَذَّبُوا صَالِحًا لَمَّا انْبَعَثَ أَشْقَاهَا وَهُوَ قُدَارُ بْنُ سَالِفٍ، وكان عزيزًا في قومه شريفًا نسيبًا رئيسًا مطاعًا، فعقر الناقة ، وفي الحديث : خَطَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ النَّاقَةَ، وَذَكَرَ الَّذِي عَقَرَهَا، فَقَالَ: «﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ **انْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَارِمٌ عَزِيزٌ منيع في رهطه مثل أبي زمعة**»[١] .

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ﴾ صالح، ﴿نَاقَةَ اللهِ﴾ أَيِ احْذَرُوا عَقْرَ نَاقَةِ اللهِ ، أَنْ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴿وَسُقْيَاهَا﴾ شُرْبَهَا أَيْ ذَرُوا نَاقَةَ اللهِ وَذَرُوا حصتها مِنَ الْمَاءِ، فَلَا تَعْرِضُوا لِلْمَاءِ يَوْمَ شُرْبِهَا ، وَالْمَقْصُودُ: فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ -صَالِحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- احْذَرُوا نَاقَةَ اللهِ وَذَرُوهَا، وَأَعْطُوهَا حَقَّهَا

---

(١) البخاري (٤٩٤٢) ومسلم (٢٨٥٥) .

مِنْ شِرْبِهَا مِنَ الْمَاءِ، فَلَا تَتَعَرَّضُوا لَهَا يَوْمَ شِرْبِهَا. وَحَقِيقَةُ الدَّمْدَمَةِ مُضَاعَفَةُ الْعَذَابِ وَتَرْدِيدُهُ ، وَيُقَالُ: دَمَمْتُ عَلَىٰ الشَّيْءِ: أَيْ أَطْبَقْتُ عَلَيْهِ، وَدَمَّمَ عَلَيْهِ الْقَبْرَ: أَطْبَقَهُ .

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾أَيْ: فَكَذَّبُوا صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ، حَتَّىٰ حَمَلَهُمْ تَكْذِيبُهُمْ عَلَىٰ عَقْرِ النَّاقَةِ الَّتِي أَخْرَجَهَا مِنَ الصَّخْرَةِ آيَةً لَهُمْ وَحُجَّةً عَلَيْهِمْ ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أَيْ عَقَرَهَا الْأَشْقَىٰ ، وَأُضِيفَ إِلَىٰ الْكُلِّ؛ لِأَنَّهُمْ رَضُوا بِفِعْلِهِ، قَالَ عَطَاءٌ وَمُقَاتِلٌ: فَدَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ فَأَهْلَكَهُمْ. قِيلَ: الدَّمْدَمَةُ الْهَلَاكُ بِاسْتِئْصَالٍ﴿بِذَنْبِهِمْ﴾ بتكذيبهم الرسول وعقرها الناقة، ﴿فَسَوَّاهَا﴾ فَسَوَّىٰ الدَّمْدَمَةَ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا، وَعَمَّهُمْ بِهَا فَلَمْ يَفْلِتْ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: سَوَّىٰ الْأُمَّةَ وَأَنْزَلَ الْعَذَابَ بِصَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا، يَعْنِي سَوَّىٰ بينهم.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ عَاقِبَتَهَا ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: مَعْنَاهُ لَا يَخَافُ اللهُ مِنْ أَحَدٍ تَبِعَةً في إهلاكهم ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ: هُوَ رَاجِعٌ إِلَىٰ العاقر فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ تَقْدِيرُهُ: إذا انْبَعَثَ أَشْقَاهَا وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الشَّمْسِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ

سُورَةُ اللَّيْلِ

وهي مَكِّيَّةٌ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ أَيْ يَغْشَىٰ النَّهَارَ بِظُلْمَةٍ فَيَذْهَبُ بضوئه.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ بَانَ وَظَهَرَ مِنْ بَيْنِ الظُّلْمَةِ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾ يَعْنِي وَمَنْ خلَقَ، وَقِيلَ: هِيَ (مَا) الْمَصْدَرِيَّةُ أَيْ خَلْقِ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَىٰ، قَالَ مُقَاتِلٌ وَالْكَلْبِيُّ: يَعْنِي آدَمَ وَحَوَّاءَ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ إِنْ أَعْمَالَكُمْ لِمُخْتَلِفَةٌ فَسَاعٍ فِي فِكَاكِ نَفْسِهِ وَسَاعٍ فِي عَطَبِهَا، هَذَا جَوَابُ الْقَسَمِ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَسَائِرُ الْمُفَسِّرِينَ: السَّعْيُ: الْعَمَلُ، فَسَاعٍ فِي فِكَاكِ نَفْسِهِ، وَسَاعٍ فِي عَطَبِهَا، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**النَّاسُ غَادِيَانِ: فَمُبْتَاعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، وَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا**»[1].

---

(١) مسلم (٢٢٣).

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ (أَعْطَىٰ) مَالَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، (وَاتَّقَىٰ) رَبَّهُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ حَقَّ اللهِ ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ مَحَارِمَ اللهِ الَّتِي نَهَىٰ عَنْهَا.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ: وَصَدَّقَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: بِالْجَنَّةِ ، دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: ٢٦] يَعْنِي الْجَنَّةَ، وَقِيلَ: صَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ أَيْ بِالْخَلَفِ، أَيْ أَيْقَنَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ سَيَخْلُفُهُ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: بِمَوْعُودِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي وَعَدَهُ أي يفي به.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ فَسَنُهَيِّئُهُ فِي الدُّنْيَا، ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ أَيْ لِلْخَلَّةِ الْيُسْرَىٰ وَهِيَ الْعَمَلُ بِمَا يَرْضَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: فَسَنُهَيِّئُهُ لِلْخَلَّةِ الْيُسْرَىٰ، وَهِيَ الْعَمَلُ بِمَا يَرْضَاهُ اللهُ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا، لِيُوجِبَ لَهُ بِهِ فِي الْآخِرَةِ الْجَنَّةَ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ بالنفقة في الخير، ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾ عَنْ ثَوَابِ اللهِ فَلَمْ يَرْغَبْ فِيهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ بِالْفَضْلِ، وَاسْتَغْنَىٰ عَنْ رَبِّهِ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: وَكَذَّبَ بِمَوْعُودِ اللهِ الَّذِي وَعَدَ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ سنهيته لِلشَّرِّ بِأَنْ نُجْرِيَهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ حَتَّىٰ يَعْمَلَ بِمَا لَا يُرْضِي اللهَ، فَيَسْتَوْجِبُ بِهِ النَّارَ، قَالَ مُقَاتِلٌ: نُعَسِّرُ عَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ خيراً.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ﴾ الَّذِي بَخِلَ بِهِ، ﴿إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا مَاتَ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: إذا تَرَدَّىٰ: سَقَطَ فِي جَهَنَّمَ، وَمِنْهُ الْمُتَرَدِّيَةُ. وَيُقَالُ: رَدِيَ فِي الْبِئْرِ وَتَرَدَّىٰ: إِذَا سَقَطَ فِي بِئْرٍ، أَوْ تَهَوَّرَ مِنْ جَبَلٍ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ يَعْنِي الْبَيَانَ، قَالَ الزَّجَّاجُ: عَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَ طَرِيقَ الْهُدَىٰ مِنْ طَرِيقِ الضَّلَالِ، وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ، قَالَ: عَلَىٰ اللهِ بَيَانُ حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ. قَالَ الْفَرَّاءُ: يَعْنِي مَنْ سَلَكَ الْهُدَىٰ فَعَلَىٰ اللهِ سَبِيلُهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَىٰ اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النَّحْلِ: ٩] يَقُولُ: مَنْ أَرَادَ اللهَ فَهُوَ عَلَىٰ السَّبِيلِ الْقَاصِدِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ وَالْإِضْلَالَ، فترك الإضلال، كقوله: بِيَدِكَ الْخَيْرُ».

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ فَمَنْ طَلَبَهُمَا مِنْ غَيْرِ مَالِكِهِمَا فقد أخطأ الطريق، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: إِنَّ الْهُدَىٰ الْمُسْتَقِيمَ طَرِيقُهُ، يُوصِلُ إِلَىٰ اللهِ، وَيُدْنِي مِنْ رِضَاهُ، وَأَمَّا الضَّلَالُ، فَطُرُقٌ مَسْدُودَةٌ عَنِ اللهِ، لَا تُوصِلُ صَاحِبَهَا إِلَّا لِلْعَذَابِ الشَّدِيدِ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ﴾ حَذَّرْتُكُمْ وَخَوَّفْتُكُم يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ أَيْ تَتَلَظَّىٰ يَعْنِي تَتَوَقَّدُ وَتَتَوَهَّجُ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَىٰ﴾ لَا يَجِدُ صَلَاهَا وَهُوَ حَرُّهَا.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾ الرسول، ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الإيمان، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كُلُّ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَاهَا، قَالَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، وَمَنْ يَأْبَىٰ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ، وَقَالَ مَالِكٌ: صَلَّىٰ بِنَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ المغرب، فقرأ وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشىٰ فَلَمَّا بَلَغَ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ وَقَعَ عَلَيْهِ الْبُكَاءُ، فَلَمْ يَقْدِرْ يَتَعَدَّاهَا مِنَ الْبُكَاءِ، فَتَرَكَهَا وَقَرَأَ سُورَةً أُخْرَىٰ .

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَىٰ﴾ أَيْ يَكُونُ بَعِيدًا مِنْهَا، يُرِيدُ بِالْأَشْقَىٰ الشَّقِيَّ، وَبِالْأَتْقَىٰ التَّقِيَّ. أَيِ الْمُتَّقِي الْخَائِفُ. ثُمَّ وَصَفَ الْأَتْقَىٰ فَقَالَ:

[١٨] : ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ﴾ يعطي ماله، ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ يَطْلُبُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ اللهِ زَاكِيًا لَا رِيَاءً وَلَا سُمْعَةً، يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ الصِّدِيقَ، فِي قَوْلِ الْجَمِيعِ، قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: كَانَ أَبُو بَكْرٍ يَبْتَاعُ الضَّعْفَةَ فَيُعْتِقُهُمْ، فَقَالَ أَبُوهُ: أَيْ بُنَيَّ لَوْ كُنْتَ تَبْتَاعُ مَنْ يَمْنَعُ ظَهْرَكَ؟ قَالَ: مَنْعَ ظَهْرِي أُرِيدُ، فنزل: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَىٰ﴾ إلىٰ آخر السورة.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ أَيْ لَيْسَ يَتَصَدَّقُ لِيُجَازَىٰ عَلَىٰ نِعْمَةٍ، إِنَّمَا يَبْتَغِي وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ، أَيِ الْمُتَعَالِي وَلَسَوْفَ يَرْضىٰ أَيْ بِالْجَزَاءِ. ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ :

[٢٠] : ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ يَعْنِي لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ مُجَازَاةً لِأَحَدٍ بِيَدٍ لَهُ عِنْدَهُ، وَلَكِنَّهُ يَفْعَلُهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ فِي الدار الآخرة.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ بِمَا يُعْطِيهِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْجَنَّةِ وَالْكَرَامَةِ جَزَاءً عَلَىٰ مَا فَعَلَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: عَذَّبَ الْمُشْرِكُونَ بِلَالًا، وَبِلَالٌ يَقُولُ أَحَدٌ أَحَدٌ، فَمَرَّ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: « أَحَدٌ- يَعْنِي اللهَ تَعَالَىٰ- يُنْجِيكَ ، ثُمَّ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ بِلَالًا يُعَذَّبُ فِي اللهِ ، فَعَرَفَ أَبُو بَكْرٍ الَّذِي يُرِيدُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَانْصَرَفَ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ، فَأَخَذَ رِطْلًا مِنْ ذَهَبٍ، وَمَضَىٰ بِهِ إِلَىٰ أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، فَقَالَ لَهُ: أَتَبِيعُنِي بِلَالًا؟ قَالَ: نَعَمْ، فَاشْتَرَاهُ فَأَعْتَقَهُ ، فكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا : يَعْنِي بِلَالًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ اللَّيْلِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الضُّحَى

وهي مَكِّيَّةٌ بِالاتِّفَاقِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ أَقْسَمَ بِالضُّحَىٰ وَأَرَادَ بِهِ النَّهَارَ كُلَّهُ بِدَلِيلِ أَنَّهُ قَابَلَهُ بِاللَّيْلِ إذا سجىٰ، نظيره قوله: ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًىٰ﴾ [الْأَعْرَافِ: ٩٨] أَيْ نَهَارًا ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَمُقَاتِلٌ: يَعْنِي وَقْتَ الضُّحَىٰ، وَهِيَ السَّاعَةُ الَّتِي فِيهَا ارْتِفَاعُ الشَّمْسِ، وَاعْتِدَالُ النَّهَارِ فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالصَّيْفِ والشتاء.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ: سَجىٰ غطىٰ كل شيء ، قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: سَجْو اللَّيْلِ: تَغْطِيَتُهُ النَّهَارَ، مِثْلَمَا يُسَجَّىٰ الرَّجُلُ بِالثَّوْبِ ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: أَقْبَلَ بِظَلَامِهِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: اسْتَوَىٰ ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ: سَكَنَ وَاسْتَقَرَّ ظَلَامُهُ فَلَا يَزْدَادُ بَعْدَ ذَلِكَ ، يُقَالُ: لَيْلٌ سَاجٍ وَبَحْرٌ سَاجٍ إِذَا كَانَ سَاكِنًا.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ هَذَا جَوَابُ الْقَسَمِ. وَكَانَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبْطَأَ عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: قَلَاهُ اللهُ وَوَدَّعَهُ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ ، أَيْ مَا تَرَكَكَ مُنْذُ اخْتَارَكَ وَلَا أَبْغَضَكَ مُنْذُ أَحَبَّكَ،

وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ جُنْدَبِ بْنِ سُفْيَانَ قَالَ: اشْتَكَىٰ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرُبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَالضُّحىٰ. وَاللَّيْلِ إِذا سَجىٰ. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلىٰ﴾[1].

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أَيْ مَا عِنْدِي فِي مَرْجِعِكَ إِلَيَّ يَا مُحَمَّدُ، خَيْرٌ لَكَ مِمَّا عَجَّلْتُ لَكَ مِنَ الْكَرَامَةِ فِي الدُّنْيَا.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ الشَّفَاعَةُ فِي أُمَّتِهِ حَتَّىٰ يَرْضَىٰ، وَقِيل: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ مِنَ الثَّوَابِ، وَقِيلَ: مِنَ النَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ وَكَثْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ، ﴿فَتَرْضَىٰ﴾، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَلَا قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقول عيسىٰ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: **اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي** وَبَكَىٰ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لِجِبْرِيلَ: اذْهَبْ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ، فَأَتَىٰ جِبْرِيلُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لِجِبْرِيلَ: اذْهَبْ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ، فَقُلْ لَهُ: إِنَّ اللهَ يَقُولُ

---

(١) البخاري (٤٩٥٠).

لَكَ: إِنَّا سنرضيك في أمتك وَلَا نَسُوءُكَ »[1] ، وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِأَهْلِ الْعِرَاقِ: إِنَّكُمْ تَقُولُونَ إِنَّ أَرْجَىٰ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ﴾ [الزمر: ٥٣] قَالُوا: إِنَّا نَقُولُ ذَلِكَ ، قَالَ: وَلَكِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ نَقُولُ: إِنَّ أَرْجَىٰ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضىٰ﴾ ، ثُمَّ أَخْبَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ حَالَتِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا قَبْلَ الْوَحْيِ، وَذَكَّرَهُ نِعَمَهُ فَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ :

[٦] :﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا صَغِيرًا فَقِيرًا حِينَ مَاتَ أَبَوَاكَ وَلَمْ يُخَلِّفَا لَكَ مَالًا وَلَا مأوىٰ، فَجَعَلَ لَكَ مَأْوًىٰ تَأْوِي إِلَيْهِ، وَضَمَّكَ إِلَىٰ عَمِّكَ أَبِي طَالِبٍ حَتَّىٰ أَحْسَنَ تَرْبِيَتَكَ وَكَفَاكَ الْمُؤْنَةَ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ يَعْنِي ضَالًّا عَمَّا أَنْتَ عَلَيْهِ فَهَدَاكَ لِلتَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ ، قَالَ الْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ كَيْسَانَ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ عَنْ مَعَالِمِ النُّبُوَّةِ وَأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ غَافِلًا عَنْهَا، فَهَدَاكَ إِلَيْهَا ، وَقِيلَ: ضَالًّا فِي شِعَابِ مَكَّةَ فَهَدَاكَ إِلَىٰ جَدِّكَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ أَيْ فَقِيرًا ، فَأَغْنَاكَ بِمَالِ خَدِيجَةَ ثُمَّ بِالْغَنَائِمِ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: فَأَرْضَاكَ بِمَا أَعْطَاكَ مِنَ الرِّزْقِ ، وَاخْتَارَهُ الْفَرَّاءُ،

---

(١) مسلم (٢٠٢) .

وَقَالَ: لَمْ يَكُنْ غَنِيًّا عَنْ كَثْرَةِ الْمَالِ ، وَلَكِنَّ اللهَ رضاه بِمَا آتَاهُ ، وَذَلِكَ حَقِيقَةُ الْغِنَىٰ، ثُمَّ أَوْصَاهُ بِالْيَتَامَىٰ وَالْفُقَرَاءِ، فَقَالَ:

[٩] : ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: لَا تَحْتَقِرِ الْيَتِيمَ فَقَدْ كُنْتَ يَتِيمًا، وَقَالَ الْفَرَّاءُ وَالزَّجَّاجُ: لَا تَقْهَرْهُ عَلَىٰ مَالِهِ فَتَذْهَبَ بِحَقِّهِ لِضَعْفِهِ، وَكَذَا كَانَتِ الْعَرَبُ تَفْعَلُ فِي أَمْرِ الْيَتَامَىٰ، تَأْخُذُ أَمْوَالَهُمْ وَتَظْلِمُهُمْ حُقُوقَهُمْ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: يُرِيدُ السَّائِلَ عَلَىٰ الْبَابِ، يَقُولُ: لَا تَنْهَرْهُ لَا تَزْجُرْهُ إِذَا سَأَلَكَ، فَقَدْ كُنْتَ فَقِيرًا فَإِمَّا أَنْ تُطْعِمَهُ وَإِمَّا أَنْ تَرُدَّهُ رَدًّا لَيِّنًا، يُقَالُ: نَهَرَهُ وَانْتَهَرَهُ إِذَا اسْتَقْبَلَهُ بِكَلَامٍ يزجره ، قال قَتَادَةُ: رُدَّ السَّائِلَ بِرَحْمَةٍ وَلِينٍ، وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ، قَالَ: طَالِبُ الْعِلْمِ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي النُّبُوَّةَ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ عَنْهُ: يَعْنِي الْقُرْآنَ ، أَمَرَهُ أن يقرأه، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: اشْكُرْ لِمَا ذُكِرَ مِنَ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ جَبْرِ الْيَتِيمِ وَالْهُدَىٰ بعض الضَّلَالَةِ وَالْإِغْنَاءِ بَعْدَ الْعَيْلَةِ، وَالتَّحَدُّثِ بنعمة الله شكراً.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الضُّحَىٰ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الشَّرْحِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أَلَمْ نَفْتَحْ وَنُوَسِّعْ وَنُلَيِّنْ لَكَ قَلْبَكَ بِالْإِيمَانِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ؟ وَجَعَلْنَاهُ فَسِيحًا رَحِيبًا وَاسِعًا ، وَكَمَا شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ كَذَلِكَ جَعَلَ شَرْعَهُ فسيحـًا سَمْحًا سَهْلًا، لَا حَرَجَ فِيهِ وَلَا إِصْرَ وَلَا ضِيقَ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ البصري : حَطَطْنَا عَنْكَ الَّذِي سَلَفَ مِنْكَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: يَعْنِي الْخَطَأَ وَالسَّهْوَ، وَقِيلَ: ذُنُوبُ أُمَّتِكَ فَأَضَافَهَا إِلَيْهِ لِاشْتِغَالِ قَلْبِهِ بِهِمْ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أَثْقَلَ ظَهْرَكَ ، فَأَوْهَنَهُ حَتَّىٰ سُمِعَ له نَقِيضُ أَيِّ صَوْتٍ ، وَقَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ يَحْيَىٰ: يَعْنِي خَفَّفْنَا عَنْكَ أعباء النبوة والقيام بأمرها.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: لَا أُذْكَرُ إِلَّا ذُكِرْتَ مَعِي «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ»، وَقَالَ قَتَادَةُ: رَفَعَ اللهُ

ذِكْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَلَيْسَ خَطِيبٌ وَلَا مُتَشَهِّدٌ وَلَا صَاحِبُ صَلَاةٍ إِلَّا يُنَادِي بِهَا، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وقيل: رَفَعَ اللهُ ذِكْرَهُ فِي الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ، وَنَوَّهَ بِهِ حِينَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَىٰ جَمِيعِ النَّبِيِّينَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَأَنْ يَأْمُرُوا أُممهم بِالْإِيمَانِ بِهِ، ثُمَّ شَهَرَ ذِكْرَهُ فِي أُمَّتِهِ، فَلَا يُذْكَرُ اللهُ إِلَّا ذُكِرَ معه.

[٥-٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أَيْ مَعَ الشِّدَّةِ الَّتِي أَنْتَ فيها من جهاد المشركين يسرا وَرَخَاءٌ بِأَنْ يُظْهِرَكَ عَلَيْهِمْ حَتَّىٰ يَنْقَادُوا لِلْحَقِّ الَّذِي جِئْتَهُمْ بِهِ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا كَرَّرَهُ لِتَأْكِيدِ الْوَعْدِ وَتَعْظِيمِ الرَّجَاءِ. قال الحسن البصري: كَانُوا يَقُولُونَ: لَا يَغْلِبُ عُسْرٌ وَاحِدٌ يُسْرَيْنِ اثنين.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾ أَيْ فَاتْعَبْ وَالنَّصَبُ: التَّعَبُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ: فَإِذَا فَرَغْتَ مِنَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ ، فَانْصَبْ إِلَىٰ رَبِّكَ فِي الدُّعَاءِ، وَارْغَبْ إِلَيْهِ فِي الْمَسْأَلَةِ يُعْطِكَ ، وَقَالَ مجاهد: إِذَا صَلَّيْتَ فَاجْتَهِدْ فِي الدُّعَاءِ وَالْمَسْأَلَةِ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إِذَا فَرَغْتَ مِنَ الْفَرَائِضِ فَانْصَبْ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ. وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: إِذَا فَرَغْتَ مِنَ التَّشَهُّدِ فَادْعُ لِدُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ ، وَقَالَ الْحَسَنُ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: إِذَا فَرَغْتَ مِنْ جِهَادِ عَدُوِّكَ فَانْصَبْ فِي عِبَادَةِ رَبِّكَ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ قَالَ عَطَاءٌ: تَضَرَّعْ إِلَيْهِ رَاهِبًا مِنَ النَّارِ رَاغِبًا فِي الْجَنَّةِ، وَقِيلَ: فَارْغَبْ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكَ ، قَالَ الزَّجَّاجُ: أَيِ اجْعَلْ رَغْبَتَكَ إِلَىٰ اللهِ وَحْدَهُ.

سُورَةُ التِّينِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ قَسَمٌ مِنَ اللهِ بِالتِّينِ الَّذِي يَأْكُلُهُ النَّاسُ، وَالزَّيْتُونِ الَّذِي يَعْصِرُونَ مِنْهُ الزَّيْتَ، قَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ التِّينُ وَالزَّيْتُونُ الَّذِي يَأْكُلُ النَّاسُ، وَقِيلَ:خَصَّ التِّينَ بِالْقَسَمِ لِأَنَّهَا فَاكِهَةٌ مُخْتَصَّةٌ لَا عَجَمَ فِيهَا، شَبِيهَةٌ بِفَوَاكِهِ الْجَنَّةِ. وَالزَّيْتُونُ شَجَرَةٌ مُبَارَكَةٌ جَاءَ بِهَا الْحَدِيثُ ، وَهُوَ تَمْرٌ وَدُهْنٌ يَصْلُحُ لِلِاصْطِبَاغِ وَالِاصْطِبَاحِ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ يَعْنِي الْجَبَلَ الَّذِي كَلَّمَ اللهُ عَلَيْهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ أَيِ الْآمَنِ، يَعْنِي مَكَّةَ يَأْمَنُ فِيهِ النَّاسُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ، هذه أَقْسَامٌ وَالْمُقْسَمُ عَلَيْهِ .

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أَعْدَلِ قَامَةٍ وَأَحْسَنِ صُورَةٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ خَلَقَ كُلَّ حَيَوَانٍ مُنْكَبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ إِلَّا الْإِنْسَانَ خَلَقَهُ مَدِيدَ الْقَامَةِ يَتَنَاوَلُ مَأْكُولَهُ بِيَدِهِ مُزَيَّنًا بِالْعَقْلِ وَالتَّمْيِيزِ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ يُرِيدُ إِلَىٰ الْهَرَمِ وَأَرْذَلِ الْعُمُرِ، فَيَنْقُصُ عَقْلُهُ وَيَضْعَفُ بَدَنُهُ، وَالسَّافِلُونَ هُمُ الضُّعَفَاءُ وَالزَّمْنَىٰ وَالْأَطْفَالُ، فالشيخ الكبير مِنْ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: وَمُجَاهِدٌ: يَعْنِي ثُمَّ رَدَدْنَاهُ إِلَىٰ النَّارِ، يَعْنِي إِلَىٰ أَسْفَلِ السَّافِلِينَ، لِأَنَّ جَهَنَّمَ بَعْضُهَا أَسْفَلَ مِنْ بَعْضٍ، ثُمَّ اسْتَثْنَىٰ فَقَالَ:

[٦] : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يُرَدُّونَ إِلَىٰ النَّارِ، وَمَنْ قَالَ بِالْقَوْلِ الْأَوَّلِ قَالَ: رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ، فَزَالَتْ عُقُولُهُمْ وَانْقَطَعَتْ أَعْمَالُهُمْ، فَلَا يُكْتَبُ لَهُمْ حَسَنَةٌ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فَإِنَّهُ يُكْتَبُ لَهُمْ بَعْدَ الْهَرَمِ، وَالْخَرَفِ، مِثْلَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ في حال الشباب والصحة ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غَيْرُ مَقْطُوعٍ ؛ لِأَنَّهُ يُكْتَبُ لَهُ كَصَالِحِ مَا كَانَ يَعْمَلُ ، قَالَ الضَّحَّاكُ: أَجْرٌ بِغَيْرِ عَمَلٍ ثُمَّ قَالَ: إِلْزَامًا لِلْحُجَّةِ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ أيها الإنسان ﴿بَعْدُ﴾ أَيْ بَعْدَ هَذِهِ الْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ، ﴿بِالدِّينِ﴾ بِالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ وَالْمَعْنَىٰ، أَلَا تَتَفَكَّرُ فِي صُورَتِكَ وَشَبَابِكَ وَهَرَمِكَ فَتَعْتَبِرُ وَتَقُولُ إِنَّ الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَنِي وَيُحَاسِبَنِي، فَمَا الَّذِي يُكَذِّبُكَ بِالْمُجَازَاةِ بَعْدَ هَذِهِ الْحُجَجِ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ بِأَقْضَىٰ الْقَاضِينَ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: أَلَيْسَ اللهُ يَا مُحَمَّدُ بِأَحْكَمِ مَنْ حَكَمَ فِي أَحْكَامِهِ، وَفَصَلَ قَضَاءَهُ بَيْنَ عِبَادِهِ؟

سُورَةُ الْعَلَقِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: عَلَىٰ أَنَّ هَذِهِ أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ، وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ خَمْسُ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وَالْمَعْنَىٰ: اذْكُرِ اسْمَهُ، أُمِرَ أَنْ يَبْتَدِئَ الْقِرَاءَةَ بِاسْمِ اللهِ تَأْدِيبًا، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ فَكَانَ يَأْتِي حِرَاءَ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ خَدِيجَةَ، فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّىٰ فَجِأَهُ الْوَحْيُ، وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءَ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فِيهِ، فَقَالَ: اقْرَأْ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ الآيات(١)، ثُمَّ ذَكَرَ الْحَدِيثَ ، ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ: يَعْنِي الْخَلَائِقَ ثُمَّ فسره فقال:

---

(١) البخاري (٣) ومسلم (١٦٠) .

[٢] : ﴿خَلَقَ الْإِنْسانَ﴾ يَعْنِي ابْنَ آدَمَ ، ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ جَمْعُ عَلَقَةٍ، وَالْعَلَقَةُ الدَّمُ الْجَامِدُ، وَإِذَا جَرَىٰ فَهُوَ الْمَسْفُوحُ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿اقْرَأْ﴾ كَرَّرَهُ تَأْكِيدًا، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ فَقَالَ: ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ أَيْ: كَثِيرُ الصِّفَاتِ وَاسِعُهَا، كَثِيرُ الْكَرَمِ وَالْإِحْسَانِ، وَاسِعُ الْجُودِ، الَّذِي مِنْ كَرَمِهِ أَنْ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ يَعْنِي الْخَطَّ وَالْكِتَابَةَ ، قَالَ قَتَادَةُ: الْقَلَمُ نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ عَظِيمَةٌ، لَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَقُمْ وَلَمْ يَصْلُحْ عَيْشٌ، ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ مِنْ أَنْوَاعِ الْهُدَىٰ وَالْبَيَانِ ، وَقِيلَ: عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، وَقِيلَ: الْإِنْسَانُ هَاهُنَا مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيَانُهُ:

[٥] : ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ .

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿كَلَّا﴾ حقاً ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾ لَيَتَجَاوَزُ حَدَّهُ وَيَسْتَكْبِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ، قَالَ النَّسَفِيُّ: ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ لِمَنْ كَفَرَ بِنِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِ بِطُغْيَانِهِ ، وَإِنْ لَمْ يُذْكَرْ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ ، قَالَ: وَمَعْنَىٰ الرُّؤْيَةِ الْعِلْمُ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَنْ﴾ لأن، ﴿رَآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ أَنْ رَأَىٰ نَفْسَهُ غَنِيًّا، قَالَ الْكَلْبِيُّ: يَرْتَفِعُ عَنْ مَنْزِلَةٍ إِلَىٰ مَنْزِلَةٍ فِي اللِّبَاسِ وَالطَّعَامِ وَغَيْرِهِمَا.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ أَيِ الْمَرْجِعُ فِي الْآخِرَةِ. وَسَيُحَاسِبُكَ عَلَىٰ مَالِكَ مِنْ أَيْنَ جَمَعْتَهُ وَفِيمَ صَرَفْتَهُ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ: صَاحِبُ الْعِلْمِ وَصَاحِبُ الدُّنْيَا، وَلَا يَسْتَوِيَانِ.

[٩-١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ * عَبْداً إِذَا صلَّىٰ﴾ نَزَلَتْ فِي (أَبِي جَهْلٍ) لَعَنَهُ اللهُ، تَوَعَّدَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ الصَّلَاةِ عِنْدَ الْبَيْتِ، فوعظه تَعَالَىٰ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أَوَّلًا، فَقَالَ:

[١١] : ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ علىٰ الهدىٰ﴾ أي فما أظنك إِن كَانَ هَذَا الَّذِي تَنْهَاهُ عَلَىٰ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمَةِ فِي فِعْلِهِ .

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾ بِقَوْلِهِ ، وَأَنْتَ تَزْجُرُهُ وَتَتَوَعَّدُهُ عَلَىٰ صِلَاتِهِ؟ وَلِهَذَا قَالَ:

[١٣] : ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ﴾ يعني أبا جهل، ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ كَذَّبَ بِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَوَلَّىٰ عَنِ الْإِيمَانِ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهَ يَرَىٰ﴾؟ أَيْ أَمَا عَلِمَ هَذَا النَّاهِي لِهَذَا الْمُهْتَدِي أَنَّ اللهَ يَرَاهُ وَيَسْمَعُ كَلَامَهُ، وَسَيُجَازِيهِ عَلَىٰ فِعْلِهِ أَتَمَّ الْجَزَاءِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ مُتَوَعِّدًا وَمُتَهَدِّدًا :

[١٥] : ﴿كَلَّا﴾ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ، ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾ عن إيذاء مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتكذيبه ، ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أَيْ لَنَأْخُذَنَّ بِالنَّاصِيَةِ فَلَنُذِلَّنَّهُ ، وَقِيلَ: لَنَأْخُذَنَّ بِنَاصِيَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتُطْوَىٰ مَعَ قَدَمَيْهِ، وَيُطْرَحُ فِي النَّارِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدامِ﴾ [الرحمن: ٤١] ، فَالْآيَةُ ، يُقَالُ: سَفَعْتُ بِالشَّيْءِ إِذَا أَخَذْتُهُ وَجَذَبْتُهُ جَذْبًا شَدِيدًا، والناصية: شَعْرُ مُقَدَّمِ الرَّأْسِ ، ثُمَّ قَالَ عَلَىٰ الْبَدَلِ:

[١٦] : ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ يَعْنِي نَاصِيَةَ (أَبِي جهل) كاذبة في مقالها، خاطئة في أفعالها، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا نَهَىٰ أَبُو جَهْلٍ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الصَّلَاةِ انْتَهَرَهُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقال أبو جهل: أتنتهرني؟ فَوَاللهِ لَأَمْلَأَنَّ عَلَيْكَ هَذَا الْوَادِي إِنْ شِئْتَ خَيْلًا جُرْدًا وَرِجَالًا مرداً.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أَيْ قَوْمَهُ وَعَشِيرَتَهُ، أَيْ فَلْيَسْتَنْصِرْ بهم.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ جَمْعُ زِبْنِيٍّ مَأْخُوذٌ مِنَ الزِّبْنِ، وَهُوَ الدَّفْعُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ زَبَانِيَةَ جَهَنَّمَ سَمُّوا بِهَا ؛ لِأَنَّهُمْ يَدْفَعُونَ أَهْلَ النَّارِ إِلَيْهَا، قَالَ الزَّجَّاجُ: هُمُ الْمَلَائِكَةُ الْغِلَاظُ الشِّدَادُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَوْ دَعَا نَادِيَهُ لَأَخَذَتْهُ زَبَانِيَةُ اللهِ. ثم قال:

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿كَلَّا﴾ لَيْسَ الْأَمْرُ عَلَىٰ مَا عَلَيْهِ أبو جهل، ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ أَيْ فِيمَا دَعَاكَ إِلَيْهِ مِنْ تَرْكِ الصَّلَاةِ، أخرج البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ، قَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَئِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ لَأَطَأَنَّ عَلَىٰ عُنُقِهِ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: « **لَئِنْ فَعَلَ لَأَخَذَتْهُ الْمَلَائِكَةُ** »(١) ، ﴿وَاسْجُدْ﴾ أَيْ صَلِّ لِلَّهِ ﴿وَاقْتَرِبْ﴾ أَيْ تَقَرَّبْ إِلَىٰ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِالطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ. وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ: إِذَا سَجَدْتَ فَاقْتَرِبْ مِنَ اللهِ بِالدُّعَاءِ. كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ

---

(١) البخاري (٤٩٥٨) .

رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**»[1] .

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْعَلَقِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

(١) مسلم (٤٨٢) .

سُورَةُ الْقَدْرِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، كِنَايَةً عَنْ غير مذكور، أنه أَنْزَلَهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَوَضَعَهُ فِي بَيْتِ الْعِزَّةِ، ثُمَّ كَانَ يَنْزِلُ بِهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نُجُومًا فِي عِشْرِينَ سَنَةً، ثُمَّ عَجَّبَ نَبِيَّهُ فَقَالَ:

[٢]: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ سُمِّيَتْ لَيْلَةَ الْقَدْرِ؛ لِأَنَّهَا لَيْلَةُ تَقْدِيرِ الْأُمُورِ وَالْأَحْكَامِ، يُقَدِّرُ اللهُ فِيهَا أَمْرَ السَّنَةِ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ إِلَىٰ السَّنَةِ الْمُقْبِلَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]، وَقِيلَ: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ أَنْزَلَ فِيهَا كِتَابًا ذَا قَدْرٍ، عَلَىٰ رَسُولٍ ذِي قَدْرٍ، عَلَىٰ أُمَّةٍ ذَاتِ قَدْرٍ، وَقِيلَ: لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُنْزِلُ فِيهَا الْخَيْرَ وَالْبَرَكَةَ وَالْمَغْفِرَةَ، وَقَالَ سَهْلٌ: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدَّرَ فِيهَا الرَّحْمَةَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ، وَاخْتَلَفُوا فِي وَقْتِهَا، وَعَامَّةُ الصَّحَابَةِ وَالْعُلَمَاءِ عَلَىٰ أَنَّهَا بَاقِيَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ القيامة، وَالْجُمْهُورُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: عَلَىٰ أَنَّهَا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَاخْتَلَفُوا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَالصَّحِيحُ وَالَّذِي عَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ:

أَنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ شَهْرِ رمضان، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فِي رَمَضَانَ فَالْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ فَإِنَّهَا وِتْرٌ: إِحْدَىٰ وَعِشْرِينَ، أَوْ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ، أَوْ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ، أَوْ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ، أَوْ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ، أَوْ فِي آخِرِ لَيْلَةٍ**»(1) ، قَالَ البغوي : أَبْهَمَ اللهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ عَلَىٰ هَذِهِ الْأُمَّةِ لِيَجْتَهِدُوا فِي الْعِبَادَةِ لَيَالِيَ رَمَضَانَ طَمَعًا فِي إِدْرَاكِهَا، كَمَا أَخْفَىٰ سَاعَةَ الْإِجَابَةِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةَ، وَأَخْفَىٰ الصَّلَاةَ الْوُسْطَىٰ فِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَاسْمَهُ الْأَعْظَمَ فِي الْأَسْمَاءِ، وَرِضَاهُ فِي الطَّاعَاتِ لِيَرْغَبُوا فِي جَمِيعِهَا، وَسُخْطَهُ فِي الْمَعَاصِي لِيَنْتَهُوا عَنْ جَمِيعِهَا، وَأَخْفَىٰ قِيَامَ السَّاعَةِ لِيَجْتَهِدُوا فِي الطَّاعَاتِ حَذَرًا مِنْ قِيَامِهَا.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ مَعْنَاهُ عَمَلٌ صَالِحٌ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ خَيْرٌ مَنْ عَمِلِ أَلْفِ شَهْرٍ لَيْسَ فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: عَمَلُهَا وَصِيَامُهَا وَقِيَامُهَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، وَقَالَ عَمْرُو بْنُ قَيْسٍ الْمُلَائِيُّ: عَمَلٌ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ عَمَلِ أَلْفِ شَهْرٍ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ أَيْ تَهْبِطُ الْمَلَائِكَةُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ مِنَ السَّمَاوَاتِ إِلَىٰ الْأَرْضِ، وَالرُّوحُ هُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَهُوَ مِنْ بَابِ

---

(١) أحمد (٢٢٧١٣) والترمذي (٧٩٢) .

عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَىٰ الْعَامِّ، وَإِنَّمَا يَكْثُرُ تَنَزُّلُ الْمَلَائِكَةِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ لِكَثْرَةِ بَرَكَتِهَا، وَكَثْرَةِ التِّلَاوَةِ لِلْقُرْآنِ وَالذِّكْرِ فِيهَا، وَكُلُّ ذَلِكَ بِأَمْرِ رَبِّهَا. ﴿فِيهَا﴾ أَيْ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم مِن كُلِّ أَمْرٍ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: يُقْضَىٰ فِيهَا مَا يَكُونُ فِي السَّنَةِ إِلَىٰ مِثْلِهَا، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ قَالَ: سَلَامٌ هِيَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ، وَفِي الْحَدِيثِ عن عبد الله ابن بُرَيْدَةَ أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ: «إِنْ وَافَقْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، فَمَا أَدْعُو؟ قَالَ: قُولِي: **اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**».

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿سَلَامٌ﴾ قَالَ عَطَاءٌ: يُرِيدُ سَلَامٌ عَلَىٰ أولياء الله وأهل طاعته، قال الشَّعْبِيُّ: هُوَ تَسْلِيمُ الْمَلَائِكَةِ لَيْلَةَ الْقَدْرِ عَلَىٰ أَهْلِ الْمَسَاجِدِ مِنْ حين تَغِيبُ الشَّمْسُ إِلَىٰ أَنْ يَطْلُعَ الفجر، وَقِيلَ: تَمَّ الْكَلَامُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ أَيْ لَيْلَةُ الْقَدْرِ سَلَامٌ وَخَيْرٌ كُلُّهَا، لَيْسَ فِيهَا شَرٌّ. قَالَ الضَّحَّاكُ: لَا يُقَدِّرُ اللهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَلَا يَقْضِي إِلَّا السَّلَامَةَ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي أَنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ سَالِمَةٌ لَا يَسْتَطِيعُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَعْمَلَ فِيهَا سُوءًا، وَلَا أَنْ يُحْدِثَ فِيهَا أَذًىٰ، ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ أي إلىٰ مطلع الفجر.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَدْرِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الْبَيِّنَةِ

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ، ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ وَهُمْ عَبَدَةُ الْأَوْثَانِ وَالنِّيرَانِ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ ، ﴿مُنْفَكِّينَ﴾ أَيْ مُنْتَهِينَ عَنْ كُفْرِهِمْ، مَائِلِينَ عَنْهُ. يُقَالُ: فَكَكْتُ الشَّيْءَ فَانْفَكَّ أَيِ انْفَصَلَ، ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ لَفْظُهُ مُسْتَقْبَلٌ ، وَمَعْنَاهُ الْمَاضِي أي حتىٰ أتتهم الْحُجَّةُ الْوَاضِحَةُ، يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَاهُمْ بِالْقُرْآنِ فَبَيَّنَ لَهُمْ ضَلَالَتَهُمْ وَجَهَالَتَهُمْ وَدَعَاهُمْ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ ، فَهَذِهِ الْآيَةُ فِيمَنْ آمَنَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَنْتَهُوا عَنِ الْكُفْرِ حَتَّىٰ أَتَاهُمُ الرَّسُولُ فَدَعَاهُمْ إِلَىٰ الْإِيمَانِ فَآمَنُوا فَأَنْقَذَهُمُ اللهُ مِنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالَةِ ، ثُمَّ فَسَّرَ الْبَيِّنَةَ فَقَالَ:

[٢] : ﴿رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو﴾ يقرأ، يُقَالُ: تَلَا يَتْلُو تِلَاوَةً، ﴿صُحُفًا﴾ كتابا، يُرِيدُ مَا يَتَضَمَّنُهُ الصُّحُفُ مِنَ الْمَكْتُوبِ فِيهَا، وَهُوَ الْقُرْآنُ لِأَنَّهُ كَانَ يَتْلُو عَنْ ظَهْرِ قَلْبِهِ لا عن كتاب، قوله: ﴿مُطَهَّرَةً﴾ مِنَ الْبَاطِلِ وَالْكَذِبِ وَالزُّورِ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فِيهَا﴾ أَيْ فِي الصُّحُفِ، ﴿كُتُبٌ﴾ يَعْنِي الْآيَاتِ وَالْأَحْكَامِ الْمَكْتُوبَةِ فِيهَا، ﴿قَيِّمَةٌ﴾ عَادِلَةٌ مُسْتَقِيمَةٌ غَيْرُ ذَاتِ عِوَجٍ. ثُمَّ ذَكَرَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَقَالَ:

[٤] : ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أَيْ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ ، تفرقوا فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أَيِ الْبَيَانُ فِي كُتُبِهِمْ أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: لَمْ يَزَلْ أَهْلُ الْكِتَابِ مُجْتَمِعِينَ فِي تَصْدِيقِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّىٰ بَعَثَهُ اللهُ، فَلَمَّا بُعِث تَفَرَّقُوا فِي أَمْرِهِ وَاخْتَلَفُوا، فَآمَنَ بِهِ بعضهم، وكفر آخرون، ثُمَّ ذَكَرَ مَا أُمِرُوا بِهِ فِي كُتُبِهِمْ فَقَالَ:

[٥] : ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ يَعْنِي هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ، ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ﴾ يَعْنِي إِلَّا أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا أُمِرُوا في التوراة والإنجيل إلا بإخلاص العبادة لله موحدين ﴿حُنَفَاءَ﴾ مَائِلِينَ عَنِ الْأَدْيَانِ كُلِّهَا إِلَىٰ دين الإسلام، وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: حُنَفَاءُ: عَلَىٰ دِينِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ الْمَكْتُوبَةَ فِي أَوْقَاتِهَا ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ عند محلها، ﴿وَذَلِكَ﴾ الَّذِي أُمِرُوا بِهِ، ﴿دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أَيْ ذَلِكَ الدين الذي أمروا به دين القيمة، أَيِ الدِّينُ الْمُسْتَقِيمُ ، وَقِيلَ: الْقَيِّمَةُ هِيَ الْكُتُبُ الَّتِي جَرَىٰ ذِكْرُهَا، أَيْ وَذَلِكَ دِينُ الْكُتُبِ الْقَيِّمَةِ فِيمَا تَدْعُو إِلَيْهِ وتأمر به.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ قَدْ أَحَاطَ بِهِمْ عَذَابُهَا، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمْ عِقَابُهَا، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لَا يُفَتَّرُ

عَنْهُمُ الْعَذَابُ، وَهُمْ فِيهَا مُبْلِسُونَ، ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا الْحَقَّ وَتَرَكُوهُ، وَخَسِرُوا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَقَوْلُهُ ﴿شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أَيْ شَرُّ الْخَلِيقَةِ، وَالْبَرِيَّةُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ: الْخَلِيقَةُ، قَالَ الرَّازِيُّ: الْبَرَىٰ: التُّرَابُ، والبرِيّة: الخلْق، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هم الْجِنُّ وَالْإِنْسُ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ لِأَنَّهُمْ عَبَدُوا اللهَ وَعَرَفُوهُ، وَفَازُوا بِنَعِيمِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَفِي الْحَدِيثِ عِنْدَ أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الْبَرِيَّةِ؟**» قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**رَجُلٌ أَخَذَ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ كُلَّمَا كَانَتْ هَيْعَةٌ اسْتَوَىٰ عَلَيْهِ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الْبَرِيَّةِ؟**» قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**رَجُلٌ فِي ثُلَّةٍ مِنْ غَنَمِهِ يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ**» ألا أخبركم بخير الْبَرِيَّةِ"؟ قَالُوا: بَلَىٰ، قَالَ: «**الَّذِي يَسْأَلُ بِاللهِ ولا يعطي به**»[(١)].

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿جَزاؤُهُمْ﴾ أَيْ ثَوَابُهُمْ، ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ خَالِقِهِمْ وَمَالِكِهِمْ، ﴿جَنَّاتُ﴾ أَيْ بَسَاتِينُ، ﴿عَدْنٍ﴾ أَيْ إِقَامَةٍ، وَالْمُفَسِّرُونَ يَقُولُونَ: جَنَّاتُ عَدْنٍ بُطْنَانِ الْجَنَّةِ، أَيْ وَسَطُهَا، تَقُولُ: عَدَنَ بِالْمَكَانِ يَعْدِنُ عَدْنًا وَعُدُونًا: أَقَامَ، وَمَعْدِنُ الشَّيْءِ: مَرْكَزُهُ وَمُسْتَقَرُّهُ، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً﴾ لَا يَظْعَنُونَ وَلَا يَمُوتُونَ، ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ أَيْ رَضِيَ أَعْمَالَهُمْ، كَذَا قَالَ

---

(١) أحمد (١١٢١٠).

ابْنُ عَبَّاسٍ ، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أَيْ رَضُوا هُمْ بِثَوَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ﴿ذلِكَ﴾ أَيِ الْجَنَّةُ، ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أَيْ هَذَا الْجَزَاءُ حَاصِلٌ لِمَنْ خَشِيَ اللهَ وَاتَّقَاهُ حَقَّ تَقْوَاهُ، وعبده كأنه يراه ، وَقِيلَ: الرِّضَا يَنْقَسِمُ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ رِضًا بِهِ وَرِضًا عَنْهُ، فَالرِّضَا بِهِ: رَبًّا وَمُدَبِّرًا، وَالرِّضَا عَنْهُ: فِيمَا يَقْضِي ويقدر، وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الْمُؤْمِنُ أَكْرَمُ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ بَعْضِ الملائكة الذين عنده.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْبَيِّنَةِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾ حُرِّكَتِ الْأَرْضُ حَرَكَةً شَدِيدَةً لِقِيَامِ الساعة، ﴿زِلْزَالَهَا﴾ تحريكها، وَكَانَ ابن عباس يَقُولُ: فِي النَّفْخَةِ الْأُولَىٰ يُزَلْزِلُهَ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ مَوْتَاهَا وَكُنُوزَهَا فَتُلْقِيهَا عَلَىٰ ظَهْرِهَا. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: إِذَا كَانَ الْمَيِّتُ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ، فَهُوَ ثِقْلٌ لَهَا. وَإِذَا كَانَ فَوْقَهَا، فَهُوَ ثِقْلٌ عَلَيْهَا ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: أَثْقالَها: مَوْتَاهَا، تُخْرِجُهُمْ فِي النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلْجِنِّ وَالْإِنْسِ: الثَّقَلَانِ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : أَرَادَ كُلَّ إِنْسَانٍ يُشَاهِدُ ذَلِكَ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ فِي النَّفْخَةِ الْأُولَىٰ: مِنْ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ. وَهَذَا قَوْلُ مَنْ جَعَلَهَا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ جَمِيعًا مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهَا، حَتَّىٰ يَتَحَقَّقُوا عُمُومَهَا، فَلِذَلِكَ سَأَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَنْهَا. وَعَلَىٰ قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْإِنْسَانِ الْكُفَّارُ خَاصَّةً، جَعَلَهَا زَلْزَلَةَ

الْقِيَامَةِ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ مُعْتَرِفٌ بِهَا، فَهُوَ لَا يَسْأَلُ عَنْهَا، وَالْكَافِرُ جَاحِدٌ لَهَا، فَلِذَلِكَ يَسْأَلُ عَنْهَا. قِيلَ: فِي الْآيَةِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ تقديره.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ فَيَقُولُ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا، أَيْ تُخْبِرُ الْأَرْضُ بِمَا عُمِلَ عَلَيْهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ يَوْمَئِذٍ، وَفِي التِّرْمِذِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْآيَةَ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخبارَها قال: «**أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟** قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: **فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَىٰ كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا، تَقُولُ: عَمِلَ يَوْمَ كَذَا، كَذَا وَكَذَا**، قَالَ: **فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا**»[(١)].

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أَيْ أَمَرَهَا بِالْكَلَامِ وَأَذِنَ لَهَا بِأَنْ تُخْبِرَ بِمَا عُمِلَ عَلَيْهَا، وَقِيلَ: أَوْحىٰ لَها أَيْ أَمَرَهَا، وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ يَوْمَ تَكُونُ الزَّلْزَلَةُ، وَإِخْرَاجُ الْأَرْضِ أَثْقَالَهَا، تُحَدِّثُ الْأَرْضُ أَخْبَارَهَا، مَا كَانَ عَلَيْهَا مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي، وَمَا عُمِلَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ يَرْجِعُ النَّاسُ عَنْ مَوْقِفِ الْحِسَابِ بعد العرض، ﴿أَشْتَاتًا﴾ أَيْ أَنْوَاعًا وَأَصْنَافًا مَا بَيْنَ شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ، مَأْمُورٍ بِهِ إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَمَأْمُورٍ بِهِ إِلَىٰ النَّارِ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: يَتَصَدَّعُونَ أَشْتَاتًا فَلَا يَجْتَمِعُونَ آخِرَ

---

(١) أحمد (٨٨٥١) والترمذي (٢٤٢٩).

مَا عَلَيْهِمْ ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِيُرَوْا جَزَاءَ أَعْمَالِهِمْ، وَالْمَعْنَىٰ أَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ عَنِ الْمَوْقِفِ فِرَقًا لِيَنْزِلُوا مَنَازِلَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وَزْنَ نَمْلَةٍ صَغِيرَةٍ أَصْغَرَ مَا يَكُونُ مِنَ النَّمْلِ، الذَّرُّ: مَا يُرَىٰ فِي شُعَاعِ الشَّمْسِ مِنَ الْغُبَارِ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَيْسَ مُؤْمِنٌ وَلَا كَافِرٌ عَمِلَ خَيْرًا أَوْ شرًا فِي الدُّنْيَا إِلَّا أَرَاهُ اللهُ له يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَرَىٰ حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ فَيَغْفِرُ اللهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُثِيبُهُ بِحَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَرُدُّ حَسَنَاتِهِ وَيُعَذَّبُ بِسَيِّئَاتِهِ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الزَّلْزَلَةِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الْعَادِيَاتِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ هِيَ الْخَيْلُ الْعَادِيَةُ فِي سَبِيلِ الله تَضْبَحُ، وَالضَّبْحُ صَوْتُ أَجْوَافِهَا إِذَا عدت، قوله: ﴿ضَبْحًا﴾ مَجَازُهُ: وَالْعَادِيَّاتُ تَضْبَحُ ضَبْحًا. وَقَالَ أمير المؤمنين عَلِيٌّ رضي الله عنه : هِيَ الْإِبِلُ فِي الْحَجِّ تَعْدُو مِنْ عَرَفَةَ إِلَىٰ الْمُزْدَلِفَةِ وَمِنَ المزدلفة إلىٰ منىٰ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ هِيَ الْخَيْلُ تقدح النَّارَ بِحَوَافِرِهَا إِذَا سَارَتْ فِي الْحِجَارَةِ، يَعْنِي وَالْقَادِحَاتِ قَدْحًا يَقْدَحْنَ بِحَوَافِرِهِنَّ، وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنِ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا: « **الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ: الْأَجْرُ وَالْغَنِيمَةُ**»[١] ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ مَكْرُ الرِّجَالِ، يَعْنِي رِجَالَ الْحَرْبِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ إِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَمْكُرَ بِصَاحِبِهِ: أَمَا وَاللهِ لَأَقْدَحَنَّ لَكَ ثُمَّ لَأُوَرِّيَنَّ لَكَ.

---

(١) البخاري (٢٨٥٢) ومسلم (١٨٧١) .

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ هِيَ الْخَيْلُ تُغِيرُ بِفُرْسَانِهَا عَلَىٰ الْعَدُوِّ عِنْدَ الصَّبَاحِ، هَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ ، وَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا الْغَارَةَ سَرَوْا لَيْلًا، وَيَأْتُونَ الْعَدُوَّ صُبْحًا، لِأَنَّ ذَلِكَ وَقْتُ غَفْلَةِ النَّاسِ، وَمِنْهُ قوله تعالىٰ: ﴿فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ [الصافات: ١٧٧] ، وَقِيلَ: لِعِزِّهِمْ أَغَارُوا نَهَارًا، وصُبْحـًا عَلَىٰ هَذَا، أَيْ عَلَانِيَةً، تَشْبِيهًا بِظُهُورِ الصُّبْحِ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ﴾ أي هيجن بمكان سيرها كِنَايَةٌ عَنْ غَيْرِ مَذْكُورٍ لِأَنَّ المعنىٰ مفهوم، ﴿نَقْعًا﴾ غُبَارًا وَالنَّقْعُ الْغُبَارُ ، وَفِي الصِّحَاحِ: النَّقْعُ: الْغُبَارُ، وَالْجَمْعُ: نِقَاعٌ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي حَلَّتْ فِيهِ أَثَارَتْ بِهِ الْغُبَارَ إِمَّا فِي حَجٍّ أَوْ غَزْوٍ، أَيْ دَخَلْنَ بِهِ وَسَطَ الْعَدُوِّ، قَالَ الْقُرَظِيُّ: يَعْنِي جَمْعَ مِنًىٰ، أَقْسَمَ اللهُ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ .

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ هَذَا جَوَابُ الْقَسَمِ، أَيْ طُبِعَ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ كُفْرَانِ النِّعْمَةِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَكَنُودٌ لِكَفُورٌ جَحُودٌ لِنِعَمِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: هُوَ الَّذِي يَعُدُّ الْمَصَائِبَ وَيَنْسَىٰ النِّعَمَ ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: هُوَ قَلِيلُ الْخَيْرِ، وَالْأَرْضُ الْكَنُودُ الَّتِي لَا تنبت شيئًا ، ثُمَّ قِيلَ: هُوَ الَّذِي يَكْفُرُ بِالْيَسِيرِ، وَلَا يَشْكُرُ الْكَثِيرَ ، وَقِيلَ: الْجَاحِدُ لِلْحَقِّ ، وَقِيلَ: إِنَّمَا سُمِّيَتْ كِنْدَةُ كِنْدَةَ، لِأَنَّهَا جَحَدَتْ أَبَاهَا ، وَقِيلَ: الْكَنُودُ: مِنْ كَنَدَ إِذَا قَطَعَ، كَأَنَّهُ يَقْطَعُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُوَاصِلَهُ مِنَ الشُّكْرِ ، وَيُقَالُ: كَنَدَ الْحَبْلَ: إِذَا قَطَعَهُ ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْوَاسِطِيُّ:

الْكَنُودُ: الَّذِي يُنْفِقُ نِعَمَ اللهِ فِي مَعَاصِي اللهِ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْوَرَّاقُ: الْكَنُودُ: الَّذِي يَرَىٰ النِّعْمَةَ مِنْ نَفْسِهِ وَأَعْوَانِهِ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: الَّذِي يَرَىٰ النِّعْمَةَ وَلَا يَرَىٰ الْمُنْعِمَ

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: وَإِنَّ اللهَ عَلَىٰ كَوْنِهِ كَنُودًا لَشَاهِدٌ، وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: الْهَاءُ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ الْإِنْسَانِ أَيْ إِنَّهُ شَاهِدٌ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِمَا يَصْنَعُ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُ﴾ يَعْنِي الْإِنْسَانَ ﴿لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ أَيْ لِحُبِّ الْمَالِ، ﴿لَشَدِيدٌ﴾ أَيْ لَبَخِيلٌ، أَيْ إِنَّهُ مِنْ أَجْلِ حُبِّ الْمَالِ لَبَخِيلٌ، يُقَالُ لِلْبَخِيلِ: شَدِيدٌ وَمُتَشَدِّدٌ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَقَوِيٌّ أَيْ شَدِيدُ الْحُبِّ لِلْخَيْرِ، أَيِ الْمَالِ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: سَمَّىٰ اللهُ الْمَالَ خَيْرًا، وَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ شَرًّا وَحَرَامًا، وَلَكِنَّ النَّاسَ يَعُدُّونَهُ خَيْرًا، فَسَمَّاهُ اللهُ خَيْرًا لذلك.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ هَذَا الْإِنْسَانِ، ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ أَيْ أُثِيرَ وَقُلِبَ وَبُحِثَ، فَأُخْرِجَ مَا فِيهَا، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: بَعْثَرْتُ الْمَتَاعَ: جَعَلْتُ أَسْفَلَهُ أَعْلَاهُ، ﴿مَا فِي الْقُبُورِ﴾ أَيْ أُخْرِجَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَاتِ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أَيْ مُيِّزَ وَأُبْرِزَ مَا فِيهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ أَيْ عَالِمٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ، وَهُوَ عَالِمٌ بِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَفِي غَيْرِهِ، وَلَكِنَّ الْمَعْنَىٰ أَنَّهُ يُجَازِيهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿الْقَارِعَةُ﴾ أَيِ الْقِيَامَةُ وَالسَّاعَةُ، اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْقِيَامَةِ لِأَنَّهَا تَقْرَعُ الْقُلُوبَ بِالْفَزَعِ. وَأَهْلُ اللُّغَةِ يَقُولُونَ: تَقُولُ الْعَرَبُ قَرَعَتْهُمُ الْقَارِعَةُ، وَفَقَرَتْهُمُ الْفَاقِرَةُ، إِذَا وَقَعَ بِهِمْ أَمْرٌ فَظِيعٌ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ تَهْوِيلٌ وَتَعْظِيمٌ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ تَأْكِيدٌ لِهَوْلِهَا وَفَظَاعَتِهَا، بِبَيَانِ خُرُوجِهَا عَنْ دَائِرَةِ عُلُومِ الْخَلْقِ عَلَىٰ مَعْنَىٰ أَنَّ عِظَمَ شَأْنِهَا وَمَدَىٰ شِدَّتِهَا، بِحَيْثُ لَا تَكَادُ تَنَالُهُ دِرَايَةُ أَحَدٍ، حَتَّىٰ يُدْرِيَكَ بِهَا .

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ الْفَرَاشُ: الطَّيْرُ الَّتِي تَرَاهَا تَتَهَافَتُ فِي النَّارِ، وَالْمَبْثُوثُ: الْمُفَرَّقُ وَقَالَ الْفَرَّاءُ: كَغَوْغَاءِ الْجَرَادِ شَبَّهَ الناس عند البعث بها يَمُوجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ ، وَيَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مِنَ الْهَوْلِ كَمَا قَالَ: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قَالَ

رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا، وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا، وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي** »(١).

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ أَيِ الصُّوفِ الَّذِي يُنْفَشُ بِالْيَدِ ، ونسميه الصوف الْمَنْدُوفِ ، أَيْ تَصِيرُ هَبَاءً وَتَزُولُ، وأَهْلُ اللُّغَةِ يَقُولُونَ: الْعِهْنُ الصُّوفُ الْمَصْبُوغُ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أَيْ: رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَىٰ سَيِّئَاتِهِ .

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ مَرْضِيَّةٍ فِي الْجَنَّةِ ، قَالَ الزَّجَّاجُ: ذَاتِ رِضًا يَرْضَاهَا صَاحِبُهَا.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَىٰ حَسَنَاتِهِ، وَرُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّمَا ثَقُلَ مِيزَانُ مَنْ ثَقُلَ مِيزَانُهُ، لِأَنَّهُ وُضِعَ فِيهِ الْحَقُّ، وَحُقَّ لِمِيزَانٍ يَكُونُ فِيهِ الْحَقُّ أَنْ يَكُونَ ثَقِيلًا ، وَإِنَّمَا خَفَّ مِيزَانُ مَنْ خَفَّ مِيزَانُهُ، لِأَنَّهُ وُضِعَ فِيهِ الْبَاطِلُ، وَحَقَّ لِمِيزَانٍ يَكُونُ فِيهِ الْبَاطِلُ أَنْ يَكُونَ خَفِيفًا.

---

(١) مسلم (٢٢٨٥) .

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ يَعْنِي جَهَنَّمُ، وَسَمَّاهَا أُمًّا، لِأَنَّهُ يَأْوِي إِلَيْهَا كَمَا يَأْوِي إِلَىٰ أُمِّهِ، وَالْهَاوِيَةُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ جهنم، وهو الهوة التي لَا يُدْرَكُ قَعْرُهَا، وَقَالَ قَتَادَةُ: وَهِيَ كَلِمَةٌ عَرَبِيَّةٌ كَانَ الرَّجُلُ إِذَا وَقَعَ فِي أَمْرٍ شَدِيدٍ، يُقَالُ: هَوَتْ أُمُّهُ. وَقِيلَ: أَرَادَ أُمَّ رَأْسِهِ يَعْنِي أَنَّهُمْ يَهْوُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾ يَعْنِي الْهَاوِيَةَ وَأَصْلُهَا مَا هِيَ أدخل الهاء فيها للوقف ثُمَّ فَسَّرَهَا. فَقَالَ:

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ أَيْ حَارَّةٌ قَدِ انْتَهَىٰ حَرُّهَا. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ**»، قَالُوا: وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةٌ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا**»(١).

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَارِعَةِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

---

(١) البخاري (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣).

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ أَيْ شَغَلَكُمُ الْمُبَاهَاةُ بِكَثْرَةِ الْمَالِ وَالْعَدَدِ عَنْ طَاعَةِ اللهِ، حَتَّىٰ مِتُّمْ وَدُفِنْتُمْ فِي الْمَقَابِرِ ، وَقِيلَ أَلْهاكُمْ: أَنْسَاكُمْ ، التَّكاثُرُ أَيْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ مُطَرِّفٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْرَأُ ﴿أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ﴾ قَالَ: « **يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي! وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟ وَمَا سِوَىٰ ذَلِكَ فَذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ** »(١).

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ حَتَّىٰ مُتُّمْ وَدُفِنْتُمْ فِي الْمَقَابِرِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : أَيْ حَتَّىٰ أَتَاكُمُ الْمَوْتُ، فَصِرْتُمْ فِي الْمَقَابِرِ زُوَّارًا، تَرْجِعُونَ مِنْهَا كَرُجُوعِ الزَّائِرِ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ مِنْ جَنَّةٍ أَوْ نَارٍ، يُقَالُ لِمَنْ مَاتَ: قَدْ زَارَ قَبْرَهُ ، ثُمَّ رَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ:

---

(١) مسلم (٢٩٥٨) .

[٣] : ﴿كَلَّا﴾ لَيْسَ الْأَمْرُ بِالتَّكَاثُرِ، ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وَعِيدٌ لَهُمْ، ثُمَّ تُكَرِّرُهُ تَأْكِيدًا فقَالَ:

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ البصري: هُوَ وَعِيدٌ بَعْدَ وَعِيدٍ وَالْمَعْنَىٰ سَوْفَ تَعْلَمُونَ عَاقِبَةَ تَكَاثُرِكُمْ وَتَفَاخُرِكُمْ إِذَا نَزَلَ بِكُمُ الْمَوْتُ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يَعْنِي الْكُفَّارَ، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : هَذَا وَعِيدٌ بَعْدَ وَعِيدٍ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أَيْ عِلْمًا يَقِينًا فَأَضَافَ الْعِلْمَ إِلَىٰ الْيَقِينِ كَقَوْلِهِ: ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة : ٩٥] وَجَوَابُ (لَوْ) مَحْذُوفٌ أَيْ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمًا يَقِينًا لَشَغَلَكُمْ مَا تَعْلَمُونَ عَنِ التَّكَاثُرِ وَالتَّفَاخُرِ، قَالَ قَتَادَةُ: كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ عِلْمَ الْيَقِينِ : أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ بَاعِثُهُ بَعْدَ الْمَوْتِ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ أَيْ: تَرَوْنَهَا بِأَبْصَارِكُمْ مِنْ بَعْدُ ، ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ مُشَاهَدَةً ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أَيْ: رُؤْيَةً بَصرِيَّةً، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ :﴿وَرَأَىٰ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف : ٥٣].

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ الَّذِي تَنَعَّمْتُمْ بِهِ فِي دَارِ الدُّنْيَا، هَلْ قُمْتُمْ بِشُكْرِهِ، وَأَدَّيْتُمْ حَقَّ اللهِ فِيهِ، وَلَمْ تَسْتَعِينُوا بِهِ عَلَىٰ مَعَاصِيهِ، فَيُنْعِمَكُمْ نَعِيمًا أَعْلَىٰ مِنْهُ وَأَفْضَلَ؟ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَفَعَهُ قَالَ:الْأَمْنُ وَالصِّحَّةُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ اللهَ يَسْأَلُ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ عَمَّا أَنْعَمَ عَلَيْهِ ، وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: إِنَّ

مَا سَدَّ الْجُوعَ وَسَتَرَ الْعَوْرَةَ مِنْ خَشِنِ الطَّعَامِ وَاللِّبَاسِ، لَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْمَرْءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّمَا يُسْأَلُ عَنِ النَّعِيمِ ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: يَعْنِي عَمَّا أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: عَنِ الْإِسْلَامِ وَالسُّنَنِ ، وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: تَخْفِيفُ الشَّرَائِعِ وتيسير القرآن.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّكَاثُرِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الْعَصْرِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَالْعَصْرِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَالدَّهْرِ، قِيلَ: أَقْسَمَ بِهِ لِأَنَّ فِيهِ عِبْرَةً لِلنَّاظِرِ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَرَبِّ الْعَصْرِ، وَكَذَلِكَ فِي أَمْثَالِهِ ، وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: أَرَادَ بِالْعَصْرِ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، يُقَالُ لَهُمَا الْعَصْرَانِ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : العصر مِنْ بَعْدِ زَوَالِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غُرُوبِهَا ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: أَقْسَمَ بِصَلَاةِ الْعَصْرِ وَهِيَ الصَّلَاةُ الْوُسْطَىٰ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : هو أَيْ عَصْرٌ أَقْسَمَ اللهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِمَا فِيهِ مِنَ التَّنْبِيهِ بِتَصَرُّفِ الْأَحْوَالِ وَتَبَدُّلِهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَىٰ الصَّانِعِ .

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أَيْ خُسْرَانٍ وَنُقْصَانٍ، قِيلَ: أَرَادَ بِهِ الْكَافِرَ بِدَلِيلِ أَنَّهُ اسْتَثْنَىٰ المؤمنين، والخسران ذَهَابُ رَأْسِ مَالِ الْإِنْسَانِ فِي هَلَاكِ نَفْسِهِ وَعُمُرِهِ بِالْمَعَاصِي، وَهُمَا أَكْبَرُ رَأْسِ مَالِهِ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ أَيْ أَدَّوُا الْفَرَائِضَ الْمُفْتَرَضَةَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَيْسُوا فِي خُسْرَانٍ ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ أوصىٰ بعضهم بعضـًا، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : ومعنىٰ ﴿وَتَواصَوْا﴾ أَيْ تَحَابَّوْا، أَوْصَىٰ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَحَثَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، ﴿بِالْحَقِّ﴾ بِالْقُرْآنِ قَالَهُ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: بِالْإِيمَانِ

وَالتَّوْحِيدِ، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ عَلَىٰ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ وَإِقَامَةِ أَمْرِ اللهِ ، قَالَ السُّدِّيُّ: الْحَقُّ هُنَا هُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّبْرِ عَنْ مَعَاصِيهِ. وقَالَ إِبْرَاهِيمُ: إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عُمِّرَ فِي الدُّنْيَا وَهَرِمَ، لَفِي نَقْصٍ وَضَعْفٍ وَتَرَاجُعٍ، إِلَّا الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُمْ تُكْتَبُ لَهُمْ أُجُورُهُمُ الَّتِي كَانُوا يَعْمَلُونَهَا فِي حَالِ شَبَابِهِمْ ، وكان الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ يقول: لَوْ تَدَبَّرَ النَّاسُ هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْعَصْرِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الْهُمَزَةِ

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ (ويل) مَعْنَاهُ الْخِزْيُ وَالْعَذَابُ وَالْهَلَكَةُ ، وَقِيلَ: وَادٍ فِي جَهَنَّمَ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمُ الْمَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: الْهُمَزَةُ الَّذِي يَعِيبُكَ فِي الغيب، واللمزة الَّذِي يَعِيبُكَ فِي الْوَجْهِ ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ: الْهَمْزَةُ الَّذِي يَأْكُلُ لُحُومَ النَّاسِ وَيَغْتَابُهُمْ، واللمزة الطَّعَّانُ عَلَيْهِمْ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْهُمَزَةُ الَّذِي يَهْمِزُ النَّاسَ بِيَدِهِ ويضربهم، واللمزة الَّذِي يَلْمِزُهُمْ بِلِسَانِهِ وَيَعِيبُهُمْ ، وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: وَيَهْمِزُ بِلِسَانِهِ وَيَلْمِزُ بعينيه ، وَأَصْلُ الْهَمْزِ: الْكَسْرُ، وَالْعَضُّ عَلَىٰ الشَّيْءِ بِعُنْفٍ، وَمِنْهُ هَمْزُ الْحَرْفِ ، وَيُقَالُ: هَمَزْتُ رَأْسَهُ، وَهَمَزْتُ الْجَوْزَ بِكَفِّي كَسَرْتُهُ. وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ: أَتَهْمِزُونَ (الْفَارَةَ)؟ فَقَالَ: إِنَّمَا تَهْمِزُهَا الْهِرَّةُ ، وَقِيلَ: أَصْلُ الْهَمْزِ وَاللَّمْزِ: الدَّفْعُ وَالضَّرْبُ، لَمَزَهُ يَلْمِزُهُ لَمْزًا: إِذَا ضَرَبَهُ وَدَفَعَهُ. وَكَذَلِكَ هَمَزَهُ: أَيْ دَفَعَهُ وَضَرَبَهُ. ثُمَّ وَصَفَهُ فَقَالَ:

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ أَيْ جَمَعَهُ بَعْضَهُ علىٰ بعض وأحصىٰ عدده ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: اسْتَعَدَّهُ وَادَّخَرَهُ وَجَعَلَهُ عَتَادًا لَهُ، يُقَالُ: أَعْدَدْتُ

الشَّيْءَ وَعَدَّدْتُهُ إِذَا أَمْسَكْتُهُ ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: أَلْهَاهُ مَالُهُ بِالنَّهَارِ، هَذَا إِلَىٰ هَذَا، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ نَامَ كَأَنَّهُ جِيفَةٌ

[٣] قَوْلُهُ تعَالَىٰ : ﴿يَحْسَبُ﴾ أَيْ يَظُنُّ ﴿أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ فِي الدُّنْيَا يَظُنُّ أَنَّهُ لَا يموت مع يساره ، قَالَ عِكْرِمَةُ: أَيْ يَزِيدُ فِي عُمْرِه ، قَالَ السَّعْدِيُّ : فَلِذَلِكَ كَانَ كَدُّهُ وَسَعْيُهُ كُلُّهُ فِي تَنْمِيَةِ مَالِهِ، الَّذِي يَظُنُّ أَنَّهُ يُنَمِّي عُمُرَهُ، وَلَمْ يَدْرِ أَنَّ الْبُخْلَ يَقْصِفُ الْأَعْمَارَ، وَيُخْرِبُ الدِّيَارَ، وَأَنَّ الْبِرَّ يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿كَلَّا﴾ رد عَلَيْهِ أَنْ لَا يُخَلِّدَهُ مَالُهُ، ﴿لَيُنْبَذَنَّ﴾ ليطرحن، وَالنَّبْذُ: الْإِلْقَاءُ وَالطَّرْحُ، وَأَكْثَرُ اسْتِعْمَالِهِ فِي إِلْقَاءِ مَا يُكْرَهُ، كما في قَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ ﴿فِي الْحُطَمَةِ﴾ فِي جَهَنَّمَ، أَيْ لَيُنْبَذَنَّ فِي شَيْءٍ يُحَطِّمُهُ، أَيْ يَكْسِرُهُ وَيَدُقُّهُ ، وَالْحَطْمَةُ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ مِثْلُ سَقَرَ وَلَظَىٰ سُمِّيَتْ حُطَمَةَ لِأَنَّهَا تَحْطِمُ الْعِظَامَ وَتَكْسِرُهَا.

[٥] قَوْلُهُ تعَالَىٰ : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ عَلَىٰ التَّعْظِيمِ لشأنها، والتفخيم لأمرها.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ﴾ أَيْ: الَّتِي أُوقِدَ عَلَيْهَا الْأَحْقَابَ الطَّوِيلَةَ، فَهِيَ غَيْرُ خَامِدَةٍ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْعُصَاةِ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَىٰ الْأَفْئِدَةِ﴾ أي التي بلغ أَلَمُهَا وَوَجَعُهَا إِلَىٰ الْقُلُوبِ، وَالِاطِّلَاعُ والبلوغ التطلع بِمَعْنًىٰ وَاحِدٍ، يُحْكَىٰ عَنِ الْعَرَبِ مَتَىٰ طَلَعْتَ أَرْضَنَا أَيْ بَلَغْتَ، وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: أَنَّهَا تَأْكُلُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْهُ حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ إِلَىٰ

فُؤَادِهِ، قَالَهُ الْقُرَظِيُّ وَالْكَلْبِيُّ ، وقَالَ ثَابِتٌ الْبُنَانِيُّ: تَحْرِقُهُمْ إِلىٰ الأفئدة وهم أحياء .

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ مُطْبَقَةٌ مُغْلَقَةٌ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ يَعْنِي: الْأَبْوَابُ هِيَ الْمُمَدَّدَةُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَدْخَلَهُمْ فِي عَمَدٍ ، فَمُدَّتْ عَلَيْهِمْ بِعِمَادٍ، وَفِي أَعْنَاقِهِمُ السَّلَاسِلُ سُدَّتْ عَلَيْهِمْ بِهَا الْأَبْوَابُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: بَلَغَنَا أَنَّهَا أَعْمِدَةٌ يُعَذَّبُونَ بِهَا فِي النَّارِ، قَالَ مُقَاتِلٌ: أَطْبَقَتِ الْأَبْوَابُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ سُدَّتْ بِأَوْتَادٍ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ نَارٍ حَتَّىٰ يَرْجِعَ عَلَيْهِمْ غَمُّهَا وَحَرُّهَا فَلَا يُفْتَحَ عَلَيْهِمْ بَابٌ وَلَا يُدْخَلَ عَلَيْهِمْ رِيحٌ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْهُمَزَةِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الْفِيلِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: أَمَا رَأَيْتَ مِنْ قُدْرَةِ اللهِ وَعَظِيمِ شَأْنِهِ، وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ، وَأَدِلَّةِ تَوْحِيدِهِ، وَصِدْقِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا فَعَلَهُ اللهُ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ، الَّذِينَ كَادُوا بَيْتَهُ الْحَرَامَ وَأَرَادُوا إِخْرَابَهُ، فَتَجَهَّزُوا لِأَجْلِ ذَلِكَ، وَاسْتَصْحَبُوا مَعَهُمُ الْفِيَلَةَ لِهَدْمِهِ، وَجَاءُوا بِجَمْعٍ لَا قِبَلَ لِلْعَرَبِ بِهِ، مِنَ الْحَبَشَةِ وَالْيَمَنِ، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَىٰ قُرْبِ مَكَّةَ، وَلَمْ يَكُنْ بِالْعَرَبِ مُدَافَعَةٌ، وَخَرَجَ أَهْلُ مَكَّةَ مِنْ مَكَّةَ خَوْفًا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ مِنْهُمْ، أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ أَيْ: مُتَفَرِّقَةً، تَحْمِلُ حِجَارَةً مُحْمَاةً مِنْ سِجِّيلٍ، فَرَمَتْهُمْ بِهَا، وَتَتَبَّعَتْ قَاصِيَهُمْ وَدَانِيَهُمْ، فَخَمَدُوا وَهَمَدُوا، وَصَارُوا كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ، وَكَفَىٰ اللهُ شَرَّهُمْ، وَرَدَّ كَيْدَهُمْ فِي نُحُورِهِمْ، وَقِصَّتُهُمْ مَعْرُوفَةٌ مَشْهُورَةٌ ، وَكَانَتْ تِلْكَ السَّنَةُ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَصَارَتْ مِنْ جُمْلَةِ إِرْهَاصَاتِ دَعْوَتِهِ، وَمُقَدِّمَاتِ رِسَالَتِهِ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ كَيْدَهُمْ يَعْنِي: مَكْرَهُمْ وَسَعْيَهُمْ فِي تَخْرِيبِ الْكَعْبَةِ ، وَقَوْلُهُ: ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ عَمَّا أَرَادُوا، ضَلَّلَ كَيْدَهُمْ حَتَّىٰ لَمْ يَصِلُوا إِلَىٰ الْكَعْبَةِ، وَإِلَىٰ مَا أَرَادُوهُ بِكَيْدِهِمْ ، وقال مُقَاتِلٌ: فِي خَسَارَةٍ وَقِيلَ: فِي بُطْلَانٍ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ كَثِيرَةً مُتَفَرِّقَةً يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: أَبَابِيلُ جَمَاعَاتٌ فِي تَفْرِقَةٍ، يُقَالُ : جَاءَتِ الْخَيْلُ أَبَابِيلَ مِنْ هَا هُنَا وَهَا هُنَا، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْأَبَابِيلُ: الْمُخْتَلِفَةُ، تَأْتِي مِنْ هَا هُنَا، وَتَأْتِي مِنْ هَا هُنَا، أَتَتْهُمْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ .

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ من طين ، قال ابن مَسْعُودٍ صَاحَتِ الطَّيْرُ وَرَمَتْهُمْ بِالْحِجَارَةِ ، فَبَعَثَ اللهُ رِيحًا فَضَرَبَتِ الْحِجَارَةَ ، فَزَادَتْهَا شِدَّةً ، فَمَا وَقَعَ مِنْهَا حَجَرٌ عَلَىٰ رَجُلٍ إِلَّا خَرَجَ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ، وَإِنْ وَقَعَ عَلَىٰ رَأْسِهِ خَرَجَ مِنْ دُبُرِهِ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ كزرع وتين أَكَلَتْهُ الدَّوَابُّ فَرَاثَتْهُ فَيَبِسَ وَتَفَرَّقَتْ أَجْزَاؤُهُ، شَبَّهَ تَقَطُّعَ أَوْصَالِهِمْ بِتَفَرُّقِ أَجْزَاءِ الرَّوْثِ ، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ : وَالْعَصْفُ: وَرَقُ الزَّرْعِ وَهُوَ جَمْعُ عَصْفَةٍ ، وَالْعَصْفُ إِذَا دَخَلَتْهُ الْبَهَائِمُ فَأَكَلَتْهُ دَاسَتْهُ بِأَرْجُلِهَا وَأَكَلَتْ أَطْرَافَهُ وَطَرَحَتْهُ عَلَىٰ الْأَرْضِ بَعْدَ أَنْ كَانَ أَخْضَرَ يَانِعًا ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سِجِّيلٌ بِالْفَارِسِيَّةِ: سَنْكُ وَكِلْ، حَجَرٌ وَطِينٌ فَهِيَ مِنَ النَّوْعِ الشَّدِيدِ الصُّلْبِ قَالَ مُجَاهِدٌ: الْعَصْفُ وَرَقُ الْحِنْطَةِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ

التِّبْنُ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: كَالْحَبِّ إِذَا أُكِلَ فَصَارَ أَجْوَفَ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ الْقِشْرُ الْخَارِجُ الَّذِي يَكُونُ عَلَىٰ حَبِّ الْحِنْطَةِ كَهَيْئَةِ الغلاف له.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفِيلِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ قُرَيْشٍ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ .

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَلِفُوا ذَلِكَ فَلَا يَشُقُّ عَلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ، وَاخْتَلَفُوا فِي الْعِلَّةِ الْجَالِبَةِ لِلَّامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِإِيلَافِ﴾ قَالَ الْكِسَائِيُّ وَالْأَخْفَشُ: هِيَ لَامُ التَّعَجُّبِ، يَقُولُ: اعْجَبُوا لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، وَتَرْكِهِمْ عبادة رب البيت، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: هِيَ مَرْدُودَةٌ إِلَىٰ مَا بَعْدَهَا تَقْدِيرُهُ: فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ لِإِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ. وَقَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: لِنِعْمَتِي عَلَىٰ قُرَيْشٍ، وَاخْتَارَ الطَّبَرِيُّ أَنَّ اللَّامَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ لَامُ التَّعَجُّبِ، وَالتَّقْدِيرُ عِنْدَهُ: اعْجَبُوا لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ وَنِعْمَتِي عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِيلَافِهِمْ﴾ بَدَلٌ مِنَ الْإِيلَافِ الْأَوَّلِ، ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ ﴿رِحْلَةَ﴾ أَيِ ارْتِحَالَهُمْ رحلة الشتاء والصيف، كَانَتْ لَهُمْ رِحْلَتَانِ فِي كُلِّ عَامٍ لِلتِّجَارَةِ إِحْدَاهُمَا فِي الشِّتَاءِ إِلَىٰ الْيَمَنِ لِأَنَّهَا أَدْفَأُ، وَالْأُخْرَىٰ فِي الصَّيْفِ إِلَىٰ الشَّامِ. وَكَانَ الْحَرَمُ وَادِيًا جَدْبًا لَا زَرْعَ فِيهِ وَلَا ضَرْعَ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ

تَعِيشُ بِتِجَارَتِهِمْ وَرِحْلَتِهِمْ، وَكَانَ لَا يَتَعَرَّضُ لَهُمْ أَحَدٌ بِسُوءٍ، كَانُوا يَقُولُونَ: قُرَيْشٌ سُكَّانُ حَرَمِ اللهِ وَوُلَاةُ بَيْتِهِ، فَلَوْلَا الرِّحْلَتَانِ لَمْ يكن لهم مقام بمكة وأمرهم الله بِعِبَادَةِ رَبِّ الْبَيْتِ فَقَالَ:

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ أَيِ الْكَعْبَةِ. أَيْ: فَلْيُوَحِّدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ وَلْيُفْرِدُوهُ بِالْعِبَادَةِ وَالتَّعْظِيمِ، كَمَا جَعَلَ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا وَبَيْتًا مُحَرَّمًا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النَّمْلِ: ٩١] ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا عَرَّفَهُمْ أَنَّهُ رَبُّ هَذَا الْبَيْتِ، لِأَنَّهُ كَانَتْ لَهُمْ أَوْثَانٌ يَعْبُدُونَهَا، فَمَيَّزَ تَعَالَىٰ نَفْسَهُ عَنْهَا، وَهُمْ بِالْبَيْتِ قَدْ تَشَرَّفُوا عَلَىٰ سَائِرِ الْعَرَبِ، فَفِي ذَلِكَ تَنْبِيهٌ لَهُمْ أَنَّ الْعَرَاقَةَ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ ، الَّذِي أُسِّسَ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ لَا بِشَرَفِ الْمَالِ وَالنَّسَبِ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ أَيْ مِنْ بَعْدِ جُوعٍ بِحَمْلِ الْمِيرَةِ إِلَىٰ مَكَّةَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [إبراهيم : ٣٧] ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ بِالْحَرَمِ وَكَوْنِهِمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ حَتَّىٰ لَمْ يَتَعَرَّضْ لَهُمْ فِي رحلتهم ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ - وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًىٰ فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا** » ، وَحِيزَتْ: أَيْ جُمِعَتْ.

سُورَةُ الْمَاعُونِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ فِي الْقَوْلِ الرَّاجِحِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ أَيْ بِالْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ، وَالْمَعْنَىٰ: أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ: أَمُصِيبٌ هُوَ أَمْ مُخْطِئٌ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ يَقْهَرُهُ وَيَدْفَعُهُ عَنْ حَقِّهِ، وَالدَّعُّ: الدَّفْعُ بِالْعُنْفِ وَالْجَفْوَةِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَدْفَعُهُ عَنْ حَقِّهِ ، وقال قَتَادَةُ: يَقْهَرُهُ وَيَظْلِمُهُ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ لَا يَطْعَمُهُ وَلَا يَأْمُرُ بِإِطْعَامِهِ لِأَنَّهُ يُكَذِّبُ بِالْجَزَاءِ.

[٤-٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ لَاهُونَ يَتَغَافَلُونَ عَنْهَا، وَفِي اللَّهْوِ عَنْهَا وَالتَّشَاغُلِ بِغَيْرِهَا، تَضْيِيعُهَا أَحْيَانًا، وَتَضْيِيعُ وَقْتِهَا أُخْرَىٰ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمُ الْمُنَافِقُونَ يَتْرُكُونَ الصَّلَاةَ إِذَا غَابُوا عَنِ النَّاسِ، وَيُصَلُّونَهَا فِي الْعَلَانِيَةِ إِذَا حَضَرُوا. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَمَعْنَىٰ (فِي) أَنَّ السَّهْوَ يَعْتَرِيهِمْ فِيهَا، بِوَسْوَسَةِ شَيْطَانٍ، أَوْ حَدِيثِ نَفْسٍ، وَذَلِكَ لَا يَكَادُ يَخْلُو مِنْهُ مُسْلِمٌ، قال عطاء بن دينار: الحمد لِلَّهِ

الَّذِي قَالَ: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ وَلَمْ يقل (في صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ) فيؤخرونها إلىٰ آخر الوقت، أو لا يؤدونها بأركانها وشروطها عَنِ الْخُشُوعِ فِيهَا وَالتَّدَبُّرِ لِمَعَانِيهَا، فَاللَّفْظُ يَشْمَلُ ذلك كله، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ، حَتَّىٰ إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ قَامَ فَنَقَرَ أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ الله فيها إلا قليلاً**»(١).

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ أَيْ يُرِي النَّاسَ أَنَّهُ يُصَلِّي طَاعَةً وَهُوَ يُصَلِّي تَقْيَةً، كَالْفَاسِقِ، يُرِي أَنَّهُ يُصَلِّي عِبَادَةً وَهُوَ يُصَلِّي لِيُقَالَ: إِنَّهُ يُصَلِّي. وَحَقِيقَةُ الرِّيَاءِ طَلَبُ مَا فِي الدُّنْيَا بِالْعِبَادَةِ، وَأَصْلُهُ طَلَبُ الْمَنْزِلَةِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: سَاهٍ عَنْهَا لَا يُبَالِي صَلَّىٰ أم لم يصل ، قيل: لَا يَرْجُونَ لَهَا ثَوَابًا إِنْ صَلَّوْا وَلَا يَخَافُونَ عِقَابًا إِنْ تَرَكُوا، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: غَافِلُونَ عَنْهَا يَتَهَاوَنُونَ بِهَا. وَقَالَ الْحَسَنُ: هُوَ الَّذِي إِنْ صَلَّاهَا صَلَّاهَا رِيَاءً، وَإِنْ فَاتَتْهُ لَمْ يَنْدَمْ ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: لَا يُصَلُّونَهَا لِمَوَاقِيتِهَا وَلَا يُتِمُّونَ رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا، وَقَدْ أَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ وَابْنُ خُزَيْمَةَ مِنْ حَدِيثِ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ

---

(١) مسلم (٦٢٢).

اللهِ وَمَا شِرْكُ السَّرَائِرِ؟ قَالَ: يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَىٰ مِنْ نَظَرِ الرَّجُلِ إِلَيْهِ، فَذَلِكَ شِرْكُ السَّرَائِرِ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ أَيْ لَا أَحْسَنُوا عِبَادَةَ رَبِّهِمْ، وَلَا أَحْسَنُوا إِلَىٰ خَلْقِهِ، حَتَّىٰ وَلَا بِإِعَارَةِ ما ينتفع به مع بقاء عينه ورجوعهم إِلَيْهِمْ، فَهَؤُلَاءِ لِمَنْعِ الزَّكَاةِ وَأَنْوَاعِ الْقُرُبَاتِ أُولَىٰ وأولىٰ ، رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: هِيَ الزكاة ، وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: الْمَاعُونُ الْفَأْسُ وَالدَّلْوُ وَالْقِدْرُ وَأَشْبَاهُ ذلك ، وقال مُجَاهِدٌ: الْمَاعُونُ الْعَارِيَةُ ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: أَعْلَاهَا الزَّكَاةُ الْمَعْرُوفَةُ، وَأَدْنَاهَا عَارِيَةُ المتاع ، وَقِيلَ: الْمَاعُونُ مَا لَا يَحِلُّ مَنْعُهُ مِثْلُ الْمَاءِ وَالْمِلْحِ وَالنَّارِ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَاعُونِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ .

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ روىٰ مسلم عَنْ أنس بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أظهرنا في المسجد إذا أغفىٰ إغفاءة، ثم رفع مُبْتَسِمًا قُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قال: «لقد أُنْزِلَتْ عليَّ آنِفًا سُورَةٌ» فَقَرَأَ: ﴿بسم اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم * إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، ثُمَّ قَالَ: « **أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟**» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّهُ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَ بَعْدَكَ**»[١].

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ : خَصَّ هَاتَيْنِ الْعِبَادَتَيْنِ بِالذِّكْرِ، لِأَنَّهُمَا مِنْ أَفْضَلِ الْعِبَادَاتِ وَأَجَلِّ الْقُرُبَاتِ، وَلِأَنَّ الصَّلَاةَ

---

(١) مسلم (٤٠٠) .

تَتَضَمَّنُ الْخُضُوعَ فِي الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ لِلَّهِ، وَتَنَقُّلَهَا فِي أَنْوَاعِ الْعُبُودِيَّةِ، وَفِي النَّحْرِ تَقَرُّبٌ إِلَىٰ اللهِ بِأَفْضَلِ مَا عِنْدَ الْعَبْدِ مِنَ النَّحَائِرِ، وَإِخْرَاجٌ لِلْمَالِ الَّذِي جُبِلَتِ النُّفُوسُ عَلَىٰ مَحَبَّتِهِ وَالشُّحِّ بِهِ ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: إِنْ أُنَاسًا كَانُوا يُصَلُّونَ لِغَيْرِ اللهِ وَيَنْحَرُونَ لِغَيْرِ اللهِ، فَأَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُصَلِّيَ وَيَنْحَرَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: فَصَلِّ لِرَبِّكَ صَلَاةَ الْعِيدِ يَوْمَ النَّحْرِ وَانْحَرْ نَسُكَكَ ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ: فَصَلِّ الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَةِ بِجَمْعٍ، وَانْحَرَ الْبُدْنَ بِمِنًىٰ .

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أَيْ إِنَّ مُبْغِضَكَ يَا مُحَمَّدُ، وَمُبْغِضَ مَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ، وَالْبُرْهَانِ السَّاطِعِ وَالنُّورِ الْمُبِينِ ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ هُوَ الْأَقَلُّ الْأَذَلُّ الْمُنْقَطِعُ دَابِرُهُ، قَالَ يزيد بن رومان : كَانَ الْعَاصُ بْنُ وَائِلٍ إِذَا ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: دَعُوهُ فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَبْتَرُ لَا عَقِبَ لَهُ، فَإِذَا هَلَكَ انْقَطَعَ ذِكْرُهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ السُّورَةَ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْكَوْثَرِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الْكَافِرُونَ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ أَيْ: قُلْ لِلْكَافِرِينَ مُعْلِنًا وَمُصَرِّحًا.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أَيْ: تَبَرَّأْ مِمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: هَذِهِ سُورَةُ الْبَرَاءَةِ مِنَ الْعَمَلِ الَّذِي يَعْمَلُهُ الْمُشْرِكُونَ، فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ يَشْمَلُ كُلَّ كَافِرٍ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، وَلَكِنَّ الْمُوَجَّهِينَ بِهَذَا الْخِطَابِ هُمْ (كُفَّارُ قُرَيْشٍ) دَعَوْا رَسُولَ اللهِ إِلَىٰ عِبَادَةِ أَوْثَانِهِمْ سَنَةً، وَيَعْبُدُونَ مَعْبُودَهُ سَنَةً، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ السُّورَةَ وَأَمَرَ رَسُولَهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْ دِينِهِمْ بِالْكُلِّيَّةِ، ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ يَعْنِي مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَتْ قُرَيْشٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نَحْنُ نُعْطِيكَ مِنَ الْمَالِ مَا تَكُونُ بِهِ أَغْنَىٰ رَجُلٍ بِمَكَّةَ، وَنُزَوِّجُكَ مَنْ شِئْتَ، وَنَطَأُ عَقِبَكَ، أَيْ نَمْشِي خَلْفَكَ، وَتَكُفُّ عَنْ شَتْمِ آلِهَتِنَا، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَنَحْنُ نَعْرِضُ عَلَيْكَ خَصْلَةً وَاحِدَةً هِيَ لَنَا وَلَكَ صَلَاحٌ، تعبد آلهتنا اللات والعزىٰ وَنَحْنُ نَعْبُدُ إِلَهَكَ سَنَةً ، فَنَزَلَتِ السُّورَةُ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ وَإِنَّمَا تَعْبُدُونَ الْوَثَنَ الَّذِي اتَّخَذْتُمُوهُ، وَهُوَ عِنْدَكُمُ الْآنَ. وَلا أَنا عابِدٌ مَا عَبَدْتُّمْ أَيْ بِالْأَمْسِ مِنَ الْآلِهَةِ الَّتِي رَفَضْتُمُوهَا، وَأَقْبَلْتُمْ عَلَىٰ هَذِهِ. وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ مَا أَعْبُدُ فَإِنِّي أَعْبُدُ إِلَهِي.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ عَلَىٰ نَفْيِ الْعِبَادَةِ مِنْهُ لِمَا عَبَدُوا فِي الْمَاضِي .

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ فِي الِاسْتِقْبَالِ، وَهَذَا خِطَابٌ لِمَنْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللهِ أَنَّهُمْ لا يؤمنون، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنْ سَرَّكَ أَنْ نَدْخُلَ فِي دِينِكَ عَامًا فَادْخُلْ فِي دِينِنَا عَامًا، فَنَزَلَتْ هذه السورة.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ في الشرك، ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ الإسلام ، أَيْ إِنْ رَضِيتُمْ بِدِينِكُمْ، فَقَدْ رَضِينَا بِدِينِنَا ، وَكَانَ هَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ، فَنُسِخَ بِآيَةِ السَّيْفِ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْكَافِرُونَ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ النَّصْرِ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ دَعَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاطِمَةَ، وَقَالَ: «**إِنَّهُ قَدْ نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي**» ، فَبَكَتْ ثُمَّ ضَحِكَتْ، وَقَالَتْ: أَخْبَرَنِي أَنَّهُ نُعِيَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ، فَبَكَيْتُ، ثُمَّ قَالَ: «**اصْبِرِي فَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لِحَاقًا بِي**»[(1)].

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ يَا مُحَمَّدُ عَلَىٰ مَنْ عَادَاكَ وَهُمْ قُرَيْشٌ، وَالْفَتْحُ فَتْحُ مَكَّةَ ، والنَّصْرُ في اللغة: الْعَوْنُ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: قَدْ نَصَرَ الْغَيْثُ الْأَرْضَ: إِذَا أَعَانَ عَلَىٰ نباتها، من قحطها، روىٰ البخاري، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ: لِمَ يُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا، وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ، فَمَا رأيت أنه دعاني يومئذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي

---

(١) الدارمي (٨٣) .

قَوْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقَالَ بَعْضُهُمْ: أَمَرَنَا أَنْ نَحْمَدَ اللهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نَصَرَنَا وَفتح عَلَيْنَا، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فقَالَ لِي: أَكَذَلِكَ تقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ فقُلْتُ: لَا، فقَالَ: مَا تَقُولُ؟ فَقُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَهُ لَهُ قَالَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ فَذَلِكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ ﴿فسِّبح بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ فقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: لَا أَعْلَمُ منها إلاّ ما تقول(١).

[٢] قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا﴾ زُمَرًا وَأَرْسَالًا الْقَبِيلَةُ بِأَسْرِهَا وَالْقَوْمُ بِأَجْمَعِهِمْ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: لَمَّا فَتَحَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَكَّةَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ، قَالَتِ الْعَرَبُ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ: إِذَا ظَفِرَ مُحَمَّدٌ بِأَهْلِ الْحَرَمِ، وَقَدْ كَانَ اللهُ أَجَارَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْفِيلِ، فَلَيْسَ لَكُمْ بِهِ يَدَانِ، فَكَانُوا يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا بَعْدَ أَنْ كَانُوا يَدْخُلُونَ وَاحِدًا وَاحِدًا، وَاثْنَيْنِ اثْنَيْنِ.

[٣] قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ أَيْ إِذَا صَلَّيْتَ فَأَكْثِرْ مِنْ ذَلِكَ ، وَقِيلَ: مَعْنَىٰ سَبِّحْ: صَلِّ، فإنك حينئذ لاحق به، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ عَلِمَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ نُعِيَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِحَمْدِ رَبِّكَ أَيْ حَامِدًا لَهُ عَلَىٰ مَا آتَاكَ مِنَ الظَّفَرِ وَالْفَتْحِ

---

(١) البخاري (٤٩٧٠) .

، وَاسْتَغْفِرْهُ أَيْ سَلِ اللهَ الْغُفْرَانَ ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: أُعْلِمَ أَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُ فَأُمِرَ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّوْبَةِ لِيُخْتَمَ لَهُ بِالزِّيَادَةِ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَا صَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةً بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ إِلَّا يَقُولُ: « **سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي** »(١) ، قَالَ قَتَادَةُ: عَاشَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ نُزُولِ هَذِهِ السورة سبعين يوما.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّصْرِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكرمِهِ

(١) البخاري (٤٩٦٧) ومسلم (٤٨٤) .

سُورَةُ الْمَسَدِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالْإِجْمَاعِ .

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿تَبَّتْ﴾ أَيْ خَابَتْ وَخَسِرَتْ ﴿يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أَيْ هُوَ، أَخْبَرَ عَنْ يَدَيْهِ وَالْمُرَادُ بِهِ نَفْسُهُ عَلَىٰ عَادَةِ الْعَرَبِ فِي التَّعْبِيرِ بِبَعْضِ الشَّيْءِ عَنْ كُلِّهِ ، وَقِيلَ : الْيَدُ صِلَةٌ، كَمَا يُقَالُ : يَدُ الدَّهْرِ وَيَدُ الرزايا والبلايا، وقيل: المراد به مَالُهُ وَمُلْكُهُ، يُقَالُ: فَلَانٌ قَلِيلُ ذَاتِ الْيَدِ، يَعْنُونَ بِهِ الْمَالَ والثياب والخسار وَالْهَلَاكُ ، وَأَبُو لَهَبٍ هُوَ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمُّ النَّبِيِّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَاسْمُهُ عَبْدُ العزىٰ وَكَانَ كَثِيرَ الْأَذِيَّةِ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والبغض له، والتنقص له ولدينه، قَالَ ربيعة بن عباد - وَكَانَ جَاهِلِيًّا فَأَسْلَمَ - : رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فِي سُوقِ ذِي الْمَجَازِ وَهُوَ يَقُولُ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**» ، وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ

وَضِيءُ الْوَجْهِ، أَحْوَلُ ذُو غَدِيرَتَيْنِ، يَقُولُ: إِنَّهُ صَابِئٌ كَاذِبٌ، يَتْبَعُهُ حَيْثُ ذَهَبَ، فَسَأَلْتُ عنه، فقالوا: هذا عمه أبو لهب[1].

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، قَالَ الْفَرَّاءُ: الْأَوَّلُ دُعَاءٌ، وَالثَّانِي خَبَرٌ، كَمَا يُقَالُ: أَهْلَكَهُ اللهُ، وَقَدْ فَعَلَ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ﴾ أَيْ مَا يُغْنِي، وَقِيلَ: أَيُّ شيء عَنْهُ مَالُهُ، أَيْ مَا يَدْفَعُ عَنْهُ عَذَابَ اللهِ مَا جَمَعَ مِنَ الْمَالِ؟ وَكَانَ صَاحِبُ مَوَاشٍ ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ أَيْ لَمْ يَدْفَعْ عَنْهُ مَا جَمَعَ مِنَ الْمَالِ، وَلَا مَا كَسَبَ مِنَ الْأَرْبَاحِ وَالْجَاهِ وَالْوَلَدِ، مَا حَلَّ بِهِ مِنَ التَّبَابِ، وَمَا نَزَلَ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ. ثُمَّ وَعَدَهُ بِالنَّارِ فَقَالَ:

[٣]: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أَيْ نَارًا تَلْتَهِبُ عَلَيْهِ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَامْرَأَتُهُ﴾ أُمُّ جَمِيلٍ بِنْتُ حَرْبِ بْنِ أمية أُخْتُ أَبِي سُفْيَانَ ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ قال الضَّحَّاكُ: كَانَتْ تَحْمِلُ الشَّوْكَ وَالْعَضَاةَ فَتَطْرَحُهُ فِي طَرِيقِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَصْحَابِهُ لِتَعْقِرَهُمْ،

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِي جِيدِهَا﴾ فِي عُنُقِهَا، وَجَمْعُهُ أَجْيَادٌ، ﴿حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ الْجِيدُ: الْعُنُقُ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: ﴿فِي جِيدِهَا﴾ قَالَ: فِي رَقَبَتِهَا، وَالْمَسَدُ: اللِّيفُ، وَقَالَ الرَّازِيُّ: الْمَسَدُ أَيْضًا حَبْلٌ مِنْ لِيفٍ أَوْ خُوصٍ وَقَدْ يَكُونُ مِنْ جُلُودِ الْإِبِلِ أَوْ أَوْبَارِهَا، وَ(مَسَدَ) الْحَبْلَ أَجَادَ فَتْلَهُ، وَرَوَىٰ عن مُجَاهِدٍ: مِنْ مَسَدٍ أَيْ

---

(١) أحمد (١٦٠٢٣).

مِنْ حديد. قال الأعمش فلمَّا سَمِعَتِ أم جميل مَا نَزَلَ فِي زَوْجِهَا وَفِيهَا مِنَ الْقُرْآنِ، أَتَتْ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ الْكَعْبَةِ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَفِي يَدِهَا فِهْرٌ «حجر بكبر الكف» مِنْ حِجَارَةٍ، فَلَمَّا وَقَفَتْ عَلَيْهِ أَخَذَ اللهُ بَصَرَهَا عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا تَرَىٰ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ. فَقَالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنَّ صَاحِبَكَ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ يَهْجُونِي، وَاللهِ لَوْ وَجَدْتُهُ لَضَرَبْتُ بِهَذَا الْفِهْرِ فَاهُ، ثُمَّ انْصَرَفَتْ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمَا تَرَاهَا رَأَتْكَ؟ قَالَ: « **مَا رَأَتْنِي، لَقَدْ أَخَذَ اللهُ بَصَرَهَا عَنِّي** »[١].

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَسَدِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

(١) الحاكم (٣٩٧١).

سُورَةُ الْإِخْلَاصِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ **تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ،** وَ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ **تَعْدِلُ رُبُعَ الْقُرْآنِ**» .

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ يعني الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ فَأَنْزَلَ الله تعالىٰ هَذِهِ السُّورَةَ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ أَيْ وَاحِدٌ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْوَاحِدِ وَالْأَحَدِ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ فَفِيهِ مَعَانٍ جَلِيلَةٌ ذَكَرَهَا الْمُفَسِّرُونَ:

الْأَوَّلُ: السَّيِّدُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي سُؤْدَدِهِ، وَالشَّرِيفُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي شَرَفِهِ، وَالْعَظِيمُ قَدْ كَمُلَ فِي عَظَمَتِهِ، وَالْحَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِلْمِهِ، وَالْعَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عِلْمِهِ، وَالْحَكِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِكْمَتِهِ، وَهُوَ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي أَنْوَاعِ الشَّرَفِ وَالسُّؤْدَدِ، وَهُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ

هَذِهِ صِفَتُهُ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لَهُ، لَيْسَ لَهُ كُفْءٌ وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، سُبْحَانَ اللهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، وَعَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ شَقِيقٍ قَالَ: الصَّمَدُ: هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي قَدِ انْتَهَىٰ سُؤْدَدُهُ

الثَّانِي: الْبَاقِي، قَالَ قَتَادَةُ: هُوَ الْبَاقِي بَعْدَ خَلْقِهِ ، وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: الصَّمَدُ : الدَّائِمُ.

الثَّالِثُ: الْحَيُّ الْقَيُّومُ، قَالَ الْحَسَنُ: الصَّمَدُ: الْحَيُّ الْقَيُّومُ الَّذِي لَا زَوَالَ لَهُ.

الرَّابِعُ: الَّذِي لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ ، قَالَ الشَّعْبِيُّ: الصَّمَدُ: الَّذِي لَا يَأْكُلُ الطَّعَامَ، وَلَا يَشْرَبُ الشَّرَابَ.

الْخَامِسُ: وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: الصَّمَدُ: الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يَلِدُ إِلَّا سَيُورَثُ، وَلَا شَيْءٌ يُولَدُ إِلَّا سَيَمُوتُ، فَأَخْبَرَهُمْ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ أَنَّهُ لَا يُورَثُ وَلَا يَمُوتُ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ أَيْ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَا وَالِدٌ وَلَا صَاحِبَةٌ، لِكَمَالِ غِنَاهُ .

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ يَعْنِي لَا صَاحِبَةَ لَهُ، وَمَعْنَاهُ: الْمِثْلُ أَيْ هُوَ أَحَدٌ، وَقِيلَ: هُوَ عَلَىٰ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ مَجَازُهُ:لم يَكُنْ لَهُ أَحَدٌ كُفُوًا أَيْ مِثْلًا ، قَالَ مُقَاتِلٌ: قَالَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ، وَقَالَتِ اليهود: عزيز ابْنُ اللهِ، وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ: الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ، فَأَكْذَبَهُمُ اللهُ وَنَفَىٰ عن ذاته الولادة والمثل.

سُورَةُ الْفَلَقِ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ، رَوَىٰ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ** :﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ »(١)، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ أَلَا أَدُلُّكَ -أَوْ أَلَا أُخْبِرُكَ- بِأَفْضَلِ مَا يَتَعَوَّذُ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ، قَالَ: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ(٢) .

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ أَيْ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ أَسْتَجِيرُ وَأَسْتَعِيذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ، ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أَرَادَ بِالْفَلَقِ الصُّبْحَ، وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: وَالْفَلَقُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: فَلَقُ الصُّبْحِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: هُوَ أَبْيَنُ مِنْ فَلَقِ الصُّبْحِ، وَمِنْ فَرَقِ الصُّبْحِ ، وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ: وَالصَّوَابُ

(١) مسلم (٨١٤) .

(٢) أحمد (١٧٣١٣) .

الْقَوْلُ الْأَوَّلُ إِنَّهُ فَلَقُ الصُّبْحِ وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، وَهُوَ اخْتِيَارُ الْبُخَارِيِّ فِي صَحِيحِهِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أُمِرَ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِاللهِ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ فِي هَذَا الْكَوْنِ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: جَهَنَّمُ وَإِبْلِيسُ وَذُرِّيَّتُهُ مِمَّا خَلَقَ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ الْمُرَادُ بِهِ الْقَمَرُ إِذَا خَسَفَ وَاسْوَدَّ: وَقَبَ أَيْ دَخَلَ فِي الخسوف أو أخذ فِي الْغَيْبُوبَةِ وَأَظْلَمَ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْغَاسِقُ اللَّيْلُ إِذَا أَقْبَلَ بِظُلْمَتِهِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَدَخَلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ وأظلم، والغسق الظُّلْمَةُ، يُقَالُ غَسَقَ اللَّيْلُ وَأَغْسَقَ إِذَا أَظْلَمَ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَمُجَاهِدٍ، يَعْنِي: اللَّيْلَ إِذَا أَقْبَلَ ودخل، والوقوب: الدُّخُولُ، وَهُوَ دُخُولُ اللَّيْلِ بِغُرُوبِ الشَّمْسِ قَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي ظُلْمَةَ اللَّيْلِ إِذَا دَخَلَ سَوَادُهُ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ. وَقِيلَ: سُمِّيَ اللَّيْلُ غَاسِقًا لِأَنَّهُ أَبْرَدُ مِنَ النَّهَارِ، والغسق البرد.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أَيْ: وَمِنْ شَرِّ السَّوَاحِرِ، اللَّاتِي يَسْتَعِنَّ عَلَىٰ سِحْرِهِنَّ بِالنَّفْثِ فِي الْعُقَدِ، الَّتِي يَعْقِدْنَهَا عَلَىٰ السِّحْرِ، يَعْنِي الْيَهُودَ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَحْسُدُونَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ مُجَاهِدٌ وعكرمة: يَعْنِي السَّوَاحِرَ، قَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا رَقَيْنَ وَنَفَثْنَ في العقد، وفي الحديث: « أن جبريل جَاءَ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ اشْتَكَيْتَ يَا مُحَمَّدُ؟ فَقَالَ: «**نَعَمْ**»، فَقَالَ: بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ دَاءٍ يُؤْذِيكَ، وَمِنْ كُلِّ شَرِّ حَاسِدٍ وَعَيْنٍ،

اللهُ يَشْفِيكَ»[1] ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : وَلَعَلَّ هَذَا كَانَ من شكواه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ سُحِرَ، ثُمَّ عَافَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ وَشَفَاهُ، وَرَدَّ كَيْدَ السَّحَرَةِ الْحُسَّادِ مِنَ الْيَهُودِ فِي رؤوسهم وجعل تدميرهم في تدبيرهم.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: مِنْ شَرِّ عَيْنِهِ وَنَفْسِهِ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هُمُ الْيَهُودُ لَمْ يَمْنَعْهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ إِلَّا حَسَدُهُمْ ، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَالْحَاسِدُ، هُوَ الَّذِي يُحِبُّ زَوَالَ النِّعْمَةِ عَنِ الْمَحْسُودِ فَيَسْعَىٰ فِي زَوَالِهَا بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَسْبَابِ، فَاحْتِيجَ إِلَىٰ الِاسْتِعَاذَةِ بِاللهِ مِنْ شَرِّهِ، وَإِبْطَالِ كَيْدِهِ، وَيَدْخُلُ فِي الْحَاسِدِ الْعَاينُ، لِأَنَّهُ لَا تَصْدُرُ الْعَيْنُ إِلَّا مِنْ حَاسِدٍ شِرِّيرِ الطَّبْعِ، خَبِيثِ النَّفْسِ، فَهَذِهِ السُّورَةُ، تَضَمَّنَتِ الِاسْتِعَاذَةَ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الشُّرُورِ، عُمُومًا وَخُصُوصًا. وَدَلَّتْ عَلَىٰ أَنَّ السِّحْرَ لَهُ حَقِيقَةٌ يُخْشَىٰ مِنْ ضَرَرِهِ، وَيُسْتَعَاذُ بِاللهِ مِنْهُ وَمِنْ أَهْلِهِ، رَوَىٰ ابْنُ مَاجَه بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **اسْتَعِيذُوا بِاللهِ تَعَالَىٰ مِنَ الْعَيْنِ، فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ**»[2].

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَلَقِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

---

(١) مسلم (٢١٨٦) .

(٢) ابن ماجه (٣٥٠٨) .

سُورَةُ النَّاسِ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ.

[١-٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَهِ النَّاسِ﴾ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: هَذِهِ ثَلَاثُ صِفَاتٍ مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ: (الرُّبُوبِيَّةُ) وَ (الْمُلْكُ) وَ(الْإِلَهِيَّةُ)، فَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَإِلَهُهُ، فَجَمِيعُ الْأَشْيَاءِ مَخْلُوقَةٌ لَهُ مَمْلُوكَةٌ، فَأُمِرَ الْمُسْتَعِيذُ أَنْ يَتَعَوَّذَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ يَعْنِي الشَّيْطَانَ وَهُوَ الشَّيْطَانُ الْمُوَكَّلُ بِالْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا وَلَهُ قَرِينٌ يُزَيِّنُ لَهُ الْفَوَاحِشَ، وَلَا يَأْلُوهُ جُهْدًا فِي الْخَبَالِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ :«**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينَةٌ**» قَالُوا: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير**»(١)، قَالَ الزَّجَّاجُ: يَعْنِي الشَّيْطَانَ ذَا الْوَسْوَاسِ، الْخَنَّاسِ الرَّجَّاعِ، وَهُوَ الشَّيْطَانُ جَاثِمٌ عَلَىٰ قَلْبِ

---

(١) مسلم (٢٨١٤) .

الْإِنْسَانِ، فَإِذَا ذُكِرَ اللهُ خَنَسَ وَإِذَا غُفِلَ وسوس، قال: الْخَنَّاسُ لَهُ خُرْطُومٌ كَخُرْطُومِ الْكَلْبِ فِي صَدْرِ الْإِنْسَانِ فَإِذَا ذَكَرَ الْعَبْدُ رَبَّهُ خَنَسَ ، فَذَلِكَ .

[٥] : ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ بِالْكَلَامِ الْخَفِيِّ الَّذِي يَصِلُ مَفْهُومُهُ إِلَىٰ الْقَلْبِ مِنْ غَيْرِ سماع.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ تَفْسِيرٌ لِلَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنْ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، يَعْنِي يَدْخُلُ فِي الْجِنِّيِّ كَمَا يَدْخُلُ فِي الْإِنْسِيِّ، وَيُوَسْوِسُ الْجِنِّيُّ كَمَا يُوَسْوِسُ الْإِنْسِيُّ ، قَالَهُ الْكَلْبِيُّ، وَقَوْلُهُ: فِي صُدُورِ النَّاسِ أَرَادَ بِالنَّاسِ مَا ذَكَرَ مِنْ بَعْدُ وَهُوَ الْجِنَّةُ وَالنَّاسُ، فَسَمَّىٰ الْجِنَّ نَاسًا كَمَا سَمَّاهُمْ رِجَالًا، فَقَالَ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الجن : ٦].

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ.

اللَّهُمَّ يَا من ذلت جَمِيعُ الرِّقَابِ وَجَرَتْ بِأَمْرِهِ عَزَالِي السَّحَابِ ، احْفَظْنَا فِي الْحَالِ وَالْمَآبِ ، وَأَلْهِمْنَا التَّزَوُّدَ قَبْلَ حُلُولِ التُّرَابِ ، وَارْزُقْنَا الاعْتِبَارَ بِسَالِفِي الأَتْرَابِ ، وَأَرْشِدْنَا عِنْدَ السُّؤَالِ إِلَىٰ صَحِيحِ الْجَوَابِ ، وَهَبْ لِشَيْبِنَا مَعَاصِيَ الشباب ، وارزقني والسامعين عِمَارَةَ الْقُلُوبِ الْخَرَابِ ، بِرَحْمَتِكَ يَا كَرِيمُ يَا وهاب.

وَبِهَا نكُونُ قَدْ أَتْمَمْنَا تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَقد انْتَهَيْنَا مِنْ إِتْمَامِ هَذَا التَّفْسِيرِ الْمُبَارَكِ فِي التَّاسِعِ رَمَضَانَ ١٤٤٥ هـ (الثالث من شهر آذار ٢٠٢٤م) .

وَصَلِّ اللهُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الفهرست